نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الأول

تحقيق

الدكتور مفيد قميحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رافِع السَّماءِ وفاتِقِ رَتْقِها[1]، ومُنشىء السَّحاب ومُوكِفِ وَدْقِها[2]؛ ومُجري الأفلاك ومُدبِّرِها، ومُطْلِع النَّيِّرات ومُكَوِّرها، ومُرْسِلِ الرياح ومُسخِّرِها؛ ومُزَيِّن سماء الدنيا بزينة الكواكب، وحافِظها عند استراق السّمع بإرسال الشُّهُب الثواقب[3]، وهادي الساري بمطالع نجومها في ظُلَم الغياهب؛ وجاعِل الليلِ سَكَنًا ولباسًا، ومُبَدِّلِ وحشة ظَلْمائه بفَلَق الإصباح إيناسًا؛ ومَاحِي آيته بآية النهار المُبْصِرَة، ومُذهِب دُجُنَّته[4] بإشراق شمسه النَّيِّرة؛ وباسطِ الأرضِ فِراشًا ومِهادًا، ومُرسِي الجبالِ وجاعِلِها أوتادًا؛ ومُفجِّرِ العيونِ من جوانبها وخلالها، ومُضْحِك ثغورِ الأزهار ببكاء عيون الأمطار وانهمالها؛ ومُكَرِّم بنِي آدمَ بتفضيلهم على كثير من خَلْقه، ومُذَلِّلِ الأرض لهم ليمشُوا في مناكبها وليأْكلوا من رزقه؛ وحامِلِهم على ظهر اليمّ في بطون الجواري[5] المُنْشآت، ومُعَوِّضِهم عن أعواد السُّفُن غواربَ[6] اليَعْمَلات[7]. خلق كلّ دابَّة من ماء وأودعها من خفيّ حِكَمِهِ ما أودع، وباين بين أشكالهم ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور: الآية ٤٥]. وهدى الطير إلى ما اتخذتْهُ من الأوكار واتُّخِذَ لها من المباني، وجعلها من رسائل المنايا ووسائل الأماني.

أحمده على نِعَمه التي كم أَوْلَتْ من مِنَّة؛ ومِنَنِه التي كم والَت من نِعْمة، وأشكره على ألطافه التي كم كشفت من غُمَّة، وأزالت من نِقْمَة.

وأشهد أن لا إلـه إلّا الله وحدَه لا شريك له، شَهادةَ عبدٍ نطق بها لسانُه وقلبُه، وأَنِسَ بها ضميره ولُبُّه.

---

(١) رتقها يقال رتق الثوب أو الخرق أو الفتق: أصلحه وضمّ بعضه إلى بعض.
(٢) الودْق: المطر شديده وهيّنه.
(٣) الثواقب: جمع ثاقب، وهو النجم المضيء.
(٤) دجنته: ظلمته وسواده.
(٥) الجواري: جمع جارية وهي السفينة التي تجري على ظهر الماء.
(٦) الغوارب: جمع غارب، ويعني به ظهور الدواب، والغارب: أعلى كلّ شيء.
(٧) اليعملات: جمع يعملة، وهي الناقة النجيبة المطبوعة.

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، الذي جُعلت له الأرضُ مسجدًا وترابُها طَهُورًا، وأُنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾ [الأحزاب: الآيتان ٤٥، ٤٦]. صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله الذين رَقُوا بنسبهم إليه أعلى المراتب، وتسنَّموا من ذِرْوَة الشرف والثّناء كاهلَ الكواكب، وعلى أصحابه الذين اتَّطدت(١) بهم قواعد الشريعة وعلا منارُها، وهُدِمت معاقلُ الكفر وعَفَتْ(٢) آثارُها؛ وأنفقوا من قَبْل الفتح وقاتلوا، وجالدوا في دين الله وجادلوا: صلاةً ترفع منار قائلها، وتُرسِل عليه سحائب المغفرة بوابلها(٣)!

وبعد، فمِن أوْلى ما تدبّجت به الطروس(٤) والدفاتر، ونطقت به ألسنة الأقلام عن أفواه المحابر؛ وأصدرته ذوو الأذهان السليمة، وانتسبت إليه ذوو الأنساب الكريمة؛ وجعله الكاتب ذريعةً يتوصَّل بها إلى بلوغ مقاصده، ومَحَجَّةً لا يَضِلُّ سالكها في مصادره وموارده: فنُّ الأدب الذي ما حلّ الكاتب بِواديه، إلّا وعَمَرت بَواديه؛ ولا وَرَدَ مشارعه(٥)، إلّا واستعذَبَ شرائعه(٦)؛ ولا نَزَلَ بساحته إلّا واتّسعت له رِحابها، ولا تأمّل مشكلاته إلّا وتبيّنت له أسبابها.

وكنتُ ممّن عدل في مباديه، عن الإلمام بناديه؛ وجعل صناعة الكتابة فَنَنَه(٧) الذي يستظلّ بوارفه، وفنَّه الذي جُمِع له فيه بين تليده وطارفه(٨). فعرَفتُ جَلِيَّها، وكشفتُ خَفِيَّها؛ وبسطتُ الخرائد(٩) ونظمتُ منها الارتفاع، وكنتُ فيها كمُوقِد نارٍ على يفَاع. واسترفعتُ القوانين، ووضعتُ الموازين؛ وعانيتُ المُقْتَرَحات، واعتمدتُ على المقايسات(١٠)؛ وفَذْلكتُ(١١) على الأصل وما أُضيف إليه، وحرّرتُ ما بعد الفَذْلَكَة فكان العمل على ما استقرَّت الجملة عليه؛ واستخرجتُ وحصّلت، وجمّلتُ

---

(١) اتّطدت: من وطد الشيء يطده وطدًا وطده: أي أثبته، وقد اتّطد ووطّد له عنده منزلة: مهّدها «اللسان: مادة وطد».

(٢) عفت آثارها: امّحت.

(٣) الوابل: المطر الشديد الضخم القطْر.

(٤) تدبّجت به الطروس: دبّج: كتب وزوّق، والطروس: جمع طرس، وهي الصحيفة.

(٥) المشارع: جمع شريعة، وهي مورد الماء.

(٦) الشّرائع: جمع شريعة، وهي ما شرّعه الله وسَنّه للناس من القوانين والأحكام.

(٧) الفنن: الغصن المستقيم من الشجرة.

(٨) التّليد: المجد القديم، والطارف: المجد الحديث.

(٩) الخرائد: جمع خريدة، وهي اللؤلؤة التي لم تُثقَب، والخريدة: البكر.

(١٠) المقايسات: جمع مقايسة، وهي التقدير، يقال: قايس الشيء بغيره أو إلى غيره: أي قدّره به.

(١١) فذلكت: الفذلكة: مصدر فذلك، وهي خلاصة ما فُصِّل أوّلًا من حسابٍ أو غيره، وفذلك الحساب: فرغ منه وأنهاه.

من عرضه وخصّلت؛ وسُقتُ الحواصل، وأوردتُ المحاسيب وفَذْلكتُ على الواصل؛ وطردتُ ما انساق إلى الباقي والموقوف، ونضَّدْتُ شواهد المصروف؛ وشطبتُ شواهد الارتفاع، وقَرَنْتُ أعمال المبيع بالمبتاع؛ واستوفيتُ أعمال الاعتصار وتوالي الغلّات، وتأمّلتُ سياق الأصناف والآلات؛ ونظرتُ في سياقات العُلوفات[١] والعوامل، وأجبتُ على المُخْرَج والمردود فأعجزتُ المُناظر والمُناضل[٢]؛ وأتقنتُ موادّ هذه الصناعة، وتاجرتُ فيها بأنفس بضاعة.

ثمّ نبذتُها وراء ظهري، وعزمتُ على تركها في سِرِّي دونَ جَهْري؛ وسألتُ الله تعالى الغُنْية عنها، وتضرّعتُ إليه فيما هو خيرٌ منها. ورغِبتُ في صناعة الآداب وتعلّقتُ بأهدابها، وانتظمتُ في سلك أربابها، فرأيتُ غرضي لا يتمُّ بتلقّيها من أفواه الفضلاء شفاهًا، ومَوْرِدي منها لا يصفو ما لم أُجرِّد العزم سفاهًا[٣].

فامتطيتُ جواد المطالعة، وركضتُ في ميدان المراجعة. وحيث ذلّ لي مَرْكَبُها، وصَفَا لي مشرَبها، آثرتُ أن أُجرِّد منها كتابًا أستأْنِسُ به وأرجعُ إليه، وأُعَوِّل فيما يعرِض لي من المهمّات عليه. فاستخرتُ الله سبحانه وتعالى وأثبتُّ منها خمسة فنون حَسَنة الترتيب، بيِّنة التقسيم والتبويب: كلُّ فنّ منها يحتوي على خمسة أقسام.

الفن الأوّل في السماء والآثار العُلويّة، والأرض والمعالم السُّفليّة. ويشتمل على خمسة أقسام:

القسم الأول: في السماء وما فيها. وفيه خمسة أبواب:

الباب الأول: في مبدأ خلق السماء.

الباب الثاني: في هيئتها.

الباب الثالث: في الملائكة.

الباب الرابع: في الكواكب السبعة.

الباب الخامس: في الكواكب الثابتة.

---

(١) العُلوفات: جمع علوفة، وهي الناقة أو الشاة تُعلَف للسِّمَنِ ولا ترسل للرعي، وهي كلّ ما يُعلَف من الدواب.

(٢) المناضِل: من ناضل مناضلة، وهي المباري، يقال: ناضله: أي باراه في رمي السّهام، وناضل عنه: حامَى ودافع.

(٣) سفاهًا: من السّفه: وهو الجهل والخفّة والطيش.

القسم الثاني: في الآثار العُلويّة. وفيه أربعة أبواب:

الباب الأول: في السَّحاب، وسبب حدوثه، وفي الثلج، والبَرَد.

الباب الثاني: في الصواعق، والنَّيَازك، والرعد، والبرق.

الباب الثالث: في أُسْطُقُسّ[1] الهواء.

الباب الرابع: في أُسْطُقُسّ النار، وأسمائها.

القسم الثالث: في الليالي، والأيام، والشهور، والأعوام، والفصول، والمواسم، والأعياد. وفيه أربعة ابواب:

الباب الأول: في الليالي، والأيّام.

الباب الثاني: في الشهور، والأعوام.

الباب الثالث: في الفصول.

الباب الرابع: في المواسم، والأعياد.

القسم الرابع: في الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون. وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول: في مبدأ خلق الأرض.

الباب الثاني: في تفصيل أسماء الأرض.

الباب الثالث: في طول الأرض، ومِساحتها.

الباب الرابع: في الأقاليم السبعة.

الباب الخامس: في الجبال.

الباب السادس: في البحار، والجزائر.

الباب السابع: في الأنهار، والغُدْران، والعيون.

القسم الخامس: في طبائع البلاد، وأخلاق سكّانها، وخصائصها، والمباني القديمة، والمعاقل، والقصور، والمنازل. وفيه خمسة أبواب:

الباب الأول: في طبائع البلاد، وأخلاق سكّانها.

الباب الثاني: في خصائص البلاد.

(١) أسطقس: أي العنصر.

الباب الثالث: في المباني القديمة.

الباب الرابع: فيما وُصِفَتْ به المعاقل.

الباب الخامس: فيما وُصِفَتْ به القصور، والمنازل.

الفن الثاني في الإنسان وما يتعلّق به. ويشتمل على خمسة أقسام:

القسم الأول: في اشتقاقه، وتسميته، وتنقّلاته، وطبائعه، ووصف أعضائه، وتشبيهها، والغَزَل، والنّسيب، والمحبة، والعشق، والهوى، والأنساب. وفيه أربعة أبواب:

الباب الأول: في اشتقاقه، وتسميته، وتنقّلاته، وطبائعه.

الباب الثاني: في وصف أعضائه، وتشبيهها، وما وُصِفَ به طِيب الرِّيق، والنَّكْهة، وحُسْن الحديث والنَّغمة، واعتدال القُدُود، ووصف مشْي النساء.

الباب الثالث: في الغَزَل، والنسيب، والهوى، والمحبّة، والعشق.

الباب الرابع: في الأنساب.

القسم الثاني: في الأمثال المشهورة عن النبي ﷺ، وعن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، والمشهور من أمثال العرب، وأوابد[١] العرب، وأخبار الكَهَنة، والزّجر، والفأل، والطِّيرَة، والفِرَاسة، والذّكاء، والكنايات، والتعريض، والأحاجيّ، والألغاز. وفيه خمسة أبواب:

الباب الأول: في الأمثال.

الباب الثاني: في أوابد العرب.

الباب الثالث: في أخبار الكَهَنة، والزّجْر، والفأْل، والطِّيرَة، والفِرَاسة، والذَّكَاء.

الباب الرابع: في الكنايات، والتعريض.

الباب الخامس: في الأحاجيّ، والألغاز.

القسم الثالث: في المدح، والهجْو، والمُجُون، والفُكاهات، والمُلَح، والخمر، والمعاقرة، والنُّدمان، والقِيَان، ووصف آلات الطرب. وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول: في المدح. وفيه ثلاثة عشر فصلاً وهي:

(١) الأوابد: جمع آبدة وهي هنا القافية الشاردة من أشعار العرب.

حقيقة المدح، وما قيل فيه. ما قيل في الجُود، والكرم، وأخبار الكرام. ما قيل في الإعطاء قبل السؤال. ما قيل في الشجاعة، والصبر، والإقدام. ما قيل في وُفور العقل. ما قيل في الصدق. ما قيل في الوفاء، والمحافظة. ما قيل في التواضع. ما قيل في القناعة، والنزاهة. ما قيل في الشكر، والثّناء. ما قيل في الوعد، والإنجاز. ما قيل في الشفاعة. ما قيل في الاعتذار، والاستعطاف.

الباب الثاني: في الهجاء. وفيه أربعة عشر فصلًا:

ما قيل في الهجاء، ومَن يستحقُّه. ما قيل في الحَسَد. ما قيل في السّعاية والبَغْي. ما قيل في الغِيبة والنميمة. ماقيل في البُخل واللُّؤم، وأخبار البخلاء، واحتجاجهم. ما قيل في التطفُّل، ويتصل به أخبار الأَكَلَة والمؤاكلة. ما قيل في الجُبْن، والفِرار. ما قيل في الحُمق، والجهل. ما قيل في الكَذِب. ما قيل في الغدر، والخيانة. ما قيل في الكِبْر، والعُجْب. ما قيل في الحِرص، والطمع. ما قيل في الوعد، والمَطْل. ما قيل في العِيّ، والحَصَر.

الباب الثالث: في المُجون، والنوادر، والفُكاهات، والمُلَح.

الباب الرابع: في الخمر، وتحريمها، وآفاتها، وجناياتها، وأسمائها. وأخبار مَن تنزّه عنها في الجاهليّة، ومَن حُدّ فيها من الأشراف، ومَن اشتهر بها، ولبس ثوبَ الخَلَاعة بسببها. وما قيل فيها من جيّد الشعر، وما قيل في وصف آلاتها، وآنيتها، وما قيل في مبادرة اللذّات، وما وُصفت به المجالس، وما يجري هذا المجرى.

الباب الخامس: في النُّدمان، والسُّقاة.

الباب السادس: في الغِناء، والسَّماع، وما ورد في ذلك من الحَظْر والإباحة، ومَن سمع الغِناء من الصحابة رِضوان الله عليهم، والتابعين، والأئمة، والعُبَّاد، والزُّهَّاد، ومَنْ غنَّى من الخلفاء، وأبنائهم، والأشراف، والقوّاد، والأكابر، وأخبار المُغنِّين ممّن نقل الغناء من الفارسيّة إلى العربية.

الباب السابع: فيما يَحتاج إليه المُغنّي، ويُضْطَرُّ إلى معرفته، وما قيل في الغِناء، وما وُصفت به القِيَان، وما وُصِفَت به آلات الطرب.

القسم الخامس: في المَلِك، وما يُشتَرط فيه، وما يَحْتاج إليه؛ وما يجب له على الرعيّة، وما يجب للرعيَّة عليه. ويتّصل به ذكر الوزراء، وقادة الجيوش، وأوصاف السلاح، ووُلاة المناصب الدينيّة، والكتّاب، والبُلَغاء. وفيه أربعة عشر بابًا:

الباب الأول: في شروط الإمامة: الشرعيّة، والعُرفيّة.

الباب الثاني: في صفات المَلِك وأخلاقه، وما يفضُل به على غيره. وذكر ما نُقل من أقوال الخلفاء والملوك الدّالّة على عُلُوّ همّتهم، وكرم شيمتهم.

الباب الثالث: فيما يجب للملك على الرعايا من الطاعة، والنصيحة، والتعظيم، والتوقير.

الباب الرابع: في وصايا الملوك.

الباب الخامس: فيما يجب على الملِك للرعايا.

الباب السادس: في حُسن السياسة، وإقامة المملكة. ويتّصل به الحزم، والعزم، وانتهاز الفُرْصة، والحلم، والعفْو، والعقوبة، والانتقام.

الباب السابع: في المَشُورة، وإعمال الرأي، والاستبداد، ومَن يُعتمَد على رأيه، ومَن كَرِه أن يستشير.

الباب الثامن: في حفظ الأسرار، والإذن، والحجاب.

الباب التاسع: في الوزراء، وأصحاب المَلِك.

الباب العاشر: في قادة الجيوش، والجهاد، ومكايد الحروب، ووصف الوقائع، والرباط، وما قيل في أوصاف السلاح.

الباب الحادي عشر: في القضاة، والحكّام.

الباب الثاني عشر: في ولاية المظالم، وهي نيابة دار العدل.

الباب الثالث عشر: في نَظَر الحِسبة، وأحكامها.

الباب الرابع عشر: في ذكر الكتّاب، والبلغاء، والكتابة، وما تفرّع عنها من الوظائف والكتابات، وهي: كتابة الإنشاء، وكتابة الديوان، والتصرُّف، وكتابة الحُكم، والشروط، وكتابة النسخ، وكتابة التعليم.

الفن الثالث في الحيوان الصامت. ويشتمل على خمسة أقسام:

القسم الأوّل: في السِّباع، وما يتصل بها من جنسها. وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في الأسَد، والبَبْر، والنَّمِر.

الباب الثاني: في الفَهْد، والكلب، والذئب، والضَّبُع، والنِّمْس.

الباب الثالث: في السِّنجاب، والثعلب، والدُّبّ، والهرّ، والخنزير.

القسم الثاني: في الوحوش، والظِّباء، وما يتَّصل بها من جنسها. وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل: فيما قيل في الفيل، والكَرْكَدَّنِ، والزَّرافة، والمَهَاة، والإِيَّل.

الباب الثاني: في الحُمُر الوحشيّة، والوَعْل، واللَّمْط.

الباب الثالث: فيما قيل في الظَّبْي، والأرنب، والقرد، والنَّعام.

القسم الثالث: وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل: في الخيْل.

الباب الثاني: في البغال، والحمير.

الباب الثالث: في الإبل، والبقر، والغَنَم.

القسم الرابع: وفيه بابان:

الباب الأول: في ذوات السموم القواتل.

الباب الثاني: فيما هو ليس بقاتل بفعله، من ذوات السموم.

القسم الخامس: وفيه سبعة أبواب: ستَّة منها في الطيْر، وباب في السمك. (وذيَّلتُ عليه بباب ثامن، أوردت فيه ما قيل في آلات صيد البرّ، والبحر).

الباب الأوّل: في سِباع الطير، وهي: العِقْبان، والبوازي، والصقور، والشواهين.

الباب الثاني: في كلاب الطير، وهي: النَّسْر، والرَّخَم، والحِدَأة، والغُراب.

الباب الثالث: في بهائم الطير، وهي: الدُّرَّاج، والحُبَارى، والطاووس، والدِّيك، والدَّجَاج، والإوَزّ، والبطّ، والنُّحَام، والأنيس، والقاوَند، والخُطَّاف، والقِيق، والزُّرْزور، والسُّمَانَى، والهُدْهُد، والعَقْعَق، والعصافير.

الباب الرابع: في بُغَاث الطيْر، وهو: القُمْري، والدُّبْسِيّ، والوَرَشانُ، والفَوَاخِتُ، والشِّفْنِين، والعَبَطْبَط، والنوَّاح، والقَطَاة، واليَمَام، وأصنافه، والبَبَّغاء.

الباب الخامس: في الطيْر الليليّ، وهو: الخُفَّاش، والكَرَوان، والبُوم، والصّدى.

الباب السادس: في الهَمَج، وهو: النمل، والزُّنبور، والعنكبوت، والجراد، ودود القَزّ، والذُّباب، والبَعوض، والبراغيث، والحُرْقُوص.

الباب السابع: في أنواع الأسماك.

الباب الثامن: يشتمل على ذكر شيء مما وُصفت به آلات الصيد في البرّ، والبحر، ووصف رُماة البُندق، وما يجري هذا المجرى.

الفن الرابع في النبات. ويشتمل على خمسة أقسام: (وذيّلتُ على هذا الفن، في القسم الخامس، بشيء من أنواع الطِّيب، والبَخُورات، والغوالي، والنُّدود، والمُستقطَرات، وغير ذلك).

القسم الأول: في أصل النبات، وما تختصُّ به أرضٌ دون أرض. (ويتصل به ذكر الأقوات، والخضْراوات، والبُقولات). وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في أصل النبات، وترتيبه.

الباب الثاني: فيما تختصّ به أرض دون أرض، وما يستأصل شأْفة النبات الشاغل للأرض عن الزراعة.

الباب الثالث: في الأقوات، والخَضراوات، والبقولات.

القسم الثاني: في الأشجار. وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأول: فيما لثمره قشر لا يؤكل.

الباب الثاني: فيما لثمره نوًى لا يؤكل.

الباب الثالث: فيما ليس لثمره قشر ولا نوًى.

القسم الثالث: في الفواكه المشمومة. وفيه بابان:

الباب الأول: فيما يُشَمُّ رَطْبًا، ويُستقطر. ويشتمل على أربعة أنواع: وهي «الوَرْد، والنِّسْرِينُ، والخِلَافُ، والنَّيْلُوفَرُ».

الباب الثاني: فيما يُشَمُّ رَطْبًا، ولا يُستقطَر. ويشتمل على ما قيل في البَنَفْسَجِ، والنرجس، والياسَمين، والآس، والزعفران، والحَبَق.

القسم الرابع: في الرياض، والأزهار. (ويتصل به الصُّموغ، والأَمْنَان، والعصائر). وفيه أربعة أبواب:

الباب الأول: في الرياض، وما وُصفت به نظمًا، ونثرًا.

الباب الثاني: في الأزهار، وما وُصفت به.

الباب الثالث: في الصموغ. وفيه ثمانية وعشرون صِنفًا.

الباب الرابع: في الأمنان.

القسم الخامس: في أصناف الطيب، والبَخُورات، والغوالي، والنُّدود، والمُستقطَرات، والأدهان، والنَّضُوحات، وأدوية الباه، والخواصّ. وفيه أحد عشر بابًا:

الباب الأول: في المسك، وأنواعه.

الباب الثاني: في العنبر، وأنواعه، ومعادنه.

الباب الثالث: في العُود، وأصنافه، وأنواعه، ومعادنه.

الباب الرابع: في الصَّنْدل، وأصنافه، ومعادنه.

الباب الخامس: في السُّنْبُل الهنديّ، وأصنافه، والقَرَنْفُل، وجوهره.

الباب السادس: في القُسْط، وأصنافه.

الباب السابع: في عمل الغَوَالي، والنُّدود.

الباب الثامن: في عمل الرامَك، والسُّكّ من الرامَك والأدهان.

الباب التاسع: في عمل النَّضوحات، والمياه المستقطَرة، وغير المستقطرة.

الباب العاشر: في الأدوية التي تزيد في الباه، وتُلذِّذ الجماع، وما يتصل بذلك.

الباب الحادي عشر: فيما يفعل بالخاصِّيَّة.

الفن الخامس في التاريخ، ويشتمل على خمسة أقسام:

القسم الأوّل: في مبدأ خلق آدم عليه السلام وحوّاء، وأخبارهما، ومَن كان بعد آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرسّ. وفيه ثمانية أبواب:

الباب الأوّل: في مبدأ خلق آدم عليه السلام، وموسى عليه السلام، وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما.

الباب الثاني: في خبر شيث بن آدم عليهما السلام، وأولاده.

الباب الثالث: في أخبار إدريس: النبيّ عليه السلام.

الباب الرابع: في قصة نوح عليه السلام، وخبر الطُّوفان.

الباب الخامس: في قصة هود عليه السلام مع عاد، وهلاكهم بالريح العقيم.

الباب السادس: في قصة صالح عليه السلام مع ثمود، وعَقْرهم الناقة، وهلاكهم.

الباب السابع: في أخبار أصحاب البئر المُعَطَّلة، والقصر المَشِيد، وهلاكهم.

الباب الثامن: في أخبار أصحاب الرّسّ، وما كان من أمرهم.

القسم الثاني: في قصّة إبراهيم، الخليل عليه السلام، وخبره مع نُمْرود، وقصّة لوط، وخبر إسحٰق، ويعقوب، وقصة يوسف، وأيُوب، وذي الكِفْل، وشُعيب عليهم السلام. وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول: في قصّة إبراهيم، الخليل عليه الصلاة والسلام، وأخبار نمرود بن كنعان

الباب الثاني: في خبر لوط عليه السلام مع قومه، وقلب المدائن.

الباب الثالث: في خبر إسحٰق، ويعقوب عليهما السلام.

الباب الرابع: في قصة يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

الباب الخامس: في قصّة أيوب عليه السلام، وابتلائه، وعافيته.

الباب السادس: في خبر ذي الكِفْل بن أيوب عليهما السلام.

الباب السابع: في خبر شُعَيْب عليه السلام، وقصته مع مَدْيَنَ.

القسم الثالث: يشتمل على قصّة موسى بن عِمْران عليه السلام، وخبره مع فِرْعَوْن، وخبر يُوشَع، ومَن بعده، وحِزْقِيلَ، وإلياس، والْيَسَع، وعيلا، وأَشْمَوِيل، وطالوت، وجالوت، وداود، وسليمان بن داود، وشعيا، وأرميا، وخبر بُخْتَ نَصَّرَ، وخراب بيت المقدس، وعمارته، وما يتصل بذلك من خبر عُزَير، وقصّة يُونس بن متّى، وخبر بلوقيا، وزكريا، ويحيىٰ، وعِمران، ومريم، وعيسى عليهم السلام، وقصص الحواريِّين، وما كان من أمرهم فيمن أُرْسِلوا إليه، وخبر جرجيس. وفيه ستة أبواب: (وذيَّلتُ على هذا القسم ذيلًا يشتمل على أربعة أبواب، ذكرتُ فيها ما قيل

في الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض ومدّة إقامته بها، ووفاته، وما يكون بعده، وشيئًا من أخبار الحشر والمعاد).

الباب الأوّل: في قصّة موسى بن عِمْران، وهارون، وغرق فِرْعَون، وأخبار بني إسرائيل، وأخبار قارون، وخبر بلعم بن باعوراء، والجبّارين، وغير ذلك.

الباب الثاني: فيما كان بعد موسى بن عِمْران عليه السلام من أخبار يُوشَع بن النون، ومَن بعده، وخبر حِزْقِيل، وإلياس، والْيَسَع، وعيلا، وأشمويل، وطالوت، وجالوت، وداود، وسليمان.

الباب الثالث: في أخبار شعيا، وأرميا، وخبر بُخْتَ نَصَّرَ، وخراب بيت المقدس، وعمارته، وما يتّصل بذلك من خبر عُزَير.

الباب الرابع: في قصّة ذي النون يونُس بن متّى عليه السلام، وخبر بلوقيا.

الباب الخامس: في خبر زكريّا، ويحيىٰ، وعِمْران، ومريم ابنته، وعيسى ابن مريم عليهما السلام.

الباب السادس: في أخبار الحواريِّين الذين أرسلهم عيسى عليه السلام، وما كان من أمرهم بعد رفعه، وخبر جرجيس.

التذييل على هذا القسم ـ ويشتمل على أربعة أبواب:

الباب الأول: في ذكر الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى ابن مريم.

الباب الثاني: في خبر نزول عيسى إلى الأرض، وقتل الدجال، وخروج يأجوج، ومأجوج، وهلاكهم، ووفاة عيسى عليه السلام.

الباب الثالث: في ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى ابن مريم إلى النفخة الأُولى.

الباب الرابع: في أخبار يوم القيامة والحشر، والمعاد، والنفخة الثانية في الصُّور.

القسم الرابع: في أخبار ملوك الأصقاع، وملوك الأمم، والطوائف، وخبر سيل العَرِم، ووقائع العرب في الجاهلية. وفيه خمسة أبواب:

الباب الأول: في أخبار ذي القرنين، المذكور في سورة الكهف.

الباب الثاني: في أخبار ملوك الأصقاع، وهم: ملوك مصر، والهند، والصين، وجبل الفتح.

الباب الثالث: في أخبار ملوك الأمم من الأعاجم، وهم: ملوك الفُرْس الأُول، وملوك الطوائف منهم، والملوك الساسانيّة، وملوك اليونان والسريان، والكلدانيين، والصقالبة، والبوكبرد، والإفْرِنْجة، والجَلَالقة، وطوائف السودان.

الباب الرابع: في أخبار ملوك العرب. (ويتّصل به خبر سَيْل العَرِم).

الباب الخامس: في أيّام العرب، ووقائعها في الجاهليّة.

القسم الخامس: في أخبار الملّة الإسلاميّة، وذكر شيء من سيرة نبيِّنا محمد ﷺ، وأخبار الخلفاء من بعده رضي الله عنهم، وأخبار الدولة الأُمَويّة، والعباسيّة، والعلويّة، ودول ملوك الإسلام، وأخبارهم، وما فتح الله سبحانه وتعالى عليهم ـ على ما سنبيّن ذلك ـ إن شاء الله تعالى. وفيه اثنا عشر بابًا:

الباب الأول: في سيرة سيّدنا رسول الله ﷺ.

الباب الثاني: في أخبار الخلفاء من بعده: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وابنه الحَسَن رضي الله عنهم أجمعين.

الباب الثالث: في أخبار الدولة الأُمَوِيّة بالشام وغيره.

الباب الرابع: في أخبار الدولة العباسيّة بالعراق، ومصر.

الباب الخامس: في أخبار الدولة الأُمَوِيَّة بالأندلس، وأخبار الأندلس بعد انقراض الدولة الأموية.

الباب السادس: في أخبار إفريقية، وبلاد المغرب، ومَن وَلِيَها من العُمَّال، ومَن استقلّ منهم بالمُلك.

الباب السابع: في أخبار مَن نهض في طلب الخلافة من الطالبيّين، في مدّة الدولتين: الأُمَوِيّة، والعباسية، فقُتل دونها، بعد مقتل الحسين بن عليّ رضي الله عنهما.

الباب الثامن: في أخبار صاحب الزنج، والقرامطة، والخوارج بالموصل.

الباب التاسع: في أخبار مَن استقلّ بالمُلك، والممالك، بالبلاد الشرقيّة والشماليّة، في خلال الدولة العباسية، وهم: ملوك خُراسان، وما وراء النهر، والجبال، وطَبَرِسْتَان، وغَزْنَة، والغَوْر، وبلاد السند، والهند: كالدولة السامانيّة، والصَّفّاريّة، والغزنويّة، والغُوريّة، والدَّيْلميّة الختليّة.

الباب العاشر: في أخبار ملوك العراق، وما والاه، وملوك المَوْصل، والديار الجَزيريّة، والبكريّة، والبلاد الشاميّة، والحَلَبيّة: كالدولة الحَمْدانيّة، والدَّيلميّة البُوَيهيّة، والسُّلْجُقيّة، والأتابكيّة.

الباب الحادي عشر: في أخبار الدولة الخُوَارَزْميّة، والجنكزخانيّة، وهي دولة التتار، وما تفرّع منها.

الباب الثاني عشر: في أخبار ملوك الديار المصريّة الذين ملكوا في خلال الدولة العباسيّة، نيابةً عن خلفائها، وهم: الملوك العُبَيْدِيُّون الذين انتسبوا إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وما كان من أمرهم، وما ملكوه من بلاد المغرب، وكيف استولَوْا على الديار المصريّة، والبلاد الشاميّة، والحَلَبيّة، والثغور، والسواحل، وغير ذلك إلى أن انقرضت دولتهم، وقيام الدولة الأيُّوبيّة، وأخبار ملوكها بمصر، والشام إلى حين انقراضها، وقيام دولة الترك، ومَن مَلَكَ منهم من أبنائهم، وما حازوه من الأقاليم، وما فتحوه من الممالك، وغير ذلك من أخبارهم، وما استقرّ في ملك مُلوك هذه الدولة إلى حين وضعنا لهذا التأليف في سنة . . . وسبعمائة (في أيّام مولانا السلطان السيد الأجلّ المالك الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، أبي الفتح محمد بن السلطان الشهيد، الملك المنصور، سيف الدنيا والدين، أبي المظفر قلاوون، الصالحيّ. خلّد الله مُلكه على ممرّ الزمان، وسقى عهد والده صَوْب الرَّحمة والرِّضوان، ببركة سيد ولد عدنان!).

هذا مجموعُ ما يشتمل عليه هذا الكتاب، من فنون وأقسام وذيول وأبواب. ثم ينطوي كل باب منها على فصول وأخبار، ويحتوي على وقائع وآثار.

ولمّا انتهت أبوابه وفصوله، وانحصرت جملته وتفصيله، ترجمتُه: بنهاية الأَرَب في فنون الأدب؛ وأتيتُ فيه بالمقصود والغرض، وأثبتُّ الجوهر[1] ونفيتُ العَرَض[2]، وطوّقتُه بقلائد من مقولي، ورصّعتُه بفرائد من منقولي. فكلامي فيه كالسارية[3] تلتها السحائب، أو السّرِيّة[4] رَدِفَتْها الكتائب[5]. فما هو إلّا مترجِمٌ عن فنونه، وحاجب لعيونه.

---

(١) الجوهر: من الشيء: ما خلقت عليه طبيعته، وهو في الفلسفة: القائم بنفسه.
(٢) العَرَض: الزائل الذي لا يدوم، وهو من كلّ شيء: ما ليس جوهرًا ثابتًا.
(٣) السّارية: السّحابة التي تأتي ليلًا. (٤) السّريّة: القطعة من الجيش.
(٥) الكتائب: جمع كتيبة، وهي القطعة من الجيش، وهي أكبر من السّريّة.

وما أوردتُ فيه إلّا ما غلب على ظنّي أنّ النفوس تميل إليه، وأن الخواطر تشتمل عليه. ولو علمتُ أنّ فيه خطأ لقبضتُ بناني[١]، وغضضتُ طَرْفِي[٢]، ولو خَبَرتُ طريق المعترض لعطفتُ عِناني[٣]، وثنيتُ عِطفي[٤]. لكنِّي تبعتُ فيه آثار الفضلاء قَبْلي، وسلكتُ منهجهم فوصلتُ بحبالهم حبلي، فإنْ يكن اعتراض، فعلى عُلاهم لا عليَّ العار. وقد علمتُ أنه مَن صنّف كتابًا فقد استهدف، وأصمَّ[٥] الأسماع وإنْ كان لبعضها قد شنّف[٦].

وخليق للواقف عليه أن يسُدّ ما يجد به من خَلَل، وأن يغفر ما يلمح فيه من زَلَل. فأسبِلْ[٧] عليها سِتْرَ معروفك الذي سترتَ به قِدْمًا على عَوَاريّ[٨]. والذي أدّى إليه اجتهادي من تأليفه فقد أصدرتُه، والذي وَقَفَتْ عنده غايتي فقد أوردتُه. قد تبلَّغتُ فيه وُسعي، لكنْ ليس من عثرة[٩] الكِتاب أمان. وبالله سبحانه المُستعان! وعليه أتوكّل، وإليه أتضرّع[١٠] في التيسير وأتوسل؛ ومن فضله أستمدّ الصواب، وباسمه أستفتح الكتاب!.

(١) البنان: أطراف الأصابع، وقبض بنانه: أي أمسك عن الكتابة.
(٢) غضّ الطّرف: أطرق حياءً، وهنا بمعنى: امتنع حياءً.
(٣) عطف عنانه: أي انصرف عن الأمر الذي توجّه إليه، وعطف: انصرف، والعنان: سير اللّجام الذي تمسك به الدّابّة، يريد: أنه لو علم أنّ هناك اعتراضًا من مُعتَرِض، لانصرف عنه.
(٤) ثنى عِطفه: أعرَضَ عنه وجفاه، والعطف من الإنسان: جانبه من جهة رأسه إلى وركيه.
(٥) أصمّ الأسماع: الأصمّ: الذي ثقل سمعه أو ذهب، وأصمّ الأسماع: أثقلها بما لا تحبّ: أو حمّلها ما تشتكي منه.
(٦) شنّف: أطرب الأسماع وأمتعها بالكلام المزيّن.
(٧) أسْبِلْ: فعل أمر من أسبل: أي أسدل وأرخى، يقال: أسبل الستر: أي أسدله وأرخاه.
(٨) عواري: من العُرْي، والعُريان: مَن ليس عليه ثياب، وجمعه: عُراة، وعُريانة: جمعها عوارٍ.
(٩) العثرة: الزّلل والسّقوط.
(١٠) أتضرّع: أبتهل، والضّراعة: الخضوع.

الفن الأول



في السماء والآثار العُلويّة والأرض والمعـــالم السُّـفليّة

وقد أوردتُ في هذا الفن نُبذة[1] من وصف السماء، التي هي قبلة الدّعاء[2]، وباب الرجاء؛ والكواكب السيَّارات[3] ذوات السَّنا والسَّناء[4]، والملائكة الذين هم أُولو أجنحة، مَثنىٰ، وثُلاثَ، ورُباع؛ والسحائب التي تجود بوَبْلها[5] فتعدلُ في قَسْمها بين السّهل واليَفاع[6]؛ والرّعدِ الذي إن وَنَتْ[7] يَحُثُّها؛ والريح الذي إن اجتمعت يبُثُّها[8]؛ والبرق الذي شُبِّه ببنان الحاسب[9] والكفّ الخضيب؛ والثلج الذي خَلَع على الأرض رداء المشيب؛ وقوس السَّحاب الذي تنكَّبهُ[10] الجوُّ فأفرغ عليه مُصَبَّغات الحُلَل، ورمىٰ الجدْب ببنادق[11] البَرَد فتباشرت بالخصب أهل الحِلَل؛ والنِّيران وعُبَّادِها وعَدَدِها، والمياه وأعدادها

(١) النبذة: القطعة من الشيء.
(٢) قبلة الدعاء: يريد أنّ الإنسان حين يدعو الله فإنّه يتوجّه بأنظاره إليها.
(٣) الكواكب السيّارة: التي تدور حول الشمس وتستمدّ منها نورها.
(٤) السنا: الضوء الساطع، والسّناء: العلو والارتفاع.
(٥) الوبل: المطر الشديد الضخم القطر.
(٦) اليفاع: المرتفع من الأرض والجبل والرّمل.
(٧) ونت: ضعفت. (٨) يبثّها: ينشرها ويفرّقها.
(٩) البنان: أطراف الأصابع، والحاسب: الذي يقدّر الأمور ويُحسِن النظر فيها.
(١٠) تنكبّ: اتكأ عليه، وتنكّب القوس: ألقاها على منكبه، والمنكب مجتمع رأس الكتف والعضد.
(١١) البنادق: جمع بندق: وهو رصاص كرويّ الشكل صغير يُستعمل في بعض القذائف للقتال أو للصّيد.

ومَدَدِها؛ والليالي والأيام، والشهور والأعوام؛ والسَّنةِ وفصولِها ومباديها، والأعيادِ والمواسم ومُتَّخِذِيها؛ والأرضِ والجبال، والبراري والرمال؛ والجزائِر والبحار، والعيون والأنهار؛ وطبائِع البلاد، وأخلاقِ مَن سكنها من العبَاد؛ والمباني والمعاقل[١]، والقصور والمنازل.

وجعلتُه خمسة أقسام يُستدلُّ بها عليه، ويُتَوَصَّل من أبوابها إليه.

(١) المعاقل: جمع معقل، وهو الحصن والملجأ.

القسم الأوّل
في السماء وما فيها

وفيه خمسة أبواب:

الباب الأوّل
من القسم الأوّل من الفن الأوّل

١ ـ في مبدأ خلق السماء

قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩﴾ [النازعات: الآيات ٢٧ - ٢٩].

والسماء تُذَكَّر وتُؤَنَّث.

فشاهِد التذكير قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المُزمّل: الآية ١٨]؛ وقول الشاعر: [من الوافر]

فلو رَفَعَ السماءُ إليه قومًا لَحِقْنا بالسماء مع السَّحاب!

وشاهد التأنيث، قوله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ [الانفِطار: الآية ١]؛ وقول الشاعر: [من الرجز]

* يا ربِّ، ربَّ الناس في سماته![1] *

٢ ـ ذكر ما قيل في أسماء السماء وخَلْقِها

قد نطقت العرب للسماء بأسماء.

منها: الجَرْباء. وسُمِّيَتْ بذلك لكثرة النُّجوم بها.

ومنها: الخَلْقاء[2]. لملاستها.

وبرقع[3]. والرَّقيع. ومنه قول رسول الله ﷺ لسعد بن مُعاذ: «لقد حكمتَ فيهم بحُكم الله من فوق سبع أرقعة». أي من فوق سبع سمٰوات.

---

(١) هكذا في الأصول، أي بالتاء المثناة، ولو هُمِزَت وقيل: «في سمائه» لفات الشاهد.
(٢) الخلقاء: يقال ثوب خلق أي أملس. (٣) البرقع: قناع تسترُ به المرأة وجهها.

ومنها: الطرائق[١] قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: الآية ١٧].

والسماء مخلوقة من دُخَان.

٣ ـ حُكِيَ في سبب حدوثه

أنَّ الله تعالى خلق جوهرة، وَصف من طولها وعرضها عظمًا. ثم نظر إليها نظرَ هيبة، فأنماعت[٢]، وعَلاها من شدّة الخوف زَبَدٌ[٣] ودُخَان. فخلق الله من الزّبد الأرضَ، وفتقها سبعًا؛ ومن الدخَان السماءَ، وفتقها سبعًا. ودليله قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فُصّلَت: الآية ١١]. قال: ولما فتق الله تعالى السمٰوات، أوحى في كل سماء أمرها. واختلف المفسِّرون في الأمر، ما هو؟ فقال قوم: خلق فيها جبالًا من بَرَد وبحارًا؛ وقال قوم: جعل في كل سماء كوكبًا، قدّر عليه الطلوع والأُفول، والسير والرجوع. وقال قوم: أسكنها ملائكة سخَّرهم للعالَم السُّفليّ، فوكّل طائفة بالسحاب وطائفة بالريح، وجعل منهم حَفَظَة لبني آدم وكاتِبين لأعمالهم ومُستغفِرين لذنُوبهم.

الباب الثاني

١ ـ في هيئتها

ذهب المفسِّرون لِكتاب الله عزَّ وجلَّ أنَّ السماء مسطوحة، بدليل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغَاشِيَة: الآيات ١٧ - ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلَاق: الآية ١٢].

ويُطلق على مجموعها فَلَكٌ، لقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يَس: الآية ٤٠].

وذهب الحَسَن إلى أنّ الفَلَكَ[٤] غيرُ السمٰوات، وأنّه الحامل بأمر الله تعالى للشمس والقمر والنجوم.

---

(١) الطرائق: السمٰوات، والعرب تسمّي كلّ شيء فوق شيء، طريقة.
(٢) انماعت: أصابها الميعان أي الانصهار والذّوبان.
(٣) الزّبد: ما يعلو الماء من الرّغوة.
(٤) الفلك: مدار النجوم.

قالوا: ولمّا فتق الله تعالى رَتْق السمٰوات(١)، جعل بين كلّ سماء وسماء مسيرةَ خمسمائة عام.

ورُوِيَ عن أبي هُرَيْرة رضي الله عنه، قال: «بينما رسول الله ﷺ جالسٌ هو وأصحابه، إذ أتى عليهم سَحاب. فقال النبيّ ﷺ: «هل تدرون ما هذا»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا العنان(٢)، هذه رَوَايا(٣) الأرض، يسوقها الله تعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدْعونه». ثم قال: «أتدرون ما فوقكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا الرّقيع: سقف محفوظ، وموج مكفوف». ثم قال: «هل تدرون ما بينكم وبينها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينكم وبينها خمسمائة سنة». ثم قال: «هل تدرون ما فوق ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «سماءٌ في بُعد ما بينهما خمسمائة سنة». قال ذلك حتى بلغ سبع سمٰوات، ما بين كل سماءين، ما بين السماء والأرض. ثم قال: «هل تدرون ما فوق ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إنَّ فوق ذلك العرش(٤). وبينه وبين السماء بُعد ما بين السماءين». ثم قال: «هل تدرون ما تحتكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إنَّها الأرض». ثم قال: «أتدرون ما تحت ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إنَّ تحتها أرضًا أخرى، بينهما مسيرة خمسمائة سنة». حتى عدّ سبع أرضين، بين كل أرض وأرض خمسمائة سنة». أخرجه أبو عيسى الترمذي(٥)، في «جامعه».

ويُروَى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ كان جالسًا بالبطحاء(٦)، بين أصحابه، إذ مرَّت عليهم سحابة. فنظروا إليها. فقال رسول الله ﷺ: «هل تدرون ما اسم هذه»؟ قالوا: نعم. هذا السحاب. فقال ﷺ: «والمُزْن»(٧)؟ قالوا: والمُزْن. قال: «والعَنَان»؟ قالوا: والعَنان. فقال: «هل تدرون ما بين السماء

---

(١) رتق السمٰوات: أي أنّ السمٰوات السّبع التي أشار إليها القرآن الكريم كانت متلاحمة ومتصلة، ففتق الله بينها.

(٢) العنان: السّحاب. (٣) روايا الأرض: أي التي ترويها بالماء.

(٤) العرش: سرير المُلك، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤].

(٥) هو محمد بن عيسى الترمذي، من أئمة علماء الحديث وحفّاظه، تتلمذ للبخاري، وكان يُضرَب به المثل في الحفظ، مات بترمذ سنة ٨٩٢ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٣٢٢».

(٦) البطحاء: يريد بطحاء مكة، وهي معروفة لانبطاحها، والبطحاء: مسيلٌ فيه دقاق الحصى، وقيل بطحاء الوادي: ترابٌ ليّن ممّا جرّته السُّيول. «اللسان مادة بطح».

(٧) المُزن: السّحاب ذو الماء.

والأرض»؟ قالوا: لا ندري. قال: «خمسمائة عام. وبينها وبين السماء التي فوقها كذلك». (حتى عدّ سبع سمٰوات). ثم قال: «وفوق السماء السابعة بحرٌ، بين أعلاه وأسفله كما بين سماء إلى سماء» (وفي لفظٍ: كما بين السماء والأرض). «وفوق ذلك ثمانية أوْعال[١]، بين أظلافهم ورُكَبهم[٢] مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ظهورهم العرش، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض.

وجاء في رواية أخرى ذكر الكُرسيّ[٣]، وقال: «ثم ما بين السماء السابعة والكرسيّ مسيرة خمسمائة عام. ثم ما بين الكرسيّ إلى الماء مسيرة خمسائة عام. والعرش فوق الماء». ولم يذكر الأوْعال.

وجاء في رواية أخرى ذكر الكرسيّ، وأنّ السمٰواتِ في ضمنه. وهي بالنسبة إليه كحلْقة مُلقاة في أرض فلاة، والكُرْسيّ بالنسبة إلى العرش كذَرّة[٤] مُلقاة في أرض فلاة فيحاء[٥]. (وفي رواية كحلقة).

ورُوِيَ أن أبا ذرّ رضي الله عنه قال: «يا رسول الله: أيُّ آية أُنزلَت عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسيّ»[٦]. ثم قال: «يا أبا ذرّ! أتدري ما الكرسيّ»؟ قلتُ: لا؛ فعلِّمني يا رسول الله، مما علّمك الله. فقال: «ما السمٰوات والأرض وما فيهنَّ في الكرسيّ، إلّا كحلْقة ألقاها مُلْقٍ في فلاة. وما الكرسيّ في العرش، إلا كحلْقة ألقاها مُلْقٍ في فلاة. وما العرش في الماء، إلا كحلْقة ألقاها مُلْقٍ في فلاة. وما الماء في الريح، إلا كحلْقة ألقاها مُلْقٍ في فلاة. وجميع ذلك في قبضة الله كالحبّة، وأصغر من الحبّة، في كفِّ أحدكم. تعالى الله سبحانه»». رواه أبو حاتم في كتاب العَظَمة.

والقول في هيئة السماء، على مذاهب أصحاب علم الهيئة[٧]، كثير. أغضينا[٨] عنه، لأنه لا يقوم عليه دليل واضح. فلذلك اقتصرنا على ذكر المنقول دون المعقول.

---

(١) الأوعال: مفردها وعل، وهو تيس الجبل، له قرنان قويّان منحنيان كسيفين أحدبين.
(٢) في الترمذي: بين أظلافهنّ وركبهنّ... وظهورهنّ.
(٣) الكرسيّ: وهي العرش، ورد ذكرها في القرآن الكريم: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥].
(٤) الذرّة: أصغر جزء في العنصر البسيط، وقد عُرِفَت عند العرب «بالجوهر الفرد».
(٥) الفيحاء: الواسعة.
(٦) آية الكرسي: سورة البقرة الآية ٢٥٥.
(٧) علم الهيئة: علم الفلك.
(٨) أغضى: تجاوز وأغفل الحديث عن الشيء.

فلْنذكُرْ ما جاء في الأمثال التي فيها ذكر السماء، وما وصفها الشعراء به وشبَّهوها.

٢ ـ أما الأمثـــال

فقولهم: أرفع من السماء، للبالغة.

وقول الشاعر: [من الكامل]

* مَـن ذا رأى أرضًـا بـغـيـر سـمـاء؟*

إنَّ السماء تُرَجَّى حين تَحتجِبُ. [من البسيط]

إنَّ الـسـمـاء، إذا لـم تـبـكِ مُـقـلتُـهـا ... لم تضحكِ الأرضُ عن شيء من الزَّهَرِ[1]

٣ ـ وأما الوصف والتشبيه

فمنه قول عبد الله بن المعتز[2]: [من الوافر]

كَـأنَّ سـمـاءَنـا، لـمّـا تَـجَـلَّتْ ... خِلالَ نُجُومها عِنْدَ الصَّبَاح

ريـاضُ بَـنَـفْـسَـج خَـضِـلٍ، نَـدَاه ... تـفـتَّـح بَـيْـنَـه نَـوْرُ الأقَـاح[3]

وقال آخر: [من الوافر]

كـأنَّ سمَـاءَنـا، والشُّـهْـبُ فـيـهـا ... وأصـغـرُهـا لأكـبـرهـا مُـزاحِـمْ[4]

بِـسـاطُ زُمُـرُّد نُـثِـرَتْ عـلـيـه ... دَنَـانِـيـرٌ تُـخَـالِطُـهـا دَرَاهـمْ[5]

ونحوه قول الآخر: [من الطويل]

كـأنّ سَـمـاءَ الأرض نَطْـعُ زُمُـرُّدٍ ... وقد فُرِشَت فيه الدَّنانِيرُ للصَّرْفِ[6]

---

(١) يريد: إذا لم تمطر السّماء، لا تنبت الأرض الورود والرّياحين، وفي البيت تضادّ واستعارة.

(٢) هو عبد الله بن المعتز، أبو العبّاس، الشاعر، الأمير الخليفة ليوم وليلة، آلت إليه الخلافة، وخلعه غلمان المقتدر، قتل سنة ٩٠٩ م. «فهرس الأعلام ٤/١١٨».

(٣) الخضل: الطّريّ الندي النّاعم، والنّور: الزهر، والأقاح: هو الأقحوان، نبات له زهرة صفراء صغيرة في الوسط تحيط بها أوراق من الزّهر الأبيض، يشبّه بها الشعراء الأسنان.

(٤) الشّهب: النجوم المضيئة.

(٥) الزمرّد: حجر كريم شديد الخضرة، والدّينار: قطعة من النّقد، ذهبيّة تعامَل بها العرب قديمًا، والدّرهم: قطعة من النقد فضّيّة، والدّرهم والدّينار الآن، قطع من النقد ورقيّة يتعامل بها بعض الدول العربية.

(٦) النّطع: بساط من الجلد، والصّرف: التداول.

وقال آخر: [من الوافر]

ورأيتُ السَّماءَ كالبَحْرِ إلّا أنَّ مَرْسُوبَهُ من الدُّرّ طافي[١]
فيه ما يَمْلأُ العُيُونَ كبيرٌ وصغيرٌ ما بَيْن ذلكَ خافي

وقال التَّنُوخيّ[٢] يصف ليلةً: [من مجزوء الرجز]

كأنَّما نُجُومُها نُصْبَ عُيونِ الرُّمَّقِ[٣]
دَرَاهِمٌ قَد نُثِرَتْ على بِساطٍ أزرَقِ[٤]

وقال أبو طالب الرَّقِّيّ[٥]: [من الكامل]

وكأنَّ أجْرامَ السماء، لَوامِعًا دُرَرٌ نُثِرْنَ على بِساطٍ أزْرَقِ[٦]

وقال ظافر الحدّاد[٧]: [من الطويل]

كأنَّ نُجُوم الليلِ، لما تبلَّجتْ توقُّدُ جَمْرٍ في خِلال رَمادِ[٨]
حكىٰ، فوق ممْتَدّ المَجَرَّة شَكْلُها فَوَاقِعَ تَطْفُو فَوْقَ لُجَّة وادِي[٩]

وقال آخر: [من المتقارب]

كأنَّ النُّجُومَ، نجومَ السما وقد لُحنَ للعَيْنِ من فَرْط بُعْدِ[١٠]
مَسَامِيرُ من فِضَّةٍ سُمِّرَتْ على وجه لَوْحٍ من اللّازَوَرْدِ[١١]

---

(١) مرسوبه: أي ما رسب فيه، وطافٍ: عائم على السطح منه.

(٢) لعلّهُ القاضي التنوخي علي بن محمد، أبو القاسم الأديب الشاعر، وُلِدَ بأنطاكية وكان من جُلَساء الوزير المهلبي، وزار سيف الدولة الحمداني، له ديوان شعر توفي بالبصرة سنة ٩٥٣ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٣٢٤، ٣٢٥».

(٣) الرُّمَّق: التي فيها ضعفٌ وانكسار، ورمق إلى الشيء: أدام النظر إليه.

(٤) نُثرت: نُشرت.

(٥) أبو طالب الرّقّي: يقول صاحب اليتيمة: لم أجد ذِكرًا له إلّا عند أبي بكر الخوارزمي وسمعته يقول: إنه أحد المُقِلِّين المحسنين. «يتيمة الدهر ١/ ٣٤٦ دار الكتب العلمية».

(٦) الأجرام: النّجوم.

(٧) هو ظافر بن القاسم بن منصور الجذامي، أو نصر، شاعر من أهل الإسكندرية له ديوان شعر مطبوع، توفي بمصر سنة ١١٣٤ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٣٦».

(٨) تبلّجت: أشرقت ونوّرت.

(٩) المجرّة: نجوم كثيرة في السّماء لا تُدرَك بمجرّد البصر، وإنّما ينتشر ضوؤها فيُرى كأنه بقعة بيضاء، والفاقع: الخالص الصافي من الألوان، أو الخالص الصّفرة.

(١٠) فَرْط بعد: أي كثرة بُعد، والفرْط هنا: تجاوز الحدّ في البُعد.

(١١) اللازورد: معدن شهير، أجود أنواعه الشفّاف الصافي الأزرق الضّارب إلى خُضرة وحُمرة، يُتَّخذ=

وقال محمد بن عاصم[١]: [من الطويل]

تُرَىٰ صَفْحةُ الخَضْراء، والنَّجْمُ فَوْقهَا ... كـكـفّ سُـدُوسـيّ بَـدَا فِـيـهِ دِرْهَـمُ[٢]
تُـرىٰ، وعـلى الآفـاق أثْـوابُ ظُـلـمـةٍ ... وأزْرَارُهـا مِـنْـهـا شَـمَـالٌ ومِـرْزَمُ[٣]

٤ ـ ومما قيل في الفَلَك

قال أبو العَلاء المَعَرِّيُّ: [من البسيط]

يا ليتَ شِعْرِي! وهَلْ لَيْتٌ بنافِعةٍ؟ ... مـاذا وراءَكَ أو مـا أنـتَ يـا فَـلَكُ؟
كَمْ خَاضَ في إثْرِكَ الأقوامُ واختلفُوا ... قِدْمًا! فما أوْضَحُوا حَقًّا ولا تَرَكُوا[٤]
شـمـسٌ تَـغِـيـبُ ويَـقْـفُـو إثْـرَهـا قَـمَـرٌ ... ونُـورُ صُـبـحٍ يُـوَافِـي بَـعْـدَه حَـلَكُ[٥]
طَحَنْتَ طَحْنَ الرَّحىٰ مِن قَبْلِنا أُمَمًا ... شَتَّى، ولـم يَـدْرِ خَلْقٌ أيّةً سَلَكُوا[٦]
وقـال، إنَّـكَ طَـبْـعٌ خـامِـسٌ، نَـفَـرٌ ... عَمْري! لقد زعموا بُطْلًا وقد أَفَكُوا[٧]!
رامُـوا سَـرائِرَ لـلرَّحْـمـٰـن حَـجّـبَـهَـا ... مـا نـالَهُـنَّ نَـبـيٌّ، لا ولا مَـلَكُ[٨]

وقال الرئيس أبو عليّ بن سينا[٩]: [من الوافر]

بِـربِّـكَ! أيُّـهـا الـفَـلَكُ الـمُـدَارُ ... أقَصْدٌ ذا المَسِيرُ أم آضْطِرارُ[١٠]؟

= للحليّ، وله منافع في الطب.

(١) محمّد بن عاصم، هو محمد بن عاصم الموقفي، من شعراء اليتيمة، مصري، في شعره رقّة وإجادة. «فهرس الأعلام ٦/ ١٨١».

(٢) الخضراء: السّماء، والسُّدوسي: الطيلسان الأخضر، يريد أن يقول: ككفٍّ أخضر فيه درهم، والدّرهم: يكون من فضّة: أي أنّ النّجم يسطع في راحة كفٍّ أخضر.

(٣) الشّمال: المشدود، والمرزم: الثابت.

(٤) خاض: يقال: خاض القوم في الحديث: أي اندفعوا وأسرعوا.

(٥) يقفو: يتبع، والحلك: الظلام.

(٦) طحنت: يريد أهلكت وأفنيت، والرّحى: الطاحون.

(٧) طبع خامس: الطبائع عند القدماء أربع هي: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وقد زاد البعض «الفلك»، وأفكوا: من الإفك: وهو الكذب.

(٨) السّرائر: الخفايا والأسرار، وحجّبها: أي سترها.

(٩) ابن سينا: هو الحسين بن عبد الله، شرفُ الملك الفيلسوف الرّئيس، صاحب التصانيف في الطبّ والمنطق والطبيعيات والإلٰهيات، أصله من بلخ، ونشأ وتعلّم في بخارى، وتقلّد الوزارة في همذان، ومات فيها سنة ١٠٣٧ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٤١».

(١٠) قال صاحب عيون الإنباء (١/ ٢٤٨، ٢٤٩): إن بعض الناس ينسب هذه القصيدة لابن=

مَدارُكَ، قُلْ لنا، في أيِّ شيءٍ؟ ففي أفهامِنا مِنْكَ انْبهارُ[١]!
وعِنْدك تُرفَع الأرواحُ؟ أم هَلْ مَعَ الأجسادِ يُدرِكُها البَوارُ[٢]؟
وفيك الشَّمْسُ رافِعةٌ شُعاعًا بأجْنِحَةٍ قَوادِمُها قِصارُ[٣]؟
قُطُوفٌ، ذي النُّجومُ أم اللآلي؟ هِلَالٌ أم يدٌ فيها سِوارُ[٤]؟
وشُهْبٌ، ذي المَجَرَّةُ أمْ ذُبالٌ عليها المَرْخُ يُقدَحُ والعَفارُ[٥]؟
وترصيعٌ، نُجومُك أمْ حَبابٌ تُؤلِّف بينها اللُّجَج الغِزارُ[٦]؟
تُمَدُّ رُقومُها لَيلًا وتُطْوىٰ نَهارًا، مِثْلَ ما طُوِيَ الإزارُ[٧]!
فَكَمْ بصِقَالِهَا صَدِىءَ البَرَايا! وما يَصْدا لها أبدًا غِرَارُ[٨]
وتبدو ثُمَّ تَخْنِس راجِعَاتٍ وتكنِس مثلَ ما كنَس الصُوارُ[٩]
فبَيْنا الشَّرْقُ يُقْدِمُها صُعُودًا تَلَقَّاها من الغَرْبِ انْحِدَارُ[١٠]
هي العَشْواءُ، ما خَبَطتْ هَشِيمٌ هي العَجْمَاء، ما جَرَحَتْ جُبَارُ[١١]

= سينا وليست له، ونصّ على أنّها لابن الشّبل البغدادي، وقد أوردها في خمسين بيتًا.

(١) المدارُ: الدائرة، ومدار الكوكب: دائرة يرسُمها على الكرة السّمْوية في يوم، والانبهار: الذهول والدّهشة.

(٢) البوار: الهلاك.

(٣) القوادم: جمع قادمة، وهي ريشات في مقدّمة الجناح، وهي كبار الرّيش.

(٤) قطوف: مفردها قطف، وهو ما يُقطَف من ثمار، ويريد هنا بالقطوف: العناقيد من العنب، لأن النجوم في السّماء تبدو كحبّات العناقيد من العنب الأبيض.

(٥) الذبال: الفتائل، مفردها: ذُبالة وهي فتيلة السّراج، والمرخ: شجر سريع الوَرى: أي الاشتعال، والعفار: شجرٌ يُتَّخَذ منه الزّناد، وهو من شجر النّار.

(٦) الحباب: الفقاقيع البيض التي تعلو زبد الماء.

(٧) الرّقوم: جمع رقيم، وهو الكتاب، يريد أن صفحات ذلك الكتاب الذي هو الفلك تُقرَأ ليلًا وتُطوَى نهارًا أي تُحجَب.

(٨) صقالها: من صقل صقلًا السيف أو المرآة أو نحوهما: جلاه، والغِرار: الحدّ، يريد أن نجوم الفلك دائمًا بيضاء لا يصيبها الصدأ، بينما غيرها يصدأ ويَفنَى.

(٩) تخنس: تختفي، وتكنِس: أي تأوي إلى كِناسها، والكِناس بيت الغزال في الشجر، والصّوار: القطيع من البقر.

(١٠) يريد أنّ المتطلّع نحو الشرق يتدرّج في نظره إليها صاعدًا به، بينما الناظر إليها غربًا ينحدر نظره من أعلى إلى أسفل.

(١١) العشواء: الناقة التي لا تبصر أمامها فهي تخبط بيدها كلّ شيء، والعجماء: البهيمة، والجُبار: الهَدَر.

وقال أبو عُبادة البُحتُريّ: [من الوافر]

أنـاةً! أيُّـهـا الـفَـلَـك الـمُـدَارُ! أنَـهْـبٌ ما تُـصـرِّف أم خِـيـارُ[(١)]؟
ستَبلىٰ مِثْلَ ما نَبلىٰ، وتَفْنىٰ كما نَفْنىٰ، ويُؤخَذُ مِنْكَ ثارُ

الباب الثالث
من القسم الأوّل من الفن الأوّل

١ ـ في ذكر الملائكة

قال رسول الله ﷺ: «أَطَّتِ[(٢)] السماءُ، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ. ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ، إلّا وعليه مَلَكٌ قائم أو راكع أو ساجد».

والملائكة أُولو أجنحة: مَثنىٰ، وثُلاثَ، ورُباعَ، وأكثر من ذلك. فإنه قد ورد أن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح، وهي الصورة التي رآه النبيّ ﷺ فيها مرّتين.

إحداهما في الأرض، وقد سدّ ما بين الخافِقَين. ووصفه الله تعالى بالقوّة، فقال تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التّكوير: الآية ٢٠]. ومن قوّته، أنه ٱقتلع مدائن قوم لوط، وكانت خمس مدائن، من الماء الأسود، وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء، حتى إنَّ أهل السماء يسمعون نُباح كِلابهم، وأصوات دَجاجهم؛ ثُمَّ قَلَبَها.

والمرّة الثانية، رآه ﷺ عند سِدْرَة المنتهى[(٣)]. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النّجم: الآيتان ١٣، ١٤].

وكان هبوط جبريل عليه السلام على الأنبياء صلوات الله عليهم ورجوعه في أَوْحَىٰ[(٤)] من رَجْع الطَّرْف[(٥)].

---

(١) أناةً: أي رفقًا وتمهُّلًا وصبرًا، والنّهب: السّرقة، تصرّف: تدبّر وتبدّل، وصروف الدّهر: مصائبه، يقول: رفقًا بالناس أيّها الفلك المدار ويعني به الزّمن، فإننا لا ندري هل تصرّفك في أرواح الناس تسرّع منك أم أنه خيارٌ لا بدّ منه.
(٢) أطّت السّماء: صوّتت.
(٣) سدرة المنتهى: قيل إليها ينتهي كلّ مَن كان على سُنَّة رسول الله ﷺ ومنهاجه، وهي شجرة في أقصى الجنّة عن يمين عرش الله.
(٤) أوحى: أسرع.
(٥) الطّرف: النظر، ورجع الطّرف: إعادته بعد التأمُّل.

وعُظماء الملائكة أربعة، وهم: إسرافيل، وميكائيل، وجبرائيل، وعزرائيل. وأقربهم من الله تعالى منزلةً، إسرافيل.

فإذا أراد الله تعالى بوحْيٍ، جاء اللوحُ المحفوظُ[١] حتى يقرعَ جَبْهة إسرافيل رأسه، فينظر فيه. فإن كان إلى السماء، دفعه إلى ميكائيل؛ وإن كان إلى الأرض، دفعه إلى جبرائيل؛ وإن كان بموت أحد، أمر به عزرائيل. صلوات الله عليهم!.

وقد رُوِيَ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾ [النّازعَات: الآية ٥]، هم أربعة من الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل. فجبريل على الجنود والرياح، وميكائيل على القَطْر والنبات، وعزرائيل على قبض الأرواح، وإسرافيلُ يبلِّغهم ما يُؤمَرون به.

وجعل الله تعالى لهم أن يتمثّلوا للبشر على ما شاؤوا من الصور، كما كان جبريل يتمثَّل لسيِّدنا رسول الله ﷺ على صورة دِحْية الكلبيِّ[٢] مرارًا، وفي صورة غيره من الرجال؛ وكما تمثَّل لمريم عليها السلام بشرًا سَويًّا[٣]. ونزلت الملائكة في غزوة بدر[٤] على الخيول المُسَوَّمة[٥]، وقد سدلوا ذوائب[٦] عمائمهم على مناكبهم[٧]. وهم مخلوقون من نور. صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين!.

الباب الرابع
من القسم الأوّل من الفن الأوّل

١ - في الكواكب السبعة المتحيِّرة

قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦﴾ [التّكوير: الآيتان ١٥،

(١) اللّوح المحفوظ: أُمّ الكتاب المحفوظ من الزيادة والنقصان منه.

(٢) دحية الكلبي: هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي، صحابي، بعثه رسول الله ﷺ إلى قيصر ملك الروم يدعوه إلى الإسلام، وكان حَسَن الصورة، حضر كثيرًا من المواقع، توفي سنة ٦٦٥ م.

(٣) بشرًا سَويًّا: أي بشرًا تامّ الخلق. «فهرس الأعلام ٢/ ٣٣٧».

(٤) غزوة بدر: بدر: ماء بعينه، قال الشعبي: بدر بئر كانت لرجل يدعى بدرًا ومنه يوم بدر وهو يومٌ انتصر فيه المسلمون على كفّار مكّة. «راجع الطبري: ٢/ ١٣١ وما بعدها».

(٥) المسوّمة: المُعلّمة.

(٦) الذوائب: جمع ذؤابة، وهي شعر في مقدّم الرأس.

(٧) المناكب: جمع منكب، وهو مجتمع رأس الكتف والعضُد.

١٦]. ذهب المُفسِّرون إلى أنها هي الكواكب السبعة: زُحَلُ، والمُشترِي، والمِرِّيخ، والشمسُ، والزُّهرَة، وعُطارِدٌ، والقمر.

وقالوا: إن هذه الكواكب هي المعنيَّة بقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النَّازعَات: الآية ٥].

وسُمِّيَت كُنَّسًا لأنها تجري في البروج[1] ثم تَكْنِس أي تستتر كما تكنس[2] الظِّباء؛ وخُنَّسًا[3] لاستقامتها ورجوعها. وقيل الخُنَّس والكُنَّس منها خمسة، دون الشمس والقمر. وسُمِّيَت خُنَّسًا لأن الخُنُوس في كلام العرب الانقباض. وفي الحديث الشريف «الشيطانُ يُوَسْوِس للعبد، فإذا ذكر الله تعالى خَنَس» أي ٱنقبض ورجع. فيكون في الكوكب بمعنى الرجوع. وكُنَّسًا من قول العرب كَنَس الظبيُ إذا دخل الكِنَاس، وهو مقرّه؛ ويكون في الكوكب ٱختفاءه تحت ضوء الشمس.

وأسماء هذه الكواكب عند العرب مشتقّة من صفاتها.

فقالوا في زُحَل: زَحَل فلانٌ إذا أبطأ، وبذلك سُمِّيَ هذا الكوكب لبطئه في السماء. وقيل الزَّحْل والزَّحِيل[4] الحقد وهو في طبعه. وهذا الكوكب عند المُفَسِّرين هو المعنيّ بقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطّارق: الآيات ١ - ٣].

وقالوا في المُشتري: إنه إنما سُمِّيَ بذلك لحُسْنه، كأنه اشترى الحُسْنَ لنفسه. وقيل لأنه نجم الشِّراء والبيع، ودليل الأموال، والأرباح.

وقالوا في المِرِّيخ: إنه مأخوذ من المَرْخ (وهو شجر تحتكّ بعض أغصانه ببعض فتُورِي نارًا) فسُمِّي بذلك لاحمراره. وقال آخرون المرِّيخ سهمٌ لا ريش له إذا رُمِيَ به لا يستمرّ في ممرّه. وكذلك المِرِّيخ، فيه ٱلتواء كثير في سيره وحكمه، فشُبِّه بذلك.

---

(١) البروج: جمع بُرج وهو قسمٌ من اثني عشر قسمًا من دائرة وهميّة في الفلك.

(٢) تكنس الظّباء: أي تستتر في كناسها، والكناس: بيت الغزال في الشجر.

(٣) والخُنَّس: المختفية.

(٤) الزّحل والزّحيل: وهو الذّحل بالذّال المعجمة، ولم يذكره أحدٌ من أئمة اللغة في الزّاي» فهو اشتباه على الناقل، وفي اللسان: وقيل «كوكب زُحل» لأنه زحل أي بَعُد، ويقال: إنّه في السماء السابعة. «اللسان مادة: زحل».

وقالوا في الشمس: إنها لمَّا أن كانت واسِطة بين ثلاثة كواكب عُلْويَّة وثلاثة سُفلية، سُمِّيَت بذلك لأن الواسطة[١] التي في المِخْنَقة[٢] تسمَّى «شمسة».

وقالوا في الزُّهَرَة: إنها مشتقّة من الزاهر، وهو الأبيض النَّيِّر من كل شيء.

وقالوا في عُطارد: إنه النّافذ في الأمور، ولهذا سُمِّيَ بالكاتب. وهكذا هذا الكوكب كثير التصرّف مع ما يُلابسه[٣] ويقارنه.

وقالوا في القمر: إنه مأخوذ من القُمْرة، وهي البياض؛ والأقمر الأبيض.

والفُرس تسمِّي هذه الكواكب بلغتها «كِيوان»، ويعنون به زُحَل؛ و«تير»، ويعنون به المُشترِيَ (وبعضهم يسمّيه «البِرْجِيس»)؛ و«بَهْرام» ويعنون به المِرِّيخ؛ و«مِهْر» ويعنون به الشمس؛ و«أناهيد» ويعنون به الزُّهَرَة (وبعضهم يسمِّيها «بِيدُخْتُ»)، و«هِرْمِسْ» (ويعنون به عُطارد)، و«ماه» (ويعنون به القمر).

وقد جمع بعض الشعراء أسماء هذه الكواكب في بيت واحد من بيتين يمدح بهما بعض الرؤساء فقال: [من البسيط]

لا زلْتَ تَبْقىٰ وتَرْقىٰ للعُلَا أبدًا ... ما دامَ للسَّبْعَةِ الأفْلاكِ أحْكامُ[٤]!
مِهْرٌ، وماهٌ، وكِيوانٌ، وتيرُ معًا ... وهِرْمِسٌ، وأَنَاهِيدٌ، وبَهْرامُ!

وقال أبو إسحٰق الصابي[٥]: [من السريع]

نَلِ المُنىٰ في يَوْمِكَ الأجْوَدِ ... مُسْتَنْجِحًا بالطَّالع الأسْعدِ[٦]!
وارْقَ كمَرْقىٰ زُحَلٍ صاعدًا ... إلى المَعَالي أشرفَ المَقْصِدِ!
وفِضْ كفَيْضِ المُشتَرِي بالنَّدىٰ ... إذا اعْتَلىٰ في أُفْقِهِ الأبعدِ!
وزِدْ على المِرِّيخ سَطْوًا بمَنْ ... عاداكَ مِنْ ذي نَخْوةٍ أَصْيدِ[٧]!

---

(١) الواسطة: وهي الجوهرة في وسط العقد، وهي أجود جواهره.
(٢) المِخنقة: القِلادة. (٣) يلابسه: يخالطه.
(٤) ترقى: تصعد.
(٥) أبو إسحٰق الصابي: هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحرّاني نابغة كتّاب جيله، تقلّد دواوين الرسائل والمظالم أيام المطيع لله العبّاسي وتقلّب في مناصب الدولة، وكان صلبًا في دين الصابئة، ولم يسلم، وله كتب ورسائل وديوان شعر. «فهرس الأعلام ١/٧٨».
(٦) الطّالع: ما يُنتظر أو يُتَنَبَّأ به من سعدٍ أو نحسٍ، يقال: هو حَسَن الطّالِع.
(٧) السّطو: القوّة والقهر والبطش، والأصيد: الذي يرفع رأسه تكبُّرًا، والأصيد: الملك.

وأَطْلُعْ كما تَطْلُعُ شمسُ الضُّحىٰ   كـاسـفـةً لـلحِـنْـدِسِ الأَسْـوَدِ[١]!
وخُـذْ مـن الـزُّهـرةِ أفـعـالَهَـا   في عَيْشِكَ المُسْتَقْبَلِ الأرغدِ!
وَضَـاهِ بـالأقْـلامِ فـي جَـرْيِـهـا   عُطـارِدَ الكـاتِـبَ ذا السُّـودَدِ[٢]!
وبَـاهِ بـالـمَـنْـظَـر بَـدْرَ الـدُّجـىٰ   وأَفْـضُـلْهُ فـي بَـهْـجَـتِـه وأَزْدَدِ!

وقد اختُصَّ كلُّ كوكب من هذه الكواكب بقول. سنذكر من ذلك ما تقوم به الحجّة، وينهض به الدليل من الكتاب والسُّنَّة، وما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكرها، وما ورد في ذلك من الأوصاف والتشبيهات: نظمًا ونثرًا مما وقفتُ عليه في أثناء مطالعتي لكتب الفضلاء وتصانيفهم ودواوينهم. وعدلتُ عن أقوال المنجمِّين[٣] لما فيها من سوء الطَّوِيَّة[٤] وقُبْح الاعتقاد: لأن منهم مَن يرى أن للنجوم في الوجود تأثيرات وأفعالًا. أعاذنا الله تعالى من ذلك.

٢ ـ ذكر ما قيل في الشمس
والشمس هي النَّيِّر الأعظم

وقد ذهب بعضُ المُفَسِّرين لكتاب الله تعالى إلى أن نور الشمس والقمر في سائر السمٰوات بدليل قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: الآية ١٦]. وجاء في الحديث عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الشمس والقمر وجوههما إلى السماء وأقفاؤهما إلى الأرض» وفي حديث آخر «وجوههما إلى العرش وأقفاؤهما إلى الأرض». وفي حديث آخر «أن الشمس تكون في الصيف في السماء الخامسة، وفي الشتاء في السماء السابعة تحت عرش الرحمٰن».

وزعموا أن حركتهما وحركة سائر الكواكب مستقيمة غير مستديرة، وأن الشمس تقطع سماء الدنيا في يومها، وتغيب في الأرض في عين حَمِئَةٍ. ومعنى حَمِئة ذات حَمْأة[٥].

(١) الحندس: الليل الشديد السّواد.
(٢) وضاهِ: فعل أمر من ضاهى أي شابه، وضاهاه: شابهه، والسؤدد: المجد والسّيادة، مصدر ساد يسود.
(٣) المنجّمين: جمع مُنجِّم وهو مَن ينظر في النجوم بحسب مواقيتها وسيرها ليعلم بها أحوال العالم، ويزعم معرفة حظوظ الناس بحسب مواقع النجوم.
(٤) الطَّوِيَّة: النِّيَّة والضمير.
(٥) الحمأة: الطين الأسود الفاسد الرائحة.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: الآية ٣٨] أي إلى موضع قرارها، لأنها تجري إلى أبعد منازلها في الغروب، ثم ترجع؛ ومَن قرأ «لا مستقرّ» لها أي هي دائبة السير ليلًا ونهارًا. وهي قراءة شاذة[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٣] ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتدرون أين تذهب هذه الشمس»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إنها تجري لمستقر لها تحت العرش، فتخرّ ساجدة؛ فلا تزال كذلك حتى يُؤْذَن لها في الطلوع. ويوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت؛ وذلك طلوعها من مغربها.

وذهب وَهْب بن مُنَبِّه[٢] إلى أن الشمس على عجلة لها ثلثمائة وستون عروة[٣]، وقد تعلّق بكل عروة مَلَكٌ؛ يجرُّونها في السماء ودونها البحر المسجور[٤] في موج مكفوف[٥] كأنه جبل ممدود في الهواء، ولو بدت الشمس من ذلك البحر لأحرقت ما على وجه الأرض من شيء حتى الجبال والصخور. ورُوِيَ عن كعب[٦] أنه قال: «خلق الله القمر من نور وخلق الشمس من نار».

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: الآيتان ١٥، ١٦]. والسراج لا يكون إلا من نار؛ وهما مضيئان لأهل السمٰوات؛ كما يضيئان لأهل الأرض.

وقد تقدم الدليل على ذلك.

٣ ـ ذكر ما يتمثّل به مما فيه ذكر الشمس

يقال: أشهرُ من الشمس. أحسنُ من الشمس. أدلُّ على الصّبح من الشمس.

---

(١) استقرّ علماء الفلك أخيرًا على هذا الرأي بعد التحقيق والتدقيق.

(٢) هو وهب بن منبّه الصنعاني الذماري، أبو عبد الله، مؤرّخ، عالِم بالأساطير والإسرائيليات، مات بصنعاء سنة ٧٣٢ م، وقد ولّاه عمر بن عبد العزيز قضاءها. «فهرس الأعلام ٨/ ١٢٥».

(٣) العروة: من الثوب: ما يُدخَل فيه الزرّ.

(٤) المسجور: المملوء ماءً.

(٥) المكفوف: من كفّ يكفّ الشيء: أي يجمعه ويضمّه.

(٦) هو كعب بن مائع الحميري، أبو إسحٰق، ويسمّى كعب الأحبار، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم زمن أبي بكر، قَدِم المدينة في خلافة عمر، وأخذ عنه الصحابة كثيرًا من أخبار الأمم الغابرة، توفي بحمص سنة ٦٥٢ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٢٨».

ومن أنصاف الأبيات:

* وهَلْ شمسٌ تكونُ بلا شُعاعِ *

* في طَلْعةِ الشمسِ ما يُغنِيكَ عن زُحَلِ *

* ولو لم تَغِبْ شمسُ النهار، لمُلَّتِ *

* الشمسُ نَمَّامةٌ واللَّيلُ قَوَّادُ[(١)] *

* الشمسُ طالعةٌ إنْ غُيِّب القَمَرُ *

* ورُبَّما تَنْكَسِفُ الشَّمْسُ *

* والشمسُ تنحطُّ في المَجْرىٰ وترتفِعُ *

* إذا الشمسُ لم تغرُبْ، فلا طَلَع البَدْرُ *

ومن الأبيات قول الطائي[(٢)]: [من الطويل]

فإنِّي رأيتُ الشَّمسَ زِيدَتْ محبَّةً ... إلى الناس إذ لَيْسَتْ عليهم بسَرْمَدِ[(٣)]

وقال عليّ بن الجهم[(٤)]: [من الكامل]

والشَّمْسُ لولا أنها مَحْجُوبةٌ ... عن ناظرَيْكَ لما أضاءَ الفَرْقدُ[(٥)]

وقال أبو تمّام: [من الطويل]

وإنَّ صَريح الرأيِ والحَزْمِ لامْرِئٍ ... إذا بلغَتْهُ الشمسُ، أن يَتَحَوَّلا[(٦)]

---

(١) النمّامة: الواشية، والقوّاد: سمسار المرأة البغيّ.

(٢) الطائي: هو حبيب بن أوس الطائي، أبو تمّام، الشاعر العباسي المشهور والبيت من قصيدة مطلعُها:

غدت تستجير الدمع خوف نوى غدِ ... وعاد قتادًا عندها كلّ مرقد

«ديوان أبي تمام ص ٩٠ دار صعب».

(٣) السّرمد: الدائم الأبدي الذي لا ينقطع.

(٤) هو عليّ بن الجهم، أبو الحسن، من بني سامة بن لؤي بن غالب، شاعر أديب من أهل بغداد، قتل في غزوٍ له سنة ٨٦٣ م، له ديوان شعر مطبوع. «فهرس الأعلام ٤/ ٢٦٩، ٢٧٠».

(٥) البيت في ديوانه ص ٤٢ تحقيق خليل مردم بك ـ دار الآفاق الجديدة، وهو من أبيات مقطوعة يمدح بها جعفرًا المتوكّل ومطلعها:

قالت حُبستَ فقلت ليس بضائرٍ ... حبسي وأيُّ مهندٍ لا يُغمدُ

والفرقد: نجم قريب من القُطب الشمالي، يُهتَدَى به.

(٦) صريح الرأيك الخالص من العيب.

وقوله: [من الطويل]

وكلُّ كُسُوفٍ في الدَّرارِي شنيعةٌ ولكِنَّه في الشمْسِ والبَدْر أشْنَعُ[١]

وقوله أيضًا: [من البسيط]

أعِنْدكَ الشمسُ تَجْرِي في مَنَازِلِهَا وأنْتَ مُشتَغِلُ الألْحاظِ بالقَمَر[٢]؟

وقال البُحتُرِيُّ: [من الوافر]

كَذاكَ الشَّمسُ تَبْعُد أن تُسامىٰ ويَدْنُو الضَّوْءُ منها والشُّعاعُ[٣]

وقال ابن الرومي: [من الكامل]

ورأيتُهُ كالشَّمْس: إن هي لم تُنَلْ فالدِّفْء منها والضِّياء يُنَالُ

وقال أيضًا: [من الكامل الأحذ]

كالشَّمْس لا تَبْدُو فَضِيلتُها حتّى تُغَشّى الأرضُ بالظُّلَمِ[٤]

وقال أيضًا: [من الكامل]

كالشمسِ في كَبِدِ السماءِ مَحَلُّها وشعاعُها في سائرِ الآفاقِ

وقال العبّاس بن الأحنف[٥]: [من المتقارب]

هِيَ الشمسُ مَسْكَنُها في السما ءِ فعَزِّ الفُؤَادَ عَزَاءً جَمِيلا!

وقال أبو عبيد البكريّ[٦]: [من الكامل الأحذ]

والشمسُ يُستَغْنىٰ، إذا طَلَعَتْ أن يُستَضاءَ بغرّة البَدْرِ

---

(١) الكسوف: احتجاب الشّمس في النهار جزئيًا أو كليًا لحلول القمر بينها وبين الأرض، والدّراري: النجوم المضيئة.

(٢) المنازل: مجاريها التي تحلّ بها، والألحاظ: العيون، وقد ورد البيت في ديوان أبي تمّام على هذه الصّورة:

أعندك الشّمس قد راقت محاسنُها وأنت مشتغل الأحشاء بالقمر

«ديوان أبي تمام ص ٣٥٦ ، دار صعب».

(٣) تسامى: تبارى وتفاخر.

(٤) تغشّى: تُسْتَر وتُغطّى.

(٥) هو العباس بن الأحنف، أبو الفضل، من بني حنيفة، نشأ في بغداد، وكان صاحب غزل، ولم يكن يمدح ولا يهجو، له ديوان شعر مطبوع، توفي ببغداد سنة ٨٠٨ م. راجع: الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٥٦٠ دار الكتب العلمية، وفهرس الأعلام للزركلي ٤/٢٥٩.

(٦) هو عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، أبو عبيد، مؤرّخ، جغرافي، علّامة بالأدب، توفي ١٠٩٤ م. «فهرس الأعلام ٤/٩٨».

وقال أبو الطيب المتنبي: [من المنسرح]

كالشمس لا تبتغي بما صَنَعَتْ　　مَنْفَعَةً عِنْدَهُمْ ولا جاهَا

وقال ابن لَنْكَك البصريّ(١): [من البسيط]

وهَبْكَ كالشَّمْس في حُسْنٍ؛ ألم تَرَها　　يُفَرُّ منها إذا مالَتْ إلى الضَّرر(٢)؟

وقال ابن عَبّاد(٣): [من المتقارب]

فقلتُ: وشمسُ الضُّحى تُحْتَمىٰ　　إذا بَسطَتْ في المَصِيف الأذىٰ

وقال ابن مسعويه الخالديّ: [من البسيط]

لا يُعْجِبَنَّكَ حُسْنُ القَصْرِ تَنْزِلُه　　فَضِيلةُ الشمسِ لَيْسَتْ في مَنازلِها

وقال أبو الفتح البُسْتِيّ(٤): [من البسيط]

فالحُرُّ حُرٌّ عَزيزُ النَّفْسِ حَيْثُ ثَوىٰ　　والشَّمسُ في كُلِّ بُرْجٍ ذاتُ أنوارِ(٥)

٤ ـ ذكر ما جاء في وصف الشمس وتشبيهها

من ذلك قول الوزير المهلَّبي(٦): [من السريع]

الشَّمْسُ في مَشْرِقِها قد بَدَتْ　　مُنِيرةً لَيْسَ لها حاجِبُ
كأنَّها بَوْدَقَةٌ أُحْمِيَتْ　　يَجُولُ فيها ذهبٌ ذائِبُ(٧)

---

(١) هو محمد بن محمد بن جعفر البصري، أبو الحسن، شاعر، وصفه الثعالبي بفرد البصرة وصدر أدبائها، وقال: أكثر شعره مُلَح وطُرَف، توفي نحو سنة ٩٧٠ م. «راجع يتيمة الدهر ٢/ ٤٠٧ دار الكتب العلمية».

(٢) هبك: هب: أمر من فعل وهب بمعنى «احسب» ينصب مفعولين.

(٣) هو إسماعيل بن عبّاد بن العبّاس، الصّاحب، وزير غلب عليه الأدب، فكان من نوادر الدهر علمًا وفضلاً وتدبيرًا وجودة رأي، وُلِد في الطالقان، له كتب ورسائل وديوان شعر، توفي سنة ٩٩٥ م. «فهرس الأعلام ١/ ٣٨٦».

(٤) هو علي بن محمد الكاتب، البستي الشاعر المشهور صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس البديع التأسيس. «وفيات الأعيان ٣/ ٣٧٦».

(٥) ثوى: أقام.

(٦) هو الحسن بن محمد بن عبد الله بن هارون الأزدي، أبو محمد، من كبار الوزراء الأدباء الشعراء، كان وزيرًا لمعزّ الدولة بن بويه، لُقِّب بذي الوزارتين، وُلِد بالبصرة، وتوفي في طريق واسط، سنة ٩٦٣ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢١٣».

(٧) البودقة: البوتقة، الوعاء الذي يُذاب فيه المعدن.

وقال ظافر الحدّاد: [من الكامل الأحذ]

أُنْظُرْ لِقَرْنِ الشَّمْسِ بازِغَةً ... في الشَّرْق تَبْدُو ثم تَرْتَفِعِ[١]!
كسَبِيكةِ الزَّجّاجِ ذائِبةً ... حَمْراءَ يَنْفُخُها فتَتَّسِعِ[٢]

وقال أبو هلال العسكري[٣]: [من الكامل]

والشمسُ واضحةُ الجَبِينِ كأنَّها ... وجهُ المَلِيحةِ في الخِمَار الأزْرق!
وكأنَّها عِنْد انْبِساطِ شُعاعِها ... تِبْرٌ يذُوبُ على فُرُوعِ المَشْرِق[٤]!

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبيّ: [من الكامل]

أوَ مَا تَرى شمسَ الأصِيلِ عَلِيلةً ... تَزْدَادُ من بَيْنِ المَغَارِب مَغْرِبا؟
مالَتْ لتحْجُبَ شَخْصَها فكأنها ... مَدَّتْ على الدُّنيا مُلاءً مُذْهَبَا[٥]!

ومما وُصِفَتْ به ـ وقد قابلت القمر ـ قول الشاعر: [من المنسرح]

أما تَرى الشمسَ، وهْيَ طالِعَةٌ ... تمنَعُ عنَّا إدَامةَ النَّظَر؟
حَمْراءَ صَفْراءَ في تَلَوُّنِها ... كأنَّها تَشْتَكِي من السَّهَر
مِثْل عَرُوسٍ غَدَاةَ لَيْلتِها ... تُمْسِكُ مِرْآتَهَا من القمر

وقال مؤيد الدين الطغرائي[٦]، عفا الله عنه ورحمه: [من الكامل]

وكأنّما الشمسُ المُنِيرةُ إذ بَدَتْ ... والبَدْرُ يَجْنَحُ للمَغِيبِ وما غَرَبْ[٧]
مُتحارِبان: لِذَا مِجَنٌّ صاغَهُ ... من فِضَّة، ولِذا مِجَنٌّ من ذَهَبْ[٨]

---

(١) قرن الشمس: أوّل ما يبدو منها عند طلوعها.
(٢) السَّبيكة: كتلة مصبوبة على شكل معين، أو كلّ قطعة مستطيلة من المعدن.
(٣) هو الحسن بن عبد الله بن سهل، أبو هلال، عالِم بالأدب، له شعر، نسبته إلى عسكر مُكرم، من كور الأهواز، له مصنّفات عديدة في اللغة والأدب وله ديوان شعر، توفي حوالي سنة ١٠٠٥ م. «فهرس الأعلام ٢/١٩٦».
(٤) التبر: قراضة الذّهب.
(٥) الملاء: ثوب من قطعة واحدة ذو شقّين متضامّين، أو هو الملحفة.
(٦) هو أبو إسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، الملقّب مؤيد الدين الأصبهاني المنشىء المعروف بالطغرائي، فاق أهل عصره بصنعة النظم والنثر، وكان يُنعَت بالأستاذ، أشهر شعره لامية العجم، توفي سنة ١١٢٠ م. «فهرس الأعلام ٢/٢٤٦».
(٧) يجنح: يميل. (٨) المجنّ: الترس.

ومن أحسن ما وصفت به في الطلوع والزّوال والغروب قول أعرابيّ: [من الطويل]

مُـخَـبَّـأةٌ: أمّـا إذا الـلّيْـلُ جَـنَّـهـا   فتَخْفىٰ وأما في النَّهارِ فتظهَرُ(١)
إذا ٱنْشَقَّ عنها ساطِعُ الفَجْرِ وٱنْجَلىٰ   دُجى الليل وٱنجابَ الحِجَابُ المُستَرُ
وأُلْبِـس عَـرْضُ الأُفْـق لَوْنًـا كـأنَّـهُ   على الأُفُقِ الغربيّ ثَوْبٌ مُعَصْفَرُ(٢)
عـلـيـهـا دُرُوع الـزَّعْـفـران، يَـشُـوبُـه   شُعـاعٌ تَـلألَا فَـهْـو أبـيـضُ أصْـفَـرُ(٣)
ترىٰ الظِّلَّ يُطوىٰ حين تَبْدُو وتارَةً   تـراه إذا زالَتْ عـن الأرْضِ يُـنْـشَـرُ
فأفنَتْ قُرُونًا، وَهْيَ في ذاك لم تَزَلْ   تَـمُوتُ وتـحْـيَا كـلَّ يوم وتُنْشَرُ(٤)!

وقال آخر: [من الكامل]

وبدا لنا تُرسٌ من الذَّهَب الذي   لـم يُـنْـتَزَعْ مـن مَعْدِن بتعَمُّل(٥)
مِـرْآة نُـور لـم تُـشَـنْ بِـصـيَـاغـة   كَلَّا ولا جُلِيتْ بكفِّ الصَّيْقَل(٦)
تسمُو إلـى كَـبِـد الـسـمـاء كـأنَّـها   تبغِي هُناكَ دِفاعَ أمرٍ مُعْضِل(٧)
حتّى إذا بَلَغَتْ إلى حيثُ انتهَتْ   وقَـفَـتْ كـوقْـفـة سائلٍ عـن مَنْزِل
ثم ٱنثنَتْ تبغِي الحُدورَ كأنـها   طيرٌ أَسَفَّ مَخَافةً من أجْدلِ(٨)

ومما وصفت به، وقد قابلت الغيم، قول ابن المعتز: [من الوافر]

تـظَـلُّ الـشـمـسُ تـرمُـقُـنا بـطَـرْفٍ   خَفِيٍّ لَحْظُه من خَلْفِ سِتْرِ(٩)
تُـحـاوِلُ فَـتْـقَ غَـيـمٍ وهـو يـأبـىٰ   كـعِـنِّـيـنٍ يُـحـاوِلُ نَـيْـلَ بِـكْـرِ(١٠)

---

(١) جنّها: سترها.
(٢) المعصفر: ما صُبغ بالعصفر، والعُصفر نبات يُستَخرَج منه صبغ أحمر يُصبَغ به الحرير ونحوه.
(٣) الزعفران: نبات له أصلٌ كالبصل، زهره أحمر إلى الصُفرة.
(٤) تموت وتحيا: يريد تغرب وتشرق.
(٥) الترس: قطعة من المعدن أو الجلد يحملها المُحارِب بإحدى يديه ويتّقي بها الضربات، والتعمّل: التكلّف.
(٦) تُشَنْ: تُعَبْ، والصّيقل: الذي يصقل السيوف وغيرها ويجلوها.
(٧) تسمو: تصعد وترتقي، وكبد السماء: وسطها، والمُعضل: الشائك الذي يبدو حلّه صعبًا.
(٨) الحدور: النزول، وأسفّ: دنا من الأرض، والأجدل: الصقر.
(٩) ترمق: تنظر، والطرف: النظر.
(١٠) العنّين: الذي يعجز عن الجماع لمرض يصيبه.

وقال آخر: [من الوافر]

وعَيْنُ الشمسِ تَرْنُو من بَعِيدٍ ... رُنُوَّ البِكْرِ من خَلْفِ السُّتُور(١)

وقال محمد بن رشيق: [من الرّمل]

فكأنَّ الشَّمسَ بِكْرٌ حُجِّبتْ ... وكأنَّ الغَيْمَ سِتْرٌ قد سُتِرْ(٢)

٥ ـ ذكر شيء مما وُصِفَت به على طريق الذّمّ

فمن ذلك ما قاله عبد الملك بن عمير، وقد سُئِلَ عنها فقال: مُظْهِرة للدّاء، مثقِّلة للهواء، مَبْلاة للثوب، جالِبَة للّهَب.

وقال آخر: الشمس تشحب اللون، وتغيِّر العَرَق، وتُرخِي البدن، وتُثِير المِرّة(٣). إذا احتجمت(٤) فيها، أمرضتك؛ وإن أطَلْتَ النوم فيها، أفلجتك(٥)؛ وإن قَرُبتَ منها، صرت زَنْجِيًّا، وإن بعدت عنها، صرت صقلبيًّا.

وقال ابن سناء الملك(٦): [من السريع]

لا كانت الشمسُ! فكَمْ أصْدأتْ ... صَفْحةَ خدٍّ كالحُسَام الصَّقيلْ(٧)!

وكَمْ وكَمْ صَدَّتْ بِوَادِي الكَرىٰ ... طيفَ خيالٍ جاءنِي عن خَليلْ(٨)!

وأعدمَتْنِي من نُجُوم الدُّجىٰ ... ومنه روْضًا بين ظِلٍّ ظليلْ!

تَكْذِبُ في الوَعْد؛ وبُرهَانُه ... أنّ سَرَاب القَفْرِ منها سَليلْ(٩)

وهْيَ إذا أبصَرَها مُبْصِرٌ ... حَدِيدُ طرفٍ، راحَ عنها كَليلْ(١٠)

---

(١) ترنو: تنظر.
(٢) كذا بالأصل، ولعلّ يد الناسخ حرّفته عن «سدل» أو لعله: سِترٌ قد سَتَرْ.
(٣) المرّة: خلط من أخلاط البدن، وهو الصفراء أو السّوداء.
(٤) احتجم: من الحجام بالمحجمة، وهي آلة كالكأس توضع على جسم المريض فينجذب الدّم.
(٥) أفلجتك: أي أصابتك بالفالج، وهو شلل يحدث في أحد شقيّ البدن.
(٦) هو هبة الله بن جعفر، أبو القاسم، القاضي السعيد، شاعر مجيد، من النبلاء مصري المولد والوفاة، ولّاه الملك الكامل ديوان الجيش، وكتب في ديوان الإنشاء وله رسائل بديعة، توفي سنة ١٢١٢. «فهرس الأعلام ٨/ ٧١».
(٧) الصقيل: المصقول والمجلوّ.
(٨) صدّت: منعت، والكرى: النعاس، والخليل: الصاحب.
(٩) السّراب: ما يُشاهَد في الصحراء أثناء الحرّ كأنّه ماء، والسّليل: أي هو من نسلها.
(١٠) حديد الطرف: قويّ النظر، والكليل: الضعيف.

يا عِلَّة المَهمُومِ، يا جِلدةَ الـ ـمحموم، يا زَفْرةَ صَبٍّ نحِيلْ[١]!
يا قَرْحَةَ المَشْرِق عند الضُحىٰ وسَلْحَةَ المَغْرِبِ عِنْدَ الأصِيلْ!
أنتِ عَجُوزٌ، لِمْ تبرَّجْتِ لِي وقد بَدَا منْكِ لُعَابٌ يَسِيلْ[٢]؟

وقال التيفاشيّ[٣]، عفا الله تعالى عنه ورحمه: [من السريع]

في خِلْقةِ الشمس وأخلاقِها شَتَّى عُيُوبٌ ستة تُذْكَرُ
رَمْداءُ، عَمْشاءُ، إذا أصبحَتْ عَمياءُ عِنْد اللَّيلِ، لا تُبصِرُ[٤]
ويَغْتدِي البدرُ لها كاسِفًا وجِرْمُها من جِرْمِهِ أكبَرُ[٥]
حُرورُها في القَيْظِ لا تُتَّقىٰ ودِفْؤُها في القُرِّ مُستَحْقَرُ[٦]
وخُلْقُها خُلْقُ المَلِيك الذي يَنْكُثُ في العهد ولا يَصبِرُ[٧]
ليسَتْ بحسناءَ. وما حُسْنُ مَنْ يَحْسِرُ عنه اللَّحْظُ لا يُبصِرُ[٨]؟

وقال أبو الطيب المتنبي: [من البسيط]

تُسوِّدُ الشَّمسُ منَّا بِيضَ أَوْجُهنا ولا تُسوِّدُ بِيضَ العُذْرِ واللِّمَمِ[٩]
وكان حالُهما في الحكم واحدةً لو ٱخْتَصمْنا من الدُّنْيا إلى حَكَمِ

٦ ـ ذكر ما قيل في الكسوف

رُوِيَ أن الشمس كُسِفَت في عهد رسول الله ﷺ ووافق ذلك موتُ إبراهيم ابن رسول الله ﷺ فقال الناس: إنما كُسِفَت الشمس لأجله فقال النبي ﷺ: «إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتان من آيات الله تعالى يُخَوِّف بهما عباده، وإنهما لا يكسفان

---

(١) الصبّ: العاشق. (٢) تبرّجت: تزيّنت.
(٣) التيفاشيّ: هو أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون، عالِم بالحجارة الكريمة، غزير العلم بالأدب وغيره، من أهل تيفاش من قرى قفصة بأفريقيا، وُلِد بها وتعلّم بمصر، ووُلّي القضاء في بلده، توفي بالقاهرة سنة ١٢٥٣ م، له مصنّفات عديدة. «فهرس الأعلام ١/ ٢٧٣».
(٤) الرّمداء: مَن أصابها الرّمد، وهو مرض يصيب العين فتلتهب منه ويرم منه بياضها وجفناها، والعمشاء: التي أصابها العمش، وهو ضعف يلحق بالعين فيقلّ بصرها ويسيل دمعها.
(٥) الجرم: الجسم.
(٦) الحرور: مفردها حرارة وهي الحرّ، والقُرّ: البرد.
(٧) ينكُثُ: يخلّ. (٨) يحسر: يتعب ويضعف، واللّحظ: النظر.
(٩) العذر: مفردها عِذار، وهو جانب اللحية، واللِّمم: مفردها لمّة، وهي شعر الرأس الذي تجاوز شحمة الأذن.

لموت أحدٍ ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك، فأدعُوا الله وكبِّروا وصلُّوا حتّى يُكشَفَ ما بكم».

وقال محمد بن هانىء[١] في الكسوف: [من البسيط]

هي الحوادثُ لا تُبْقِي ولا تَذَرُ! ما لِلْبَرِيَّة من مَحْتُومِها وَزَرُ[٢]!
لَوْ كان يُنْجِي عُلُوٌّ من بَوَائِقِها لم تُكْسَفِ الشمسُ بل لم يُخْسَفِ القمرُ[٣]!

٧ ـ ذكر أسماء الشمس اللغوية

وللشمس أسماء نطقت بها العرب. فمنها: ذُكاءُ، والجارية، والجَوْنة، والغَزَالة، واللاهة[٤]، والضُّحىٰ، والضِّحُ، ويُوح (بالياء المثناة والباء الموحدة)، والشَّرْق، وحَنَاذِ، والعَيْن، والمؤوِّبة، والسِّراج.

٨ ـ ذكر عُبَّاد الشمس

قال الشهرستانيّ[٥] في كتابه المترجم «بالمِلَل والنِّحَل»: إن عَبَدَة الشمس طائفةٌ من الهنود يُسَمَّوْن الديبكينية[٦] أي عبّاد الشمس؛ ومذهبهم مذهب الصابئة[٧]. وتوجّههم إلى الهياكل[٨] السمٰوية دون قصر الإلٰهية والربويَّة عليها. ويزعمون أن الشمس ملَك من الملائكة، وأن لها نفسًا وعقلًا، ومنها نور الكواكب، وضياء العالم، وتكوّن الموجودات السّفلية. وهي مَلَك يستحق التعظيم، والسجود، والتبخير،

(١) هو محمد بن هاني بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسي، أبو القاسم أشعر المغاربة على الإطلاق، وهو عندهم كالمتنبي عند أهل المشرق، وكانا متعاصرين، له ديوان شعر مطبوع، قُتِل غِيلة في برقة سنة ٩٧٣ م. «فهرس الأعلام ٧/ ١٣٠».
(٢) البَرِيّة: الخلق، والوزر: الملجأ.
(٣) البوائق: مفردها بائقة، وهي الدّاهية أو الشرّ.
(٤) الذي في كتب اللغة أن اللاهة اسم للحيّة، وأما الشمس فاسمها إلاهة، فلعلّ ما هنا تصحيف من الناسخ.
(٥) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد، من فلاسفة الإسلام، كان إمامًا في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة، ويلقّب بالأفضل، توفي في بلده شهرستان سنة ١١٥٣ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢١٥».
(٦) الذي في كتاب الشهرستاني «الدينكيتيّة» وهو الأقرب للصواب، ويقول مترجمه الألماني: لعلّه من «ديناكرت» ومعناه صانع النهار. «المِلَل والنِّحَل ص ٧٢٣ دار الكتب العلمية».
(٧) الصابئة: قومٌ يعبدون النجوم، يقولون: إنّهم على ملّة نوح عليه السلام.
(٨) الهياكل: جمع هيكل، وهو البناء المرتفع المُشرِف، ويُقصَد بالهياكل هنا: النّجوم.

والدّعاءَ. ومن سُنَّتهم[١] أنهم اتخذوا لها صنمًا بيده جوهرة على لون النار. وللصنم بيت خاصٌ بنوه باسمه ووقفوا عليه ضِياعًا، وله سَدَنَة[٢] وقُوّام[٣]. فتأتي هذه الطائفة إلى البيت، ويصلُّون فيه ثلاث كَرَّات[٤]. ويأتي أصحاب العِلَل والأمراض فيصومون له، ويصلُّون، ويدعون، ويستشفون به.

٩ ـ ذكر ما قيل في القمر وهو النَّيِّر الثاني

ذهب وَهْبُ بن مُنَبِّه أن القمر موضوع على عجلة في فَلَك، والفلَك يدور بأمر الله تعالى إلى ناحية المغرب، والعجلة يجرّها ثلثمائة وستون ملكًا إلى ناحية المشرق؛ وتدوير العجلة من تدوير الفلك الأعظم؛ وتدوير فلك القمر من تدوير العجلة.

ويقال: إن القمر كان كالشمس في الضياء. فلم يكن يُعرَف الليل من النهار، فأمر الله تعالى جبريل أن يمرّ عليه بجناحه، فمرّ عليه، فمحاه. فهو ما ترى فيه من السواد.

وبهذا القول فُسِّر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: الآية ١٢].

قالوا: ولا يسمّى قمرًا إلا بعد مضيّ ثلاث ليالٍ من استهلاله. والأقمر هو الأبيض.

١٠ ـ ذكر ما قيل في القمر من استهلاله إلى انقضاء الشهر وأسماء لياليه

قالوا: وللقمر من أوّل الشهر إلى آخره خمسُ حالات؛ ولِلياليه عشرة أسماء.

أما حالاته الخمس:

فالأولى: الهلالية، وهي خروجه من تحت شُعاع الشمس وظهوره في الغرب في أوّل الشهر.

الثانية: أن يفضل[٥] فيه النور على الظلمة، وذلك في الليلة السابعة من الشهر.

---

(١) السُّنَّة: الشريعة.
(٢) السّدنة: خدم بيت العبادة وحجّابه.
(٣) القوّام: الذين يقومون برعايته وخدمته.
(٤) كرّات: جمع كرّة، وهي المرّة.
(٥) يفضل: يزيد.

الثالثة: الاستقبال، وهو كونه في البرج[١] السابع من بروج الشمس، ويسمّى الامتلاءَ لامتلاء القمر فيه نورًا، وذلك في الليلة الرابعة عشرة من الشهر، ويسمّى القمر فيها بدرًا لكماله، ويسمّى بذلك لامتلائه، وقيل: لمبادرته الشمسَ بالطلوع، وتسمّى الليلة التي قبلها (وهي الثالثة عشرة) ليلة السَّواء لاستواء القمر فيها، وقيل: لاستواء ليلها ونهارها في الضياء، وهي ليلة التمام[٢].

الرابعة: أن تفضل الظلمة فيه على النور، وذلك في الليلة الثانية والعشرين من الشهر.

الخامسة: المِحاقيَّة[٣]، وهي مُدَّة استتاره بشُعاع الشمس، ويسمّى ذلك أيضًا سِرارًا، وذلك في الليلة التاسعة والعشرين، ويمكن أن يغيب ثلاث ليالٍ لا يُرى ويهلّ في اليوم الرابع، ويسمّى حينئذٍ قمرًا لا هلالًا؛ والشمس تعطيه من نورها كلَّ ليلة ما يستضيء به نصفُ سُبع قُرصه حتّى يكمل، ثم يُسْلَبُه من الليلة الخامسةَ عشرةَ، في كل ليلة نصف سبع قرصه حتى لا يبقى فيه نور فيستتر.

وأمّا أسماء لياليه، فإنه يقال لأوّل ثلاثة منها غُرَر[٤]، والثانية شُهب، والثالثة زُهْر، والرابعة بُهْر[٥]، والخامسة بِيض، والسادسة دُرَع[٦]، والسابعة حَنادِس[٧]، والثامنةُ ظُلَم، والتاسعة دَآدِ[٨]، والعاشرة ليلتان منها مِحَاق وليلة سِرَار؛ ويسمُّون الليلة الثامنة والعشرين الدَّعْجاء[٩]، والليلة التاسعة والعشرين الدَّهْماء[١٠]، والليلة المُوفِيَةَ ثلاثين اللَّيْلاءَ[١١]، ويسمُّونها ليلة البَرَاء لتبرّي القمر من الشمس.

---

(١) البرج: قسم من اثني عشر قسمًا من دائرة وهميّة في الفلك.
(٢) ليلة التّمام: ليلة أربع عشرة من الشهر القمري، حيث يكون القمر بدرًا.
(٣) المحاقية: من المحاق، حيث يكون القمر في الليالي الثلاث من آخر الشهر القمري محتجبًا.
(٤) الغُرر: البيض. (٥) البُهر: المغمورة بالضوء.
(٦) الدّرع: الليالي السادسة عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة من الشهر القمري.
(٧) الحنادس: المظلمة، والحندس: الليل الشديد الظلمة.
(٨) الدّآد: من الليالي: الشديدة الظلمة.
(٩) الدّعجاء: وهي أولى ليالي المحاق، والدّعج: شدّة السّواد.
(١٠) الدّهماء: الشديدة السّواد، وهي الليلة الثانية من ليالي المحاق.
(١١) الليلاء: الشديدة الظلمة والسّواد.

١١ ـ ذكر أسماء القمر اللُّغوية

وللقمر أسماء نطقَت بها العرب، فمنها: القَمر، والباهر، والبَدْر، والطَّوْسُ، والجَلَمُ، والغاسِقُ، والوَبَّاص، والزِّبْرِقانُ، والمُنْشَقُّ، والواضِح[١]، والباحُور، والأبرص، والزَّمْهَرِير. ومنه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسَان: الآية ١٣]، وقول بعض العرب: [من الرجز]

وليلةٍ ظَلَامُها قد اعتكَرْ قَطَعْتُها والزَّمهرِيرُ ما ظهَرْ[٢]

ومن أسمائه: السِّنِمَّار، والسَّاهُور.

والفَخْت ضوءه، والأَخْذ[٣] مَنزلته، وكذلك الوَكْس، وهي المنزلة التي يُكْسَف فيها. والهالَة دارتُه.

١٢ ـ ذكر ما يتمثّل به مما فيه ذكر القمر

يقال في أمثالهم:

أضْيَعُ من قمر الشتاء! قيل: لأنه لا يُجْلَس فيه.

إن يَبْغِ عليكَ قومُكَ، لا يَبْغِ عليك القمر[٤].

ويقال: أضوأ من القمر، وأتمُّ من البدر.

ومن أنصاف الأبيات:

* أُرِيها السُّهَا[٥] وتُرِينِي القَمَرْ *

* لا تَخْرُجُ الأقمارُ من هالاتها *

* هكذا البَدْرُ في الظَّلام يُوافِي *

* كذاك كُسُوفُ البدرِ عِنْدَ تمامِه *

ومن الأبيات قول الطائيّ: [من الكامل]

إنَّ الهِلَالَ إذا رأيتَ نُموَّه أيقنتَ أنْ سيَكُونُ بَدْرًا كامِلا

(١) الذي في كتب اللغة الوَضح: وهو القمر، فلعله تحريف من الناسخ.
(٢) الزمهرير: شدّة البرد.
(٣) في اللسان مادة «أخذ» ونجوم الأخذ منازل القمر لأن القمر يأخذ كل ليلة في منزل منها.
(٤) بغى: جارَ وظلم. (٥) السُّها: كوكبٌ صغيرٌ خفيّ الضوء.

وقال ابن أبي البغل، والبيت الثاني لابن بحر[١]: [من البسيط]

الـمَرْءُ مِثْلُ هِلَالٍ حيـن تُبْصِرُه   يَبْدُو ضَعِيفًا ضَئِيلًا ثـم يَتَّسِق[٢]
«يَـزْدَادُ حـتّـى إذا مـا تَـمَّ أعْـقَبَـه   كَرُّ الجَدِيدَيْنِ نَقْصًا ثم يَنْمَحق»[٣]

وقال أبو الفرج الببغا[٤]: [من الطويل]

سَتَخْلُصُ مـن هـذا السِّرَار وأيُّمـا   هلالٌ تَوارى في السِّرارِ فما خَلَصْ![٥]

١٣ ـ ذكر ما قيل في وصفه وتشبيهه

من ذلك قول عبد الله بن المعتزّ في الهلال: [من الكامل]

وانْـظُـرْ إلـيـهِ كـزَوْرَقٍ مـن فِـضَّـةٍ   قـد أثْـقَـلَتْـه حُـمـولَةٌ مـن عَـنْـبَـرِ!

وقول عبد الجبار بن حمديس الصقليّ[٦]: [من البسيط]

ورُبَّ صُـبْـحٍ رقَـبْـنـاهُ، وقـد طَـلَعـتْ   بَـقِـيَّـةُ الـبَـدْرِ فـي أُولـى بَـشَـائِرِهِ!
كـأنَّـمـا أدْهَـمُ الإظْـلامِ حـيـنَ نَـجَـا   من أَشْهبِ الصُّبْحِ، ألقى نَعْلَ حافِرِهِ![٧]

وقال آخر: [من المنسرح]

قَـدِ انْـقَـضَـتْ دَوْلـةُ الـصِّيامِ وقـد   بَـشَّـر سُـقْـمُ الـهِـلَالِ بـالـعِـيـدِ!
يَـتْـلُو الـثُّـريَّـا كـفـاغِـرٍ شَـرِهٍ   يَـفْـتَـحُ فـاهُ لأَكْـلِ عُـنْـقـودِ![٨]

---

(١) هو أبو الفرج سلامة بن بحر أحد قضاة سيف الدولة، شاعر رقيق الشعر يجري شعره مع الماء لطافة وسَلاسة. «يتيمة الدهر ١/١٢٩ دار الكتب العلمية».
(٢) يتّسق: يكتمل.
(٣) كرّ الجديدين: تتابع الليل والنهار، وينمحق: يختفي.
(٤) هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي من أهل نصيبين، نجم الآفاق، وأحد أفراد الدّهر في النظم والنثر. «يتيمة الدهر ١/٢٩٣ دار الكتب العلمية».
(٥) السّرار: ليالي المحاق.
(٦) هو عبد الجبار بن حمديس الأزدي الصقلي، أبو محمد، شاعر مبدع، ولد في جزيرة صقلية ورحل إلى الأندلس فمدح المعتمد بن عبّاد، فأجزل عطاياه، توفي بجزيرة ميورقه سنة ١١٣٣ م، وله ديوان شعر مطبوع. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٧٤».
(٧) الأدهم: الأسود، والأشهب: المضيء، وفي الكلام تضادّ.
(٨) الثريّا: مجموعة من الكواكب، والفاغر: الفاتح.

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الخفيف]

فـي هِـلَالٍ كـأنَّـهُ حَـيَّـةُ الـرَّمْـ ـلِ أصابَتْ على اليَفَاع مَقِيلا[١]
باتَ في مِعْصَمِ الظَّلام سِوَارًا وعلى مَفْرَقِ الدُّجَى إكْلِيلا[٢]

وقال آخر: [من الكامل]

والجَوُّ صافٍ والهِلالُ مُشَنَّفٌ بالزُّهرة الزَّهْراء نَحْوَ المَغْرب[٣]
كصَحِيفةٍ زَرْقاءَ فيها نُقْطَةٌ من فضة من تحت نُون مُذْهَب

وقال آخر: [من الخفيف]

قُلْتُ لمَّا دنَتْ لمَغْرِبِها الشَّمْـ ـسُ ولاحَ الهِلالُ للنُّظَّار
أقرضَ الشَّرْقُ صِنْوَه الغَرْبَ دينَا رًا فأعطاهُ الرَّهْنَ نِصْفَ سِوَار[٤]

وقال أبو العلاء المعرّي: [من الطويل]

ولاحَ هِلالٌ مِثْلُ نُونٍ أجادَهَا بذَوْب النُّضَار الكاتِبُ ابنُ هِلال[٥]

وقال آخر: [من الخفيف]

وكأنّ الهِلالَ نُونُ لُجَيْنٍ غَرِقتْ في صَحِيفةٍ زَرْقاء[٦]

وقال أبو عاصم البصريّ[٧]، من شعراء اليتيمة: [من المتقارب]

رأيتُ الهِلالَ، وقد أحْدَقَتْ نُجومُ الثُّريَّا لكي تَسْبِقَه[٨]
فشَبَّهْتُهُ وَهْو في إثْرها وبينَهُما الزُّهْرَةُ المُشْرِقه
بقَوْسٍ لِرامٍ رَمى طائرًا فأتْبَع في إثْره بُنْدُقه[٩]

---

(١) اليفاع: المرتفع من كلّ شيء، يكون في المشرف من الأرض والجبل والرّمل وغيرها.
(٢) السّوار: نوعٌ من الحلي يلبس في معصم اليد.
(٣) مشنّف: مزيّن، والزهرة: نجم، والزّهراء: البيضاء المضيئة.
(٤) الصّنو: النظير والمثيل.
(٥) النّضار: الذهب، وابن هلال: هو إبراهيم بن هلال بن زهرون، أبو إسحٰق الصابيء أوحد الدّنيا في إنشاء الرسائل. «فهرس الأعلام ١/ ٧٨».
(٦) اللّجين: الفضّة.
(٧) أبو عاصم البصري، ورد ذكره في يتيمة الدهر ٢/ ٤٣٢، وهو أحد شعراء البصرة.
(٨) في اليتيمة: «وقد أحدقتهُ» بدلًا من: «وقد أحدقت».
(٩) البندق: رصاص كروي الشكل يستعمل في بعض القذائف للقتال والصّيد.

وقال آخر: [من الوافر]

ولاح لَنا الهِلالُ كشَطْرِ طَوْقٍ … على لَبَّاتِ زَرقاءِ اللِّباسِ[(١)]

وقال الوأواء الدمشقيّ[(٢)] رحمه الله: [من الوافر]

وكأنّ الهِلالَ تَحتَ الثُّرَيَّا … مَلِكٌ فَوْقَ رأسه إكليلُ!

وقال إبراهيم بن محمد المراديّ، من شعراء الأُنموذج[(٣)]، ملغزًا فيه: [من السريع]

دَعْ ذا! وقُلْ للنَّاس: ما طارقٌ … يَطْرُقُكُمْ جَهْرًا ولا يَتَّقِي؟[(٤)]
ليس له رُوحٌ على أنَّهُ … يَرْكَبُ ظَهْرَ الأَدْهَمِ الأَبْلَقِ[(٥)]
شَيْخٌ رأى آدَمَ في عَصْرِهِ … وَهْوَ إلى الآنَ بخدٌّ نَقِي
ومدَّوَسْطَ السِّجْنِ مع قَوْمِه … لا يَنْبَري من نَهْجِه الضَّيِّق
هذا ويَمْشِي الأرضَ في لَيْلةٍ … أَعْجِبْ به من مُوثَقٍ مُطْلَق
فتارةً يَنْزِلُ تحتَ الثَّرى … وتارةً وَسْطَ السَّما يَرْتقي
وتارةً يُوجَدُ في مَغْرِبٍ … وتارةً يُوجَد في المَشْرِق
وتارةً تَحْسَبُه سابِحًا … يَسْرِي بشاطِي البَحْرِ كالزَّوْرَق
وتارةً تَحْسَبُهُ وَهْوَ في … أستارِهِ والبعضُ منه بَقِي
ذُبابةً من صارِمٍ مُرْهَفٍ … بارزةً من جَفْنِه المُطْبَق[(٦)]
يَدْنُو إلى عِرْسٍ له حُسْنُها … يختَطِفُ الأبصارَ بالرَّوْنَق[(٧)]
حتّى إذا جامعها يَرْتَدِي … بحُلَّةٍ سَوْداء كالمُحْرَق

---

(١) اللّبّات: مفردها لبّة، وهي موضع القلادة من العنق.

(٢) هو أبو الفرج محمد بن أحمد الغسّاني الدمشقي، الملقّب بالوأواد، من حسنات الشام، وصاغة الكلام، كان مناديًا في دار البطيخ بدمشق، ينادي على الفواكه، وما زال يشعر حتى جاد شعره وسار كلامه. «اليتيمة ١/ ٣٣٤».

(٣) الأنموذج: من مصنّفات ابن رشيق «وفي اليتيمة ٤/ ٨٥» ذكر لأبي الحسين محمد بن محمد المرادي شاعر بخارى.

(٤) الطارق: الضّيف يأتي ليلًا.

(٥) الأدهم: الحصان الأسود، والأبلق: ما كان في لونه سوادٌ وبياض.

(٦) ذبابة السيف: طرفه الذي يضرب به، والصارم: السيف، والمرهف: المسنون.

(٧) الرّونق: الحسن والإشراق.

وهـو عـلى عـادتِـهِ دائـمًـا ... يُـجـامِـعُ الأنـثـى ولا يـتَّـقِـي
ثـم يَـجُـوبُ الـقَـفْـرَ مـن أجْـلِهـا ... مُـشْـتَـمِـلًا فـي مُـطْـرَفٍ أزرقِ[١]
حـتّـى إذا قـابَـلَـهـا ثـانِـيًـا ... تَـشُكُّه بـالـرُّمْـح فـي الـمَـفْـرِق[٢]
وبَـعْـد ذا تُـلْـبِـسُـه حُـلَّـةً ... يـا حُـسْـنَـهـا فـي لَوْنـهـا الـمُـونِـق!
فـجِـسْـمُـه مـن ذهـبٍ جـامِـدٍ ... وجِـلْـدُه صِـيـغَ مـن الـزِّئْـبَـقِ
وهـو إذا أبـصـرتـه هـكـذا ... أمـلحُ مـن صـاحـبـة الـقُـرْطَـق[٣]

وقال ابن المعتزّ: [من المنسرح]

نَـظَـرْتُ فـي يَـوْمِ لَذَّةٍ عَـجَـبًـا ... وافـى بـه لـلسُّـعـودِ مِـقْـدارُ[٤]
يقـابِـلُ الـشـمـسَ فـيـه بـدرُ دُجـى ... يـأخُـذُ مـن نُـورِهـا ويَـمـتـارُ[٥]
كَـصَـيْـرفـيٍّ يـروحُ مـنـتَـقِـدًا ... فـي كَـفِّـه دِرْهَـمٌ وديـنَـارُ[٦]

وقال عبد الله بن عليّ الكاتب[٧]: [من الخفيف]

كَـشَـفَ الـبـدرُ وجْـهَـهُ لـتـمـام ... فـوُجُـوه الـنُّـجُـوم مسـتَـتِـراتُ[٨]
وكـأنّ الـبَـدْرَ الـتَّـمـامَ عَـرُوسٌ ... وكـأنّ الـنُّـجُـومَ مُـسْـتـنـقِـبـاتُ[٩]

١٤ ـ ذكر شيء مما قيل فيه على طريق الذم

حُكِيَ أنّ أعرابيًا رأى رجلًا يُرقُب الهلال، فقال له: ما ترقب فيه، وفيه عيوب لو كانت في الحمار لَرُدَّ بها؟ قال: وما هي؟ فقال: إنه يهدم العمرَ، ويقرّب الأجل، ويُحِلُّ الدَّين، ويَقْرِض الكتّان[١٠]، ويشجب اللّون[١١]، ويفسد اللحم، ويَفْضَح الطارق، ويَدُلُّ السارق.

---

(١) المطرف: رداء أو ثوب من خزّ مربّع ذو أعلام.
(٢) تشكُّهُ: تطعنه، والمفرق: المكان الذي يفرق فيه الشّعر.
(٣) القرطق: قباء أبيض، وهو تعريب «كُرْتَهْ». «اللسان مادة: قرطق»
(٤) السّعود: يريد طالع السّعد. (٥) يمتار: يجمع نفسه مؤنة من النور.
(٦) الصيرفي: من يبيع النقود بنقودٍ من نوع آخر.
(٧) هو عبد الله بن علي بن جعفر المعروف بالعفيف، شاعر، كان من كتّاب الإنشاء في الدولة المؤيديّة، توفي في زبيد سنة ١٣١٣ م. «فهرس الأعلام ٤/١٠٦».
(٨) تمام البدر: في الليلة الرابعة عشرة من الشهر القمري.
(٩) مستنقبات: أي لابساتٌ النّقاب، وهو ما تستُر المرأة به وجهها.
(١٠) الكتان: نباتٌ له زهر أزرق تنسج منه الثياب، وبذره يستخرج منه زيت للإضاءة.
(١١) يشجب اللون: لعله يُشحِبُ اللّون، وهو تصحيف من الناقل.

ومن عيوبه أن الإنسان إذا نام في ضوئه حدث في بدنه نوع من الاسترخاء والكسل، ويهيج عليه الزكام والصُّداع، وإذا وُضعت لحوم الحيوانات مكشوفة في ضوئه، تغيَّرت طعومها وروائحها.

وقال ابن الروميّ: [من الخفيف]

رُبَّ عِرْضٍ مُنزَّهٍ عن قَبيحٍ دنَّسَته مُعرِّضاتُ الهِجاء[1]
لو أرادَ الأديبُ أن يَهْجُوَ البَدْ رَ، رَماهُ بالخُطَّة الشَّنْعاء[2]
قال: يا بَدْرُ أنتَ تَغْدُرُ بالسَّا ري وتُزْري بزَوْرَة الحَسْناء[3]
كَلَفٌ في شُحُوبِ وجْهِكَ يَحْكِي نُكَتًا فوقَ وَجْنةٍ بَرْصاءِ[4]
يَعْتَريكَ المِحاقُ ثمَّ يُخَلِّيـ ـكَ شَبيهَ القُلامة الحَجْناء[5]
ويَليكَ النُّقصانُ في آخِرِ الشَّهْـ ـرِ فيمْحُوكَ من أديمِ السَّماء[6]
فإذا البَدْرُ نِيلَ بالهَجْوِ، هَلْ يأ مَنُ ذُو الفَضْل ألسُنَ الشُّعراء؟
لا لأجْلِ المَدِيح، بل خِيفَةَ الهَجْـ ـو أخَذْنا جَوائِزَ الخُلَفاء!

هذا ما أمكن إيراده في القمر، فلنذكر خبر عُبّاد القمر.

١٥ ـ ذكر عُبَّاد القمر

قال الشهرستانيُّ: عُبَّاد القمر طائفة من الهنود يسمَّوْن الحندربكتية[7]، أي عُبَّاد القمر، يزعمون أن القمر ملَك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفليّ، ومنه نُضْج الأشياء المتكوّنة واتصالها إلى كمالها؛ وبزيادته ونقصانه تعرف الأزمان والساعات، وهو تِلْو الشمس وقرينها، ومنها نوره، وبالنظر إليها زيادته ونقصانه، ومن سُنَّتهم أنهم اتّخذوا صنمًا على عجلة تجرّه أربعة، وبيده

(١) دنّسته: ألحقت به الدّنس، وهو القبح والعيب.
(٢) الخطّة الشنعاء: الأمر الذي يقبّحه به.
(٣) السّاري: الذي يسير عامة اللّيل، وتُزري تعيب وتستهين.
(٤) الكلف: شيءٌ يعلو صفحة الوجه ويُعرف «بالنّمش»، ونكّت: عاب، والبرصاء: من البرص: وهو داءٌ يُحدث في الجسم بقعًا بيضاء.
(٥) القلامة: من الظفر: ما سقط من طرفه، وهي مثلٌ في الخسّة والحقارة والحجناء: المعْوَجَّة.
(٦) أديم السّماء: ما ظهر منها.
(٧) في كتاب الملل والنّحل للشهرستاني «الجندريكنية» «جندراكا» معناه القمر في لغتهم. «الملل والنّحل ص ٧٢٣».

جوهرة، ومن دينهم[١] أن يسجدوا له ويعبدوه، وأن يصوموا النصف من كل شهر، ولا يفطروا حتى يطلع القمر، ثم يأتون الصنم بالطعام والشراب واللبن، ثم يرغبون إليه وينظرون إلى القمر، ويسألونه حوائجهم؛ فإذا استهلّ الشهر عَلَوْا السُّطوح، وأوقدوا الدُّخَن[٢]، ودعَوْا عند رؤيته، ورغبوا إليه، ثم نزلوا عن السطوح إلى الطعام والشراب والفرح والسرور، ولم ينظروا إليه إلا على وجوه حسنة. وفي نصف الشهر إذا فرغوا من الإفطار، أخذوا في الرقص واللعب بالمعازف[٣] بين يدي الصنم والقمر.

١٦ ـ ذكر ما قيل في الكواكب المتحيّرة

والكواكب الخمسة الباقية من الكواكب السبعة تُسمّى المتحيّرة، ثلاثة منها علويّة تعلو أفلاكُها فلكَ الشمس، وهي: زُحَل، والمشترِي، والمِرّيخ، واثنان سفليّة فلكهما تحت فلك الشمس، وهي: الزُّهرَة، وعُطارد.

وسمّيت هذه الكواكب المتحيّرة، لأنها ترجع أحيانًا عن سَمْت[٤] مسيرها بالحركة الشرقية، وتتبع الغربية، فهذا الارتداد فيها شبه التحيّر.

١٧ ـ ذكر عبّاد الروحانيات[٥] وما احتجّوا به في سبب عبادتهم لها

وعبّاد الروحانيات هم الصابئة، يقال: صبأ الرجل إذا مال وزاغ.

ومذهب هؤلاء أن للعالَم صانعًا فاطرًا حكيمًا مقدّسًا عن سِمات الحدثان[٦].

وكانت الصابئة تقول: إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه، إلى متوسط[٧]؛ ولكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانيًا لا

(١) دينهم: عادتهم واعتقادهم.
(٢) الدُّخن: ما يحدث دُخنة، وهي ما يتبخّر به من الطّيب.
(٣) المعازف: آلات تحدث أصواتًا حين يضرب عليها.
(٤) السّمت: الطريق.
(٥) الروحانيات: وهي مذاهب المؤمنين بالرّوح المترفّعين عن المادّة.
(٦) سمات الحدثان: السِّمة: العلامة، والحدثان: أي ما هو محدث ومخلوق، أي هو منزه عن علامات المخلوقات.
(٧) المتوسط: أي الوسيط.

جسمانيًا[١]. وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها، وقربها من ربِّ الأرباب، والجسمانيّ بشر مثلنا يأكل مما نأكل، ويشرب مما نشرب، يماثلنا في الصورة والمادّة.

قالوا: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٣٤].

وقالوا: الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله، وإنما يتقرّب إليه بالمتوسّطات المقرّبين لديه، وهم الروحانيون المقدّسون المطهّرون، جوهرًا وفعلًا وحالة[٢].

أما الجوهر، فهم المقدّسون عن الموادّ الجسمانية، المبرّؤون عن القوى الجسدانية، أي منزّهون عن الحركات المكانية، والتغييرات الزمانية، قد جُبلوا على الطهارة، وفُطروا[٣] على التقديس والتسبيح: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التّحريم: الآية ٦].

وإنما أرشدنا إلى هذا معلّمنا الأوّل، عاذيمون، وهُرْمُس، فنحن نتقرّب إليهم، ونتوكّل عليهم، وهم أربابنا، وآلهتنا، ووسائلنا، وشفعاؤنا عند ربّ الأرباب، وإله الآلهة؛ فالواجب علينا أن نطهّر نفوسنا من دنس الشهوات الطبيعية، ونهذّب أخلاقنا عن علائق القوى الشهوانية والغضبية، حتى يحصل لنا مناسبة ما بيننا وبين الروحانيات. فحينئذ نسأل حاجاتنا منهم، ونعرض أحوالنا عليهم، ونصبأ[٤] في جميع أمورنا إليهم؛ فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم، ورازقنا ورازقهم، وهذا التطهير والتهذيب ليس إلّا باكتسابنا، ورياضتنا، وفِطامنا لأنفسنا عن دَنِيَّات الشهوات، باستمداد من جهة الرّوحانيات، والاستمداد هو التضرّع والابتهال بالدعوات، وإقامة الصلوات، وبذل الزكوات، والصيام عن المطعومات والمشروبات، وتقريب القرابين[٥] والذبائح، وتبخير البَخُورات[٦]، وتعزيم العزائم[٧]، فيحصل لنفوسنا استعداد أو استمداد من غير واسطة، بل يكون حكمنا وحكم من يدّعي الوحي[٨] واحدًا.

---

(١) جسمانيًا: يعنون به المادة، لأن الجسم يتألف من «مادة» و«روح».
(٢) الحالة: ما كان عليه الإنسان أو الحيوان أو الشيء من هيئة وصفات.
(٣) فطروا: ولدوا، والفطرة: صفة الإنسان الطبيعية.
(٤) نصبأ: ندين ونعتمد، والصابئة: الذين يعبدون النجوم على مذهب نوح عليه السلام كما يزعمون.
(٥) القرابين: ما يُتقرب به إلى الله من ذبيحة أو غيرها.
(٦) البخورات: أصماغ ونباتات ذات رائحة طيبة يتبخّر بها.
(٧) تعزيم الغرائم: قراءة الرُّقى.
(٨) الوحي: ما يُوحى به من الله إلى الأنبياء.

قالوا: والأنبياء أمثالنا في النوع، وأشكالنا في الصورة، ومشاركونا في المادّة، يأكلون مما نأكل، ويشربون مما نشرب، ويساهموننا في الصورة، أناس بشرٌ مثلنا، فمن أين لنا طاعتهم، وبأيّة مزية لهم لَزْم مشايعتهم؟[1] ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٣٤].

قالوا: وأما الفعل، فالروحانيات هم الأسباب المتوسطون في الاختراع، والإيجاد، وتصريف الأمور من حال إلى حال، وتوجيه المخلوقات من مبدإ إلى كمال، يستمدّون القوّة من الحضرة[2] القدسية، ويفيضون الفيض[3] على الموجودات السفلية.

فمنها: مدبّرات الكواكب السبعة السيّارة في أفلاكها، وهي هياكلها، فلكلٌ روحاني هيكل، ولكل هيكل فلك، ونسبة الروحانيّ إلى ذلك الهيكل الذي اختصّ به نسبة الروح إلى الجسد، فهو ربّه ومديره ومدبّره.

وكانوا يسمون الهياكل أربابًا وربما يسمونها آباء، والعناصرَ[4] أُمّهاتٍ.

ففعل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات في الطبائع والعناصر، فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات في المركبات فتتبعها قوًى جسمانية، وتركب عليها نفوس روحانية، مثل أنواع النبات والحيوان. ثم قد تكون التأثيرات كليّة[5] صادرة عن روحانيّ كلّي، وقد تكون جزئية[6] صادرة عن روحانيّ جزئيّ، فمع جنس المطر ملك، ومع كل قطرة مَلَك.

ومنها: مدبّرات الآثار العلويّة الظاهرة في الجوّ مما يصعد من الأرض فينزل مثل الأمطار والثلوج والبَرَد والرياح، وما ينزل من السماء مثل الصواعق والشُّهُب؛ وما يحدث في الجوّ من الرعد والبرق والسحاب وقوس قُزَح وذوات الأذناب[7]

(١) مشايعتهم: اتباعهم والتزام مواقفهم.
(٢) الحضرة القدسيّة: أي من الذّات الإلٰهية لقربهم منها ووجودها معهم.
(٣) الفيض: وهي نظرية فلسفيّة تقول: بإشراق العالم وفيضه عن الله ويفيضون الفيض: أي يشرقون على الناس بأنوار الله.
(٤) العناصر: جمع عُنصر، وهو الجسم البسيط الذي لا يستحيل إلى جسم آخر.
(٥) كلّيّة: جمعها كلّيّات، وهي الفلسفة: الحقائق التي لا تقع تحت حكمَ الحواس بل تدرك بالعقل والمنطق.
(٦) جزئية: جمعها جزئيات، وهي ما يقع تحت حكم الحواس.
(٧) ذوات الأذناب: أي المذنّبات، وهي نجومٌ لها أذناب.

والهالة(١) والمَجَرّة(٢)، وما يحدث في الأرض من الزلازل والمياه والأبخرة إلى غير ذلك.

ومنها: متوسّطات القوى السارية(٣) في جميع الموجودات، ومدبّرات الهداية(٤) الشائعة في جميع الكائنات، حتى لا ترى موجودًا ما خاليًا عن قوّة وهداية، إذا كان قابلًا لهما.

قالوا: وأما الحالة، فأحوال الروحانيات من الرَّوْح(٥)، والرَّيْحان(٦)، والنّعمة، واللذّة، والراحة، والبهجة، والسرور في جوار ربّ العالمين، كيف تخفى؟ ثم طعامهم وشرابهم التسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد، وأُنسهم بذكر الله وطاعته، فمن قائم وراكع وساجد، ومن قاعد لا يريد تبدّل حالته لما هو فيه من النعمة واللذّة، ومن خاشع بصره لا يرفع، ومن ناظر لا يغمض، ومن ساكن لا يتحرّك، ومتحرّك لا يسكن، وكَرُوبيٌّ(٧) في عالم القبض، وروحانيٌّ في عالم البسط ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التّحريم: الآية ٦].

وقد جرت مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء(٨) في المفاضلة بين الروحانيّ المحض(٩) والبشرية النبوية، ليس هذا موضع إيرادها.

فلنذكر إن شاء الله تعالى بيوت الهياكل، تلو ما ذكرناه من عبّاد الروحانيات ومحتجّاتهم!(١٠)

١٨ ـ ذكر بيوت الهياكل وأماكنها ونسبتها إلى الكواكب

قالوا: ثم لم تقتصر الصابئة على التقرّب إلى الروحانيات بأعيانها، والتلقّي بذواتها حتى اتخذوا أصنامًا على هيئة الكواكب السبعة، وجعلوا لها بيوتًا، وسمَّوْا

(١) الهالة: دارة القمر، أو دائرة من الضوء تحيط بجرم سماوي.
(٢) المجرّة: نجوم بعيدة جدًا لا ترى ولكن يدرك أثر ضوئها في السّماء.
(٣) القُوى: العقل.
(٤) الهداية: الدّلالة على ما يوصل به إلى المطلوب من معتقدٍ وغيره.
(٥) الرّوح: الراحة والرحمة.
(٦) الرّيحان: الرزق والرحمة، والريحان: كل نبات طيّب الرائحة.
(٧) الكروبيون: سادة الملائكة المقرّبون الكروبي المقرّب وكرب الأمر: دنا. «الملل والنّحل/ ٢٩٤».
(٨) الحنفاء: من كان على دين إبراهيم في الجاهلية، والدّين الحنيف بعد الجاهلية: هو الإسلام.
(٩) المحض: الخالص الصافي الذي لا يخالطه شيء آخر.
(١٠) محتجّاتهم: أي ما يحتجّون به من القرائن تدليلًا على صواب معتقداتهم وشرحها.

البيوتَ بالهياكل، وجعلوا الهياكل بيوت الأفلاك للكواكب، وعظَّموا هذه الأصنام التي صنعوها، وزعموا أنهم إذا عظَّموها تحرّكت لهم الكواكب السبعة العلويّة بكل ما يريدون.

وحكى المسعوديّ[١] في كتابه المترجم بـ مروج الذهب ومعادن الجوهر أن هذه الطائفة تزعم أن البيت الحرام هيكل زُحَل، وإنما طال بقاء هذا البيت على مرور الدهور، معظمًا في سائر العصور، لأن زُحَل تولّاه؛ إذ من شأنه الثبوت.

ومن البيوت المشهورة:

بيت على رأس جبل أصفهان[٢]، يسمّى مارس[٣]، ثم اتخذه بعض ملوك المجوس[٤] بيت نار؛ وبيت ببلاد الهند؛ وبيت ببلخ[٥]، بناه منوشهر على اسم القمر، وكان الموكل بسدانته[٦] يسمونه برمك، وإليه تنسب البرامكة؛ وبيت غُمْدان[٧] باليمن، بناه الضحّاك على اسم الزُهرة؛ وبيت بفَرْغانة[٨]، على اسم الشمس، يعرف بكاوسكان، بناه كاوس أحد ملوك الفرس، وخربه المعتضد بالله[٩]؛ وبيت ببلاد الصين، بناه ولد عامور بن شوبل بن يافث، وقيل: بناه بعض ملوك الترك.

---

(١) المسعودي: هو عليّ بن الحسين، أبو الحسن، من ذرّيّة عبد الله بن مسعود، وهو مؤرّخ رحّالة، من كتبه «مروج الذّهب» أقام بمصر وتفوي فيها سنة ٩٥٧ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٢٧٧».

(٢) أصفهان: أو أصبهان، وهي أشهر بلاد الجبال وأصلها بالفارسيّة «سباهان» وسباه: معناه عسكر، وهان: الجمع، وكانت مجتمع العساكر. «إعجام الأعلام ص ٢٠٦».

(٣) راجع الشهرستاني الملل والنّحل (ص ٤٣١، ٤٣٢).

(٤) المجوس: طائفة يعبدون النّار أو الشّمس.

(٥) بلخ: هي مدينة في مستوٍ من الأرض، ولها نهر يسمّى الدّهاش يجري في ربضها، وبها الأترج وقصب السكر، وتقع في نواحيها الثلوج. «صبح الأعشى ٤/ ٣٩٥».

(٦) السّدانة: الخدمة.

(٧) غُمدان: قصر في اليمن بناه كما يقول ابن الكلبي: لِيَشرح بن يحصُب، وقيل: بناه سليمان عليه السلام وهو واحد من قصور ثلاثة لبلقيس، وقد هدمه عثمان بن عفّان رضي الله عنه، فقيل له: إنّ كهّان اليمن يزعمون أن الذي يهدمه يقتل، فأمر بإعادة بنائه. «معجم البلدان ٤/ ٢١٠، ٢١١».

(٨) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر، متاخمة لبلاد تركستان، ويقال: إنّ أنوشروان قد بناها، ونقل إليها من كلّ أهل بيت واحدًا وسمّاها«أزهر خانه» أي من كلّ بيت. «معجم البلدان ٤/ ٢٥٣».

(٩) المعتضد بالله: هو الخليفة العباسي السادس عشر، أبو الفتح، أبو بكر بن المستكفي بالله أبي الرّبيع سليمان، توفي في العاشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة، وقال الشهرستاني: إن الذي خرّبه هو المعتصم. «صبح الأعشى ٣/ ٢٨٠».

وحكى غير المسعودي أن البيت الأول الكعبة، ويذكرون أن إدريس عليه السلام أوصى به، وأوصى أن يكون الحجّ إليه وهو عندهم بيت زحل، والبيت الثاني وهو بيت المرّيخ، يزعمون أنه كان بصور من الساحل الشامي[(١)]؛ والبيت الثالث وهو بيت المشتري، كان بدمشق بناه جيرون بن سعد بن عاد، وموضعه الآن الجامع الأمويّ؛ والبيت الرابع وهو بيت الشمس بمصر، ويسمى عين شمس، وآثاره باقية إلى وقتنا هذا[(٢)]؛ والبيت الخامس وهو بيت الزهرة، كان بمَنْبِج[(٣)] وخرِب؛ والبيت السادس بيت عُطارد، وكان بصَيْدا من الساحل الشاميّ وخَرِب؛ والبيت السابع وهو بيت القَمَر، كان بحرّان[(٤)]، وهو بيت الصابئة الأعظم.

الباب الخامس
من القسم الأوّل من الفن الأول

١ ـ في الكواكب الثابتة

ذهب بعض مَن تكلّم في ذلك أن هذه الكواكب معلّقة في سماء الدنيا كالقناديل، وأنها مخلوقة من نور.

وقال آخرون: إنها معلّقة بأيدي ملائكة، وفسّر بهذا القول قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾ [الانفطار: الآيتان ١، ٢]، يقال: انتشارها يكون بموت من كان يحملها من الملائكة.

وهذه الكواكب في سماء الدنيا بنصّ الكتاب العزيز؛ لقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [المُلك: الآية ٥].

---

(١) الساحل الشّامي: حاليًا اللبناني، وصور مدينة لبنانية على الساحل الجنوبي اللبناني، وسمّي الساحل الشامي: نسبة إلى الشّام.

(٢) زالت هذه الآثار الآن.

(٣) منبج: بالفتح ثمّ السكون، بلد قديم، وهو موطن البحتري وأبي فراس، وهي مدينة كبيرة ذات خيرات وأرزاق، وهي لصاحب حلب. «معجم البلدان ٥/ ٢٠٦».

(٤) حرّان: بتشديد الرّاء، قصبة ديار مضر، بينها وبين الرّها يوم وبين الرّقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم، قيل: سمّيت بهاران أخي إبراهيم عليه السّلام لأنّه أوّل من بناها فعرّبت فقيل حرّان، والحرّان: العطشان. «معجم البلدان ٢/ ٢٣٥».

وقال قتادة[١]: خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاثة: جعلها زينة للسماء، ورجومًا[٢] للشياطين، وعلامات يُهتدى بها في البرّ والبحر، فمن تأوّل[٣] غير هذا فقد أخطأ.

قالوا: وإنما سُمّيت بالثّوابت، وإن كانت متحرّكة لأنها ثابتة الأبعاد على الأبد، لا يقرب أحدها من الآخر، ولا يبعد عنه، ولا يزيد، ولا ينقص، ولا تتغيّر عن جهاتها؛ لأنها تتحرّك بحركتها الطبيعية حول قطبي[٤] العالم، ولهذا سُمّيت ثابتة، وهي في فلك ثامن غير أفلاك الكواكب السبعة السيّارة، ودليل ذلك أنّ للكواكب السبعة حركات أسرع من حركات هذه.

٢ ـ ذكر ما يتمثّل به ممّا فيه ذكر الكواكب

يقال: أنأى من كوكب؛ أبعد من مَناط النجم[٥]؛ أهدى من النجم.

ومن أنصاف الأبيات:

* وأيْـنَ نَـزِيـلُ الأَرضِ عِـنـد الـكَـواكِـبِ؟ *

* وأَيْـنَ الـثُّـرَيَّـا مِـنْ يَـدِ الـمُـتَـنـاوِلِ؟ *

* والكَوْكَبُ النَّحْسُ يَسْقي الأرضَ أحْيَانَا *

ومن الأبيات قول أبي تمّام عفا الله عنه: [من الكامل]

كالنَّجم إن سافَرْتَ كان مُوَاكِبًا   وإذا حَطَطْتَ الرحْلَ كان جَلِيسا[٦]

وقال أبو نُوَاس: [من مجزوء الكامل]

أيـنَ الـنُّـجُـومُ الـثَّـابِـتـا   تُ مِـنَ الأَهِـلَّةِ والـبُـدورِ؟

---

(١) قتادة: هو قتادة بن دعامة، أبو الخطّاب السّدوسي الأعمى، الحافظ، المفسّر مات سنة ١١٨ هـ. «الكاشف ٢/ ٣٤١».

(٢) الرجوم: شهبٌ تظهر في السّماء وكأنها نجوم تتساقط، والرّجم: حجارة يرجم بها.

(٣) تأوّل: فسّر، وقدّر الكلام فأخرج معانيه الخفيّة أو البعيدة.

(٤) قطبي العالم: وهما القطب الشّمالي، والقطب الجنوبي.

(٥) المناط: مكان التعليق، ومناط النجم: مكانه الذي يظهر فيه.

(٦) الرّحل: ما يوضع على ظهر الدّابة، ويريد هنا: حططت الرّحل: أي نزلت للإقامة.

وقال آخر: [من الوافر]

وكُنَّا في اجْتِماعٍ كالثُّريَّا ... فصِرْنا فُرْقةً كبَنات نَعْش![١]

وقال آخر: [من الكامل]

كالفَرْقَدَيْنِ إذا تأمَّلَ ناظِرٌ ... لم يُعْلِ موضِعَ فَرْقدٍ من فَرْقدِ[٢]

وقال الوزير أبو الفتح البُسْتيّ[٣]: [من الطويل]

ولِلنَّجْمِ من بَعْدِ الرُّجُوع اسْتِقامةٌ ... وللشَّمْسِ من بَعْد الغُرُوب طُلُوعُ

وقال جَحْظَةُ[٤]: [من مجزوء الكامل المرفّل]

مِثْلُ الَّذي يَرْجُو البُلُو ... غَ إلى الكَوَاكب وهو مُقْعَدْ

وقال عمر بن أبي ربيعة: [من الخفيف]

أيُّها المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلًا ... عَمْرَكَ اللهُ! كَيْفَ يَلْتَقِيانِ؟[٥]

هِيَ شامِيَّةٌ إذا ما اسْتَهَلَّتْ ... وسُهَيْلٌ إذا استهَلَّ يَمَانِي

وقال آخر: [من الوافر]

وكُلُّ أخٍ مُفارِقُه أخُوه ... لعَمْرُ أبِيكَ، إلَّا الفَرْقَدانِ![٦]

---

(١) بنات نعش: سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي، شبِّهت بحملة النّعش.

(٢) الفرقد: نجمٌ قريب من القطب الشمالي.

(٣) هو عليّ بن محمّد بن الحسين، أبو الفتح، شاعر عصره وكاتبه، ولد في بست «قرب سجستان»، وإليها نسبته، كان من كتّاب الدولة السامانية في خراسان، له ديوان شعر مطبوع توفي في بلدة (أوزجند) ببخارى عام ١٠١٠ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٣٢٦».

(٤) هو أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيىٰ بن خالد بن برمك، المعروف بجحظة البرمكي، النديم، أبو الحسن، لقبه ابن المعتز بذلك اللقب، فلزمه مليح الشعر، حاضر النادرة، متقن للموسيقى والغناء توفي سنة ٩٣٦ م. «وفيات الأعيان ١/ ١٣٣، وفهرس الأعلام ١/ ١٠٧».

(٥) الثّريا: مجموعة من الكواكب، وسهيل: نجمٌ في السّماء.

(٦) الفرقدان: مثنّى فرقد، وهو نجم في القطب الشمالي، والفرقدان: نجمان في السّماء لا يغربان، ولكنّهما يطوفان بالجدي. «اللّسان مادة: فرقد».

٣ ـ ذكر ما قيل في وصف الكواكب وتشبيهها

من ذلك ما قاله ابن حَجَّاج[١] في المَجَرّة: [من الكامل]

يا صاحِبَيَّ اسْتَيْقِظَا من رَقْدةٍ تُزْرِي على عَقْلِ اللَّبِيبِ الأَكْيَسِ![٢]
هـذي الـمَجـرّةُ والـنُّجومُ كـأنَّـها نَـهْرٌ تَدَفَّق في حَديقةِ نَرْجِسِ![٣]

وقال آخر: [من الخفيف]

وكـأنَّ الـمَـجَـرّ جَـدْولُ مـاءٍ نَـوّرَ الأُقْـحُـوانُ فـي جـانِـبَـيْـهِ

وقال المهذب بن الزبير فيها[٤]: [من الكامل]

وتَـرى الـمَـجَرَّةَ والـنُّجومَ كـأنَّـها تَـسْـقِـي الـريـاضَ بـجَـدْولٍ مـلآنِ
لو لـم يكُنْ نَهْرًا، لـما عامَتْ بِهِ أَبَدًا نُجُومُ الحُوت والسَّرطَانِ[٥]

وقال أبو هِلال العسكريّ: [من البسيط]

تَبْدُو الـمَـجـرَّةُ مُنْجَرًا ذوائبُـهـا كالماء يَنْساحُ أو كالأَيْم يَنْسابُ[٦]

وقال هشام بن إلياسَ في الجوزاء: [من الكامل]

فـكـأنَّـمـا جَـوْزاؤه فـي غَـرْبـهـا بَـيـضـاءُ سـابـحـةٌ ببركـة زئـبَـقِ[٧]
وكـأنّـمـا أوْمـتْ ثـلاثُ أنـامِـلٍ منها تَقُـول: إلى ثلاثٍ نلتَقي!

وقال آخر: [من الخفيف]

وكـأنَّ الـجَـوْزاءَ لَمَّـا اسْـتَـقَـلَّتْ وتَـدَلَّتْ، سُـرادِقٌ مَـمْـدُودُ[٨]

---

(١) ابن حجّاج: هو حسين بن أحمد، أبو عبد الله، شاعر فحل من كتاب العصر البويهي، غلب عليه الهزل، وفي شعره عذوبة وسلاسة توفي سنة ١٠٠١ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٣١».
(٢) الأكيس: العاقل.
(٣) النّرجس: نباتٌ من الرياحين، أصلُه بصل صغار، له زهرٌ أبيض مستدير.
(٤) هو الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير، أبو محمّد، الملقّب بالمهذب، شاعر من أهل أسوان، توفي بالقاهرة سنة ١١٦٦ م، كان أشعر أهل مصر في زمانه. «فهرس الأعلام ٢/ ٣٠٢».
(٥) الحوت والسّرطان: من أبراج النجوم.
(٦) الذوائب: جمع ذؤابة، وهي شعر مقدّم الرأس، والأيم: ضربٌ من الحيات.
(٧) الجوزاء: برج من بروج السّماء.
(٨) السّرادق: بيت من شعر يمدّ فوق ساحة الدّار.

وقال العلويّ[١] فيها أيضًا: [من السريع]

هـا إنَّـهـا الـجَـوْزاءُ فـي أُفْـقِـهـا وَاهِـيَـةٌ نـاعِـسَـةٌ تُـسْـحَـبُ

نِـطـاقُـهـا وَاهٍ لَـدى أُفْـقِـهـا يَـنْـسَـلُّ منـهـا كَـوْكَـبٌ كَـوْكَـبُ[٢]

وقال ابن وكيع[٣] فيها: [من مجزوء الرجز]

قُـمْ فـاسْـقِـنـي صـافِـيَـةً تَـهْـتِـكُ جُـنْـحَ الـغَـسَـقِ![٤]

أَمَـا تَـرى الـصُّـبْـحَ بَـدَا فـي ثَـوْبِ لَـيـلٍ خَـلَقٍ؟[٥]

أَمَـا تَـرى جَـوْزاءَهُ كـأنَّـهـا فـي الأُفُـقِ

مِـنْـطَـقَـةٌ مِـن ذَهَـبٍ فَـوْقَ قَـبـاءٍ أَزْرَقِ؟[٦]

وقال كعب الغَنَويّ[٧]: [من الطويل]

وقد مالَتِ الجَوْزاءُ حتى كأنّها فَسَاطِيطُ رَكْبٍ بالفَلَاة نُزُولُ[٨]

وقال امرؤ القيس في الثُّرَيَّا: [من الطويل]

إذا ما الثُّريَّا في السَّماء تعرّضَتْ تَعَرُّضَ أثناءِ الوِشاحِ المُفَصَّلِ[٩]

وقال ابن الطَّثَرِيَّة[١٠]: [من الطويل]

إذا ما الثُّرَيَّا في السَّماءِ كأنَّها جُمَانٌ وَهِيَ من سِلْكِهِ، فتبدّدَا[١١]

---

(١) لعلّه أبو البركات علي بن الحسين العلوي، أحد شعراء اليتيمة، اشتهر ببراعة أدبه، ويقول شعرًا صادرًا عن طبعٍ شريف وفكر لطيف. «يتيمة الدّهر ٤/ ٤٨٤».

(٢) النطاق: المدى، والنّطاق: ما تأتزر به المرأة في وسطها، والواهي: الضعيف.

(٣) هو أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع التنيسي، شاعر بارع، وعالم جامع برع في شعره على أهل زمانه، ولم يتقدّمه أحدٌ في أوانه. «يتيمة الدهر ١/ ٤٣٤».

(٤) الغسق: الظلام، وتهتك جُنح الغسق: أي تشق أو تمزق ما أرخى من ظلام.

(٥) خلقٍ: بالٍ، وخلق الثوب: ملُس.

(٦) المنطقة: ما يشدّ به الوسط، والقباء: ثوبٌ يُلبس فوق القميص.

(٧) هو كعب بن سعد بن عمرو الغنوي، شاعر جاهلي، ومن شعراء معركة ذي قار، حيث قتل له أخوان فيها، توفي نحو سنة ٦١٢ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٢٧».

(٨) الفسطاط: البيت من شعر.

(٩) تعرّضت: التعرّض: الاستقبال، والأثناء: النواحي، والوشاح: سيرٌ من الجلد، والمفصّل: الذي فُصل بين خرزه بالذهب أو غيره.

(١٠) هو يزيد بن سلمة بن سمرة، شاعر مطبوع من شعراء بني أميّة، كان حسن الشعر، حلو الحديث، متلافًا للمال، وصاحب غزلٍ وظرف وشجاعة وفصاحة قتله بنو حنيفة سنة ٧٤٤ م. «فهرس الأعلام ٨/ ١٨٣».

(١١) الجُمان: اللؤلؤ، والسِّلك: الخيط الذي ينتظم حبّات العقد.

وقال المبرّد[١]: [من الطويل]

إذا ما الثُّريّا في السَّماءِ تعرّضَتْ يَراهَا حَدِيدُ العَيْنِ ستَّةَ أنْجُمِ[٢]
على كَبِدِ الجَرْباء وَهْيَ كأنَّها جَبِيرةُ دُرٍّ رُكِّبتْ فَوْقَ مِعْصَمِ[٣]

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من الطويل]

فناولَنِيها، والثُّريَّا كأنَّها جَنَّى نَرْجِس حَيَّا النَّدامى بها الساقِي

وقال أيضًا: [من الطويل]

كأنَّ الثُّرَيَّا في أواخِرِ لَيْلِهَا تَفَتُّحُ نَوْرٍ أو لِجامٌ مفضَّضُ[٤]

وقال السلاميّ[٥]، شاعر اليتيمة فيها: [من الخفيف]

فسَمَوْنا، والفَجْرُ يَضْحَكُ في الشَّرْ قِ إلَيْنَا مُبَشِّرًا بالصَّبَاح
والثُّرَيَّا كرايةٍ أو لِجام أو بَنانٍ أو طائرٍ أو وِشَاح
وكأنَّ النُّجومَ في يَدِ ساق يَتَهادَى تَهادِيَ الأقْداح

وقال ابن المعتزّ: [من الطويل]

ولاحَتْ لِسارِيها الثُّرَيَّا كأنَّها على الأُفُقِ الغَرْبيّ قُرْطٌ مُسَلْسَلُ[٦]

وقال أبو نضلة: [من مجزوء الرّمل]

وتَأَمَّلْت الثُّرَيَّا في طُلُوعٍ ومَغِيبِ
فتَخَيَّرْتُ لَهَا التَّشْـ ـبِيهَ في المَعْنى المُصيبِ
وَهْيَ كَأْسٌ في شُرُوقٍ وهي قُرْطٌ في غُرُوبِ

---

(١) هو أبو العباس محمد بن يزيد، المعروف بالمبرّد، عالم نحوي مشهور وهو صاحب كتاب «الكامل في اللغة والأدب» ولد بالبصرة وتوفي ببغداد سنة ٨٩٩ م. «راجع فهرس الأعلام ٧/ ١٤٤».
(٢) حديد العين: شديد البصر، وقويّه.
(٣) الجرباء: السّماء، والجبيرة: ما يشدُّ على العظم المكسور من عيدان أو نحوها.
(٤) النَّور: الزهر، واللّجام: سير تشدّ به الدابة.
(٥) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله السّلامي، من أشهر شعراء العراق قولًا بالإطلاق، وشهادة بالاستحقاق، ولد في كرخ بغداد سنة ٣٣٦ هـ. «يتيمة الدهر ٢/ ٣٩٥».
(٦) القرط: ما يعلّق في شحمة الأذن من درٍّ أو ذهب أو فضّة أو نحوها.

وقال آخر: [من الطويل]

كأنّ الثُّرَيَّا هَوْدَجٌ فَوْقَ ناقَةٍ يَسِير بها حادٍ مَعَ اللّيل مُزْعِجُ
وقد لمعَتْ بَيْنَ النُّجومِ كأنَّها قَوارِيرُ فيها زِئْبَقٌ يَتَرَجْرَجُ[١]

وقال ابن سكرة الهاشميّ[٢]: [من المنسرح]

تَرَى الثُّرَيَّا، والغَرْبُ يَجْذِبُها والبَدْرُ يَهْوِي والفَجْرُ يَنْفَجِرُ
كفَّ عَرُوسٍ لاحَتْ خَوَاتِمُهَا أو عِقْدَ دُرٍّ في البَحْرِ يَنْتَثِرُ

وقال محمد بن الحسن الحاتميّ[٣]: [من الطويل]

وخِلْتُ الثُّرَيَّا كَفَّ عَذْراءَ طَفْلَةٍ مُخَتَّمةٍ بالدُّرّ منها الأنامِلُ[٤]
تخيَّلْتها في الجوِّ طُرَّةَ جَعْبةٍ مُلُوكيّةٍ لم تَعْتَلِقْها حَمَائِلُ[٥]
كأنَّ نِبَالًا سِتَّةً من لآلِئٍ يُوَافِي بها في قُبَّةِ الأُفْق نابِلُ[٦]

وقال أحمد بن إبراهيم الضبّيّ[٧]، شاعر اليتيمة: [من مجزوء الرّجز]

خِلْتُ الثريَّا إذْ بَدَتْ طالعةً في الحِنْدِسِ[٨]
مُرْسَلةً من لُؤْلُؤٍ أو باقَةً من نَرْجِسِ

---

(١) يترجرج: يضطرب ويتحرّك.

(٢) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن سكرة الهاشمي البغدادي وهو من ولد علي بن المهدي بن أبي جعفر المنصور، وهو شاعر متسع الباع في أنواع الإبداع، وأحد الفحول الأفراد. «يتيمة الدهر ٣/٣، وفيات الأعيان ٤/ ٤١٠».

(٣) هو محمد بن الحسن الحاتمي، أبو علي، أديب نقّاد، من أهل بغداد، من كتبه «الرسالة الحاتمية» توفي سنة ٩٩٨ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٨٢».

(٤) الطَفلة: الرّخصة الناعمة.

(٥) الطّرة: الجبهة، وطرف كلّ شيء وحرفُه، والجَعبة: الكنانة، والوعاء التي تجعل فيه السّهام والحمائل: من السيف: أي عواتقه وأضلاعه وصدره. «اللسان: مادة حمل».

(٦) النابل: الذي يرمي بالنّبل.

(٧) هو أحمد بن إبراهيم الضبّي، أبو العبّاس، وزير فخر الدولة البويهي له شعرٌ رقيق، مات في بردجرد ودفن في مشهد الإمام الحسين سنة ١٠٠٨ م. «فهرس الأعلام ١/ ٨٦».

(٨) الحندس: الليل المظلم.

وقال أبو العلاء المعرّيّ في سُهيل: [من الخفيف]

وسُهَيْلٌ كوَجْنَة الحِبِّ في اللَّوْ ... ن وقَلْب المُحِبِّ في الخَفَقان

مُسْتَبِدًّا كأنّه الفارِسُ المُعْـ ... ـلَمُ يُبْدُو مُعَارِضَ الفُرْسان(١)

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من الطويل]

وقَدْ لاحَ لِلسَّارِي سُهَيْلٌ كأنَّهُ ... على كُلِّ نَجْمٍ في السَّماءِ رَقيبُ!

وقال الشريف بن طباطبا(٢): [من الخفيف]

وسُهَيْلٌ كأنَّهُ قَلْبُ صَبٍّ ... فاجَأتْه بالخَوْفِ عَيْنُ الرقيب(٣)

وقال أبو عبادة البُحْتُرِيّ: [من الطويل]

كأنَّ سُهَيْلًا شَخْصُ ظمآنَ جانحٌ ... من اللَّيْلِ في نَهْرٍ من الماءِ يَكْرَعِ(٤)

وقال ابن طباطبا: [من الطويل]

كأنَّ سُهَيْلًا، والنُّجُومُ أمامَه ... يُعَارِضُها، راعٍ أمامَ قَطيعِ

وقال الشريف الرضيّ في الفرقدين: [من الطويل]

وهَبَّتْ لضَوْءِ الفرقَدَيْنِ نَواظري ... إلى أن بَدَا ضَوْءٌ من الفَجْرِ ساطِعُ

كأنَّهُما إلفانِ قال كِلاهُمَا ... لشَخْصِ أخيهِ: قُلْ فإنّيَ سامعُ!

وقال آخر: [من الخفيف]

قُلْتُ للفَرْقَدَيْنِ واللَّيْلُ مُرْخٍ ... سِتْرَ ظَلْمائِه على الآفاقِ(٥)

ابْقَيَا ما بَقِيتُما سَوْفَ يُرْمىٰ ... بَيْنَ شَخْصَيْكُما بسَهْمِ الفِراق!

---

(١) المُعلَم: الفارس الذي يشار إليه بأنّه فارس الكتيبة.

(٢) هو أحمد بن محمد بن إسماعيل بن القاسم، نقيب الطالبيين بمصر، وأحد الشعراء المترقين في الزّهد والغزل، ولد في مصر وتوفي فيها سنة ٩٥٦ م. «فهرس الأعلام ١/ ٢٠٨، وفيات الأعيان ٤/ ٣٦٢».

(٣) الصبّ: العاشق، والرقيب: الحارس الذي يحمي الحريم.

(٤) يكرع: الذي يتناول الماء بفيه من موضعه، والجانح: المائل، والجانب.

(٥) الفرقدان: نجما القطب.

وقال القاضي التُّوخيّ[١]: [من البسيط]

وأشقر الجوّ قد لاحتْ كواكبُه فيه كدُرٍّ على الياقوت مَنْثُور

وقال القاضي الفاضل[٢]، عبد الرحيم من رسالة:

«سِرْنا، وروضةُ السماء فيها من الزهر زَهَر، ومن المجرّة نَهَر؛ والليل كالبَنَفْسَج تخلّله من النجوم أَقَاح، أو كالزَّنج[٣] شعله من الرمح جراح، والكواكب سائرات المواكب لا مُعَرّس[٤] لها دون الصَّباح؛ وسهيل كالظمآن تدلّى إلى الأرض ليشرب، أو الكريم أَنِفَ من المُقام بدار الذُّل فتغرّب؛ فكأنّه قَبَسٌ[٥] تتلاعب به الرّياح، أو زينة قدمها بين يَدَي الصباح؛ أو ناظر يغُضُّه[٦] الغيظ ويفتحه، أو معنًى يغمضه الحسن ثم يشرحه؛ أو صديقٌ لجماعة الكواكب مغاضب، أو رقيبٌ على المواكب مُواكِب؛ أو فارسٌ يحمِي الأعقاب[٧]، أو داعٍ به إليها وقد شَرَدت عن الأصحاب. والجوزاء كالسرادق المضروب، أو الهودج المنصوب؛ أو الشجرة المنوّرة، أو الحبرة[٨] المصوّرة، والثريّا قد همَّ عُنقودها أن يتدلّى، وجيش الليل قد همَّ أن يتولّى».

---

(١) هو القاضي التنوخي، أبو القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم، من أعيان أهل العلم والأدب، كان يتقلّد قضاء البصرة والأهواز، ورد على سيف الدولة فأكرمه، جيد الشعر وحسن الذكر. «يتيمة الدهر ٢/ ٣٩٣».

(٢) هو القاضي الفاضل عبد الرحيم بن القاضي الأشرف، صاحب ديوان الإنشاء، وأحد الشعراء والكتّاب المجيدين، وصاحب الطريقة الفاضلية في الكتابة. «وفيات الأعيان ٣/ ١٥٨».

(٣) الزَّنج: قومٌ من السّودان، مفردها زنجي.

(٤) المعرّس: المكان ينزل فيه المسافر آخر الليل.

(٥) القبس: الضوء، أو النار.

(٦) يغضُّه: يجعله يطرق ويغضي.

(٧) الأعقاب: من الجنود المؤخرة، أو هو يحمي ظهورهم.

(٨) الحبرة: نوع من الثياب القطنية أو الكتانيّة المخطّطة، اشتهرت اليمن بصناعتها.

القسم الثاني
من الفن الأوّل في الآثار العلوية

وفيه أربعة أبواب:

الباب الأوّل
من القسم الثاني من الفن الأوّل

١ ـ في السحاب، وسبب حدوثه، وفي الثَّلْجِ والبَرَد

والسحاب من الآثار العلويّة.

روى أبو الفرج بن الجوزيّ[١] بإسناد يرفعه إلى عبيد ابن عمير[٢]، أنّه قال: يبعث الله ريحًا فتقُمُّ[٣] الأرض، ثم يبعث المُثيرة فتثير السّحاب، وذلك أنها تحمل الماء فتمجُّه، في السحاب، ثم يَمْرِيه[٤] فيَدِرُّ كما تدرّ اللِّقْحة[٥].

وقد رُوِيَ في الأثر أنّ الرياح أربع: ريح تَقُمّ، وريح تُثِير، فتجعله كِسَفًا[٦]؛ وتريح تؤلِّف، فتجعله رُكامًا[٧]؛ وريح تُمْطر.

ورُوِيَ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: إن الله تعالى يرسل الرياح فتُثِير سحابًا، وينزل عليه المطر فتتمخّض[٨] به الريح كما تمخض النَّتوج[٩] بولدها.

---

(١) هو عبد الرحمـٰن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، علامة عصره في التاريخ والحديث، ونسبته إلى مشرعة الجوز في بغداد، توفي سنة ١٢٠١ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٣١٦».

(٢) هو عبيد بن عمير الليثي قاصّ مكة، ذكر ثابت البناني أنه قصّ على عهد عمر، مات سنة ٦٨ هـ. «الكاشف للذهبي ٢/ ٢٠٩».

(٣) تقمّ الأرض: تكنسها.

(٤) يمريه: أمرى الضّرع: درّ لبنها واستخرجه.

(٥) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

(٦) الكسف: الحاجب، وكسفت الشمس: احتُجبت، وكسف الشيء: غطّاه.

(٧) الرُّكام: الشيء يتراكم بعضه فوق بعض، كتراكم السحاب.

(٨) تتمخّض: تتحرّك.

(٩) النتوج: الحامل، يقال للناقة وغيرها نتوج.

ورُوِيَ عن عكرمة(١) رضي الله عنه أنّه قال: يُنزل الله الماء من السماء السابعة فتقع القطرة على السحاب مثل البعير، والسحابُ للمطر كالغربال ينزل منه بِقَدَر، ولولا ذلك لأفسد ما على الأرض.

وقال الزمخشريّ(٢) في تفسيره: السحاب من السماء ينحدر، ومنها يأخذ ماءه لا كزعم من يزعم أنه يأخذ من البحر، ويؤيّد ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النُّور: الآية ٤٣].

٢ ـ ذكر ما قيل في ترتيب السحاب وأسمائه اللغوية وأصنافه

قال أبو منصور، عبد الملك بن محمد الثعالبيّ(٣) في فقه اللغة، ينقله عن أئمّتها:

أوّل ما ينشأ السحاب، فهو نَشْء.

فإذا انسحب في الهواء، فهو السّحابُ.

فإذا تغيَّرت وتغمَّمت له السماء، فهو الغَمَام.

فإذا كان غيم ينشأ في عُرْض السماء فلا تبصره، وإنما تسمع رعده، فهو العَقْر.

فإذا أطلّ وأظلّ السماء، فهو العارِضُ.

فإذا كان ذا رعد وبرق، فهو العَرَّاصُ.

فإذا كانت السحابة قِطَعًا صغارًا متدانيًا بعضُها من بعض، فهي النَّمِرَةُ.

فإذا كانت متفرّقة، فهي القَزَعُ.

فإذا كانت قطعًا متراكمة، فهي الكِرْفِىءُ (واحدتها كِرْفِئَة).

فإذا كانت قطعًا كأنها قطع الجبال، فهي قَلَعٌ، وكَنَهْوَرٌ (واحدتها كَنَهْوَرَةٌ).

---

(١) لعلّه عكرمة أبو عبد الله المفسّر، محدّث ثقة، قال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة مات سنة ١٠٦ هـ وقيل: ١٠٧ هـ. «الكاشف ٢/ ٢٤١».

(٢) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي، أبو القاسم، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب، جاور في مكة زمنًا له مؤلّفات عديدة توفي في الجرجانية من قرى خوارزم سنة ١١٤٤ م. «فهرس الأعلام ٧/ ١٧٨».

(٣) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، ولد في نيسابور سنة ٣٥٠ هـ، عالم باللغة والأدب والتاريخ، واسمه الثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب توفي سنة ١٠٣٨ م. «راجع فقه اللغة للثعالبي، دار الكتب العلمية بيروت».

فإذا كانت قطعًا رِقاقًا، فهي الطَّخَارِيرُ (واحدتها طُخْرُورٌ).

فإذا كانت حولها قطع من السحاب، فهي مُكَلَّلَةٌ.

فإذا كانت سوداء، فهي طَخْياءُ، ومُتَطَخْطِخَة.

فإذا رأيتها وحسبتها ماطرة، فهي مُخَيِّلة.

فإذا غَلُظ السحاب وركب بعضُه بعضًا، فهو المُكْفَهِرّ.

فإذا ارتفع ولم ينبسط، فهو النَّشَاصُ.

فإذا تقطّع في أقطار السماء وتلبَّدَ بعضُه فوق بعض، فهو القَرِدُ.

فإذا ارتفع وحمل الماء وكَثُف وأَطْبَق، فهو العَمَاء، والعَمَاية، والطَّخَاء، والطَّخَاف، والطَّهَاء.

فإذا اعترض اعتراض الجبل قبل أن يطبق السماء، فهو الحَبِيُّ.

فإذا عنّ، فهو العَنَان.

فإذا أظلّ الأرض، فهو الدَّجْن.

فإذا اسودّ وتراكب، فهو المُحْمَوْمِي[١].

فإذا تعلّق سحاب دون السُّحاب، فهو الرَّبَاب.

فإذا كان سحاب فوق سحاب، فهو الغِفَارَةُ.

فإذا تدلّى ودنا من الأرض مثل هُدْب القَطِيفة[٢]، فهو الهَيْدَبُ.

فإذا كان ذا ماءٍ كثير، فهو القَنِيف.

فإذا كان أبيض، فهو المُزْن، والصَّبير.

فإذا كان لرعْده صوتٌ، فهو الهَزِيم.

فإذا اشتدّ صوتُ رعده، فهو الأجَشُّ.

فإذا كان باردًا وليس فيه ماءٌ، فهو الصُّرَّاد[٣].

فإذا كان ذا صوت شديد، فهو الصَّيِّب.

فإذا أهرق ماءه، فهو الجَهَام (وقيل: بل الجَهَام الذي لا ماء فيه).

---

(١) المحمومي: اسم فاعل من احمومى الشيء: إذا اسود، يوصف به نحو السّحاب والليل.

(٢) القطيفة: ثوب يلقيه الرجل على نفسه.

(٣) في فقه اللغة بعده: فإذا كان خفيفًا تسفرُه الريح فهو الزّبرج. «راجع فقه اللغة ص ٢٨٠، دار الكتب العلمية».

٣ ـ ذكر ما قيل في ترتيب المطر

قال الثعالبيّ رحمه الله: أخفُّ المطر وأضعفُه الطَّلُّ، ثم الرَّذَاذُ، ثم البَغْشُ والدَّثُّ ومثله الرَّكُّ، ثم الرِّهْمة.

ويقال أيضًا: أوّله رَشٌّ وطَشّ، ثم طَلٌّ ورَذَاذ، ثم نَضْح ونَضْخ، وهو قَطْرٌ بين قَطْرين، ثم هَطْل وتَهْتانٌ، ثم وابِلٌ وجَوْدٌ.

٤ ـ ذكر ما قيل في فعل السحاب والمطر

يقال إذا أتت السماءُ بالمطر اليسيرِ الخَفِيف: حَفَشت[١]، وحَشَكَت.

فإذا استمرّ قَطْرها، قيل: هَطَلتْ، وهَتَنَتْ.

فإذا صبّت الماءَ، قيل: هَمَعت، وهَضَبتْ.

فإذا ارتفع صوتُ وَقْعها، قيل: ٱنْهَلّت، واستَهلَّتْ.

فإذا سالَ المطرُ بكثرة، قيل: ٱنْكَسَبَ، وانْبَعَقَ.

فإذا سال يركب بعضُه بعضًا، قيل: اثْعَنْجَرَ، واثْعَنْجَجَ.

فإذا دام أيامًا لا يُقْلِع[٢]، قيل: أَثْجَم، وأَغْبَط، وأَدْجَنَ.

فإذا أقْلع، قيل: أنْجَمَ، وأفْصَمَ، وأفْصَى.

٥ ـ ذكر أسماء أمطار الأزمنة

قالت العرب: أوّل ما يبدأ المطر في إقبال الشتاء، فاسمه الخَرِيفُ، ثم يليه الوَسْمِيّ[٣]، ثم الرَّبيع، ثم الصَّيِّف، ثم الحَمِيم[٤].

وقيل: المطر الأوّل هو الوَسْمِيّ، ثم يَلِيه الوَلْيُ[٥]، ثم الصَّيِّف، ثم الحَمِيم.

---

(١) كذا في فقه اللغة، وفي اللسان مادة «حفش» حفشت السّماء تحفش حفشًا: جاءت بمطر شديد ساعة ثم أقلعت، ومثله حشكت وأغبّت، فالحفشة والحشكة والغبّة بمعنى واحد.

(٢) يقلع: ينقطع.

(٣) الوسميّ: مطر أوّل الربيع.

(٤) الحميم: الماء الذي يأتي بعد اشتداد الحرّ.

(٥) الولي: المطر بعد المطر.

٦ ـ ذكر أسماء المطر اللغوية

قال الثعالبيّ:

إذا أحيا الأرض بعدَ موتها، فهو الحَيَا.

فإذا جاء عقيبَ المَحْل أو عند الحاجة إليه، فهو الغَيْثُ.

فإذا دام مع سكون، فهو الدِّيمةُ. والضَّرْب فوق ذلك قليلًا، والهَطْلُ فوقه.

فإذا زاد، فهو الهَتَلَان[١]، والهَتَّان، والتَّهْتانُ.

فإذا كان القطر صغارًا كأنه شَذْرٌ[٢]، فهو القِطْقِطُ.

فإذا كانت مطرة ضعيفة، فهي الرِّهْمَةُ.

فإذا كانت ليست بالكثيرة، فهي الغَيْبَة، والحَفْشَة، والحَشْكَة.

فإذا كانت ضعيفة يسيرة، فهي الذِّهَابُ، والهَمِيمَةُ[٣].

فإذا كان المطر مستمرًّا، فهو الوَدْق.

فإذا كان ضَخْمَ القَطْر شديدَ الوَقْع، فهو الوَابِل.

فإذا انْبَعَق بالماء، فهو البُعَاق.

فإذا كان يروي كل شيءٍ، فهو الجَوْد.

فإذا كان عامًّا، فهو الجَدَا.

فإذا دام أيّامًا لا يُقْلِع، فهو العَيْن.

فإذا كان مستَرْسِلًا سائِلًا، فهو المُرْثَعِنُّ.

فإذا كان كثير القطر، فهو الغَدَق.

فإذا كان شديد الوَقْع كير الصَّوْب، فهو السَّحِيفَةُ[٤].

فإذا كان شديدًا كثيرًا، فهو العِزُّ، والعُبَاب.

---

(١) في نسخة أخرى: فهو الهطلان. (٢) الشّذر: حبّات اللؤلؤ الصغار.

(٣) في فقه اللغة: فهي الذّهاب والهيمة، بإسقاط الميم الأولى، وهو تحريف كما يعلم من مراجعة القاموس. «راجع فقه اللغة ص ٢٨٤».

(٤) نقل صاحب اللّسان «مادة سحف» عن الأصمعي: إن السحيفة بالفاء المطرة الشديدة التي تجرف كل شيء، والسحيقة بالقاف: المطرة العظيمة القطر الشديدة الوقع القليلة العرض، وهو عكس ما نقله النويري والثعالبي.

فإذا جرَف ما مرّ به، فهو السَّحيقَةُ[١].

فإذا قشرتْ وجه الأرض، فهي السَّاحِيَةُ.

فإذا أثّرت في الأرض من شدّة وقعها، فهي الحَرِيصةُ.

فإذا أصابت القطعةَ من الأرض وأخطأت الأُخرى، فهي النُّفْضَةُ.

فإذا جاءت المطرة لما يأتي بعدها، فهي الرَّصْدة، والعِهَادُ نحوٌ منها.

فإذا أتى المطر بعد المطر، فهو الوَلْيُ.

فإذا رجع وتكرّر، فهو الرَّجْعُ.

فإذا تتابَعَ، فهو اليَعْلُولُ.

فإذا جاءت المطرة دَفَعات، فهي الشَّآبِيبُ.

٧ ـ ذكر ما يتمثّل به مما فيه ذكر المطر

يقال: أبردُ من غِبٍّ[٢] المطر، أرقُّ من دَمْع الغمام، أسْرَعُ من السيل إلى الحُدُود، أطغى من السيل، أغْشَمُ من السيل، أمضى من السيل، يذهب يومُ الغيم ولا يُشْعَر به، قد بلغ السيل الزُّبَى[٣]، اِضطره السيل إلى مَعْطَشِه، أرِنيها نَمِره، أُريكَهَا مَطِره؛ سبق سيله مَطَرَه، قبل السحاب أصابني الوَكْف[٤].

ومن أنصاف الأبيات:

* هَلْ يُرْتَجى مَطَرٌ بِغَيْرِ سَحَابِ *
* وأوَّلُ الغَيْثِ طَلٌّ ثم يَنْسَكِبُ *
* سَحَابةُ صَيْفٍ عن قَرِيبٍ تَقَشَّعُ *
* فَدَرّكما دَرّ السَّحاب على الرَّعْدِ *
* أسْرَعُ السُّحْبِ في المَسِير الجَهَامُ *
* ومَنْ يَسُدُّ طَرِيقَ العارِضِ الهَطِلِ؟ *

(١) في فقه اللغة: ص ٢٨٤، السّحيتة. (٢) غبَّ يغِبّ غبًّا: جاء زائرًا بعد أيام.
(٣) الزّبى: جمع زبية الأسد، وهي حفرة تحفر له في مكان مرتفع ليصطاد، مثل يضرب في الشرّ المفظع. «المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ٢/ ١٤، دار الكتب العلمية».
(٤) الوكف: العرق.

* سَحَابٌ عَدَانِي فَيْضُه وَهْوَ صَيِّبُ *
* يَحْسَبُ المَمْطُورُ أنْ كُلٌّ مُطِرْ *
* سالَ بِهِ السَّيْلُ وما يَدْرِي بِهِ *

ومن الأبيات قول الطائيّ: [من الكامل]

وكذا السَّحائبُ، قَلَّمَا تَدْعُو إلى مَعْرُوفِهَا الرُّوّادَ ما لم تَبْرُقِ(١)

وقال البحتريّ عُفي عنه: [من الكامل]

وٱعْلَمْ بأنَّ الغَيْثَ ليس بنافعٍ ما لم يَكُنْ لِلنَّاس في إبَّانِهِ(٢)

وقال أبو الطَّيِّب: [من البسيط]

لَيْتَ الغَمامَ الَّذِي عِنْدِي صَوَاعِقُهُ يُزِيلُهُنَّ إلى مَنْ عِنْدَهُ الدِّيَمُ!(٣)

وقال كُثَيِّر(٤): [من الطويل]

كما أبْرَقَتْ يَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ فَلَمَّا رَجَوْها، أقْشَعَتْ وتجَلَّتِ

وقال آخر: [من الوافر]

أنَا في ذِمَّة السَّحابِ وأظما! إنَّ هذا لَوَصْمَةٌ في السَّحابِ!(٥)

وقال آخر: [من البسيط]

والله يُنْشِي سَحَابًا تَطْمَئِنُّ بِهِ النُّـ ـفُوسُ من قَبْل بَلِّ الأرْضِ بالمَطَرِ

---

(١) في ديوان أبي تمام: دار صعب ص ١٨٨ «إن لم تبرق» والمعروف: هنا المطر، وهو رمز الخير، والرّواد: جمع رائد، وهو الممهّد والسّبّاق.

(٢) إبّانه: أوانه.

(٣) الصواعق: جمع صاعقة، وهي النار الناتجة عن مجرى كهربائي بين سحابتين تسقط من السّماء، والدّيم: جمع دِيمة، وهي الغيمة الممطرة.

(٤) هو كُثَيِّر بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر المعروف بكُثَيِّر عَزَّة، شاعر متيّم، من أهل المدينة له ديوان شعر مطبوع توفي سنة ٧٢٣ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٢١٩».

(٥) الوصمة: العار والعيب.

٨ ـ ذكر شيء مما قيل في وصف السحاب والمطر

قال أبو تَمَّام الطائيّ: [من الرجز]

سَحَابَةٌ صَادِقَةُ الأنْوَاءِ تَجُرُّ أَهْدابًا على البَطْحَاءِ[١]
تَجْمَعُ بَيْنَ الضَّحْكِ والبُكَاءِ بَدَتْ بِنَارٍ وثَنَتْ بماءِ[٢]

وقال أبو عُبادة البُحْتُرِيّ عفا الله تعالى عنه: [من الرجز]

ذات ارْتِجاسٍ بِحَنِينِ الرَّعْدِ مَجْرُورَة الذَّيْل صَدُوق الوَعْدِ[٣]
مَسْفُوحة الدَّمْعِ بِغَيْرِ وَجْدِ لَهَا نَسِيمٌ كَنَسِيمِ الوَرْدِ[٤]
ورنَّةٌ مثل زئير الأُسْد ولَمْعُ برقٍ كسيُوف الهِنْد
جاءتْ بها ريحُ الصَّبا من نَجْدِ فانتشرتْ مثلَ انتثار العِقْد[٥]
وراحتِ الأرضُ بعَيْشٍ رَغْدِ من وَشْي أنوار الثَّرَى في بُرْدِ[٦]
كأنما غُدْرانُها في الوَهْد يَلْعَبْنَ تَرْحابًا بها بالرَّنْدِ[٧]

وقال أبو الحسن عليّ بن القاسم القاشانيّ[٨]، من شعراء اليتيمة عُفي عنه: [من المنسرح]

إذا الغُيُومُ ارْجَحَنّ باسِقُها وحَفَّ أرجاءَها بَوارِقُها[٩]
وعُبِّيتْ للثَّرَى كتائبُها وانتصبتْ وسْطَها عَقائقُها[١٠]
وجَلْجَلَ الرعدُ بَيْنها فحكى خَفْقَ طُبُولٍ ألَحَّ خافِقُها[١١]
وابتسَمَتْ فَرْحةً لوامِعُها واختلفَتْ عَبرةً حَمَالِقُها[١٢]

---

(١) الأنواء: الأمطار، والأهداب: الأطراف، والبطحاء: مكان متّسع منبسط يسيل فيه الماء.
(٢) أي بدأت بالبرق كناية عن النّار ثم تلاه المطر.
(٣) الارتجاس: الرّعد الشديد، وحنين الرّعد: صوته.
(٤) الوجد: العشق.
(٥) الصّبا: الريح الباردة تهبّ من الشرق.
(٦) الوشي: التطريز، والبُرد: الثوب.
(٧) الوهد: الأرض المنخفضة، والرّند: شجرٌ صغيرٌ طيّب الرائحة، أزهاره بيض صغار.
(٨) في اليتيمة ٢/٣٨٧ هو أبو القاسم علي بن القاسم القاشاني، بقيّة الكتاب المتقدمين في البراعة، المالكين لأزمّة البلاغة «وليس أبو الحسن».
(٩) أرجحن: حرّكن، وفي اليتيمة: «أرجفن».
(١٠) العقائق: جمع عقيقة: وهو السّهم الذي يرمى به نحو السّماء، وهي من البرق ضوؤه.
(١١) الخافق: الضارب.
(١٢) الحمالق: العيون.

وقيـل: طُـوبَـى لـبـلدةٍ نُـتِـجـتْ ... بـجَـوِّ أكـنـافِـهـا بَـوَارِقُـهـا
أيَّـةُ نَـعْـمـاءَ لا تَـحُـلُّ بـهـا؟ ... وأيُّ بـأسَـاءَ لا تُـفـارِقُـهـا؟

وقال القاضي التَّنُوخيّ: [من الطويل]

سحابٌ أتى كالأَمْنِ بعد تَخوُّفِ ... له في الثَّرى فِعْلُ الشِّفاء بمُدْنَفِ[(١)]
أكبَّ على الآفاقِ إكْبابَ مُطْرِقٍ ... يُفكِّرُ أو كالنَّادم المُتلهف
ومَدَّ جناحَيْه على الأرض جانِحًا ... فراحَ عَلَيْها كالغُرَاب المُرَفْرِف
غدا البَرُّ بحرًا زاخِرًا وانثنى الضُّحى ... بظلْمته في ثَوْبِ ليلٍ مُسَجَّف[(٢)]
فعبَّسَ عن بَرْقٍ به مُتَبَسِّم ... عُبُوسَ بَخِيلٍ في تبسُّم مُعْتَفِ[(٣)]
تُحاوِلُ منه الشمسُ في الجوِّ مَخْرَجًا ... كما حَاوَلَ المغلوبُ تَجْرِيدَ مُرْهَف[(٤)]

وقال ابن الروميُّ: [من الطويل]

سَحَائبُ قِيسَتْ بالبِلاد فأُلْفِيَتْ ... غِطاءً على أغوارِهَا ونُجُودِهَا[(٥)]
حَدَتْها النُّعَامى مُقْبِلاتٍ فأقْبَلَتْ ... تَهادى رُوَيْدًا سَيْلُها كرُكُودِها

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الطويل]

وبَرْقٍ سَرى، واللَّيْلُ يُمْحَى سَوادُه ... فَقُلْتُ: سِوارٌ في مَعَاصِمِ أَسْمَرَا!
وقد سَدّ عُرْضَ الأُفْقِ غَيْمٌ تَخالُه ... يَزُرُّ على الدُّنيا قَمِيصًا مُعَنْبَرا[(٦)]
تَهادى على أيْدِي الجَنائبِ والصَّبَا ... كخِرْقٍ من الفِتْيانِ نازَعَ مُسْكِرا[(٧)]
تَخالُ بِهِ مِسْكًا وبالقَطْرِ لُؤلؤًا ... وبالرَّوْضِ ياقُوتًا وبالوَحْلِ عَنْبَرا
سَوَادُ غَمَامٍ يَبْعَثُ الماءَ أبيضًا ... وغُرّة أرضٍ تُنْبِتُ الزَّهْرَ أَصْفَرا
أَتَتْكَ بِهِ أَنْفَاسُ رِيحٍ مَرِيضَةٍ ... كمُفْظَعة رَعْناءَ تَشْتاقُ عَسْكَرَا[(٨)]

---

(١) المدنف: المريض.
(٢) المسجّف: الذي غطّى بالسُّجف، وهي الستور.
(٣) المعتفي: طالب المعروف. (٤) المرهف: السّيف.
(٥) الأغوار: ما انخفض من الأرض، والنجود: ما علا منها.
(٦) يزرّ: شدّ الأزرار وأدخلها في العروة، يريد: يلبسها، والمعنبر: ذو الرائحة الطيبة المنبعثة عن العنبر وهو مادّة صلبة تنبعث منها رائحة طيبة إذا أُحرقت.
(٧) الخرق: الفتى الجاهل.
(٨) المفظعة: الشديدة الشنيعة، والرّعناء: الهوجاء.

فألقى على الغُدْرانِ دِرْعًا مُسَرَّدًا وأهدى إلى القِيعانِ بُرْدًا مُحَبَّرًا[١]
تَخال الحَيَا في الجَوِّ دُرًّا مُنظَّمًا وفي وَجَنات الرَّوْضِ دُرًّا مُنَثَّرًا
وأقْبَلَ نَشْرُ الأرْضِ في نَفَسِ الصَّبَا فباتَ بِهِ ثَوْب الهَواءِ مُعَطَّرا
إذا ما دَعَتْ فيه الرُّعُودُ فأسْمَعَتْ أجابَ حُدَاةً واستَهَلَّ فأغْزَرَا[٢]
ويَبْكِي إذا ما أَضْحَكَ البَرْقُ سِنَّهُ فيجْعَلُ نارَ البَرْق ماءً مُفَجَّرا
كأنَّ بِهِ رُؤْدَ الشَّباب خريدَةً قد اتَّخَذَتْ ثِنْيَ السَّحابَةِ مِعْجَرا[٣]
فثغرٌ يُرِينا من بَعِيدٍ تَبَلُّجًا ودَمْعٌ يُرِينَا من بعيدٍ تَحَدُّرَا[٤]

وقال مؤيّد الدين الطُّغرائيّ[٥]: [من الرجز]

سارِيةٌ ذاتُ عُبُوسٍ بَرْقُها يَضْحَك والأجْفانُ منها تَهْمِلُ[٦]
كَحُلَّةٍ دَكْناءَ في حاشِيَةٍ فيها طِرازٌ مُذْهَبٌ مُسَلْسَلُ[٧]
إذا دَنَتْ عِشَارُها، صاحَ بِهَا قاصِفُ رَعْدٍ وحدَتْها الشَّمْأَلُ[٨]

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من البسيط]

ومُزْنةٍ جاد من أجْفانها المطَرُ فالرَّوْضُ منتَظِمٌ والقَطرُ منتَثِرُ[٩]
ترى مواقِعَهُ في الأرضِ لائحةً مِثْلَ الدَّراهِمِ تَبْدُو ثم تَسْتَتِرُ

(١) المسرّد: الدّرع فيه حلقات.
(٢) الحداة: الذين يسوقون الإبل وحدت الريح السّحاب: ساقته، واستهلّ: أمطر.
(٣) الرؤد: من الفتيات: الشابّات الحسناوات، والخريدة: البكر، والمعجر: الثوب تشدّه المرأة على رأسها.
(٤) التبلّج: الضوء الصادر عن الابتسامة، والتحدُّر: السقوط.
(٥) هو الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، أبو إسماعيل، شاعرٌ من الوزراء الكتاب، ولد بأصبهان، واتصل بالسلطان مسعود السلجوقي صاحب الموصل أشهر أشعاره لامية العرب، توفي سنة ١١٢٠ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٤٦».
(٦) السارية: السحابة.
(٧) الحلّة: الثوب، والدّكناء: التي يميل لونها إلى السّواد.
(٨) العشار: يريد الحامل، والعشار: جمع عشراء: وهي الناقة التي مضى على حملها عشرة أشهر.
(٩) المزنة: السحابة.

وقال أيضًا: [من الخفيف]

ما ترى نِعْمَةَ السَّماء على الأر ضِ وشُكْرَ الرِّياضِ للأَمْطارِ؟
وكأنَّ الرَّبِيعَ يَجْلُو عَرُوسًا وكأنَّا مِنْ قَطْرِهِ في نِثَارِ![1]

وقال ابن عوف الكاتب في إطباق الغيم وقُربه: [من مخلّع البسيط]

في مُزْنَةٍ أطبقَتْ فكادَتْ تُصَافِحُ التُّرْب بالغَمام

وقال آخر: [من المتقارب]

تَبَسَّمَتِ الرِّيحُ، ريحُ الجَنُو بِ فِيها هَوًى غالِبًا وأَذْكارا[2]
وساقَتْ سَحَابًا كمِثْلِ الجِبالِ إذا البَرْقُ أَوْمَضَ فيه، أَنَارَا[3]
إذا الرَّعْدُ جَلْجَلَ في جَانِبَيْـ ـهِ، رَوّى النَّباتَ وأَرْوى الصَّحارى
تُطَالِعُنا الشَّمْسُ مِنْ دُونِهِ طِلَاعَ فَتاةٍ تَخَافُ اشْتِهارا
تَخَافُ الرَّقِيبَ على نَفْسِهَا وتَحْذَرُ من زَوْجِها أن يَغَارَا
فتَسْتُرُ غُرَّتَهَا بالخِمَا رِ طَوْرًا، وطَوْرًا تُزِيلُ الخِمَارَا[4]
فلمَّا رآهُ هُبُوبُ الجَنُو بِ وانْهَمَرَ الماءُ فِيه انْهِمارا
تَبَسَّمَتِ الأَرْضُ لَمَّا بكَتْ عَلَيْهَا السَّماءُ دُمُوعًا غِزَارًا!

وقال الأسعد بن بُليطة[5] من شعراء الذُّخيرة: [من الكامل]

لَوْ كُنْتَ شاهِدَنا عَشِيَّةَ أَمْسِنا والمُزْنُ تَبْكِينا بعَيْنَيْ مُذْنِبِ
والشَّمسُ قد مَدَّتْ أَدِيمَ شُعَاعِها في الأَرْضِ تَجْنَحُ غَيْرَ أَنْ لم تَذْهَبِ
خِلْتَ الرَّذَاذَ بُرادةً مِنْ فِضَّةٍ قد غُرْبِلَتْ مِنْ فَوْقِ نِطْعٍ مُذْهَبِ![6]

(١) النثار: قراضة الذهب.
(٢) الاذّكار: التذكُّر.
(٣) أومض: لمع.
(٤) الخمار: الستر، وهو ثوبٌ تغطي به المرأة رأسها.
(٥) هو الأسعد بن إبراهيم بن أسعد بن بلّيطه، أصله من حضرة قرطبة، وتردّد بأقطار الجزيرة شرقًا وغربًا، وكان بها في وقته أحد الغرائب، وأعجوبة في عيون العجائب، شاعر سرد المعاني أحسن سرد. «الذخيرة ٢/ ٧٩٠، ٧٩١».
(٦) البرادة: النثار، والنّطع: أديم من الجلد يفرش.

وقال أبو عبد الله محمد بن الخياط من شعرائها: [من الكامل]

راحَتْ تُذَكِّرُ بالنَّسِيمِ الرَّاحا وَطْفاءُ تَكْسِر للجُنُوحِ جَنَاحَا[1]
أَخْفَى مَسَالِكَهَا الظَّلامُ فأَوْقَدَتْ من بَرْقها، كي تَهْتَدِي، مِصْبَاحَا
وكأنّ صَوْتَ الرَّعْدِ خَلْفَ سَحَابِها حادٍ إذا وَنَتِ السحائبُ، صَاحَا[2]
جادَتْ على التَّلَعَاتِ فاكتَسَتِ الرُّبا حُلَلًا أقامَ لها الرَّبيعُ وِشَاحَا[3]

وقال ابن بُرد الأصغر الأندلسيّ[4] من شعرائها: [من المتقارب]

وما زِلْتُ أحْسَبُ فيه السَّحاب ونارُ بَوارِقِهَا تَلْتَهِبْ
بَخَاتِيَّ تُوضِعُ في سَيْرِهَا وقد قُرِعَتْ بِسِياط الذَّهَبْ[5]

ومما ورد في وصفها نثرًا

قال بعض الأنْدَلُسِيِّينَ من رسالة:

ثم أرسل الله الرياح من كنائنها، وأخرجها من خزائنها؛ فجرَّتْ ذيولَها، وأجرت خيولها؛ خافقة بنودُها، متلاحقة جنودُها؛ فأثارتِ الغمام، وقادَتْه بغير زِمام؛ وأنشأت بَحْرِيَّةً من السَّحاب، ذات أتراب وأصحاب؛ كثيرًا عددُها، غزيرًا مددُها، فبشَّرتْ بالقَطْر كلَّ شائم[6]، وأنذرت بالوِرْد كلَّ حائم[7]، والريح تَنُثُّها[8]، والبرق يحثُّها، كأنه قضيب من ذهب، أو لسان من لهب؛ وللسحاب من ضوء البرق هاد، ومن صوت الرعد حاد؛ والريح توسع بلُحْمتها سَدَاها[9]، وتُسْرع في حياكتها يداها؛ فلما التحم فَتْقُها، والتأم رَتْقُها؛ وامتدّت أشْطانها[10]، واتّسعت أعطانها[11]؛ وانفسحت

---

(١) الرّاح: الخمر، ومن الأيام: الشديد الرّيح، والوطفاء: السّحابة تدلّت ذيولها.
(٢) ونت: ضعفت وأبطأ سيرها. (٣) التلعات: المرتفعات، والرّبا: الأعالي.
(٤) هو أحمد بن محمد بن برد، أبو حفص، شاعر أندلسي، من بلغاء الكتّاب توفي سنة ١٠٤٨ م. «فهرس الأعلام ١/ ٢١٣».
(٥) البخاتي: البخت والبختية: دخل في العربية، أعجمي معرّب، وهي الإبل الخراسانيّة، والبعض يقول: إن البُخت عربي. «اللسان مادة: بخت».
(٦) الشائم: الناظر والمتطلّع ببصره. (٧) الحائم: الطالب.
(٨) تنثها: تنشر عطرها.
(٩) السَّدى: من الثوب: ما مدَّ من خيوطه طولًا.
(١٠) الأشطان: مفردها الشّطن، وهو الحبل الطويل يُستقى به من البئر.
(١١) الأعطان: مفردها العطن: وهو مبرك الإبل، ومربض الغنم عند الماء.

أجنابها، وانسدلت أطنابها؛ وتهدّل خملها[١]، وتمخّض حملها؛ ومدّت على آفاق السماء نطاقَها[٢]، وزرّت على أعناق الجبال أطواقَها[٣]، كأنها بناء على الجوّ مقبوب، أو طَبَقٌ على الأرض مكبوب؛ تمشي من الثقل هَوْنًا، وتستَدْعِي من الريح عَوْنًا؛ ومخايلها تقوى[٤]، وعارضها أحوى[٥]، فلما أذن الله لها بالانحدار، وأنزل منه الوَدْق بمقدار، أرسلت الريحُ خُيوطَ القطر من رُود[٦] السحائب، وأسبلتها إسبال الذوائب؛ فدرَّت من خِلْفٍ مَصْرُور[٧]، ونثرت طلَّها نَثْر الدرور؛ ثم انخرق جيبُها، وانبثق سيبُها؛ وصار الخيط حبلًا، والطلُّ وَبْلًا، فالسحاب يتعلّق، والبرق يتألّق، والرعد يرتجس[٨]، والقطر ينبجس[٩]، والنُّقَط تترامى طِباقًا، وتتبارى اتّساقًا؛ فيَرْدِف السابقُ المصلِّي[١٠]، ويتّصل التابع بالمولّي؛ كما يقع من المُنْخُل البُر، وينتثر من النظام[١١] الدُّرّ؛ فجيوب السماء تُسقطه، وأكفُّ الغُدْران تلقُطه؛ والأرض قد فَتَحت أفواهًا، وجَرَعت أمواهًا؛ حتى أخذت رِيَّها من المطر، وبلغت منه غاية الوطر، خفي من الرعد تسبيحه[١٢]، وطَفِئت من البرق مصابيحه، وحَسَرت السماء نِقابها، وولَّت المطر أعقابها؛ وحكت في ردّها طِلْق السابق[١٣]، وهَرَب الآبق[١٤].

ومن رسالة لمحمد بن شرف القيروانيّ[١٥]:

بريء عليل البرى، وأثرى فقير الثرى، وتاريخ ذلك انصرام[١٦] ناجِر، وقد بلغتِ القلوبُ الحناجر، محمارّةٌ احمرت لها خضرة السماء، واغبرَّت مِرْآة الماء،

---

(١) الخمل: شيء كالزغب على وجه الطنفسة يكون من أصل النسيج، والخملة: القطيفة وهي ثوب يلقيه الرجل على نفسه.
(٢) النطاق: ثوب تلبسه المرأة وتشدّ به وسطها، وواسع النطاق: مترامي الأطراف.
(٣) الأطواق: جمع طوق، وهو ما يحيط بالعنق.
(٤) المخايل: جمع مخيلة وهي من السّحب التي تحسب ممطرة وليست كذلك.
(٥) الأحوى: الذي خلط الحمرة بسواد.
(٦) الرّود: من الأغصان الرّطب الرخيص اللين.
(٧) الخلف المصرور: الضرع الذي شدّ بالصّرار لئلا يُرضع.
(٨) يرتجس: يشتدّ.
(٩) ينبجس: ينهلّ ويتقطّر.
(١٠) المصلّي: الذي يتلو السابق من خيل السّباق.
(١١) النّظام: السلك الذي ينتظم الدرّ في عقد.
(١٢) إشارة إلى الآية الكريم: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرّعد: الآية ١٣].
(١٣) طلق السابق: سرعته وانطلاقه.
(١٤) الآبق: الهارب.
(١٥) هو محمد بن سعيد بن شرف الجذامي القيرواني، أبو عبد الله، كاتبٌ شاعر مترسّل، ولد في القيروان، توفي سنة ١٠٦٨ م. «فهرس الأعلام ٦/١٣٨».
(١٦) انصرام: مُضيّ، وناجر: شهر رجب أو صفر، وكلّ شهرٍ من شهور الصيف.

حتى انهلّ طالعَ وسْمِيّ، وتلاه تابع وليّ، دنا فأسفَّ[١]، ووكَفَ[٢] فما كفَّ؛ فما فتيء مسكوبًا قَطْرُه، محجوبًا شمسه وبدرُه، وجليت عروسُ الشمس، معتذرةً عن مغيبها بالأمس؛ فعندها مُزِّق عن الدقعاء[٣] صحيحُ إهابها[٤]، واختُزِن دُرّ البر في أصداف ترابها، فما مرَّت أيام إلا والقِيعان مسندَسة[٥]، والآكام مطوَّسة[٦].

ومن رسالة لأبي القاسم، محمد بن عبد الله بن أبي الجدّ[٧] في وصف مطر بعد قَحْط:

قال: لله تعالى في عباده أسرار، لا تُدْرِكها الأفكار، وأحكام، لا تنالُها الأوهام. تختلف والعدل مُتَّفِق، وتفترق والفضل مجتمع مُتَّسق؛ ففي مِنَحها نفائس المأمول، وفي مِحَنِها مداوِس[٨] العقول. وفي أثناء فوائدها حدائقُ الإنعام رائقة، وبين أرجاء سرائرها بوارق الإعذار والإنذار خافقة؛ وربما تفتّحت كمائم[٩] النوائب، عن زَهَرات المواهب، وانسكبت غمائم الرّزايا، بنفحات العطايا، وصدع ليلَ اليأس صبحُ الرجاء، وخلع عاملَ البأس والِي الرخاء؛ ذلك تقدير اللطيف الخبير، وتدبير العزيز القدير!

ولما ساءت بتثبط[١٠] الغيث الظُّنون، وانقبض من تبسّط الشك اليقين، واسترابت حياض الوِهاد، بعهود العِهاد[١١]، وتأهّبت رياضُ النِّجاد[١٢]، لبرود الحداد، واكتحلت أجفان الأزهار، بإثمد[١٣] النقع المُثَار، وتعطّلت أجياد الأنوار، من حُلى الديمة المِدْرار، أرسل الله بين يدَيْ رحمته ريحًا بَليلةَ الجَناح، مُخِيلَة النَّجَاح،

---

(١) أسفّ: قرب من الأرض. (٢) وكف: هطل وسال.
(٣) الدقعاء: التراب، أو الأرض لا نبات فيها.
(٤) الإهاب: الجلد، أو القشرة التي تعلو وجه الأرض.
(٥) المسندسة: المزيّنة بالسندس، وهو نوع من رقيق الحرير.
(٦) مطوّسة: صارت كالطاووس في زينتها.
(٧) هو محمد بن عبد الله بن الجدّ الفهري، أبو القاسم، مفتي «لبلة» بالأندلس تقلّد وزارة الراضي بن المعتمد ابن عباس، له شعر ونثر توفي سنة ١١٢١ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٢٨».
(٨) المداوس: مفردها مدوس، وهي خشبة يشدّ عليها المسنّ، يدوس بها الصيقل السيف حتى يجلوه، يريد: مصاقل العقول.
(٩) الكمائم: الزهر قبل أن يتفتّح. (١٠) تثبط: تريّث، وتمهّل.
(١١) العهاد: المطر. (١٢) النّجاد: الأماكن المرتفعة.
(١٣) الإثمد: الكحل، والنّقع: الغبار.

سريعة الإلقاح، فنظمتْ عقودَ السحاب، نظم السِّخاب[١]، وأحكمت برود الغَمام، رائقة الأعلام؛ وحين ضربت تلك المُخِيلَةُ في الأفق قِبابَها، ومدّت على الأرض أطْنابَها، لم تلبث أن انهتك رُواقها، وانبتك[٢] وَشِيكًا نِطاقُها، وانبرت مدامعُها تبكي بأجفان المُشْتاق، غداة الفِراق، وتحكي بَنَان الكرام، عند أريحيّة المُدام، فاستغربت الرياض ضحكًا ببُكائها، واهتزّ رُفَات النبات طَرَبًا لتغريد مُكَّائها[٣]، واكتست ظهور الأرض من بيض إنائها، خُضْرَ مُلائها؛ فكأنّ صنعاء قد نشرت على بسيطها بِساطًا مُفَوَّفًا[٤]، وأهدت إليها من زخارف بَزِّها[٥] ومطارف[٦] وَشْيها ألطافًا وتحفًا، وخُيِّل للعُيون أن زواهر النجوم، قد طلعت من مواقع التُّخُوم[٧]، ومباسم الحسان، قد وصلت بافترار الغيطان[٨]، فيا بَرْد موقِعها على القلوب والأكباد! ويا خلوص ريّها إلى غُلَل النفوس الصوَّاد[٩]! كأنما استعارت أنفاسَ الأحباب، أو ترشَّفَت شَنَب[١٠] الثنايا العِذاب، أو تحمّلتْ ماء الوِصال، إلى نار البلبال[١١]، أو سَرَتْ على أنداء الأسحار وريحان الآصال؛ لقد تبيّن للصنع الجليل، من خلال ديمها تنفّس ونصول، وتمكّنَ للشكر الجميل، من ظلال نعمها معرّس[١٢] ومقيل؛ فالحمد لله على ذلك ما انسكب قطر، وانصدع فجر، وتوقّد قبَس، وتردّد نَفَس؛ وهو الكفيل تعالى بإتمام النعمى، وصلة أسباب الحياة والحيا بعزّته!

وقال الوزير أبو عمرو الباجيّ في مثل ذلك:

إن لله تعالى قضايَا واقعةً بالعدل، وعطايَا جامعةً للفضل؛ ونِعَمًا يبسطها إذا شاء إنعامًا وتَرْفِيهًا، ويقبضها متى أراد إلهامًا وتنبيهًا؛ ويجعلها لقوم صلاحًا وخيرًا،

(١) السّخاب: قلادة تتخذ من قرنفل وغيره، وقيل: كلّ قلادة كانت ذات جواهر أو لم تكن. «اللّسان: ماد سخب».
(٢) انبتك: انقطع.
(٣) المكّاء: طائر صغير يألف الريف، يجمع يديه ثم يصفر فيهما صفيرًا حسنًا.
(٤) المفوّف: الموشّى والمزيّن.
(٥) البزّ: الثياب، ومتاع البيت.
(٦) المطارف: جمع مطرف، وهو رداء من حرير ذو أعلام.
(٧) التخوم: الحدود الفاصلة بين مكانين وأرضين.
(٨) الغيطان: مفردها غاط، وهو المنخفض الواسع من الأرض.
(٩) الصواد: الظامئة.
(١٠) الشنب: الفم رقّت أسنانه وابيضت، والشنب والشنبة: البرودة.
(١١) البلبال: شدّة الهمّ والوسواس.
(١٢) المعرّس: المكان ينزل فيه المسافر للاستراحة.

ولآخَرين فسادًا وضَيرًا، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: الآية ٢٨]، وإنه كان من امتساك السُّقيا، وتوقُّف الحيا؛ ما رِيعَ به الآمن، واستُطِير له الساكن، ورجَفَت الأكباد فزعًا، وذَهَلت الألبابُ جزَعًا، وأذكَتْ ذُكاءُ[١] حَرَّها، ومنعت السماءُ دَرّها؛ واكتسَتْ الأرضُ غُبرة بعد خُضْرة، ولبست شُحوبًا بعد نَضْرة؛ وكادت بُرُودُ الرياض تُطْوَى، ومُدُود نِعَم الله تُزْوَى[٢]؛ ثم نشر الله تعالى رحمته، وبسط نِعمته، وأتاح مِنَّته، وأزاح مِحْنته؛ فبعث الرياح لَوَاقِح، وأرسل الغَمَام سَوَافِح؛ بماء يتدفَّق، ورَوَاء غَدَق، من سماء طَبَق؛ استهلَّ جفنها فدمَع، وسمح دمعها فهَمَع[٣]، وصاب وعبْلُها فنقع[٤]؛ فاستوفت الأرضُ رَيًّا، واستكملت من نَباتها أثاثًا[٥] ورِيًّا؛ فزينة الأرض مشهورة، وحُلَّة الزهر منشورة، ومِنَّة الربّ موفورة؛ والقلوب ناعمة بعد بُؤسها[٦]، والوجوه ضاحكة إثر عُبُوسها؛ وآثار الجَزَع ممحوّه، وسُوَر الشكر متلوّة؛ ونحن نستزيد الواهب نعمة التوفيق، ونستهديه في قضاء الحقوق إلى سَواء الطريق؛ ونستعيذ به من المِنَّة أن تعود فتنة، والمنحة أن تصير محنة! والحمد لله ربّ العالمين.

٩ ـ ذكر شيء مما وصف به الثلج والبَرَد

قال أبو الفتح كشاجم[٧]: [من البسيط]

الثَّلْجُ يسقُطُ أم لُجَيْنٌ يُسْبَكُ ... أم ذا حَصى الكافور ظَلَّ يُفرّكُ؟[٨]
راحتْ به الأرضُ الفَضاءُ كأنَّها ... في كُلِّ ناحيةٍ بثَغْر تَضْحَكُ!
شابَتْ ذوائبُها فبَيَّنَ ضَحْكَها ... طربًا وعَهْدِي بالمَشِيب يُنَسِّكُ!
وتَرَدَّت الأشجارُ منه مُلاءةً ... عَمَّا قَليلٍ بالرِّياحِ تُهَتَّكُ![٩]

---

(١) ذكاء: الشمس. (٢) تزوى: تذهب وتُنحّى.
(٣) همع: يقال: همعت العين: أي دمعت وأسالت الدّمع.
(٤) الوبل: المطر، ونقع: روى. (٥) أثاثًا: آثّ النبات: تكاثف والتفّ.
(٦) بوسها: أي بؤسها.
(٧) هو محمود بن حسين أو (ابن محمد بن الحسين) ابن (سندي بن شاهك) شاعر متفنّن، أديب، من كتاب الإنشاء، من أهل الرملة بفلسطين، فارسي الأصل، استقر في بلاط سيف الدّولة بحلب توفي سنة ٩٧٠ م. «فهرس الأعلام ٧/١٦٧، ١٦٨».
(٨) الكافور: نبتٌ طيّب زهره كزهر الأقحوان. (٩) تهتّك: تفتضح.

وقال أيضًا: [من المنسرح]

ثَلْجٌ وشمسٌ وصَوْبُ غاديةٍ فالأَرْضُ من كُلِّ جانب غُرَّه!
باتت، وقِيعانُها زَبَرْجدةٌ فأصبحَتْ قد تحوّلتْ دُرّه![1]
كأنّها والثُّلوجُ تُضحِكُها تُعار ممن أُحبُّه ثَغْرَه!
شابَتْ فسُرَّتْ بذاك وابتهَجَتْ وكان عهدي بالشَّيْب يُسْتَكْره!

وقال الصاحب ابن عبّاد[2]: [من الخفيف]

أقْبَلَ الثَّلجُ في غلائل نَوْرٍ تَتَهادَى بلؤلؤ مَنْثُورِ![3]
فكأنّ السماءَ صاهَرَتِ الأر ضَ فصار النِّثار من كافُورا![4]

وقال النميريّ[5]: [من الكامل]

أهدى لنا بَرَدًا يَلُوحُ كأنّه في الجوّ حَبُّ لآلِيءِ لم يُثْقَبِ
أو ثَغْرُ حَوَاءِ اللِّثاتِ تَبَسَّمَتْ عن واضِح مثل الأَقَاحي أَشْنَب![6]

الباب الثاني

من القسم الثاني من الفن الأوّل

في النيازك، والصواعق، والرعد، والبرق، وقوس قُزَح

أ ـ فأما النيازك[7]

فهو ما يُرى من الذوائب المتّصلة بالشُّهُب والكواكب.

---

(١) الزبرجد: حجر كريم يشبه الزمرّد، وهو ذو ألوان كثيرة، أشهرها الأخضر المصري والأصفر القبرصي.
(٢) هو إسماعيل بن عبّاد بن العبّاس، أبو القاسم الطالقاني، وزير غلب عليه الأدب فكان من نوادر الدّهر علمًا وفضلًا وتدبيرًا وجودة رأي، توفي بالرّي سنة ٩٩٥ م. «فهرس الأعلام ١/ ٣١٦».
(٣) الغلائل: مفردها غلالة، وهي ثوب رقيق يلبس تحت الدّثار.
(٤) النّثار: قراضة الذهب، والكافور نبات طيّب الرائحة.
(٥) لعلّهُ الشاعر النُميري محمد بن عبد الله الثقفي، شاعر غزل من شعراء العصر الأموي ولد ونشأ وتوفي بالطائف نحو سنة ٧٠٨ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٢٠».
(٦) الأشنب: شديد بياض الأسنان.
(٧) النيازك: جمع نيزك، وهو جرمٌ صغير يسقط أحيانًا شهابًا نيّرًا إلى الأرض.

رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال لجماعة من الأنصار: «ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يُرمى به؟ قالوا: يا رسول الله، كنّا نقول إذا رأيناها يرمى بها: مات ملك، ولد مولود»، فقال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك كذلك، ولكن الله تعالى كان إذا قضى في خلقه أمرًا سمعه الملائكة فيسبّحون، فيسبِّح مَن تحتهم لتسبيحهم، فيسبِّح من تحت أولئك حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبّحون، ثم يقولون: ألا تسألون من فوقكم ممّا يسبّحون؟ فيقولون: قضى الله في خلقه كذا وكذا، للأمر الذي كان؛ فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيتحدّثون به، فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف. ثم يأتون به الكُهَّان، فيصيبون بعضًا، ويُخطئون بعضًا. ثم إن الله تعالى حجب الشياطين بهذه النجوم التي يُقْذَفون بها، فانقطت الكَهَانة[1]، فلا كَهَانَة اليومَ».

والشهب التي يُقذف بها الشياطين غير النجوم الثوابت التي منها البروج والمنازل؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [المُلك: الآية ٥].

وقال بعض الشعراء: [من البسيط]

وكَوْكَبٍ نَظَرَ العَفْريتَ مُسْتَرِقًا ... للسَّمْعِ فانْقَضَّ يُذْكي إثْرَه لَهَبَه[2]
كفارسٍ حلَّ من تِيهِ عمامَته ... وجَرَّها كُلّها من خَلْفِه عَذَبَه[3]

وكتب ابن الحرون إلى صديق له، وقد كثر انقضاض[4] الكواكب، وذلك في أيام المتوكّل على الله:

أمّا بعد؛ فإن الفلك قفد تفرَّى[5] عن شُهُبٍ ثواقب[6]، كنيران الحُبَاحِب[7]، مُتَّقِدَة كشرر الزنود، وشُعَل زُبَر الحديد؛ مازجها عرض حمرة البَهْرَمَان[8]، وصفرة

(١) الكهانة: حرفة الكاهن الذي يتنبأ بالغيب ويدّعي معرفة أسراره وأحواله.
(٢) يذكي: يُوري.
(٣) العذبة: طرف الشيء، يقال: عذبة السّوط، وعذبة الفَنن، وعذبة اللسان.
(٤) انقضاض: سقوط.
(٥) تفرّى: انشق، وتفرّت العين: انشقت ونبع منها الماء.
(٦) الثواقب: المضيئة.
(٧) نار الحباحب: ما تطاير من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة أو نحو ذلك.
(٨) البهرمان: النسبة من البهرم، وهو العُصفر.

العِقْيَان[١]، فهي كأرْسال[٢] جرادٍ منتشِر، وهشيمٍ ذَرَتْه ريحٌ صرصَرٌ[٣]، في سُرْعة الكفِّ، ووَحَى[٤] لحظِ الطَّرْف.

ب ـ وأمّا الصواعق

فهي ما قاله الزمخشريّ في تفسيره: الصاعقة قصفة من رعد ينقضُّ معها شُقَّة من نار.

وقالوا: إنها تنقدح من السحاب إذا اصطكّت أجرامُه، وهي نار لطيفة حديدة لا تمرّ بشيء إلا أتت عليه، إلّا أنها مع حدّتها سريعةُ الخمود، على أنّها متى سقطت على نخلة أحرقت عاليَها.

وقال صاحب كتاب «مناهج الفكر ومباهج العبر» في كتابه:

ومن عجيب شأنها أنها تحرق ما في الكِيس، ولا تُحْرِق الكِيس؛ وإن احترق فإنما يحترق باحتراق ما ذاب فيه وسال، قال: وهي إذا سقطت على جبل أو حجر كلسته ونفذته، وإذا سقطت في بحر غاصت فيه وأحرقت ما لاقت من جوانبه، وربما عرض لها عند انطفائها في الأرض برد ويبس، فتكوّن منها أجرام حجرية، أو حديدية، أو نحاسية، وربما طبِعَت الحديد سيوفًا لا يقوم لها شيء.

ج ـ وأمّا الرعد وما قيل فيه

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرّعد: الآية ١٣]، قال المفسّرون: الرعد مَلَكٌ موكل بالسحاب، معه كَرٌّ[٥] من حديد، يسوقه من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي إبله؛ فكلّما خالف سحاب، صاح به فزجره، فالذي يُسْمَع هو صوت المَلَك.

وقال الزمخشريّ من تفسيره: الرعد الذي يسمع من السحاب، كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتفض إذا حَدَتها[٦] الريح فتصوّت عند ذلك.

وأمّا صوت الرعد، تقول العرب: رَعَدت السماء.

فإذا ازداد صوتها، قيل: ارتَجَسَتْ.

---

(١) العقيان: الذّهب.
(٢) أرسال: جماعات.
(٣) الصّرصر: الشديدة البرد والصوت.
(٤) الوحى: السرعة.
(٥) الكرّ: الحبل.
(٦) حدتها الرّيح: ساقتها.

فإذا زاد، قيل أرزَمَت، وقَعْقَعَتْ[١].

فإذا بلغت النهاية، قيل: جَلْجَلَتْ، وهَدْهَدَتْ.

المثـــل

رُبَّ صَلَفٍ تحت الراعدة[٢]. (للبخيل المتكبّر).

د ـ وأما البرق وما قيل فيه

فقد ذهب المفسّرون لقول الله تعالى إلى أنه ضَرْبُ المَلَك الذي هو الرعد للسحاب بمِخْراق[٣] من حديد، وروي عن مجاهد[٤]: إن الله عزّ وجلّ وكّل بالسحاب مَلَكًا، فالرعد قَعْقَعة صوته، والبرق سَوْطه.

وأما ترتيبه في لمعانه

تقول العرب إذا برق كأنه يتبسّم، وذلك بقدر ما يريك سوادَ الغَيْم من بياضه: اَنكَلَّ اَنكلالًا.

فإذا بدا من السماء برقٌ يسير، قيل: أوْشَمَت السماءُ، ومنه قيل: أوشَمَ النبتُ (إذا) أبصرت أوّلَهُ.

فإذا بَرَق بَرْقًا ضعيفًا، قيل: خَفَا.

فإذا لمع لمعًا خفيفًا، قيل: لَمَحَ، وأَوْمَضَ.

فإذا تشقّق، قيل: اَنعقَّ انْعِقَاقًا.

فإذا ملأ السماء وتكشف واضطرب، قيل: تبوَّجَ.

فإذا كثر وتتابع، قيل: ارتَعَجَ.

فإذا لمع وأطْمَعَ ثم عَدَلَ، قيل له: خُلَّبٌ.

---

(١) عبارة فقه اللغة ص ٢٨١ دار الكتب العلمية: فإذا زاد قيل: أرزمت ودوّت، فإذا زاد واشتدّ: قيل قصفت وقعقعت. ويقال: قعقع الشيء: أحدث صوتًا عند التحريك.

(٢) الصلف: التكبُّر والغرور.

(٣) المخراق: السيف أو منديل أو نحوه يلوى، فيضرب به.

(٤) هو مجاهد بن جبر، مولى بني مخزوم، تابعي، مفسّر من أهل مكة، قال الذهبي: شيخ القرّاء والمفسرين مات سنة ١٠٣ هـ بمكة. «فهرس الأعلام ٥/٢٧٨».

المثـــل

«ليس في البرق اللَّامِعِ مُسْتَمْتَعٌ».

هـ ـ ذكر ما قيل في وصف الرعد والبرق

قال أبو هلال العسكريّ، عفا الله عنه: [من الكامل]

والـرّعـدُ فـي أرجـائـه مُـتَـرنِّـم والـبـرقُ فـي حـافـاتـه مـتـلَهِّـبُ[(١)]
كالبُلْق ترمَحُ، والصَّوارمُ تُنْتَضَى والجوّ يَبْسِمُ، والأنامل تَحْسُبُ[(٢)]

وقال آخر: [من الطويل]

إذا وَنَتِ السُّحْبُ الثِّقالُ وحثَّها من الرعد حادٍ ليس يُبْصِرُ أكْمَهُ[(٣)]
أحـاديـثُـه مُـسْـتَـهْـوِلاتٌ وصَـوْتُـه إذا انخفضت أصواتُهُنّ مُقَهْقِهُ[(٤)]
إذا صـاح فـي آثـارهـنّ حـسِـبْـتَـه يـجـاوبُـه مـن خَلْفِـه صـاحـبٌ لـه

وقال ابن الدقّاق الأندَلُسيّ: [من الطويل]

أرى بـارقًـا بـالأبلق الـفَـرْد يُـومِـض يُذَهِّب أكناف الدُّجَى ويُفَضِّضُ[(٥)]
كأنَّ سُلَيْمَى من أعاليه أشْرَفَتْ تَمُدّ لنا كفًّا خضيبًا وتَقْبِضُ[(٦)]

وقال إبراهيم بن خفاجة الأنْدَلُسيّ[(٧)]: [من المتقارب]

ويـــوم جَـــرى بـــرقُـــهُ أشْـــقَـــرًا يُـطـارِدُ مـن مُـزْنـه أشْـهَـبـا[(٨)]
تَـرى الأرضَ فـيـه وقـد فُـضِّـضَـتْ ووجـهَ الـسَّـمـاءِ وقـد ذُهِّـبَـا!

---

(١) حافاته: أطرافه وأواخره.
(٢) البلق: مفردها أبلق: وهو الفرس ونحوه إذا كان فيه سواد وبياض.
(٣) وَنت: فترت وضعفت، والأكمه: الأعمى.
(٤) مستهولات: من استهول الشيء أو الأمر: استفظعه.
(٥) أكناف: جواب، والدّجى: الليل.
(٦) الخضيب: المصبوغ بالحنّاء، وأشرفت: أطلّت.
(٧) هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله، الهواري الأندلسي، شاعر غزل رقيق من الكتّاب البلغاء، غلب على شعره وصف الرّياض والطبيعة. «فهرس الأعلام ١/ ٥٧».
(٨) الأشهب: ما كان لونه الشهبة، وهي بياض غلب على السواد، أو خالطه السّواد.

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبيّ[١]، شاعر الذخيرة: [من الطويل]

ولما تجلَّى اللَّيْلُ والبَرْقُ لامِعٌ كما سَلَّ زَنْجيٌّ حُسامًا من التِّبرِ[٢]

وبِتُّ سَمِيرَ النجم وهو كأنّه على مِعْصم الدّنيا جبائرُ من دُرّ[٣]

وقال محمد بن عاصم[٤]، شاعر الخريدة عفا الله عنه: [من الطويل]

أضاءَ بوادِي الأثْلِ واللَّيْلُ مُظْلِمُ بُرَيْقٌ كحدِّ السَّيْف ضَرَّجَهُ الدَّمُ[٥]

إذا البرقُ أجرى طَرْفه فصهيله إذا ما تفرَّى رعدُه المُتَرَنِّمُ

فشبّهتُه إذ لاحَ في غسَق الدُّجى بأسنانِ زَنْجِيٍّ بَدَتْ تتبسَّمُ

وقال أيضًا: [من الكامل]

والبرقُ يَضْحَك كالحبيب وعِنْده رَعْدٌ يُخَشِّنُ كالرَّقيب مَقَالَهُ!

وقال آخر: [من المتقارب]

أرِقْتُ لبرقٍ غَدَا مَوْهِنًا خَفِيٍّ كغَمْزِكَ بالحاجب

كأنَّ تألُّقَه في السما يدَا كاتبٍ أو يدَا حاسِبِ

وقال عبد الله بن المعتزّ، يشير إلى سحابة: [من السريع]

رأيتُ فيها بَرْقها مُنْذُ بدتْ كمثل طَرْف العين أو قَلْبٍ يُجِبْ

ثم حَدَتْ بها الصَّبا حتّى بدا فيها إلى البرق كأمثال الشُّهُب[٦]

تَحْسَبُه فيها إذا ما انْصَدَعَتْ أحْشَاؤها عنه شُجاعًا يَضْطَرِبْ[٧]

وتارةً تُبْصِرُه كأنّهُ أبْلَقُ مالَ جُلُّه حِينَ وَثَبْ[٨]

حتّى إذا ما رَفَعَ اليَوْمُ الضُّحَى حَسِبْتَه سَلَاسَلًا مِنَ الذَّهَبْ

---

(١) هو أبو أحمد، عبد العزيز بن خيرة القرطبي، المشتهرة معرفته بالمنفتل، وليس أحمد بن عبد العزيز كما أورده صاحب النهاية وقال عنه صاحب الذّخيرة: هو ممن نثر الدرّ المفصّل، وطبّق في بعض ما نظم المفصل. «الذخيرة ٢/ ٧٥٤، دار الثقافة بيروت».

(٢) التّبر: الذهب.

(٣) السّمير: الأنيس، والجبائر: ما يجبر بها العظم إذا انكسر.

(٤) هو محمد بن عاصم الموقفي، ويقال له: ابن عاصم، من شعراء اليتيمة مصري، في شعره رقة وإجادة وصف توفي سنة ٨٣٠ م. «فهرس الأعلام ٦/ ١٨١».

(٥) الأثل: شجر من الفصيلة الطرفاوية، طويل مستقيم، يعمّر، جيّد الخشب.

(٦) الصّبا: ريحٌ تهبّ من الشرق، والشُّهب: مفردها شهاب وهو الشعلة الساطعة من النار.

(٧) الشّجاع: الأفعى.

(٨) الأبلق: الحصان الذي لونه سوادٌ وبياض.

قوله شجاعًا يضطرب مأخوذ من قول دِعْبِل[١]: [من الطويل]

أرِقْتُ لبَرْقٍ آخِرَ اللّيلِ مُنْصِب خَفِيٍّ كبطنِ الحَيَّة المُتَقَلِّبِ[٢]

وقال أيضًا: [من البسيط]

ما زِلْتُ أكْلأُ بَرْقًا في جَوانِبه كَطَرْفَةِ العَيْنِ تَخْبُو ثم تَخْتَطِفُ[٣]
بَرْقٌ تجاسَرَ من حَفَّان لامِعُه يَقْضِي اللُّبانَةَ من قَلْبي ويَنْصَرِفُ[٤]

و ـ وأمّا قوس قزح وما قيل فيه

قالوا: وإنما سمّي بذلك لتلوّنه.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يكره أن يسمّيَه قوس قُزَحَ، ويسمّيه قوس الله، ويقول: قُزَحُ اسم الشيطان.

وزعم القدماء في علة تلوّنه وتكوّنه، أنه إذا تكاثف جزء من الهواء بالبرد ثم أشرق عليه نور بعض الكواكب انصبغ ذلك الجزء، وانعطف منه الضوء إلى ما يليه من الهواء، كالحمرة الصافية إذا طلعت عليها الشمس سطع نُورها، وانعطف منه ألوان مختلفة إلى ما يقرب منها، وحمرته وصفرته من قِبَل الرُّطوبة واليُبْس.

قالوا: وقياس ذلك النارُ، فإنها إذا كانت من حطب رَطْب، كان لونها أحمر كَدِرًا[٥]، فإن كانت من حطب يابس، كان لونها أصفر صافيًا.

وقال آخرون: القوس يحدث عن رطوبة الهواء وصقالته[٦]، حتى يمكن أن ترسم فيه دائرة الشمس كما تُرسم الأشباح في المَرَايا، وتشتبك الأشعة بما يكون فيه البخار الرطب فيتولّد، فيكون منها تلك الألوان. وإنما توجد دائرة على الناظر؛ لأن الشمس أبدًا تكون في قفاها، ولذلك تُرى في مقابلة الجهة التي تكون فيها الشمس، فتُرى في المغرب إذا كانت الشمس في المشرق، وتُرى في المشرق إذا كانت في المغرب.

(١) هو دعبل بن علي بن رزين، من خزاعة، ويكنّى أبا علي، أحد شعراء العصر العباسي. «الشعر والشعراء ص ٥٧٦، دار الكتب العلمية».
(٢) المنصِب: المتعب.
(٣) أكلأ: أنظر إليه متأمّلًا بإعجاب.
(٤) اللّبانة: الحاجة من غير فاقة، وحفّان: موضع، وتجاسر: أقدم واجترأ.
(٥) الكدر: الذي اعتكر لونه، وخالطه الغبار والسّواد.
(٦) الصقالة: الملاسة والرّقة الناتجة عن الصّقل.

وزعم بعض القدماء أن أثر القوس غير حقيقيّ، وإنما هو تخييل لا وجودَ له في نفسه، وقال: إن إدراكه على نحو إدراك صورة الإنسان في المرآة من غير أن تكون منطبعة على الحقيقة فيها ولا قائمةً بها؛ وذلك بحسب غِلَظ الحسّ الباصر، وهو لا يُرى إلّا أن يكون وراء السحاب الصقيل، إذ ذاك يكون كالمرأة مؤدّيًا للبصر على نحو تأدية البِلَّوْرِ، إذا جعل وراءه شيء غير مشفٍّ، ولا يكون ذلك عن السحاب الصقيل وحده، كما لا يكون عن البِلَّوْر وحده، ولا عن غير المُشِفِّ وحده، والله أعلم.

ذكر ما قيل في وصفه وتشبيهه

قال أبو الفرج الوأواء[1]، عفا الله تعالى عنه ورحمه: [من البسيط]

سَقْيًا ليومٍ بَدَا قَوْسُ الغَمَامِ به ... والشَّمْسُ طالِعةٌ والبرقُ خَلَّاسُ![2]
كأنّه قَوْسُ رامٍ والبُروقُ له ... رَشْقُ السّهام وعينُ الشمس بُرْجاسُ[3]

وقال سعيد بن حميد القيروانيّ[4]، رحمة الله عليه: [من المنسرح]

أما ترى القوسَ في الغَمَامِ وقد ... نَمَّقَ فيه الهَواءُ نُوَّارا؟
حَكى الطَّواوِيسَ وهي جاعلةٌ ... أذْنابَها لِلمِيَاهِ أسْتارا
أخْضَرُ في أحمرٍ على يَقَقٍ ... على وِشاحِ السَّحابِ قَد دارا[5]
كأنما المُزْنُ وهي راهبةٌ ... شَدَّتْ على الأُفْقِ مِنْه زُنَّارا

وقال ظاهر الدين الحريري، شاعر الخريدة عفا الله عنه: [من المتقارب]

ألستَ تَرى الجوَّ مُسْتَعْبِرًا ... يُضاحِكُه برقُهُ الخُلَّبُ؟[6]

---

(١) هو محمد بن أحمد الغساني الدمشقي، أبو الفرج، شاعر مطبوع، حلو الألفاظ في معانيه رقة، له ديوان شعر مطبوع. «فهرس الأعلام ٥/ ٣١٢».
(٢) الخلّاس: الذي يستلب الشيء في نهزة ومخاتلة.
(٣) البرجاس: هدفٌ يُنصب على رمح أو سارية.
(٤) هو سعيد بن حميد، شاعر، ورَد اسمه في الذخيرة لابن بسّام ٣/١٣٨ و٤/٧٢٩، طبعة دار الثقافة.
(٥) اليقق: الشديد البياض، الناصع.
(٦) الخلّب: هو السّحاب الذي يلمع برقه ولا مطر فيه.

وقـد بـاتَ مـن قُـزَحٍ قَـوْسُـه بَـعِـيـدًا وتـحـسَـبـه يَـقْـرُبُ؟
كـطـاقَـيْ عَـقِـيـقٍ وفَـيْـرُوزَجٍ وبـيـنـهـمـا آخَـرٌ مُـذْهَـبُ[١]

وقال سيف الدولة بن حمدان[٢]، من أبيات: [من الطويل]

وقد نشرَتْ أيْدِي الجَنُوبِ مَطَارِفًا على الجَوِّ دُكْنًا والحَواشي على الأرض[٣]
يُطَرِّزُها قَوْسُ السَّحابِ بأصفرٍ على أحمرٍ في أخْضَرٍ وَسْطَ مُبْيَضِّ
كأذيالِ خَوْدٍ أقبلَتْ في غَلائلٍ مُصَبَّغةٍ، والبعضُ أقصرُ من بعضِ[٤]

وقال عبد المحسن الصُّوريّ[٥]، عفا الله تعالى عنه: [من السريع]

تأمَّلِ الجَوَّ ترى والِيًا قد وليَ العَهْدَ على السُّحْبِ!
سار، وقَوْسُ الله تاجٌ له رَكْضًا من الشَّرْقِ إلى الغَرْبِ!

الباب الثالث

من القسم الثاني من الفن الأول

١ ـ في أُسطقسّ[٦] الهواء

رُوي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «الريح من رَوْح الله تعالى، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، فلا تسبُّوها، واسألوا الله خيرها، واستعيذوا بالله من شرّها»، أخرجه البيهقيّ[٧] في سننه.

وروى أبو الفرج بن الجوزي بإسناده أن الريح تنقسم إلى قسمين: رحمة وعذاب؛ وينقسم كل قسم إلى أربعة أقسام، ولكل قسم اسم؛ فأسماء أقسام قسم

(١) العقيق: خرزٌ أحمر، والفيروزج: حجرٌ كريم أزرق يميل إلى الخضرة.
(٢) تنسب هذه الأبيات أيضًا إلى ابن الرومي الشاعر.
(٣) الجنوب: الرّيح الجنوبية، والمطارف: جمع مِطرف، وهو رداء من حرير ذو أعلام، والدّكن: مفردها: دكناء، وهي من الشيء ما اغبرّ لونه ومال إلى السّواد.
(٤) الخود: الشابة الناعمة الحسنة الخَلْق.
(٥) هو عبد المحسن بن محمد بن غالب الصّوري، يلقّب «بابن غلبون» شاعر حسن المعاني، من أهل صور، مولده ووفاته فيها سنة ١٠٢٨ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١٥٢».
(٦) أسطقس: كلمة معرّبة عن اليونانية معناها: العنصر.
(٧) هو أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر، من أئمة الحديث، ترك تراثًا ضخمًا من الكتب والمصنّفات، مات في نيسابور سنة ١٠٦٦ م. «فهرس الأعلام ١/ ١١٦».

الرحمة: المبشِّرات، والنُّشر، والمرسَلات، والرُّخاء. وأسماء أقسام قسم العذاب: العاصف، والقاصف (وهما في البحر)، والعقيم، والصرصر (وهما في البرّ).

وقد جاء القرآن بكل هذه الأسماء.

٢ ـ ذكر ما قيل في حدّ[١] الهواء

قال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا في حدّه: الهواء جِرم بسيط، طباعه أن يكون حارًا رطبًا مشفًّا متحرّكًا إلى المكان الذي تحت كرة النار التي فوق كرة الأرض والماء.

وقال إبُقراط[٢]: إنّ تغير حالات الهواء هو الذي يغير حالات الناس مرّة إلى الغضب، ومرة إلى السكون، وإلى الهمّ والسرور، وغير ذلك. وإذا استوت حالات الهواء، استوت حالات الناس وأخلاقهم.

وقال: إن قوى النفوس تابعة لأمزجة الأبدان، وأمزجة الأبدان تابعة لتصرّف الهواء، إذا برد مرّة، وسخن مرة، خرج مرة الزرع نضيجًا، ومرة غير نضيج، ومرة قليلًا، ومرة كثيرًا، ومرّة حارًا، ومرة باردًا، فتتغير لذلك صورهم ومزاجاتهم. وإذا استوى واعتدل الهواء، خرج الزرع معتدلًا، فاعتدلت بذلك الصور والمزاجات. قال: والعلّة[٣] في تشابه التُرك، هو أنه لما استوى هواء بلادهم في البرد استوت صورهم وتشابهوا.

وقال: إنّ الرياح تقلب الحيوان حالًا إلى حال، وتصرفه من حرّ إلى برد، ومن يبس إلى رطوبة، ومن سرور إلى حزن؛ وإنها تغير ما في البيوت من أصناف المآكل؛ كالتمر، والعسل، والسمن، فتسخنها مرة، وتبردها أخرى، وتصلّبها مرة، وتيبِّسها مرة. وعلة ذلك أن الشمس والكواكب تغير الهواء بحركاتها، وإذا تغير الهواء، تغير بتغيّره كل شيء.

---

(١) الحدّ: التعريف الجامع لصفات الشيء، والحدّ الأرسطي: يهدف إلى الوصول إلى الماهيّة، أو إلى الجوهر، والحدّ عند الفقهاء والنحويين يهدف إلى التمييز.

(٢) هو السابع من الأطباء اليونانيين الكبار، وكان اسقليبوس أولهم، تعلّم صناعة الطبّ من أبيه ومن جدّه، وكانت مدّة حياته خمسًا وتسعين سنة. «راجع عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء ص ٤٣ ـ ٦١».

(٣) العلّة: السّبب.

وقال: إنّ الجنوب إذا هبت، أذابت الهواء وبرّدته، وسخنت البحار والأنهار؛ فكل شيء في رطوبة تغير لونه وحالاته، وهي ترخي الأبدان والعصب، وتورث الكسل، وتحدث ثِقَلًا في الأسماع، وغشاوة في الأبصار. وأمّا الشَّمَال فإنها تصلب الأبدان، وتصحّح الأدمغة، وتحسّن اللون، وتصفي الحواس، وتقوّي الشهوة والحركة، غير أنها تهيج السعال، ووجع الصدر.

وزعم بعض من تأخر في الإسلام من الحكماء: أن الجنوب إذا هبّت بأرض العراق، تغير الورد، وتناثر الورق، وتشقّق القُنَّبيط[1]، وسخُن الماء، واسترخت الأبدان، وتكدّر الهواء.

وزعم آخرون من القدماء: أن الهواء جسم رقيق متى تموّج من المشرق إلى المغرب سُمّي ريح الصَّبا.

قيل: سمّيت ريحَ الصَّبا؛ لأن النفوس تصبو إليها لِطِيب نسيمها ورَوْحها، والصَّبْوة المَيْل. وجاء في بعض الآثار: ما بعث نبيّ إلا والصَّبا معه، وهي الريح التي سُخِّرت لسليمان عليه السلام، «غدوُّها شهر» أي من أوّل النهار إلى الزوال، «ورواحها شهر»، أي من الزوال إلى المغرب. كان يغدو مِن تَدْمُر[2] من بلاد الشام فيَقِيل في إصْطَخْر[3] من بلاد فارس، ويبيت بكَابُل[4] من بلاد الهند.

وعن رسول الله ﷺ أنّه قال: «نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور[5]».

وإذا تموّج من الجَنُوب إلى الشّمال، سمي ريحَ الجنوب، وهي الريح التي أهلك الله عزّ وجلّ بها عادًا.

وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى في الفن الخامس من كتابنا هذا.

وإذا تموّج من الشَّمال إلى الجَنوب، سمي ريحَ الشَّمال.

---

(١) القنّبيط: نبات من فصيلة الكرنب، يطبخ، يعرف: بالقرنبيط.

(٢) تدمر: مدينة قديمة في برّية الشام، سُمّيت بتدمر بنت حسّان بن أذينة السّميدع. «معجم البلدان ٢/١٦».

(٣) إصطخر: مدينة من أقدم مدن فارس، وبها كان سرير الملك في القديم بها آثار عظيمة. «صبح الأعشى ٤/٣٨، دار الكتب العلميّة».

(٤) كابل مدينة بين هند وغزنة، ونسبتها إلى الهند أولى، غزاها المسلمون في أيام بني مروان. «معجم البلدان ٤/٤٢٦».

(٥) الدّبور: ريحٌ تهب من المغرب.

وهم يزعمون أن مبادىء الرياح شَمَالِية أَخَذَتْ إلى الجَنوب، وغربيةٌ أخذت إلى المشرق للطف الهواء في هاتين الجهتين.

والعرب تُحبُّ الصَّبَا لرقّتها، ولأنها تجيء بالسّحاب، والمطرُ فيها والخِصْبُ، وهي عندهم اليمانية.

٣ ـ ذكر أسماء الرياح اللغوية

قال الثعالبيّ في فقه اللغة:

إذا وقعتِ الريحُ بين رِيحَيْنِ، فهي النَّكْباءُ.

فإذا وقعت بين الجَنوب والصَّبَا، فهي الجِرْبِيَاء.

فإذا هَبَّتْ من جهات مختلفة، فهي المتناوِحة.

فإذا كانت لَيِّنَةً، فهي الرَّيْدانةُ.

فإذا جاءت بنَفَسٍ ضعيف ورَوْح[١]، فهي النَّسيمُ.

فإذا كان لها حَنين[٢] كحَنِينِ الإبل، فهي الحَنُونُ.

فإذا ابتدأت بشدّة[٣]، فهي العاصف، والسَّيْهُوج.

فإذا كانت شديدة ولها زَفْزَفة وهي الصوت، فهي الزَّفْزَافَةُ.

فإذا اشتدّت حتى تَقْلَع الخيامَ، فهي الهَجُوم.

فإذا حرّكت الأغصانَ تحريكًا شديدًا أو قَلعت الأشجار، فهي الزَّعْزاع، والزَّعْزعَانُ، والزَّعْزَعُ.

فإذا جاءت بالحَصْباء[٤]، فهي الحاصِبَةُ.

فإذا دَرَجَتْ حتى ترى لها ذيلًا كالرَّسَن في الرمل، فهي الدَّرُوج.

فإذا كانت شديدة المرُور، فهو النَّؤوج.

فإذا كانت سريعة، فهي المُجْفِل، والجافِلَةُ.

---

(١) الرّوح: نسيم الريح.

(٢) الحنين: صوت الإبل، وصوت القوس عند إنباضها.

(٣) في فقه اللغة للثعالبي ص ٢٢٧: فإذا ابتدأت بشدّة فهي النافجة، فإذا كانت شديدة فهي العاصف...

(٤) الحصباء: الحصى الصغار.

فإذا هبَّتِ من الأرض كالعَمُود نحوَ السماء، فهي الإعْصَار.

فإذا هبَّت بالغَبَرة، فهي الْهَبوة.

فإذا حَملَتِ المُورَ(١) وجَرَّت الذيل، فهي الهَوْجاء.

فإذا كانت باردةً، فهي الحَرْجَف، والصَّرْصَر، والعَرِيَّة.

فإذا كان مع بَرْدها ندًى، فهي البَلِيل.

فإذا كانت حارّةً، فهي الحَرُور، والسَّمُوم.

فإذا كانت حارّةً وأتتْ من قِبَل اليَمَن، فهي الهَيْف.

فإذا كانت باردةً شديدة تَخْرِق البيوت، فهي الخَرِيق(٢).

فإذا ضعُفت وجرت فُوَيْقَ الأرض، فهي المُسَفْسِفَة.

فإذا لم تُلْقِحْ شجرًا ولم تَحْمل مطرًا، فهي العَقِيم. (وقد نطق بها القرآن).

٤ ـ فصل فيما يذكر منها بلفظ الجمع

يقال: الرياح الحواشِك: المختلفة الشديدة. البوارح: الشَّمال الحارّة في الصيف. الأعاصير: التي تهيج بالغُبَار. المُعْصِرات: التي تأتي بالأمطار. المُبَشِّرات: التي تَهُبُّ بالسحاب والغيث. السَّوافي: التي تسفي(٣) التراب.

٥ ـ ذكر ما يُتَمَثَّلُ به مما فيه ذكر الهواء

يقال: أَخَفُّ من النسيم، أسرع من الرِّيح، ريحهما جَنوب (يضرب للمتصافِيَيْن). هو ساكن الريح (إذا كان حليمًا). قد هبَّتْ ريحه (إذا قامت دولته).

ومن أنصاف الأبيات:

* إن كنتَ رِيحًا فقد لاقَيْتَ إعصارًا *

* وبعضُ القولِ يَذهبُ بالرياح *

* تَجْري الرياحُ بما لا تشتهِي السُّفنُ *

* لو كنتَ ريحًا كانتِ الدَّبُورا *

---

(١) المور: الغبار المتردّد في الهواء.

(٢) في اللّسان: أنها الريح الباردة الشديدة الهبوب كأنها خُرِقت.

(٣) تسفي التّراب: تذروه وتنثره.

ومن الأبيات: [من الوافر]

إذا هَبَّتْ رِياحُكَ، فاغتنمها فإن لكلّ خافقةٍ سُكُونُ![١]

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

وكلُّ ريحٍ لها هُبُوبٌ يومًا فلا بدَّ من رُكُودِ

وقال آخر: [من مجزوء الكامل المرفّل]

والريحُ ترجعُ عاصفًا من بعد ما ابتدأتْ نسيما

وقال أبو تَمّام، عفا الله عنه: [من البسيط]

إنّ ارياحَ إذا ما أعْصَفَتْ، قَصَفَتْ عِيدانَ نَجْدٍ ولم يَعْبَأْنَ بالرَّتَمِ[٢]

وقال ابن الروميّ، رحمة الله عليه: [من الكامل]

لا تُطْفِئَنَّ جَوًى بلَوْمٍ إنّه كالريح تُغْرِي النَّارَ بالإحْراق[٣]

٦ ـ ذكر ما جاء في وصف الهواء وتشبيهه

قال عبد الله بن المعتزّ، رحمة الله عليه: [من الخفيف]

ونَسيمٌ يُبَشِّرُ الأرضَ بالقَطْـ ـرِ كذَيْلِ الغِلالةِ المَبْلول[٤]

ووجوهُ البلاد تنتظِرُ الغيـ ـثَ انتظار المُحِبِّ ردَّ الرسول

وقال ابن الروميّ: [من البسيط]

حَيَّتْك عنَّا شَمَالٌ طَافَ طائفُها تحيَّةً، فجرَتْ رَوْحًا ورَيْحَانا

هبَّت سُحَيْرًا فناجى الغُصْنُ صاحبَه سِرًّا بها، وتنادى الطيرُ إعلانا[٥]

وُرْقٌ تُغَنّي على خُضْرٍ مُهَدَّلة تَسْمُو بها وتَشَمُّ الأرضَ أحيانًا[٦]

يُخَالُ طائرُها نَشْوانَ من طرَبٍ والغصنُ من هَزِّه عِطْفَيْه نَشْوانا[٧]

(١) يقصد: هبّت رياحُك: أي أقبل عليك الدّهر باليمن، والسكون: الهدوء.
(٢) الرَّتم: جنس نبات من الفصيلة القرنيّة، صحراوي، وقد يغرس للزّينة.
(٣) الجوى: اشتداد الوجد. (٤) الغلالة: ثوبٌ رقيق يلبس تحت الدّثار.
(٥) ناجى: بثّه عواطفه.
(٦) الورق: جمع ورقاء وهي الحمامة التي يميل لونها إلى الخضرة.
(٧) عطفا الرّجل: جانباه.

وقال أيضًا: [من الوافر]

كأنَّ نَسِيمَها أرَجُ الخُزامى ... وَلَاهَا بَعْدَ وَسْميٍّ وليٌّ[١]
هَدِيَّة شمألٍ هبَّتْ بليلٍ ... لأفنان الغُصون بها نجِيٌّ[٢]
إذا أنفاسُها نَسَمَتْ سُحَيْرًا ... تَنَفَّسَ كالشَّجيّ لها الخَلِيُّ[٣]

وقال آخر: [من الوافر]

وأنفاسٌ كأنفاسِ الخُزَامى ... قُبَيْلَ الصُّبْح بلَّتْها السماءُ
تَنَفَّسَ نشرُها سَحَرًا فجاءتْ ... به سَحَرِيَّة المَسْرَى رُخاءُ[٤]

وقال إسحٰق الموصليّ[٥]: [من الكامل]

يا حبَّذا ريحُ الجَنُوب إذا جَرَتْ ... في الصُّبح وهي ضَعِيفةُ الأنفاسِ!
قد حُمِّلت بَرْدَ النَّدى وتَحمَّلتْ ... عَبَقًا من الجَثْجات والبَسْباس![٦]

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

إذا خلَا الجَوّ من هَواءٍ ... فعَيْشُهم غُمّةٌ وبُوسُ[٧]
فَهْو حَياةٌ لكلِّ حيٍّ ... كأنّ أنفاسَه نُفُوسُ

وقال ابن سعيد الأندلسيّ[٨]: [من الكامل]

الرِّيحُ أقودُ ما يَكُونُ لأنَّها ... تُبْدي خَفَايا الرِّدْف والأعْكَانِ[٩]

---

(١) الأرج: الرائحة الذّكيّة، والخزامى: جنسٌ من النبات، أنواعه عطرة، من أطيب الأفاويه، والوسميّ: أول مطر الربيع، والولي: المطر بعد المطر.
(٢) الشمأل: الريح الباردة، والأفنان: جمع فنن وهو الغصن المستقيم من الشجرة.
(٣) الشجيّ: من بها شجًى أي حزنًا من العشق، والخليّ: الذي ليس به عشق.
(٤) النشر: الريح الطيّبة.
(٥) هو إسحٰق بن إبراهيم الموصلي، أبو محمد، النّديم الشاعر الموسيقي، فارسيّ الأصل ولد ببغداد ومات فيها سنة ٨٥٠ م؛ عمي قبل موته بسنتين. «فهرس الأعلام ١/٢٩٢».
(٦) الجثجاث: شجرٌ أصفر مرّ، طيّب الريح، تستطيبه العرب وتكثر من ذكره، قيل: إنّه ينبت بالقبظ، له زهرة صفراء، كأنها زهرة العرفجة والبسباس: نبات طيّب الريح، وهو معروف عند علماء العرب بالاسم الفارسي «الرازيانج» اللسان مادة «جثث» «وبسبس».
(٧) بُوسُ: يعني بؤس، خفّف الهمزة.
(٨) هو علي بن موسى بن سعيد المغربي، من ذريّة عمار بن ياسر، مؤرّخ أندلسي من الشعراء العلماء بالأدب، توفي بتونس سنة ١٢٨٦ م. «فهرس الأعلام ٥/٢٦».
(٩) أقود: من القود، وهي السمسرة للنّساء، والرِّدف: ما بدا من العجيزة، الكفل، والأعكان: =

وتُمَيِّلُ الأغصانَ بعدَ عُلوِّها حتّى تُقَبِّلَ أوجهَ الغُدْرانِ
وكذلكَ العُشَّاقُ يَتَّخِذُونَها رُسُلًا إلى الأحْبابِ والأوْطانِ

وقال آخر: [من الطويل]

أيا جَبَلَيْ نَعمانَ باللهِ خَلِّيا سَبِيلَ الصَّبا يَخْلُصْ إليّ نَسِيمُها[1]
أجِدْ بَرْدَها أو تَشْفِ منّي حرارةً على كَبِدٍ لم يبقَ إلا صَمِيمُها[2]
فإنَّ الصَّبا رِيحٌ إذا ما تنفَّسَتْ على كَبِدٍ حرَّاءَ، قَلَّتْ هُمُومُها[3]

وقال ابن هُتَيْمِل اليمنيّ: [من البسيط]

هبَّتْ لنا سَحَرًا، والصبحُ ملتَثِمُ واللَّيْلُ قد غابَ فِيه الشَّيْبُ والهَرَمُ
سَقيمةٌ من بَنَاتِ الشَّرْقِ أضْعَفَهَا عن قُوَّة السَّيْر، لَمَّا هبَّت، السَّقَمُ
فبلَّغتْ بلِسانِ الحالِ قائلةً ما لم يُبَلِّغهُ يومًا إليَّ فَمُ
سِرًّا لغانِيَةٍ تَسْرِي إليّ بِهِ من النَّسِيم رَسُولٌ ليس يُتَّهَمُ
أُصافِحُ الرِّيحَ إجلالًا لِمَا حَمَلَتْ إليّ من ريح بُرْدَيْها وأسْتَلِمُ[4]

الباب الرابع
من القسم الثاني من الفن الأوّل

١ ـ في أُسطقس النار وأسمائها، وعبّادها، وبيوت النيران

حكى أصحاب التواريخ في حدوث النار أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض وحجّ، نزل جبلَ أبي قُبَيْسٍ[5]، فأنزل الله إليه مَرْختَيْن[6] من السماء، فحكّ إحداهما بالأخرى فأوْرَيا نارًا، فلهذا سمي الجبل بأبي قُبَيْسٍ.

ويدلّ على أن النار من الشجر، قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: الآية ٨٠].

= جمع عُكنة، وهي ما تثنّى من لحم البطن سِمنًا.
(١) الصَّبا: ريح تهبّ من الشرق إلى الغرب، طيّبٌ نسيمها، تصبو النفوس إليه، ويخلُص: يصل.
(٢) الصّميم: من الكبد والعظم، الذي به قوام العضو.
(٣) الحرّاء: الملتهبة الظمأى. (٤) البرد: كساء مخطّط يلتحف به.
(٥) جبل أبي قُبيس: جبل مشرف على مكة، وفي الصّحاح: جبل بمكّة. «اللّسان مادة: قبس».
(٦) المرخ: شجر رقيق يخرج النّار بسرعة، وهو شجر من العضاه، ليس له ورق ولا شوك.

والعرب تقول: «في كل شجر نار، واستَمْجَد المَرْخُ والعَفَار»[(١)]، لأنهما أسرع اقتداحًا. قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الواقِعَة: الآيتان ٧١، ٧٢].

وقال أصحاب الكلام في الطبائع: إن الله عزّ وجلّ جمع في النار الحركة، والحرارة، واليبُوسة، واللّطافة، والنور؛ وهي تفعل بكل صورة من هذه الصور خلاف ما تفعل بالأخرى.

فبالحركة تُعلي الأجسام، وبالحراة تسخن، وباليبوسة تجفّف، وباللّطافة تنفذ، وبالنور تضيء ما حولها.

ومنفعة النار تختصّ بالإنسان دون سائر الحيوان، فلا يحتاج إليها شيء سواه، وليس به عنها غنى في حالٍ من الأحوال.

ولهذا عظّمتها المجوس[(٢)]، وقالوا: إذ أفردتنا بنفعها، فنفردها بتعظيمها، على أنهم يعظمون جميع ما فيه منفعة على العباد، فلا يدفنون موتاهم في الأرض، ولا يستنجون[(٣)] في الأنهار.

٢ ـ ذكر أسماء النار وأحوالها في معالجتها وترتيبها

أما أسماؤها، فمنها:

النار، والصِّلاء، والسَّكَن، والضَّرَمةُ، والحَرَق، والحَمَدةُ (وهو صوتُ التهابها)، والحَدَمةُ، والجَحِيم، والسَّعِير، والوَحَى.

وأما تفصيل أحوالها ومعالجتها وترتيبها، فقد قال الثعالبيّ في فقه اللغة:

إذا لم يُخرِج الزَّنْدُ النارَ عند القَدْح، قيل: كَبَا يَكْبُو.

فإذا صوّت ولم يخرج، قيل: صَلَدَ يَصْلِد.

فإذا أخرج النار، قيل: وَرَى يَرِي.

فإذا ألقى الإنسانُ عليها ما يحفَظُها ويُذْكِيها[(٤)]، تقول: شيّعتها وأثقبْتها.

---

(١) العفار: شُجيرة لها ثمر لبّي أحمر، يتخذ منها الزّناد فيسرّع الوري.

(٢) المجوس: لفظٌ مشتق من «موغ» و«مُغ» ومعناه النور في اللّغة الطورانية، والمجوس: قومٌ يعبدون النّار أو الشمس.

(٣) يستنجون أي يلوّثون الارض «بالبراز».

(٤) يُذكيها: يزيد في لهبها.

فإذا عالجها لتلتهبَ، قال: حَضَأْتُها وأَرَّثتُها[١].

فإذا جعل لها مَذْهَبًا[٢] تحت القِدْر، قال: سَخَوْتُها.

فإذا زاد في إيقادها وإشْعالها، قال: أجَّجْتُها.

فإذا اشتدّ تأجُجُها، فهي جاحمَة[٣].

فإذا طَفِئت البتّةَ، فهي هامدةٌ.

فإذا صارت رَمادًا، فهي هابِيَة.

والله تعالى أعلم.

٣ ـ ذكر عُبَّاد النار وسبب عبادتها وبيوت النيران

أوّل مَن عبد النار قابيلُ بنُ آدم.

وذلك أنّه لما قتل أخاه هابيل هرب من أبيه إلى اليمن، فجاءه إبليس لعنه الله، وقال له: إنما قُبِل قُرْبان هابيلَ وأكلتْه النارُ لأنه كان يخدمها ويعبُدها، فانصب أنت أيضًا نارًا تكون لك ولِعقبِكَ، فبنى بيت نار.

فهو أوّل مَن نَصَب النار وعَبَدها.

وأوّل مَن عظمها من ملوك الفرس، جم، وهو أحد ملوك الفرس الأُوَل، عظّمها ودعا الناس إلى تعظيمها، وقال: إنها تشبه ضوء الشمس والكواكب، لأن النور عنده أفضل من الظلمة.

ثم عُبدت النار بالعراق، وأرض فارس، وكَرْمان، وسِجِسْتان، وخُراسان، وطَبَرِسْتَان، والجبال، وأَذْرَبِيجان، وأَرَّان[٤]، وفي بلاد الهند، والسّند، والصين.

وبُنِيَ في جميع هذه الأماكن بيوت للنِّيران، نذكرها بعد إن شاء الله تعالى.

---

(١) في فقه اللغة للثعالبي: وأرّشتها بالشّين، وعبارة القاموس في مادة «أرش»: وتأريش النار تأريثها. «راجع فقه اللغة ص ٣٢١».

(٢) المذهب: الطريق الذي تخرج منه ألسنة اللّهب.

(٣) عبارة فقه اللغة بعده، فإذا سكن لهبُها ولم يطفأ حرُّها فهي خامدة، وبعد: فإذا طفئت البتّة الخ. . . «راجع فقه اللغة ص ٣٢١».

(٤) أرّان: اسم أعجمي لبلاد كثيرة وولاية واسعة، منها جنزه وتسميها العامّة كنجة، وبين أذربيجان وأرّان: نهر يقال له الرس، ويقال لها مملكة أرّان. «انظر صبح الأعشى ٤/٣٦١ وما بعدها».

ثم انقطعت عبادة النيران من أكثر هذه الأماكن إلّا الهند، فإنهم يعبدونها إلى يومنا هذا، وهم طائفة تدعى الإكنواطرية[١]. زعموا أن النار أعظم العناصر[٢] جِرْمًا، وأوسعُها حيّزًا، وأعلاها مكانًا، وأشرفها جوهرًا، وأنورها ضياءً وإشراقًا، وألطفها جسمًا وكيانًا، وأن الاحتياج إليها أكثر من الاحتياج إلى سائر الطبائع، ولا نور في العالم إلّا بها، ولا نموّ ولا انعقاد إلّا بممازجتها.

وعبادتهم لها أن يحفِروا أُخْدُودًا[٣] مربّعًا في الأرض ويحشُوا النار فيه، ثم لا يَدَعُون طعامًا لذيذًا، ولا شرابًا لطيفًا، ولا ثوبًا فاخرًا، ولا عطرًا فائحًا، ولا جوهرًا نفيسًا، إلا طرحوه فيها؛ تقرّبًا إليها، وتبرّكًا بها. وحرّموا إلقاء النفوس فيها، وإحراق الأبدان بها، خلافًا لجماعة أخرى من زهّاد الهند.

وعلى هذا المذهب أكثر ملوك الهند وعظمائها، يعظّمون النار لجوهرها تعظيمًا بالغًا، ويقدّمونها على الموجودات كلّها.

ومنهم زهّاد وعُبّاد يجلسون حول النار صاغين، يسدّون منافسهم حتى لا يصل إليها من أنفاسهم نَفَسٌ صَدَرَ عن صَدْر مجرم، وسُنَّتهم الحث على الأخلاق الحسنة، والمنع من أضدادها، وهي: الكذب، والحسَد، والحِقْد، والكِفَاح، والحرص، والبغي، والبطر؛ فإذا تجرّد الإنسان عنها، تقرّب من النار.

٤ ـ وأما بيوت النيران، ومَن رسمها من ملوك الفرس

قال المسعوديّ:

أوّل مَن حُكِي ذلك عنه أفْريدون[٤] الملك، وذلك أنه وجد نارًا يعظّمها أهلها، [وهم][٥] معتكفون على عبادتها، [فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم في عبادتها، فأخبروه بأشياء اجتذبت نفسه إلى عبادتها][٥]، وأنها واسطة بين الله تعالى وبين خلقه، وأنها من جنس الآلهة النورية، وأشياء ذكروها له. وجعلوا للنور مراتب

---

(١) هذه الكلمة مأخوذة من «أجنيهترا» وهي النار المقدّسة، أي التي توّجّج إكرامًا للإله أجْني.
(٢) العناصر: جمع عنصر، الجسم البسيط الذي لا يستحيل إلى جسم آخر.
(٣) الأخدود: الشقّ المستطيل في الأرض.
(٤) هو أفريدون بن أثفيان الأصبهاني، حسب رواية ابن الكلبي. «معجم البلدان ٢/ ٤٧٥».
وقد ذُكر أنه تملّك على الفرس بعد أن قضى على الضّحاك من ملوكهم، وقضى على الظلم والفساد، وسُمّي يوم انتصاره وظفره يوم المهرجان. «صبح الأعشى ١/ ٤٩٢».
(٥) الزيادة عن المسعودي. «مروج الذهب».

وقوانين [وفرّقوا بين طبع[١] النار والنور][٢]، وزعموا أن الحيوان يجتذبه النور، فيحرق نفسه: كالفَرَاش الطائر بالليل فما لَطف جسمه، يطرح نفسه في السراج فيحرقها. وغير ذلك مما يقع في صيد الليل من الغِزلان، والوحش، والطير؛ وكظهور الحيتان من الماء إذا قربت من السراج في الزوارق كما يصاد السمك ببلاد البصرة في اللّيل، فإنهم يجعلون السُرُج حوالي المركب، فيثب السمك من الماء إليها، وأن بالنور صلاح هذا العالم، وشرف النار على الظلمة إلى غير ذلك.

فلما أخبروا الملك أفريدون بذلك أمر أن تحمل جمرة منها إلى خراسان، فحُملت، فاتّخذ لها بيتًا بطوس[٣]، [واتّخذ بيتًا آخر بمدينة بخارا يقال له برد سورة][٤].

وبيتًا آخر بسجستان كواكر[٥]، كان اتّخذه بَهمن بن إسفنديار بن يُسْتاسْف بن يهراسف.

وبيت آخر ببلاد الشير والرّان، كانت فيه أصنام أخرجها منه أنوشروان[٦]، وقيل: إنه صادف هذا البيت، وفيه نار معظّمة، فنقلها إلى الموضع المعروف بالبركة.

وبيت آخر للنار يقال له: كوسجة[٧]، بناه كيخسرو الملك.

وقد كان بقومس[٨] بيت نار معظم لا يُدْرى من بناه، قال له حريش[٩]، ويقال: إن الإسكندر لما غلب عليها، تركها ولم يطفئها.

---

(١) الطبع: الطبيعة التي وجد عليها الشيء، أو السّجية التي جبل منها الإنسان وغيره.
(٢) الزيادة من المسعودي. «مروج الذهب».
(٣) طوس، أربع مدن، وبها آثار أبنية إسلامية جليلة، وفي بعض بساتينها قبر الإمام عليّ بن موسى الرّضا، وقبر هارون الرشيد. «معجم البلدان ٤/ ١٤٩».
(٤) سمّاه الشهرستاني «قباذان». «الملل والنّحل ص ٢٨٣».
(٥) سمّاه الشهرستاني «كركرا». «الملل والنّحل ص ٢٨٣».
(٦) هو كسرى أنوشروان، أحدُ ملوك الطبقة الأخيرة من الفرس، وقد ولد الرّسول في آخر أيامه. «صبح الأعشى ٢/ ٤٣».
(٧) سمّاه الشهرستاني «كويسة». «الملل والنّحل ص ٢٨٣».
(٨) قُومس: صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل، وهي بلدة بأصبهان أيضًا وقد ضبطها بفتح الميم صاحب القاموس، وبكسرها صاحب معجم البلدان. «أعجام الأعلام ص ٢٣٢ دار الكتب العلمية».
(٩) سمّاه الشهرستاني: «جَرير». «الملل والنّحل ص ٢٨٣».

وبيت نار آخر يسمّى كَنْكَدَز، بناه سياوش بن كاوس الجبار، وذلك في زمن لُبْثِهِ بشرق الصين مما يلي البركة.

وبيت نار بمدينة أرّجان من أرض فارس، بناه قمار.

وبيت بأرض فارس اُتُّخِذ في أيام يهراسف[١].

فهذه البيوت كانت قبل ظهور زرادشت[٢].

ثم اتّخذ زرادشت بعد ذلك بيوتًا للنيران، فكان مما اتّخذ بيت بمدينة نيسابور من بلاد خراسان، وبيت بمدينة نَسا والبيضاء من أرض فارس، وقد كان زرادشت أمر يستاسف الملك بطلب نار كان يعظّمها جَمْ[٣] فطلبت، فوجدت بمدينة خوارزم، فنقلها يستاسف إلى مدينة دَارَابْجِرْد من أرض فارس... والمجوس تعظم هذه النار ما لا تعظم غيرها من النيران والبيوت... وللفرس بيت نار بإصطخر فارس، يعظّمه المجوس. كان في قديم الزمان للأصنام، فأخرجتها جمان بنت بهمن بن اسبنديار وجعلته بيت نار، ثم نقلت عنه النار فخرب... وفي مدينة سابور من أرض فارس بيت معظم عندهم اتّخذه دِارا بن دارا. وفي مدينة جور[٤] من أرض فارس... بيت بناه أردشير بن بابك... ... وقد كان أردشير بنى بيت نار يقال له بارنوا في اليوم الثاني من غلبته على فارس. وبيت نار على خليج القسطنطينية من بلاد الروم بناه سابور الجنود ابن أردشير بن بابك حين نزل على هذا الخليج وحاصر القسطنطينية، ولم يزل هذا البيت إلى خلافة المهديّ. وكان سابور اشترط على الروم بقاء هذا البيت... ... وبأرض العراق بيت نار بالقرب من مدينة السلام، بنته بُوران[٥] بنت كسرى أبرويز، الملكة، بالموضع المعروف بأسنيبا[٦].

---

(١) هو لهراسب.

(٢) زرادشت: صاحب الديانة الزرادشتية «المجوسيّة» وادّعى النبوّة، وقال بوحدانية الله، وأنّه خالق النور والظلمة، وأتى بكتاب صنّفه، وأن النّور لا بدّ أن يتغلّب على الظلمة. «راجع صبح الأعشى ١٣/ ٢٩٥».

(٣) جم: هو الملك جمشيد.

(٤) جور: مدينة بفارس، بينها وبين شيراز عشرون فرسخًا، وفي وسطها بناء مثل الدكّة تسميه العرب «الطربال» وهو من بناء أردشير، وقد بني في أعلاه بيت نار، وهي مدينة طيبة وإليها ينسب الورد الجوري، والعرب تسمّيها «كور». «معجم البلدان ٢/ ١٨١».

(٥) بوران: هي بنت كسرى أبرويز، ملّكها الفرس وألبسوها التاج، كانت حسنة السيرة في رعيتها. «انظر الشاهنامه ٢/ ٢٦١».

(٦) لم نجدها فيما رجعنا إليه من مصادر كتب البلدان.

وبيوت النيران كثيرة تعظّمها المجوس، والذي ذكرناه هو المشهور منها.

٥ ـ ذكر نيران العرب

ونيران العرب أربعة عشر نارًا:

١ ـ نار المُزْدَلِفة[١]، توقد حتى يراها مَن دفع من عرفة، وأوّل من أوقدها قُصيّ بن كلاب[٢].

٢ ـ نار الاستسقاء، كانت الجاهلية الأولى، إذا تتابعت عليهم الأَزَمات، واشتدّ الجدب، واحتاجوا إلى الأمطار، يجمعون لها بَقَرًا، معلّقة في أذنابها وعراقيبها[٣] السَّلَع[٤] والعُشر[٥]، ويصعدون بها إلى جبل وَعْر، ويشعلون فيها النار، ويَضجُّون بالدعاء والتضرّع، وكانوا يرَوْن ذلك من الأسباب المتوصَّل بها إلى نزول الغيث[٦]، وفي ذاك يقول الوديك الطائيّ: [من البسيط]

لا دَرَّ دَرُّ رجالٍ خابَ سَعْيُهُمُ   يَسْتَمْطِرُونَ لَدَى الأَزماتِ بالعُشَرِ!
أجاعِلٌ أنت بَيْقُورًا مُسَلَّعةً   ذَريعةً لَكَ بَيْنَ اللهِ والمَطَرَ؟[٧]

وقال أُمية بن أبي الصَّلْت[٨]: [من الخفيف]

ويَسُوقُون باقِرَ السَّهْلِ لِلطَّوْ   دِ مَهَازِيلَ خَشْيةَ أن تَبُورَا[٩]

---

(١) المزدلفة: مكان بمكّة المكرمة.

(٢) هو قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي، سيّد قريش في عصره، وهو الأب الخامس في سلسلة النسب النبوي الشريف. «فهرس الأعلام ٥/١٩٨».

(٣) العراقيب: مفردها عرقوب، وهو من الدّابة ما يكون في رجلها بمنزلة الركبة في يدها، وكلّ ذي أربع عرقوباه في رجليه، وركبتاه في يديه.

(٤) السّلع: نبات وقيل: شجر، وقيل: إنّه سمّ، له ورقة صغيرة شاكّة كأنّ شوكها زغب.

(٥) العشر: من كبار شجر العضاه، وهو ذوي صمغ خلو، وحرّاق مثل القطن يقتدح به، وهو عريض الورق. «راجع كتاب النبات للأصمعي طبعة بيروت ١٩٠٨».

(٦) الغيث: المطر، والإفرنج يستنزلونه بإطلاق المدافع لإحداث الدويّ والالتهاب في الجوّ.

(٧) البيقور: بقر وباقر، وقير، وبيقور: أسماء جمع اسم الجنس «البقرة» من الأهلي والوحشي.

(٨) هو أميّة بن أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي، شاعر جاهلي حكيم، من أهل الطائف، أدرك الإسلام ولم يسلم. «فهرس الأعلام ٢/٢٣».

(٩) باقر السّهل: يريد البقر.

عـاقِـدِيـنَ الـنّـيـرانَ فـي بُـكَـر الأَذْ ... نَـابِ مِنْها، لِكَيْ تَهِيجع النُّحُورا
سَـلَعٌ مَّـا ومِـثْـلُه عُـشَـرٌ مَّـا ... عـائِلٌ مَّـا وعـالَتِ الـبَـيْـقُـورا[١]

٣ ـ نار الزائر والمسافر، ويسمُّونها نار الطَّرْد، وذلك أنهم كانوا إذا لم يحبوا رجوع شخص، أوقدوا خلفه نارًا ودعَوْا عليه، ويقولون في الدعاء: أبعده الله وأسحقه! وأوقدوا نارًا إثره. قال الشاعر: [من الطويل]

وجُـمَّـة قَـوْمٍ قـد أَتَـوْكَ ولـم تَـكُـنْ ... لِتُـوقِـدَ نـارًا خَـلْفَـهـا لـلتَـنَـدُّمِ

والجُمَّة: الجماعة يمشون في الدّم، وفي الصلح. ومعنى هذا البيت: لم تندم على ما أعطيت في الحَمَالة[٢] عند كلام الجماعة، فتوقد خلفهم نارًا كي لا يعُودوا.

٤ ـ نار التحاليف: كانوا لا يعقِدون حِلْفهم إلا عليها، فيذكرون منافعَها، ويدعُون الله بالحِرْمان والمنع من منافعها على الذي ينقضُ العهدَ، ويطرحُون فيها الكبريتَ والمِلْح، فإذا فرقعتْ هُوّل على الحالف. قال الكُمَيْت[٣]: [من الطويل]

هُمُو خَوَّفُونِي بالعَمى هُوَّة الرَّدَى ... كما شَبَّ نارَ الحالِفِينَ المُهَوِّلُ[٤]

وقال أَوْس بن حَجَر: [من الطويل]

إذا استَقْبَلَتْه الشَّمْسُ، صَدَّ بِوَجْهِهِ ... كما صَدّ عن نارِ المُهَوِّلِ حالِفُ

٥ ـ نار الغَدْر، كانت العرب إذا غدر الرجل بجاره، أوقدوا له نارًا بمِنى[٥]، أيّامَ الحجّ على الأخشَب (وهو الجبل المطلّ على منًى)، ثم صاحوا: هذه غَدْرة فلان. قالت امرأة من هاشم: [من الوافر]

فـإنْ نَـهْـلِـكْ فـلـم نَـعْـرِفْ عُـقُـوقًـا ... ولـم تُـوقَـدْ لـنـا بـالـغَـدْرِ نـارُ[٦]

٦ ـ نار السَّلامة: وهي نار توقد للقادم من سفره، إذا قدم بالسلامة والغنيمة. قال الشاعر: [من مجزوء الرمل المسبغ]

يـا سُـلَيْـمَـى أَوْقِـدِي الـنّـارا ... إنَّ مَـنْ تَـهْـوَيـنَ قَـدْ زَارَا

---

(١) السّلع: آثار النار في الجلد.
(٢) الحمالة: الدّية، أو الغرامة يحملها قومٌ عن قوم.
(٣) هو الكميت بن زيد الأسدي، شاعر الهاشميين، من أهل الكوفة، اشتهر في عصر الأمويين، وكان عالمًا بآداب العرب ولغاتها وأخبارها توفي سنة ٧٤٤ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٣٢».
(٤) شبّ: أوقد، والحالفين: الحلفاء، والمهوّل: الذي يشنّع بالأمر ويبالغ فيه حتى يجعله هائلًا.
(٥) مِنى: مكان بمكة.
(٦) العقوق: قطع الأرحام.

٧ ـ نار الحرب، وتسمَّى نار الأُهْبَة والإنذار، توقد على يَفَاعٍ[١]، فتكون إعلامًا لمن بَعْد. قال ابن الروميّ: [من الوافر]

لــه نــارَان: نــارُ قِــرًى وحَــرْبٍ ترى كِلْتَيْـهِـمَا ذاتَ الْتِـهَـابِ[٢]

٨ ـ نار الصَّيْد: يوقدونها لصيد الظِّباء، لتُعْشِيَ أبصارها.

٩ ـ نار الأَسَد: كانت العرب توقدها إذا خافوه؛ فإن الأسد إذا عاين النار حدّق إليها وتأمّلها.

١٠ ـ نار السَّلِيم[٣]: توقَد للملدوغ، والمجروح، ومَن عضّه الكَلْب الكَلِب حتى لا يناموا فيشتدّ بهم الألم. قال النابغة: [من الطويل]

يُسَهَّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمامِ سَلِيمُـهـا لِحلْيِ النِّساءِ في يَدَيْهِ قَعاقِعِ[٤]

وذلك لأنهم كانوا يعلّقون عليه حَلْي النساء ويتركونه سبعة أيّام.

١١ ـ نار الفداء: وذلك أن ملوكهم كانوا إذا سبَوْا قبيلة وخرجت إليهم السادات في الفداء وفي الاستيهاب[٥]، كرهوا أن يعرضوا النساء نهارًا فيفتضِحْن. وأمّا في الظلمة فيخفى قدر ما يحبسون من الصفيّ[٦] لأنفسهم، وقدرُ ما يجودون به، وما يأخذون عليه الفداء، فيقدون لذلك النار. قال الشاعر: [من الطويل]

نِـسـاءُ بَـنـي شَـيْـبَـانَ يَـوْمَ أُوارةٍ على النَّارِ إذ تُجْلَى له فَتَياتُها[٧]

١٢ ـ نار الوَسْم: كانوا يقولون للرجل: ما نارك؟ (في الاستخبار عن الإبل) أو ما سِمَتُك؟ [فيقول]: حياط[٨]، أو عِلاط[٩]، أو حَلْقة[١٠]، أو كذا، أو كذا.

حُكِي أن بعض اللصوص قرّب إبلًا كان قد أغار عليها وسلبها من قبائل شتّى إلى بعض الأسواق، فقال له بعض التجّار: ما نارُك؟ وإنما سأله عن ذلك، لأنهم

---

(١) اليفاع: المرتفع من الأرض. (٢) القِرى: الضيافة.
(٣) السّليم: من الأضداد، وتطلق على الملدوغ تفاؤلًا بالسّلامة.
(٤) القعاقع: الأصوات. (٥) الاستيهاب: طلب الهبة.
(٦) الصفيّ: المختار.
(٧) أوارة: اسم ماء أو جبل لبني تميم، وهي يومٌ من أيّام العرب.
(٨) حياط: ربّما كانت سمة على شكل هلال، فالحوط: هلالٌ من فضّة. «اللّسان: مادة حوط».
(٩) علاط: علامة في جانب العنق تكون خطًا أو أكثر بالعرض، أو حبل يحيط بالعنق.
(١٠) الحلقة: سمة على شكل الحلقة.

كانوا يعرفون مِيسَم كل قوم وكرم إبلهم من لؤمها، فقال: [من الرجز]

تَسْأَلُنِي الباعةُ: ما نِجَارُها إذ زَعْزَعُوهَا فسَمَتْ أبصارُها؟[١]
وكلُّ دارٍ لأُناسٍ دارُها! وكلُّ نارِ العالَمِين نارُها!

١٣ ـ نار القِرى: وهي من أعظم مفاخر العَرَب، كانوا يوقدونها في ليالي الشتاء، ويرفعونها لمن يلتمس القِرَى؛ فكلّما كانت أضخم وموضعها أرفع، كان أفخر، وهم يتمادحون بها؛ قال الشاعر: [من الوافر]

له نارٌ تُشَبُّ بكُلّ وادٍ إذا النِّيرانُ أُلْبِسَتِ القِنَاعا

وقال إبراهيم بن هَرمة[٢]: [من الطويل]

إذا ضلَّ عنهم ضَيْفُهم، رَفَعُوا له من النار في الظَّلْماء أَلْوِيَةً حُمْرا

١٤ ـ وكانت للعرب نار عظمى تسمّى نار الحرّتين[٣]، وهي التي أطفأها الله تعالى بخالد بن سنان العبسيّ[٤]، وكانت حَرَّة ببلاد عبس، تسمّى حرّة الحدثان.

رُوِيَ عن ابن الكلبيّ[٥] أنّه قال: كان يخرج منها عنق فيسبح مسافة ثلاثة أو أربعة أميال، لا تمرّ بشيء إلّا أحرقته. وأن خالد بن سنان أخذ من كل بطن من بني عبس رجُلًا فخرج بهم نحوها، ومعه درّة حتى انتهى إلى طَرَفها، وقد خرج منها عُنُق كأنه عُنُقُ بعير فأحاط بهم، فقالوا: هلكتْ والله أشياخ بني عبس آخِرَ الدهر! فقال خالد: كلَّا! وجعل يضرب ذلك العُنُق بالدِّرّة ويقول: «بَدًّا بَدًّا[٦]، كلُّ هَدْيِ الله

---

(١) النّجار: الأصل.

(٢) هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة، وهو الخلْجُ، وهو شاعر مولع بالشّراب، حدّه صاحب شرطة المدينة أيام أبي العبّاس السّفاح، مدح المنصور الذي كتب إلى عامله على المدينة: من أتاكَ بابن هرمة سكران، فاجلده مائة جلدة واجلد ابن هرمة ثمانين، وبذلك تخلّص من الجلد وتحاشاه الناس توفي سنة ١٥٠ هـ. «اعجام الأعلام، ص ٤٤، دار الكتب العلمية».

(٣) الحرّة: أرض ذات حجارة سود كأنّها أحرقت.

(٤) هو خالد بن سنان العيسي، حكيم، من أنبياء العرب في الجاهلية، كان في أرض بني عبس يدعو الناس إلى دين عيسى، وردت ابنته على رسول الله ﷺ، فبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وقال: ابنة نبيّ ضيّعه أهله. «فهرس الأعلام ٢/٢٩٦».

(٥) هو هشام بن محمّد، أبي النضر ابن الشائب بن بشر الكلبي، أبو المنذر مؤرّخ، عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها، كثير التصانيف من أهل الكوفة توفي سنة ٨١٩ م. «فهرس الأعلام ٨/ ٨٧، ٨٨».

(٦) بدًّا بدًّا، أي تبدّدي وتفرقي، ويقال: بدذتُ بدًّا، وبدّدت تبديدًا. «اللسان مادة: بدد».

يُؤَدّى! أنا عبد الله خالد بن سنان!»، فما زال يضربه حتى رجع، وهو يتبعه والقوم معَه كأنه ثُعبانٌ يتملّك حجارة الحرّة حتى انتهى إلى قَلِيب[1]، فانساب فيه وتقدّم عليه، فمكث طويلًا، فقال ابن عمّ لخالد، يقال له عروة بن شبّ: لا أرى خالدًا يخرج إليكم أبدًا! فخرج يَنْطُف[2] عَرقًا، وهو يقول: زعم ابن راعية المعْزى أني لا أخرج، فقيل لهم بنو راعية المعزى إلى الآن.

وفي هذه النار يقول الشاعر: [من الوافر]

كنار الحَرّتَيْن لها زَفيرٌ ... تُصِمُّ مَسَامِعَ الرجل السَّميع

٦ ـ ذكر النيران المجازية

ومن النيران، نيران مجازية لا حقيقية؛ منها:

نار البرق: وقد وصفها بعض الأعراب فقال: [من البسيط]

نارٌ تُجَدِّد لِلْعِيدانِ نَضْرتَها ... والنارُ تُشْعِل عِيدانًا فتَحْتَرِق

إشارة إلى أن النار تُحْرق العيدان، إلا نار البرق فإنها تجيء بالغيث.

نار المَعِدَةِ: وهي التي تهضم الطعام، وهي كنار الحياة، ونار الغريزة، وقوّتها مادّة للصحة؛ كما أن ضعفها سبب للعلّة.

نار الحُمَّى: وقد قيل: النيران ثلاثة: نار لا تأكل ولا تشرب، وهي نار الآخرة؛ ونار تأكل وتشرب، وهي نار الحمّى، تأكل اللحم وتشرب الدّم؛ ونار تأكل ولا تشرب، وهي نار الدّنيا.

ومن النيران المجازية:

نار الشوق، نار الشَّرَه[3]، نار الشباب، نار الشراب.

قال شاعر يمدح بعض الملوك: [من المنسرح]

وُقِيتَ نارَ الجَحِيم يا مَلِكُ ... أربعُ نِيرانِه له نَسَقُ!
نارُ شَبابٍ تَرُوقُ نَضْرتُها ... ونارُ راحٍ مأنّهُ شَفَقُ[4]
ونارُ سُلْطانِهِ، تقارِنُها ... نارُ قِرًى لا تَزالُ تَأْتَلِقُ[5]

(١) القليب: البئر.
(٢) ينطف: يقطر.
(٣) الشَّره: الحدّة والإفراط.
(٤) الراح: الخمر.
(٥) تأتلق: تشتعل.

٧ ـ ذكر النيران التي يضرب المثل بها

يُضْرب المثل: بنار الحُباحِب، وهي نار لبخيل كان يوقدها، فإذا استضاء بها إنسان، أطفأها.

وقيل: إنها النار التي تُوريها الخيل بسنابكها[١] من الحجارة. قال الله تعالى: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾ [العَاديَات: الآية ٢]. وقال النابغة: [من الطويل]

* ويُوقِدْنَ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحِبِ[٢] *

وهذا المثل يضرب لما لا منفعةَ فيه ولا حاصلَ له.

نار الغَضى[٣]: يضرب بها المثل في الحَرَارة، وهي جمر أبيض لا يصلح إلّا للوقود.

نار العَرْفَج[٤]: هي نار تتّقد سريعًا، قال قتيبة بن مسلم لعمرو بن عباد بن الحصين: «لَلسُّؤدُد أسرع إليك من النار في يبِس العرفج»، إذا التهبت فيه النار انتشرت.

وتسمى نار الزَّحْفتين، لأن العرفج إذا انتشرت فيه النار عَظُمت واستفاضت؛ فمن كان بالقرب منها زحف عنها، ثم لا تلبث أن تنطفىء من ساعتها، فيحتاج الذي زحف عنها أن يزحف إليها، فلا يزال المصطلي بها كذلك، فلذلك سمّيت نار الزحفتين.

نار الحَلْفاء[٥]: يضرب بها المثل في سرعة الاتّقاد؛ كما قيل: [من الهزج]

فما ظَنُّك بالحَلْفا ... ءِ أذْنَيْتَ له نارا

وفي سرعة الانطفاء، كما قيل: نار الحَلْفاءِ، سريعة الانطفاء.

٨ ـ ذكر ما جاء عنها على لفظ أفْعَل

يقال: آكل من النار؛ أحرّ من النار؛ أحرّ من الجمر؛ أحْسَنُ من النار؛ أسرع من شرارة في قَصْباء[٦].

---

(١) سنابك: مفردها سنبك، وهو طرف الحافر.
(٢) الحباحب: ما تطاير من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة أو نحو ذلك.
(٣) الغضى: شجرٌ من الأثل؛ خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زمانًا طويلًا.
(٤) العرفج: نبت، وقيل: هو ضرب من النبات سهليّ سريع الانقياد، وهو طيّب الرائحة.
(٥) الحلفاء نوع من النّبات، تتّقد بسرعة.
(٦) القصباء: جماعة القصب الثابت الكثير.

ويقال: فلان واري الزناد؛ وَرِيَتْ بك زِنَادي؛ فلان ثاقب الزَّنْدِ؛ فلان كَابِي الزِّنَادِ؛ صَلَدَتْ زِنَادُه؛ فلان ما يُصْطَلَى بِنَارِهِ؛ هو القَابِسُ[١] العَجْلان؛ هما زَنْدَانِ في وِعاء.

ومن أنصاف الأبيات:

* والنار قد يُخْمِدُها النَّافِخُ *

* كَمُلْتَمِسٍ إطفاءَ نارٍ بنافِخِ *

* والجمرُ يُوضَعُ في الرَّماد فيَخْمُدُ *

* كذا كُلُّ نارٍ رُوِّحَتْ تَتَوَهَّجُ[٢] *

* هَيْهاتَ تُكْتَمُ في الظَّلام مَشَاعِلُ *

ومن الأبيات قول عليّ بن الجَهْم: [من الكامل]

والنَّارُ في أحْجَارِها مَكْنُونةٌ لا تُصْطَلى إن لم تُثِرْها الأَزْنُدُ[٣]

وقال آخر: [من الكامل]

والنارُ بالماء الذي هو ضدُّها تُعْطِي النُّضَاجَ، وطَبْعُها الإحراقُ[٤]

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

والكَاتِمُ الأمْرِ ليس يَخْفى كالمُوقِدِ النارِ باليَفَاعِ

وقال آخر: [من السريع]

لا تَتَّبِعْ كلَّ دُخَانٍ تَرى فالنَّارُ قد تُوقَدُ لِلْكَيِّ

وقال أبو تمّام: [من الكامل]

لولا اشْتِعالُ النَّار فيما جاوَرَتْ ما كان يُعْرَفُ طيْبُ عَرْف العُود[٥]

(١) القابس: طالب النّار. (٢) روّحت: أصابتها الرّيح.
(٣) المكنونة: المختفية، والأزند: جمع زند: وهو موصل طرف الذّراع في الكتف من الرّجل، والزّند: العود الأعلى الذي تقدح به النار.
(٤) النّضاج: من نضج الثمر أي أتى أوان أكله.
(٥) العَرف: الرائحة مطلقًا، وأكثر ما يستعمل في الرائحة الطيبة.

وقال آخر: [من الكامل]

وفَتِيلَةُ المصباح تُحْرِقُ نَفْسَهَا وتُضِيءُ للسَّارِي، وأَنْتَ كَذَاكَا

٩ ـ ذكر ما قيل في وصف النار وتشبيهها

قال عبد الله بن المعتزّ، غفر الله له: [من المتقارب]

كأنَّ الشَّرَارَ على نارِها وقد راق مَنْظَرُها كُلَّ عَيْن
سُحَالَةُ تِبْرٍ إذا مَا عَلَا فإمّا هَوى فَفُتَاتُ اللُّجَيْن[1]

أخذه العسكريّ، فقال: [من مخلّع البسيط]

أَوْقَدْتَ بعد الهُدُوِّ نارًا لها على الطارقين عَيْنُ
شَرَارُهَا إنْ عَلَا نُضَارٌ لَكِنَّهُ إنْ هَوى لُجَيْنُ[2]

وقال السَّريّ الرّفّاء[3]: [من المنسرح]

والْتَهَبَتْ نَارُنا، فَمَنْظَرُها يُغْنِيكَ عن كُلِّ مَنْظَرٍ عَجَبِ
إذا رَمَتْ بالشَّرارِ فاطَّرَدَتْ على ذُرَاها مَطارِدُ اللَّهَبِ
رأيتَ ياقوتَةً مُشَبَّكَةً تَطِيرُ عنها قُراضَةُ الذَّهَبِ[4]

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ: [من الكامل]

حَمْراءُ نازعَتِ الرِّيَاحَ رِدَاءَها وَهْنًا وزاحَمَتِ السَّماءَ بِمَنْكِبِ[5]
ضَرَبَتْ سَماءً من دُخَانٍ فوقها لم تدرِ منها شُعْلَةً من كوكب
وتَنَفَّحَتْ عن كُلِّ نفحةِ جَمْرةٍ باتت لها ريحُ الشَّمالِ بِمَرْقَبِ[6]
قد أُلْهِبَتْ فتذهَّبتْ فكأنّها شَقْراءُ تَمْرَحُ في عَجَاجٍ أكْهَبِ[7]

---

(١) السُّحالة: برادة الذّهب والفضة، والتبر: برادة الذهب، واللّجين: الفضّة.
(٢) النّضار: الذهب.
(٣) هو السّري بن أحمد الكندي، صاحب سرّ الشعر، الجامع بين نظم عقود الدرّ، أسلم صبيًا في الرّفائين بالموصل، فكان يرفو ويطرز إلى أن قضى باكورة الشّباب، وتكسّب بالشعر، اتصل بسيف الدولة فطلع سعده واشتهر أمره. «انظر: يتيمة الدّهر ٢/١٣٧ وما بعدها».
(٤) قراضة الذّهب: نثاره عند قرضه.
(٥) الوهن: الضعف، والمنكب: ما بين العنق والعاتق.
(٦) تنفّحت: تنسّمت وتحركت وانتشرت رائحتها، والنّفحة: العطيّة، يقال: نفحه أي أعطاه.
(٧) العجاج: الغبار والدّخان، والأكهب: ما علته غبرة مشربة بسواد، والكهبة: لون ليس بخالص=

وقال أبو الفتح كُشَاجِمُ: [من المنسرح]

كـأنّـمـا الـنـارُ والـرَّمـادُ وقـد كـاد يُـوارِي مـن نُـورِهـا الـنّـورَا
وَرْدٌ جَـنِـيُّ الـقِـطـافِ أحـمـرُ قـد ذَرّتْ عـلـيـه الأَكُـفُّ كَـافُـورَا[١]

وقال تاج الملوك بن أيّوب: [من المنسرح]

أمَا تَـرى الـنّـارَ وهـي تُـضْـرَمُ في أحـشـاء كـانُـونِـهَـا وتـلْـتَـهِـبُ؟
كـأنَّـمـا الـفـحـمُ فـوقـهـا قُـضُـبٌ مـن عَـنْـبَـرٍ وهـي تَـحْـتَـهُ ذَهَـبُ

وقال أبو مَرْوان بن أبي الخِصَال[٢]: [من الخفيف]

لابنة الزَّنْدِ في الكوانين جَمْرٌ كـالـدَّرارِيّ فـي دُجـى الـظَّـلـمـاءِ
خَبِّرُونِي عنها ولا تَكْتُمُونِي أَلَدَيْـهـا صِـنَـاعَـةُ الـكِـيـمـيَـاءِ؟
سَبَكَتْ فَحْمَها صَفَائِحَ تِبْرٍ رَصَّعَتْـهـا بـالـفِـضَّـة الـبـيـضـاءِ[٣]
كُلَّمَا رَفْرَف النَّسِيمُ عَلَيْها رَقَـصَـتْ فـي غِـلالـةٍ حَـمْـراءِ[٤]

هذا البيت مأخوذ من قول الخفاجيّ: [من الكامل]

وكـأنَّـهـا والـريـحُ عـابـثـةٌ بـهـا تُزْهَى فَتَرْقُصُ في قميصٍ أحمرِ

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الكامل]

نـارٌ تَـلَعَّـبُ بـالـسُّـقُـوفِ كـأنّـهـا حُـلَلٌ مُـشَـقَّـقَـةٌ عـلى حُـبْـشَـان
رَدَّتْ عليها الرِّيحُ فَضْلَ دُخَانها فأَتَتْ به سُبْجًا على عقْيَان[٥]
فالجوُّ يَضْحَكُ في ابْيضاضِ شَرائرٍ منها ويَعْبِسُ في اسْوِدَاد دخَان

وقال ابن أبي الخِصَال: [من الطويل]

وعُـوجُـوا عـلى يـاقـوتـةٍ ذَهَـبِـيَّـةٍ يَهِيمُ بها المقرورُ بالسَّبَراتِ[٦]
إذا ما ارتَمَتْ من فَحْمِهَا بِشَرَارِها رَأَيْتَ نُجومَ اللَّيْلِ مُنْكَدِراتِ

= في الحمرة، وهو في الحمرة خاصة.

(١) ذرّت: نثرت، والكافور: نبتٌ طيّبٌ زهره، تؤخذ من شجره مادّة عطريّة تستخدم في الطبّ.

(٢) هو عبد الملك بن مسعود بن فرج بن عطية الغافقي، كاتب أندلسي من أهل شقورة، سكن قرطبة، له رسائل لطيفة توفي سنة ١١٤٤. «فهرس الأعلام ٤/ ١٦٥».

(٣) سبكت: أسالت، وصبّت في قالب، فجعلته سبيكة.

(٤) الغلالة: ثوبٌ رقيق يلبس تحت الدّثار. (٥) السّبج: الخرز الأسود.

(٦) المقرور: الذي أصابه القرّ، وهو البرد الشديد، والسبرات: جمع سبرة وهي الغداة الباردة.

وقال سيف الدّولة بن حمدان: [من المنسرح]

كـأنّـمـا الـنـارُ والـرَّمـادُ مـعًـا وضَـوْءُهـا فـي ظـلامِـهِ يُـحْـجَـبْ
وَجْـنَـةُ عَـذْراءَ مَـسَّـهَـا خَـجَـلٌ فاسْتَتَرَتْ تَحْتَ عَنْبَرِ أَشْهَبْ(١)

وقال آخر: [من المنسرح]

فَـحْـمٌ كـيـومِ الـفِـرَاق تُـشْـعِـلُهُ نـارٌ كـنـارِ الـفِـرَاق فـي الـكَـبِـدِ
أَسْوَدُ قَدْ صار تـحـت حُـمْـرتـهـا مِـثْـلَ الـعُـيـونِ اكْـتَـحَـلْنَ بـالـرَّمَـدِ

وقال أبو طالب المَأْمونيّ(٢): [من الخفيف]

ما تَرى النّارَ كيف أسْقَمَهَا الْقُـ ـرُّ فأضحت تخبو وطورًا تَسَعَّرْ؟(٣)
وَغَـدَا الـجـمـرُ والـرَّمـادُ عَـلَيْـهِ فـي قـمـيـصٍ مُـذَهَّـبٍ ومُـعَـنْـبَـرْ؟

وقال أبو فراس الحَمْدانيّ: [من مجزوء الكامل المرفّل]

لله بَـــــرْدٌ مـــــا أَشـــــ ـدَّ ومَـنْـظَـرٌ مـا كـان أَعْـجَـبْ!
جـــاء الـــغـــلامُ بـــنـــارِهِ هَـوْجـاءَ فـي فَـحْـم تَـلَـهَّـبْ
فـكـأنّـمـا جَـمَـع الـحُـــ ـلِيّ فَـمُـحْـرَقٌ مِـنـه ومُـذْهَـبْ
ثـم انـطـفـت فـكـأنّـهـا مـا بـيـنـنـا نَـدٌّ مُـعَـشَّـبْ(٤)

١٠ ـ ذكر شيء مما قيل في الشَّمْعَة والشَّمْعدان والسراج(٥) والقِنْديل(٦)

١ ـ أما الشمعة، فمن جَيّدِ ما قيل فيها قولُ الأَرّجانيّ(٧): [من البسيط]

نَمَّتْ بأسْرار لَيْلٍ كان يُخْفِيها وأَطْلَعَتْ قلبَها للنّاسِ مِنْ فِيهَا(٨)

---

(١) العنبر: الزعفران، والأشهب: ما كان لونه الشبهة، بياض غلب على السّواد.
(٢) هو عبد السّلام بن الحسين، شاعر من العلماء الأدباء، يتّصل نسبه بالمأمون ولد في بغداد، وكان يسمو إلى الخلافة، مات ولم يبلغ الأربعين. «فهرس الأعلام ٤/ ٥».
(٣) تخبو: يخفت لهيبها، وتسعَّر: يتوقّد. (٤) النّدّ: ضربٌ من النبات يتبخّر بعوده.
(٥) إن «سُورج» و«سُرج» معناهما الشمس في اللغة الهندية عن السنسكريتيّة.
(٦) والقنديل معرّب من اللاتينية، ومعناه في تلك اللغة «الشمعة» ثم نقله العرب بمعنى المصباح المعروف بالقنديل.
(٧) هو أحمد بن محمد بن الحسين، أبو بكر، شاعر في شعره رقّة وحكمة، توفي بتستر، وقال ابن خلّكان: إنّه عربيّ المحتد. «فهرس الأعلام ١/ ٢١٥».
(٨) نمّت: وشت.

قَلْبٌ لها لم يَرُعْنَا وهو مُكْتَمِنٌ إلا بِرُقْيَةِ نار من تَرَاقِيهَا[١]
سقيمةٌ لم يَزَلْ طولُ اللّسان لها في الحيّ يَجْني عليها ضَرْبَ هَاديها
غَرِيقةٌ في دُمُوعٍ، وهي تُحْرِقُها أنفاسُها بدَوَام من تلَظّيها
تَنَفَّسَتْ نَفَسَ المَهْجُور إذْ ذَكَرَتْ عَهْدَ الخَلِيط فبات الوَجْدُ يُبْكِيها[٢]
يُخْشَى عليها الرَّدَى مَهْمَا ألمّ بها نَسِيمُ رِيحٍ إذا وافى يُحَيّيها
بَدَتْ كنَجْمٍ هوى في إثْرِ عِفْرِيَةٍ في الأَرض فاشتعَلَتْ منه نَوَاصيها[٣]
نجم رأى الأرضَ أولى أن يُبَوّأها من السماءِ، فأمْسَى طَوْعَ أهليها
كأنها غُرَّةٌ قد سالَ شادِخُها في وَجْه دَهْماءَ يُزْهيها تَجلِّيها[٤]
أو ضَرَّةٌ خُلِقَتْ للشَّمْسِ حاسِدةٌ فكُلّما حُجِبَتْ، قامت تُحاكِيهَا
وَحِيدةٌ كشَبَاةِ الرُّمْحِ هازمَةٌ عساكِرَ اللّيل إنْ حَلَّتْ بِوَادِيها[٥]
ما طَنَّبَتْ قَطُّ في أرض مخيِّمةً إلا وأقْمَرَ للأبصارِ داجيهَا[٦]
لَهَا غرائِبُ تَبْدُو من مَحَاسِنها إذا تَفَكَّرْتَ يَوْمًا في مَعَانيها
كصَعْدةٍ في حَشَا الظَّلْماءِ طاعنةٍ تَسْقِي أسافِلُها رَيًّا أعاليها[٧]
فالوَجْنَةُ الوَرْدُ إلا في تناوُلِها والقامةُ الغُصْنُ إلا في تَثَنّيهَا
صَفْراءُ هِنْدِيَّةٌ في اللَّوْن إن نُعِتَتْ والقدّ واللِّين إن أتْمَمْتَ تَشْبيها
فالهِندُ تَقْتُلُ بالنّيرانِ أنْفُسَها وعِنْدَها أنَّ ذاكَ القَتْلَ يُحْيِيها
قد أثْمَرَتْ وردةً حمراءَ طالِعةً تَجْنِي على الكَفِّ إن أهْوَيْتَ تَجْنِيها
وَرْدٌ تُشَاكُ به الأيْدي إذا قُطِفَتْ وما على غُصْنِها شوك يُوَقِّيها

---

(١) الرقية: العوذة التي يرقى بها المريض، والتراقي: جمع ترقوة: العظمة بين ثغرة النحر والعاتق في أعلى الصدر.
(٢) الخليط: العشير.
(٣) العفرية: الجنيّة، يقصد بالنجم: الشهاب الذي يتبع الشياطين في الفضاء حين يسترقون السّمع، والنّواصي: جمع ناصية وهي شعر مقدّم الرأس.
(٤) الغرّة: البياض في الجبهة، وكلّ ما بدا من ضوء أو صباح، الشادخ: ما انشدخ منها وسال بفعل النّار، والدّهماء: الظُّلمة.
(٥) شباة الرّمح: حدُّ طرفه.
(٦) طنّبت: أي أقامت خيامها، والطُّنب: أعمدة الخيمة.
(٧) الصّعدة: القناة تنبت مستوية فلا تحتاج إلى تثقيف.

ما إن تَزَالُ تَبِيتُ اللَّيْلَ ساهرةً ... وما بلها غُلَّةٌ في الصَّدْر تُطْفِيها[١]
صُفْرٌ غَلَائلُها، حُمْرٌ عمائِمُها ... سودٌ ذوائبُها، بيضٌ لياليها[٢]
تُحْيِي الليالِيَ نُورًا، وهي تَقْتُلُها ... بِئْس الجَزاءُ لَعَمْرُ اللهِ تَجْزيها!
قُدَّتْ على قَدِّ ثوبٍ قد تَبَطَّنها ... ولم يُقَدَّرْ عليها الثوبَ كاسِيها
غَرَّاءُ فَرْعاءُ ما تنفكُّ قالِيَةً ... تقصُّ لِمَّتَها طَوْرًا وتَفْلِيها[٣]
شَبَّاءُ شَعْثاءُ لا تُكْسى غدائِرُها ... لَوْنَ الشَّبِيبة إلا حينَ تُبْلِيها[٤]
قَناةُ ظَلْماءَ لا تنفكّ يأكلُها ... سِنانُها طولَ طَعْنٍ أو يُشَظِّيها[٥]
مَفْتوحةُ العين تُفْنِي ليلها سَهَرًا ... نَعَمْ، وإفْناؤُها إيَّاهُ يُفْنِيها
ورُبَّما نالَ من أطْرافِها مَرَضٌ ... لم يُشْفِ منه بغير القَطْع مُشْفِيها

وقال آخر: [من الكامل]

بَيْضاءُ أضْحَكَتِ الظلامَ فَرَاعَها ... فبَكَتْ وأسْبَلَتِ الدُّموعَ بَوَادِرا[٦]
جَفَّت دُموعُ جُفُونِها فكأنَّما ... كُسِيَتْ من الطَّلْع النَّضِيد ضَفَائِرا[٧]

وقال أبو القاسم المطرّز[٨] من أبيات: [من البسيط]

ولِلشُّموع عُيُونٌ كُلَّما نظَرَتْ ... تَظَلَّمَتْ من يَدَيْها أنْجم الغَسَق
من كلِّ مُرْهَفَة الأعْطاف كالغُصُن الـ ... ـمَيَّاد لكنَّه عارٍ من الوَرَق[٩]
إني لأعْجَبُ مِنها وهي وادِعَةٌ ... تَبْلى، وعَيْشَتُها من ضَرْبة العُنُق!

---

(١) الغلّة: الظمأ.
(٢) الغلائل: جمع غلالة، وهي ستر رقيقٌ يتدثّر به تحت الثوب.
(٣) الغرّاء: البيضاء، والفرعاء: الغزيرة الشعر الأسود، واللّمّة: الشعر الذي تجاوز شحمة الأذن، أو ما تفرق من الشعر، وتفليها: تنثرها.
(٤) الشّباء: المشتعلة، والشعثاء: التي بها شعث، وهو تلبّد الشّعر وتغيّره.
(٥) القناة: الرّمح، وَيشظّيها: يفرّقها ويقطعها. (٦) أسبلت: أسالت.
(٧) الطّلع: من النخل، شيء كالكوز يخرج منه وفيه حبّ منضود منسّق، والضفائر: خصل الشعر المضفورة.
(٨) هو عبد الواحد بن محمد بن يحيىٰ بن أيوب، شاعر بغدادي، كثير الشعر، سائر القول في المديح والهجاء والغزل، قرأ عليه الخطيب البغدادي أكثر شعره، توفي سنة ١٠٤٧ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١٧٧».
(٩) المرهفة: الدقيقة، والأعطاف: جمع عطف، وهو من الإنسان جانباه.

وقال آخر: [من المنسرح]

جـاءتْ بِـجِـسْـمٍ كـأنّـه ذَهـبٌ تَبْكِي وتَشْكِي الهَوى وتلتهِبُ
كـأنّـهـا فـي أكُـفِّ حـامِـلِهَـا رمـحُ لـجيـنٍ سِـنـانُـه ذَهَـبُ(١)

وقال محمد بن أبي الثبات، شاعر اليتيمة: [من المتقارب]

ومَـجْـدُولـةٍ مـثـل صَـدْرِ الـقـنـاة تـعـرّت، وبـاطِـنُـهـا مُـكْـتَسِـي(٢)
لـهـا مُـقْـلَـةٌ هـي رُوحٌ لَهَـا وتـاجٌ عـلى الـرأس كـالـبُرْنُـسِ(٣)
إذا غـازَلَـتْـهـا الـصَّـبَـا حَـرَّكَـتْ لِسَـانًـا مـن الـذَّهَـبِ الأمْـلَـسِ
وتُـنْـتَـجُ مـن حَـيْـثُ مـا أَلْقَـحَـتْ ضِـيـاءً يُجَـلِّي دُجـى الـحِـنْـدِسِ(٤)
فـنَـحْـنُ مـن الـنُّـور فـي أسْـعُـدٍ وتِـلْـك مـن الـنـارِ فـي أنْـحُـسِ!

وقال آخر: [من الكامل]

ورشيقةٍ بيضاءَ تُطْلِعُ في الدُّجى صُبْحًا وتَشْفِي الناظِرِينَ بِدَائها
شـابَـتْ ذوائِبُـهـا أوانَ شَـبَـابِـهـا واسْوَدّ مَـفْـرِقُـهـا أوانَ فَـنَـائِها(٥)
كالعَيْن: في طَبَقَاتِهَا ودُمُوعِها وبَيَاضِـهـا وسـوادِهـا وضِـيَـائِها

وقال الصاحب بن عبّاد: [من مخلّع البسيط]

وشَـمْـعَـةٍ قُـدِّمَـتْ إلَيْـنَـا تَـجْـمَـعُ أوْصـافَ كُـلِّ صَـبِّ(٦)
صُـفْـرةُ لـونٍ، وذَوْبُ جِـسْـمٍ وفَـيْـضُ دَمْـعٍ، وحَـرّ قَـلْـبِ

وقال السريّ الرفّاء: [من مجزوء الرّجز]

مَـفْـتُـولَةٌ مَـجْـدُولَةٌ تَـحْـكِـي لَنَـا قَـدّ الأسَـلْ(٧)
كـأنَّـهَـا عُـمْـرُ الـفَـتـى والـنـارُ فِـيـهَـا كـالأَجَـلْ

(١) اللّجين: الفضّة، وأسنان الرمح: حديدته التي يطعن بها.
(٢) القناة: الرمح.
(٣) البرنس: كلّ ثوبٍ رأسه منه.
(٤) الحندس: الظلمة، أو الليل الشديد الظلمة.
(٥) الذوائب: جمع ذوآبة، وهي شعر مقدّم الرأس.
(٦) الصبّ: العاشق.
(٧) الأسل: الرّماح.

ومما ورد في وصفها نثرًا:

من رسالة لابن الأثير الجزريّ جاء منها:

وكان بين يديّ شمعةٌ تعمُّ مجلسِي بالإيناس، وتغنِي بوجودها عن كثرة الجُلّاس؛ وكانت الريح تَتَلَعَّبُ بِشُعَبِها، وتدور على قُطْب لَهَبِها؛ فطَوْرًا تقيمه فيصير أنْمُله[١]، وطورًا تُميله فيصير سِلْسِله؛ وتارة تُجَوّفه فيصير مُدْهُنَه، وتارة تجعله ذا وَرَقات فيمثل سَوْسَنَة[٢]؛ وآونة تنشره فيبسط مِنْدِيلا، وآونة تَلُفُّه على رأسها فيستدير إكْليلا.

ومن رسالة أخرى له:

وكانت الريح تَتَلَعَّبُ بِلَهَبِها لدى الخادم فتشكله أشكالًا، فتارة تُبْرِزُه نجمًا، وتارة تُبْرِزه هِلالًا؛ ولربما سطع طورًا كالجُلَّنارَة[٣] في تضاعيف أوراقها، وطورًا كالأصابع في انضمامها وافتراقها.

وقال سيف الدّين المشدّ[٤] في الفانوس: [من الكامل]

وكأنَّما الفَانُوسُ في غَسَقِ الدُّجى ... دَنِفٌ بَراهُ سُقْمُهُ وسُهَادُه[٥]

حُنِيَتْ أضالِعُه ورَقَّ أدِيمُه ... وجَرَتْ مَدَامِعُه وذابَ فُؤادُه[٦]

٢ ـ ومما قيل في السراج:

من رسالة لأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال، جاء منها:

عذرًا إليك أيّدَك الله! فإنّي خططت[٧] والنوم مُغَازِل، والقُرُّ نازل؛ والريح تلعب بالسراج، وتصول عليه صَوْلةَ الحجَّاج[٨]؛ فطورًا تبرزه سنانًا، وتحرّكه لسانًا؛ وآونةً

---

(١) الأنملة، عقدة الإصبع أو سُلاماها.
(٢) السوسنة: نبات من الرياحين طيّب الرائحة كثير الأنواع.
(٣) الجلّنار: زهر الرمّان.
(٤) هو علي بن عمر بن قزل التركماني المصري، سيف الدين، شاعر من أمراء التركمان كان مشدّ الديوان بدمشق، ولد بمصر وتوفي بدمشق سنة ١٢٥٨ م، له ديوان شعر مطبوع. «فهرس الأعلام ٤/ ٣١٥».
(٥) الدّنف: المريض.
(٦) الأديم: الجلد.
(٧) خططت: كتبت وحبَّرت.
(٨) الحجّاج: يريد الحجّاج بن يوسف الثقفي، والي عبد الملك بن مروان على العراق، والصولة: البطش والقوّة.

تَطْوِيه جُنَّابَه[١]، وأخرى تنشره ذُؤَابه[٢]؛ وتارة تقيمه إبْرة لهب[٣]، وتعطفه بُرَةَ ذَهب[٤]؛ وحينًا تقوّسه حاجب فتاة، ذات غمزات؛ وتسلّطه على سليطه[٥]، وتديله[٦] على خليطه؛ وربما نصبته أُذُنَ جَوَاد، ومسخته حَدَقَ جَرَاد؛ ومشَقَتْه حروف برق، بكفٍّ وَدْق؛ ولَثَمت بسناه قِنْدِيلَه، وألقت على أعطافه مِنْدِيلَه؛ فلا حظَّ منه للعين، لا هداية في الطّرس[٧] لليدين.

٣ ـ رسالة القِنْديل والشمعدان:

من إنشاء المولى الفاضل البارع البلغ تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني[٨]، سمعتُها من لفظه، وقرأتها عليه، وأجاز لي روايتها عنه. وهي الموسومة[٩] بـ «زهر الجِنان، في المفاخرة بين القنديل والشمعدان».

ابتدأها بأن قال:

الحمد لله الذي أنار حَالِك الظَّلمَاء، بأنوار بَدْر السماء؛ وحلّى جيدها، بعقود النجوم، وحرسَ مَسِيدها، بسِهَام الرجوم[١٠]؛ وجعلها عبرة للاستبصار، ونزهة للأبصار؛ غِشَاؤها لَازَوَرْدٌ[١١] مكلّل بِنُضَار، أو أقاحيّ خميلة تفتّحت فيها أزرارُ الأزهار؛ تَهْدِي السّاريَ بسواريها، وتُزْرِي بالدّرر أنوارُ دراريها؛ كرع في نهر مَجَرّتها النَّسْرَان[١٢]، ورتع في مراعي رياضها الفَرْقَدَان[١٣].

أحمده على نعمه التي لا يقوم بشكرها لسان، ولا يؤدّي واجب حقّها إنسان؛ حمدًا يجلِبُ إلى الحامد أنواعَ الإحسان، ويسوق إلى الشاكر ركائب الخيرات الحِسان.

---

(١) الجنّاب: الرفيق المساير إلى الجنب، أي تجعله إلى جنبها.
(٢) الذؤابة: شعر مقدّم الرأس. (٣) إبرة اللهب: طرفه.
(٤) البرّة حلقة في أنف المرأة، أو كل حلقة من سوار وقرط وخلخال.
(٥) السّليط: الزّيت. (٦) تديله: تظفره به.
(٧) الطرس: الصحيفة.
(٨) هو عبد الباقي بن عبد المجيد اليمني المخزومي المكّي، له نظمٌ واشتغال بالأدب والتاريخ، ولد بمكة ورحل إلى الشام ومصر وتفوي بالقاهرة سنة ١٣٤٣ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٧٢».
(٩) الموسومة: المزيّنة والمعلمة والمعنونة.
(١٠) الرّجوم: الشّهب التي ترمى بها الشياطين في السّماء.
(١١) اللازورد: من الأحجار الكريمة، لونه أزرق سماوي، أو بنفسجي.
(١٢) النسران: مجموعتان من النجوم، الأولى تعرف «بالنسر الطائر» والثانية: بالنسر الواقع وذلك لمشابهتهما للنسر.
(١٣) الفرقدان: نجما القطب.

وأصلّي وأسلّم على سيدنا محمد الذي أنار الله بوجوده ظُلْمة الوجود، وأظهر بظهوره أفعالَ الركوع والسجود؛ صلّى الله عليه وعلى آله الوافين بالعهود، وعلى أصحابه أهل الإفضال والجود، صلاةً وسلامًا دائمين إلى اليوم الموعود!

وبعد، فإن فُنونَ الآداب كثيرة الشعوب، متباينة الأُسْلُوب؛ طالَمَا تلاعب الأديب بفنونها بين جِدٍّ ومُجُون، وكيف لا والحديث ذو شجون[١]. وكنت بحمد الله ممن هو قادر على إبراز مُلَحِ الأدب، وعلى إظهار لطائف لغة العرب؛ فتمَثَّل في خاطري المفاخرة بين الشمعدان والقِنْديل، ولا بدّ من إبراز المفاخرة بينهما في أحسن تمثيل؛ لأنهما آلتا نور، ونديما سرور؛ طالما مزّقا جِلْباب[٢] الدُّجى بأضوائهما، وحسما مادّة[٣] الظلمة بأنوارهما؛ وطلعا في سماء المجالس بدورًا، وأخجلا نَوْر الرّياض لما أصدرا من جوهرهما نورًا، سَمَا[٤] كل واحد منهما إلى أنه الأصل، وأن بمدحه يَحْسُن الفصل والوصل؛ وأنه الجوهرة اليتيمة، والبَدْرَةُ[٥] التي ليست لها قيمة؛ سارت بمحاسنه ركائب الركبان، ونُظِمت في جيد مجده قلائدُ العِقْيان.

فأحببت أن أنْظِمها في مَيْدان المناظرة لِيُبْرز كل واحد منهما خصائصه الواضحة، ويُظْهِرَ نقائص صاحبه الفاضحة؛ وليتسنَّم غارب[٦] الاستحقاق بالفضيلة، ويؤكّد في تقرير فضائله الراجحة دليله؛ مع أنه لا تقبل الدَّعاوى إلّا بالبرهان، ولعمري لقد قيل قدْمًا: [من الخفيف]

مَـن تَـحَـلَّى بِـغَـيْـرِ مـا هُـو فِـيـهِ ... فَـضَـحَـتْـه شَـواهِـدُ الإمْـتِـحـان

فأتلع[٧] الشمعدان جِيدَه للمطاولة[٨]، وعَرَض سَمْهَرِيَّه[٩] اللجينيَّ للمناضلة[١٠].

وقال: [من الرجز]

* إسْـتَـنَّـت الـفِـصـالُ حـتّـى الـقَـرْعـى[١١] *

(١) الشجون: من الشجن، وهو الحزن.
(٢) الجلباب: القميص، أو الثوب الواسع الذي تغطي به المرأة رأسها وصدرها.
(٣) المادّة: ما يتركّب منه الشيء ويقوم به، وهي في الفلسفة قوّة موضوعة لحمل الصور، منفعلة، وتعرف أيضًا «بالهيولي».
(٤) سما: تطلّع وطمح.
(٥) البدرة: صرّة النّقود، كيس توضع فيه النقود.
(٦) الغارب: السّنام، ومن كلّ شيء أعلاه.
(٧) أتلع: مدّ عنقه.
(٨) المطاولة: المفاخرة والمزايدة في الشرف.
(٩) السمهريّ: الرمح الصّلب العود.
(١٠) المناضلة: المدافعة والمباراة في الرميّ.
(١١) استنّت: كبُرت، والفصال: الفطام للأطفال، والقرعى: التي سقط شعر رأسها أم لم ينبت بعد.

لستَ بنديم الملوك في المجالس، كلّا ولا الروضةِ الغَنَّاءِ للمُجالس! طالما أحدقتْ بي عساكرُ النظّار، ووقفت في استحسان هياكلي رؤيةُ الأبصار، وحُمِلْتُ على الرؤوس إذا عُلّقْتَ بآذانك، وجُلِيتُ كجِلاء المرهَفَات إذا اسودّ وجهك من دُخَانك.

فنضنض[١] لسانُ القِنديل نضنضة الصِّلّ[٢]، وارتفع ارتفاع البازيِّ المُطِلّ، وقال:

إن كان فخرك بمجالسة السلاطين، فافتخاري بمجالسة أهل الدّين! طالما طلعتُ في أفق المحراب نجمًا ازداد عُلا، وازدانت الأماكن المقدّسة بشموس أنواري حُلا؛ جمع شكلي مجموع العناصر، فعلى مثلي تُعْقَد الخناصر، يحسَبُني الرائي جوهرة العقد الثمين، إذا رأى اصفرار لونك كصُفْرة الحزين؛ ولقد علوتك في المجالس زمانًا، ومن صبر على حرّ المشقّة ارتفع مكانًا.

فنظر إليه الشمعدان مُغْضَبًا، وهمّ بأن يكون عن جوابه منكِّبًا[٣]، وقال:

أين ثمنك من ثمني، ومسكنك من مسكني؟ صفائحي صَفَحات الإبريز[٤]، فلذا سمَوْت عليك بالتَّبْريز، تَنَزّه العيونُ في حمائلي الذهبيّة، وتسرّ النفوسُ ببزُوغ أنواريَ الشّمسيّة؛ ولا يملكني إلّا من أوطنته السعادة مِهادَها؛ وقرَّبَتْ له الرياسة جِيَادها؛ ولقد نفعتُ في الصحّة والسَّقَم، وازدادت قيمتي إذا نقصتَ في القيم؛ إن انفصمت عُراك فلا تُشْعَبْ، ولا تُعاد إلى سَبْكِ نار فتصبّ وتُقْلَبْ، لست من فُرْسان مناظرتي، ولا من قُرَناء مفاخرتي.

فالتفت القنديل التفات الضِّرغام[٥]، وفَوّق[٦] إلى قرينه سهامَ الملام، وقال:

أنت عندي كثُعالة[٧]، لا محالة؛ طالك العنقود، فأبرزت أنواع الحقود؛ وأين الثريًا من يد المتناول؟ أم أين السها[٨] من كفّ المتطاول؟ تالله إنك في صرفك بصُفرك مغلوط! لقد خُصِصْتُ بالعلوّ وخُصِصْتَ بالهُبوط. ترى باطني من ظاهري مشرقًا، وتخالني لخزائن الأنوار مطلقًا؛ فحديث سيادتي مُسَلْسَل، وتاج فضائلي بجواهر العلوّ مكلَّل. فلحظه الشَّمعدان بطرَف طَرْفه[٩]، وأرسل في مَيْدان المناظرة

---

(١) نضنض: تحرّك وقلق وتمايل.
(٢) الصلّ: الحيّة من أخبث الحيّات.
(٣) منكبًا: متنحيًا.
(٤) الإبريز: الذهب الخالص.
(٥) الضّرغام: الأسد.
(٦) فوّق: عمل له فوقًا، والفُوق من السهم حيث يثبت الوتر منه.
(٧) الثعالة: الثّعلب.
(٨) السّها: كوكب ضعيف الضوء.
(٩) الطّرف: العين.

عِنان طِرْفه(١)، وقال:

إنّ افتخارك بالعلوّ غير مفيد، ومزية اختصاصك به ليس له أُبَّهة مزيد؛ طالما عَلَا القَتَام(٢) وانحطّت الفُرسان، ومكث الجمر وسَمَا الدُّخَان؛ ولقد صَيَّرتكَ كنظر المشنوق حاله، وكضوء السُّهاد ذُبَاله(٣)؛ وأنت الخليق بما قيل: [من الطويل]

* وقَـلْـبٌ بـلا لُـبٍّ، وأُذْنٌ بـلا سَـمْـعِ *

وسلاسلك تشعر بعقلك، وعلوّك ينبىء عن غلوّ إسقاطِ كمثلك؛ عادلت التبر كفَّة بِكفِّه، ووزنته إذ كان فيه خفّة؛ فأصِخْ(٤) لمفاخري الجليلة، واستمع مناقبي الجميلة، أُطارِد جيوش الظَّلْماء برمحي، وأمزّق أثواب الديجور بصبحي؛ جمع عاملي بين طلع النخل، وحلاوة النحل، يتلو سورة النور لساني، ويقوى في مصادمة عساكر الليل البهيم(٥) جَنَاني(٦)؛ أُسامر المليك خَلْوه، ويستجلي من محاسني أحسن جَلْوَه.

ولله درّ القائل: [من البسيط]

أُنظر إلى شَمْعِدانٍ شَكْلُه عَجَبُ ... كروضة رَوّضتْ أزهارَها السُّحُبُ

يُطارِدُ الليلَ رمحٌ فيه من وَرِق ... سنَانُه لَهَبٌ من دونه الذَّهَبُ

فمثل هذه المناقب تتلىٰ، ومثل هذه المحاسن تظهر وتُجْلَى.

فأضرم نار تبيينه، في أحشاء قرينه، فعندها قال القنديل:

لقد أطلت الافتخار بمحاسن غيرك، لمّا وقفَتْ في المناظرة ركائبُ سيرك؛ فاشكر اليد البيضاء من شمعك، واحرص على معرفة قيمتك ووضعك؛ وأمّا افتخارك بتلاوة سورة النور، فأنا أحقّ بها منك إذ محلّي الجوامع، والفرقان(٧) فارق بيني وبينك مع أنه ليس بيننا جامع؛ ففضيلتي فيه بيّنة، وآية نوري في سورة النور مبيّنة؛ فاقطع مواد اللّجاجة(٨)، واقرأ الآية المشتملة على الزجاجة(٩)، يظهر لك من هو

---

(١) الطِّرف: الكريم من الخيل.
(٢) القتام: الغبار الأسود.
(٣) الذّبالة: الفتيلة في السّراج.
(٤) أصِخ: فعل أمر من أصاخ أي استمع وأصغى.
(٥) البهيم: الأسود المظلم.
(٦) الجنان: العقل والقلب.
(٧) الفرقان: القرآن الكريم.
(٨) اللّجاجة: الجدال والعناد والخصومة.
(٩) الزجاجة: يريد الآية الكريمة: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النّور: الآية ٣٥].

الأعلى، ومن بالافتخار الأولىٰ؛ تخالني دُرة عُلِّقت في الهواء، أو كوكبًا من بعض كواكب الجوزاء.

ولله درّ القائل: [من السريع]

قِــنْــدِيــلُنَــا فــاقَ بــأنْــوارِهِ نَــوْرَ رِيــاضٍ لــم تَــزَلْ مُــزْهِــرهْ
ذُبــالــةٌ فــيــه إذا أُوقِــدَتْ حَكَتْ بحُسْنِ الوَضْعِ نَيْلُوفَرَهْ[1]

لا يحمل الأقذاء[2] خاطري، ولا يغتمّ مشاهدي وناظري؛ فأنا خلاصك السّبك، والتبر الذي لا يفتقر إلى الحكّ؛ اشتِقاق اسمك من النحوس، ومن جِرْمِك[3] تقام هياكل الفلوس؛ لقد عرّضتَ نفسك للمنيّة، وانعكست عليك موادّ الأمنيّة؛ مع أن الحق أوضحُ من لبّة الصباح[4]، وأسطعُ من ضوء المصباح؛ والآن غُصِصْتَ بِرِيقك، وخفيتْ لوامع بُرُوقك، فهذه الشهباء والحَلْبَة، وهذه ميادين المناضلة رَحْبة.

فحار الشمعدان في الجواب، وجعل ما أبداه أوّلًا فصل الخطاب.

فقال القنديل:

لا بدّ من الإقرار بأن قِدْحي المعلّى[5]، وأني عليك بالتقديم الأولى؛ وأنّ مقامي العالي، ونوري المتوالي.

فقال الشمعدان:

لا منازعة فيما جاء به الكتاب من تفضيلك، وكونك الكوكب الدّرّيّ الذي قَصُر عن بلوغك باعُ مثيلك.

فجنح الشمعدان للسَّلْم، وترفع عن استيطان مواطن الإثم؛ وشرع يُبْدِي شعائر الخضوع، وينشر أعلام الأوبة عما قال والرجوع؛ وقال:

لولا حَمِيَّةُ النفوس، ما تجمَّلَت بمفاخرنا صفحات الطروس[6]؛ ولولا القال والقيل، ما ضَمَّنا معرض التمثيل؛ ولكن أين صفاؤك من كدري، وأين نظرك من نظري؛ خصّك الله بنوره، وذكرك في فرقانه وزبوره.

---

(١) النيلوفر: جنس نباتات مائية تنبت في الأنهار والمناقع.
(٢) الأقذاء: جمع قذى، وهو ما يتكوّن في العين من أذًى تقذفه.
(٣) الجرم: الجسم.
(٤) لبّة الصّباح: قلادته، واللّبة: موضع القلادة من الصّدر.
(٥) المعلّى: سابع سهام القمار. (٦) الطروس: الصّحف.

فعندها تهلّلت أسارير القِنْديل، وتبسّم فرحًا بالتعظيم والتبجيل؛ وقال:

حيث رجعنا إلى شرع الإنصاف، وإظهار محاسن الأوصاف؛ ففضلك لا يبارى، ووصفك لا يُجارى؛ يحسبك الرائي خميلة نَوْر تفتّحت أزهارها، وحديقة نرجس اطّردت أنهارها؛ تُسَرّ بك النفوس، وتدار على نضارتك الكؤوس؛ وإن اللائق بحالنا طيّ بساط المنافسة، وإخماد شرر المقابسة[١]؛ والاستغفار فيما فرط من كلامنا، والرجوع إلى الله في إصلاح أقوالنا وأفعالنا.

ونقول:

الأصل فيما نقلناه عدمه، فقد حَفِيَ كل واحد منا في إبراز معايبه قَلَمُه. ونسأل الله أن تدوم لنا نِعَمُه، ويتعاهدنا في المساء والصباح كرمه! بمنّه وجوده وكرمه! آمين!

(١) المقابسة: الترامي بشرر النار، والقبس: شعلة النّار.

القسم الثالث
من الفن الأول
في الليالي والأيام، والشهور والأعوام، والفصول والمواسم والأعياد

وفيه أربعة أبواب:

الباب الأوّل
من هذا القسم

١ ـ في الليالي والأيام

رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «خلق الله الخلق في ظلمة، (ورُوي: في عَمَاء)، ثم رشّ عليهم من نوره».

وهذا يدلّ على أن الظلمة خلقت قبل النور.

ورُوِيَ أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما سئل عن الليل، أكان قبل أو النهار؟ قال: أرأيتم حيث كانت السمٰوات والأرض رتقًا[1]، هل كان بينهما إلّا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل كان قبل النهار.

والذي ورد في القرآن من ذكر الليل والنهار، والظلمات والنور بدأ الله عزّ وجلّ بذكر الليل قبل النهار، وبالظلمات قبل النور.

ويُروَى أن الله عزّ وجلّ لما خلق السماء والأرض، وقع ظلّ السماء على الأرض فأظلمت فـ ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يُونس: الآية ٥].

ثم خلق الزمان وقسمه قسمين: ليلًا ونهارًا؛ فجعل حصّة الليل للقمر، وحصة النهار للشمس؛ فكانا يتعاقبان بالطلوع فيهما، فلم يكن بين الليل والنهار فرق في الإضاءة.

---

(١) رتْقًا: من رتق أي ضمّ، والمرتوق: الملتئم.

فلمّا أراد الله عزّ وجلّ خلق النوع الإنسانيّ ـ وعلم أنه لا غِنى له عن حركته للمعاش نهارًا وسكونه للراحة ليلًا ـ أمر جبريل فأمرّ جناحه على القمر فمحا نوره، فالسواد الذي يرى في القمر هو أثر المحو، وصار الليل مظلمًا، والنهار مبصرًا.

ورُوِيَ أيضًا أن الله عزّ وجلّ خلق حجابًا من ظلمة مما يلي المشرِق، ووكَّل به مَلَكًا يقال له سراهيل، فإذا انقضت مدّة النهار، قبض الملك قبضة من تلك الظلمة واستقبل بها المغرب، فلا تزال الظلمة تخرج من خلل أصابعه وهو يراعي الشفق؛ فإذا غاب الشفق بسط كفّه فطبق الدنيا ظلمة، فإذا انقضت مدّة الليل، قبض كفّه على الظلمة، إصبعًا بعد إصبع إلى أن يذهب الظلام، حتى تنتقل الشمس من الشرق إلى الغرب، وذلك من أشراط الساعة، والله أعلم!

٢ ـ ذكر ما قيل في الليل وأقسامه

الليل طبيعيّ، وشرعيّ.

أما الطبيعيّ، فهو من حين غروب الشمس واستتارها إلى طلوعها وظهورها.

وأمّا الشرعيّ، فهو من حين غروبها إلى طلوع الفجر الثاني، وهو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٧].

والليل ينقسم إلى اثنتي عشرة ساعة، لها أسماء وضعتها العرب، وهي:

الشاهد، ثم الغَسَقُ، ثم العَتَمَةُ، ثم الفَحْمَةُ، ثم المَوْهِنُ، ثم القِطْعُ، ثم الجَوْشَنُ، ثم العبكة[١]، ثم التَّباشير، ثم الفجر الأوّل، ثم الفجر الثاني، ثم المُعْتَرِض.

هذا ما ذكره ابن النحاس في وصف صناعة الكتاب.

وحكى الثعالبيّ في فقه اللغة ـ عن حمزة الأصفهانيّ، قال: وعليه عهدته ـ أسماء غير هذه، وهي:

الجَهْمَةُ، والشَّفَقُ، والغَسَقُ، والعَتَمَةُ، والسُّدْفَةُ، والزُّلَّة[٢]، والزُّلْفَةُ، والبُهْرَةُ، والسَّحَر، والفجر، والصُّبْح، والصَّباح.

---

(١) كذا بالأصل، والذي في كتب اللغة بهذا المعنى: الهُتكة، فلعلّ ما هنا تحريفٌ من الناسخ.

(٢) لا توجد هذه الكلمة بهذا المعنى في اللّسان، ولا في القاموس، ولا في مستدرك شارحه، وهذا هو الذي دعا الثعالبي، لجعل العهدة على حمزة الأصفهاني.

فصـــل

وقد عُبِّر بالليالي عن الأيام؛ كقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: الآية ١٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر: الآيتان ١، ٢]، فعبّر عن الأيّام بالليالي؛ لأن كل ليلة تتضمّن يومًا.

٣ ـ ذكر الليالي المشهورة

من الليالي المشهورة:

ليلة البَرَاءة، وهي ليلة النصف من شعبان، قيل: سمّيت بذلك لأنها بَراءة لمن يُحييها؛ وليلة القَدْر، والصحيح أنها في مفرَدات العشر الأخير من شهر رمضان؛ وليلة الغَدِير، وهي ليلة الثامن عشرَ من ذي الحجّة؛ وليلة الهَرِير[1]، وهي ليلة من ليالي صِفِّين، قُتِل فيها خَلْقٌ كثير من أصحاب معاوية رضي الله عنه؛ وليلة الخُلَعاء، وهي ليلةٌ باتها أبو الطَّمَحان القَيْنيّ[2] عند دَيْرانية، فأكل طَفَيْشَلها[3] بلحم الخنزير، وشرب خمرها، وزنى بها، وسرق كساءها؛ وليلة النابغة[4]، يُضْرب بها المثل في الخوف؛ وليلة المتوكّل[5]، تضرَب مثلًا في موت نتج من سرور؛ لأنه قُتِل في مجلس أُنسه، على ما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى.

٤ ـ ذكر ما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكر الليل

يقال: أطغى من الليل، أطْفَل[6] من ليل على نهار، أَحْيَرُ من الليل، أَسْتَرُ من الليل، أَظْلم من الليل، أندى من ليلةٍ ماطرة.

---

(١) الهرير: الصوّيت: وهرّ الكلب صوّت دون أن ينبح، والهرير: صوت القوس.

(٢) هو حنظلة بن الشرقيّ، وكان خليعًا فاسقًا، أحد الشعراء الجاهليين، من المعمّرين، لم يدرك الإسلام، وكان من عشراء الزبير بن عبد المطلب، وهو ترب له. «راجع الشعر والشعراء ص ٢٤٦، وفهرس الأعلام ٢/٢٨٦».

(٣) الطفيشل: نوعٌ من المرق.

(٤) هو النابغة الذبياني، الشاعر الجاهلي المشهور، وقد أشار النابغة إلى تلك الليلة بقوله:

فَبِتُّ كأنّي ساورتني ضئيلة ... من الرّقش في أنيابها السّمُّ ناقعُ

«ديوانه ص ٨٠ دار صادر».

(٥) المتوكّل: هو الخليفة العباسي جعفر بن محمد، أبو الفضل، اغتيل بسامرّاء ليلًا سنة ٨٦١ م. «فهرس الأعلام ٢/١٢٧».

(٦) أطفل الليل: أي أقبل بظلمته.

ويقال: الليل أخفى للويل، الليل نهار الأريب، الليل طويل وأنت مُقْمر، الليل وأهضام[١] الوادي، الليل الأعور (لأنه لا يُبْصَر فيه).

ويقال: اتّخذ الليلَ جَمَلًا[٢]، شَمِّرْ ذَيْلًا، وادّرِعْ ليلًا، أمرُ نهارٍ قُضِي بليل.

ومن أنصاف الأبيات:

* اللّيل حُبْلَى ليس تَدْرِي ما تَلِد *

* ما أقصرَ الليلَ على الرّاقد! *

* ما أشْبَهَ الليلةَ بالبارِحَهْ! *

* وليلُ المُحِبّ بلا آخر *

* إحدى لياليكِ فهِيسِي هِيسِي[٣] *

* فإنّكَ كالليل الذي هو مُدْرِكي *

ومن الأبيات: [من البسيط]

إنّ اللّياليَ لم تُحْسِنْ إلى أحدٍ إلّا أساءتْ إليه بَعْدَ إحسان

[من الخفيف]:

واللّيالي كما عهدتَ حَبَالَى مُقْرِبَاتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبِ

[من الرّجز]:

أمَا ترى اللّيْلَ والنّهارا جَارَيْنِ لا يُبْقِيان جارًا؟

وقال حميد بن ثور[٤]: [من الطويل]

ولَنْ يَلْبَث العَصْرانِ يومٌ وليلةٌ إذا طَلَبَا أن يُدْرِكَا ما تمنَّيَا!

وقال أبو حيّة النُّمَيري[٥]: [من الطويل]

إذا ما تقاضى المرءَ يومٌ وليلةٌ تقاضاه شيءٌ لا يَمَلُّ التَّقاضيَا

---

(١) أهضام الوادي: مفردها هضم وهو بطن الوادي.

(٢) هو مثل يضرب في الحثّ على مزاولة الجهد ليُظفر بالمطالب، والمعنى: عليك بركوب اللّيل، وكابد السُّرى تنل بغيتك. «الزمخشري ١/ ٤١».

(٣) فهيسي هيسي: كلمة تقال عند إمكان الأمر، والإغراء به.

(٤) هو حميد بن ثور الهلالي، من بني عامر بن صعصعة، إسلاميّ مجيد في شعره. «الشعر والشعراء ص ٢٤٧».

(٥) هو الهيثم بن الربيع، وكان يروي عن الفرزدق، وكان كذّابًا، وقد ذكر ابن قتيبة نتفًا من كذبه، =

٥ ـ ذكر ما قيل في وصف الليل وتشبيهه

قد أكثر الشعراء في وصف الليل بالطُّول والقصَر، وذكروا سببَ الطول الهُمُومَ، وسبَب القِصر السرورَ.

ولهذا أشار بعض الشعراء في قوله: [من الكامل]

إنّ اللّيالـيَ للأنامِ مَنَاهلٌ ... تُطوى وتُنْشَرُ بينها الأعمارُ
فقِصارهُنّ مع الهُمُومِ طويلةٌ ... وطِوالهُنّ مع السرورِ قِصارُ

وقال آخر: [من البسيط]

إنّ التَّواصُلَ في أيامِهِ قِصَرٌ ... كما التهاجُر في أيَّامِه طُولُ
فليس يَعْرِف تَسْهِيدًا ولا رَمَدًا ... جفنٌ برؤية مَنْ يهواهُ مشغولُ[1]

وقال ابن بَسَّام[2]: [من السريع]

لا أَظْلِمُ الليلَ ولا أَدَّعي ... أنّ نجومَ الليلِ ليستْ تَغُورْ
ليلي كما شاءت فإنْ لم تَزُر ... طالَ؛ وإنْ زارَتْ، لَيْلي قَصِيرْ

أصله من قول عليّ بن الخليل: [من السريع]

لا أَظْلِمُ الليلَ ولا أدّعي ... أنّ نجوم الليلِ ليسَتْ تَعُولْ[3]
ليلي كما شاءَتْ قصيرٌ إذا ... جادَتْ، وإن صدَّتْ، فليلي طوِيلْ

وقال آخر: [من البسيط]

أَخُو الهَوى يستطِيلُ الليلَ مِن سَهرٍ ... واللّيلُ في طُوله جارٍ على قَدَرِهْ
ليلُ الهوى سَنَةٌ في الهَجْر مدّته ... لكِنَّه سِنَةٌ في الوَصْل مِنْ قِصَرِهْ[4]

= وهو شاعر من شعراء العصر الأموي. «الشعر والشعراء ص ٥٢٢».

(١) التسهيد: النّعاس، والرّمد: مرضٌ يصيب العين فتلتهب، وتمنع الكرى.

(٢) هو عليّ بن محمد بن نصر، أبو الحسن، شاعر هجاء، من الكتّاب، عالم بالأدب والأخبار، من أهل بغداد توفي سنة ٩١٤ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٣٢٤».

(٣) تعول: يقال: عالت النجوم: أي ذهبت.

(٤) سَنَة، وسِنَة، جناس تام، السَّنة بمعنى العام، والسِّنة بمعنى النعاس والغفلة.

وقال الوليد بن يزيد بن عبد الملك[١]: [من البسيط]

لا أسألُ اللهَ تغييرًا لما صَنَعَتْ   نامَتْ وقد أسهرتْ عَيْنَيّ عيناها
فاللّيلُ أطولُ شيءٍ حينَ أَفْقِدُها   واللّيلُ أقصرُ شيءٍ حينَ ألقاها

٦ ـ وأما ما وصف به من الطُّول

قال الخبّاز[٢]: [من المتقارب]

ولَيْلٍ كَواكِبُه لا تَسِيرُ   ولا هُوَ مِنْها يُطِيقُ البَرَاحَا[٣]
كيومِ القِيَامةِ في طُولِهِ   على مَنْ يُراقِبُ فيه الصَّبَاحا

وقال ابن المعتزّ: [من المنسرح]

ما لِي أرى الليلَ مُسْبِلًا شَعَرًا   عَن غُرّةِ الصُّبْحِ غَيْرَ مَفْروقِ

وقال بشّار: [من الطويل]

خَلِيلَيّ! ما بالُ الدُّجى لا يُزَحْزَحُ   وما بالُ ضَوْءِ الصُّبْحِ لا يَتَوَضَّحُ؟
أضَلَّ النَّهارُ المستَنِيرُ طَرِيقَهُ؟   أمِ الدّهْرُ لَيْلٌ كُلُّه لَيْسَ يَبْرَحُ؟

وقال الرفّاء: [من الطويل]

أَلَا رُبَّ لَيْلٍ بِتُّ أَرعى نُجومَهُ   فلم أَغْتَمِضْ فيه ولا اللَّيْلُ أَغْمَضَا
كأنَّ الثُّرَيّا راحةٌ تَشْبُرُ الدُّجى   لتَعْلَمَ طالَ اللَّيْلُ لي أم تَعَرَّضَا[٤]
عَجِبْتُ لِلَيْلٍ بَيْنَ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ   يُقاس بِشِبْرٍ كَيْفَ يُرجىٰ له انْقِضَا؟

وقال محمد بن عاصم: [من السريع]

أقول، واللَّيْلُ دُجًى مُسْبَلُ   والأَنْجُمُ الزُّهْرُ بِهِ مُثَّلُ
يا طُولَ لَيْلٍ ما لَهُ آخِرٌ   مِنْكَ، وصُبْحٌ ما لَه أَوّلُ!

---

(١) هو الخليفة الأموي، أبو العباس، كان شاعرًا ماجنًا انهمك باللهو والغناء وسماع الموسيقى، قتل سنة ٧٤٤ م. «فهرس الأعلام ٨/ ١٢٣».
(٢) هو أبو بكر الخباز محمد بن أحمد بن حمدان، المعروف بالخبّاز البلدي، ومن عجيب شأنه أنه كان أمّيًا، وشعره كله ملح وتحف، وغرر وطرف. «يتيمة الدهر ٢/ ٢٤٤».
(٣) البراح: الظهور، أي هو لا يطيق رؤيتها لأنّه يودّ انقشاع الليل.
(٤) الرّاحة: اليد، وتشبر الدّجى: تقيسه بالشّبر.

وقال التنوخيّ: [من الرجز]

وَلَيْلَةٍ كأنَّها قُرْبُ أَمَلْ ... ظَلامُها كالدَّهر ما فيه خَلَلْ
كأنَّما الإصْباحُ فيها باطِلٌ ... أزْهَقَهُ اللهُ بحقٍّ، فبَطَلْ
ساعاتُها أطولُ من يَوْمِ النَّوى ... وليلةِ الهَجْر وساعاتِ العَذَلْ[١]
مؤصَدَةٌ على الورى أبوابُها ... كالنّار لا يَخْرُجُ منها مَن دخلْ[٢]

وقال أبو محمد، عبد الله بن السيِّد البَطْليُوسِي[٣]: [من الطويل]

تَرى لَيْلَنا نواصِيه كِبْرَةً ... كما شَبَّ، أو في الجَوِّ رَوْضُ نَهَارِ[٤]؟
كأنّ اللّيالي السَّبعَ في الأُفْقِ جُمِّعَتْ ... ولا فصلَ فيما بَيْنَها بنهارِ

وقال الشريف البياضيّ[٥]: [من الطويل]

أقولُ لصَحْبِي والنجومُ كأنَّها ... وقد رَكَدَتْ في بَحْرِ حِنْدِسِها غَرْقَى[٦]
أرى ثوبَ هذا اللَّيْلِ لا يَعْرِفُ البِلَى! ... فهل أَرَيَنْ للصُّبْحِ في ذَيْله فَتَقَا؟

وقال أيضًا: [من الوافر]

أقولُ وللدُّجى عُمْرٌ مَديدٌ ... وآخِرُه يُردّ إلى مَعادِ
وقد ضَلَّتْ كواكِبُه، فظَلَّتْ ... حَيَارى ما لَها في الأُفْقِ هادي
لعلَّ اللّيلَ ماتَ الصُّبْحُ فيه ... فلازَمَ بعده لُبْسَ الحِداد

وقال آخر: [من الوافر]

أمَا لِظَلامِ لَيْلِي من صَبَاحِ؟ ... أمَا لِلنَّجْمِ فيه من بَرَاحِ؟
كأنَّ الأُفْقَ سُدَّ، فَلَيْسَ يُزجى ... به نَهْجٌ إلى كُلِّ النواحي[٧]

---

(١) النّوى: البعد. (٢) المؤصدة: المغلقة.
(٣) هو عبد الله بن محمد بن السيّد، من العلماء باللغة والأدب، ولد ونشأ في بطليوس بالأندلس، انتقل إلى بلنسية ومات فيها سنة ١١٢٧ م. «فهرس الأعلام ٤/١٢٣».
(٤) نواصيه: جمع ناصية، وهي مقدّم الرأس، والكبرة: كبر السّن.
(٥) هو مسعود بن عبد العزيز بن الحسن بن عبد الرزاق البياضي، أبو جعفر، شاعرٌ هاشميّ من أهل بغداد مولدًا ووفاة، والبياضي نسبة إلى لبس البياض، يقول ابن خلّكان: له ديوان شعر صغير قد رآه، وهو في غاية الحسن والرّقة، توفي سنة ١٠٧٦ م. «فهرس الأعلام ٧/٢١٨».
(٦) الحندس: الظلمة. (٧) النّهج: الطريق المستقيم الواضح.

كأنَّ الشَّمْسَ قد مُسِخَتْ نُجُومًا ... تَسِيرُ مَسِيرَ رُوَّادٍ طِلَاحِ(١)
كأنّ الصُّبْحَ مَهجُورٌ طَرِيدٌ ... كأنّ الليلَ مات صَرِيعَ راحِ(٢)
كأنّ بناتَ نَعْشٍ مُتْنَ حُزْنًا ... كأنّ النسرَ مَكسورُ الجَناحِ(٣)

وقال آخر: [من السريع]

يا لَيْلَةً طالَتْ على عاشِقٍ ... مُنْتَظِرٍ لِلصُّبْحِ مِيعَادَا!
كادَتْ تَكونُ الحَوْلَ في طُولِها ... إذا مضى أوّلُها، عادَا

وقال ابن الروميّ: [من الخفيف]

رُبَّ لَيْلٍ كأنَّهُ الدَّهْرُ طُولًا ... قد تَنَاهَى فلَيْسَ فيه مَزِيدُ
ذِي نُجُومٍ كأنَّهُنَّ نُجُوم الشَّـ ... ـيْبِ لَيْسَتْ تَزُولُ، لَكِنْ تَزِيدُ

وقال أبو الأحنف(٤): [من الخفيف]

حَدِّثُوني عن النَّهارِ حَدِيثًا ... أو صِفُوهُ فقد نَسِيتُ النَّهارا

وقال بشّار: [من الرّمل]

طالَ هذا اللَّيْلُ بَلْ طالَ السَّهَرْ! ... ولقَدْ أعْرِفُ لَيْلِي بالقِصَرْ
لم يَطُلْ حتّى دَهانِي في الهوَى ... ناعِمُ الأطْرافِ فَتَّانُ النَّظَرْ
فكأنَّ الهَجْرَ شَخْصٌ ماثِلٌ ... كُلَّما أبْصَرَه النَّوْمُ نَفَر

وقال إبراهيم بن خفاجة الأَنْدَلُسِيّ: [من المجتثّ]

يا لَيْلَ وَجْدٍ بِنَجْدِ ... أما لِطَيْفِكَ مَسْرَى؟(٥)
وما لِدَمْعِي طَلِيقٌ ... وأَنْجُمُ الجَوِّ أَسْرَى؟
وقد طَمَا بَحْرُ لَيْلٍ ... لم يُعْقِبِ المَدَّ جَزْرَا(٦)
لا يَعْبُرُ الطَّرْفُ فيه ... غَيْرَ المَجَرَّةِ جِسْرَا(٧)

---

(١) الطّلاح: مفردها الطّلح، وهو المهزول. (٢) الرّاح: الخمرة.
(٣) بنات نعش: سبعة كواكب، تشاهد جهة القطب الشمالي، شبِّهت بحملة النّعش.
(٤) لعلّه ابن الأحنف، العبّاس، أبو الفضل، شاعر الغزل الرقيق، نشأ في بغداد وتوفي بها سنة ٨٠٨ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٥٩».
(٥) الطّيف: الخيال الذي يتراءى للعاشق عند التذكّر.
(٦) طما البحر: علا موجه وعمّ.
(٧) المجرّة: نجوم في السّماء يبدو ضوؤها ولا ترى لبعدها.

وقال أبو مروان بن أبي الخصال: [من الطويل]

وليلٍ كأنَّ الدّهرَ أَفْضَى بعُمْره جميعًا إلَيْه، فانتهى في ابْتِدائه
يُحَدِّثُ بعضُ القومِ بَعْضًا بطُولِهِ ولم يَمْضِ منه غيرُ وَقْتِ عِشَائِه

وقال إبراهيم ولد ابن لنكك البصريّ[١]، شاعر اليتيمة: [من السريع]

ولَيْلَةٍ أَرّقَنِي طُولُها فبِتُّها في حَيْرَة الذّاهِلِ
كأنّما اشْتُقَّتْ لإفراطها في طُولها من أمل الجاهل

وقال امرؤ القيس: [من الطويل]

وليلٍ كمَوْجِ البَحْرِ مُرْخٍ سُدولَه عليَّ بأنواع الهُمُوم ليبتلي[٢]
فقُلتُ له لما تمَطَّى بصُلْبِه وأردفَ أعجازًا ونَاءَ بِكَلْكَلِ[٣]
ألَا أيُّها الليلُ الطويلُ، ألَا انجلي بصُبْحِ! وما الإصباحُ منكَ بأمثل![٤]
فيا لَك من ليلٍ كأنّ نُجومَه بأمراسِ كَتَّانٍ إلى صُمّ جَنْدَلِ[٥]

وقال آخر: [من الوافر]

أُراقبُ في السَّماءِ بناتِ نعشٍ ولو أَسْطِيعُ، كنتُ لهنَّ حادي
كأنَّ اللَّيْلَ أُوثِقَ جانِبَاهُ وأوسَطُهُ بأمراسٍ شِدَاد

وقال أخرم بن حميد: [من الطويل]

وليلٍ طويلِ الجانِبَيْنِ قطعتُه على كَمَدٍ، والدَّمْعُ تَجْرِي سَوَاكِبُهْ[٦]
كواكِبه حَسرى عليه كأنّها مُقَيَّدةٌ دونَ المَسِيرِ كَواكِبُه

---

(١) هو أبو الحسن محمد بن محمد، فرد البصرة وصدر أدبائها، وأكثر شعره ملح وظرف وجلّه في شكوى الزّمان وأهله، أبدع في المقطوعات ولم يبدع في القصائد. «يتيمة الدّهر ٢/٤٠٧».

(٢) في الديوان ص ١١٧ دار الكتب العلميّة: «أرخى سدوله» والسّدول: الستور، يريد بها ظلمة الليل.

(٣) الكلكل: الصّدر.

(٤) أمثل: يريد أن الإصباح ليس بأفضل من الإمساء.

(٥) صواب البيت:

فيا لك من ليلٍ كأنّ نجومه بكلّ مغار الفتل شدّت بيذبل

(٦) الكمد: الحزن والغيظ. «الديوان ص ١١٧ دار الكتب العلميّة».

وقال ابن الرقاع[١]: [من الكامل]

وكأنَّ لَيْلي حينَ تغرب شَمْسُهُ ... بِسواد آخَرَ مثلِهِ مَوْصُولُ
أَزعى النُّجومَ، إذا تغيَّبَ كوكبٌ ... أبصرتُ آخَرَ كالسِّراج يَجُولُ[٢]

وقال آخر: [من السّريع]

ما لِنُجُومِ اللَّيْلِ لا تَغْرُبُ؟ ... كأنَّها مِنْ خَلْفِها تُجْذَبُ!
روَاكِدٌ ما غارَ في غَرْبِها ... ولا بَدَا من شَرْقِها كَوْكَبُ[٣]

وقال سعيد بن حميد[٤]: [من مجزوء الرّجز]

يا لَيْلُ، بَلْ يا أَبَدُ! ... أنائِمٌ عَنْكَ غَدُ؟
يا لَيْلُ لو تَلْقَى الَّذي ... أَلْقَى بِها أو تَجِدُ
قَصَّرَ مِنْ طُولِكَ أو ... ضَعَّفَ منكَ الجَلَدُ!

وقال سيف الدّين المشدّ: [من المجتثّ]

ماتَ الصَّباحُ بِلَيْلِ ... أحْيَيْتُه حِينَ عَسْعَسْ![٥]
لو كانَ في الدّهرِ صُبْحٌ ... يَعِيشُ، كانَ تَنَفَّسْ

٧ ـ أما ما وصف به من القِصَر

فمن ذلك قول إبراهيم بن العبّاس[٦]: [من الرجز]

ولَيْلةٍ إحْدَى اللّيالي الزُّهْرِ ... قابلتُ فيها بَدْرَها بِبَدْري
لم تَكُ غَيْرَ شَفَقٍ وفَجْرِ ... حتّى تَوَلَّتْ وهي بِكْرُ الدَّهْرِ

---

(١) هو عدي بن زيد بن مالك، من عاملة، شاعر كبير من أهل دمشق كان معاصرًا لجرير، مقدّمًا عند بني أميّة، مات في دمشق نحو سنة ٧١٤ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٢٢١».

(٢) أرعى النجوم: أراقبها.

(٣) غار: اختفى.

(٤) هو سعيد بن حميد بن سعيد، أبو عثمان، من الشعراء الكتّاب، عبّاسي رقيق الشعر، توفي نحو سنة ٦٨٤ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٩٣».

(٥) عسعس الليل: أظلم.

(٦) هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول، أبو إسحٰق، كاتب العراق في عصره، شاعرٌ أديب، قال المسعودي: لا يعلم فيمن تقدّم وتأخّر من الكتّاب أشعر منه، توفي سنة ٨٥٧ م. «فهرس الأعلام ١/ ٤٥».

وقال الشريف الرضيّ: [من المنسرح]

يـا لَيْـلَةً كـادَ مِـنْ تَـقَـاصُـرِهـا يَـعْـثُـرُ فـيـهـا الـعِـشَـاءُ بـالـسَّـحَـرِ

وقال آخر: [من البسيط]

يـا لـيـلةٍ جَـمَـعَـتْـنـا بـعـد فُـرْقَـتِـنَـا فبِتُّ من صُبْحِها لَمَّا بدا، فَرِقا[1]
لما خَلَوْتُ بآمالي بها، قَصُرتْ وكاد يَسْبِقُ فيها فجرُها الغَسَقَا

وقال آخر: [من البسيط]

يـا رُبَّ لَيْـلِ سُرُورٍ خِلْتُه قِصَـرًا يُعارِضُ البرق في أُفْقِ الدُّجى بَرَقَا
قـد كـاد يَـعْـثُـرُ أولاه بـآخِـرِهِ وكادَ يسبِقُ منه فَجْرُهُ الشَّفَقَا[2]

وقال القاضي السعيد ابن سناء الملك[3]: [من البسيط]

يا لَيْلَةَ الـوَصْـلِ، بـل يا لـيـلَةَ الـعُـمُـر! أحسَنْتِ، إلّا إلى المشتاق، في القِصَر
يا ليتَ زِيدَ بحكم الوصل فيكِ لنا مـا طـوّلَ الـهَـجْـرُ مـن أيّـامِـكِ الأُخَـر
أو لَيْتَ نَـجـمَـكِ لـم تَـقْـفُـلْ ركـائـبُـه أو ليتَ صُبْحَكِ لم يَقدُم من السَّفَر
أو ليتَ لم يَصْفُ فيكِ الشَّرقُ من غَبَشٍ فـذلـك الـصَّـفْـوُ عِـنْـدِي غـايـةُ الـكَـدَر[4]
أو ليتَ كُلّا من الشرقَيْنِ ما ابْتَسَمَا أو لـيـتَ كُـلّا من الـنَّـسْـريْـنِ لـم يَـطِـرِ
أو لـيـتَ كـنـتِ كـمـا قـد قـال بـعـضـهـم «لَيْلَ الضَّرير فصُبْحِي غَيْرُ مُنْتَظَر»
أو لـيـتَ فَـجْـرَكِ لـم يَـنْـفُـرْ بـه رَشَـئِي أو ليتَ شَمْسَكِ ما جارَتْ على قَمَري[5]
أو ليتَ قَلْبِي وطَرْفِي تحتَ مِلْك يَدِي فـزِدْتُ فـيـه سَـوادَ الـقـلـب والـبَـصَـرِ
أو لـيـتَ ألـقـى حَـبِـيـبِـي سِـحْـرَ مُـقْـلَـتِـهِ عـلـى الـعِـشَـاء فـأبـقـاهـا بـلا سَـحَـرِ
أو لـيـتَ كـنـت سـألـتـيـه مُـسـاعـدةً فـكـان يَـحْـبُـوكِ بـالـتـكـحـيـل والـشَّـعَـر

(١) الفرق: الخف.
(٢) عثر: زلّ، والشفق: حمرة تعلو الأفق عند غروب الشّمس.
(٣) هو هبة الله بن جعفر، أبو القاسم، القاضي السّعيد، شاعرٌ من النبلاء مصريّ المولد والوفاة، وافر الفضل، جيد الشعر، توفي سنة ١٢١٢ م. «فهرس الأعلام ٨/ ٧١».
(٤) الغبش: الكدرة، وعدم الانقشاع.
(٥) الرّشأ: ولد الظبية، إذا قوي وتحرك ومشى مع أمه، ويريد به: الفتاة الصّبيّة.

كأنّها حِينَ ولَّتْ قمتُ أجْذِبُها فانْقدّ في الشَّرْق منها الثَّوْبُ من دُبُرِ[١]
لا مَرْحبًا بصباحٍ جاءنِي بَدَلًا من غُرّة النَّجْم أو من طَلْعَة القمر!

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من مجزوء الكامل]

يا ليلةً ما كان أطْـ ـيبَها سِوى قِصَرِ البقاء!
أحييتُهَا فأمتُّها وطَوَيْتُها طَيَّ الرِّدَاء
حتّى رأيتُ الشَّمْسَ تتـ ـلو البَدْرَ في أُفقِ السَّماء
فكأنّه وكأنّها قَدَحانِ من خمرٍ وماء

وقال المهلبيّ[٢]: [من المنسرح]

قد قَصُرَ اللَّيلُ عِنْدَ أُلْفَتِنَا كأنّ حادِي الصَّباح صَاحَ بِهِ

وقال آخر: [من المنسرح]

كأنّما اللَّيلُ راكِبٌ فرسًا منهزِمًا والصَّباح في طَلَبِهْ

٨ ـ أما ما وصف به من الإشراق

فمن ذلك قول شاعر أندلسيّ: [من مجزوء الخفيف]

رُبَّ ليلٍ عَمَرتُه فيكَ خالٍ من الفِكَرْ
كَثُرتْ حَوْلَه الحُجُو لُ وسارَتْ به الغُرَرْ[٣]

وقال أبو بكر الصنوبريّ[٤]: [من الكامل]

يا ليلةٍ طَلَعَتْ بأسْعَدِ طالِعِ تاهَتْ على ضَوْءِ النَّهارِ السَّاطع[٥]
بِمَحاسنٍ مَقْرُونةٍ بمَحَاسِنٍ وبَدَائعٍ مَوْصُولةٍ بِبَدَائِعِ

---

(١) الدُّبر: الظهر، خلاف ما تقدّم من وجه الإنسان وجسده.
(٢) هو يزيد بن محمد بن المهلّب بن المغيرة، شاعر محسن راجز، من الندماء الرواة اشتهر ومات في بغداد سنة ٨٧٣ م. «فهرس الأعلام ٨/ ١٨٧».
(٣) الحجول: مفردها الحجل، وهو القيد أو الخلخال، والغُرر: البيض.
(٤) هو أحمد بن محمد الضبّي الحلبي الأنطاكي، أبو بكر، شاعر اقتصر في أكثر شعره على وصف الرّياض والأزهار، وكان ممّن يحضر مجالس سيف الدّولة، توفي سنة ٩٤٦ م. «فهرس الأعلام ١/ ٢٠٧».
(٥) تاهت: افتخرت.

ضَوْءُ الشُّمُوعِ وضَوْءُ وجْهِكَ مازِجًا ضَوْءَ العُقَارِ وضوءَ برقٍ لَامِعِ[١]
فكأنَّما أَلْقَى الدُّجى جِلْبابَه وأراكَ جِلْبابَ النَّهارِ الساطِعِ

٩ ـ أما ما وصف به من الظلمة

قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النُّور: الآية ٤٠]، فهذه أتمّ أوصاف الظلمة.

وقال مُضَرِّسُ بن رِبْعِيٍّ[٢]: [من الطويل]

وليلٍ يقولُ الناس في ظُلُماته سَواءٌ صحيحاتُ العُيُونِ وعُورُها
كأنّ لَنا منه بُيوتًا حَصِينَةً مُسُوحٌ أعاليها وسَاجٌ كُسُورُها[٣]

وقال أبو تمام: [من الطويل]

إليكَ هَتَكْنا جُنْحَ ليل كأنَّما قد اكتحلَتْ منه البلادُ بإثمدِ[٤]

وقال أبو نواس: [من الوافر]

إِبِنْ لي: كيف صِرْتَ إلى حَرِيمي وجَفْنُ الليلِ مُكْتَحِلٌ بقارِ[٥]

وقال العَلَوِيُّ الأصفهانيّ: [من المنسرح]

وربَّ لَيْلٍ باتَتْ عَسَاكِرُهُ تحملُ في الجوّ سُودَ راياتِ
لامعةٌ فوقَها أَسِنَّتُها مثلُ الأزاهيرِ وَسْطَ رَوْضَاتِ

ومن رسالة لأبي عبد الله بن أبي الخصال، جاء منها:

والليل زنجيّ الأديم، تبريُّ النجوم[٦]؛ قد جلَّلَنا ساجهُ[٧]، وأغرقتنا أمواجهُ؛ فلا مجال لِلَّحظ، ولا تعارُف إلا باللفظ؛ ولو نظرتْ فيه الزرقاء لاكتحلت، ولو خُضبتْ به الشَّيبة ما نَصَلَتْ[٨].

---

(١) مازجًا: خالطًا، والعقار: الخمرة.

(٢) هو مضرّس بن ربعي بن لقيط الأسدي، شاعر حسن التشبيه والوصف، جاهلي، وقال المرزباني: له خبرٌ مع الفرزدق، وبذلك إن صحّ لا يكون جاهليًا. «فهرس الأعلام ٧/ ٢٥٠».

(٣) المسوح: مفردها المسح، وهو الكساء من شعر، والسّاج: خشب شجر الساج، وهو صلب أسود.

(٤) الإثمد: عنصر معندي بلوريّ الشكل، قصديري اللّون، صلب هش، يكتحل به.

(٥) القار: الزفت.

(٦) تبريُّ النجوم: أي أن نجومه تلمع كالتّبر أي الذهب.

(٧) جلَّلنا: علانا، والساج: شجرٌ خشبه جيد أسود. (٨) نصل الخضاب: زال لونه وتغيّر.

١٠ ـ ومما قيل في تباشير الصباح

قال أبو محمد العلويّ: [من الطويل]

كأنّ اخِضْرارَ الجوّ صَرْحٌ ممرَّدٌ وفيه لآلٍ لم تُشَنْ بثُقُوبِ[١]
كأنّ سَوَادَ اللّيْلِ في ضَوْءِ صُبْحِه سوادُ شَبابٍ في بياضِ مَشِيبِ

وقال أبو عليّ بن لؤلؤ[٢]، الكاتب: [من الخفيف]

رُبَّ فجرٍ كطَلْعَةِ البدر جَلَّى جُنْحَ ليلٍ كطلعةِ الهِجْرَانِ
زارَ في حُلَّة البُزاة فولَّى اللـ يلُ عنه في حُلَّةِ الغِرْبان

وقال الخالديّان[٣]: [من الكامل]

وكأنّما الصُّبْحُ المنيرُ وقد بدا بازٌ أطارَ من الظَّلامِ غُرابَا[٤]

وقال النظامُ البلخيّ، من شعراء الخريدة: [من الوافر]

فَلَاحَ الصبحُ مبتسِمَ الثَّنَايَا وطارَ اللّيْلُ مَقْصُوصَ الجَناحِ
يَطِيرُ غُرابُ أوْكارِ الدّيَاجي إذا ما حَلَّ بازِيُّ الصَّباحِ

وقال تميم بن المعز[٥]: [من الخفيف]

وكأنَّ الصَّباحَ في الأُفْقِ بازٌ والدُّجى بين مِخْلَبَيْهِ غُرابُ

وقال ابن وكيع: [من الرمل]

غَرَّدَ الطيرُ فنبِّهْ من نَعَسْ وأدِرْ كاسَكَ فالعيشُ خُلَسْ![٦]

---

(١) لم تُشن: أي لم يلحقها عيب.
(٢) هو عبد العزيز بن طلحة بن لؤلؤ، أبو منصور، شاعر، كان صاحب بريد الخليفة القادر بالله العباسي، أورد الثعالبي نماذج رقيقة من شعره في اليتيمة. «فهرس الأعلام ٤/ ١٨».
(٣) هما أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد، ابنا هاشم الخالديان، كانا يشتركان في نظم الشعر وينفردان، ولا يكادان في الحضر والسفر يفترقان. «يتيمة الدّهر ٢/ ٢١٤».
(٤) الباز: نوعٌ من الصّقور، وأشدّ الجوارح تكبّرًا وأضيقها خلقًا، يستخدم في الصّيد.
(٥) هو تميم بن المعزّ، أبو يحيىٰ الصّنهاجي، من ملوك الدولة الصنهاجيّة بإفريقيا الشمالية وكان شجاعًا أديبًا، عالمًا بالأدب، ينظم الشعر الحسن، له ديوان شعر، توفي سنة ١١٠٨ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٨٨».
(٦) الخُلس: ما يختلس من الزّمن، وهي فرص العيش.

سُلَّ سَيْفُ الفجر من غِمْدِ الدُّجى ... وتعرّى الصبحُ من ثوبِ الغَلَسْ[١]
وأنجلى في حلّةٍ فضّيّةٍ ... ما بها من ظُلْمة اللّيل دَنَسْ

وقال أبو مروان بن أبي الخصال: [من الطويل]

ولَمَّا رأيتُ الغَرْبَ قد غُصَّ بالدُّجى ... وفي الشَّرْق من ثوب الصَّباح دلائلُ
توهَّمتُ أن الغربَ بحرٌ أخُوضُهُ ... وأن الذي يَبْدُو من الشَّرْق ساحلُ

وقال أسعد بن بليطة الأندلسِيّ: [من البسيط]

جَرَتْ بِمِسْكِ الدُّجى كافُورةُ السَّحَر ... فغاب، إلا بَقَايَا منه في الطُّرَرِ[٢]
صبحٌ يَفِيض وجُنْحُ الليلِ مُنْغَمِسٌ ... فيه كما غَرِقَ الزنْجِيُّ في نَهَر
قد حَارَ بينَهُما في بَرْزَخٍ قَمَرٌ ... يلُوحُ كالشَّنْفِ بين الخَدِّ والشَّعَر[٣]

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبيّ: [من البسيط]

بِتْنا كأنَّ جِدَاد اللَّيْلِ شَمْلتنَا ... حتّى بدا الصُّبْحُ في ثوبٍ سَحُوليٍّ[٤]
كأنَّ ليلتَنَا، والصبح يتبعُها ... زنْجِيَّةٌ هربتْ قُدّام رُوميّ

وقال أبو نُوَاس: [من البسيط]

فقُمْتُ والليلُ يَجْلُوه الصَّباحُ، كَما ... جَلَا التَّبسمُ عن غُرِّ الثَّنِيَّاتِ[٥]

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من الرّجز]

قد أغْتَدي واللَّيْلُ في جِلْبَابِهِ ... كالحَبَشِيّ فَرّ من أصحابِهِ
والصُّبحُ قد كَشَّرَ عن أنْيابِهِ ... كأنَّما يَضْحَك من ذَهَابه

وقال السريّ[٦]: [من البسيط]

وشَرَّدَ الصبحُ عنَّا الليلَ فاتَّضحَتْ ... سُطُوره البيضُ في آياتِهِ السُّود

---

(١) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصّباح.
(٢) الطّرر: ما طرّ من نبات وغيره، أي طلع، وطرّ شاربه: طلع.
(٣) الشّنف: القرط.
(٤) السّحل: ثوب لا يبرم غَزْله، لا يفتل طاقتين.
(٥) الثنايا: مفردها ثنيّة، وهي إحدى الأسنان الأربع في مقدّم الفم، والغرّ: أبيض.
(٦) هو السّريُّ الرّفاء بن أحمد الكندي، شاعر أديب من أهل الموصل، تقدّم ذكره. «انظر فهرس الأعلام ٣/ ٧١».

وقال أبو فراس: [من الطويل]

مَدَدْنَا علينا اللّيْلَ، والليلُ راضِعٌ ... إلى أن تَرَدَّى رأسُه بمَشِيبِ[١]

بحال تَرُدُّ الحاسدينَ بغَيْظهم ... وتَطْرِفُ عنَّا عينَ كُلِّ رَقِيبِ[٢]

إلى أنْ بَدَا ضَوْءُ الصَّباح كأنّه ... مَبَادِي نُصُولٍ في عِذَار خَضِيبِ[٣]

وقال عبد الصمد بن بابك[٤]، شاعر اليتيمة: [من الخفيف]

واشتهلَّتْ لِمَصْرَعِ اللّيل وُرْقٌ ... ثاكِلَاتٌ، حدادُها التَّطْويقُ[٥]

فتضاحَكْتُ شامِتًا وكأنَّ الصـ ... ـبحَ جَيْبٌ على الدّجى مَشْقُوقُ

وقال أبو بكر الصنوبريّ: [من السريع]

ولَيلَةٍ كالرَّفرفِ المُعْلَمِ ... مَحْفُوفةِ الظَّلماء بالأَنْجُمِ[٦]

تَعَلَّق الفجرُ بأرْجائها ... تَعَلُّقَ الأَشْقَر بالأَدْهَم

وقال السلاميّ[٧]، شاعر اليتيمة: [من الطويل]

وقد خالطَ الفجرُ الظَّلامَ كما التقى ... على روضةٍ خَضْراءَ وَرْدٌ وأَدْهَمُ

وعَهْدِي بها، واللّيلُ ساقٍ ووَصْلُنا ... عُقَارٌ، وفُوها الكأسُ أو كأسُها الفمُ[٨]

إلى أن بَدَرْنَا بالنجوم، وغربُها ... يَفُضُّ عُقُودَ الدُّرِّ والشَّرقُ يَنْظم[٩]

ونَبَّهتُ فِتْيانَ الصُّبُوحِ للذَّة ... تلوحُ كدينارٍ يُغَطِّيه دِرْهَمُ[١٠]

---

(١) في الديوان: «لبسنا رداء الليل» ص ٣١، دار الفكر عمان.
(٢) الرقيب: المراقب.
(٣) النّصل: حديدة السيف والسّهم، والعذار: جانب اللحية.
(٤) هو عبد الصّمد بن منصور بن الحسن، أبو القاسم، شاعر مجيد، من أهل بغداد، وتوفي بها سنة ١٠٢٠ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١١».
(٥) الورق: الحمائم.
(٦) الرّفرف: الستر، والمعلم: المخطط.
(٧) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي، من أشهر أهل العراق، شاعر مجيد. «اليتيمة ٢/ ٤٦٦»
(٨) العقار: الخمر.
(٩) يفضُّ: ينثر، وينظم: يعيد ترتيبها في سلكٍ واحد.
(١٠) الصّبوح: شرب الخمرة صباحًا، وفتيان الصّبوح: أي الذين يتعاطون شرابها في الصّباح.

ومن رسالة للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني[١]، عفا الله عنه، جاء منها:

«فلما قضى الليلُ نحبَه، وأرسلَ الصباحُ على دُهْمِه شُهْبَه؛ شمَّر الليلُ إزارَه، ووضع النجمُ أوزاره[٢]؛ ونزحَ بالطَّيْف طاردًا، وظلّ وراء الصبح ناشدا؛ وفجَرَ الفجرُ نهر النهار، واستردّ البنفسجَ وأهدى البهَار[٣]؛ فمواكِب الكواكب منهزمَه، وغرَّة الفجر كغرّة مولاي مبتسمَه».

ومما يدخل في هذا الباب، ما حُكِي أنّ بعض الأعراب تزوّج بأربع نسوة، فأراد أن يخبر عقولهنّ.

فقال لإحداهنّ: إذا دنا الصبحُ فأيقظيني، فلما دنا الصبح قالت له: قم، فقد دنا الصبح! فقال: وما يدريكِ؟ قالت: غارت صغار النجوم وبقي أحسنها وأضوؤُها وأكبرها، وبَرَد الحُليُ على جسدي، واستلذذت باستنشاق النسيم، فقال لها: إنّ في ذلك دليلًا.

ثم بات عند الثانية، فقال لها مثل مقالته للأولى، فلما دنا الصبح، أيقظته، فقال لها: وما يُدريكِ؟ قالت: ضحكت السماءُ من جوانبها، ولم تبق نابتة إلا فاحت روائحُها، وعيني تطالبني بإغفاءة الصباح، فقال: إنّ في ذلك دليلًا.

ثم بات عند الثالثة، فقال لها مثل ذلك، فلما دنا الصبح، أيقظَتْه، فقال لها: وما يدريك؟ فقالت: لم يبق طائر إلّا غرَّد، ولا ملبوس إلا بَرَد، وقد صار للطَّرْف في الليل مجال، وليس ذلك إلّا من دنوّ الصباح، فقال لها: إن في ذلك لدليلًا.

ثم بات عند الرابعة، فقال لها مثل ذلك، فلما دنا الصبح، قالت له: قم، فقد دنا الصبح! فقال لها: وما يُدريكِ؟ قالت: أبَتْ نفسي النوم، وطلبني فمي بالسّواك[٤]، واحتجت إلى الوَضُوء. فقال لها: أنت طالق، فإنكِ أقبحهنّ وصفًا.

---

(١) هو عبد الرحيم بن علي بن السّعيد اللخمي، وزيرٌ من أئمّة الكتاب، ولد بعسقلان في فلسطين، وانتقل إلى الإسكندرية ثم أقام في القاهرة وتوفي بها سنة ١٢٠٠ م، كان من وزراء صلاح الدين الأيوبي، وكاتبه، كثر الرسائل وجيّدها. «فهرس الأعلام ٣/ ٣٤٦».

(٢) أوزاره: مفردها: الوزر، وهو الحمل الثقيل.

(٣) البهار، كل نبت طيّب الرائحة، وكل شيء حسن منير.

(٤) السّواك: عود يتّخذ من شجر الأراك ونحوه، يُستاك به وتنظف الأسنان ممّا علق فيها من طعام.

١١ ـ ذكر ما قيل في النهار

والنهار طبيعيّ(١)، وشرعيّ(٢).

فالطبيعيّ زمانٌ بين طلوع نصف قرص الشمس من المشرق، وإلى غيابه في المغرب. والشرعيّ ما بين انفجار الفجر الثاني إلى غروب الشمس.

والفجر فجران: الفجر الكاذب، وهو بياض مستطيل؛ والفجر الصادق بياض مستطير(٣).

وقد وضعت العربُ لساعات النهار أسماء؛ كما وضعت لساعات الليل، وهي:

الذُّرُورُ، ثم البُزوغُ، ثم الضُّحى، ثم الغَزَالةُ، ثم الهاجِرة، ثم الزَّوالُ، ثم الدُّلُوكُ، ثم العَصْرُ، ثم الأصيلُ، ثم الصَّبُوبُ، ثم الحَدُودُ، ثم الغُروبُ.

ويقال أيضًا: البُكورُ، ثم الشُّروق، ثم الإشراق، ثم الرَّأْدُ، ثم الضُّحى، ثم المُتُوع، ثم الهاجرة، ثم الأصيلُ، ثم العَصْر، ثم الطَّفَل، ثم العَشِيّ، ثم الغُرُوب.

ذكر ذلك أبو جعفر النحاس(٤).

وحكى الثعالبيّ في كتاب فقه اللغة ـ عن حمزة بن الحسن ـ قال: وعليه عهدتها:

الشُّروق، ثم البُكورُ، ثم الغُدْوَةُ، ثم الضُّحى، ثم الهاجرة، ثم الظَّهيرة، ثم الرَّواحُ، ثم العصر، ثم القَصْر، ثم الأصيل، ثم العشِيُّ، ثم الغروب.

وكانت العرب العاربة(٥) تُسَمِّي أيامَ الأُسبوع بأسماءٍ غير هذه التي تتداولها الناس في وقتنا هذا، وهي:

«أوّلُ» وهو الأحد، «أهْوَنُ» وهو الاثنان، «جُبَارٌ» وهو الثلاثاء، «دُبَارٌ» وهو الأربعاء، «مُؤْنِسٌ» وهو الخميس، «عَرُوبةُ» وهو الجمعة، «شِيَارٌ» وهو السبت.

---

(١) الطبيعي: المنسوب إلى الطّبع، وهو السّجيّة التي جُبل عليها الإنسان.
(٢) الشّرعي: المنسوب إلى الشّرع، وهو ما شرعه الله وسنّه للناس.
(٣) مستطير: السّاطع المنتشر.
(٤) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يوسف المرادي، النحوي المصري، المعروف بالنّحاس، رحل إلى بغداد والكوفة والأنبار، والتقى هناك بأئمّة اللغة والأدب، وعاد إلى مصر ومات فيها سنة ٣٣٨ هـ. «راجع ترجمته في شرح القصائد المشهورات: دار الكتب العلميّة».
(٥) العاربة: من العرب: الصّرحاء الخلّص، أو القبائل البائدة.

نظم ذلك شاعرٌ، فقال: [من الوافر]

أؤمّـلُ أن أَعِـيـشَ وأنَّ يـومـي لأَوّلَ أو لأَهـونَ أو جُـبَـار
أو الـتـالـي دُبـارَ وإن أَفُـتْـه فـمـؤنِـس أو عَـرُوبـةَ أو شِـيـار

١٢ ـ ذكر الأيام التي خُصَّتْ بالذكر

منها:

الأيّام المعلومات: وهي عشر ذي الحجّة، وفيها يوم التَّرْوية، وهو اليوم الثامن، سُمِّي بذلك لأنهم يرتوون من الماء لما بعده؛ لأن مِنًى لا ماء بها.

الأيام المعدودات: هي أيّام التشريق، وعدّتها ثلاثةٌ بعد يوم النحر، سمّيت بذلك لأنهم كانوا يشرّقون فيها لحومَ الأضاحي في الشمس والهواء، لئلا تَفْسُدَ.

أيام العجوز: ويقال فيها الأيام الأعجاز، وهي سبعة: أوّلها السادس والعشرون من شباط من شهور الروم، والخامس من برمهات من شهور القِبط، وهي لا تخلو من رياح وبردٍ، وسمّيت بالعجوز لأنها في عَجُزِ الشتاء.

يوم عَبِيد: مَثَلٌ لليوم المنحوس، كان عَبِيد بن الأبرص[(١)] قد تصدّى للنعمان[(٢)] في يوم بؤسه الذي لا يُفْلِحُ مَن لقيه فيه، كما لا يَخِيبُ مَن لقيه في يوم نعيمه، قال أبو تمّام: [من الكامل]

مِـنْ بـعـدِ مـا ظَـنَّ الأعـادي أنَّـه سـيـكـونُ لـي يـومٌ كـيـوم عَـبِـيدِ

يوم المطر: يضرب مثلًا في كفر النعمة، وذلك أنه حُكي عن المعتمد على الله ابن عباد صاحب إشبيلية أنه خلا بزوجته الرميكية في مجلس أُنس، والزمان فيه قيظٌ، فتمَنَّتْ عليه غيمًا ومطرًا، فأمر بمجامر[(٣)] العنبر والعود[(٤)] والنَّدِّ[(٥)]، حتى انعقد الدُّخان كالضَّباب، ثم أمر برشِّ صحن المجلس بماء الورد من أعلاه، وحصل

---

(١) هو عبيد بن الأبرص الأسدي، الشاعر الجاهلي المشهور، عدّه البعض من أصحاب المعلّقات.

(٢) هو النعمان بن المنذر، ملك الحيرة من قبل الفرس، ولكن حادثه عبيد بن الأبرص ومقتله كانت مع المنذر بن ماء السّماد جدّ النعمان بن المنذر. «راجع الأغاني ١٠/٨٦، ٨٧، دار الكتب العلمية».

(٣) المجامر: النار يوضع فيها الطيب.

(٤) العود: نوعٌ من الطيب يتبخر به.

(٥) النَّدّ: عودٌ يتبخّر به.

بينهما بعد ذلك نَبْوةٌ، فقالت له: ما رأيتُ معكَ يومَ سرورٍ قطُّ! فقال لها: ولا يوم المطر؟[١]

صدق رسول الله ﷺ في قوله: «إنَّهُنَّ يَكْفُرْنَ العَشِيرَ»[٢].

يوم عاشوراء: وهو اليوم العاشر من المحرّم، ورد في فضله أحاديث كثيرة. ويقال إن نوحًا عليه السلام ركب السفينةَ فيه فصامه وأمرَ من معه بصومه.

وصحّ أن رسول الله ﷺ لما هاجر، رأى اليهود في المدينة صِيَامًا في هذا اليوم، فسألهم عنه، فقالوا: هذا اليوم الذى نجّى الله تعالى فيه موسى وبني إسرائيل، وأغرق فرعون وقومه، فنحن نصومه شكرًا لله تعالى، فقال عليه الصّلاة والسلام: «أنا أحقُّ بأخي موسى»، ثم أمر مناديًا فنادى: «مَن أكل فليُمْسِكْ، ومَن لم يأكل فليصُم»!

وفيه قُتِل الحسين بن عليّ رضي الله عنهما.

١٣ ـ ذكر أيام أصحاب الملل الثلاث

يوم الجمعة: للمسلمين، وسبب اتّخاذهم له أنه اليوم الذي أتمّ الله فيه خلق العالَم، وأوجد فيه أبا البشر آدم عليه السلام وفيه قُبِضَ[٣]، وفيه يكون النفخُ في الصُّور، وفيه الصَّعْقُ[٤]، وفيه الساعة التي لا يُصادفُها عبدٌ مسلم يسأل الله فيها حاجة إلا قضاها له.

يوم السبت، لليهود. وحُجَّتهم على اتّخاذهم له أن الله تعالى ابتدأ خلق العالَم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، وأن يوم السبت يومُ فراغٍ ودَعَةٍ، ولهم في ذلك أقوال كثيرة.

يوم الأحد: للنصارى، ذكر في سبب اتّخاذهم له أن الله سبحانه وتعالى ابتدأ فيه بخلق الأشياء.

١٤ ـ ذكر ما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكر النهار

يقال: أطولُ من يوم الفِراق، أضْوَأُ من نهارٍ، أنورُ من وضَحِ النهار.

---

(١) راجع رواية نفح الطيب للمقرّي، وقد سمّاه «يوم الطين». «١/٢٨٧، طبعة لندن».
(٢) العشير: الزوج الذي يعاشر المرأة.
(٣) قُبض: توفي.
(٤) الصّعق: الإصابة بالصاعقة، أو الهلاك.

ويقال: يَذْهَبُ يومُ الهَمِّ ولا يُشْعَرُ به، ما يومُ حَليمةَ بِسِرٍّ[١]، من يُرِ يومًا يُرَ بِهِ، يومُ السُّرورِ قصيرٌ، اليومَ خمرٌ وغدًا أمرٌ[٢]، اليومَ عَيْشٌ وغَدًا خَيْشٌ[٣]، اليومَ فِعْلٌ وغدًا ثوابٌ، يومٌ لنا ويومٌ علينا، لكُلِّ قَوْمٍ يومٌ.

ومن أنصاف الأبيات:

* وهـل يَـخْـفَـى عـلـى الـنـاس الـنـهـارُ *

* وفـي الـلَّـيـالـي والأيـام مُـعْـتَـبـرُ *

ومن الأبيات: [من الرّمل]

وأَلُهُ مـا أمـكـنَ يـومٌ صـالِحٌ إنَّ يـومَ الـشَّـر لا كـانَ عَـتِـيـدُ![٤]

وقال آخر: [من الرجز]

أُمَـامَ! لا أَدْرِي، وإن سَـأَلْتِ ما نُسْكُ يومِ جمعةٍ من سَبْتِ[٥]

وقال آخر: [من الوافر]

وأيـامُ! الـشُّـرورِ مُـقَـصَّـصـاتٌ وأيَّـامُ الـسُّـرورِ تَـطِـيـرُ طَـيـرَا[٦]

وقال آخر: [من الكامل]

لا تَـحْـمِـلَنَّ هُـمُـومَ أيَّـامٍ عـلى يومٍ، لعلَّكَ أن تُقَصِّرَ عن غَده

١٥ ـ ذكر شيء مما قيل في وصف النهار وتشبيهه

فمن ذلك قول شاعر، يصفه بالقِصَر: [من الطويل]

ويـومُ سُـرورٍ قـد تـكـامَـلَ وصفُـه سِوى قِصَرٍ، لا عَيْبَ فيه سِواهُ!
وعَهْدِي به كالرُّمْح طُولًا، فعندَمَا هَـزَزْنـاهُ لِـلَّهْـو الْتَـقـى طَـرَفَـاه

(١) يوم حليمة: يومٌ معروف، وهو أحد أيّام العرب المشهورة، وهو يوم التقى المنذر الأكبر والحرث الغسّاني، وحليمة بنت الحرث بن أبي شمّر الغسّاني، ولما خرج أبوها للقاء المنذر، أخرجت حليمة للجيش مِركنًا فطيّبتهم. «اللسان: مادة حلم».

(٢) هو ما أرسله مثلًا امرؤ القيس الشاعر بعد أن قُتِل أبوه، وكان في لهوٍ له، فأتاه خبر مقتله فقال لصاحبه في لهوه ذلك القول، عندما همّ بالانقطاع عن منادمته. «راجع الشعر والشعراء ص ٥٠».

(٣) الخيش: ثياب تتخذ من أردأ الكتّان. (٤) العتيد: الحاضر.

(٥) أمامَ: منادى مرخّم حذفت منه التاء والأصل «أمامة» والنُّسك: التعبُّد والزّهد.

(٦) المقصَّصات: المقطّعة، يريد أنها متتابعة.

وقال آخر: [من الخفيف]

بـأبـي مَـنْ نَـعِـمْـتُ مـنـه بـيـومٍ ... لـم يَـزَلْ لِلسُّـرور فـيـه نُـمُـوُّ!

يـومُ لَهْـوٍ، قـد الـتـقـى طَـرَفـاهُ ... فـكـأنَّ الـعَـشـيَّ فـيـه غُـدوُّ

وقال آخر: [من البسيط]

لم يَنْتَشِرْ فَلَقُ الإصْباح مِنْ قِصَرٍ ... فيه إلى أن طَواهُ فَيْلَقُ الغَسَقِ(١)

ولم يكن مُلْتَقى جَفْنَيْ أخي رَمَدٍ ... كملتقى طرفيه: الصُّبحِ والشَّفَقِ

وما تناولْتُ فيه الرِّطَلُ مُصْطَبِحًا ... إلا أعادَتْه منّي كَفُّ مُغْتَبِقِ(٢)

وقال آخر: [من مجزوء الكامل المرفّل]

للهِ يَـــوْمُ مَـــسَـــرَّةٍ ... أَضْـوَا وأقـصـرُ مـن ذُبـالَهْ!(٣)

لـمـا نَـصَـبْـنَـا لـلمُـنـى ... فـيـه بـأَشْـراكِ حِـبـالَهْ

طـارَ الـنَّـهـارُ مُـرَوَّعًـا ... فـيـه وأجْـفَـلَـتِ الـغَـزَالَهْ!(٤)

وقال آخر: [من البسيط]

حُثَّ الكُؤوسَ! فذا يومٌ به قِصَرٌ ... وما به من تمام الحُسْنِ تَقْصِيرُ

صَحْوٌ وغَيْمٌ، يَرُوقُ الطَّرفَ حُسْنُهُما ... فالصَّحوُ فَيْرُوزَجٌ، والغيمُ بَلُّورُ(٥)

وقال آخر: [من الطويل]

ويـومٍ كَـحَـلْي الـغـانِـيَـاتِ سَـلبـتُـه ... حُلِيَّ الرُّبَا حتّى انْثَنَى وهو عاطِلُ(٦)

سبقت إليه الشمس، والشمسُ غَضَّةٌ ... وصِبْغُ الدّجى من مَفْرِق الفجرِ ناصِلُ(٧)

---

(١) الفلق: الصّبح، أو بيان ظهوره بعد الإظلام، والفيلق: القطعة العظيمة من الجيش، والغسق: وقت الإظلام.

(٢) الرّطل: معيارٌ للوزن يساوي اثنتي عشرة أوقيّة إجمالًا، والمصطبح: الذي يشرب الخمرة صباحًا، والمغتبق: شرب الخمرة مساءً.

(٣) الذّبالة: فتيلة السّراج. (٤) الغزالة: الشمس.

(٥) الفيروزج: حجرٌ كريم شفافٌ لونه سماويّ أزرق.

(٦) العاطل: الجيد الذي لا حليّ فيه، أو المرأة دون حليّ.

(٧) الناصل: يقال لحية نصل خضابها أي زال عنها.

ومن كلام ابن برد الأصغر الأندلسيّ:

اليومُ يومٌ بكت أمطارُه، وضحِكت أزهاره؛ وتقنّعت شمسُه، وتعطّر نسيمُه؛ وعندنا بُلْبُلٌ هَزِج[١]، وساقٍ غَنِج؛ وسُلافتانِ[٢]: سُلَافةُ إخوان، وسُلَافةُ دِنَان[٣]؛ وقد تشاكلتا في الطّباع، وازدوجتا في إثارة السرور، فأَخْرِق إلينا سُرادقَ الدّجْنِ[٤] تجد مَرْأى لم يحسن إلا لك، ولا يتمُّ إلّا بك.

ومن كلامه أيضًا:

لم نلتق منذ عرّينا مَرْكَبَ اللَّهو، وأخلينا رَبْعَ الأُنس، وقَصَصنا جناحَ الطَّرَب، وعبَسْنا في وجوه اللذّات، فإن رأيت أن تخِفَّ إلى مجلس قد نُسِخت فيه الرياحين بالدواوين، والمجامر[٥] بالمحابر، والأطباق بالأوراق، وتنازح المدام بتنازع الكلام، واستماع الأوتار باستماع الأخبار، وسجع البلابل بسجع الرسائل، كانَ أشحذ[٦] لذهنك، وأرشدَ لرأيك.

١٦ ـ ذكر شيء مما وصفت به الآلات الموضوعة لمعرفة الأوقات

قد وضع أهلُ هذا الفن لمعرفة درجات الليل وساعات النهار آلات، يستدلُّون بها على معرفة ما مضى من ذلك وما بقِي، ولتحرير المواقيت: كالاصْطرلاب[٧]، والطَّرْجَهَارة[٨] والبنكام[٩].

ووصف الشعراء والفضلاء ذلك بأوصاف، نذكر منها إن شاء الله تعالى ما نقف عليه.

---

(١) الهزج: كلّ صوت فيه ترنّم خفيفٌ مطرب. (٢) السّلافة: أفضل الخمر وأخلصها.

(٣) الدنّ: وعاء من جلد توضع فيه الخمرة.

(٤) الدّجن: إلباس الغيم الأرض وأقطار السّماء، والسُّرادق بيت من شعر يمدُّ فوق ساحة الدّار.

(٥) المجامر: جمع مجمر، وهو وعاء يوضع فيه الجمر مع الطّيب.

(٦) أشحذ: أمضى وأقوى على العطاء.

(٧) الاصطرلاب: منظار تراقب فيه النجوم والفلك.

(٨) الطرجهارة: من الآلات التي تعرف بها السّاعات. «انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٢٣٥، ط. لندن».

(٩) البنكام: ساعة الرّمل.

١ ـ فأما الاصطرلاب وما قيل فيه:

فقال أبو طالب، عبد السلام المأموني: [من الخفيف]

وشبيهٍ بالشَّمْسِ يَسْتَرِقُ الأنـ ـوارَ من نُورِ جِرْمِها في خفاء
فـتَـراهُ أدْرى وأعـلَم مـنـهـا وهو في الأرض، بالذي في السَّماء

وقال أيضًا: [من السريع]

وعالم بالغيبِ مِنْ غيرِ مَا سَمْعٍ، ولا قَلْبٍ، ولا ناظرِ!
يُقابلُ الشَّمسَ فيأتي بما ضُمِّنَها من خبرٍ حاضرِ
كأنّها ناجتْهُ لَمَّا بَدَا لِعَيْنِها بالفكر والخاطرِ
وألْهَمَتْه علمَ ما يَحْتَوِي عليه صَدْرُ الفلكِ الدّائرِ

وقال أبو إسحٰق الصابي، وقد أهداه في مهرجان إلى مخدومه: [من البسيط]

أهْدَى إليكَ بَنُو الآمالِ واجتهدُوا في مَهْرجانٍ جديدٍ أنت تُبْلِيه
لكنَّ عبدَكَ إبراهيمَ، حين رأى سموَّ قَدْرِكَ عن شَيْءٍ يساميه
لم يرضَ بالأرض يُهْدِيهَا إليك فقد أهدى لك الفَلَكَ الأعلى بما فيه!

وقال أبو الصلت أُميّة بن عبد العزيز(١): [من المنسرح]

أفْضَلُ ما اسْتَصْحَبَ النبيلُ فلا يُعْدَل به في المُقَام والسَّفَرِ
جِرْمٌ إذا ما الْتَمَسْتَ قيمتَه جَلَّ عن التِّبر وهو من صُفُرِ(٢)
مُخْتَصَرٌ وهو إذْ تُفَتِّشُه عن مُلَحِ العلم غيرُ مُخْتَصَرِ
ذُو مُقْلةٍ تَسْتَنيرُ ما رَمَقَتْ عن صائبِ اللحظِ صادقَ النَّظَرِ(٣)
تَحْمِلُه وهو حامِلٌ فَلَكًا لو لم يُدَرْ بالبَنَان لم يَدُرِ
مَسْكَنُه الأرضُ وهو يُنْبِئنا عن جُلّ ما في السماء من خَبَر
أبدعَهُ رَبُّ فِكْرَةٍ بَعُدَتْ في اللُّطْفِ عن أنْ تُقاسَ بالفِكَر
فاسْتَوْجَبَ الشُّكرَ والثناءَ به من كلِّ ذي فطنةٍ من البَشَرِ
فهو لذِي اللُّبِّ شاهدٌ عَجَبٌ على اختلاف العُقُولِ والفِطَر

(١) هو أميّة بن عبد العزيز الأندلسي الدّاني، أبو الصلت، حكيم أديب من أهل «دانية» بالأندلس، له مؤلّفات في علم الهيئة وأدواتها، وله شعر فيه رقة وجودة. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٣».
(٢) الصّفر: النّحاس.
(٣) رمقت: نظرت، وأتبعت النظر.

وكتب أبو الفرج الببغاء[(١)] يصف اصطرلابًا أهداه، فقال:

آثرتك ـ أيّدك الله ـ ببرهان الحكمة ونسبها، ومدار[(٢)] الفلسفة وقطبها[(٣)]؛ ومُرشد الفكر ومناره، وميزان الحسنِ ومِعياره؛ ونافِي الشك ومُزِيله، وشاهدِ الأثير ودليله؛ مصوّر الحكمة ومُمثّلها، ومقسم البروج ومعدّلها؛ وموقّف النجوم ومسيِّرها، وجامع الأقاليم ومدبِّرها؛ مرآة الحبك[(٤)]، وصورة الفلك؛ وأمين الكواكب، وحدّ المشارق والمغارب؛ مما اخترعت العقولُ تسطيحَه، وأتقنَ الحُسَّابُ تصحيحَه؛ وتمارت[(٥)] الفطَنُ في ترتيبه، واصطلحتِ الحكماءُ على تركيبه؛ فأوضحت بالنقش تقسيمَه، وأبانتْ بالكتابة رُسومَه؛ إلى أن شافهنا بالارتفاع على بعد مسافته، وحصرَ متفرّقَ الأمور في خَرْقَيْ عضادته[(٦)]؛ واحتوى على قُطْرَي الشَّمال والجَنُوب، واطّلع باللّطف على خَفِيَّات الغيوب؛ الملقّب بالاصطرلاب، الفاصل بين الخطإ والصّواب.

وقال أبو نصر الكاتب فيه:

قطبُ الزمن ومدارُه، وميزانُ الفلك ومعيارُه؛ وأساسُ الحكمة وموضوعها، وتفصيلُ الفطنة ومجموعُها؛ الناطقُ في صمته، المُوفى على نعته؛ مظهرُ السِّر المكنون[(٧)]، المخبر بما كان وما يكون؛ ذو شكل مقمّر مستدير، ولون مشمّس مستنير؛ ومنطَقة[(٨)] محيطة بأجزائه، وخطوطه معدّلة على أعضائه؛ وكتابة مطبقة بتدويره، ورموز بائحة بضميره؛ متقابل الأهداف، متكامل الأوصاف؛ بحجرة مسكونة، وصفائح مصونة؛ وقدّ مومِوق[(٩)]، وباب مطروق؛ للعلم فتحه ورتاجه[(١٠)]، وعليه طريقه ومنهاجه؛ إذا انتصب قال فحمد، وأذا اضطجع عيّى فلم يُفِدْ؛ صِفْرِيُّ الانتساب، ذهبيّ الإهاب؛ يخترق الأنوار من نقابه، ويستخدم الشَّمسَ في حسابه، يجمع الشرقَ والغرب في صفحته، ويستره الحامل في راحته؛ رافعه ينظر من تحته، وأخباره تسند عن خُرْته[(١١)].

---

(١) هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي، من أهل نصيبين،نجم الآفاق، وأحد أفراد الدهر في النّظم والنثر، اتّصل بسيف الدولة ونادم ملوك عصره وأمراءه. «اليتيمة ١/ ٢٩٣».

(٢) المدار: من الشيء: ما يدور عليه. (٣) القطب: مدار الشيء وقوامه.

(٤) الحبك: التدبير. (٥) تمارت: تجادلت.

(٦) العضادة: يقال: عضادتا الباب: خشبتاه من جانبيه، والعضادة: من الطريق: ناحيته.

(٧) المكنون: المستور.

(٨) المنطقة: ما يشدّ به الوسط، والمنطقة: القطعة المحدودة من الأرض.

(٩) الموموق: المحبوب.

(١٠) رتاجه: إغلاقه، ورتاج الباب: ما يقفل به. (١١) الخُرت: الثقب.

٢ ـ ومما قيل في طَرْجَهَارَة:

قال أبو الفتح كُشَاجم يصفها: [من البسيط]

رُوحٌ من الماء في جِسْم من الصُّفْرِ ... مؤلَّفٌ بلطيف الحِسِّ والفِكْرِ(١)
له على الظَّهر أجفانٌ مُحَجَّرةٌ ... ومُقْلةٌ دَمْعُها جارٍ على قَدَرِ
تُنْشا له حَركاتٌ في أسافِلِهِ ... كأنّها حَرَكاتُ الماءِ في الشَّجَرِ(٢)
وفي أعاليه حُسَّابٌ مُفَصَّلةٌ ... للناظرينَ بلَا ذِهْنٍ ولا نَظَرِ
إذا بكى، دارَ في أحشائه فَلَكٌ ... خَافِي المَسِيرِ؛ وإن، لم يَبْكِ لم يَدُرِ
ومُخرجٌ لك بالأجزاء ألطَفَها ... من النهار، وقَوْسُ اللَّيل في السَّحَرِ
مُتَرْجِمٌ عن مواقيتٍ يُخَبِّرُنا ... عنها فيوجَدُ فيها صادقَ الخبرِ
تُقْضَى به الخمسُ في وقت الوجوب وإن ... غُطِّي على الشمس أو غُطِّي على القمرِ(٣)
وإن سَهِرْتُ لأسباب تُؤَرِّقُني ... عَرَفْتُ مقدارَ ما ألقى من السَّهَرِ
مُحَدِّدٌ كُلَّ مِيقَاتٍ، تَخَيَّرَهُ ... ذَوُو التَّخَيُّرِ للأَسْباب والسَّفَرِ

الباب الثاني
من القسم الثالث من الفن الأول
في الشهور والأعوام

نذكر في هذا الباب الشهورَ العربيّةَ، واشتقاقها، والشهورَ العجميّةَ، ودخول بعضها في بعض، والسنين القمريّة، والشمسيّة، والنسيء(٤) ومعناه، وما يجري هذا المجرى، مما لمحناه أثناء المطالعة بعون الله تعالى وقدرته، وإيّاه أسأل التوفيق بكرمه ومنته!

١ ـ ذكر الشهور وما قيل فيها

الشهر إما طبيعيّ، وإما اصطلاحيّ.

(١) الصّفر: النّحاس.
(٢) تنشا: خفّفت همزتها للضرورة الشعريّة «أصلها تنشأ».
(٣) الخمس: يريد الصلوات الخمس اليوميّة.
(٤) النّسيء: التأخير، وهو شهرٌ كانت العرب تؤخّره في الجاهلية، فنهى الله عزّ وجّل عنه، وقال: إنّما النّسيء زيادةٌ في الكفر. «اللسان: مادة نسأ».

فالطبيعيّ هو مدّة مسير القمر من حين يفارق الشمس إلى حين يفارقها مرّة أخرى.

وقال آخرون: هو عَود شكل القمر في جهة بعينها إلى شكله الأوّل.

وأما الاصطلاحي، فهو مدّة قطع الشمس مقدارَ برج من بروج الفلك، وذلك ثلاثون يومًا، وثلثُ عُشْرِ يوم بالتقريب. وهذا مذهب الروم، والسّريان، والفُرْس، والقبط، والله سبحانه وتعالى أعلم!

٢ ـ ذكر الأشهر العربية وما يختص بها من القول

والأشهر العربية قسمان: قسم غير مستعمل، وهو الذي وضعته العرب العاربة؛ وقسم مستعمل، وهو الذي وضعته العرب المستعربة. وكِلَا القسمين موضوع على الأشهر القمريّة.

فأمّا القسم غير المستعمل، فهو أسماء كانت العرب العاربة اصطلحوا عليها، وهي:

مؤتمر، ناجر، خَوّان، صوان (ويقال فيه: بُصَان)، رُنَّى، أيِّدة، الأصَمُّ، عادِل، ناطِلٌ، واغلٌ، وَرْنةٌ، بُرَك.

وفي هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة، والذي ذكرناه منها هو المشهور، ويدلّ عليه قول الشاعر: [من الوافر]

بِمُؤتَمِرٍ وناجِرِ ابتَدَأْنا ... وبالخَوّانِ يَتْبعُه البُصَانُ

ورُنَّى ثُمّ أيِّدةٌ تليه ... تَعودُ أصَمُّ صُمَّ به السِّنانُ

وعادلُه وناطِلُه جميعًا ... وواغِله فَهم غُرَرٌ حِسَانُ

ووَرْنَةُ بعدها بُرَكٌ فتمتْ ... شُهورُ الحول يَعْقدها البَنَانُ

وأما القسم المستعمل، فهو هذه الأسماء المشهورة:

المحرّمُ، صَفَر، الربيعان، الجُمَاديان، رَجَبٌ، شعبانُ، رمضانُ، شوّالٌ، ذو القَعْدة، ذو الحِجّة.

قيل: وإنما وضعوا هذه الأسماء على هذه الشهور لاتفاق حالات وقعت في كل شهر، فسمّى الشهر بها عند ابتداء الوضع، فسمّوا المحرّم محرّمًا لأنهم أغاروا فيه فلم ينجحوا، فحرّموا القتال فيه، فسَمَّوْه محرّمًا؛ وسمّوا صَفَرًا

لِصَفَرٍ[١] بيوتهم فيه منهم عند خروجهم إلى الغارات، وقيل: لأنهم كانوا يُغيرُون على الصُفريَّة[٢]، وهي بلاد. وشهرا ربيع: لأنهم كانوا يُخْصِبون فيهما بما أصابوا في صفر، والربيع الخِصْب. والجُمَاديان: من جَمَد الماءُ، لأن الوقت الذي سمّيا فيه بهذه التسمية كان الماء جامدًا فيه لبرده. ورجب: لتعظيمهم له، والترجيب والتعظيم، وقيل: لأنه وسطُ السنة فهو مشتقّ من الرواجب، وهي أنامل الأصبع الوسطى، وقيل: إن العود رجب النبات فيه أي أخرجه، فسمّي بذلك. وكذلك تشعّب العود في الشهر الذي يليه، فسمّي شعبان، وقيل: سُمّي بذلك لتشعّبهم فيه للغارات. وسُمّي رمضان، أي شهر الحر، مشتق من الرمضاء. وشوّال، من شالت الإبل أذنابها إذا حالت، أو من شال يشول إذا ارتفع. وذو القعدة: لقعودهم فيه عن القتال؛ إذ هو من الأشهر الحرم. وذو الحجّة، لأن الحجّ اتفق فيه، فسُمّي به.

ويقال: إنّ أول من سمّاها بهذه الأسماء، كلاب بن مُرّة[٣].

ومن مجموع هذه الأشهر أربعة حرم، ثلاثة سَرْد[٤]، وهي: ذو القَعْدة، وذو الحجّة، والمحرم؛ وواحد فرد، وهو رجب.

هذا ما رواه الأصمعيّ عن العرب في ترتيب الأشهر الحرم، واختار غيره أن الواحد الفرد هو المحرّم، والسرد رجب، وذو القعدة، وذو الحجّة، لتكون الأربعة أشهر في سنة واحدة؛ وهذا مرويّ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومنها أربعة أشهر لا تكاد العرب تنطق بها إلّا مضافة[٥]، وهي: شهرا ربيع، وشهر رجب، وشهر رمضان.

فهذه الشهور العربية وما قيل فيها.

(١) الصفر: يقال: صفر البيت منه: خلا.

(٢) في معجم البلدان: الصّفرة، موضع باليمامة. «معجم البلدان ٣/ ٤١٣».

(٣) هو كلاب بن مرّة بن كعب، أبو زهرة، من قريش، جدّ جاهلي، من سلسلة النّسب النبوي الشريف، تفرّع نسله عن ابنيه «قصيّ» «وزهرة». «فهرس الأعلام ٥/ ٢٣٠».

(٤) سَرْد: أي متتابعة متتالية.

(٥) مضافة: أي مضافة إلى غيرها، والمضاف في اللغة: اسم يصاف إلى اسم آخر يعرف بالمضاف إليه، وهنا تعني: إضافة الشهر إلى الشهر فينطق بهما معًا: شهرا ربيع: أي ربيع أوّل وربيع ثاني.

٣ ـ وأما شهور اليهود

فأسماؤها: تشرى، مرحشوان، كسلاو، طابات، شباط، آذار، نيسان، أيَّار، سيوان، تموز، آب، أيلول.

٤ ـ وأما الشهور العجمية

فإنها شمسيّة، وهي أقسام، بحسب الأمم التي تنسب إليهم.

فمنها الشهور القبطيّة(١)، وتنسب لدقلطيانوس(٢)، وكل شهر منها ثلاثون يومًا. وما فضل من عدد أيام السنة الشمسية جعلوه كبيسًا(٣) في آخر شهر منها، وهي:

توت، بابه، هاتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمهات، برموده، بشنس، بؤونه، أبيب، مسرى.

وأوّل توت يكون النوروز(٤)، وفي أوّل يوم من كيهك تدخل الأربعينيات، وهي أربعون يومًا باردة تؤذن بالشتاء. وفي الرابع من برمودة تدخل الخمسينيات، وهي أيام حارّة تؤذن بالصّيف.

ومنها شهور السّريان(٥) والروم(٦)، وهما متّفقان في العدد والدُّخول. والسريانيون ينسبون شهورهم لأغسطش(٧)، وهو قيصر. وهذه الشهور منها ما ينقص عن الثلاثين، ومنها ما يوفيها، ومنها ما يزيد عليها. وفيها يقول الكيزانيّ(٨):

---

(١) القبطيّة: نسبة إلى القبط، وهو قوم من النصارى يسكنون مصر منذ القدم.

(٢) دقلطيانوس: ملك قبطي، تملّك قبل الهجرة بثلثمائة وسبع وثلاثين سنة وثلثمائة وعشرين يومًا، وقد ابتدأ به التاريخ القبطي. «راجع صبح الأعشى ٦/٢٢٨ و٢٤٩».

(٣) السنة الكبيسة: وهي السّنة التي يزاد فيها يوم على شهر شباط مرّةً كلّ أربع سنوات، فيصير ٢٩ يومًا.

(٤) النوروز: أوّل يوم من أيام السّنة الشمسيّة عند الفرس.

(٥) السّريان: طائفة مسيحيّة، تتكلّم اللغة السّريانية، وتنتسب إلى الأصل السّرياني من الشعوب السّاميّة.

(٦) الرّوم: البيزنطيون.

(٧) هو القيصر الروماني المشهور، وتقول نحن اليوم «أغسطس» في تسمية هذا الشهر.

(٨) هو محمد بن إبراهيم بن ثابت بن فرح الكناني المعروف بابن الكيزاني واعظ، شاعر مصري، تصوّف ونسبت إليه الكيزانية، له ديوان شعر أكثره في الزّهد، توفي بالقاهرة سنة ١١٦٦ م. «فهرس الأعلام ٥/٢٩٦».

[من الهزج]

شـهـورُ الـروم ألـوانُ زيـاداتٌ ونـقـصـانُ
فـتـشـريـنُـهـم الـثـانـي وأيـلـولٌ ونـيـسـانُ
ثـلاثـون، ثـلاثـون سَـواءٌ، وحَـزِيـران
وأشـبـاطُ ثـمـانٌ بـعـ ـد عـشـريـن لـه شَـانُ

والسبعة التي تركها، كل شهر منها يزيد يومًا.

ووضع لها بعض المغاربة ضابطًا، وهو حروف معجمة ومهملة يجمعها في أربع كلمات، وهي: «فازَ رجلٌ خَتم بحجّ»، وجمعها آخر في مثل ذلك فقال: «غاب عنك زيدٌ فحجَّ»، فما كان معجمًا[١] فهو أحد وثلاثون يومًا، وما كان مهملًا[٢] فهو ثلاثون، والشهر الموافق للألف ثمانية وعشرون.

وأوّل سنة السّريان تشرين الأوّل، ودخوله رابع بابه، ويوافق أكتوبر من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يومًا؛ ثم تشرين الثاني، ودخوله في الخامس من هتور، ويوافقه نُوَمبر[٣] من شهور الروم، وهو ثلاثون يومًا؛ ثم كانون الأوّل، ودخوله في الخامس من كيهك، ويوافقه دچنبر[٤] من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يومًا؛ ثم كانون الثاني، ودخوله في السادس من طوبه، ويوافقه يَنَيرِ[٥] من شهور الروم، وهو أوّل سنتهم، وعدد أيّامه أحد وثلاثون يومًا؛ ثم شباط، ودخوله في السابع من أمشير ويوافقه فبرير[٦] من شهور الروم، وهو ثمانية وعشرون يومًا وربع يوم؛ ثم آذار، ودخوله في الخامس من برمهات، ويوافقه مارس من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يومًا؛ ثم نيسان، ودخوله في السادس من برمودة، ويوافقه أبريل من شهور الروم، وهو ثلاثون يومًا؛ ثم أيَّار، ودخوله في السادس من بشنس، ويوافقه مايه من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يومًا؛ ثم حزيران، ودخوله في السابع من بؤونه، ويوافقه يونيه من شهور الروم، وهو ثلاثون يومًا؛ ثم تموز، ودخوله في السابع من نأبيب، ويوافقه يوليه من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يومًا؛ ثم آب، ودخوله في الثامن من مسرى، ويوافقه أغشت[٧] من شهور الروم، وهو أحد

(١) المعجم: من الحروف ما هو منقوط.
(٢) المهمل: من الحروف ما هو بغير نقط.
(٣) نومبر: أي نوفمبَر.
(٤) دچنبر: أي ديسمبَر.
(٥) ينير: أي يناير.
(٦) فبرير: فبراير.
(٧) أغشت: أغسطس.

وثلاثون يومًا؛ ثم أيلول، ودخوله في الرابع من توت، ويوافقه ستنبر[١] من شهور الروم، وهو ثلاثون يومًا.

ونظم بعض الشعراء أرجوزة في مداخلة الشهور، فقال: [من الرجز]

وإن حفظتَ أشهرَ السُّرْيانِ ... وكنتَ من ذاكَ على بيان
ورُمْتَ منها عَمَلَ المنازل ... فإنها معلومةُ التداخل
أيلولُ يبدو رابعًا من تُوتِ ... هذا بحكم النظر المثبوتِ
وهكذا تشرينُ وهو الأوّلُ ... من بابة أربعة تكمل
أوّل تشرين الأخير يدخلُ ... ومن هتور خمسة يا رجلُ
أوّل كانون وأعني الأوّلا ... وخامس من كيهك تعدّلا
أوّل كانون الأخير سادس ... من طوبة فيها يقيس القائس
ومن شباط أوّلٌ يوافي ... سابع أمشير بلا خلاف
أوّل آذار حسابٌ صادقُ ... من برمهات خامسًا يوافِقُ
برمودة سادسُه وأوّلُ ... نيسانَ وَفْقٌ ليس عنه مَعْدل
أوّل أيّار بغير لبسِ ... يوافقُ السادسَ من بشنسِ
بؤونة وافق منه سابعه ... أوّل حزيران لما يتابعه
أوّل تموز على الترتيبِ ... يدخلُ في السابع من أبيب
أوّل آب ثامن من مسرى ... العلم بالمرء اللّبيب أحرى

وقال بعض الشعراء في مثل ذلك: [من الرجز]

متى تشأ معرفة التداخُل ... من أوّل الشهور في المَنَازل
فعدّ من توت بلا تطويل ... أربعةً فهي ابتدا أيلول
وبابة كذاك من تشرين ... الأوّل السابق في السِّنين
والخامسُ المعدودُ من هاتور ... أوّل تشرينهِم الأخيرِ
أوّلُ كانون بغير دُلْسَهْ ... إذا نقصت من كيهك خمسه[٢]
وطوبة إن مرّ منه سِتَّهْ ... أتاك كانونُ الأخيرُ بَغْتَهْ
ومن شباط أوّل يوافِقُ ... سابعَ أمشير، حسابٌ صادقُ

(١) شنبر: أي سبتمبر.

(٢) الدّلسة: الظلمة، والدّلس: الخديعة.

أوّل آذار إذا جــعــلتـه ... لـبـرمـهـات خـامسًا وجـدتـه
أوّلُ نـيـسـانَ لـدى الـتـجـريـد ... الـسـادسُ الـمـعـدودُ مـن بـرمـودِ
ومـثـلـه أيّـار مـع بـشـنـس ... واحـدةٌ مـقـرونـةٌ بـخـمـس
أمـا حـزيـرانُ فـيـحـسُـبُـونـهْ ... مـن أوّل الـسـابـع مـن بـؤونـه
كـذلـك الـسـابـع مـن أبـيـبِ ... أوّلُ تـمـوز بـلا تـكـذيـب
أوّل آب عـنـد مـن يُـحَـصِّـل ... ثـامنُ مـسـرى ذاك مـا لا يُـجْـهَـلُ

وأما شهور الفرس، فهي موافقة لشهور القبط في العدد؛ لأن كل شهر منها ثلاثون يومًا، إلا أبان ماه، وهو الشهر الثامن، فإنهم يضيفون إليه خمسة أيام لأجل النسيء[(١)]، ويسمّونها الاندركاه. ولكل يوم من أيّام الشهر اسم خاص، يزعمون أنه اسم ملك من الملائكة موكل به، فأسماء المشهور منها: أفريدون ماه (وهو رأس سنتهم)، أرديهشت ماه، حرداد ماه، تير ماه، ترد ماه، بر ماه، مهر ماه، أبان ماه، أدر ماه، دى ماه، بهمن ماه، اسفندار ماه، ويعنون بقولهم «ماه» القمر.

المثل: قول بعض الشعراء: [من الوافر]

شُـهُـورٌ يـنـقـضـيـنَ ومـا شَـعَـرنـا ... بـأنْـصـافٍ لَـهُـنَّ ولا سَـرَارِ[(٢)]

٥ ـ ذكر ما يختصّ بالسنة من القول وما جاء من اختلاف الأُمم في ابتدائها وانتهائها، والفرق بين السنة والعام

أما الفرق بين السنة والعام، فإنهم يقولون: «سَنةٌ جَدْبٌ» و«عامٌ خِصْبٌ». قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٤٩].

والصحيح أنهما اسمان موضوعان على مسمّى واحد، قال الله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العَنكبوت: الآية ١٤].

والسنة طبيعيّة، واصطلاحيّة.

---

(١) النّسيء: التأخير.
(٢) السّرار: حين يكون القمر في المحاق، أي الليالي الأخيرة التي يختفي بها.

فالطبيعية قمريّة؛ وأوّلها استهلال القمر في غُرَّة المحرّم، وانسلاخُها بِسَرَارِه في ذي الحجّة، وهي اثنا عشر شهرًا، وعدد أيامها ثلاثمائة يوم وأربعة وخمسون يومًا وخمس وسدس يوم تقريبًا؛ ويتمّ من هذا الخمس والسدس في ثلاث سنين يومٌ، فتصير السنة في الثالثة ثلاثمائة وخمسة وخمسين يومًا، ويبقى شيء يتمّ منه ومن خمس اليوم وسدسه المستأنف في السنة يوم واحد إلى أن يبقى الكسر أصلًا بأحد عشر يومًا عند تمام ثلاثين سنة، وتسمّى تلك السنين كبائس العرب[١].

وأما السَّنةُ الاصطلاحيةُ فإنها شمسِيَّةٌ، وعددُ أيامها عند سائر الأُمم ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يومًا وربعُ يوم، فتكون زيادتها على السنة العربية عشرة أيام ونصف يوم وربع يوم وثمن يوم وخُمسًا من خُمس يوم.

ويقال: إنهم كانوا في صدر الإسلام يُسْقِطون عند رأس كل اثنتين وثلاثين سنةً عربيّةً سنةً، ويسمّونها الازدلاف[٢]؛ لأن كل ثلاث وثلاثين سنةً قمرية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريبًا. وذلك لتحرّزهم من الوقوع في النسيء الذي أخبر الله عزّ وجلّ أنه زيادة في الكفر. وهذا الازدلاف هو الذي نسمّيه في عصرنا هذا بين كتاب التصرّف «التحويل»؛ لأنا نحوّل السنة الخراجية[٣] إلى الهلالية، ولا يكون ذلك إلّا بأمر السلطان.

وسنة العالم - على ما اتّفق عليه المنجّمون - هي من حين حلول الشمس رأس الحمل، وهو الاعتدال الربيعيّ، ومنهم من يجعل أوّلها من حين حلول الشمس رأس الميزان، وهو الاعتدال الخريفيّ.

وابتداء سنة القبط قطع الشمس اثنتي عشرة درجة من السنبلة[٤]، وابتدؤوا بفعل ذلك في زمن أغسطش، وهو قيصر الأول على ما ذكره أصحاب الزيجات[٥].

---

(١) السنة الكبيسة: التي يكون فيها شهر شباط ٢٩ يومًا وذلك مرّة كلّ أربع سنوات.

(٢) الازدلاف: وهو الاجتماع، والإزدلاف: الاقتراب، لأنها اقتراب من الله والمزدلفة: المشعر الحرام ومصلّى الإمام، وهي فرسخٌ من مِنى بها مصلى وسقاية ومنارة. «راجع معجم البلدان ٥/ ١٢١».

(٣) السّنة الخراجية: مشتقة من الخراج، وهو الضريبة التي تؤخذ من أموال الناس، أو المال المفروض على الأرض وعلى غلّتها.

(٤) السّنبلة: برج في السّماء.

(٥) الزّيجات: مفردها الزّيج، وهي في علم الفلك: جدول يدلُّ على حركة الكواكب، ومنه يُستخرج التقويم.

وأما الفُرْس، فأوّل سنتهم عند حلول الشمس أوّلَ نقطة من الحمَل(١).

وأما السُّريانيون، فأوّل سنتهم عند قطع الشمس من الميزان ستَّ عشرة درجة.

٦ ـ ذكر النسيء ومذهب العرب فيه

يقال: إن عمرو بن لُحَيّ(٢)، وهو خُزاعة ـ ويقال اسمه عمرو بن عامر الخزاعيّ ـ هو أوّل من نَسَأ الشهور، وبَحر البحيرةَ(٣)، وسَيَّب السائبة(٤)، وجعل الوصيلة(٥)، والحامي(٦)، وهو أوّل من دعا الناس إلى عبادة هُبَلَ(٧)، قدم به معه من هِيت(٨).

ومعنى النسيء أنهم يُنْسِئُونَ المحرمَ إلى صَفَر، ورجبَ إلى شعبان.

وكان جملة ما يعتقدونه من الدّين تعظيم الأشهر الحرم الأربعة(٩)، وكانوا يتحرَّجون فيها من القتال. وكانت قبائل منهم يستبيحونها فإذا قاتلوا في شهر حرام، حرموا مكانه شهرًا من أشهر الحلّ، ويقولون: نُسِيء الشهر.

---

(١) الحمل: وهو برجٌ من أبراج السّماء، وهذا اليوم هو عيد نيروزهم إلى الآن.

(٢) هو عمرو بن لُحيّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، من قحطان، أوّل من غيّر العرب عن دين إسماعيل، ودعاهم إلى عبادة الأوثان، وفي العلماء من يجزم بأنه مضريّ من عدنان، وهو جدّ خزاعة عند كثير من النّسابين. «فهرس الأعلام ٥/ ٨٤».

(٣) البحيرة: الناقة إذا نُتجت خمسة أبطن، عُمِد إلى الخامس، فإذا لم يكن ذكرًا، بتك آذانها أي شقّها، ثمّ لا يجُزُّ لها وبرًا ولا يذوق لها لبنًا وسمّاها لآلهتهم.

(٤) السّائبة: وهي الماشية المسيّبة المخلاة، وكانوا في الجاهلية يفعلون ذلك ببعض ماشيتهم فيحرِّمون الانتفاع بها على أنفسهم.

(٥) الوصيلة: الشاة إذا ولدت سبعًا، عمد إلى السّابع، فإذا كان ذكرًا ذبح لآلهتهم وإن كان أنثى، تركت، وإن كان في بطنها اثنان: ذكر وأنثى، يتركان ولا يذبحان.

(٦) الحامي: الفحل يكون عند الرّجل، فإذا لقَّح عشر سنين، قيل: قد حمى ظهره، وسمِّي «حام». «راجع القرآن الكريم المفسّر: سورة المائدة، الآية: ١٠٣».

(٧) هُبل: صنم من أصنام الجاهلية، كان لقريش في الكعبة.

(٨) أهيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد، فوق الأنبار، وسمّيت هيت: لأنّها في هوّة من الأرض. «معجم البلدان: ٥/ ٤٢٠، ٤٢١».

(٩) الأشهر الحرم الأربعة: هي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجّة، والمحرّم، وكانت الجاهلية تحرّم فيها القتال. «انظر القرآن الكريم المفسّر: سورة التّوبة، الآية: ٣٦».

وحكى ابن إسحـٰق[١] صاحب السيرة النبوية (على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) أن أوّل من نَسأ الشهور على العرب، وأحلّ منها ما أحلّ، وحرّم ما حرّم، القَلَمَّسُ وهو حذيفة بن فُقيم بن عامر بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة.

ثم قام بعده ولده عباد، ثم قام بعد عباد ابنه قلع، ثم قام بعد قلع ابنه أُميّة، ثم قام بعد أُمية ابنه عوف، ثم قام بعد عوف ابنه أبو ثمامة جنادة، وعليه ظهر الإسلام.

فكانت العرب إذا فرغت من حجّها، اجتمعت عليه بمنى، فقام فيها على جمل، وقال بأعلى صوته: «اللّهمّ إني لا أخافُ ولا أُعافُ[٢]، ولا مردّ لما قضيتُ! اللّهمّ إني أحللت شهر كذا (ويذكر شهرًا من الأشهر الحرم، وقع اتّفاقهم على شنّ الغارات فيه)، وأنسأته إلى العام القابل (أي أخّرت تحريمه)، وحرمتُ مكانه شهر كذا من الأشهر البواقي!».

وكانوا يحلّون ما أحلّ، ويحرّمون ما حرّم.

وفي ذلك يقول عمرو بن قيس بن جذْل الطِّعان، من أبيات يفتخر: [من الوافر]

أَلَسْنَا النَّاسِئينَ على مَعَدٍّ شُهُورَ الحِلِّ، نجعلُها حَرامَا؟

وحكى السهيليّ[٣] في كتابه المترجم بـ «الروض الأُنُف» أن نسيء العرب كان على ضربين، أحدهما: تأخير المحرّم إلى صفر لحاجاتهم إلى شنّ الغارات وطلب الثأر، والثاني تأخير الحجّ عن وقته تحرّيًا[٤] منهم للسنة الشمسية، فكانوا يؤخّرونه في كل عام أحد عشر يومًا حتى يدور الدور في ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته، فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة حجّ بالناس أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، فوافق حجّه في ذي القَعدة، ثم حجّ رسول الله ﷺ في العام القابل فوافق عود الحجّ إلى وقته في ذي الحجّة كما وضع أوّلًا، فلمّا قضى رسول الله ﷺ حجّه، خطب فكان

---

(١) هو محمد بن إسحـٰق بن يسار المطّلبي بالولاء، المدني، من أقدم مؤرّخي العرب، من أهل المدينة، له السيرة النبويّة، وهو من أحسن الناس سياقًا للأخبار، سكن بغداد ومات فيها سنة ٧٦٨ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٨».

(٢) في اللّسان: أنا الذي لا أعاب ولا أُجاب، ولا يردّ لي قضاء، وأعاف: أُترك.

(٣) هو عبد الرحمـٰن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي، حافظ، عالم بالسّير واللغة، ولد في مالقة وعمي وعمره ١٧ سنة، ونبغ له تصانيف عدّة اتصل خبره بصاحب مراكش فطلبه إليها وأكرمه، ومات فيها سنة ١١٨٥ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٣١٣».

(٤) تحرّيًا: بحثًا.

مما قال في خطبته ﷺ: «إنَّ الزمانَ قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰواتِ والأرض»، يعني أن الحجّ قد عاد في ذي الحجّة.

٧ ـ ذكر السنين التي يضرب بها المثل

يُضْرب المثل:

بعام الجراد: كان سنة ثمان من الهجرة.

عام الحزن: وهي السنة التي مات فيها أبو طالب عمّ النبيّ ﷺ وخديجة رضي الله عنها، وهي سنة عشر من الهجرة، وكان موتها بعده بثلاثة أيّام وقيل: بسبعة.

عام الرَّمَادةِ: كان سنة ثماني عشرة من الهجرة، في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أصاب الناسَ فيه قحطٌ حتى صارت وجوههم في لون الرماد من الجوع. وقيل: كانت الريح تَسْفِي[1] ترابًا كالرَّمادِ لشدّة يُبْس الأرض، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في «التاريخ».

عام الرُّعَاف: كان سنة أربع وعشرين من الهجرة، سمّي بذلك لكثرة ما أصاب الناسَ فيه من الرُّعاف[2].

عام الجماعَةِ: كان سنة أربعين من الهجرة، فيه سَلَّم الحسن بن عليّ رضي الله عنهما الخلافة لمعاوية، فاجتمعت الكلمة فيه.

عام الجُحَافِ: كان سنة ثمانين من الهجرة، وقع بمكّة سيل عظيم ذهب بالإبل وعليها الحمول.

عام الفقهاء: وهو سنة أربع وتسعين من الهجرة، فيها مات عليّ بن الحسين زين العابدين، وأبو بكر بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم، وسعيد بن المسيَّب[3]، وعروة بن الزبير[4]، وعطاء بن يسار[5]، وسعيد بن زيد بن

---

(١) تسفي التّراب: تنثره وتنقله. (٢) الرّعاف: الدّم الذي يخرج من الأنف.

(٣) هو سعيد بن المسيّب بن حزن الإمام أبو محمد المخزومي، أحد الأعلام وسيّد التابعين، ثقة وحجة رفيع الذّكر، مات سنة ٩٤ هـ. «الكاشف ١/ ٢٩٦».

(٤) هو عروة بن الزبير، أبو عبد الله، كان فقيهًا عالمًا ثبتًا بالحديث. «الكاشف ٢/ ٢٢٩».

(٥) هو عطاء بن يسار الهلالي القاصي، مولى ميمونة، من كبار التابعين وعلمائهم مات سنة ١٠٣ هـ، الكاشف ٢/ ٢٣٣.

ثابت[١]، وفيه قَتَل الحجاج بن يوسف الثقفي سعيدَ بن جبير[٢].

سُنَيَّاتُ خالد: يُضربُ بها المثلُ في الجدب، وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث المعروف بأبي مطير، كان قد تولّى لهشام بن عبد الملك المدينة سبع سنين توالى القحط فيها حتى أجلى أهل البوادي.

سنة عشر ومائة: مات فيها قرينان[٣] في الزهد: الحسن البصري[٤] ومحمد بن سيرين[٥]، وقرينان في الشعر: جرير والفرزدق.

سنة ست وخمسين وثلاثمائة: مات فيها جماعة من الملوك، وهم: شمكير بن زياد صاحب طبرستان وجرجان، ومعزّ الدّولة بن بويه، وكافور الإخشيديّ، صاحب مصر، ويقفور ملك الروم، وأبو عليّ محمد بن إلياس صاحب كرمان، وسيف الدّولة بن حمدان ممدوح المتنبّي، والحسن بن فيرزان صاحب أَذْرَبِيجَان.

الباب الثالث
من القسم الثالث من الفن الأول

١ ـ في الفصول وأزمنتها

وفصول السنة أربعة: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء؛ ولكل فصل منها ثلاثة بروج[٦]، وثلاثة أشهر، وسبع منازل[٧]، وموافقة من الطبائع الأربع[٨].

١ ـ فأمّا فصل الربيع، وهو عند العرب الصيف، فطبعه حارّ رَطْب، ودخوله عند حلول الشمس برج الحمل، والثور، والجوزاء. وهذه البروج عندهم تدلّ على

(١) هو سعيد بن زيد بن ثابت، كاتب الوحي.

(٢) هو سعيد بن جبير الوالبي، أحد الأعلام، قتل شهيدًا في شهر شعبان سنة ٩٥ هـ بسبب خروجه مع ابن الأشعث. «الكاشف ١/ ٢٨٢».

(٣) القرينان: الصاحبان والمثيلان.

(٤) هو الحسن البصري أبو سعيد إمام أهل البصرة، وخير أهل زمانه، وأمّه مولاة أمّ سلمة، وكان ربّما أعطته أم سلمة ثديها في صغره تعلّله به، وكان عالمًا فصيحًا حجّة. «شذرات الذهب ١/ ١٣٧».

(٥) هو محمد بن سيرين، شيخ البصرة، وكاتب أنس بن مالك، وهو غاية في العلم، نهاية في العبادة. «شذرات الذهب ١/ ١٣٨».

(٦) البروج: أبراج في السَّماء.

(٧) المنازل: الأماكن والمواضع في الفلك.

(٨) الطبائع الأربع عند القدماء هي: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة.

الحركة، وله من السنّ الطفوليةُ والحداثةُ، ومن الرياح الجنوب، ومن الساعات الأولى والثانية والثالثة، ومن القوى القوّة الجاذبة، ومن الأخلاط[١] الدّم، ومن الكواكب القمرُ والزُّهَرَة، ومن المنازل بعض الفَرْغ المقدّم والفرغ المؤخر، والرشاء، والسَّرَطَان، والبُطَيْن، والثُّريَّا، والدَّبَران، وبعض الهَقْعة، وعدد أيّامه أربعة وتسعون يومًا.

وحلول الشمس في الثاني عشر من آذار، ويوافقه مارس من شهور الروم، وفي السادس عشر من برمهات من شهور القبط، وفي العشرين من اسفندار ماه من شهور الفرس. وإذا حلّت الشمس برج الحمل، اعتدل الليل والنهار، وصار كل واحد منهما اثنتي عشرة ساعة، ثم يأخذ النهار في الزيادة، والليل في النقصان.

وفي هذا الفصل تتحرّك الطبائع، وتظهر الموادّ المتولّدة في الشتاء، فيطلع النبات وتُزْهِرُ الأشجار وتُورِق، ويَهيجُ الحيوان للسِّفاد[٢]، وتذوب الثلوج، وتنبُع العيون، وتسيل الأودية.

ذكر ما قيل في وصف فصل الربيع وتشبيهه نظمًا ونثرًا

فمن ذلك ما قاله الصنوبريّ: [من البسيط]

ما الدَّهْرُ إلَّا الرَّبيعُ المُسْتَنيرُ إذا ... جاء الرَّبيعُ، أتاكَ النَّوْر والنُّورُ[٣]
فالأرضُ ياقوتةٌ، والجوُّ لُؤلُؤةٌ ... والنَّبْتُ فيروزَجٌ، والماءُ بَلُّورُ

وقال آخر: [من الكامل]

إشْرَبْ هنيئًا قد أتاكَ زَمَانُ ... مُتَعَطِّرٌ، مُتَهَلِّلٌ، نَشْوانُ!
فالأرضُ وَشْيٌ، والنَّسِيمُ مُعَنْبَرٌ ... والماءُ راحٌ، والطُّيورُ قِيَانُ[٤]

وقال الثعالبيّ[٥]: [من الطويل]

أظُنُّ الرَّبيعَ العَامَ قد جَاءَ زائرًا ... ففي الشَّمسِ بَزَّازًا، وفي الرّيح عَطّارا[٦]

---

(١) الأخلاط: جمع خلط، وهو الشيء يؤلف مع أشياء أخرى.
(٢) السّفاد: النّزو. (٣) النور: الزهر الأبيض.
(٤) الراح: الخمر، والمعنبر: ما ضمّخ بالعنبر.
(٥) هو أبو منصور بن عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري «تقدّمت ترجمته».
(٦) البزّاز: الذي يبيع البزّ، وهي نوعٌ من الثّياب. والعطّار: الذي يبيع أصناف الطّيب.

وما العَيْشُ إلا أن تُواجِهَ وَجْهَهُ ... وتَقْضِيَ بين الوَشْيِ والمِسْكِ أَوْطَارا[١]

وقال آخر: [من المتقارب]

وفصَّلَ فَصْلُ الربيع الرّياض ... عقودًا ورصّع منها حُلِيًّا
وفاخَرَ بالأرضِ أُفْقَ السَّماء ... فحَلَّى الثَّرى بنجوم الثُّريَّا

وقال الحسن بن وهب[٢]: [من الكامل]

طَلَعَتْ أوائلُ للرَّبيعِ فبشَّرت ... نَوْرَ الرّياضِ بجِدَّةٍ وشَبابِ!
وغَدَا السحابُ يكادُ يَسْحَبُ في الثَّرى ... أذيالَ أَسْحَمَ حَالكِ الجِلْبَابِ[٣]
فَتَرى السَّماءَ إذا أجَدَّ رَبَابُها ... فكأنَّما التحَفَتْ جَنَاحَ غُرَابِ[٤]
وترى الغُصُونَ إذا الرّيَاحُ تَنَاوَحَتْ ... مُلْتَفَّةً كَتَعَانُقِ الأحْبَاب

وقال بعض فضلاء أصفَهَان في وصف فصل الربيع من رسالة ذكرها العماد الأصفهانيّ في الخريدة:

أمّا بعد؛ فإن الزمانَ جَسَدٌ وفصلُ الربيعِ رُوحُه، وسِرّ حكمةٍ إلٰهيةٍ وبه كَشْفُه ووضُوحُه؛ وعمر مقدور وهو الشبيبة فيه، ومنهلٌ جَمٌّ[٥] وهو نَميره[٦] وصافِيه؛ ودَوْحَة[٧] خَضِرَةٌ وهو يَنْعُها[٨] وجَنَاها، وألفاظ مجموعة وهو نتيجتها ومعناها؛ فمن لم يَسْتَهو طباعَه نسيمُ هوائه، ولم يُدْرِك شِفَاء دَائه في صَفَاء دَوَائه؛ لم يَذُقْ لِطَعْم حياته نفعًا، ولم يجد لخفض حظّه من أيّامه رفعًا.

٢ ـ وأمّا فصل الصّيف، فإن طبيعته الحرارة واليبس، ودخوله عند حلول الشمس برج السرطان، والأسد، والسنبلة.

---

(١) الوشي: الموشّى من الأثواب وغيرها، والمسك: نوع من الطّيب يكون من دم حيوان كالغزال «فإن المسك بعض دم الغزال» والأوطار: مفردها وطر: وهو الحاجة.

(٢) هو الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو الحارثي، أبو علي، كاتب من الشعراء كان معاصرًا لأبي تمّام، استكتبه الخلفاء ومدحه أبو تمام، ورثاه البحتري، مات نحو سنة ٨٦٥ م. «فهرس الأعلام ٢/٢٢٦».

(٣) الأسحم: الأسود، والجلباب: الثوب المشتمل.

(٤) الرّباب: السحاب الأبيض.

(٥) الجمّ: الوفير الكثير.

(٦) النمير: العذب الصافي من الماء.

(٧) الدوحة: الشجرة العظيمة المتشعّبة ذات الفروع الممتدّة.

(٨) الينع: أواه القطاف.

وهذه البروج تدلّ على السكون، وله من السنّ الشباب؛ ومن الرياح الصّبا؛ ومن الساعات الرابعة والخامسة والسادسة؛ ومن القوى القوّة الماسكة؛ ومن الأخلاط المرَّة الصفراء(١)؛ ومن الكواكب المرّيخ والشمس؛ ومن المنازل بعض الهَقْعة(٢)، والهَنْعَة(٣)، والذراع، والنَّثْرة والطَّرْف والجَبْهة (وهي أربعة عشر يومًا)، والخَرَاتَانِ وبعض الصَّرْفة. وتنزل الشمس في برج السرطان في الرابع عشر من حزيران، وعدد أيّامه ثلاثة وتسعون يومًا، ويوافقه ينير من شهر الروم؛ وفي العشرين من بؤونه، وإذا حلّت الشمس برج السرطان، أخذ الليل في الزيادة، والنهار في النقصان، والله أعلم.

ذكر ما قيل في وصف فصل الصيف وتشبيهه نظمًا ونثرًا

فمن ذلك ما قاله ذو الرمّة(٤): [من المتقارب]

وَهَاجِرَةٍ حَرُّهَا وَاقِدٌ ... نَصَبْتُ لِحَاجِبِهَا حَاجِبِي
تَلُوذُ مِن الشَّمْس أطْلَاؤُهَا ... لِيَاذَ الغَرِيم من الطَّالِبِ(٥)
وتَسْجُدُ للشمس حَرْبَاؤُهَا ... كما يَسْجُدُ القَسُّ لِلرَّاهِب

وقال مسكين الدّارمي(٦): [من الطويل]

وهَاجِرةٍ ظَلَّتْ كأنّ ظِبَاءَهَا ... إذا ما اتَّقَتْها بالقرون سُجُودُ
تَلُوذُ بِشُؤْبُوبٍ من الشمس فوقَها ... كما لَاذَ من حَرِّ السِّنَانِ طَرِيدُ(٧)

وقال ابن الفقيسيّ: [من الخفيف]

في زَمَانٍ يَشْوِي الوُجُوهَ بِحَرٍّ ... ويُذِيبُ الجُسومَ لو كُنَّ صَخْرا

---

(١) المرّة الصفراء: خلطٌ من أخلاط البدن. (٢) الهقعة: دائرة تكون بعرض زور الفرس.
(٣) الهنعة: نجمان في السّماء، وهما المنزل السّادس من منازل القمر.
(٤) ذو الرُّمَّة: هو غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، شاعر من فحول الطبقة الثانية كان أسود دميمًا، وأكثر شعره في التشبيب والبكاء على الأطلال. «فهرس الأعلام ٥/ ١٢٤».
(٥) الأطلاء: جمع طلو، وهو الذئب.
(٦) هو ربيعة بن عامر بن أنيف من بني دارم، ومسكين لقب له، قال:
سمّيت مسكينًا وكانت لحاجةً ... وإنّي لمسكينٌ إلى الله راغب
وهو أحد شعراء العصر الأموي، مات ولا عقب له. «راجع الشعر والشعراء ص ٣٦٥».
(٧) شؤبوب الشمس: شدّة حرّها، والشؤبوب: الدفعة من المطر.

لا تَـطِـيـرُ الـنُّـسُـورُ فـيـه إذا مـا وَقَـفَـتْ شَـمْـسُـه وقـارَبَ ظُـهْـرَا
ويَـوَدُّ الـغُـصْـنُ الـنَّـضِـيـرُ بـهِ لَوْ أنَّـه مِـن لِحَـائِه يَـتـعَـرَّى[١]

وقال أيضًا: [من السريع]

يـا لـيـلةً بِـتُّ بـهـا سَـاهِـدًا مِـن شِـدَّةِ الـحَـرِّ وفَـرْطِ الأُوارْ[٢]
كـأنّـنـي فـي جُـنْـحِـهَـا مُـحْـرِمٌ لـو أنَّ لِلْعَـوْرَةِ مِـنِّـي اسْـتِـتَـارْ
وكـيـف لا أُحْـرِمُ فـي لَيـلةٍ سَمَاؤُها بالشُّهْبِ تَرْمِي الجِمَار؟[٣]

وقال آخر: [من الطويل]

ويـومِ سَـمُـومٍ خِـلْتُ أنَّ نَـسِـيـمَـهُ ذَوَاتُ سُـمُـوم لـلـقُـلـوبِ لَوادِغُ[٤]
ظَلِلْتُ به أشكو مِكَابَدَةَ الهوى فَـكُـوزِيَ مَـلآنٌ وَمَـائِي فَـارِغُ[٥]

وقال محمد بن أبي الثياب، شاعر اليتيمة: [من الطويل]

وهَـاجِـرَةٍ تَـشْـوِي الـوُجُـوهَ كـأنَّـهَـا إذا لَفَـحَـتْ خَـدَّيَّ نـارٌ تـوهَّـج
ومـاء كـلـونِ الـزيـتِ مِـلْح كـأنّـه بِوَجْدِيَ يَغْلِي أو بِهَجْرِكَ يُمْزَجُ

وقال الثعالبيّ: [من الخفيف]

رُبَّ يَـوْمٍ هَـوَاؤُهُ يَـتَـلَظَّـى فَـيُـحَـاكِـي فُـؤَادَ صَـبٌ مُـتَـيَّـمْ
قُـلْتُ إذ صَـكَّ حَـرُّهُ حُـرَّ وَجْـهِـي «رَبَّنا اَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمْ»![٦]

ومما وصف به من النثر قول بعضهم:

أَوقَدَتِ الظَّهِيرةُ نارَها، وأَذْكَتْ أُوَارَهَا[٧]؛ فأذابت دماغ الضبّ[٨]، وألهبت قلب الصبّ[٩]؛ هاجرة كأنها من قلوب العُشّاق، إذا اشتعلت بنيران الفراق؛ حرّ تهرُب له الحرباء من الشمس، وتستجير بمتراكب الرمس[١٠]؛ لا يطيب معه

(١) اللّحاء: القشر الخارجي للغصن والجذع. (٢) الأوار: شدّة الحرّ ولهب النّار.
(٣) الجمار: الحصى التي يرمى بها الشيطان أثناء الحجّ.
(٤) السّموم: الريح الحارة تهبّ غالبًا في الصيف، واللوادغ: اللواسع.
(٥) الكوز: إناءٌ بعروة يشرب به الماء. (٦) صك: دفع وضرب بقوّة.
(٧) أذكت أوارها: اشتدّ حرّها ولهيبها.
(٨) الضبّ: حيوان من جنس الزواحف، غليظ الجسم خشنه وله ذنب عريض حرش أعقد.
(٩) الصّبّ: العاشق. (١٠) الرمس: القبر على وجه الأرض مستويًا.

عيش، ولا ينفع معه سرج[1] ولا خيش؛ فهو كقلب المهجور، أو كالتّنور المسجور[2].

٣ ـ وأما فصل الخريف: فإن طبعه بارد يابس؛ ودخوله عند حلول الشمس برأس الميزان والعقرب والقوس.

وهذه البروج تدلّ على الحركة؛ وله من السن الكُهُولة، ومن الرياح الشّمال، ومن الساعات السابعة والثامنة والتاسعة، ومن القوى القوّة الهاضمة، ومن الأخلاط المِرَّة السوداء[3]؛ ومن الكواكب زُحَلٌ، ومن المنازل بعض الصَّرفة والعَوّاءُ[4] والسِّمَاك[5] والغَفْر[6] والزُّبانَيَانِ[7] والقلب وبعض الشولة[8]، وعدد أيامه تسعة وثمانون يومًا؛ ويكون حلول الشمس الميزان في الخامس عشر من أيلول، ويوافقه ستمبر من شهور الروم، وفي الثامن عشر من توت.

وفي هذا الفصل يبرد الهواء، ويتغيّر الزمان، وتُصْرم الثمار، ويغبرّ وجه الأرض، ويصفرّ ورق الشجر، وتهزل البهائم، وتموت الهوامّ، وتنجحر الحشرات، وتطلب الطير المواضع الدّفئة، وتصير الدنيا كأنها كهلة مدبرة.

ويقال: فصل الخريف ربيع النفس كما أن فصل الربيع ربيع العين.

والله أعلم.

ذكر ما قيل في وصف فصل الخريف وتشبيهه نظمًا ونثرًا

فمن ذلك ما قاله الصنوبريّ، عفا الله عنه: [من الخفيف]

ما قضَى في الربيع حَقَّ المَسَرَّا ... تِ مُضِيعٌ زَمَانَهُ في الخريفِ
نحنُ منه على تَلَقِّي شِتاءٍ ... يُوجِبُ القَصْفَ أو وَدَاعِ مَصِيفِ[9]

---

(١) السّرج: الرّحل، أو ما يوضع على ظهر الفرس ليركب.
(٢) المسجور: المتّقد.
(٣) المرّة السوداء: خلط من أخلاط البدن وهما المرّة الصفراء والمرّة السّوداء.
(٤) العوّاء: منزل من منازل القمر. (٥) السّماك: نجم منير.
(٦) الغُفر: منزل للقمر، ثلاثة أنجمة في برج السّنبلة.
(٧) الزبانيان: نجمان في الميزان، هما المنزل السادس عشر من منازل القمر.
(٨) الشّولة: منزلة من برج العقرب، ينزل فيها القمر، والشّولة نجمان متقابلان في ذلك البرج.
(٩) القصف: الإقامة في الأكل والشّراب واللهو.

فِي قَمِيصٍ مِن الزمان رَقِيقٍ وَرِداءٍ مِنَ الهَواءِ خَفِيفِ
يَرْعُدُ الماءُ منه خوفًا إذا ما لَمَسَتْه يَدُ النَّسِيمِ الضَّعِيفِ

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من الخفيف]

طَابَ شُرْبُ الصَّبوح في أيلولِ! بَرَدَ الظلُّ في الضُّحى والأَصِيلِ![1]
وخَبَتْ جَمْرَةُ الهَواجِر عَنَّا واستَرَحْنَا من النهار الطَّويلِ[2]
وخَرَجْنَا من السَّمُومِ إلى بَرْ دِ نَسِيمٍ، وطيب ظلٍّ ظَليلِ
وشَمالٍ تبشِّر الأرض بالقَطْـ ـرِ كذيل الغِلَالة المبلولِ[3]
فكأنّا نزداد قُرْبًا إلى الجـ ـنّة في كلّ شارق وأصيلِ
وَوُجوهُ البِقَاعِ تَنْتَظِرُ الغَيْـ ـثَ انْتِظَارَ المُحِبِّ رَدَّ الرَّسُولِ[4]
تَبْتَغِي غُلَّةً لِتَعْمَلَ رَوْضًا بكثيرٍ من الحَيَا أو قَلِيلِ

وقال آخر: [من الكامل]

اِشْرَبْ على طِيبِ الزَّمَانِ فقد حَدَا بالصَّيْف من أَيْلُولَ أَسْرَعُ حَادِ
وأَشَمَّنَا باللَّيْلِ بَرْدَ نَسِيمِهِ فارتاحَتِ الأرواحُ في الأجسادِ
وافاكَ بالأَنْداءِ قُدَّامَ الحَيَا فالأرضُ للأمطارِ في اسْتِعْدَادِ
كم في ضَمائِرِ تُربِها من رَوْضَةٍ بِمَسِيلِ مَاءٍ أو قَرَارَةِ وَادِ
تَبْدُو إذا جَادَ السَّحَابُ بِقَطْرِهِ فكأنّما كانَا على مِيعَادِ

وقال آخر: [من البسيط]

لا تَصْغِ لِلَّوْمِ إنَّ اللَّوْمَ تَضْلِيلُ واشْرَبْ ففي الشُّرْبِ للأحزانِ تَحْليلُ
فقد مَضَى القَيْظُ واجْتُثَّتْ رَوَاحِلُه وطَابَتِ الرَّاحُ لما آلَ أَيْلُولُ[5]
وليس في الأَرْضِ نَبْتٌ يَشْتَكي رَمَدًا إلَّا ونَاظِرُهُ بالطَّلِّ مَكْحُولُ[6]

(١) الصّبوح: شرب الخمرة صباحًا.
(٢) خبت: اختفت وانطفأت، والهجير: وقت اشتداد الحرّ في هاجرة النّهار.
(٣) الغلالة: السّتر الرقيق. (٤) البقاع: الأماكن، والغيث: المطر.
(٥) القيظ: شدّة الحرّ في أشهر الصيف، والرّاح: الخمر.
(٦) الرّمد: مرض يصيب العين، الطلّ: الندى.

وقال آخر يذمّه: [من الكامل]

خُذْ بالتَّدَثُّرِ في الخَريفِ فإِنَّهُ مُسْتَوْبَلٌ، ونَسِيمُه خَطَّافُ[١]
يَجْرِي معَ الأَيَّام جَرْيَ نِفَاقِهَا لِصَدِيقِهَا «ومن الصَّديق يُخَافُ»!

ومما وصف به من النثر:

قال أبو إسحٰق الصابي يصفه:

الخريفُ أصح فصول السنة زمانًا، وأسهلُها أوانًا؛ وهو أحد الاعتدالين، المتوسطين بين الانقلابين، حين أبدتِ الأرضُ عن ثمرتها، وصرَّحَتْ عن زينتها؛ وأطلقت السماءُ حوافِلَ أنوائِها، وتأَذَّنَتْ بانكساب مائها؛ وصارَتِ الموارد، كمُتُونِ المَبَارِد[٢]؛ صَفَاءَ من كَدَرِها، وتَهَذُّبًا من عَكَرِها؛ واطِّرادًا مع نَفَحات الهواء، وحركات الريح الشَّجْوَاء[٣]؛ واكْتَسَتِ الماشيةُ وَبرها القَشِيب[٤]، والطائر رِيشَه العَجيب.

وقال ابن شبل[٥]:

كُلُّ ما يَظْهَر في الربيع نُوَّاره، ففي الخَرِيفِ تُجْتَنَى ثِمَارُه؛ فهو الحاجِبُ أَمَامَه، والمُطْرِقُ قُدَّامَه.

وقال ضياء الدّين ابن الأثير الجزريّ[٦] عن الخريف يفتخر على فصل الربيع: أنا الذي آتِي بذَهاب السَّمُوم، وإيابِ الغُيُوم، واعتصار بناتِ الكُروم، وتكاثر ألوان المشروب والمطعوم؛ وفيَّ يترقرقُ صفاءُ الأنهار، فتشتبه القوابلُ[٧] بالأسحار، وأيامي هي الذهبيات، وتلك نسبة كريمة النِّجار[٨]؛ ومن ثمراتي ما لا تزال أمّهاته حوامل، وأوراقه نواضر وغيرها ذوابل، وقد شبّه بالمصابيح وشبّهت أغصانه بالسلاسل.

---

(١) المستوبل: الوبيء والوخيم والرديء.
(٢) المبارد: جمع مِبرَدْ وهو آلة تسنُّ بها الأدوات الحادّة.
(٣) الشجواء: المحزنة. (٤) القشيب: الجديد النّظيف المعجب.
(٥) لعلّه محمّد بن الحسين بن الشّبل، البغدادي، أبو علي، شاعر حكيم، من أهل بغداد، أقرأ علوم الفلسفة والأدب ونظم الشعر الجيد، توفي في بغداد سنة ١٠٨٠ م. «فهرس الأعلام ٦/ ١٠٠».
(٦) هو نصر الله بن محمد، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب، وزير من العلماء المترسّلين، له مصنّفات عديدة، مات ببغداد سنة ١٢٣٩ م. «فهرس الأعلام ٨/ ٣١».
(٧) القوابل: من الأمور: أوائلها، أو هو المتهيّأ للقبول والانفعال.
(٨) النّجار: الأصل والحسب.

ولقد أنصف من قال: [من الوافر]

مَحَاسِنُ لِلْخَرِيفِ بِهِنَّ فَخْرٌ   على زمن الرّبيع، وأيُّ فَخْرِ!
بـه صَارَ الزَّمانُ أمَامَ بردٍ   يُرَاقِبُ نَزْحَهُ وعقيبَ حَرٍّ[١]

٤ ـ **وأما فصل الشتاء**، فإن طبعه بارد رطب، ودخوله عند حلول الشمس رأس الجدي والدّلو والحوت.

وهذه البروج تدلّ على السكون، وله من السنّ الشيخوخة؛ ومن الرياح الدّبور[٢]، ومن الساعات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة، ومن القوى القوّة الدافعة، ومن الأخلاط البلغم، ومن الكواكب المشترِي وعُطارِد، ومن المنازل بعض الشولة[٣] والنعائم والبلدةُ وسعدُ الذابح وسعدُ بُلَعَ وسعد السعود وسعد الأخبية[٤] وبعض الفرغ المقدّم، وعدد أيامه تسعة وثمانون يومًا.

ويكون حلول الشمس برأس الجدي في الثالث عشر من كانون الأوّل، ويوافقه دجنبر من شهور الروم، وفي السابع عشر من كيهك من شهور القبط. وإذا حلّت الشمس ببرج الجدي يشتدّ البرد، ويخشن الهواء، ويتساقطُ ورق الشجر، وتنجحرُ[٥] الحيوانات، وتضعُفُ قوى الأبدان، وتكثر الأنواء، ويُظْلِم الجوّ، وتصير الدّنيا كأنها عجوز هَرِمة قد دنا منها الموت.

ورُوِي عن عليّ رضي الله عنه أنّه قال: «توقَّوُا البرد في أوّله، وتلَقَّوْه في آخره، فإنه يفعل في الأبدان كفعله في الأشجار: أوّله يُحْرِق، وآخره يُورق».

ذكر ما قيل في وصف فصل الشتاء وتشبيهه

فمن ذلك ما قاله جرير شاعر الحماسة[٦]: [من البسيط]

في لَيْلَةٍ من جُمَادَى ذَاتِ أَنْدِيَةٍ   لا يُبْصِرُ الكَلْبُ في ظَلْمَائِهَا الطُّنُبَا[٧]
لا يَنْبَحُ الكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ   حتى يَلُفَّ على خَيْشُومِهِ الذَّنَبَا[٨]

---

(١) نزحه: ابتعاده ورحيله.   (٢) الدّبور: ريحٌ تهبُّ من المغرب.
(٣) الشولة: منزلة من منازل القمر، وهي نجمان متقابلان في برج العقرب.
(٤) الأخبية: جمع خباء، وهو بيت من شعر أو وبر أو صوف.
(٥) تنحجر: تدخل إلى جحورها داخل الأرض.
(٦) الحماسة: كتاب لأبي تمّام الطائي الشاعر العبّاسي المشهور، جمع فيه بعضًا من أشعار العرب، وجرير هو الشاعر الأموي المشهور.
(٧) الطنُب: حبلٌ يشدُّ به الخباء والسرادة.   (٨) الخيشوم: أعلى الأنف.

وقال ابن حِكِّينا البغداديّ[(١)]: [من الكامل]

اِلْبَسْ إذا قَدِمَ الشِّتَاءُ بُرُودَا ... وافْرُشْ على رَغْمِ الحَصِيرِ لُبُودَا[(٢)]
الرِّيقُ في اللَّهَوَاتِ أَصْبَحَ جَامِدًا ... والدَّمْعُ في الآماقِ صَارَ بَرُودَا[(٣)]
وإذا رَمَيْتَ بِفَضْلِ كَأْسِكَ في الهَوا ... عادَتْ عَلَيْكَ من العَقِيقِ عُقُودَا
وتَرى على بَرْدِ المِياهِ طُيُورَها ... تختَارُ حَرَّ النَّارِ والسَّفُّودَا[(٤)]
يا صَاحِبَ العُودَيْنِ لا تُهْمِلْهُمَا ... أَوْقِدْ لَنَا عُودًا، وحَرِّكْ عُودَا!

وقال آخر: [من السريع]

ويومُنا أرواحُه قَرَّةٌ ... تُخمِّشُ الأبدانَ من قَرْصِها[(٥)]
يومٌ تَودُّ الشمسُ من بَرْدِه ... لو جَرَّتِ النَّارَ إلى قُرْصِهَا!

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من السريع]

قد مَنَعَ الماءُ من اللَّمْسِ ... وأَمْكَنَ الجَمْرُ من المَسِّ
فلَيْسَ نَلْقَى غَيْرَ ذِي رِعْدَةٍ ... ومُسْلم يَسْجُدُ للشَّمْسِ!

وقال آخر: [من الخفيف]

ليس عندي من آلَةِ البردِ إلَّا ... حُسْنُ صَبْرِي، ورِعْدَتِي، وقُنُوعِي[(٦)]
فكأنِّي لِشِدَّةِ البَرْد هِرٌّ ... يَرْقُبُ الشَّمْسَ في أوان الطُّلُوع

وقال ابن سُكَّرة الهاشميّ[(٧)]، عفا الله تعالى عنه ورحمه: [من مجزوء الرّمل]

قيل: ما أعدَدْتَ للبَرْ ... دِ وقد جَاءَ بِشِدَّهْ؟
قلت: دُرَّاعَةُ بَرْد ... تحتَها جُبَّةُ رِعْدَهْ[(٨)]

---

(١) هو الحسن بن أحمد، أبو محمد، من ظرفاء الشعراء الخلعاء، من أهل بغداد، كان لطيف الشعر، سار شعره وحُفظ مات سنة ١١٣٤ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١٨١».
(٢) اللبود: مفردها لُبدة، وهي كلّ ثوبٍ من شعرٍ أو صوف.
(٣) الأماق: مجاري الدّمع. (٤) السّفود: حديدة يشكُّ فيها اللحم ليُشوى.
(٥) أرواحه: رياحه، والقرص: اللسع الذي يترك الألم.
(٦) الرعدة: اضطراب الجسم من خوف أو برد أو مرض، والقنوع: التذلُّل.
(٧) هو ابن سكرة الهاشمي محمد بن عبد الله بن محمد، شاعر اليتيمة، وهو فائق في قول الملح والطرف، وأحد الفحول الأفراد. «انظر اليتيمة ٣/٣ وما بعدها».
(٨) الدّراعة: جُبّة أو ثوب من صوف.

وقال أبو سعيد المخزوميّ: [من المتقارب]

إذا كُنْتَ في بلدةٍ نازلًا وحَلَّ الشِّتاءُ حُلُولَ المُقِيمْ[١]
فلا تَبْرُزَنَّ إلى أن ترى من الصَّحْو يومًا صحيحَ الأَدِيمْ[٢]
فكم زَلْقَةٍ في حَواشِي الطريق تَرُدُّ الشيابَ بخِزْيٍ عَظِيمْ![٣]
وكَمْ مِنْ لئيمٍ غدَا راكبًا يُحِبُّ البلاءَ لماشٍ كَريم!

وقال الصاحب بن عبّاد: [من البسيط]

أنّي رَكِبْتُ فكفُّ الأرضِ كَاتِبَةٌ على ثِيابِي سُطورًا ليس تَنْكَتِمُ
فالأرضُ مِحْبَرَةٌ، والحِبْرُ مِنْ لَثَقٍ والطِّرْسُ ثَوْبِي، ويُمْنَى الأَشْهَبِ القَلَمُ[٤]

قال أبو عليّ كاتب بكر[٥]، شاعر اليتيمة: [من السريع]

يا بلدةً أسلَمَني بَرْدُهَا وبَرْدُ مَنْ يَسْكُنُها للقَلَقْ
لا يَسْلَمُ الشَّاتِي بها من أذًى من لَثَقٍ، أو دَمَقٍ، أو زَلَقْ[٦]

ومما وصف به نثرًا قول بعضهم:

إذا حلَّتِ الشمسُ برجَ الجدي مدّ الشتاءُ رِوَاقَه[٧]، وحَلَّ نِطَاقَه[٨]، ودَبَّتْ عَقَارِبُ البردِ لَاسِبَةً[٩]، ونَفَعَ مَذْخُورُ الكَسْبِ كَاسِبَهْ.

ومن رسالة لابن أبي الخصال، جاء منها:

الكلب قد صافح خيشومه ذنبَه، وأنكر البيتَ وطُنُبَه، والْتَوَى التِوَاءَ الحُبَاب[١٠]، واستدارَ استدارة الغراب، وجَلَده الجليد، وضربه الضَّريب[١١] وصعّد أنفاسَه

---

(١) حلول المُقيم: يريد أنّ الشّتاء سيستمرّ لمدّة، وليس شتاءً عابرًا.
(٢) الأديم: الوجه والظاهر من كل شيء.
(٣) الزلقة: السقطة والزلّة، والخزي: الفضيحة والذلّ.
(٤) اللثق: الماء والطين مختلطان.
(٥) لعله أبو علي السّلامي كاتب، موفق للتجويد منخرط في سلك أبي بكر بن محتاج، شاعر شعره متفرّق في الكتب. «انظر اليتيمة ٤/ ١٠٨».
(٦) الدمق: البرد مع الريح يغشى الإنسان من كلّ أوب.
(٧) الرواق: بيت كالخيمة يحمل على عمود طويل.
(٨) النطاق: قطعة من ثوب أو جلد تشدّها المرأة على وسطها.
(٩) اللّاسبة: التي تلسب أي تلذع.
(١٠) الحباب: طرائق تظهر على وجه الماء تصنعها الريح.
(١١) الضريب: الصقيع والثلج.

الصعيد[١]؛ فَحِماه مباح، ولا هَرير [٢] له ولا نُباح، والنارُ كالصَّديق، أو كالرَّحيق[٣]؛ كلاهما عَنْقاء[٤] مُغْرب، أو نجم مُغَرِّب.

وقال بعضهم: بردٌ يُغيِّر الألوان، وينشّف الأبدان، ويُجَمِّدُ الريقَ في الأشداق، والدَّمعَ في الآماق[٥]؛ بردٌ حالَ بين الكلب وهَرِيره، والأسدِ وزَئِيره، والطيرِ وصَفيرِه، والماء وخَرِيره.

وقيل لبعضهم: أيُّ البرد أشدُّ؟ فقال: إذا دمعت العيناه، وقَطر المَنْخَران، وتلجلج[٦] اللّسان، واصطَكَّت[٧] الأسنان.

ووصف ابن وكيع الفصول الأربعة في أرجوزة، فقال: [من الرجز]

عِنْدِي في وَصْف الفُصول الأربَعْه مَقَالَةٌ تُغْني اللَّبيبَ مُقْنِعَهْ

ذكر ما قيل في فصل الصّيف: [من الرجز]

أمَّا المصيفُ، فاستمِعْ ما فيه من فَطِنٍ يُفْهِمُ سَامِعِيهِ
فصل من الدَّهْر إذا قِيلَ حَضَرْ أذْكَرَنا بِحَرّه نارَ سَقَرْ
يَظَلُّ فيه القلبُ مُقْشَعِرَّا والأرضُ تشكو حَرّه المُضِرَّا
أوّلُه فيه نَدًى مُنَغِّصٌ كأنه على القُلُوبِ يَقْنِص
يَلْصَقُ منه الجلدُ بالثِّيابِ ويَعْلَقُ التُّرابُ بالأثْوابِ
حتّى إذا ما طَرَدَتْه الشمسُ وفَرِحَتْ بأن يَزُولَ النَّفْسُ
فَتَّحَتِ النَّارُ لنا أبوابَها وشَبَّ فِيهَا مالكٌ شِهَابَها[٨]
حَرٌّ يَحِيلُ الأوجُهَ الغُرَّانَا حتّى تُرى الرومُ به حُبْشَانَا[٩]
يَغْلُو بهِ الكَرْبُ ويَشْتَدُّ القَلَقْ وتَنْضَحُ الأبدانُ فيه بالعَرَقْ[١٠]

---

(١) الصّعيد: الوجع والمشقة، يقال: تنفّس الصعداء: أي تنفّس طويلًا من توجّع.
(٢) الهرير: صوت الكلب دون نباح. (٣) الرّحيق: ضربٌ من الطيب.
(٤) العنقاء: طائر متوهّم لا وجود له.
(٥) الأماق: مجاري الدمع، والأمق: طرف العين الذي يلي الأنف.
(٦) تلجلج: تردّد في الكلام ولم يبينه. (٧) اصطكت: اضطربت من البرد وارتجفت.
(٨) مالك: خازن النار، ورد ذكره في القرآن الكريم، وشبّ: أوقد وأضرم.
(٩) يُحيل: يحوّل، والغرّ: البيض، والحبشان: السّود..
(١٠) تنضح: نضح الشيء: رشّه بالماء.

تُبْصِرُه فوقَ القَمِيصِ قد عَلَا ... حتّى ترى مُبيَضَّهُ مُصَنْدَلَا[١]
إنْ كانَ رَثًّا، زادَ في تَمْزِيقِهِ ... أو مُسْتَجِدًّا، جَدَّ جَبْلَ زِيقِهِ[٢]
ثُمّ يُعِيدُ الماءَ نارًا حَامِيَهْ ... يَزِيدُ في كرب القُلوبِ الصَّادِيَهْ[٣]
شَارِبُه يَكْرَعُ في حَمِيمِ ... كأنَّهُ من ساكِنِي الجَحِيمِ[٤]
يُنْسِيهِ ما يَلْقَى من الْتِهَابِه ... أن يَحْمَدَ الله على شَرَابِه
حتّى إذا أعْيَا، انْقَضَى نهارُهُ ... وأُرْخِيَتْ من لَيْلِهِ أستارُهُ
تَحَرَّكَتْ في جُنْحِهِ دَوَاهِي ... سَارِيَةٌ، وأنتَ عَنْهَا لَاهِي
من عَقْرَبٍ يَسْعى كسَعْيِ اللِّصِّ ... سِلَاحُها في إثْرِهِ كالشِّصِّ[٥]
وَحَيَّةٍ تَنْفُثُ سُمًّا قَاتِلًا ... تُزَوِّدُ المَلْسُوعَ حَتْفًا عَاجِلَا
تُبْصِرُ ما بِجِلْدِها من الرَّقَشْ ... كَوَجْنَةٍ مُصْفَرَّةٍ فِيها نَمَشْ[٦]
لو نَهَشَتْ بالنَّابِ منها الخِضْرَا ... لَنَشَرَتْ منه الحياةَ نَشْرَا[٧]
فلا تَقُلْ إن جاء يومًا أهْلَا ... فَلَعْنَةُ الله عليهِ فَضْلَا

ذكر ما قيل في فصل الخريف: [من الرجز]

حتّى إذا زَالَ، أتى الخريفُ ... فَصْلٌ بِكُلِّ سَوْأَةٍ مَعْرُوفُ
أَهْوَنُهُ يُسْرِعُ في حَلِّ الجَسَدْ ... وهو كطَبْعِ المَوْتِ يُبْسٌ وبَرَدْ
يَجْنِي على الأجْسَامِ من آفَاتِهِ ... وأرْضُهُ قَرْعَاءُ من نَبَاتِهِ[٨]
لا يُمْكِنُ النَّاسَ اتِّقَاءُ شَرِّهِ ... ولا خِلافُ بَرْدِهِ وحَرِّهِ
تُبْصِرُهُ مثلَ الصَّبِيّ الأرْعَنِ ... من كثرةِ العُشّاقِ والتَلَوُّنِ[٩]
فأنتَ منه خائفٌ على حَذَرْ ... لأنّه يمزُجُ بالصَّفْوِ الكَدَرْ

(١) المصندل: الذي تطيّب بالصّندل، والصندل: نوع من الطّيب.
(٢) الزّيق: من القميص أو الثوب: ما أحاط منه بالعنق.
(٣) الكرب: الحزن الشديد، والصادي: الذي اشتدّ عطشه.
(٤) الحميم: الماء الحار.
(٥) الشّص: حديدة عنقاء يصاد بها السمك.
(٦) الرّقش والرقشاء من الحيات: المنقّطة بسوادٍ وبياض، والنمش: بقع بُنيّة اللون تعلو الوجه.
(٧) الخضر: من العبّاد الصالحين، ورد ذكره في القرآن الكريم، ويقال: إنّه حيّ حتى اليوم. «انظر القرآن الكريم، سورة الكهف».
(٨) القرعاء: أي التي لا نبات فيها.
(٩) الأرعن: الأحمق.

أَحْسَنُ مَا يُهْدِي لَكَ النَّسِيمَا ... يَقْلِبُهُ في سَاعَةٍ سَمُومَا(١)
وهو على المعدودِ من ذُنُوبِهِ ... خيرٌ من الصَّيْفِ على عُيُوبِهِ

ذكر ما قيل في فصل الشتاء: [من الرجز]

حتّى إذا ما أقبَلَ الشِّتاءُ ... جَاءتكَ منه غُمَّةٌ عَمْيَاءُ
لو أنَّهُ رُوحٌ، لكان فَدْمَا ... أو أنه شَخْصٌ، لكان جَهْمَا(٢)
يلقاكَ منه أَسَدٌ يَزِيرُ ... له وَعِيدٌ وله تَحْذِيرُ(٣)
تأتِيكَ في أيَّامِهِ رِيَاحُ ... ليسَ على لَاعِنِها جُنَاحُ
حَرَاكُها ليسَ إلى سُكُونِ ... تَضُرّ بالأَسْمَاعِ والعُيُونِ
يَحْدُثُ من أفعالِهَا الزُّكَامُ ... هذا إذا ما فاتَكَ الصُّدَامُ
ثم يَلِيهَا مَطَرٌ مُدَاوِمُ ... كأنه خَصْمٌ لنا مُلَازِمُ
يَقْطَعُنَا بَعْضًا عن الطَّرِيقِ ... وعن قَضاء الحَقِّ للصَّدِيقِ
وربما خَرَّ عليكَ السَّقْفُ ... فإن عَفا عنكَ أتاكَ الوَكْفُ(٤)
وإنْ أردتَ في النَّهارِ الشُّرْبَا ... فيه، فقد قَاسَيْتَ خَطْبًا صَعْبَا
واحتجتَ أن تُوقِدَ فيه نَارَا ... تُطِيرُ نحو الحَدَقِ الشَّرَارَا
يَتْرُكُ مُبَيَضَّ الثِّيَابِ أَرْقَطَا ... يَحْكِي السَّعِيديَّ لَكَ المُنَقَّطَا(٥)
وبَعْدَ ذَا تُسَدِّدُ النِّقَابَا ... من خوفه وتُغْلِقُ الأَبْوَابَا(٦)
نعم، وتُرْخِي دُونَه السُّتُورَا ... حتّى ترى صَبَاحَه دَيْجُورَا
وإن أردتَ الشُّرْبَ في الظَّلَامِ ... عاقَكَ عن تَنَاوُلِ المُدَامِ
حَسْبُكَ أنْ تَنْدَسَّ في اللِّحافِ ... من خَشْيةِ البَرْدِ على الأطرافِ!
ورَعْدُهُ يَشْغَلُ عن كُلِّ عَمَلْ ... ويُؤْثِر النَّوْمَ وَيَسْتَحْلِي الكَسَلْ
حتّى إذا جئتَ إلى الرُّقَادِ ... نِمْتَ على فرشٍ من القَتَادِ(٧)

---

(١) السّموم: الرّيح الحارة التي تلفح الوجوه.
(٢) الفدم: أي الثقيل والعيي، والجهم: العابس الوجه والكريه المنظر.
(٣) يزير: أي ذو زئير، والزئير: صوت الأسد. (٤) الوكف: الماء الذي يسقط من السقف.
(٥) الأرقط: ما كان لونه الرّقطة، وهو لون مؤلف من سواد وبياض.
(٦) النّقاب: القناع الذي تجعله المرأة على أنفها فتستر به وجهه.
(٧) القتاد: نباتٌ صلبٌ له شوكٌ كالإبر.

إنَّ البراغيثَ عذابٌ مُزْعِجٌ لِكُلِّ قَلْبٍ ولِجِلْدٍ ينضجُ
لا يَسْتَلذُّ جِلدُكَ المَضاجِعَا كأنما أفرَشَهُ مَبَاضِعَا[١]
تَنَحَّ فَضْلًا فوق ما ذَمَمْتُهُ لو أنه يَظْهَرُ لي، قَتَلْتُهُ
حتى إذا ما هُوَ عَنَّا بَانَا وزالَ عَنَّا بَعْضُه، لا كَانَا!

ذكر ما قيل في فصل الربيع: [من الرجز]

جاءَ إلَيْنَا زَمنُ الرَّبيعِ فجاءَ فصلُ حَسَنُ الجَمِيعِ
لبَرْدِهِ وحَرِّه مِقْدارُ لم يكتَنِفْ حَدَّهُمَا إكْثَارُ
عُدِّلَ في أوْزَانِهِ حتى اعْتَدَلْ وحُمِدَ التَّفْصِيلُ منهُ والجُمَلْ
نهارُهُ في أحْسَنِ النَّهَارِ في غايَةِ الإشْرَاقِ والإسْفَارِ
تَضْحَكُ فيه الشَّمْسُ من غيرِ عَجَبْ كأنَّها في الأُفْقِ جَامٌ من ذَهَبْ[٢]
ولَيْلُهُ مُسْتَلْطَفُ النَّسِيمِ مُقَوَّمٌ في أحْسَنِ التَّقْويمِ
لبَدرهِ فَضْلٌ على البُدُورِ في حُسْنِ إشْرَاقٍ وفَرْطِ نُورِ
كَجَامَةِ البَلُّورِ في صَفَائِهَا أذَابَتِ الجرادَ في نِقَابِهَا[٣]
كأنَّها إذا دَنَتْ من بَدْرِهِ جَوْزَاؤه قبلَ طُلُوعِ فجرِه
رُومِيَّةٌ حُلَّتُهَا زَرْقَاءُ في الجِيدِ منها دُرَّةٌ بَيْضَاءُ[٤]
هذا وكم تجمعُ مِن أُمورِ إطْراءُ مُطْرِيهَا من التَّقْصِيرِ
فيه تَظَلُّ الطَّيرُ في ترنُّمِ حَاذِقَةً بالَّلحنِ لم تُعَلَّمِ
غِنَاؤُهَا ذو عُجْمَةٍ لا يَفْهَمُهْ سامِعُهُ وهو على ذا يغرمُهْ[٥]
من كُلِّ دُبْسيّ له رَنِينُ وكُلُّ قُمْرِيّ له حَنِينُ[٦]
في قُرْطَقٍ أُعْجِلَ أن يُوَرَّدَا خَاطَ له الخَيَّاطُ طَوْقًا أسْوَدَا[٧]

---

(١) المباضع: جمع مبضع، والمشرط.
(٢) الجام: إناءٌ للطعام والشّراب يكون من فضّة أو ذهب أو نحوهما.
(٣) النّقاب: القناع الذي تجعله المرأة على أنفها فتستر به وجهها.
(٤) الدرّة: اللؤلؤة العظيمة الكبيرة. (٥) ذو عُجمة: أي في لسانه لكنة.
(٦) القمري: ضربٌ من الحمام مطوّق، حسن الصوت، والحنين: صوت فيه طربٌ أو حزن.
(٧) القرطق: قباء.

تُبْصِرُه مِنهُ على الحَيْزُومِ كمِثْلِ عِقْدِ سَبَجٍ مَنْظُومِ[١]
هَذَا وفيهِ للرّياضِ مَنْظَرُ يُفْشِي الثَّرى من سِرِّه ما يُضْمِرُ
سِرٌّ نَباتٍ حُسْنُهُ إعْلاَنُهُ إذا سِوَاهُ زَانَهُ كِتْمَانُهُ
فيهِ ضُروبٌ لِنَبَاتِ الغَضْ يَحْكِي لِبَاسَ الجُنْدِ يَوْمَ العَرْضِ[٢]
مِن نرجِسٍ أبيضَ كالثُّغُورِ كأنَّه مَخَانِقُ الكَافُورِ[٣]
ورَوْضَةٍ تُزْهِرُ من بَنَفْسَجِ كأنَّها أَرْضٌ من الفَيْرُوزَجِ
قَدْ لَبِسَتْ غِلاَلَةً زَرْقَاءَ وكَايَدَتْ بِلَوْنِهَا السَّمَاءَ[٤]
يَضْحَكُ مِنْها زَهَرُ الشَّقِيقِ كأنَّه مَدَاهِنُ العَقِيقِ
مُضَمَّنات قِطَعًا من السَّبَجْ قد أَشْرَقَتْ من احمرَارٍ ودَعَجْ[٥]
كأنَّما المُحْمَرُّ في المُسْوَدِّ منهُ إذا لاَحَ عُيونُ الرُّمْدِ
وارْمِ بِعَيْنَيْكَ إلى البَهَارِ فإنَّهُ من أَحْسَنِ الأَزْهَارِ[٦]
كأنَّهُ مَدَاهِنٌ من عَسْجَدِ قد سُمِّرَتْ في قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ[٧]
فانْهَضْ إلى اللَّهْوِ ولا تَخَلَّفِ فلَسْتَ في ذلكَ بالمُعَنَّفِ
واشْرَبْ عُقَارًا طَالَ فِينَا كَونُهَا يَصْفَرُّ مِنْ خَوْفِ المِزَاجِ لَوْنُها[٨]
دونَكَ هذِي صِفَةُ الزَّمَانِ مَشْروحةً في أَحْسَنِ التِّبْيانِ!
وارْضَ بِتَقْلِيدِيَ فيمَا قُلْتُهُ فإنَّني أَدْرَى بما وَصَفْتُهُ

---

(١) السّبج: خرزٌ أسود منظوم.
(٢) فيه ضروب لنبات الغض: لعله يريد للنبات الغضّ، والضّروب: الأنواع والعرض: الاستعراض والزّينة.
(٣) الكافور: شجرٌ من الفصيلة الغارية، تستخرج منه مادة عطرية، ويريد الشاعر هنا زهرُه الذي يشبه زهر الأقحوان، والمخانق: القلائد من زهر الكافور.
(٤) كايدت: ماثلت، أو خادعت.
(٥) الدّعج: اشتداد سواد العين وبياضها، مع اتساع العين.
(٦) إرْمِ: اقصد، فعل أمر من رمى يرمي، والبهار: نباتٌ طيّب الرائحة.
(٧) العسجد: الذّهب، والزّبرجد: حجر كريم يشبه الزمرّد.
(٨) العقار: الخمر، وكونها: وجودها، يريد خمرًا معتّقة.

الباب الرابع
من القسم الثالث من الفن الأول
في ذكر مواسم الأمم وأعيادها، وأسباب اتخاذهم لها، وما قيل في ذلك

والذي أُورِدُه في هذا الباب، هو مما وقفتُ عليه أثناء مطالعتي للكتب الموضوعة فيه، ونقلته منها لمّا تعذر عليّ مَنْ أتلقاه مِنْ فِيهِ. وضمنته أعياد المسلمين، والفُرْس والنصارى، واليهود.

١ ـ ذكر الأعياد الإسلامية

والأعياد الإسلامية التي وردت بها الشريعة اثنان: عيد الفطر، وعيد الأضحى.

والسبب في اتخاذهما، ما رُوي عن رسول الله ﷺ: «أنه قَدِم المدينةَ، ولأهلها يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان؟ فقالوا: كنّا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: إن الله عزّ وجلّ قد بدّلكم خيرًا منهما، يوم الفطر، ويوم الأضحى»، فأوّل ما بدىء به من العيدين عيد الفطر، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة، وفيها كان عيد الأضحى.

وعيد ابتدعته الشِّيعة، وسمّوه عيد الغَدِير، وسبب اتّخاذهم له مؤاخاة النبيّ ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوم غَدِير خُمٍّ. والغدير على ثلاثة أيام[1] من الجُحْفة[2] بسُرَّةِ الطَّريق[3]، قالوا: وهذا الغدير تَصُبُّ فيه عين، وحوله شجر كثيرٌ ملتفٌ بعضها ببعض. وبين الغدير والعين مسجدٌ لرسول الله ﷺ واليوم الذي ابتدعوا فيه هذا العيد هو الثامن عشر من ذي الحجّة؛ لأن المؤاخاة كانت فيه في سنة عشرة من الهجرة، وهي حجّة الوداع، وهم يُحْيون ليلتها بالصلاة، ويصلون في صبيحتها ركعتين قبل الزوال، وشِعارُهم فيه لبس الجديد، وعتق الرّقاب، وبرّ الأجانب، والذبائح.

---

(١) في صبح الأعشى «٢/ ٤٤٥» ثلاثة أميال، وفي المعجم: بينه وبين الجُحفة ميلان.

(٢) الجحفة: كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل، وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمرّوا على المدينة. «انظر معجم البلدان ٢/ ١١١».

(٣) سُرّة الطريق: وسطها، وفي صبح الأعشى «يسرة الطريق ٢/ ٤٤٥».

وأوّل من أحدثه معز الدّولة أبو الحسن عليّ بن بويه[١]، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره في سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة.

ولما ابتدع الشيعة هذا العيد واتّخذوه من سُنَنهم، عمل عوامُّ السُّنَّة يومَ سرورٍ نظير عيد الشيعة في سنة تسع وثمانين وثلاثمائة. وجعلوه بعد عيد الشيعة بثمانية أيام، وقالوا: هذا يوم دخول رسول الله ﷺ الغار هو وأبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، وأظهروا في هذا اليوم الزينةَ، ونصبَ القِبَابِ، وإيقادَ النيران.

٢ ـ ذكر أعياد الفُرس

وأعياد الفُرس كثيرة جدًّا، وقد صنّف عليّ بن حمزة الأصفهانيّ[٢] فيها كتابًا مستقلًّا ذكر فيه أعيادهم، وسبب اتّخاذهم لها، وسُنَنَ ملوكهم فيها. وقد رأيتُ أن أقتصر على المشهور منها، وهي ثلاثة أعياد: النَّيْرُوزُ، والمَهْرَجانُ، والسَّدَقُ.

١ ـ فأمّا النَّيْروز، فهو أعظم أعيادهم وأجَلُّها. يقال: إنّ أوّل من اتّخذه جمشيد أحد ملوك الفرس الأُوَل. ويقال: فيه جمشاد، ومعنى جم القمر، وشاد الشعاع والضياء؛ وسبب اتّخاذهم لهذا العيد أن طهومرت لما هلك، ملك بعده جمشاد، فسمّي اليوم الذي ملك فيه نُوروز، أي اليوم الجديد.

ومن الفرس من يزعم أن النَّيْرُوز اليومُ الذي خلق الله عزّ وجلّ فيه النورَ، وأنّه كان مُعَظَّمَ القدر عند جمشاد. وبعضهم يزعم أنه أوّل الزمان الذي ابتدأ فيه الفلك بالدوران.

ومدّته عندهم ستة أيام، أوّلها اليوم الأوّل من شهر أفريدون ماه، الذي هو أوّل شهور سنتهم. ويسمّون اليوم السادس النّوروزَ الكبير؛ لأن الأكاسرة كانوا يقضُون في الأيام الخمسة حوائج الناس ثم ينتقلون إلى مجالس أُنسهم مع خواصِّهم.

وحكى ابن المُقَفَّع أنه كان من عادتهم فيه أن يأتي الملِكَ من الليل رجلٌ جميلُ الوجه، قد أُرْصد لما يفعله، فيقف على الباب حتى يُصْبِح، فإذا أصبح دخل على الملك من غير استئذان؛ فإذا رآه الملك، يقول له: من أنت؟ ومن أين أقبلتَ؟

---

(١) هو معزّ الدولة أبو الحسن عليّ بن بويه «عماد الدولة» أوّل من لقّب بالملك من حكام الدّولة البويهيّة. «انظر صبح الأعشى ٥/ ٤١٥».

(٢) لعلّه حمزة بن الحسن الأصفهاني، المؤرخ الأديب، وهو الذي صنف لعضد الدولة ابن بويه كتاب الخصائص والموازنة بين العربية والفارسية. «انظر فهرس الأعلام ٢/ ٢٧٧».

وأين تريد؟ وما اسمك؟ ولأيّ شيء وردتَ؟ وما معك؟ فيقول: أنا المنصور، واسمي المبارك، ومن قِبَل الله أقبلتُ، والملكَ السعيدَ أردتُ، وبالهناء[١] والسلامة وردتُ، ومعي السنة الجديدة. ثم يجلس، ويدخل بعده رجل معه طبق من فضّة، وفيه حنطة، وشعير، وجُلْبَانٌ[٢]، وحِمَّصٌ، وسمسم، وأرز (من كل واحد سبع سنابل وتسع حبّات)، وقطعة سكر، ودينار ودرهم جديدان؛ فيضع الطبق بين يدي الملك. ثم تدخل عليه الهدايا، ويكون أوّل من يدخل عليه وزيره، ثم صاحب الخراج[٣]، ثم صاحب المَعُونَة[٤]، ثم الناس على طبقاتهم ومراتبهم. ثم يقدَّم للملك رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب، موضوع في سَلَّةٍ، فيأكل منه ويُطْعِم من حضره؛ ثم يقول: هذا يوم جديد، من شهر جديد، من عام جديد، من زمان جديد، يحتاج أن نجدّد فيه ما أخلق[٥] من الزمانُ، وأحَقُّ الناس بالفضل والإحسان الرأسُ لفضله على سائر الأعضاء. ثم يخلع على وجوه دولته ويصلهم[٦] ويفرّق فيهم ما حُمِل إليه من الهدايا.

وكانت عادةُ عوامّ الفرس فيه رفعَ النار في ليلته، ورشَّ الماء في صبيحته، وفي ذلك يقول المعوج: [من البسيط]

كيف ابْتهاجُكَ بالنَّيْرُوزِ يا سكَنِي؟ وكُلُّ ما فيه يَحْكِينِي وأحْكِيهِ!
فنارُه كلهيبِ النار في كَبِدِي! وماؤه كتَوَالِي عَبْرَتِي فِيهِ!

وقال آخر: [من مجزوء الرّمل]

نَوْرَزَ النَّاسُ ونَوْرَزْ تُ، ولَكِنْ بدموعي!
وذَكَتْ نَارُهُمُ، والنَّـ ـارُ ما بينَ ضُلوعِي!

٢ ـ وأما المهرجان، فوقوعه في السادس والعشرين من تشرين الأوّل من شهور السُّرْيان، وفي السادس عشر من مهرماه من شهور الفرس.

---

(١) لا يوجد هذا المصدر في القاموس واللّسان بهذا المعنى، والمصدر الهنء والتهنئة. إلّا أن العامة جمعت بينه وبين الشفاء فتقول: بالهناء والشّفاء.
(٢) الجُلبان: حبٌّ يشبه حبّ الماش، وهو حبٌّ كالكرسنّة يؤكل مطبوخًا.
(٣) الخراج: الضريبة أو الجزية أو المال المفروض على الأرض وغلّتها.
(٤) المعونة: العون والمساعدة. (٥) أخلق: أصابه البلى.
(٦) يصلهم: أي يهبهم العطايا والصّلات.

وهذا الأوان وسط زمان الخريف، وفيه يقول بعض الشعراء: [من الوافر]

أُحِبُّ المَهْرَجانَ لأَنَّ فيه سُرُورًا للملوك ذَوِي السَّنَاءِ[١]

وبَابًا للمصير إلى أَوَانٍ تُفَتَّحُ فيه أبوابُ السَّماءِ

وهو ستّة أيّام، ويسمّى اليوم السادس المهرجان الأكبر. قال المسعوديّ: وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم، أنهم كانوا يسمّون شهورهم بأسماء ملوكهم. وكان لهم ملك يسمّى مهر، يسير فيهم بالعنف والعسف؛ فمات في نصف الشهر الذي يسمونه مهرماه، فسمّي ذلك اليوم مهرجان. وتفسيره «نفس مهر ذهبت» وهذه لغة الفرس الأُوَل، وزعم آخرون أن «مهر» بالفارسيّة حِفَاظ و «جان» الروح.

وقد نظم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر[٢] ذلك، فقال: [من المتقارب]

إذا ما تَحَقَّقَ بالمَهَرَجَا نِ مَنْ لَيس يَعْرِفُ معناهُ، غَاظَا

ومَعْنَاهُ أن غَلَبَ الفُرْسُ فِيهِ فَسَمَّوْهُ للرُّوحِ حَقًّا حِفَاظَا

ويقال: إنه إنما عُمِلَ في عهد أفريدون الملك، وأن معنى هذا الاسم «إدراك الثأر».

وسبب اتّخاذهم له، أن بيوراسف (وهو الضحاك)، ويقال له أزدهاق ذو الحيَّتَيْنِ والأفواه الثلاثة، والأعين الستّة، الدّاهِي الخبيث المتمرّد، لما قتل جمشاد، وملك بعده، غيّر دين المجوسية. وجاء إبليس في صورة خادم، فقبّل منكبيه، فنبت فيهما حيّتان، فكان يُطْعِمهما أدمغة الناس، فأجحف[٣] ذلك بالرعيّة، فخرج رجل بأصبهان، يقال له كابي، ويقال فيه كابيان، ودعا الناس إلى قتاله، فاجتمع له خلق كثير. فشخص الضحاك لقتاله، فهاب كثرةَ جمعه وفرّ منهم، فاجتمع الناس على كابي ليملكوه عليهم، فأبى ذلك وقال: ما أنا من أهل المُلك، وأخرج صبيًّا من ولد جمشاد، يسمّى أفريدون وملّكه، فأطاعه الناس فيه وملّكوه عليهم.

---

(١) السّناء: العلو والارتفاع.

(٢) هو عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر الخزاعي، أبو أحمد ويعرف «بابن طاهر» أمير من الأدباء الشعراء، وُلِّيَ شرطة بغداد وتوفي فيها سنة ٩١٣ م، له تصانيف عدّة، منها الإشارة في أخبار الشعراء. «فهرس الأعلام ٤/ ١٩٥».

(٣) أجحف: اشتدّ بهم الضّرر.

وخرج أفريدون في طلب الضحاك ليأخذ ثأر جدّه فظفر به، وجعل ذلك اليوم عيدًا، وسمّاه المهرجان. ويقال: إن المهرجان هو اليوم الذي عقد فيه التاج على رأس أردشير بن بابك، أوّل ملوك الفرس الساسانيّة[١].

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر يفضل المهرجان على النيروز: [من الطويل]

أخَا الفُرْسِ إنّ الفُرْسَ تَعْلَمُ أنّه لأَطْيَبُ من نَيْرُوزِهَا مَهْرجَانُهَا
لإدْبارِ أيّام يَغُمُّ هواؤُهَا وإقبالِ أيّام يَسُرُّ زَمَانُها

وكان مذهب الفرس فيه أن يَدَّهِنَ ملوكُهم بدُهن البان[٢] تبرُّكًا، وكذلك عوامهم، وأن يلبس القَصَبَ والوَشْيَ[٣]، ويتوجّ بتاج عليه صورة الشمس وحجلتها[٤] الدّائرة عليها، ويكون أوّل من يدخل عليه المُوبَذَان[٥] بطبق فيه أُتْرُجَّةٌ[٦]، وقطعة سُكَّر، ونَبْق[٧]، وسَفَرْجَل، وعُنَّاب، وتُفّاح، وعُنْقُودُ عنب أبيض، وسبعُ طاقات آسٍ[٨] قد زَمْزم[٩]، ثم يدخل الناس على طبقاتهم بمثل ذلك.

وكان أردشير، وأنوشروان يأمران بإخراج ما في خزائنهم في المهرجان والنيروز من أنواع الملابس والفُرُشِ، فتُفَرَّقُ كلُّها في الناس على مراتبهم، ويقولون: إن الملوكَ تستغني عن كُسوة الصيف في الشتاء، وعن كُسوة الشتاء في الصّيف، وليس من أخلاقهم أن يَخْبؤوا كسوتهم في خزائنهم ويساووا العامّة في فعلها.

وزعم بعض أصحاب التاريخ أن النيروز عَمِلته الفُرْسُ قبل المهرجان بألفَيْ سنة وخمسِمائة سنة.

٢ ـ وأما السَّدَقُ[١٠]، فإنه يعمل في ليلة الحادي عشر من شهر بهمن ماه، ويسمّى هذا اليوم عندهم أبان روز، لأنّ لكل يوم من أيّام الشهر عندهم اسمًا.

---

(١) الساسانيّة: من عقب ساسان بن «أردشير بهمن» وهم الطبقة الرابعة من حكّام إيران يدعون «الأكاسرة». «انظر صبح الأعشى ٢/ ٤١٢».
(٢) البان: ضرب من الشجر، ليّن، ورقه كورق الصفصاف.
(٣) الوشي: نقش الثوب، أو نوعٌ من الثّياب الموشّاة.
(٤) الحجلة: القبّة.
(٥) الموبذان: كبير الكهنة.
(٦) الأترجة: ثمرة الأترج، وهو شجر وثمر من جنس الليمون تسمّيه العامة «الكبّاد».
(٧) النبق: دقيق يخرج من لبّ جذع النخلة، حلو، يستعمل في صنع النبيذ.
(٨) الآس: شجرٌ دائم الخضرة، أبيض الزّهر، بيضيّ الورق.
(٩) زمزم: جمعت أطرافه، والزمزمة: صوت، ورطنة.
(١٠) السّدق: احتفال توقد فيه النيران والشموع، وتقام الأفراح «عيد».

ويقال في سبب اتّخاذهم له: إن فراسياب لما ملك، سار إلى بلاد بابِلَ[١] وأكثر فيها الفساد، وخرَّب العمران، فخرج عليه دقّ بن طهماسب، وطرده عن مملكته إلى بلاد التُّرك. وكان ذلك في يوم أبان روز، فاتّخذ الفُرْسُ هذا اليوم عيدًا، وجعلوه ثالثًا ليوم النيروز، والمهرجان.

ويقال أيضًا في سبب اتّخاذهم له: إن الأب الأوّل، وهو عندهم كيومرت، لما كمل له مائة ولد، زوج الذكور بالإناث، وصنع لهم عُرْسًا أكثر فيه من إشعال النيران، فوافق ذلك الليلة المذكورة، واستسنّه الفُرْسُ بعده.

وهم يوقدون النيران بسائر الأدهان[٢]، ويزيدون في الوَلُوع بها، حتى إنهم يلقون فيها سائر الحيوانات.

وفي ذلك يقول ابن حجاج[٣] من أبيات يمدح بها عضد الدولة بن بويه: [من مخلّع البسيط]

مَـوْلَايَ يـا مَـنْ نَـدَاهُ يَـعْـدُو ... فَـفَـاتَ سَبْـتًـا ولَيْـسَ يُـلْحَـقْ[٤]

لَيْـلَتُـنـا حُـسْـنُـهَـا عَـجِـيـبٌ ... بـالقَـصْـفِ والعَـزْفِ قد تَـحَـقَّـقْ

لِنَـارِهَـا فـي الـسَّـمَـا لِسَـانٌ ... عـن نُـورِ ضَـوْءِ الـصَّبَاحِ يَـنْطِـقْ

والـجَـوُّ مـنـهـا قـد صـار جَـمْـرًا ... والـنجمُ منها قد كَادَ يُحْرِقْ[٥]

ودِجْـلَـةٌ أَضْـرَمَـتْ حَـرِيـقًـا ... بـأَلْفِ نَـارِ وأَلْفِ زَوْرَقْ

فـمـاؤُهـا كـلّهـا حَـمِـيـمٌ ... قَـدْ فَـارَ مـمـا غَـلَى وبَـقْـبَـقْ[٦]

---

(١) بابل مملكة مشهورة في التاريخ وبابل عاصمتها، قال ابن حوقل: هي أقدم أبنية العراق، وإليها يُنسب إقليم بابل، وكانت ملوك الكنعانيين يقيمون بها. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٣٣١».

(٢) الأدهان: جمع دهن، وهو مادة دسمة جامدة حيوانيّة ونباتيّة.

(٣) هو حسين بن أحمد، أبو عبد الله، شاعر فحل، من كتاب العصر البويهي تقدّم ذكره. «انظر فهرس الأعلام ٢/ ٢٣١».

(٤) النّدى: الكرم، والسَّبت من الخيل: الجواد الكثير العدو.

(٥) في البيت خللٌ عروضيّ، ولعلّ الصواب ليستقيم الوزن:

والـجـوّ مـنـهـا يـصـيـرُ جـمـرًا ... والـنـجـم مـنـهـا يـكـاد يـحـرق

(٦) الحميم: الحار، وبقبق: سمع صوت غليانه.

وقال أبو القاسم المطرّز[١]، في سَدَق عمله السلطان ملك شاه، أشعل فيه الشموع والنيران في السُّميْرِيَّات[٢] بدِجْلَةَ، وذلك في سنة أربع وثمانين وأربعمائة: [من البسيط]

وكُـلُّ نـارٍ عـلى الـعُـشَّـاقِ مُـضْـرَمَـةٌ ... مِن نـارِ قَلْبِيَ أو مـن لـيـلة الـسَّـدَقِ
نـارٌ تـجَـلَّـتْ بـهـا الـظَّـلْمَاءُ فاشـتَـبَـهَـتْ ... بِـسَـدْفَـة الـليـل فـيـهـا غُـرَّةُ الـفَـلَقِ![٣]
وزارَتِ الشَّمْسُ فيها الليلَ واصطلحا ... على الكواكب بعد الغَيْظِ والحَنَقِ
مدّتْ على الأرض بُسْطًا من جَوَاهِرِهَا ... مـا بـيـن مُـجْـتَـمِـعٍ وَارٍ ومُـفْـتَـرِقِ[٤]
مـثـل الـمَـصَـابـيـحِ إلَّا أَنَّـهـا نَـزَلَـتْ ... مـن الـسـمـاءِ بـلا رَجْـمٍ ولا حَـرَقِ[٥]
أعْـجِـبْ بـنـارٍ ورِضْـوَانٌ يُـسَـعِّـرُهَـا ... ومـالـكٌ قـائـم مـنـهـا عـلى فَـرَقِ![٦]
في مجلسٍ ضَحِكت روضُ الجِنَانِ له ... لـمـا جـلا ثَـغْـرُهُ عـن واضـحٍ يَـقَـقِ[٧]

٣ ـ ذكر أعياد النصارى القِبْط

وأعياد النصارى أربعة عشر عيدًا: سبعة يسمّونها كبارًا، وسبعة يسمّونها صغارًا. فأمّا الكبار:

١ ـ فمنها عيد البِشَارة، ويعنون بها بشارة غبريال، وهو عندهم جبريل عليه السلام على ما يزعمون أنه بشّر مريم ابنة عمران بميلاد عيسى عليهما السلام، وهم يعملونه في التاسع والعشرين من برمهات من شهورهم.

٢ ـ ومنها عيد الزيتونة، وهوعيد الشَّعانين، وتفسيره التسبيح، يعملونه في سابع أحد من صومهم. وسُنَّتهم فيه أن يخرجوا بِسَعَفِ النخل من الكنيسة، ويزعمون أنه يوم ركوب المسيح اليَعْفُور في القدس، وهو الحمار، ودخوله

(١) هو عبد الواحد بن محمد، أبو القاسم المطرّز شاعر بغدادي كثير الشعر، تقدّم ذكره. «انظر فهرس الأعلام ٤/ ١٧٧».
(٢) السّميريّات: أنواع من السُّفن.
(٣) السّدفة: الظلمة، والفلق: الصبح ينشق من ظلمة الليل.
(٤) وارٍ: مشتعل ومتقدٍ، حذفت «ياء واري» للتنوين.
(٥) الرّجم: الضرب، وهي مأخوذة من الشّهب التي ترجم بها الشياطين في الفضاء.
(٦) رضوان: خازن الجنّة، ومالك: خازن النار، والفرق: الخوف.
(٧) اليقق: شدّة البياض.

صِهْيَوْن[١] وهو راكب، والناس يسبّحون بين يديه، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

٣ ـ ومنها الفِصْحُ، وهو العيد الكبير عندهم، يقولون: إن المسيح قام فيه بعد الصَّلَبُوت[٢] بثلاثة أيام.

٤ ـ ومنها خميس الأربعين، ويسمّيه الشاميّون السُّلَّاق[٣]، وهو الثاني والأربعون من الفِطْر. يزعمون أن المسيح عليه السلام تَسَلَّق فيه من بين تلاميذه إلى السماء من بعد القيام، ووعدهم إرسال الفارقليط وهو روح القدس.

٥ ـ ومنها عيد الخميس، وهو العُنْصُرة يُعمل بعد خمسين يومًا من يوم القيام، يقولون: إن روح القدس حلّت بالتلاميذ، وتفرّقت عليهم ألسنة الناس، فتكلّموا بجميع الألسنة، وتوجه كل واحد منهم إلى بلاد لسانه الذي تكلّم به يدعوهم إلى دين المسيح.

٦ ـ ومنها الميلاد، وهو اليوم الذي وُلد فيه المسيح. يقولون: إنه ولد في يوم الاثنين فيجعلون عشيّة الأحد ليلة الميلاد، وهم يوقدون فيه المصابيح بالكنائس ويزيّنونها، ويعمل في التاسع والعشرين من كيهك من شهورهم.

٧ ـ ومنها الغطاس، ويعمل في الحادي عشر من طوبة من شهورهم. ويقولون: إن يحيى بن زكريا، وينعتونه بالمعمدان، غسل عيسى عليه السلام في بحيرة الأُرْدُنّ، ويزعمون أن عيسى عليه السلام لما خرج من الماء اتّصل به روح القدس على هيئة حمامة، والنصارى يغمسون أولادهم في الماء فيه، ووقته شديد البرد.

وأما الأعياد الصغار:

١ ـ فمنها الختان، ويعمل في سادس بؤونة، ويقولون: إن المسيح ختن في هذا اليوم، وهو الثامن من الميلاد.

---

(١) صهيون: قيل هي بيت المقدس، وقال ياقوت: موضع معروف بالبيت المقدس أو محلّة فيها كنيسة صهيون. «انظر معجم البلدان ٣/ ٤٣٦».

(٢) الصّلبوت: الصلب.

(٣) في الأصل: السُّلاقي، وفي القاموس: وكرّمان عيد للنصارى، وفي صبح الأعشى: «السُّلَّاق» بغير ياء على الصّواب «٢/ ٤٥٤».

٢ ـ ومنها الأربعون، وهو عند دخول الهيكل. يقولون: إن سمعان الكاهن دخل بعيسى عليه السلام مع أُمّه [الهيكل][١] وبارك عليه، ويعمل في ثامن أمشير من شهورهم.

٣ ـ ومنها خميس العهد، ويعمل قبل الفِصْح بثلاثة أيام، وسُنَّتهم فيه أن يأخذوا إناء ويملؤوه ماءً ويزمزموا[٢] عليه، ثم يغسل البطريك[٣] به أرجل سائر الناس. ويزعمون أن المسيح عليه السلام فعل مثل هذا بتلاميذه في مثل هذا اليوم، يعلّمهم التواضع، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفرّقوا، وأن يتواضع بعضهم لبعض. وعوامّ النصارى يسمّون هذا الخميس خميس العَدَس، وهم يطبخون فيه العدس المقشور على ألوان، ويسمّيه أهل الشام خميس الأرز، ومنها خميس البيض أيضًا، ويسمّيه أهل الأنْدَلُس خميس أبريل، وأبريل شهر من شهور الروم.

٤ ـ ومنها سَبْت النُور، وهو قبل الفِصح بيوم. يقولون: إن النور يظهر على مَقْبُرة المسيح في هذا اليوم، فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة التي بالقدس، وليس كذلك، بل هو من تخييلاتٍ فعلها أكابرهم ليستميلوا بها عقول أصاغرهم. وقيل: إنهم يعلقون القناديل في بيت المذبح، ويتحيّلون في إيصال النار إليها بأن يمدّوا على سائرها شريطًا من حديد في غاية الدقّة، يدهنونه بدُهْن البَلَسان[٤] ودهن الزَّنْبق[٥]، فإذا صلَّوْا، وحان وقت الزوال، فتحوا المذبح، فدخل الناس إليه، وقد أُشْعِلت فيه الشموع. ويتوصّل بعض القوم إلى أن يعلق بطرف الشريط الحديد النار، فتسري عليه، فتقِدُ القناديل واحدًا بعد واحد بسبب الدّهن.

٥ ـ ومنها حدّ الحُدُود، وهو بعد الفِصْح بثمانية أيّام، يعمل أوّل أحد بعد الفطر؛ لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم، وفيه يجدّدون الآلات، والأثاث، واللّباس، ويأخذون في المعاملات، والأُمور الدُّنيوية.

---

(١) ما بين قوسين زيادة من «صبح الأعشى ٢/ ٤٥٦».
(٢) يزمزموا: يرطنوا بكلماتٍ غير مفهومة.
(٣) البطريك: أو البطريرك: رئيس رؤساء الأساقفة عند النّصارى.
(٤) البلسان: شجر له زهرٌ أبيض صغير كهيئة العناقيد، ويستخرج من بعض أنواعه دهن عطر.
(٥) الزّنبق: نبات له هرٌ جميلٌ طيّب الرّائحة، ألوانه متعدّدة وأشهرها الأبيض، والزّنبق: دُهن الياسمين.

٦ ـ ومنها التجلّي، يقولون: إن المسيح عليه السلام تجلّى لتلاميذه بعد أن رُفِع، وتمنَّوْا عليه أن يُحْضِر لهم إيليا[١]، وموسى، فأحضرهما لهم في مصلّى بيت المقدس، ثم صعد، ويعمل في ثالث عشر مسرى من شهورهم.

٧ ـ وعيد الصّليب، وتزعم النصارى أن قسطنطين بن هيلاني انتقل عن اعتقاد اليونان إلى اعتقاد النصرانية، وبنى كنيسة قسطنطينية العظمى، وسائر كنائس الشام.

وسبب ذلك ـ على ما نقله المؤرّخون ـ أنه كان مجاورًا للبُرْجان[٢]، فضاق بهم ذَرْعًا من كثرة غاراتهم على بلاده، فهمّ أن يصانعهم، ويقرّر لهم عليه إتاوة[٣] في كل عام ليكفُّوا عنه. فرأى ليلة في المنام أن ملائكة نزلت من السماء ومعها أعلام عليها صلبان، فحاربت البُرْجان فهزموهم، فلما أصبح، عمل أعلامًا وصوّر فيها صلبانًا، ثم قاتل بها البرجان فهزمهم.

وقيل: إنه رأى في المنام صلبانًا من نور في السماء، وقائلًا يقول له: اعمل مثل هذا على رؤوس أعلامك فإنك تنتصر. فلما أصبح، أمر بعمل صلبان من ذهب على رؤوس أعلامه وقاتل بها فنُصِر، فأمر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم والدُّخول في دين النصرانية، وأن يقصّوا شعورهم، ويحلقوا لحاهم. وإنما فعل ذلك بهم لأن رسل عيسى عليه السلام كانوا قد وردوا على اليونان من قبلُ يأمرونهم بالتعبّد بدين النصرانية، فأعرضوا عنهم، ومَثَّلُوا بهم هذه المثلةَ[٤] نَكَالًا بهم، ففعلوا ذلك تأسّيًا بهم.

ولما تنصَّر قسطنطين، خرجت أمه هيلاني إلى الشام، فبنت الكنائس، وسارت إلى بيت المقدس، فطلبت الخشبة التي صلب عليها المسيح، على ما يزعمون، وكانت مدفونة في مزبلة، فأُخرجتْ منها، وفيها مواضع سبعة مسامير فلما حُمِلَتْ إليها، غلفتها بالذهب وحملتها إلى ابنها، واتّخذت يوم رؤيتها لها عيدًا.

قال المسعوديّ: وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من أيلول، ووافق ذلك سبع عشرة ليلة خلت من توت من شهور القبط، وكان من مولد عيسى إلى اليوم الذي وجدت فيه الخشبة ثلاثمائة وثمان وعشرون سنة.

---

(١) إيليّا: مار الياس عند الطوائف المسيحية.
(٢) البرجان: جنس من الرّوم. «القاموس ١/ ١٨٥، وانظر صبح الأعشى ٢/ ٤٥٧».
(٣) الإتاوة: الضريبة.
(٤) المثلة: العقوبة والتنكيل، والآفة.

وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار الروم في فنّ التاريخ، وهو في الجزء الثالث عشر من هذا الكتاب.

٤ ـ ذكر أعياد اليهود

وأعياد اليهود التي نطقت بها توراتهم خمسة:

١ ـ منها عيد رأس السنة: ويسمّونه رأس هيشا، أي عيد رأس الشهر، وهو أوّل يوم من تشرين. ينزل عندهم منزلة عيد الأضحية عندنا. ويقولون: إن الله عزّ وجلّ أمر إبراهيم بذبح إسحٰق ابنه عليهما السلام فيه، وفداه بذبح عظيم.

٢ ـ ومنها عيد صوماريا: ويسمّى الكبور، وهو عندهم الصوم العظيم الذي فرض عليهم، ويقتل من لم يصمه. ومدّة الصوم خمس وعشرون ساعة، يبدأ فيها قبل غروب الشمس في اليوم التاسع من شهر تشرين، ويختم بمضيّ ساعة بعد غروبها من اليوم العاشر. ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار، وهي عندهم تمام الأربعين الثالثة التي صام فيها موسى عليه السلام. ولا يجوز أن يقع عندهم في يوم الأحد، ولا يوم الثلاثاء، ولا في يوم الجمعة. ويزعمون أن الله تعالى يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم، إلا الزنا بالمُحْصَنات، وظلم الرجل أخاه، وجحد ربوبية الله تعالى.

٣ ـ ومنها عيد المِظَلَّة: وهو ثمانية[1] أيام، أوّلها الخامس عشر من تشرين، وكلها أعياد، واليوم الأخير منها يسمّى عرابًا[2]، وتفسيره شجر الخلاف، وهو أيضًا حجّ لهم، وهم يجلسون في هذه الأيام تحت ظلال سعف النخل الأخضر، وأغصان الزيتون والخلاف[3]، وسائر الشجر الذي لا ينتشر ورقه على الأرض، ويزعمون أن ذلك تذكار منهم لإظلال الله تعالى إيّاهم في التّيه[4] بالغمام.

٤ ـ ومنها عيد الفطير: ويسمّونه الفِصْح، ويكون في الخامس عشر من نَيْسَان، وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير، وينظّفون بيوتهم فيها من خبز الخمير؛ لأنها عندهم الأيام التي خلص الله تعالى فيها بني إسرائيل من فرعون وأغرقه، فخرجوا إلى التّيه، وجعلوا يأكلون اللحم، والخبز الفطير، وهم بذلك فَرِحُون، وفي آخر هذه الأيام غرق فرعون.

---

(١) في صبح الأعشى: سبعة أيام «٢/ ٤٦٤».

(٢) في صبح الأعشى: عرايا «٢/ ٤٦٤». (٣) الخلاف: شجر الصفصاف.

(٤) التّيه: الذّهاب في الأرض تحيّرًا، الضّلال فيها.

٥ ـ ومنها عيد الأسابيع: وهي الأسابيع التي فرضت عليهم فيها الفرائض، وكمل فيها الدّين. ويسمّى عيد العنصرة، وعيد الخطاب. ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع. يقولون: إنه اليوم الذي خاطب الله تعالى فيه بني إسرائيل من طور سينا[١]، وإن من جملة ما خُوطبوا به العشر كلمات، وهي وصايا تتضمن أمرًا ونهيًا؛ وهو: من حجوجهم، وحجوجهم ثلاثة: الأسابيع، والفطير، والمظلّة؛ وهم يعظّمونه ويأكلون فيه القطائف ويجعلونها بدلًا عن المنّ[٢] الذي أُنزل عليهم في هذا اليوم، على ما يزعمون، واتّخاذهم لهذا العيد في اليوم السادس من سيوان.

٦ ـ وعيد الفوز: وهو عيد أحدثوه، ويسمّونه الفوريم، وذكروا في سبب اتخاذهم له أن بختنصر[٣] لما أجلى من كان ببيت المقدس من اليهود إلى عراق العجم، أسكنهم مدينة جَيّ، وهي إحدى مدينتي أصفَهَان، فلما ملك أردشير بن بابك، سماه اليهود بالعبرانية أجشادوس، وكان له وزير يسمّونه بلغتهم هيمون، ولليهود يومئذ حَبْرٌ[٤] يسمّى بلغتهم مردوخاي، فبلغ أردشير أن له ابنة عَمّ جميلة الصورة من أحسن أهل زمانها، فطلب تزويجها منه، فأجابه إلى ذلك، فتزوّجها، وحظيت عنده، وصار مردوخاي قريبًا منه. فأراد هيمون الوزير إصغاره حسدًا له، وعزم على إهلاك طائفة اليهود التي في جميع مملكة أردشير، فرتّب مع نوّاب الملك في سائر الأعمال أن يقتل كلُّ واحد منهم من يعلمه من اليهود، وعيّن لهم يومًا وهو النصف من آذار، وإنما خصّ هذا اليوم دون غيره؛ لأن اليهود يزعمون أن موسى عليه السلام وُلد فيه، وتوفّي فيه. وأراد بذلك المبالغة في نكايتهم ليضاعف الحزن عليهم بهلاكهم، وبموت موسى عليه السلام.

فبلغ مردوخاي ذلك، فأرسل إلى ابنة عمه يُعْلِمُها بما بلغه، ويحضّها على إعمال الحيلة في خلاصهم. فأعلمت الملك بالحال، وذكرت له أن الوزير إنما حمله على ذلك الحسد، لقرب مردوخاي منه، فأمر بقتل هيمون الوزير، وأن يكتب أمان لليهود؛ فاتّخذوه عيدًا، واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام.

---

(١) طور سينا: قال الليث: طور سيناء جبل، وقال أبو إسحٰق: قيل: إن سيناء حجارة والله أعلم، اسم المكان، وهو اسم جبل قرب أيلة وعنده بليد فتح في زمن النبي. «انظر معجم البلدان ٤/ ٤٨».

(٢) المنّ: طلٌّ ينزل من السّماء على شجر أو حجر ينعقد ويجفّ، وهو حلوٌ يؤكل.

(٣) بختنصر: أحد ملوك الطبقة الرابعة من الفرس، أقام ببابل سبعًا وخمسين سنة وشهرًا إلى أن مات. «انظر صبح الأعشى ٣/ ٤٧٥».

(٤) الحبر: رئيس الكهنة عند اليهود.

وهذا العيد عندهم عيد سرور، ولهو، وخَلَاعة، وهدايا يهديها بعضهم لبعض، ويصوّرون فيه من الورق صورة هيمون، ويملؤون بطن الصورة نخالة ويلقونها في النار حتى تحترق.

٧ ـ وعيد الحنكة، وهو أيضًا مما أحدثوه، وهو ثمانية أيام، أوّلها ليلة الخامس والعشرين من كسلا، وهم يوقدون في الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سرجًا، وفي الثانية سراجين، ويَضْعُف ذلك في كل ليلة إلى ثماني ليال، فيكون في الثامنة ثمانية سُرُج.

وسبب اتخاذهم لهذا العيد، أن بعض الجبابرة تغلَّب على البيت المقدّس وقتل من كان فيه من بني إسرائيل، وافتضّ أبكارهم[١]، فوثب عليه أولاد كاهنهم، وكانوا ثمانية، فقتله أصغرهم؛ فطلب اليهود زيتًا لوقود الهيكل[٢] فلم يجدوا إلا يسيرًا، وزعوه على عدد ما يوقدونه من السرج على أبوابهم في كل ليلة إلى ثمان ليال، فاتّخذوا هذه الأيام عيدًا وسمّوه الحنكة، وهو مشتقّ من التنظيف؛ لأنهم نظفوا فيها الهيكل من أقذار شيعة الجبار.

---

(١) افتضّ أبكارهم: أي استباح حرمات بناتهم، والبكر: الفتاة التي لم تتزوّج بعد.
(٢) الهيكل: الكنيسة، أو الموضع الذي تقدّم فيه الذّبائح والقرابين.

القسم الرابع
من الفن الأوّل
في الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون، والغُدْران

وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول
من هذا القسم

١ - في مبدأ خلق الأرض

قال الله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: الآية ٦١].

والأرض سبع، كما أن السمٰوات سبع. والدّليل على ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلاق: الآية ١٢].

واختلف فيها هل هي سبع متطابقات بعضها فوق بعض، أو سبع متجاورات؟ فذهب قوم إلى أن الله تعالى خلق سبْعَ سمٰوات متطابقات متعاليات، وسَبْعَ أرضين متطابقات متسافلات؛ وبين كل أرض وأرض، كما بين كل سماء وسماء، خمسمائة عام. وفُسر بهذا قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠]، أي كانت سماء واحدة ففتقناهما سبعًا.

قيل: ولكل أرض أهل وسُكّان مختلفو الصور والهيئات، ولكل أرض اسمٌ خاص.

وذهب قوم إلى أنها سبع متجاورات متفرّقات لا متطابقات، فجعلوا الصّين أرضًا، وخراسان أرضًا، والسّند والهند أرضًا، وفارس والجبال والعراق وجزيرة العرب أرضًا، والجزيرة والشام وبلاد إرْمينِيَّة أرضًا، ومصر وإفْريقيَّة أرضًا،

وجزيرة الأندلس وما جاورها من بلاد الجلالِقة[١] والأنْكَبُرْدَة[٢] وسائر طوائف الروم أرضًا.

ويقال: إنها كانت على ماء، والماء على صخرة، والصخرة على سَنَام ثور، والثور على كمكم[٣]، والكمكم على ظهر حوت، والحوت على الماء، والماء على الريح، والريح على حجاب ظلمة، والظلمة على الثرى، وإلى الثرى انقطع علم المخلوقين.

قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ [طه: الآية ٦].

وزعم آخرون أن تحت الأرض السابعة صخرةً، وتحت الصخرة الحوت، وتحت الحوت الماء، وتحت الماء الظلمة، وتحت الظلمة الهواء، وتحت الهواء الثرى.

وقد تقدّم في الباب الأوّل من هذا الكتاب أن الأرض مخلوقة من الزَّبَد، فلا فائدة في تكراره.

الباب الثاني
من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ - في تفصيل أسماء الأرضين وصفاتها، في الاتّساع، والاستواء، والبعد والغلظ، والصلابة، والسهولة، والحزونة[٤]، والارتفاع، والانخفاض، وغير ذلك

قال الثعالبيّ في كتابه المُتَرْجَم بـ «فقه اللغة» وأسنده إلى أئمّة اللغة:

(١) الجلالقة: جليقية هي غاليسيا، والجلالقة ينسبون إليها، وقد غزا ملكهم ابن الأدفونش بلاد الأندلس. «انظر صبح الأعشى ٥/ ٢٤٩ و٣٩١».
(٢) الأنكبردة: لعلهم الأنبردية، وهم طائفة مشهورة من الفرنج، قال في تقويم البلدان: وهي ناحية من الأرض الكبيرة وتحيط بها الجبال إلى حدّ جنوة. «انظر صبح الأعشى ٥/ ٣٩٢».
(٣) الكمكم: كذا بالأصل، وفي اللّسان مادة كمم: الكمكام: أي الرجل الغليظ الكثير اللحم.
(٤) الحزونة: الأرض الغليظة.

إذا اتَّسعت الأرض ولم يتخلّلها شجر أو خَمَر[١]، فهي الفَضَاءُ والبَرَازُ والبَرَاحُ، ثم الصَّحْراءُ، والعَرَاءُ، ثم الرَّهَاءُ والجَهْرَاءُ.

فإذا كانت مستوية مع الاتّساع، فهي الخَبْتُ والجَدَدُ، ثم الصَّحْصَحُ والصَّرْدَحُ، ثم القَاعُ والقَرْقَرُ، ثم القَرِقُ والصَّفْصَفُ.

فإذا كانت مع الاستواء والاتّساع بعيدة الأكْنَاف والأطراف، فهي السَّهْب والخَرْقُ، ثم السَّبْسَبُ والسَّمْلَقُ والمَلَق.

فإذا كانت مع الاتّساع والاستواء والبُعْد لا ماء فيها، فهي الفَلَاةُ والمَهْمَهُ، ثم التَّنُوفَةُ والفَيْفَاءُ، ثم النَّفْنَفُ والصَّرْمَاءُ.

فإذا كانت مع هذه الصفات لا يهتدى فيها لطريق، فهي اليَهْمَاءُ والغَطْشاء.

فإذا كانت تُضِلُّ سالكَها، فهي المُضِلَّةُ والمَتِيهَةُ.

فإذا لم يكن بها أعلام ولا معالم، فهي المَجْهَلُ والهَوْجَلُ.

فإذا لم يكن بها أثر، فهي الغُفْلُ.

فإذا كانت قَفْرَاءُ، فهي القِيُّ.

فإذا كانت تُبيدُ[٢] سالكَها، فهي البَيْداءُ، والمَفَازَةُ[٣] كنايةٌ عنها.

فإذا لم يكن فيها شيء من النَّبْت، فهي المَرْتُ والمَلِيعُ.

فإذا لم يكن فيها شيء، فهي المَرَوْزَاةُ والسُّبْرُوتُ والبَلْقَعُ.

فإذا كانت الأرض غليظةً صُلْبَةً، فهي الجَبُوبُ، ثم الجَلَدُ، ثم العَزَازُ، ثم الصَّيْداء، ثم الجَذْجَدُ.

فإذا كانت صُلْبَةً يابسة من غير حصًى، فهي الكَلَدُ، ثم الجَعْجَاعُ.

فإذا كانت غليظة ذات حجارة ورمل، فهي البُرْقَةُ والأَبْرَق.

فإذا كانت ذات حصًى، فهي المَحْصَاةُ والمَحْصَبةُ.

فإذا كانت كثيرة الحصى، فهي الأَمْعَزُ والمَعْزَاءُ.

---

(١) الخَمَرُ: ما يواري الشيء من شجر أو بناءٍ أو جبل أو نحوه.
(٢) تبيد: تهلِك وتفني.
(٣) المفازة: من الأضداد، وهي الأرض المهلكة، وسمّيت مفازة على طريق التفاؤل بالنّجاة.

فإذا اشتملت عليها كلّها حجارة سودٌ، فهي الحرَّة واللَّابَةُ.

فإذا كانت ذات حجارة كأنها السكاكينُ، فهي الحَزِيزُ.

فإذا كانت الأرض مطمئنة[١]، فهي الجَوْفُ والغَائِطُ، ثم الهَجْلُ والهَضْمُ.

فإذا كانت مرتفعة، فهي النَّجْد والنَّشْزُ.

فإذا جمعت الأرض الارتفاع والصَّلَابة والغلَظ، فهي المَتْنُ والصَّمْدُ، ثم القُفُّ والفَدْفَدُ والقَرْدَدُ.

فإذا كان ارتفاعها مع اتّساع، فهي اليَفَاعُ.

فإذا كان طولها في السماء مثل البيت، وعرض ظهرها نحو عشرة أذرع، فهي التَّلُّ، وأطول وأعرض منها الرَّبْوَةُ والرَّابِيَةُ، ثم الأَكَمَةُ، ثم الزُّبْيَةُ، وهي التي لا يعلوها الماء. وبها ضُرب المثل في قولهم: «بلغ السيل الزُّبى»[٢]، ثم النَّجْوَةُ، وهي المكان الذي تظن أنه نجاؤك، ثم الصَّمَّانُ، وهي الأرض الغليظة دون الجبل.

فإذا ارتفعت عن موضع السيل وانحدرت عن غِلَظِ الجَبَل، فهي الخَيْفُ.

فإذا كانت الأرض ليّنة سهلة من غير رَمْل، فهي الرَّقَاقُ والبَرْثُ، ثم المَيْثَاءُ والدَّمِثَةُ.

فإذا كانت طيّبة التربة كريمة المَنْبِت بعيدة عن الأَحْسَاء[٣] والنُّزُور[٤]، فهي العَذَاةُ.

فإذا كانت مخيلة[٥] للنبت والخير، فهي الأَرِيضَةُ.

فإذا كانت ظاهرة لا شجر فيها ولا شيء يختلط بها، فهي القَرَاحُ والقِرْوَاحُ.

فإذا كانت مهيّأة للزراعة، فهي الحَقْلُ والمَشَارَةُ والدَّبْرَةُ.

[فإذا لم تهيأ للزراعة، فهي بُوْرٌ][٦].

---

(١) الأرض المطمئنة: التي فيها انخفاض وهبوط.

(٢) الزُّبى: حُفَر للأسد في المكان العالي، «تقدّم المثل وشرحه».

(٣) الأحساء: هو الماء الذي تنشفه الأرض من الرّمل، فإذا صار إلى صلابة أمسكته فتحفر العرب الرمل عنه، وتستخرجه.

(٤) النّزور: ما يتحلب أو يسيل من الماء على الأرض.

(٥) المخيلة: الظنّ.

(٦) الزيادة من فقه اللغة للثعالبي ص ٢٩٣، ٢٩٤، دار الكتب لعلميّة.

فإذا لم يصبها المطر، فهي الفَلُّ والجُرُزُ.

فإذا كانت غير ممطورة وهي بين أرضين ممطورتين، فهي الخَطِيطة.

فإذا كانت ذات ندًى ووَخَامَة[١]، فهي الغَمِقَةُ.

فإذا كانت ذات سِباخ[٢]، فهي السَّبْخَةُ.

فإذا كانت ذات وباء، فهي الوَبِئَةُ والوَبِيئَةُ.

فإذا كانت كثيرة الشجر، فهي الشَّجْرَاءُ والشَّجِرَةُ.

فإذا كانت ذات حَيّات، فهي المُحَوَّاةُ[٣].

فإذا كانت ذات سباع أو ذئاب، فهي المَسْبَعَةُ والمَذْأَبَةُ.

٢ ـ ذكر تفصيل أسماء التراب وصفاته

قال الثعالبي رحمه الله تعالى:

الصَّعِيد، تراب وجه الأرض.

والبَوْغَاءُ، والدَّقْعَاءُ، التراب الرّخو الرقيق الذي كأنه ذَرِيرَةٌ[٤].

والثَّرى، التراب النَّدِيّ: وهو كل تراب لا يصير طينًا لَازِبًا[٥] إذا بُلَّ.

المُورُ، التراب الذي تَمُورُ[٦] به الريح.

الهَبَاءُ، التراب الذي تُطَيِّره الريح فتراه على وجوه الناس وجلودهم وثيابهم [يَلْزَق لُزُوقًا][٧].

[والهَابِي، الذي دقَّ وارتفع][٨].

السَّافِياءُ، التراب الذي يذهب في الأرض مع الريح.

النَّبِيثَةُ، التراب الذي يُخْرَجُ من البئر عند حفرها.

---

(١) الوخامة: أي الأرض الوخمة التي لا ينجح كلؤها ولا توافق ساكنها.

(٢) السّباخ: أي السبخة وهي أرض ذاتُ ملح ونزّ، لا تكاد تنبت.

(٣) كذا ضبط في فقه اللغة للثعالبي ص ٢٩٥.

(٤) الذريرة: فتاة من قصب الطيب يجاءُ به من الهند، أو هي ما أُنتج من ذلك القصب. «انظر اللّسان مادة ذرر».

(٥) اللّازب: من الطين: إذا لصق وتماسك. (٦) تمور: تسري به الريح وتحرّكه.

(٧) الزيادة من فقه اللغة للثعالبي ص ٢٩٦.

(٨) الزيادة من فقه اللغة للثعالبي ص ٢٩٦ «عن الكسائي».

الرَّاهِطَاءُ والدَّامَّاء، التراب الذي يُخرجه اليربوع[١] من جُحْرِهِ ويجمعه.

الجُرْثُومَةُ، التراب الذي يجمعه النمل عند قريته.

العَفَاءُ، التراب الذي يُعَفِّي الآثار، وكذلك العَفَرُ.

الرَّغَامُ، التراب المختلط بالرمل.

السَّمَادُ، التراب الذي يُسَمَّدُ به النبات، فإذا كان مع السِّرْقين[٢]، فهو الدَّمَالُ.

٣ ـ ذكر تفصيل أسماء الغبار وأوصافه

النَّقْعُ والعَكُوبُ، الغبار الذي يَثُور من حوافر الخيل وأَخْفاف الإبل.

العَجَاج، الغبار الذي تُثيره الريح.

الرَّهَجُ والقَسْطَلُ، غبار الحرب.

الخَيْضَعَةُ، غبار المَعْرَكَةِ.

العِثْيَرُ، غبار الأقدام.

المَنِينُ ما تقطَّع منه.

٤ ـ ذكر تفصيل أسماء الطين وأوصافه

قال:

إذا كان الطين حُرًّا يابسًا، فهو الصَّلْصَالُ.

فإذا كان مطبوخًا، فهو الفَخَّارُ.

فإذا كان عَلِكًا[٣] لاصقًا، فهو اللَّازِبُ.

فإذا غَيَّره الماء وأفسده، فهو الحَمَأ.

(وقد نطق القرآن بهذه الأسماء الأربعة).

فإذا كان رطبًا، فهو الثَّأْطَةُ والثُّرْمُطَةُ والطَّثْرَة.

فإذا كان رقيقًا، فهو الرِّدَاغُ.

---

(١) اليربوع: حيوان صغير على هيئة الجرذ الصغير، وله ذنب طويل، ينتهي بخصلة من الشعر، وهو قصير اليدين، طويل الرّجلين.

(٢) السّرقين: السّرجين: الزّبل.

(٣) العلك: الطري اللاصق، اللّزج.

فإذا كان تَرْتَطِم فيه الدواب، فهو الوَحَلُ. وأشدّ منه الرَّدَغَة والرَّزَغَةُ. وأشدّ منها الوَرْطَةُ تقع فيها الغنم فلا تقدِر على التخلُّص منها؛ ثم صارت مثلًا لكلّ شِدّة يقع فيها الإنسان.

فإذا كان حُرًّا طيبًا عَلِكًا وفيه خضرة، فهو الغَضْراءُ.

فإذا كان مخلوطًا بالتبن، فهو السَّيَاعُ.

فإذا جُعِل بين اللَّبِن[1]، فهو المِلَاط.

٥ ـ ذكر تفصيل أسماء الرّمال

قال:

العَذَابُ، ما استرقَّ[2] من الرمل.

الحَبْلُ، ما استطال منه.

اللَّبَبُ، ما انحدر منه.

الحِقْفُ، ما اعْوَجَّ منه.

الدِّعْصُ، ما استدار منه.

العَقِدَةُ، ما تعقَّد منه.

العَقَنْقَلُ، ما تراكم منه.

السِّقْطُ، ما جَعَل يتقطَّع ويتّصل منه.

النُّبْهُورَةُ، ما أشرف منه.

التَّيْهُورُ، ما اطمأنّ منه.

الشَّقِيقَة، ما انقطع وغَلُظَ منه.

الكَثِيبُ والنَّقَا، ما احْدَوْدَبَ وانهال منه.

العَاقِرُ، ما لا يُنْبِت شيئًا منه.

الهِدَمْلَةُ، ما كثر شجره منه.

(١) اللّبن: المضروب من الطين للبناء.
(٢) في الأصل: ما اشتدّ، ولكن الذي في القاموس وفقه اللغة للثعالبي ص ٢٩٩ (ما استرقّ).

الأَوْعَسُ، ما سَهُل ولانَ منه.

الرَّغَامُ، ما لان منه، وليس هو الذي يسيل من اليد.

الهَيَامُ، ما لا يتمالك أن يُمْسك باليد منه للينه.

الدَّكْدَاكُ، ما التبد بالأرض منه.

العَانِكُ، ما تعقَّد منه حتى لا يقدِر البعير على المسير فيه.

٦ - ذكر ترتيب كمية الرمل

قال الثعالبيّ:

الكثير يقال له: العَقَنْقَلُ.

فإذا نقص، فهو كَثِيبٌ.

فإذا نقص، فهو عَوْكَلٌ.

فإذا نقص عنه، فهو سِقْطٌ.

فإذا نقص عنه، فهو عَدَابٌ.

فإذا نقص، فهو لَبَبٌ.

وقال في كتابه «الغريب»[1]:

إذا كانت الرملة مجتمعة، فهي العَوْكَلَةُ.

فإذا انبسطت وطالت، فهي الكَثِيبُ.

فإذا انتقل الكَثِيبُ من موضع إلى آخر بالرّياح وبقي منه شيء رقيق، فهو اللَّبَبُ.

فإذا نقص، فهو العَدَابُ.

٧ - ذكر تفصيل أسماء الطرق وأوصافها

قال الثعالبيّ:

المِرصاد والنَّجْدُ، الطريق الواضح؛ وكذلك الصِّراطُ.

والجادّة والمَنْهَجُ واللَّقَمُ والمَحَجَّةُ، وسَطُ الطريق ومُعْظمه.

---

(١) ليس هذا الكتاب للثعالبي، وإنّما هو كتاب «الغريب المصنّف» لأبي عمرو الشيباني، الموجود منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصريّة.

واللَّاحِبُ، الطريق المُوَطَّأ.

المَهْيَعُ، الطريق الواسع.

الوَهْمُ، الطريق الذي يَرِدُ فيه الموارد.

الشَّارعُ، الطريق الأعظم.

النَّقْبُ والشِّعْبُ، الطريق في الجبل.

الخَلُّ، الطريق في الرمل.

المَخْرَفُ، الطريق في الأشجار؛ ومنه الحديث: «عائدُ المريضِ في مَخَارِفِ الجنّة».

النَّيْسَبُ، الطريق المستقيم؛ وقيل: إنه الطريق المستدقّ الواضح، كطريق النمل والحية وحمر الوحش.

والله أعلم.

الباب الثالث
من القسم الرابع من الفن الأوّل
في طول الأرض ومسافتها

ذهب المتكلّمون في ذلك أن مسافة الأرض خمسمائة عام: ثُلُثٌ عمران، وثُلُثٌ خراب، وثُلُثٌ بِحَار؛ وأن مقدار المعمور من الأرض مائة وعشرون سنة: تسعون منها ليأْجوج ومأْجوج[١]، واثنا عشر للسودان، وثمانية للروم، وثلاثة للعرب، وسبعة لسائر الأمم.

وقيل: إن الدّنيا سبعة أجزاء: ستة منها ليأْجوج ومأْجوج، وواحدٌ لسائر الناس.

وقيل: إن الأرض خمسمائة عام: البحار منها ثلاثمائة، ومائة خراب، ومائة عمران.

وقيل: إن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ: للسودان منها اثنا عشر ألفًا، وللروم ثمانية آلاف فرسخ، ولفارس ثلاثة آلاف، وللعرب ألفٌ.

---

(١) يأجوج ومأجوج: قومٌ ذكرهم القرآن الكريم.

وقال وهب بن منبه: ما العمارة من الدنيا في الخراب إلا كفُسْطاط[١] في الصحراء.

وقال أردشير بن بابك[٢]: إن الأرض أربعة أجزاء: جزء منها للترك، وجزء للعرب، وجزء للفُرْس، وجزء للسُّودان.

وقيل: إنّ الأقاليم سبعة، والأطراف أربعة، والنواحي خمسة وأربعون، والمدائن عشرة آلاف، والرساتيق[٣] مائتا ألف وستّة وخمسون ألفًا.

وقال الخُوَارَزْميّ[٤] صاحب الزيج[٥]: دور المعمور سبعة آلاف فرسخ، وهو نصف سُدُس الأرض، والجبال، والمفاوز، والبحار. والباقي خراب يَبَاب لا نباتَ فيه ولا حيوانَ.

ومثّل المعمور بصورة طائر، رأسه الصين، والجناح الأيمن الهند والسّند، والجناح الأيسر الخزر، وصدره مكّة والعراق والشام ومصر، وذَنَبه الغرب.

وزعم أصحاب الهيئة أن قطر الأرض سبعة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلًا، وأن دَوْرها عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل. وذلك جميع ما أحاطت به من برٍّ وبحر.

وإنما علم ذلك وحرّر من عبد الله المأمون، وذلك أنّه لما أشكل عليه ما ذكره المتقدّمون من مقدار الأرض بعث جماعة من أهل الخِبرة بالحساب والنجوم - منهم عليّ بن عيسى[٦] - إلى بَرِّيةِ سِنجَار[٧]، وتفرّقوا من هناك؛ فذهب بعضهم إلى جهة

---

(١) الفسطاط: بيت يُتخذ من الشعر.

(٢) هو أردشير بن بابك، ويلقّب بساسان الأصغر، وهو أوّل من جمع أمّة الفرس بعدما تفرقت على يد الإسكندر، وكان مقر ملكه مدينة اصطخر. «انظر إعجام الأعلام ص ٦٢ دار الكتب العلمية».

(٣) الرساتيق: واحده الرستاق، فارسيّ معرّب، وقال ابن السّكيت: سِداق ورُزداق، ولا تقل رستاق، والرّساتيق: وهي السّواد من الأرض.

(٤) الخوارزمي: هو محمّد بن موسى بن شاكر، أبو عبد الله، عالم بالهندسة والحكمة والموسيقى والنّجوم. «فهرس الأعلام ١١٦/٧، ١١٧».

(٥) الزّيج: في علم الفلك: جدول يدلُّ على حركة الكواكب، ومنه يستخرج التقويم.

(٦) لعلّه عليّ بن عيسى وزير المقتدر العباسي والقادر، وهو أحد العلماء والرؤساء من أهل بغداد، فارسي الأصل توفي سنة ٩٤٦ م. «فهرس الأعلام ٣١٧/٤».

(٧) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، وهي في لحف جبل عال، قيل: إن سفينة نوح عليه السّلام مرّت به فنطحته، فقال: هذا سنّ جبل جار علينا فسُمّيت سنجار. «معجم البلدان ٣/ ٢٦٢».

القطب الشماليّ، وذهب آخرون إلى جهة القطب الجنوبيّ، وسار كل منهم في جهته إلى أن وصل غاية ارتفاع الشمس نصف النهار، وقد زال وتغيّر عن الموضع الذي اجتمعوا فيه وتفرّقوا منه، مقدار درجة واحدة؛ وكانوا قد ذرعوا[١] الطريق في ذهابهم، فنصبوا السّهام، ووتدوا الأوتاد، وشدّوا الحبال، ثم رجعوا وامتحنوا الذرع ثانية، فوجدوا مقدار درجة واحدة من السماء سامتت[٢] وجه بسيط الأرض ستّة وخمسين ميلًا وثلثي ميل. (والميل أربعة آلاف ذراع، والذراع ستّ قبضات، والقبضة أربع أصابع، والإصبع ست شعيرات، بطون بعضها إلى بعض، والشعيرة ست شعرات من شعر الخليل). فضربت هذه الأميال في جميع درجات الفلك، وهي ثلثمائة وستون درجة، فخرج من الضرب عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل. فحكم بأن ذلك دور الأرض.

وقال أبو زيد أحمد بن سهل البلخيّ[٣]: مسافة طول الأرض من أقصى المشرق إلى أقصى المَغْرِب نحو من أربعمائة مَرْحَلة، ومسافة عرضها من حيث العُمْران الذي من جهة الشمال (وهو مساكن يأجوج ومأجوج) إلى حيث العمران الذي من جهة الجنوب (وهو مساكن السودان) مائتان وعشرون مرحلة؛ وما بين براري يأجوج ومأجوج والبحر المحيط في الجنوب خراب ليس فيه عمارة.

ويقال إن مسافة ذلك خمسة آلاف فرسخ[٤].

حكى هذه الأقوال صاحب كتاب «مباهج الفكر ومناهج العبر» رحمه الله.

الباب الرابع
من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ ـ في الأقاليم السبعة

ذهب أصحاب الزيجات إلى أن كل إقليم منها كأنه بساط ممدود، طوله من المغرب إلى المشرق، وعرضه من الجنوب إلى الشمال.

---

(١) ذرعوا الطريق: قاسوها بالذراع. (٢) سامتت: وازت.

(٣) هو أحمد بن سهل البلخي، أبو زيد، أحد كبار الأفذاذ من علماء الإسلام، له مؤلّفات عديدة منها أقسام العلوم، وصور الأقاليم الإسلامية توفي سنة ٩٣٤ م. «فهرس الأعلام ١/ ١٣٤».

(٤) الفرسخ: مقياس قدرُهُ نحو ثمانية كيلومترات.

١ ـ فأما الإقليم الأوّل. فمبدؤه من مشرق أرض الصين إلى مدائن أبوابها. وهي الأنهار التي تدخل السفن فيها من البحر إلى المدائن الجليلة، مثل خانقو وخانفور[١]. وفيه جزيرة سرنديب[٢]. ومن أرض اليمن ما كان جنوبيًا من صنعاء، مثل ظَفَارِ وحضرموت وعَدَن. وفيه من بلد التوبة دُنْقُلَة؛ ومن بلد السودان غَانَة. ثم ينتهي إلى البحر المحيط. وعرضه من خط الاستواء إلى مقدار ما يبعد عنه عشرون درجة وثلاث عشرة دقيقة.

وذهب بعض الناس إلى أن أوّل المعمور من حيث يكون العرض وخط الاستواء ثنتي عشرة درجة ونصف وربع درجة، وفيما بين هذا العرض وخط الاستواء مسكون بطوائف من السودان في عِداد الوحوش والبهائم. وعدّ فيه بَطْلَيْمُوس[٣] من البلاد ذوات العروض ستين مدينة. وأهل هذا الإقليم سود، وهو قليل الساكن لإفراط حرّه.

٢ ـ وأما الإقليم الثاني. فيبتدىء من بلاد الصين، ويمرّ على بعض بلاد الهند الساحلية، مثل تانة[٤]، وصَيْمُور، وسَنْدَان؛ ومن بلاد السند على المَنْصُورة ودَيْبُل، ثم يبلغ عُمَان. ويكون فيه من أرض العرب: نَجْران، وهَجَر، وجَنَّابة[٥]، ومَهَرَة، وسَبَأ، وتَبَالَة[٦]، والطائف، وجُدَّة، ومَكَّة، والمدينة، ومملكة الحبشة، وأرض البُجة[٧]، وأُسْوان، وقوص، والصعيد الأعلى، وجنوب بلاد المغرب حتَّى ينتهي إلى البحر المحيط؛ وعرضه من غاية الإقليم الأوّل إلى سبع وعشرين درجة واثنتي عشرة دقيقة.

وزعم بَطْلَيْمُوس أن فيه أربعمائة وخمسين مدينة. وأهله بين السمرة والسواد، وهو كثير الذهب.

---

(١) كذا بالأصل، والصواب: «خانجو» عن كتاب «تقويم البلدان» لأبي الفدا.

(٢) سرنديب: هي جزير عظيمة في بحر هركند بأقصى الهند، وفي سرنديب الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السّلام. «معجم البلدان ٣/ ٢١٦».

(٣) هو بطليموس صاحب علم الفلك، وهو الذي ألّف كتاب المجسطي. «انظر صبح الأعشى ٣/ ٤٧٧».

(٤) اسم لمدينة ببلاد الهند، قال البيروني: هي على السّاحل والنسبة إلهيا «تانَشى» ومنها الثياب التانشية. «انظر تقويم البلدان».

(٥) جنابة بلدة صغيرة من سواحل فارس، وهي في الإقليم الثالث. «معجم البلدان ٢/ ١٦٦».

(٦) موضع ببلاد اليمن، وتبالة الحجاج: بلدة مشهورة من أرض تهامة. «معجم البلدان ٢/ ٩».

(٧) البجّة: يقول ياقوت: هي مدينة بين فارس وأصبهان. «معجم البلدان ١/ ٣٤٠».

٣ ـ وأما الإقليم الثالث. فمبدؤه من شرق أرض الصين، وفيه مدينة مملكتها، حمدان[١]؛ وفيه من بلاد الهند تانش والقُنْدُهَار، ومن ببلاد السند المُولْتَان وقُزْدَار[٢]. ثم يمرّ ببلاد سِجِسْتَان، وكَرْمَان، وفارس، وأَصْبَهان، والأهواز، والبصرة، والكوفة، وأرض بابل، وبلاد الجزيرة، والشام، وفِلَسْطِين، وبيت المقدس. والقُلْزُم، والتِّيه، وأرض مصر، والإسكندرية، وبلاد بَرْقَة، وإفْرِيقِيَّة، وتَاهَرْت[٣]، وبلاد طَنْجَة، والسُّوس، وينتهي إلى البحر المحيط. وعرضه من غاية الإقليم الثاني في العرض إلى تمام ثلاث وثلاثين درجة وتسع وأربعين دقيقة.

وزعم بطليموس أن فيه تسعًا وخمسين مدينة، وأهله سمر.

٤ ـ وأما الإقليم الرابع. فمبدؤه من أرض الصين، ويمرّ على التُّبَّت[٤] والحنق[٥]، ثم على جبال قِشْمِير، ووخان[٦]، وتل حسان، وكَابُل، والغُور، وهَرَاة، وبَلْخ، وطَخَارِسْتَان؛ ويمتدّ إلى الريّ، وقُمّ، وهَمَذان، وحُلوان[٧]، وبغداد، والموصل، وأَذْرَبِيجَان، ويمتدّ على مَنْبِج، وطَرَسُوس، والثغور، وأَنْطَاكِيَة، وجزيرة قُبْرُس، وصِقِلِّيَّة، ثم على الزُّقاق إلى البحر المحيط؛ وعرضه من غاية الإقليم الثالث في العرض إلى تتمة تسع وثلاثين درجة وعشرين دقيقة.

وزعم بطليموس أن فيه مائة وثلاثين مدينة. وأهله بين السمرة والبياض.

---

(١) هكذا في الأصل، ولعلّ المراد مدينة واقعة على النهر المشهور باسم خمدان ببلاد الصّين.

(٢) في الأصل كرورا، وهو تحريف، وقزدار، من نواحي الهند ويقال لها «قصدار» أيضًا. «انظر معجم البلدان ٤/ ٣٤١».

(٣) تاهرت: اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، القديمة والمحدثة. «انظر معجم البلدان ٢/ ٧».

(٤) التبّت: مملكة متاخمة لأرض الصين والهند والترك، وفيها مدن وعمائر كثيرة. «انظر معجم البلدان ٢/ ١٠».

(٥) في ياقوت: خُتن، وهو الصّواب بلد وولاية دون كاشغر من بلاد تركستان. «معجم البلدان ٢/ ٣٤٧».

(٦) لعلّها وخّاب، بلد وراء بلاد الخُتّل، وهي للترك، يقع فيها المسك والرقيق. «انظر معجم البلدان ٥/ ٣٦٤».

(٧) هي حلوان العراق، في آخر حدود السّواد ممّا يلي الجبال من بغداد، قيل: إنها سُمّيت بحلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، كان بعض الملوك أقطعه إيّاها. «معجم البلدان ٢/ ٢٩٠».

٥ ـ وأما الإقليم الخامس. فمبدؤه من أرض الترك المشرفين على يأجوج ومأجوج إلى كَاشْغر، وبَلَاسَاغُون، وفَرْغَانة، وإسْبيجَاب[١]، والشَّاش، وأُشْرُوسَنة، وسَمَرْقَنْد، وبُخارىٰ، وخُوَارَزْم، وبحر الخزر[٢] إلى باب الأبواب، وبَرْذَعَة، ومَيَّافَارِقِين، ودروب الروم، وبلادهم. ثم يمرّ على رُومِيَة الكبرى، وأرض الجَلَالِقَة[٣]، وبلاد الأَنْدَلُس؛ وينتهي إلى البحر المحيط. وعرضه من غاية الإقليم الرابع إلى تمام ثلاث وأربعين درجة وثماني عشرة دقيقة.

وذكر بطليموس أن فيه سبعًا وتسعين مدينة. وأكثرأهله بيض.

٦ ـ وأما الإقليم السادس. فمبدؤه من مساكن ترك المشرق، وهم الخرخيز، والكَيْمَاك، والتُّغُزْغُر، ثم على بلاد الخُوز من شمال تخومها، والّلانِ، والسَّرير، وأرض بَرْجَان، ثم على قُسْطَنْطِينِيَّة، وأَفَرَنْجَة[٤]، وشمال الأَنْدَلُس؛ وينتهي إلى البحر المحيط؛ وعرضه من غاية الإقليم الخامس إلى تمام سبع وأربعين درجة وخمس عشرة دقيقة.

وزعم بطليموس أن فيه ثلاثًا وثلاثين مدينة، وهو كثير الأعداد والثلوج. وأهله بيض الأبدان، شقر الشعور.

٧ ـ وأما الإقليم السابع. فليس فيه كبير عمارة، وإنما هو في المشرق غياض[٥] وجبال يأوي إليها طوائف من الترك كالمتوحشين. ويمرّ على بلاد البَجَنَاك[٦]، ثم على بلاد البلغار، ثم على الروس والصقالبة، وينتهي إلى البحر المحيط. وعرضه من غاية الإقليم السادسي إلى تتمة خمسين درجة ونصف. وفيه الأرض المحفورة، وهي وَهْدة[٧] لا يقدر أحد أن ينزل إليها، ولا أن يصعد منها من هو فيها لبعد قعرها. يسكنها أُمّة من الناس لا يُدرىٰ مَن هم. وإنما علم أنها معمورة برؤية الدّخان فيها نهارًا، والنار ليلًا. يشقها نهر يجري، والعمارة محيطة به.

---

(١) هي المشهورة أيضًا باسم: اسفيجاب، وموقعها في الإقليم السّادس، وهي من ثغور الترك. «صبح الأعشى ٤/ ٤٤٠».

(٢) الخزر: اسم إقليم من قصبة إتل، وأهله من النصارى والمسلمين. «انظر معجم البلدان ٢/ ٣٦٧ وما بعدها».

(٣) الجلالقة: هم أهل جيليقا، من الإفرنج تقدّم ذكرهم.

(٤) إفرنجا: أي فرنسا.

(٥) الغياض: مفردها: غيضة، وهي الأجمة أو الموضع يكثر فيه الشجر ويلتفّ.

(٦) البجناك: لعلّهم قوم من الأتراك. (٧) الوهدة: الأرض المنخفضة.

وزعم بطليموس أن فيها ثلاثًا وعشرين مدينة. وأهل هذا الإقليم بيض صهب[١] الشعور.

وما بقي من المعمور إلى نهايته إلى ثلاث وستين درجة مضاف إلى هذا الإقليم ومحسوب فيه. يسكنه طوائف من الناس، هم بالبهائم في الخَلْق والخُلُق أشبه منهم ببني آدم.

٢ ـ ذكر ما يتمثّل به مما فيه ذكر الأرض

يقال: أحملُ من الأرض. أكتَمُ من الأرض. أصبر من الأرض. آمن من الأرض. أوثق من الأرض. أوطأ من الأرض. أحفظ من الأرض. أكثر من الرمل. أظلم من الرمل. أعطش من الرمل. أوجد من التراب.

ويقال: قتل أرضًا عالِمُها، وقتلت أرضٌ جاهلَها. رماه بين سَمْع الأرض وبَصَرها. أخذت الأرض زخارفها. أَفِقْ قبل أن يُحفَر ثَرَاك. اِبتغوا الرزق في خَبايَا الأرض.

ومن أنصاف الأبيات:

* الأرضُ من تُربةٍ والناسُ من رجُلِ *

* وأنَّى تُمْطِرُ الأرضُ السماءَ *

ومن الأبيات: [من السّريع]

والأرضُ لا تُطعِمُ مَنْ فَوْقَها إلا لِكَيْ تُطْعَمَ مَنْ تُطْعِمُهْ

وقال آخر: [من الطويل]

إذا الأرضُ أدَّتْ رَيْعَ ما أنْتَ زَارِعٌ
من البَذْرِ، فهي الأرضُ. نَاهِيكَ من أرْضِ![٢]

وقال آخر: [من الطويل]

ولا تَمْشِ فوقَ الأرضِ إلا تَوَاضُعًا فَكَمْ تَحتَها قَومٌ هُمُو مِنْكَ أَرْفَعُ!

---

(١) الصُّهب: مفردها أصهب، وهو ذو اللون الأصفر الضارب إلى شيء من الحمرة والبياض.
(٢) الرّيع: الغلّة والمرجوع، وناهيك: كلمة يتعجّب بها، أي هي أرض تكفيك عن غيرها.

وقال آخر: [من المنسرح]

يــا أرضُ كَــمْ وافِــدٍ أتــاكِ فَــلَمْ يَــرْجِـع إلـى أهْـلِهِ ولـم يَـؤُبِ![١]

٣ ـ ذكر شيء مما قيل في وصف الأرض وتشبيهها

قال الأخطل[٢]: [من الطويل]

وتَـيْـهـاءَ مِـمْـحـالٍ كـأنّ نَـعَـامَـهـا بأرجائها القُصْوى أباعِرُ هُمَّلُ[٣]

تَـرى لامِعَـاتِ الآلِ فيـهـا كـأنَّـهـا رجـالٌ تَـعـرّىٰ تـارةً وتَـسَـرْبَـلُ[٤]

وجَـوْزَ فَـلاةٍ لا يُـغَـمِّـضُ رَكْـبُـهـا ولا عينُ هادِيها من الخَوْف تَغْفُلُ

وكـلَّ بَـعـيـدِ الـغَـوْر لا يُـهـتـدى لَهُ بِـعـرْفـانِ أعـلامٍ ولا فِـيـهِ مَـنْـهَـلُ

مَـلَاعِـبَ جِـنَّـانٍ كـأنَّ تُـرابَـهـا إذا اطَّردَتْ فيها الرِّياحُ تُغَرْبَلُ[٥]

تَرى الثعْلَبَ الحَوْليَّ فيها كأنَّهُ إذا ما عَلَا نَشْزا حِصَانٌ مُحَجَّلُ[٦]

وقال ذو الرمّة: [من الطويل]

ودَوِّيَّـــةٍ جَــرْدَاءَ جَــدَّاءَ خَــيَّــمــتْ بها هَبَواتُ الصَّيْف من كلِّ جانِبِ[٧]

سَبَاريتُ يَخْلُو سَمْعُ مُجتازِها بِهَا من الصَّوْتِ، إلا مِنْ صياحِ الثَّعالِبِ[٨]

وقال ذو الرمّة: [من الوافر]

وهـاجِـرةِ الـسَّـرَابِ من الـمَـوَامِـي تَـرقَّـصُ فـي عَـسَـاقـلهـا الأرُومُ[٩]

---

(١) يؤب: يرجع.
(٢) هو الأخطل الأموي غيّاث بن غوث، من بني تغلب، شاعر نصراني مشهور، له علاقة وطيدة مع الأمويين، وهو واحد من شعراء المثلّث الأموي. «انظر فهرس الأعلام ٥/١٢٣».
(٣) التيهاء: الأرض الواسعة، والصحراء، والأباعر: مفردها بعير، وهو ما صلح للركوب والحمل من الإبل.
(٤) الآل: السّراب، وتسربل: أي ترتدي السِّربال، وهو كلّ ما يلبس من قميصٍ أو نحوه.
(٥) الجنّان: من الجنّ وهو ما يسكن القفار، واطّردت: تتابعت.
(٦) النشز: ما ارتفع من الأرض، والمحجّل: من الخيل ما كان في قوائمه بياض.
(٧) الدوّيّة: الفلاة القفر، والجداء: اليابسة القحلة، والهبوات: مفردها هبوة وهي الغبرة المرتفعة في الجوّ.
(٨) السّباريت: الأرض التي لا ينبت فيها شيء. «اللسان: مادة سبرت»
(٩) الهاجرة: وقت اشتداد الحرّ من النهار، والموامي: جمع موماة وموماء: وهي الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها، والعساقل: واحدها عسقل، وهو جزء من ساق نباتية، أو من جذر نباتي فيه مواد غذائية، والأروم: الأصول من النبت والشجر.

تَـمـوتُ قَـطَـا الـفَـلَاةِ بِـهَـا أُوَامًـا ... ويَـهْـلِكُ في جَـوَانِـبِها النَّسِيمُ[١]

مَـلِلْتُ بِـهـا الـمُـقَـامَ فَـأرَّقَـتْنِـي ... هُـمُـومٌ لا تَـنَـامُ ولا تُـنِـيـمُ

وقال ضابىء البرجميّ[٢]: [من الطويل]

ودَاوِيَّـةٍ تِـيـهٍ يَـحَـارُ بِـهَـا الـقَـطَـا ... عَلى من عَلاهَا من ضَلُولٍ وَمُهْتَدي

مُـسَـافِـهَـةٍ لِلْعِـيـسِ نَـاءٍ نِـيَـاطُـهَـا ... إذا سَارَ فِيهـا رَاكِبٌ لَم يُغَرِّدِ[٣]

وقال مسلم بن الوليد: [من الطويل]

وقَـاطِعَـةٍ رِجْـلَ الـسَّـبِـيـلِ مَـخُـوفَـةٍ ... كـأنَّ عـلى أرجـائـهَـا حَـدّ مِـبْـرَدِ

مُـؤَزَّرَةٍ بـالآلِ فـيـهـا كـأنَّـهـا ... رِجالٌ قُعُودٌ في مُلَاءٍ مُعَمَّدِ[٤]

وقال الصاحب بن عباد: [من الطويل]

وتَـيْـهَـاءَ لـم تُـطْـمَـثْ بِـخُـفٍّ وحَـافِـرٍ ... ولـم يَـدْرِ فِيهَا النَّجْمُ كَيْفَ يَغُورُ[٥]

مَـعَـالِـمُـهَـا أَنْ لَا مَـعَـالِـمَ بـيـنـهَـا ... وآيـاتُـهَـا أنَّ الـمَـسِـيـرَ غُـرُورُ

ولو قيلَ لِلْغَيث، اسقِهَا: ما اهتدَى لها ... ولـو ظَلَّ مِلْءَ الأرضِ وهو جَزُورُ[٦]

تَـجَـشَّـمْـتُـهَـا، والـلَّـيلُ وَحْفٌ جَنَـاحُـه ... كـأنِّـيَ سِـرٌّ والـظَّـلامُ ضَـمِـيـرُ[٧]

وقال الشريف الرضي: [من مجزوء الكامل المرفّل]

وتَـنُـوفَـةٍ حَـصْـبَـاؤُهـا ... خُـلِقَـتْ لـنـارِ الـقَـيْـظِ جَـمْـرَا[٨]

---

(١) القطا، مفردها قطاة، وهي نوع من اليمام يؤثر العيش في الصحراء، يطير جماعات ويقطع مسافات، وبيضه مرقّط، والأوام: العطش.

(٢) هو ضابىء بن الحارث بن أرطأة التيمي البرجمي، شاعر خبيث اللسان، كثير الشرّ عُرف في الجاهلية وأدرك الإسلام. «انظر فهرس الأعلام ٣/ ٢١٢».

(٣) مسافهة: شاتمة، ومتعبة، والعيس: النوق والإبل، والنّياط: من الأرض الواسعة: التي بعُد طريقها.

(٤) الآل: السّراب.

(٥) التيهاء: الصحراء القفر الواسعة، وتُطمث: تستباح حرمتها، أي أنها أرضٌ لم يطرقها بعد أحد، وكأنّها بكر.

(٦) الجزور: ما يصلح لأن يذبح من الإبل وغيرها.

(٧) الوحف: الكثير الريش، يريد: ليلٌ شديد الظلمة.

(٨) التنوفة: الأرض الواسعة التي لا ماء فيها ولا إنسان، والقيظ: شدّة الحرّ والحصباء: كثيرة الحصى الصّغار.

تُـبْـدِي جَـنَـادبُـهـا الأنِـيـنَ أسًى على المُجْتاز ظُهْرَا[(١)]
وتـرى بـهـا الـعُـصْـفُـور مُـتَّـخِـذًا وِجَـارَ الـضَّـبِّ وَكْـرَا[(٢)]

وقال المتنبي: [من الطويل]

مَهَالِكُ لم يَصْحَبْ بِهَا الذِّئْبُ نَفْسَه ولا حَمَلَتْ فِيها الغُرَابَ قَوادمُهْ[(٣)]

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي[(٤)]: [من الكامل]

ومـفـازةٍ لا نَـجْـمَ فـي ظَـلْـمـائـهـا يَـسْـري ولا فَـلَـكٌ بِـهـا دَوّارُ
تَـتَـلَهَّـب الـشِّـعْـرى بِـهـا فـكـأنّـهـا فـي كَـفِّ زِنْـجِـيِّ الـدُّجى دِيـنـارُ[(٥)]
تُـرْمَـى بـهـا الـغـيـطـانُ فـيـهـا والـرُّبـى آلٌ كـمـا يَـتَـمَـوَّجُ الـتَّـيَّـارُ[(٦)]
والـقُـطْـبُ مُـلْـتَـزِمٌ لـمـركَـزه بِـهَـا فـكـأنّـه فـي سَـاجِـهِ مِـسْـمَـارُ[(٧)]
قـد لـفّـنـي فـيـهـا الـظَّـلامُ وطَـافَ بِـي ذِئْـبٌ يُـلِـمُّ مـع الـدُّجـىٰ زَوّارُ
طَـرَّاقُ سَـاحَـاتِ الـدِّيَـارِ مُـغَـاوِرٌ خَـبِـثٌ لأبـنـاء الـسُّـرىٰ غَـدَّارُ[(٨)]
يَسْري، وقد فَضَح الدّجىٰ وجْهُ الضِّيا فـي فَـرْوةٍ قَـدْ مَـسَّـهـا اقْـشـعْـرار
فَعَشَوْت في ظَلْماءَ لم يُقْدحْ بـهـا إلا لـمُـقْـلـتِـه، وبـأسِـي نـارُ[(٩)]
وَرَفَلْتُ في خِلَعٍ عَلَيّ من الـدُّجىٰ عُـقِـدَتْ بـهـا مـن أنْـجُـم أزْرَارُ[(١٠)]
والـلَّـيْـلُ يَـقْـصِـر خَـطْـوَه، ولَرُبَّـمـا طـالَتْ لَـيالِي الـرَّكْـبِ وهـي قِـصَـارُ

---

(١) الجنادب: مفردها جندب، وهو نوعٌ من الجراد يصرّ ويقفز ويطير.
(٢) الوجار: الجُحر، والضبّ: حيوان من الزّحافات، كثير عقد الذّنب خشنة.
(٣) القوادم: ريشُ مقدّمة الجناح، وهي أطول الرّيش.
(٤) . . .
(٥) الشّعرى: كوكبٌ نيّر يطلع عند اشتداد الحرّ.
(٦) الغيطان: مفردها الغيط، وهي المطمئن من الأرض والواسع، والآل: السّراب.
(٧) القطب: يريد نجم القطب، والسّاج: شجر خشبه يميل إلى السّواد، أي كأن النجم القطبي مسمارٌ يلمع في خشب أسود هو الليل.
(٨) الطرّاق: الذي ينزل السّاحات ليلًا، والسُّرى: السّير في الليل.
(٩) عشوت: يريد رأى ضوء عينيه فقصده ولم يخف منه.
(١٠) رفل: جرّ ذيله وتبختر في سيره، وخلعٍ من الدّجى: أي في قطع من الليل.

وقال آخر: [من الطويل]

ومَجْهولةِ الأَعْلَامِ طامسةِ الصُّوىٰ إذا عَسَفَتْها العِيسُ بالرَّكْبِ، ضَلَّتِ[١]

إذا ما تَهَادى الرَّكْبُ في فَلَواتِها أجابَتْ نِداءَ الرَّكْبِ فيها فأصْدَتِ[٢]

وقال مسعود، أخو ذي الرمّة يصف بُعدَ فلاة: [من الرجز]

ومَهْمَهٍ فيها السَّرَابُ يَلْمَحُ يَدْأَبُ فيها القَوْمُ حتَّى يَطْلَحُوا[٣]

ثُمَّ يَظَلُّون كأنْ لم يَبْرَحُوا كأنَّما أمْسَوْا بحيثُ أصْبَحُوا

وقال مسلم: [من البسيط]

تَجْري الرِّيَاحُ بها مَرْضى مُوَلَّهةً حَسْرى تَلُوذُ بأطْراف الجَلَاميد[٤]

وقال آخر: [من الطويل]

ودَوِّيَّةٍ مِثْلِ السَّماءِ قَطَعْتُها مُطَوَّقةٍ آفاقُها بسَمائِها

وقال بعض الأعراب[٥] في الآل: [من الطويل]

كَفَى حَزَنًا أنِّي تَطَالَلْتُ كَيْ أرى ذُرىٰ عَلَمِيْ دَمْخ فَمَا يُرَيَانِ![٦]

كأنَّهمَا، والآلُ ينجابُ عنهما من البُعْدِ عَيْنَا بُرقُعٍ خَلَقَانِ[٧]

قال أبو هلال[٨]: وهذا من أغرب ما رُوِيَ من تشبيهات القدماء.

---

(١) الصّوى: مفردها صوّة، وهي أرض غليظة لا معالم فيها ولا طرق، وعسفتها: سارت على غير أثر.

(٢) أصدت: من الصّدى، وهو الصوت الذي يصدّه حاجز فيرجع.

(٣) المهمه: المفازة البعيدة والأرض القفر، ويطلحوا: يجوعوا ويتعبوا.

(٤) المولّهة: الحزينة، وتلوذ: تستجير، والجلاميد: الصّخور.

(٥) هو طهمان بن عمرو الدّارمي، كما في معجم البلدان لياقوت ٢/٤٦٢، وقد أورد القصيدة بتمامها وهي ١٥ بيتًا.

(٦) دمخ: قيل: دمخ الدّماخ، وهو جبل من جبال ضخام في حمى ضرية، والدّماخ: جبال بنجد. «انظر معجم البلدان ٢/٤٦١».

(٧) الآل: السّراب، والبُرقع: قناع تستر به المرأة وجهها، والخَلَق: الدّارس البالي.

(٨) هو أبو هلال العسكري، صاحب كتاب «الصناعتين» تقدّم ذكره.

وقال آخر: [من الكامل]

والآل تَـنْـزُو بـالـصّـوىٰ أمْـواجُـه نَزْوَ القَطَا الكُدْرِيِّ في الأشْرَاكِ(١)

والـظِّـلُّ مَـقْـرُونٌ بِـكُـلِّ مَـطِـيَّـةٍ مَشْيَ المِهَارِ الدُّهْم بين رِمَاكِ(٢)

وقال ابن المعتز: [من الطويل]

ومـا راعَـنِـي بـالـبَـيْـن إلّا ظَـعَـائِنٌ دَعَوْنَ بُكائِي، فاستَجابَ سَوَاكِبُه(٣)

بَدَتْ في بياض الآلِ والبُعْدُ دُونَهُ كأسْطُرِ رَقٍّ أمْرضَ الخَطَّ كاتِبُه(٤)

الباب الخامس
من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ ـ في الجبال

قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النّحل: الآية ١٥].

قال المفسرون: خلق الله عزَّ وجلّ الأرض على الماء فمادت(٥) وتكفّأت(٦)، كما تتكفّأ السفينة، فأثبتها بالجبال، ولولا ذلك ما أقرّت عليها خلقًا.

وروى أبو حاتم في كتاب العظمة، أن النبيّ ﷺ قال: «إن الله تعالى لما خلق الأرض، جعلَتْ تَميد. فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرّت. فعجبت الملائكة من خلق الجبال، وقالت: يا رب هل خلقت خلقًا أشدّ من الجبال؟ قال: الحديد، قالت: فهل من خلق أشدّ من الحديد؟ قال: النار، قالت: فهل من خلق أشدّ من النار؟ قال: الماء، قالت: فهل من خلق أشدّ من الماء؟ قال: الريح، قالت: فهل من خلق أشدّ من الريح؟ قال: ابن آدم، يتصدّق بيمينه فيخفيها عن شماله».

---

(١) الآل: السّراب، وتنزو: تثب، والقطا: ضربٌ من الحمام، والكدريّ: الذي يميل لونه إلى الكدرة أي هو أغير اللون، والأشراك: حبال تنصب للإيقاع بذلك الحمام.

(٢) المهار: جمع مهر وهو أوّل ما ينتج من الخيل والحمر الأهلية، والدّهم: السّود والرّماك: جمع رمكة، وهي الفرس التي تتخذ للنّسل.

(٣) الظعائن: النّساء الظاعنات من مكان إلى آخر وهنّ على الهوادج، والسواكب: أي الدموع.

(٤) الرّق: جلدٌ رقيق يكتب عليه، أو هو صحيفة بيضاء.

(٥) مادت: اضطربت وتحرّكت.

(٦) تكّفأت: أي حرّكها الموج من جانبٍ إلى جانب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السمٰوات والأرض. فبعث الله ريحًا فعصفت الماء فأبرز عن حشفة[١] في موضع البيت. فدحا[٢] الأرض من تحتها فمادت فأوتدها بالجبال».

فكان أوّل جبل وُضِعَ، جبلُ أبي قُبَيْس. وهو الجبل المطلُّ على الكعبة.

وفي كنيته بأبي قبيس قولان:

أحدهما: أن آدم كناه بذلك حين اقتبس منه النار التي بين أيدي الناس (وقد تقدّم بيان ذلك في الباب الرابع من القسم الثاني من هذا الفنّ في ذكر النّيران).

الثاني: أنه أضيف إلى رجل من جُرْهُم[٣] كان يتعبد فيه، اسمه أبو قبيس.

ويقال فيه أبو قابوس، وشيخ الجبال. وكان من قبل يسمَّى بالأمين.

وقال محمد بن السائب الكلبيّ: «إن الله عزَّ وجلّ لما خلق الأرض، مادت بأهلها. فضربها بجبل السَّراة[٤] فاطمأنت».

وهو أعظم جبال العرب وأكثرها خيرًا، ويسمَّى الحجاز. وهو الذي حجز بين تهامة ونجد. فتهامة من جهته الغربية مما يلي البحر، ونجد من جهته الشرقية. وهو آخذ من قعر عدن إلى أطرار[٥] الشأم». ويسمَّى هناك جبل لُبْنان. فإذا تجاوز اللاذقية ومرّ بالثغور، سمِّيَ جبل اللُّكَّام[٦]. ثم يمتدّ في بلاد الروم إلى بلاد أرمينية، فيسمَّى هناك حارثًا وحويرثًا. ثم يمتدّ إلى بحر الخزر[٧]، وفيه «الباب والأبواب».

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ [قٓ: الآية ١] إنه جبل محيط بالعالم من زمرّدة خضراء، وإن جبال الدّنيا متفرّعة عنه.

---

(١) الحشفة: صخرة تكون في البحر. (٢) دحا الأرض: بسطها.

(٣) جرهم الأولى: هم قبيلة من العرب كانوا على عهد عاد فبادوا، «انظر صبح الأعشى ١/ ٣٦٦»، وجرهم الثانية: هم بنو جرهم بن قحطان بن نوح، كانت سكناهم قرب مكة، تزوّج منهم إسماعيل (ع). «انظر صبح الأعشى ٤/ ٢٥١».

(٤) السّراة: قال الأصمعي: إنه الجبل الذي فيه طرف الطائف إلى بلاد أرمينية. «معجم البلدان ٣/ ٢٠٤».

(٥) أطرار الشام: يعني أطرافها، وكذلك أطرار الوادي: أي نواحيه.

(٦) اللّكام: هو الجبل المشرف على أنطاكية وبلاد ابن ليون والمصيصة وطرسوس. «معجم البلدان ٥/ ٢٢».

(٧) الخزر: اسم إقليم قومه من النّصارى والمسلمين تقدّم ذكره.

وقال قوم: إن السماء مطبقة عليه والشموس تغرب فيه، وهو الحجاب الساتر لها عن أعين الناس، في أحد الوجوه المفسَّر بها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [صٓ: الآية ٣٢].

وقال قوم: إن منه إلى السماء مقدار ميل[١]، وإن الذي يُرى من خضرة السماء مكتسب من لونه.

وقال ابن حوقل[٢]: جميع الجبال الموجودة في الدّنيا متفرّعة عن الجبل الخارج من بلاد الصين، مشرقًا ذاهبًا على خط مستقيم إلى بلاد السودان مغرّبًا.

وقال أبو الفرج قُدامة بن جعفر[٣] في «كتاب الخَرَاج»: وجدت خلف خط الاستواء في الجنوب وقبل الإقليم الأوّل جبالًا تسعة: خمسةٌ منها متقاربة المقادير، أطوالها ما بين أربعمائة ميل إلى خمسمائة ميل؛ وجبلًا طوله سبْعُمائة ميل؛ وجبل القَمَر، وطوله ألف ميل؛ وجبلًا بعضه وراء خط الاستواء، وبعضه في الإقليم الأوّل؛ وجبلًا بعضه وراء خط الاستواء، وبعضه في الإقليم الثاني.

قال: ومجموع ما عُرف في الأقاليم السبعة من الجبال مائةٌ وثمانيةٌ وتسعون جبلًا. منها في الإقليم الأوّل سبعةَ عشرَ جبلًا، وفي الإقليم الثاني تسعةٌ وعشرون جبلًا، وفي الإقليم الثالث أحدٌ وثلاثون جبلًا، وفي الإقليم الرابع أربعةٌ وعشرون جبلًا، وفي الإقليم الخامس تسعة وعشرون جبلًا، وفي الإقليم السادس أربعة وعشرون جبلًا، وفي الإقليم السابع أربعة وأربعون جبلًا.

٢ ـ ذكر أسماء ما ارتفع من الأرض إلى أن يبلُغ الجبل

ثم ما ارتفع عن ذلك إلى أن يبلغ الجبل العظيم، وترتيب ذلك قال الثعالبيّ في كتابه المترجم «بفقه اللغة» وأسنده إلى أئمتها:

أصغرُ ما ارتفَع من الأرض النَّبَكة؛ ثم الرابِيَة أعلى منها؛ ثم الأَكَمة؛ ثم الزُّبْية؛ ثم النَّجْوة؛ ثم الرِّيعُ؛ ثم القُفُّ؛ ثم الهَضْبة (وهي الجبل المنبسِط على الأرض)؛ ثم

(١) الميل: قياس قدرُهُ ١٦٠٩ أمتار.

(٢) هو محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، أبو القاسم، رحّالة من علماء البلدان، له كتاب: «المسالك والممالك». «فهرس الأعلام ٦/ ١١١».

(٣) هو قدامة بن جعفر بن زياد البغدادي، كاتبٌ من البلغاء المتقدّمين في علم المنطق والفلسفة، يضرب به المثل في البلاغة، له كتب عديدة منها: نقد الشعر، وجواهر الألفاظ توفي ببغداد سنة ٩٤٨ م. «فهرس الأعلام ٥/ ١٩١».

القَرْن (وهو الجبل الصغير)؛ ثم الدُّكُّ (وهو الجبل الذليل[١])؛ ثم الضِّلَع (وهو الجبل[٢] الذي ليس بالطويل)؛ ثم النِّيقُ (وهو الجبل الطويل)؛ ثم الطَّوْد؛ ثم الباذِخُ والشَّامِخُ؛ ثم الشَّاهِق؛ ثم المُشْمَخِرُّ؛ ثم الأَقْوَدُ والأَخْشَب؛ ثم الأَيْهَم؛ ثم القَهْب (وهو العظيم)؛ ثم الخُشَام.

٣ ـ ذكر ترتيب أبعاض الجبل

قال الثعالبيّ:

أوّل الجَبَل الحَضِيض، وهو القَرَار من الأرض عند أصْل الجبل.

ثم السَّفْح، وهو ذيله.

ثم السنَد، وهو المرتفع في أصله.

ثم الكِيح، وهو عَرْضه.

ثم الحُضْن، وهو ما أطاف به.

ثم الرَّيْد، وهو ناحيته المشرِفة على الهواء.

ثم العُرْعُرَة، وهي غلظه ومعظمه.

ثم الحَيْد، وهو جَنَاحه.

ثم الرَّعْن، وهو أنفه.

ثم الشَّعَفة، وهي رأسه.

وقال صاحب كتاب «الفاخر»: يقال من أسماء الجبال: العظيم منها الطّور، والطَّوْد، والكَفِرُ، والقَهْب، والعَمُود، والعَلَم، والأرْعَن[٣]، والمُشْمَخِرّ.

والأَيْهم الطويل، وهو الشامِخُ، والشاهِقُ، والباذِخُ، والباسِقُ، والأَقْودُ.

والأَخْشَب، الخَشِن.

والعِقَابُ، الصِّعاب.

والثَّنَايَا، التي ليست بصَعْبة.

---

(١) في الأصل: الجبل الديكك، والتصويب من فقه اللغة للثعالبي ص ٢٩٤.

(٢) في فقه اللغة للثعالبي ص ٢٩٤ «الجبيل».

(٣) الأرعن: الذي في فقه اللغة ص ٢٩٥ الرَّعن، وكذلك في اللّسان: مادة «رعن»، الرّعن: أنف الجبل المتقدّم، أو الجبل الطويل.

والهِرْشَمُّ، النَّخِر.

والخُشَام، جبل طويل ذو أَنْف.

والوَزَر، والمَلْجَأ، والقَلْعة، ما يُحَصَّن فيه.

والقَرْن، جبل صغير.

والضِّلَعُ والدُّكُّ، فيه دِقَّة وانْحِناء.

والنِّيق، الذي لا يُستطاع أن يُرْتقىٰ إليه.

وأعلى الجبل قُلَّته وقُنَّته وذُؤابتُه.

وعُرْعُرَتُه، غِلَظه.

والفِنْد، القَطْعة منه.

وشَعَفُه ومَصَادُه، أعلاه.

والكِيحُ والْكَاح، عُرْضه.

والرُّكُحُ[١]، ناحيته المُشْرِفة على الهواء.

والحَضِيض، أسفله.

قال: وصغار الجبال، اليَفَع، والضِّرْس، والضَّرب والعنتيبة[٢]، والعُنْتُوتُ، والأَكَمة، والهَضْبة.

والذَّرِيحة، ما انبسَط على وجه الأرض.

واللَّوْذ، حِضْن الجبل وما يُطِيف به.

والرَّيْد والرُّيُود، نَوَاحِيه المحدّدة.

والحَيْدُ، شاخصٌ يتقدّم كالجَناح. ومثله الشُّنْعُوفُ.

والصَّدْع والشَّقْب، شَقٌّ فيه.

والغارُ والكَهْف، مثل البُيُوت فيه.

(١) في الأصل: الوكح، بالواو، وهو تصحيف، وقد صحّحناه اعتمادًا على ما في «القاموس» و«المخصّص».

(٢) العنتيبة: كذا بالأصل، ولم نعثر عليها في القاموس واللّسان والمخصّص، ولا في كتاب فقه اللغة للثعالبي.

والقُرْدُوعة، الزاوية فيه.

واللَّهْب والنَّفْنَفُ والغارُ، مَهْواة بين جبلين.

والشُّؤون، خُطُوط فيه.

والمَخْرِم، مُنقَطَع أنْفه.

والقُرْناس، شِبْه الأنْف.

والإِرَم، العَلَم فيه.

٤ ـ ذكر ترتيب مقادير الحجارة

قال الثعالبي:

إذا كانت صغيرة، فهي حَصَاة.

فإذا كانتْ مثلَ الجَوْزة وصلحت للاستنجاء[1] بها، فهي نَبَلة. وفي الحديث: «اِتَّقُوا المَلَاعِنَ وأعِدّوا النَّبَل». يعني عند إتيان الغائط.

فإذا كانت أعظم من الجَوْزة، فهي قُنْزُعَة.

فإذا كانت أعظم منها وصَلَحت للقَذْف، فهي مِقْذاف ورُجْمَة ومِرْداة. ويقال: إن المِرْداة، حَجَر الضبِّ الذي ينصِبه علامة لحجره.

فإذا كانت مِلءَ الكفِّ، فهي يَهْيَرٌّ.

فإذا كانت أعظم منها، فهي: فِهْر، ثم جَنْدل، ثم جَلْمَد، ثم صَخْرة، ثم قَلَعَة. وهي التي تنقلِع من عُرْض الجبل. وبها سميت القَلْعَة التي هي الحِصْن.

وقال صاحب كتاب «الفاخر»: من أسمائها، الحِجَارة؛ والجُلْمود والجَلْمَد الحجر الصُّلْب.

والبِرْطِيلُ، الصَّخْرة العظيمة.

والصَّفْوانُ، الأملسُ.

والرَّضَمة، الحجر العظيم.

والأَثَان، صخرة في مَسِيل ماء أو حاقة نهر.

(١) الاستنجاء: أي غسل موضع النجو أو مسحه، والنّجو: ما يخرج من البطن من ريح أو غائط.

والإزَاء، التي عند مهراق الدلو.

والرُّجْمة، ما تطوىٰ به البئر.

والكَذَّانُ، الرَّخو.

واليَرْمَع، الأبيضُ الرِّخو.

والمُدُقُّ والمَدَاك والصَّلَايَة، حجر العطار الذي يسحق عليه العِطر.

والفِهْر، ما يملأ الكَفَّ ويُسْحَق به العِطْر.

والمِرْداة، ما يكسر به الحجر.

والمِرْداس، ما يُرْمىٰ به في البئر لينظر أفيها ماء أم لا. قال الشاعر: [من السريع]

مَـنْ جَـعَـل الـعِـدّ الـقَـدِيـمَ الَّذِي أنـــت لـــه عِـــدّةُ أحـــراسِ
إلـى ظَـنُـون أنـتَ مـن مـائِهِ مـنـتَـظِـرٌ رَجْـعـةَ مِـرْداسِ

والنَّشَفُ، حجر تُدْلَك به الرِّجْل في الحَمَّام.

والنَّقَلُ، ما كان في طرق الجبال.

والأُثْفِيَّة، ما يُنْصَب عليه القدر.

والقُلَاعة، ما يُرمىٰ به في المِقْلاع.

والظِّرَّان، حِجارة محدّدة يذبَحُ بها.

والصَّفِيح، ما رَقَّ منه وعَرُض.

واللِّخَافُ، حِجارة عِرَاض.

والفَلَك، قِطْعة مستديرة وترتفع عما حولها.

والمُدَمْلَك، المدوّر.

والكَلِيت، حَجَر مستدير يسدّ به وِجَار[١] الضَّبُع.

والبِلِّيت[٢]، التام.

(١) الوجار: جُحر الضّبع وغيرها.
(٢) البلّيت: كذا بالأصل، وعبارة القاموس «البلّيت كسِكّيت لفظًا ومعنى، وفي اللّسان: البلّيت: الرّجل الزّمّيت، وهو الحليم السّكن القليل الكلام».

وقال ابن الأعرابيّ: القَبِيلة، صخرة على رأس البئر؛ والعُقَابان من جنبتيها يعضدانها.

ومنها المَرْو، وهي البِيض كالحصى.

والحَصْباء، الصغار.

والرَّضْراض، نحوها.

والقَضِيض، أصغر منها:

والزَّنَانير، واحدها زُنَّيْرٌ، أصغر ما يكون.

٥ ـ ذكر ما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكر الجبال والحجارة

ما جاء من ذلك على لفظ أفعل. يقال:

أثقلُ من ثَهْلان[١]. أثقل من نَضَادِ[٢]. أثقلُ من أُحُد[٣]. أصلَبُ من الحَجَر. أصلبُ من الجَنْدل[٤]. أقسى من الحجر. أصبَرُ من حجر. أيْبسُ من صَخْر. أبقىٰ من النَّقْش في الحجر.

ويقال:

رُمِي فلان بحجره. رُدَّ الحجرَ من حيثُ جاءك. وَجِّهِ الحجرَ وِجْهةً مَا، أي دَبِّر الأمر على وَجْهه. ألقِمْه الحجر، أي جاوِبْه بجوابٍ مُسْكت. رماه بثالثة الأَثافِي. أنجدَ مَنْ رأى حَضَنا (وحَضَنٌ جبل بنجد) أي من رآه لم يحتجْ أن يسأل هل بلغ نَجْدا أم لا. الليل يُوارِي حَضَنا، أي يُخْفِي كل شيء حتَّى الجبل.

ومن أنصاف الأبيات:

* كـأنَّـهُ عَـلَـمٌ فـي رأسـه نـارُ[٥] *

(١) ثهلان: جبل في بلاد بني نمير، به ماءٌ ونخيل. «معجم البلدان ٢/ ٨٨».
(٢) نضاد: جبل بالعالية، قال الأصمعي: هناك جبل لغنيّ يقال له نضاد. «معجم البلدان ٥/ ٢٩٠».
(٣) أحُد: جبل بالمدينة المنوّرة «ومعركة أحُد» تنسب إليه.
(٤) الجندل: الصخر الصلب.
(٥) هذا الشطر الثاني من بيتٍ للخنساء الشاعرة، تماضر بنت الشّريد، وتمامه:
وإنّ صخرًا لتأتمُّ الهُداة به ... كأنّه علمٌ في رأسه نارُ
والعلم: الجبل. «انظر ديوان الخنساء ص ٤٩ دار صادر».

* إذا قَطَعْنا عَلَمًا بَدَا عَلَمْ *

* قُومُوا انظُروا كَيْفَ تَزُول الجِبال *

(يضرب لموت الرؤساء):

* جَنْدَلتانِ اصْطَكَّتا اصْطِكاكًا[1] *

(يضرب لقِرنين يتصاولان).

ومن الأبيات: [من البسيط]

ولو بَغى جَبَلٌ يَوْمًا على جَبَلٍ ... لانهَدَّ مِنْهُ أعاليهِ وأسْفَلُهُ!

[من الكامل]

تَتَناثَرُ الأطْوادُ وهي شَوامِخٌ ... حتَّى تَصِيرَ مَدَاوسَ الأقْدامِ[2]

[من مجزوء الرّمل]

جُدْ فَقَدْ تَنْفَجِرُ الصَّخْـ ... ـرةُ بالماءِ الزُّلالِ

٦ ـ ذكر شيء مما قيل في وصف الجبال وتشبيهها

قال السموءل بن عاديا[3]: [من الطويل]

لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّه مَن نُجيرُه ... مَنِيعٌ يَرُدّ الطَّرْفُ وهْوَ كَلِيلُ![4]

رَسَا أصْلُه تحت الثَّرى وسَمَا بِهِ ... إلى النَّجْم فَرْعٌ لا يُرامُ طَويلُ!

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ: [من الطويل]

وأرْعَنَ طَمَّاحِ الذُّؤابة باذخ ... يطَاوِل أعْنانَ السَّماءِ بغَارِبِ[5]

يَصُدُّ مَهَبَّ الرِّيحِ من كُلِّ وجْهةٍ ... ويَزْحَمُ لَيْلًا شُهْبَهُ بالمَناكِبِ[6]

---

(١) اصطكتا: اضطربتا واصطدمتا.
(٢) الأطواد: جمع طود، وهو الجبل العظيم الذّاهب صُعُدًا في الجوّ.
(٣) هو السّموأل بن غريض بن عاديا الأزدي، شاعر جاهليٌّ حكيم، من سكّان خيبر في شمال المدينة كان يتنقل بينها وبين حصنٍ له سمّاه «الأبلق». «فهرس الأعلام ٣/ ١٤٠».
(٤) الطّرف: النظر، والكليل: الضعيف الفاتر.
(٥) الأرعن: الجبل الطويل، والباذخ: العالي، والغاب: الأعلى في كلّ شيء.
(٦) يصدُّ: يمنع، ويزحم: يطاول ويجاري، والشُّهب: النجوم المضيئة والمناكب، جمع منكب، =

وَقُـور عـلى ظـهـر الـفَـلَاة كـأنَّـه طِـوَالَ الـلَّيـالِي نـاظِـرٌ فـي الـعَـوَاقِـبِ
يَـلُوثُ عـليـه الـغَـيْـمُ سُـودَ عَـمَـائِمٍ لَهَـا مِنْ وَمِيض البَرْقِ حُمْرُ ذَوائِبِ(١)
أَصَخْتُ إليـه وهْوَ أخْرَسُ صامتٌ فَحدَّثَنِي لَيْلَ السُّرى بالعَجَائِبِ(٢)
وقـال: ألَا كَـمْ كُـنْـتُ مَلْجَأَ فاتِـكٍ ومَـوْطِـنَ أوَّاهٍ ومَـوْئِلَ تـائِبِ!
وكَـمْ مَـرّ بـي مِـنْ مُـدْلِج ومُـؤَوِّبٍ وقَـالَ بسَفْحِي مِنْ مَطِيٍّ وراكِبِ!(٣)
ولَاطَـمَ مِنْ نُكْبِ الرِّياحِ مَعَاطِفِي وزاحَمَ من خُضْرِ البِحارِ جَوَانِبي!
فَـمـا كـانَ إلَّا أنْ طَـوَتْـهُـمْ يَـدُ الـرَّدى فطارَتْ بهم رِيحُ النَّوى والنَّوائِبِ(٤)
ومـا غَـيَّـضَ الـسُّـلْوانُ دَمْـعِـي وإنَّـمـا نزَفْتُ دُمُوعِي من فِراق الأصَاحبِ(٥)
وأسْـمَـعَـنِـي مـن وَعْـظِـه كـلَّ عِـبْـرَةٍ يُـتَـرْجِـمُـهـا عـنـه لِسـانُ الـتَّـجـارِب
فسَلَّى بما أبْكى، وسَرَّ بما شَجى وكان على ليل السُّرى خَيْرَ صاحِبِ
وقُـلْتُ وقـد نَـكَّـبْـتُ عـنـه مَـطِـيَّـتِـي سَلَامٌ فـإنَّـا مـن مُـقِـيـمٍ وذاهِـبِ!(٦)

وقال أيضًا عفا الله عنه: [من الطويل]

وأشْـرفَ طَـمَّـاحِ الـذُّؤابـة شـامـخٍ تَمَنْطَقَ بالجَوْزاء لَيْلًا له خَصْرُ(٧)
وَقُـورٍ عـلى مَـرِّ الـلَّيـالي كـأنَّـمـا يُصِيخُ إلى نَجْوى وفي أُذْنِه وَقْرُ(٨)
تَـمَـهَّـدَ مـنـه كُـلُّ رُكْـنٍ زَكَـا بـه فقَطَّبَ إطْراقًا وقد ضَحِكَ البَدْرُ(٩)

= وهو ما بين الكتف والعاتق.

(١) يلوث: يلفّ، والذوائب: جمع ذؤابة، وهو شعر مقدّم الرأس.
(٢) أصختُ: أنصتُّ وأصغيت، والسُّرى: السّير ليلًا.
(٣) المدلج: السائر في الدلجة، وهي العتمة، والمؤوّب: الذي يسير النهار كلّه إلى الليل، وقال: استراح، من القيلولة وهي عند الظهيرة واشتداد الحرّ.
(٤) النّوى: البعد، والنّوائب المصائب والكوارث.
(٥) غيّض: منع سيل الدموع، والسُّلوان: الصّبر والنّسيان.
(٦) نكّبت: نحّيت وأبعدت.
(٧) الأشرف: الجبل العالي المشرف، وطمّاح الذؤابة: كبيرها، والشامخ: العالي وتمنطق: شدّ وسطه بالمنطقة، والجوزاء: برجٌ من أبراج السّماء.
(٨) يصيخ: يصغي، والنجوى: السرّ، والوقر: الصّمم.
(٩) زكا: نما وزاد، وقطّب إطراقًا: أي تجهّم وأطرق برأسه.

وَلَاذَ بِهِ نَسْرُ السَّماءِ كأنَّما يُجَرّ إلى وكْرٍ به ذلك النَّسْرُ[١]
فلم أَدْرِ من صَمْتٍ له وسَكِينةٍ أكَبْرَةُ سنٍّ وَقَّرتْ منه أم كِبْرُ[٢]

وقال أيضًا يصفه نثرًا من رسالة كتبها إلى بعض الرؤساء:

وكيف لي بقُرْبك ودونَك كل عَلَم باذخ، مَجَّ الليلُ عليه رُضَابَه[٣]، وصافحت النجومُ هِضَابه؛ قد ناء بطَرْفه، وشمخ بأنْفِه، وسال الوَقَار على عِطْفه؛ قد لاثَ من غَمَامه عِمَامه، وأرسل من رَبَابه ذُؤابه؛ تُطرِّزها البُروق الخواطف، وتهفو بها الرياح العواصف؛ بحيث مدّه البسيطُ بِساطًا، وضُرِبت السماء فُسْطاطا[٤].

الباب السادس
من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ ـ في ذكر البحار والجزائر

رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لما أراد الله عزَّ وجلّ أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء ووصف من طولها وعرضها وسمكها، ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء يترقرق لا يثبت في ضحضاح[٥]. فما يرى من التموّج والاضطراب إنما هو ارتعاده من خشية الله تعالى؛ ثم خلق الريح فوضع الماء على متنه؛ ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء». وفسري بهذا قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: الآية ٧].

٢ ـ ذكر بحار المعمور من الأرض

وبحار المعمور ثلاثة: أعظمها البحر المحيط، ثم بحر مانيطش[٦]، ثم بحر الخزر.

---

(١) النّسر: طائر معروف، ونسر السّماء: كوكب، والنّسران: كوكبان هما: «النّسر الطائر» «والنسر الواقع».
(٢) الكبرة: الكبر والتقدّم في العمر، وقّرت: أي زادته وقارًا وهيبة.
(٣) الرُّضاب: ما تقطّع من النّدى على الشجر ونحوه، والرّضاب: الريق.
(٤) الفسطاط: البيت من شعر.
(٥) الضّحضاح: القليل، والماء الضحضاح: القليل الذي لا عمق فيه.
(٦) بحر مانيطش: كذا في الأصل، وفي كثير من كتب الجغرافية العربية، وهو المعروف في كتاب «أبي الفدا» ببحر آزق، وعند الأتراك: ببحر آزوق.

فأما البحر المحيط وجزائره، ويسمَّى باليونانية أوقيانوس، ويسمَّى بحر الظلمات، سمِّي بذلك لأن ما يتصاعد من البخار عنه لا تحلله الشمس لأنها لا تطلع عليه. فيغلظ ويتكاثف فلا يدرك البصر هيئته. ولعظم أمواجه، وتكاثف ظلمته، وغلظ مائه، وكثرة أهوائه، لم يَعلَم العالَمُ من حاله إلا بعض سواحله وجزائره القريبة من المعمور. والذي عُلم به من الجزائر ستةٌ من جهة المغرب، تسمَّى جزائر السعادات، والجزائر الخالدات.

قال أبو عبيد البكريّ[١] في كتابه المترجم «بالمسالك والممالك»: وبإزاء طنجة الجزائر المسماة باليونانية، فُرطناتُس أي السعيدة. وسميت بذلك لأن في شَعْرائها[٢] وغياضها كلِّها أصنافَ الفواكه الطيبة من غير غراسة ولا فلاحة، وأن أرضها تحمل الزرع مكان العشب، وأصناف الرياض بدل الشوك. وهي متفرّقة متقاربة.

ويقال إن بعض المراكب عصفت عليها الريح فألقتها إلى جزيرة من هذه الجزائر، فنزل مَنْ فيها من الركاب إليها، فوجدوا فيها من أنواع أشجار الفواكه وأشجار الأفاويه[٣] وأنواع اليواقيت كل مستحسن. فحملوا منه ما أطاقوا ودخلوا به بلاد الأندلس. فسألهم ملكها من أين لهم هذا. فأخبروه بأمرهم، فجهّز مراكب وسيّرها، فلم يقفوا على جزيرة منها. وعدمت المراكب لعظم البحر وشدّة عصف الريح فلم يرجع منها شيء.

ويقال إن هذه الجزائر مسكونة بقوم هم بالوحوش أشبه منهم بالناس. وبينها وبين ساحل البحر عشرة أجزاء.

ويقال إن في جهة المشرق مما يلي بلاد الصين ستة جزائر أخرى، تسمَّى جزائر السيلى. يقال إن ساكنيها قوم من العلويين، وقعوا إليها لما هربوا من بني أُمية.

ويقال إن جزائر السيلي لم يدخلها أحد من الغرباء وطاوعته نفسه على الخروج منها لصحة هوائها ورقة مائها، وإن كان منها في عيش قشيف[٤].

وفي هذا البحر من الجزائر العامرة جزيرة برطانية، وهي تحاذي جزيرة الأندلس، وأهلها صُهْب الشعور، زُرْق العيون.

---

(١) هو أبو عبيد، عبد الله بن عزيز البكري الأندلسي، مؤرّخ، جغرافي، ثقة، علّامة بالأدب نسبته إلى بكر بن وائل. «فهرس الأعلام ٤/٩٨».

(٢) الشَّعْراء: الأرض ذات الشجر.

(٣) الأفاويه: الطيب.

(٤) عيشٍ قشيف: عيش فيه ضيق وشدّة.

ومما يلي بلاد إفرانسية جزائر يغْمُرها خلق من الفرنج، لا ينقادون لبلد، ولا يدينون بدين.

وفيما يلي الأرض الكبيرة جزيرة ذات أبرجة، يحيط بها سبعمائة ميل وخمسون ميلًا، وفيها أربع مدائن، في كل مدينة ملك.

وجزيرة برفاغة. يحيط بها أربعة آلاف ميل، وفيها ثلاث مدائن عامرة. والدّاخل إليها قليل. وهي كثيرة الأنواء[1] والأمطار. وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه لقلة طلوع الشمس عندهم، ويجعلونه في بيت ويوقدون النار حوله حتّى يجف.

وجزيرة أنقلطرة. فيها مدائن عامرة، وجبال شاهقة، وأودية، وأرض سهلة. والشتاء بها دائم. وبين هذه الجزيرة والبر مجاز سعته اثنا عشر ميلًا.

وفيه مما يلي الصقالبة[2] جزيرتان: إحداهما جزيرة أمرنانيوس النساء، لا يسكنها غير النساء فقط. وتسمَّى الأخرى أمرنانيوس الرجال، لا يسكنها غير الرجال. وهم في كل عام يجتمعون زمان الربيع، ويتناكحون نحوا من شهر ثم يفترقون.

ويقال إن هاتين الجزيرتين لا يكاد يقع طرف أحد عليهما لكثرة الغمام، وظلمة البحر، وعظم الأمواج.

٣ ـ ذكر ما يتفرّع من البحر المحيط

يتفرّع من البحر المحيط خليجان: أحدهما من جهة المغرب، ويسمى البحر الروميّ. والآخر من جهة المشرق، ويسمّى البحر الصينيّ، والهنديّ، والفارسيّ، واليمنيّ، والحبشيّ، بحسب ما يمرّ عليه من البلاد.

وهما المراد بقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرحمٰن: الآيتان ١٩، ٢٠]. أي لا يبغي هذا على هذا.

والبرزخ[3] أرض بين الفَرَما التي هي على بحر الروم، وبين مدينة القُلْزُم التي هي على بحر الحبش[4]، مسافتها ثلاثة أيام. وقيل: البرزخ إرسال ماء البحر الحلو

(١) الأنواء: الأمطار والرّياح واضطراب البحر.
(٢) الصقالبة: قومٌ عند الإسرائيليين من بني بازان بن يافث بن نوح، وبلادهم بين بلغار وقسطنطينية. «انظر معجم البلدان ٣/٤١٦، وصبح الأعشى ١/٤٢٢».
(٣) البرزخ: الأرض الضيقة بين بحرين تصل أرضًا بأرض.
(٤) في الأصل: بحر فارس، وكان الأصوب أن يعبّر باللفظ الذي اختاره لهذا المقام، وهو=

على ماء البحر الملح، لأنه مَغِيض[١] له. فلا سبيل لأحدهما على الآخر، بل جعل الله بينهما حاجزًا وهو البرزخ.

فأما البحر الروميّ وجزائره، فإن المؤرّخين قالوا إن الإسكندر حفره وأجراه من البحر المحيط. ويقولون إن جزيرة الأندلس وبلاد البربر كانت أرضًا واحدة يسكنها الإشبان والبربر. وكان بعضهم يُغير على بعض، والحرب بينهم سجال[٢]. فلما ملك الإسكندر، رغب إليه الإشبان فيما يحول بينهم وبين البربر. فرأى أن يجعل بينهما خليجًا من البحر يمكن به احتراس كل طائفة من الأخرى. فحفر زُقاقًا[٣] طوله ثمانية عشر ميلًا، وعرضه اثنا عشر ميلًا. وبنى بجانبيه سكرين[٤]، وعقد بينهما قنطرة يجاز عليها، وجعل عليها حرّاسًا يمنعون الجواز عليها من جهة البربر إلا بإذن من جعله نائبًا عنه في بلاد الإشبان. وكان قاموس البحر أعلى من أرض الزقاق، فطما وغطّى السِّكْرين والقنطرة، وساق بين يديه بلادًا وطغا على أخرى. حتّى إن المسافرين فيه يخبرون أن المراكب في بعض الأوقات يتوقف سيرها فيه مع وجود الريح. فيسبرون أمرها، فيجدون المانع لها سلوكها بين شرفات السور أو بين حائطين.

فعظم طولًا وعرضًا، وصار بحرًا[٥].

قال صاحب كتاب «مباهج الفكر ومناهج العبر»: وقد زاد عرضه ستة أميال عما كان عليه في زمن الإسكندر. فصار ثمانية عشر ميلًا.

قال: وزعم السالكون فيه أن البحر ربما جزر في بعض الأوقات، فترى القنطرة. قالوا: وهذا الزقاق صعب شديد متلاطم الأمواج مهول، شبيه بما جاوره من البحر المحيط.

وأهل الأندلس يقولون إن بين هذا البحر وبين البحر المحيط بحرًا يسمونه بحر الأيلاية بتفخيم[٦] اللام. وهو بحر عظيم الموج صعب السلوك.

= البحر الحبشي.

(١) المغيض: أي يأتيه الماء فيغيض به ويذهب في الأرض.

(٢) الحرب سجال، أي أن الغلبة مداولة فيها. (٣) الزقاق: الطريق الضيّق.

(٤) السِّكر: بكسر السّين: هو ما سُدّ به النهر.

(٥) هو المسمّى بحر الزّقاق، واسمه الآن مجاز جبل طارق.

(٦) لعلّه يشير إلى خليج ليون، فهو مشهور بشدّة التّيار وبصعوبة السّلوك.

ومبدأ جريه من البحر الروميّ من الإقليم الرابع. فإذا خرج من الزقاق يمرّ مشرّقًا في جهة بلاد البربر وشمال المغرب الأقصى إلى أن يمرّ بالمغرب الأوسط، إلى إفريقية، إلى برقة، إلى الإسكندرية، إلى شمال أرض التيه وأرض فِلَسْطِين. فيمرّ بسواحل الشام إلى أن يصل إلى السويدية التي هي فرضة[١] أنطاكية، وعندها حجز البحر. ومنها يعطف فيمرّ على العلايا وأنطالية (وهما فرضتان لبلاد الروم)، ثم على ظهر بلاد قسطنطينية إلى أن ينتهي إلى المكان الذي منه خرج، وطوله خمسة آلاف ميل، وقيل ستة آلاف. وعرضه مختلف: ففي موضع ثلثمائة ميل، وفي موضع ستمائة ميل، وفي موضع سبعمائة.

ويقال إن فيه ما يزيد على مائة وسبعين جزيرة. كانت عامرة بطوائف من الفرنج، أخرب المسلمون أكثرها بالمغازي[٢] في صدر الإسلام.

وأجلّ ما ملك المسلمون منها، ثم انتُزع أكثره من أيديهم:

١ ـ جزيرة الأندلس.

٢ ـ وجزيرة يابسة. وهي حيال جزيرة الأندلس، ومسافتها يومان في يوم. وفيها مدينة صغيرة مسوّرة.

٣ ـ وجزيرة منرقة، ومسافتها يومان في نصف يوم. وفيها مدينة عامرة.

٤ ـ وجزيرة ميورقة. ويقال فيها مايورقة. ومسافتها يومان في يومين، وبها مدينة.

٥ ـ وجزيرة رودس. وهي حيال بلاد أفرنجة[٣]. ويحيط بها ثلثمائة ميل. وفيها حصنان.

٦ ـ وجزيرة سردانية. وطولها مائتان وثمانون ميلًا، وعرضها مائة وثمانون ميلًا. وفيها ثلاث مدائن كبار. وسكانها قوم من الفرنج متوحشون. وبها معدن فضة.

٧ ـ وجزيرة صقلية. وهي حيال إفريقية مضاهية لجزيرة الأندلس. وشكلها مثلث. يحيط بها خمسمائة ميل. كثيرة الجبال، والحصون، والأمصار، والأنهار، والأشجار.

---

(١) الفرضة: محطّ السّفن.

(٢) المغازي: مفردها غزوة، وهي السّير إلى القتال وانتهاب الدّيار.

(٣) هذا الوصف لا ينطبق على جزيرة رودس، بل على جزيرة قورسقة التي هي حيال بلاد افرنجة، أي فرنسا، وهي تابعة لها.

ومما فيها من المدن المشهورة على ساحل البحر:

بلرمو. وبها يكون الملك؛ وكانت قصبة الجزيرة بعد أن فتحها المسلمون ثم انتقل الناس منها إلى الخالصة. وهي محدثة. بنيت في أيام القائم ابن المهديّ العبيديّ في سنة خمس وعشرين وثلثمائة. ثم صارت بلرمو وبقيت الخالصة ربضًا(١) لها.

وقطانية. وكانت عظيمة فأحرقها البركان الذي في الجزيرة. فبنى الإمبراطور مدينة عوضها، وسماها غشطارة.

ومسينى. وهي على أحد أركان الجزيرة.

وسرقوسة. وهي على الركن الآخر، والبحر محيط بها من ثلاث جهاتها.

وطرابنش. وهي على الركن الثالث، والبحر محيط بها. ولها مجاز.

ومن بلاد هذه الجزيرة البرية: والشاقة، ومازر، وكركنت، ونوطس، وطبرمين، وقصريانة، والنور، ورغوص، وغيطة، وغير ذلك.

وبهذه الجزيرة. (ويقال بجزيرة ملاصقة لها) بركان، وهو أطيمة(٢) يخرج منها أجسام كأجسام الناس بغير رؤوس من النار، فتعلو في الهواء ليلًا ثم تسقط في البحر، فتطفو على وجه الماء. ومنها يكون حجر المرو الذي تحكّ به الأرجل.

٧ ـ وجزيرة بلونس. ودورها ألف ميل. ولها مجاز إلى البر الطويل، عرضه ستة أميال. فيها ما يزيد على خمسين مدينة؛ القواعد منها خمس عشرة مدينة، وهي مشهورة عند الفرنج.

٨ ـ وجزيرة مالطة. وطولها أربعة وعشرون ميلًا، وعرضها اثنا عشر. وفي وسطها مدينة واحدة.

٩ ـ وجزيرة قوسرة. وفيها مواضع متوحشة.

١٠ ـ وجزيرة أقريطش. وهي حيال برقة. طولها ثلثمائة ميل، وعرضها مائة وثلاثون ميلًا. وبها مدينتان: إحداهما تسمّى الخندق، والأخرى تسمّى ربض الجبن. وفيها معدن ذهب.

---

(١) الرّبض: الناحية من الشيء، أو ما حول المدينة.

(٢) كانت بالأصل «أطمة» والصواب «أطيمة» كما أثبتناه. وانظر الحاشية ٤ صفحة ٢٢٥.

١١ ـ وجزيرة قُبْرُس. وهو اسم النحاس، لأن بها معدن نحاس. يحيط بها ألف ميل وخمسمائة ميل. وفيها من المدن الجليلة، ليمسون، والپاف بباء مفخمة، والماغوصة. وكلها في البحر. وفي وسط الجزيرة مدينة الأفقسية، وهي القصبة. وبها يكون متولى الجزيرة.

٤ ـ ويخرج من هذا البحر خليجان

أحدهما يسمى جون البنادقة، والآخر يسمى خليج القسطنطينية.

١ ـ فأما خليج البنادقة. فإنه خليج كبير متسع ليس له فُوَّهة. وإنما هو جونٌ له ركنان، سعة ما بينهما سبعون ميلًا. يحيط بهذا الجون مدن جليلة لطائفة من الفرنج تسمى البنادقة. وهي ذوات حصون وقلاع ممتنعة.

ومبدؤه من شرقيّ بلاد قلورية عند مدينة تسمى أُذْرَنْت[١]، ومنتهاه بلاد إيكلاية[٢]. ومن هناك يعطف، وطوله ألف ميل ومائة ميل. وفيه ست جزائر، ثلاثة منها في ضفة، وثلاثة في أخرى، بها مدن عامرة. وثلاثة معترضة بين ركنيه مهملة لا ساكن بها.

٢ ـ وأما خليج القسطنطينية. ويسمى بحر نيطش فإن فوهته مقابلة لجزيرة رودس، وسعتها غلوة[٣] سهم. ويقال إنه كان بين الشطين سلسلة طرفاها في برجين تمنع المراكب من العبور إلا بإذن الموكل بها.

ويمرّ هذا الخليج نحو مائتي ميل وخمسين ميلًا إلى أن ينتهي إلى القسطنطينية فتكون في غربيه، يحيط بجهتين منها.

وهي مدينة عظيمة مشهورة. وعرض البحر عندها أربعة أميال.

ثم يمرّ ستين ميلًا حتّى ينصب في بحر مانيطش. وهو بحر سوداق. وعرض فوهته هناك عشرة أميال. وفي موضع أقلّ، وفي موضع أكثر.

فهذا البحر الرومي وجزائره وما تفرّع منه.

والله أعلم.

---

(١) في الأصل «أكدنت» وهو تحريف لمدينة أذرنت، قال في نزهة المشتاق: خليج البنادقيين ومبدؤه من شرق بلاد فلوريه... من عند أذرنت... وينتهي طرفه إلى بلاد إيكلاية.

(٢) في الأصل: أنكلاية، وهو تحريف ظاهر عن إيكلاية اليت ذكرها الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق.

(٣) الغلوة: مقدار رمية سهم، وتقدّر بثلاثمائة ذراع إلى أربع مئة.

٥ ـ وأما بحر الهند وجزائره

فمبدؤه من مشرق الصين فوق خط الاستواء. ويجري إلى جهة الغرب، فيجتاز ببلاد الواق[١]، وبلاد سُفالة الزنج؛ ثم ببلاد الزنج حتّى يصل إلى بلاد بربرا، وهناك حجزه.

وأما الشرقيّ: فمبدؤه من لوقين، وهي أوّل مرافىء الصين ثم بخانقو فُرْضَة[٢] الصين العظمى؛ ثم إلى سمَنْدُور من بلاد الهند؛ ثم إلى حارتين، إلى قندرينه[٣]، إلى تانة، إلى سندابور، إلى بَرْوَص (ويقال بَرْوَج، وإليها ينسب القماش البَرْوَجى)، إلى صَيْمُور[٤]، إلى سَنْدَان، إلى سوتارة، إلى كنباية. (وإليها ينسب القماش الكنبايتي)، إلى دَيْبُل (وهي أوّل مرافىء السند)؛ ثم إلى سرون، ثم إلى التِّيز[٥] من بلاد مُكْرَان، وهي أحد ركني الخليج الفارسيّ. والركن الآخر يسمى رأس الجُمْجَة: وهو جبل خارج في البحر، ومن هناك يسمى بحر اليمن، ثم يمتدّ على ظَفَارِ[٦]؛ ثم على الشِّحْر ساحل بلاد مَهَرَة؛ ثم على شُرْمَةَ ولَسْعا (ساحلي بلاد حضرموت)، ثم على أَبْيَن، ثم على عَدَن، ثم المَخْنَق، ثم العارة، ثم يمتدّ إلى باب المندب.

ومن هناك يخرج خليج القُلْزُم[٧]، وطوله ثمانية آلاف ميل، وعرضه يختلف. في موضع ألف ميل وسبعمائة ميل، وفي موضع ألفان، وفي موضع دون ذلك.

ويقال: إن بينه وبين البحر المحيط بحرًا آخر يسمى البحر الزفتي، سمي بذلك لظلمته وسواده، وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل.

---

(١) جزيرة الوقواق، من جملة قمير، وهو اسم لا كما تظنّه العوام من أنه شجرة حملها كرؤوس الناس، ولكن قمير قوم ألوانهم إلى البياض، قصار القدود، على صورة الأتراك ودين الهنود، مخرّمي الآذان، وأهل جزيرة الوقواق منهم سود الألوان، والناس فيهم أرغب، ويجلب منهم الآبنوس الأسود، وهو لبّ شجرة تلقي حواشيها، فأما الملمع والشوحط والصّندل الأصفر فمن الزنج. «البيروني: كتاب تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٠٣».

(٢) الفرضة: محطُ السّفن، الميناء.

(٣) لعلّها قندابيل، مدينة بالسّند ذكرها ياقوت في معجمه ٤/ ٤٠٢.

(٤) صيمور، ويقال لها صيمون بلد من بلاد الهند الملاصقة للسّند. «معجم البلدان ٣/ ٤٤٠».

(٥) هي قصبة بلاد مكران بالسّند. «انظر معجم البلدان ٢٥/ ٦٦».

(٦) ظفار: هي مدينة باليمن في موضعين، أحدهما قرب صنعاء، فأما ظفار المشهورة اليوم، فليست إلّا مدينة على ساحل بحر الهند، وهي من أعمال الشّحر. «معجم البلدان ٤/ ٦٠».

(٧) والقلزم على بحر الهند، وهي مدينة، وسمّي بحر القلزم قلزمًا لالتهامه المراكب. «انظر معجم البلدان ٤/ ٣٨٧».

وهذا البحر ـ أعني الهنديّ ـ بجملته قسمه السالكون له سِتَّ قطع، وضعوا لها أسماء مختلفة.

١ ـ فالذي يمرّ بأرض الصين يسمى بحر صنجى[١]، ينسب لمدينة في جزيرة من جزائره. وهو بحر كثير الأمواج مهول. فإذا كان في أوّل هياجه ظهر فيه بالليل أشخاص سود، طول الواحد منهم خمسة أشبار وأقلّ من ذلك. يصعدون إلى المراكب ولا يضرون أحدًا. فإذا عاينهم السُّفَّار[٢]، أيقنوا بالدّمار. وإذا قدّر الله تعالى نجاتهم من هذه الشدّة، أراهم على رأس الدَّقل[٣] طائرًا أبيض كأنما خلق من النور، فيتباشرون به. فإذا ذهب عنهم الروع، فقدوه.

وفيه من الجزائر المعمورة:

جزيرة شريرة[٤]. يحيط بها ألف ميل ومائتا ميل. فيها مدائن كثيرة، أجلها المدينة التي تنسب إليها، ومنها يجلب الكافور[٥].

وجزيرة صنجى. وإليها تنسب هذه القطعة. وطولها مائتا ميل؛ وعرضها أقلّ من ذلك. وفيها جواميس وبقر بغير أذناب.

وجزيرة أنفوجة. يحيط بها أربعمائة ميل. عمارتها متصلة.

٢ ـ ويلي هذه القطعة قطعة تسمَّى ببحر الصّنْف. في جزيرة من جزائره مدينة. وهو بحر خبيث كثير الأمطار والرياح الشديدة. وفي جباله معادن الذهب والرصاص، وفيه مغاصُ اللؤلؤ، وفي غياضه[٦] الخيزران. وفيه مملكة المهراج. ويشتمل على جزائر لا تحصى، ولا يمكن المراكب أن تطوف بها في سنة. وفيها أنواع الطيب من الكافور، والقَرَنْفُل، والعود[٧]، والصَّنْدل، والجَوْزبَوّي، والبَسْبَاسَة، والكَبَابَة[٨].

(١) لعلّ هذا الاسم هو و«شنجو» لمسمّى واحد، وهي المعروفة عند العرب باسم مدينة «زيتون» وهي فرضة الصين. «راجع أبا الفدا تقويم البلدان».
(٢) السُّفَّار: مفردها السّافر، وهو المسافر.
(٣) الدّقل: خشبة طويلة تشدّ في وسط السفينة، يمدّ عليها الشراع، وتسمّيه البحرية: الصاري.
(٤) سمّاها أبو الفداء في تقويم البلدان «سريرة».
(٥) الكافور: شجر تؤخذ منه مادة عطرية تستخدم في الطبّ، وزهر كزهر الأقحوان.
(٦) الغياض: مفردها غيضة، وهي الموضع الكثير الشجر والماء.
(٧) العود: نوعٌ من الطيب يتبخر به.
(٨) الكبابة: ثمرة شجرة من الفصيلة الفلفليّة، تنبت في جزائر الهند الشرقية، وهي طيبة الريح، حريفة الطعم، تستخدم في الطبّ مطهرًا للمجاري البوليّة.

ومن جزائره المشهورة:

جزيرة الزانج. وتكسيرها سبعمائة فرسخ، وبها يكون المهراج، وهو اسم يطلق على كل من ملكها.

وجزيرة البركان. وهي جزيرة فيها جبل يرمى بالشرر ليلًا، وبالرعود القواصف نهارًا، وهي أحد أطايم[١] الدّنيا المشهورة.

وجزيرة قُمار. وإليها ينسب العود القماريّ. وبها شجر الصندل. دورها أربعة أشهر. وهي مأوىٰ عُبَّاد الهند وعلمائهم. يسمَّى ملكها قامرون.

وجزائر الرامي[٢]. وهي نحو ألف جزيرة معمورة. بها الملوك. وفيها معادن الذهب، وشجر الكافور.

وجزائر لنجيالوس. ويقال لنكيالوس. وهي كثيرة، وأهلها سود، مشوّهو الصور لقُرْبها من خط الاستواء. وبها معادن الحديد.

٣ ـ ويلي هذه القطعة قطعة تسمّى بحر لاروي، وبحر كَلَه، وبحر الجاوه، وبحر فنصور. وإنما ترادفت عليه هذه الأسماء بحسب ما يمرّ عليه من البلاد والجزائر. وهو بحر لا يدرك قعره. وفيه نحو ألف جزيرة تسمَّى جزائر النارجيل[٣]، لكثرته بها. وكلها عامرة بالناس. وبين الجزيرة والجزيرة الفرسخ[٤] والفرسخان. وليس يوجد في سائر جزائر البحر ألطف صنعة من أهل جزائره في سائر المهن. وبيوت أمواله الوَدَعُ[٥].

ومن جزائره المشهورة مما يلي أوائل بلاد الهند:

جزيرة المانِد. وهي جزيرة يحيط بها ألف ميل. وفيها ثلاث مدن كبار.

وجزيرة كرمون. يحيط بها ثلثمائة ميل.

(١) كذا بالأصل؛ والصواب «أطايم» واحد الأطيمة؛ لأن الآطام واحدها الأطم وهو الحصن، ولا معنى لتسمية بركان النار باسم الحصن؛ وإنما المناسب أن يسمى بالموقد والأتون بجامع التوقّد والتلظّي والرمي بالشرر، وهذا معنى الأطيمة.

(٢) في الأصل: الراق، وفي نزهة المشتاق: الرامي.

(٣) النّارجيل: جوز الهند، واحدته نارجيلة، شجرته مثل النخلة سواء. «اللسان مادة نرجل»

(٤) الفرسخ: مقياس قدره ثمانية كيلومترات.

(٥) الودع: خرز بيض جوف، في بطونها شقّ كشقّ النواة تتفاوت في الصغر والكبر.

وجزيرة بلى. منسوبة لمدينة من الهند على ساحله. يأتيها التجار لأجل الفلفل.

وجزائر الذئاب. وهي كثيرة. وأكبرها جزيرة ديبى. وسكانها قبائل من العرب. يحيط بها أربعمائة ميل. وفيها الموز، وقصب السكر.

وجزيرة السيلان. وطولها ستمائة ميل، وعرضها قريب من ذلك. وفيها مدن كثيرة. وإليها ينسب العود السيلي.

وجزيرة كَلَه. وإليها ينسب البحر. وهي جزيرة خطيرة، طولها ثمانمائة ميل، وعرضها ثلثمائة ميل وخمسون ميلًا. وبها من المدن فنصور. فيها شجر الكافور (وفيها العود الفاخر) وملاير، ولاروي، وكله (وإليها ينسب الدّهن). ولكل مدينة من هذه المدن خَوْر[١] تعبره المراكب من البحر.

وجزيرة صندابولات. وطولها نحو من مائتي ميل، وعرضها نحو مائة ميل. تنسب إلى مدينة هي فيها.

وجزائر بداميان. فيما أمم سود، قِبَاح الوجوه. قامة الرجل منهم أقلّ من ذراع. ليس لهم مراكب. فإذا وقع إليهم غريق أو من يَتِيه من التجّار، أكلوه.

٤ ـ ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر هَرْكَنْد، وفيه جزائر كثيرة. ويقال إن عدّتها ألف جزيرة وتسعمائة جزيرة. ويقع فيها العنبر الذي تكون القطعة منه مثل البيت. وسكانها أحذق الناس في الحياكة، ينسجون القميص بكمّيه ودَخَارِيزِه[٢] قطعة واحدة.

وفيه من الجزائر المشهورة:

جزيرة سرنديب[٣]. وهي مدوّرة الشكل، يحيط بها ألف فرسخ. يشقُّها جبل الراهون، وهو الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السلام من الجنة. وفي أوديتها الياقوت والماس والسُّنْبَاذَج[٤]. وطولها مائتان وستون ميلًا. ومدينة هذه الجزائر العظمى تسمى

(١) الخور: الخليج أو مصبُّ الماء في البحر، أو المنخفض في الأرض بين مرتفعين ص ٢٤١.
(٢) لم نقع عليها في لسان العرب، والدخرص: ما يوصل به بدن الثوب، أو يتسع «ج» دخاريص. «انظر اللّسان مادة دخرص».
(٣) قال البيروني: سنكَلريب، وهي جزيرة سرنديب «تحقيق ما للهند: ص ١٠٢».
(٤) السُّنباذج: حجر المسنّ.

أَغْنا، يسكنها مسلمون، ونصارى، ويهود، ومجوس. ولكل أهل ملة من هذه الملل حاكم. لا يبغي بعضهم على بعض. وكلهم يرجع إلى ملك يسوسهم ويجمع كلمتهم. ولهذا البحر أربعة أودية تصب في البحر تسمى الأغباب(١).

٥ ـ ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر اليمن. وأوّله بحر الجُمْحة، وهو بلاد مَهَرَة. معترض في البحر فيمرّ بحاسك (وهو أوّل مرافىء اليمن)؛ ثم يمرّ بمِرْبَاط(٢) (ساحل بلاد ظَفَارِ)؛ ثم يمرّ بالشِّحْر (ساحل بلاد مَهَرَة)؛ ثم بُشْرَمَة ولَسْعَا (ساحلي بلاد حضرموت)؛ ثم بأَبْيَنَ؛ ثم بعدن؛ ثم بالمخنق؛ ثم بالعارة؛ ثم الباب بالمندب.

وفيه من الجزائر المشهورة:

جزيرة سقوطرة. وطولها نحو من مائة وثمانين ميلًا، وعرضها في الوسط نحو خمسة عشر ميلًا. وبها الصبر. يسكنها قوم من اليونان، تغلبوا على من كان فيها من الهند في زمن الإسكندر. وبها عيون يقال إن الشرب منها يزيد في العقل. ولهذا سميت في الكتب القديمة جزيرة العقل.

ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر الزنج، وبحر بربرا؛ ويسمى ساحله الزنجبار.

وفيه مما يلي بلاد اليمن جزائر. منها:

جزيرة دعون(٣)، وهي مدوّرة.

وجزيرة السود.

وجزيرة حورتان.

وجزيرة مروان. وفيها مدن يسكنها السُرَّاق(٤)، وهي مقابلة لبلاد مهرة.

وجزائر الديبجات. وهي كثيرة. وأهلها مفرطون في السواد. وجميع ما عندهم أسود، حتّى قصب السكر والكافور.

---

(١) الأغباب: واحدها غبّ، وهو كما قال البيروني: كالزاوية أو العطفة، يدخل من البحر إلى البرّ، وتخافه السّفن وخاصة لجهة المدّ والجزر.

(٢) مُرباط: هي مدينة بين حضرموت وعمان، وهي الفرضة لمدينة ظفار الواقعة على خمسة فراسخ منها.

(٣) من المعلوم أنّ العرب يسمّون شبه الجزيرة بالجزيرة، ولم أجد لهذا الاسم أثرًا في المصادر المتوفّرة، فلعلّها هي التي ذكرها ياقوت باسم «دغوث» وقال: إنها بلد بنواحي الشّحر من أرض عمان. «معجم البلدان ٢/ ٤٥٧».

(٤) السُرَّاق: واحدها سارق، وهو اللصّ.

وجزيرة القُمْر. وتسمى جزيرة ملاي. وطولها أربعة أشهر، وعرض الواسع منها يزيد على عشرين يومًا. وهي تحاذي جزيرة سرنديب. وفيها بلاد كثيرة أجلها كيدانة، وملاي (وإليها تنسب الجزيرة) ودهمى، وبليق، وخافورا، ودعلى، وقُمْرية (وإليها ينسب القُمْر). ويقال: إن بهذه الجزيرة خشبًا، ينحت من الخشبة منه شانٍ[1] يكون طوله ستين ذراعًا، يجذف على ظهره مائة وستون رجلًا. ولما ضاقت هذه الجزيرة بأهلها بنوا على الساحل محلات يسكنونها في سفح جبل يعرف بهم. ومنها يخرج نهر النيل[2].

٦ ـ ويخرج من هذا البحر الذي يجمع هذه القطع خليجان

أحدهما بحر القلزم، والآخر بحر فارس.

١ ـ فأما خليج القلزم. فخروجه من باب المَنْدَب. وهو جبل طوله اثنا عشر ميلًا، وسَعَة فوهته بمقدار أن الرجل يرى صاحبه من البرّ الآخر. فإذا قارب المَنْدَب يمرّ في جهة الشمال، بغلافقة، والأهواب (وهما ساحلا زبيد) ثم الجَرَدَة، ثم الشَّرْجَة، ثم عَثَّرَ (وكانت مقرّ ملك قديم) ثم بالسَّرَّيْن، وحَلْي، وعُسْفَان، والجَارُ (وهي فرضة المدينة) والجُحْفَة، والصَّفْراء، والحَوْراء، ومَدْيَن، وأَيْلَة، والطُّور، وفَارَان، ثم القُلْزُم (وكانت مدينة مسكونة، وكذلك أيلة). ومن القلزم ينعطف من جهة الجنوب فيمرّ بالقُصَير (وهي فرضة لقوص) ثم إلى عَيْذَاب (وهي فُرْضة لبلاد البُجَّة)، ثم يمتدّ إلى زَيْلع (وهي ساحل بلاد الحبشة) ويتصل ببربرا.

وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل. وعرضه في مواضع أربعمائة ميل، ودون ذلك إلى مائتي ميل إلى ما دون ذلك.

وهو بحر كريه المنظر والرائحة.

وفيه فيما بين القلزم وأيلة المكان المعروف بتاران، وهو مكان يشبه دُرْدُورَ[3] عُمَان. لأنه في سفح جبل إذا وقفت الريح على دُرْدُورَتِه انقطعت بنصفين على شُعْبَتَيْن متقابلتين؛ ثم يخرج من كُمِّيْ هاتين الشعبتين، فيثير البحر فتتبلَّد السفن باختلاف الريح

---

(١) شانٍ: أي تصنع منه السّفن المعروفة «بالشّواني».

(٢) يخلط الجغرافيون العرب كثيرًا بين هذه الجزائر المعروفة «بالقُمْر» بضم فسكون، وبين الجبل المعروف بالقَمْر، بفتح فسكون، فيجعلونها شيئًا واحدًا، ويقولون بخروج منابع النّيل من تلك الجزائر، وهذا أمر غير معقول.

(٣) الدردور: دوامة البحر التي يخشى فيها الغرق.

فلا تكاد تسلم. وهاتان الشعبتان تسميان الجبيلين، ومقدار هذا الموضع ستة أميال، ويسمى بركة الغُرُنْدُن[١]. ويقال: إنها التي أغرق الله فرعون وقومه فيها. فإذا كان للجنوب أدنى مهب، فلا يمكن سلوكه.

وفيه من الجزائر خمس عشرة جزيرة، العامر منها أربعة، وهي:

جزيرة دَهْلَك. يحيط بها نحو مائتي ميل؛ يسكنها قوم من الحبوش. مسلمون.

وجزيرة سواكن. وهي أقل من ميل في ميل. وبينها وبين البحر الحبشي بحر قصير يخاض. وأهلها طائفة من البُجَّة تسمى الخاسد وهم مسلمون، ولهم بها ملك.

وجزيرة النعمان. وبها نويس[٢] تعيش من لحوم السلاحف.

وجزيرة السامريّ. يسكنها قوم من اليهود، سامرةٌ، في عيش قَشِيف.

٢ ـ وأما خليج فارس. فإنه مثلث الشكل على هيئة القِلع[٣].

أحد أضلاعه من تِيزِ مُكْرَان. فيمرّ في بلاد كَرْمان على هُرْمُز، ومن بلاد فارس على سِيرَاف، وتوح[٤]، ونَجِيرَم، وجَنّابة، ودَارِين، وسِينِيز، ومَهْرُوبان؛ ومنها يُفضي البحر إلى عَبَّادان، ومن عبادان ينعطف الضلع الآخر فيمرّ بالخط، وهو ساحل بلاد عُمَان إلى صور، وهي ساحل بلاد عمان مما يلي بلاد اليمن؛ ثم يمتدّ إلى رأس الجُمْحَة من بلاد مَهَرَة.

والضلع الآخر يمتدّ على سطح البحر من تِيزِ مُكْرَانَ إلى رأس الجُمْحَة.

وهذه الأضلاع غير متفاوتة في الطول؛ فإن الضلع الذي يمتدّ على سطح البحر طوله خمسمائة ميل، وطول الضلع الآخر من حيث يبتدىء من تِيزِ مُكْرَان إلى أن ينتهي إلى عَبّادان ثم ينعطف إلى أن يصل إلى رأس الجُمْحَة، تسعمائة ميل.

وفيه مما يلي عَبَّادان مكان يعرف بالدُّرْدُور. وهو بين جبلين، أحدهما يسمى كُسَير، والآخر عُوَير. ويضاف إليهما جبل آخر بالقرب منهما يقال فيه «وآخر ما فيه خير» لشدّة ما يرى بها من الأهوال. وهي جبال سود ذاهبة في الهواء يتكسر الماء على شُعَبها. ولا بدّ للمراكب أن تمرّ بينها، وقلّما تسلم.

---

(١) الذي في تقويم البلدان «الغرندل». (٢) نويس: تصغير ناس.
(٣) القلع: شراع السفينة.
(٤) هكذا في الأصل، وقال ياقوت: إنها توّج، وهي التي تسمّى أيضًا توز، وهي مدينة بفارس قريبة من كازرون، شديدة الحرّ لأنها في غور من الأرض. «معجم البلدان ٢/ ٥٦».

وفي هذا البحر من الجزائر المشهورة على ألسنة التجار تسع، منها أربعة عامرة، وهي:

جزيرة خارَك. يحيط بها اثنا عشر ميلًا. وهي عامرة آهلة كثيرة البساتين. وبها مغاص اللؤلؤ.

وجزيرة كِيش. وبها مغاص اللؤلؤ أيضًا. وهي آهلة. وتسمى هذه الجزيرة في عصرنا هذا «قِيس».

وجزيرة أَوال. وهي تجاه ساحل البحرَيْن، وبينهما يوم. وبها مدينة وأوال مدينة من مدائن البحرين.

وجزيرة لافْت. وتعرف بجزيرة بني كاوان[١]. وطولها اثنان وخمسون ميلًا، وعرضها تسعة أميال. وهي آهلة.

وهاتان الجزيرتان معدودتان في بلاد جُور من أعمال فارس.

ويقال أيضًا إنه يخرج من البحر المحيط خليج ثالث في شمال الصقالبة، ويمتدّ قرب بلد بلغار المسلمين، ويسمى بحر أدريك، منسوب إلى أمّة على ساحله في جهة الشمال، ثم ينحرف نحو المشرق؛ وبين ساحله وبين أقصى بلاد الترك أرضون وجبال مجهولة خربة.

فهذا البحر المحيط وما يتفرّع منه.

٧ ـ وأما بحر مانيطش[٢]

ويُسمَّى البحر الأسود وبحر سوداق. وهي مدينة على ساحله. هي فرضة لبلاد القفجاق مما يلي القسطنطينية. وعليه أيضًا للقفجاق مدينة عظيمة تسمى قِرِم[٣]، مقصودة من كل الجهات. وبها علماء، وفقهاء، ورؤساء. وهي محدثة. مُصِّرَتْ فيما بين الثلاثين والأربعين وستمائة للهجرة النبوية. ويسمى هذا البحر أيضًا بحر الروس، لجزائر فيه يسكنها أمة تسمى الروس، نصارىٰ. وهو بحر ضخم كثير الأخوار[٤]

(١) ويسمّيها الإدريسي في كتابه: نزهة المشتاق: ابن كاوان، ويسمّيها غيره «بركاوان».

(٢) جرى المؤلّف على تعريف هذا البحر بأنه المعروف بالبحر الأسود، والحقيقة أن بحر نيطش هو المعروف الآن بالبحر الأسود، وأمّا «مانيطش» فهو المعروف ببحر آزاق، أو بحر آزوف.

(٣) قِرِم: وبها سمّيت شبه الجزيرة الموجودة في البحر الأسود، وهي شبه جزيرة القرم ص ٢٤٧.

(٤) الأخوار: مفردها الخورة وهو الخليج.

والتروش[١] والجبال الجرش[٢]. وطوله من الشمال إلى الجنوب ألف ميل وثلثمائة، وعرضه مختلف. ففي موضع ستمائة ميل، وفي موضع ثلثمائة ميل. والناس مختلفون فيه. فمنهم من يقول إنه بحر مستقل بنفسه، يخرج منه خليج القسطنطينية ويصب في بحر الروم أو هو مغيض لخليج القسطنطينية. وأكثرهم على أنه بحر مستقل بنفسه لطوله وعرضه وكثرة جزائره. وبعضهم يقول إنه خليج يخرج من البحر المحيط على ظهر بلاد الصقالبة، ويحيط به بلاد البطلمية، وبلاد الغامانية، وبلاد الأزكشية، وبلاد الشركسية، وبلاد العلان[٣] والعنكر والناشقرد.

وفيه ست جزائر عامرة، وهي كثيرة المدن والقرى، يسكنها الروس.

٨ ـ وأما بحر الخزر

وهو بحر جرجان وطبرستان والديلم. وذلك بحسب ما يمرّ عليه من البلاد. وهو ـ على ما حكاه ابن حوقل[٤] ـ مدوّر الشكل، ليس له اتصال ببحر آخر.

قال: ولو أن إنسانًا طاف به، لانتهى إلى الموضع الذي ابتدأ منه، لا يقطعه عن ذلك إلّا نهرٌ يصب فيه.

وفي شرقيّ هذا البحر بعض بلاد الديلم[٥]، وبلاد طبرستان، وجُرْجان، وبعض المسافة التي بين جرجان وخوارزم؛ وغربيه بلاد أرّان، وبلاد الخزر، وبعض مفازة الغزية[٦]؛ وشماليه مفازة الطُّغُزْغُزية؛ وجنوبيه الجيل[٧]، والديلم. وطوله ثمانمائة ميل، وعرضه ستمائة ميل.

وقال صاحب كتاب «نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق»: طوله من جهة الخزر إلى عين الهم ألف ميل، وعرضه من ناحية جرجان إلى مصب نهر إتِل ستمائة ميل، وخمسون ميلًا وهو يقطع عرضًا من طبرستان إلى مدينة باب الأبواب في أسبوع بالريح

---

(١) التروش: في الأصل: التروس، والإدريسي يستعمل كلمة «التروش» ومعناها الشُّعَب: أي الصخور التي تكون تحت سطح الماء قليلًا فتتكسّر السفن وتتحطم إذا اصطدمت بها.
(٢) الجُرْش: السّود، والجُرش من الليل: الطائفة أو القسم منه..
(٣) العلّان: ترك تنصّروا وهم خلق كثير، ويعرفون في كتب العرب باسم «اللّان».
(٤) ابن حوقل، رحّالة من علماء البلدان، تقدّم ذكره.
(٥) الدّيلم: جماعة من العجم، كانوا في الأصل صنفًا من الأكراد.
(٦) في الأصل: الغرنة، والتصحيح عن كتاب أبي الفدا. «تقويم البلدان».
(٧) في الأصل: الختل، وهو تحريف من الناسخ.

الطيبة، وفيه أربع جزائر، وهي:

جزيرة سياكوه[١]. وهي تجاه آبسكون، فرضة جرجان. يسكنها طائفة من الترك. يصاد بها البزاة البيض.

وجزيرة سهلان. وطولها نحو مائة ميل، وعرضها نحو خمسين ميلًا.

وجزيرة البركان[٢]. وهي أطيمة[٣] عظيمة تظهر منها نار في الهواء، كأشمخ[٤] ما يكون من الجبال. ترى من نحو مائة فرسخ من البر.

وجزيرة تجاه باب الأبواب. كثيرة المروج والأنهار. وهذا البحر يقال: إنه كثير التنانين[٥].

وقد اختلف فيها. فمن الناس مَن يقول إنها دواب تعظم في قعر البحر فتؤذي ما به من دواب، فيبعث الله عزَّ وجلّ عليها السحاب والملائكة فتخرجها من البحر وتقلبها في أرض يأجوج ومأجوج، فتكون طعامًا لهم. وهذا مما يحكى عن ابن عباس رضي الله عنهما. ومنهم من رأى أنها ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى النسيم وتلحق بالسحاب، كالزَّوْبعة التي تثور من الأرض وتستدير ثم تطول في الهواء. فيتوهم الناس أنها حيّات سود.

وسائر البحار تَمُدّ[٦] وتَجْزُرُ[٧]، خلا هذا البحر.

ويقال إن علة المدّ والجزر تكون عن وضع المَلَك الموكل بقاموس البحر عقبه[٨] في أقصى بحر الصين، فيفور فيكون منه المدّ؛ ثم يرفعه فيكون من رفعه الجزر. (ومنهم من روى مكان العقب الإبهام).

ومنهم مَن قال إن العلة فيه غير هذا كله. والله أعلم!

---

(١) في الأصل: بساه كوه، والتصحيح عن كتاب أبي الفدا. «تقويم البلدان».

(٢) هي شبه الجزيرة المعروفة الآن باسم «أبشرون» وفيها مدينة «باكو» المشهورة وهذه المدينة سمّاها أبو الفدا «باكوي» وسمّاها المسعودي «باكه» وقال: إن بها معدن النفط الأبيض «أي البترول» ثم قال: وفي هذه النفاطة أطمة وهي عينٌ من عيون النار لا تهدأ على سائر الأوقات تتضرّم الصعداء، فهذا هو الذي عناه النويري باسم «البركان».

(٣) كانت بالأصل «أطمة» والصواب «أطيمة» كما أثبتناه. وراجع الحاشية ٤ صفحة ٢٢٥.

(٤) الشامخ: العالي.

(٥) التنانين: مفردها «تنّين» وهو حيوان أسطوري يجمع بين الزّواحف والطّير.

(٦) المدّ: ارتفاع ماء البحر وامتداده إلى البر.

(٧) الجزر: انحسار ماء البحر وتراجعه عن الشاطىء.

(٨) العقب: عظم مؤخر القدم.

ذكر ما في المعمور من البحيرات المالحة المشهورة وما بها من العجائب

وفي المعمور بحيرات مالحة، فالذي اشتهر منها:

بحيرة خُوَارَزْم. وشكلها مثلث كالقِلْع(١)، وليس في المعمور بحيرة أعظم منها. يحيط بها أربعمائة فرسخ. يصبُّ فيها نهرا سيحون وجيحون، اللذان في أرض الهياطلة(٢)، وغيرُهما من الأنهار العظيمة الجارية في بلاد الترك. وهي مع ذلك لا تزيد ولا تعذُب.

وزعم صاحب كتاب «نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق» أن في هذه البحيرة حيوانًا يظهر على سطحها في صورة الإنسان يتكلم ثلاث كلمات أو أربعًا، بلغة لا تُفْهَم ثم يغوص. وظهوره عندهم يدل على موت مَلِك من ملوك ذلك الحين.

ومنها بحيرة الطِّرِّيخ(٣): لسمك صغير يصاد منها ويحمل إلى سائر بلاد أرمينيَةَ وأذْرَبيجان. وطولها أربع مراحلَ، وعرضها مرحلة. يُجْمَع من أطرافها البُورَق(٤). والسمكُ يوجد بها في زمان مخصوص، يأتيها في نهر يصب إليها، ويكثر حتّى يصاد بالأيدي. فإذا انقضى ذلك الزمان، لا يوجد منه شيء البتة.

وفي بلاد أذربيجان بحيرة كَبُوذان(٥). وكَبُوذان قرية في جزيرة، يسكنها ملّاحُو المراكب التي يُرْكَب فيها من هذه البحيرة. وطول هذه البحيرة نحو ثلاثة أيام، وعرضها كذلك. وفيها جزائر: منها جزيرة فيها قلعة حصينة تسمّى تلا. ولا يكون بهذه البحيرة حيوان البتةَ، لأن ماءها منتن رديء.

---

(١) القلع: شراع السّفينة.

(٢) الهياطلة: هم الصغدر والغور والعلّان، ويقال: اللّان والشركس والرّوس وكلّهم من جبل الترك. «انظر صبح الأعشى ١/ ٤٢١».

(٣) واسمُها في كتب الجغرافية العربية بحيرة «أرجيش» وهذا السّمك الذي سمّيت به كما في القاموس، سمك صغار تعالج بالملح وتؤكل، وقد ذكره ابن حوقل وقال: إنه صغير مقدار الشّبر، ويحمل إلى الجزيرة والموصل والرّقة... وبلاد أخرى.

(٤) البورق: ملح يذوب بسهولة في الماء الدافىء، وبصعوبة في الماء البارد.

(٥) هي التي ذكرها أبو الفدا باسم «بحيرة تلا» وياقوت باسم «بحيرة أرمية» وقد ذكر أن في وسطها جبلًا يقال له «كبوذان» وجزيرة فيها أربع قرى أو نحو ذلك يسكُنُها ملّاحو سفن هذا البحر. «معجم البلدان ١/ ٢٥١».

وفي بلاد البَحرَيْنِ بُحَيرة. وبها بالبحر الكبير سميت أرض هَجَر: «البحرين».

وفي الشام بأرض الغَوْر بحيرة زُغَر، وتسمّى المُنتِنةَ والميتة. لأنها لا يعيش بها حيوان ولا يتكوّن فيها شيء مما يتكوّن في المياه الجارية والراكدة من الحيوانات. وطولها ستون ميلًا، وعرضها اثنا عشر مِيلًا.

ويقال إنها ديار قوم لوط التي خَسَفهم الله بها. ويقال إنها كانت خمس مُدُن، أسماؤها: «ضيعه»، و «ضعوه»، و «عمره»، و «دوما»، و «سذوم». وكانت سذوم أكبرها وأعظمها.

ويُصبُّ في هذه البحيرة نهر الأُرْدُنّ وغيرُه من الأنهار الصغار والسيول من بلاد الكَرَك وغيرها، فلا تزيد. ويقال إن لها مَنْفَذًا إلى بحر القُلْزم. وبساحلها الشرقيّ إلى حدّ أَرِيحا معدِنُ الكبريت الأبيض، يُحْفَر عليه ويُخْرَج. ويتكوّن في هذه البحيرة شيء على شكل البقر، ويطفو على وجهها ويتفقع، فيجمع منه شيء أسود يسمونه «الحُمَّرَ»[1] وينقل إلى قلعة الكَرَك يدَّخر بها، يدخل في النِّفط.

وفي أعمال مصر بحيرة تِنِّيس، مقدارها إقلاع يوم في [عرض][2] نصف يوم. يكون ماؤها في أكثر السنة مِلْحًا من دخول ماء البحر الروميّ إليها، فإذا مَدّ النيلُ صبَّ فيها فتحلو فإذا جَزَرَ مَلُحت.

ويقال: إنه كان في مكانها بَرٌّ مسلوك تغَلَّب عليه البحر في ليلة واحدة، فما كانت أرضه مستفِلة غرق، وما كانت أرضه عالية مثل تِنِّيس وتُونَةَ بقي.

وفي وسط هذه البحيرة جزيرة صغيرة تسمى سِنْجار، يسكنها قوم صيادون.

وقال إبراهيم بن وصيف شاه في «كتاب العجائب الكبير»: إن بحيرة تِنِّيس كانت أجِنَّةً وكروما ومنازلَ ومنتَزَهات، وكانت مقسومة بين مَلِكين من ولد أَتْريبَ بن مصر، وكان أحدهما مؤمنًا والآخر كافرًا، فأنفق المؤمن ماله في وجوه البرِّ حتَّى باع حصته من أخيه وفرّق مالها أيضًا، فأصلحها أخوه وزاد فيها غُرُوسًا وفَجَّر فيها أنهارًا وبنى فيها بنيانًا، واحتاج أخوه إلى ما في يده فكان يمنَعُه ويفتخِر عليه بما في يده

(١) الحمّر: لعلّها مأخوذة من حِمِرّ: أي الشديد، وغيث حمرّ مثل فِلِزّ، أي شديد يقشر وجه الأرض، وحمّارة القيظ: شدّتها. «انظر اللّسان مادة حمر».
(٢) ما بين قوسين زيادة من معجم ياقوت ٢/ ٥١.

من المال والأجِنَّة[١]، فخاطبه أخوه في بعض الأيام فسطا عليه، وقال: أنا أَكْثَرُ مِنْك مالًا وولدًا وخيرًا، فقال له أخوه: فما أراك شاكرًا لله تعالى على ما رزقك، ويوشك أن ينزع ذلك منك. ويقال: إنه دعا عليه فعرّق ماء البحر ما كان له في ليلة واحدة.

وقيل: إن هذين اللذان ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز، فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: الآية ٣٢] الآيات؛ والله تعالى أعلم.

وبالقرب من الإسكندرية بحيرة، طولها إقلاع يوم وعرضها كذلك، يدخل إليها الماء من بحر الروم من مكان الأُشْتُوم، ويخرج منها إلى بحيرة أخرى دونها في خليج عليه مدينتان، إحداهما تسمّى الجدية، والأخرى تسمّى أتلو[٢] كثيرة المقاثي والنخل، وكلها في الرمل. ويصب في البحيرة خليج من النيل يسمّى «الحافر» طوله نصف يوم إقلاعًا، وهو كثير الطير والسمك والعُشْب.

وفي بلاد إفريقِية بحيرة بَنْزَرْت. ماؤها مِلْح، وطولها ستة عشر ميلًا، وعرضها ثمانية أميال. وعلى عشرة أميال منها بحيرة ماؤها عذب تسمّى بحيرة مِتِّيجة[٣]. فإذا جاء الشتاء وكثُرت السيول، غاضت بحيرة بنْزَرْت، وفاضت بحيرة متِّيجة حتّى تمدّها ستة شهور فلا يحلو ماؤها؛ فإذا انقضى زمن الشتاء وجاء الصيف، غاضت بحيرة متِّيجة، وفاضت بحيرة بنْزَرْت فلا يملُح ماؤها. ويصاد في هذه البحيرة في كل شهرين من شهور السنة نوعٌ من السمك لا يخالطه غيره؛ وأهل الناحية يعرفون دخول الشهور بتغيُّر السمك فيها.

وحكى صاحب كتاب «مَبَاهج الفِكَر ومَنَاهج العبر»: أن بتخوم بلاد أرمِينِيَة بحيرة يكون فيها الماء والسمك والطير ستةَ أشهر كواملَ، ثم تجف فلا يرى فيها ماء ولا سمك ولا طير سبع سنين، فإذا كانت السنة الثامنة ظهر ذلك فيها ستة أشهر ثم ينقطع. وهذا دأْبها مدى الزمان.

وبِخلاط بحيرة لا يرى فيها سمك ولا ضِفْدَع ولا سَرَطان عشرةَ أشهر من السنة، ثم يظهر ذلك كله في الشهرين الباقيين.

---

(١) الأجنّة: جمع جنة، وهي الحديقة ذات الشجر.

(٢) كذا بالأصل، وفي معجم ياقوت «أتكو» بليدة قديمة من نواحي مصر قرب رشيد. «معجم البلدان ١/ ٨٧».

(٣) وزنها في القاموس «سِكّينة» أي «مِتِّيْجَة».

وبقرية من ناحية پَنجهِير من بلاد خراسان بحيرةٌ، ما غُمِس فيها شيءٌ إلا ذاب: حديدًا كان أو خشبًا.

وكذلك بركة النَّطْرون التي بأرض مصر ما وقع فيها شيء إلا صار نَطْرونا[١] حتّى العظم والحجارة.

ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر البحر

(ما جاء من ذلك على لفظ أفعل).

يقال: أعْمَقُ من البحر. أنْدى[٢] من البحر.

ويقال: حدِّثْ عن البَحْر ولا حَرَجَ.

ويقال: جاء بالطِّمِّ والرِّمِّ. والطِّم البحر؛ والرِّم البر.

ومن أنصاف الأبيات:

* وهل يملِكُ البحرُ أن لا يَفِيضَا؟ *

* ومَنْ وردَ البحرَ استقَلَّ السَّواقِيَا! *

* أنا الغريق، فما خوفي من البلل؟ *

ومن الأبيات: [من الطويل]

هو البحرُ إلا أنَّه عَذْبُ مَوْرِدٍ وذا عجبٌ أنَّ العُذُوبةَ في البَحْر!

وقال ابن الروميّ: [من الكامل الأحذّ]

كالبَحْرِ يَرْسُبُ فيه لُؤْلُؤه سُفْلًا، وتَعْلُو فوقَهُ جِيَفُهْ

ومثله قول الآخر: [من الوافر]

كمثلِ البَحْرِ يَغْرَقُ فيه حَيٌّ ولا ينْفَكُّ تطفُو فيه جيفَهْ

وقال ابن الروميّ: [من المتقارب]

ألا فارْجُهُ واخْشَه إنَّه هو البحرُ: فيه الغنى والغَرَقْ!

---

(١) النّطرون: «البورق» وهو مادة أقوى من الملح.

(٢) أندى: أكرم.

وقال أبو نُوَاس: [من مجزوء الكامل المرفّل]

مَــنْ قــاسَ غــيْــرَكُــمُ بِــكُــمْ قـاس الـثِّـمـادَ إلـى الـبُـحُـورِ![١]

وقال آخر: [من الطويل]

إذا كنتُ قُرْبَ البَحْرِ ما لِيَ مَخلَصٌ إليه، فما يُغْني اقْتِرابِي من البحر!

وقال آخر: [من الكامل]

كالبحر يَقْذِفُ للقَرِيبِ جَواهِرًا منه، ويُرْسِلُ للبَعيد سَحائبا

ذكر شيء مما قيل في وصف البحر وتشبيهه

قال ابن رشيق عفا الله عنه: [من السريع]

الــبــحــرُ مُــرُّ الــمَــذَاقِ صَــعْــبٌ لا جُــعِــلَــتْ حــاجــتِــي إلــيْــهِ
ألــيــس مــاءً ونــحــنُ طِــيــنٌ فــمــا عــسـى صَــبْــرُنــا عــلــيــهِ؟

وقال ابن حمديس[٢]: [من المجتث]

لا أركـبُ الـبـحـرَ، أخـشـى عَـلَـيَّ مـنـه الـمَـعَـاطِـبْ!
طِـيـنٌ أَنَـا وهـو مـاءٌ والـطِّـيـنُ فـي الـمـاء ذائـبْ

وقال آخر: [من السريع]

وزاخِـرٍ لـيـس لـه صَـوْلَةٌ إلّا إذا مـا هَـبَّـتِ الـرِّيـحُ[٣]
فـهُـو إذا مـا سـكـنَـتْ سـاكِـنٌ كـأنّـمـا الـرِّيـح لـه رُوحُ

وقال أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت: [من الوافر]

تناهىٰ البحرُ في عَرْضٍ وطُولٍ وليس له على التحْقِيقِ كُنْهُ[٤]
وأعْـجَـبُ كـلَّـمـا شـاهـدتُ فـيـه سـلامَـتَـنـا عـلى الأهـوال مِـنْـهُ
فـحـسـبـي أنْ أراهُ مـن بَـعِـيـدٍ وأهـرُبُ فوق ظَهْرِ الأرض عنْهُ

---

(١) الثماد: الماء القليل الذي ليس له مدد.
(٢) ابن حمديس: هو عبد الجبّار بن أبي بكر الصقلي «تقدّم ذكره».
(٣) الصّولة: السّطوة في الحرب أو غيرها، والزّاخر: الملآن.
(٤) الكنه: المعرفة.

ومما وصف به البحر والسفن

قول بشر بن أبي خازم[١]: [من الوافر]

أُطَاعِنُ صَفَّهم ولقد أَرَانِي ... على زَوْرَاء تسجُد للرِّيَاحِ[٢]
إذَا اعترضَتْ براكبها خليجًا ... تَذَكَّر ما عليه من جُنَاحِ[٣]
ونحنُ على جوانِبِها قعودٌ ... نغُضُّ الطَّرْف كالإبل القِمَاحِ[٤]

وقال ابن تولو من أبيات: [من الطويل]

تحثُّ بِنَا فيه قِلَاصٌ كأنها ... وِعَالٌ، تبدّتْ من جبالٍ شواهِقِ[٥]
لها كافِلَا ماءٍ وريح كِلَاهُما ... يعلِّمُها في الجَرْي سبْقَ السَّوابِقِ
إذا انحدَرَتْ؛ فالماءُ ألطفُ قائدٍ ... وإن صَعِدتْ، فالريحُ أعسَفُ سائقِ

وقال السلاميّ: [من الوافر]

ومَيْدانٍ تَجُول به خُيُولٌ ... تقودُ الدَّارِعِينَ ولا تُقَاد
ركِبتُ به إلى اللَّذَّات طِرْفا ... له جِسْمٌ، وليس له فُؤادُ![٦]
جرىٰ فظنَنْتُ أنّ الأرض وَجْهٌ ... ودِجلَة ناظِرٌ، وهو السَّوَاد

وقال محمد بن هانيء[٧]: [من الطويل]

مُعَطَّفةُ الأعناقِ نَحْوَ مُتُونِها ... كما نَبَّهتْ أيْدِي الحُواةِ الأَفَاعِيَا
إذا أعمَلُوا فيها المَجَاذِيف سُرْعَةً ... ترىٰ عَقْربا منها على الماء ماشِيَا
إذا ما ورَدْنَ الماءَ شَوْقًا لبَرْدِهِ ... صدَرْنَ ـ ولم يَشْرَبْنَ ـ غَرْثىٰ صَوَادِيا[٨]

---

(١) هو بشر بن أبي خازم، من بني أسد، جاهليٌّ قديم، شهد حرب أسد وطيء، وكان في شعره إقواء، وهو اختلاف حركة الرويّ. «انظر الشعر والشعراء، ص ١٦٤».
(٢) الزوراء: السّفينة التي تميل مع الرّيح. (٣) الجناح: الذّنب.
(٤) القماح: الإبل التي ترد الماء وترفع رأسها ممتنعة من الشّراب.
(٥) القلاص: مفردها قلوص: وهي الناقة، والوعال: جمع وعل: وهو تيس الجبل، له قرنان منحنيان.
(٦) الطّرف: الكريم من الخيل.
(٧) هو محمد بن هانيء بن سعدون الأزدي الأندلسي، أبو القاسم، أشعر المغاربة على الإطلاق، يتصل نسبه بالمهلب بن أبي صفرة توفي سنة ٩٧٣ م. «فهرس الأعلام ٧/ ١٣٠».
(٨) وردن: قصدن الماء للشرب، والغرثى: الجوعى، والصّوادي: الظّماء.

وقال الرستميّ[1]: [من الخفيف]

لم نَزَلْ مُشْفِقِينَ مُذْ قيل: سارَتْ ... بـك دُهْـمٌ قـليـلةُ الأوْضـاحِ[2]
أصلُها البَرُّ وهي ساكنةٌ في البـ ... ـحـر سُـكْـنـىٰ إقـامـةٍ لا بَـراحِ
هِيَ في الماءِ وهي صِفْرٌ من الما ... ءِ سوىٰ نَضْحِ مَوْجِها النَّضَّاحِ
فـإذا أُوقِـرَتْ، فـذاتُ وَقَـارٍ ... وإذا أُخْلِيتْ، فذاتُ جِمَاحِ[3]
وتَـرَاها فـي الـلُّجِّ ذاتَ جنـاحـ ... ـيـنِ وإن لم تكنْ بِذاتِ جَنَاحِ[4]
مِنْ مَطَايَا لا يَغْتَذِيـن ولا يَسْـ ... ـأمْنَ سَيْرَ البُكُورِ بعدَ الرَّوَاحِ[5]
مُنْشَآتٌ من الجَوَارِي اللَّواتِي ... لَسْنَ من صَنْعة الجَوَارِي المِلَاحِ[6]
والـداتٌ مُـوَلَّداتٌ بـلا حِـ ... ـلِ نِـكـاحٍ ولا حَـرامِ سِـفَـاحِ
لا مِنَ البِيضِ بل من السُّودِ ألوا ... نًـا وذاتِ الألْواحِ والأزْواحِ
طـائـراتٌ مـع الـرِّيـاحِ، وطَـوْرًا ... كـاسِراتٌ بِـالـجَـرْيِ حَدَّ الـرِّيَاحِ
سائِراتٌ لا يَشْتِكِينَ سُرىٰ الليـ ... ـلِ ولا يـرتَـقِبْنَ ضَوْءَ الـصَّبَاحِ
سـاكِـنَـاتٌ بـلا خُـضُـوعِ سُكُـونٍ ... جـامِـحَـاتٌ بـلا عُـرَامِ جِمَـاحِ[7]
لا يَـخَـفْـنَ الـغِـمارَ يُـقْـذَفْـن فيـها ... ويـخَـفْـنَ الـمُرُورَ بـالـضَّحْضاحِ[8]
إنْ صَدَمْنَ الحصىٰ عَطِبْنَ ولا يعطَـ ... ـبْـنَ إمَّـا صَـدَمْـنَ حَـدَّ الـرِّمـاحِ
ما رأىٰ الناسُ من قصورٍ على الما ... ءِ سِـوَاهَـا يَـسِـيـرُ سَيْـرَ الـقِـداحِ
يتَسَبْسَبْنَ كـالأَسـاوِدِ فـي الـخِفَّـ ... ـةِ لا فـي مـعـادة الأشْـبـاحِ[9]

(١) هو محمد بن الحسن بن علي بن رستم، من أبناء أصبهان، ومن يقول الشعر في الرّتبة العليا، ومن شعراء العصر في الطبقة الكبرى. «انظر اليتيمة ٣/ ٣٥٥ وما بعدها».
(٢) الدُّهم: الخيل التي يميل لونها إلى السّواد، والأوضاح: جمع وضح، وهو البياض، أو البياض في القوائم.
(٣) أوقرت: حُمّلت، والجماح: التمرّد يقال جمحت الفرس: تمرّدت وراحت تجري على هواها.
(٤) اللُّجُّ: معظم الماء الذي لا يدرك قعره، ولجّ البحر: عرضه.
(٥) اليكور والرّواح: سير النهار واللّيل.
(٦) الجواري الأولى: السُّفن، والجواري الثانية: جمع جارية وهي المرأة غير حرّة، وفي الكلام جناسٌ تام.
(٧) جامحات: جمحت السفينة: تركت قصدها دون أن يستطيع الملاحون التحكُّم في سيرها.
(٨) الغمار: اللجُّ والماء البعيدة الغور، والضحضاح: الماء القليل والقريب القعر.
(٩) يتسبسبن: يجرين، والمعادة: التردّد ذهابًا وإيابًا، والأشباح: الظلال المترائية.

فـإذا مـا تـقَـابَـلَـتْ، قـلـت: ذوْدٌ مـن كِـبـاشٍ تـقـابـلَـتْ لـلنِّـطـاحِ[١]
شُرْعُها البِيضُ كالغمامات في الصَّيْـ ـفِ صِحَاحًا منها وغيْرَ صِحَاحِ[٢]
كـم مُـدِلٍّ بـالـجـاه والـمـالِ فـيـهـا وبــه حــاجــةٌ إلــى الــمَــلَّاحِ!
قــائــدٍ جُــنْــدَه لــهــمْ أدواتٌ نَـفْـعُـهـا ثَـمَّ فـوقَ نـفـعِ الـسِّـلَاحِ
فإذا الـبـحـرُ صـالَ، صـالُوا عليها بِـمَـاضٍ تَـمْـضـي بـغـيْـرِ جِـراحِ
يُكْثِرون الـصِّـياحَ حتّى كأنَّ الـسـ ـفْنَ تَجْري من خَوْف ذاكَ الصِّياحِ

ومما وصفت به البحار والسفن نثرًا

قال أبو عمرو[٣] صاحب الصلاة القرطبيّ يصف شانِيًا[٤] سافر فيه:

«فارقتُ مولايَ حين أخذتُ للسَّفَر عُدَّة الحَزْم، وشدَدْتُ عُقدة العزم؛ وانتظمتُ مع السَّفْر في سلك، وركبنا على اسم الله ظَهْرَ الفُلْك[٥]؛ في شانٍ عظيم الشان، أحدقَتْ به النُّطقُ[٦] إحداقَ الحَيَازِم[٧]، وأمسكَتْه إمساك الأَبَازِم[٨]؛ ثم تُتُبِّع خلَلُه فسُدّ، ورِخْوه فشُدّ؛ حذرًا على ألواحه من الانخلاع[٩]، واتصلتْ بعَرَانِيسِه[١٠] اتصالَ الجلود بالأضْلاع؛ ثم جُلْبِبتْ جِلْبَابًا من القار[١١]، وضُمِّخ في المتنَيْنِ والفَقَار؛ فامتاز بأغرب مِيسَم، وعاد كالغُراب الأَعْصم[١٢]؛ قد حَسُن منه المَخْبر، وكأنّ الكافور قد قُرِن فيه بالعَنْبر. له من التماسيح أجنابُها، ومن الخَطَاطيف أذنابُها؛ واستقلَّت ر جله بفِراشها، استِقلالَ السِّهام برِيَاشها؛ وقد مدّ قِلْعيه[١٣] ذراعيه متلقيًا من وَفْد الرياح

---

(١) الذّود: القطيع من ثلاثة إلى عشرة.
(٢) الشُرْعُ: جمع شراع، وهي قطع بيض من كتان أو غير تشرّع وتساعد السفينة على الجري.
(٣) هو يوسف بن عبد الله بن عبد البرّ، أبو عمر، من كبار حفّاظ الحديث، مؤرّخ أديب بحّاثة، له مؤلّفات عديدة. «انظر فهرس الأعلام ٨/ ٢٤٠».
(٤) الشّاني: السّفينة.
(٥) الفلك: السفينة للمذكّر والمؤنث والواحد والجمع.
(٦) النّطق: يريد بها الحبال، والنّطاق ما تشدّ به المرأة وسطها.
(٧) الحيازم: مفردها حيزوم: وهو وسط الصدر.
(٨) الأبازم: جمع إبزيم، وهو عروة معدنية لها لسان يدخل فيها طرف الحزام أو الحبل الآخر لتثبيت الحزام على الوسط.
(٩) الانخلاع: التفكّك.
(١٠) العرانيس: مفردها عرنوس، وهو قضيب أو شعبة من خشب ونحوه.
(١١) القار: الزفت.
(١٢) الأعصم: الذي في جناحيه بياض.
(١٣) القلع: شراع السفينة.

مصافِحه، ومستهديًا منها منافحه. تقلَّد الحكم عليها إشتِيَامٌ[١] ذو تيقظ واستبصار، واستدلالٍ على الأعماق والأقصار؛ يستدِلُّ باختلاف المياه إذا جَرى، ويهتدي بالنجوم إذا سرى؛ قد جعل السماء مِرْآة ينظُر فيها، ويحذَر من دَجْنٍ[٢] يُوافيها؛ فإذا أصدأها الظلامُ بحَنَادِسه[٣]، وصقلها الضياء بمَدَاوسه؛ يسبِّح الله في مَصْبَحه ومَمْساه، ويُبَسْمِل[٤] في مَجْراه ومَرْساه، ويذكر ربًّا يحفَظُه ولا ينساه. قد اتَّخذ فيه مُوَاتِيَه[٥]، من أنجد النَّواتِيه[٦]؛ مشمِّرين الأثواب، مدَبِّرين بالصواب؛ يفهَمُون عنه بالإيماء، ويتصرَّفون له تصرُّف الأفعال للأسماء؛ ويترَنَّمون عند الجَذْب والدَّفْع، والحطِّ والرفْع: بهَيْنَمَةٍ[٧] تبعثهم على النَّشَاط. والجَمَام[٨]، وتؤدِّيهم في عملهم بالتمام. فخرجنا ونَفْحُ الريح نَسِيم، ووجه البحر وَسِيم؛ وراحةُ الرِّيح تُصافحُ عُبَابه مُصافَحة الخِلّ، وتطوِي حُبابه طَيَّ السِّجل[٩]؛ وتجول من لُجُجَه أبرادًا، وتَصُوغُ من حُبُكه أزرادًا: كأنما ترسُم في أديم رَقْشًا، أو تفتَحُ في فُصوصٍ نَقْشًا. فلما توسطنا ثَبَج[١٠] البَحْر، وصرنا منه بين السَّحْر والنَّحر؛ صَحَتِ الريح من سُكْرِها، وطارت من وَكْرِها؛ فسمعنا من دَوِيّ البحر زئيرًا، ومن حبال الشاني صَفِيرًا؛ ورأيناه يُزْبِد ويضطرب، كأنَّه بكأس الجنوب[١١] قد شَرِب؛ واستقبلنا منه وجهٌ باسر[١٢]، وطارت من أمواجه عِقْبانٌ كواسِرْ؛ يضْطَرِب ويضْطَفق، ويختلَف ولا يتَّفِق؛ كأن الجوّ يأخُذُ بنواصِيها[١٣]، ويجْذِبها من أقاصيها؛ والشاني تلعب به أكُفُّ الموج، ويَفْحَص منها بكلكله[١٤] فوجًا بعد فَوْج؛ ويجوب منها ما بين أنْجاد وأَغْوار، وخنادقَ وأصوار؛ والبحرُ تحتَنا كأرض تميد بأهلها، وتتزلزل بوعْرِها وسَهْلِها؛ ونحن قُعودٌ، دُودٌ على عُود؛ قد نبَتْ بنا من القَلَق أمكنَتُنا، وخَرِستْ من الفَرَقِ[١٥] ألسنتُنا؛ والرَّشُّ[١٦] يكتَنِفُنا من كل جانب، ويَسِيلُ من أثوابنا سيلَ المَذَانِب. فشمِمْنا رِيحَ الموت، وظنَّنا التلفَ والفَوْت؛ وبقينا

---

(١) الإشتيام: هو رئيس الملاحين، لفظ أعجمي أخذه العرب.
(٢) الدّجن: إلباس الغيم الأرض وأقطار السّماء. (٣) الحندس: الظلمة الشديدة.
(٤) يُبسمل: يقول: «بسم الله الرحمٰن الرحيم». (٥) المواتية: العمّال الذين يطيعون.
(٦) النّواتيه: البحارة. (٧) الهينمة: إصدار الأصوات الخفيّة.
(٨) الجمام: الارتياح، وذهاب التعب. (٩) السِّجل: الكتاب والصحيفة.
(١٠) الثبج: من البحر وسطه. (١١) الجنوب: الرّيح تهبّ من الجنوب.
(١٢) الباسر: العابس المتجهّم.
(١٣) النّواصي: مفردها ناصية، وهي مقدّم الرأس من الناس.
(١٤) الكلكل: الصدر. (١٥) الفرق: الخوف.
(١٦) الرش: الماء الذي يتساقط على السفينة بعد أن يضربها الموج.

في هَمٍّ ناصب، وعذابٍ واصب[١]؛ حتَّى انتهينا إلى كَنَف الجَوْن[٢]، وصرنا منه في كنّ وصَوْن؛ وهدأ من البحر ما استشرى، وتنادَيْنا بالبُشْرىٰ؛ ووطِئنا من الأرض جدَدًا[٣]، ولبسنا أثواب الحياة جُدُدا!... ...».

ومن رسالة لأبي عامر بن عقال الأندلسيّ عفا الله عنه

جاء منها:

« ... وكان جَوَازه[٤]، أيده الله على بحر ساكن، قد ذل بعد استصعابه، وسَهُل بعد أن رأى الشامخَ من هِضَابه؛ وصار حيُّه مَيْتًا، وهديره صَمْتًا؛ وجِبالُه لا تَرى بها عِوَجًا ولا أَمْتًا[٥]؛ وضَعُف بعد تعاطيه، وعقَدَ السِّلْم بين موجه وشاطِيه. فعبرَ آمِنًا من لَهَواتَه[٦]، متملِّكًا لصَهَواته؛ على جواد يقطَع البحر سَبْحًا، ويكاد يسبِق الريحَ لَمْحًا؛ لا يحمل لِجامًا ولا سَرْجًا، ولا يعرف غير اللُّجَّة سَرْجًا؛ فللَّه هو من جواد، له جسمٌ وليس له فُؤاد؛ يخترِق الهواء ولا يَرْهَبُه، ويركض في الماء ولا يَشْرَبُه!... ...».

ومن رسالة للأُستاذ ابن العميد[٧] في مثل ذلك

جاء منها:

« ... وكأن العشاريات[٨] وقد رُدِّيتْ بالقار، وحُلِّيت باللُّجَين والنُّضَار[٩]؛ عرائسُ منشورةُ الذوائب، مخضوبة الحواجب؛ موشحةُ المَناكِب، مقلَّدة الترائب؛ متوَّجة المَفَارق، مكلَّلة العواتِق، فِضِّية الحُلَلِ والقَرَاطق[١٠]؛ أو طواويس أَبْرزَتْ رقابها، ونشرت أجنحتها وأذنابهَا؛ وكأنها إذا جدّتْ في اللَّحَاق، وتنافست في السِّباق؛ نوافِرُ نَعام، أو حوافِلُ أنعام؛ أو عقاربُ شالت[١١] بالإبَر، أو دُهْمُ الخيل

---

(١) الواصب: الثابت الدّائم.
(٢) كنف الجون: الكنف: الحضن، والجون: الخليج الصغير، يريد أنهم دخلوا الخليج حيث تحطّ السّفن رحالها.
(٣) الجدد: الأرض المستوية.
(٤) جوازه: مروره.
(٥) الأمَت: العيب.
(٦) اللّهاة: اللحمة المشرفة على الحلق، يريد أنه عبر البحر وهوَ آمنٌ ابتلاعه والوقوع بين فكّيه.
(٧) ابن العميد: هو محمد بن الحسين، أبو الفضل، وزير، من أئمّة الكتّاب، قصده الشعراء ومدحوه لكرمه، ومنهم المتنبّي. «انظر فهرس الأعلام ٦/٩٨».
(٨) العشاريات: نوع من السّفن.
(٩) اللّجين: الفضة، والنّضار: الذهب.
(١٠) القراطق: جمع قرطق.
(١١) شالت: رفعت ذنبها.

واضحة الحجول[١] والغُرَر؛ وكأن المجاديف طير تنْفُض خوافيها[٢]، أو حبائبُ[٣] تعانِقُ حبائب بأيدِيها. . . . . . .».

الباب السابع
من القسم الرابع من الفن الأوّل
في العيون والأنهار والغُدْران
وما وُصِفت به البرك والدوالِيبُ[٤] والنَّواعِير والجَداوِل

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢١].

قال المفسرون: هو المطر. ومعنى سَلَكه أدخله في الأرض، وجعله عيونًا ومسالك ومجارِيَ كالعُروق في الجسَد.

قال أبو الفرج، قدامةُ بن جعفر: مجموع ما في المعمور من الأنهار في الأقاليم السبعة مائة نهر وأربعة وثمانون نهرًا، منها:

في الإقليم الأول ثلاثة وعشرون نهرًا؛ وفي الإقليم الثاني تسعة وعشرون نهرًا؛ وفي الإقليم الثالث ستة وعشرون نهرًا؛ وفي الإقليم الرابع أربعة وعشرون نهرًا؛ وفي الإقليم الخامس ثمانية وعشرون نهرًا؛ وفي الإقليم السادس ستة وعشرون نهرًا؛ وفي الإقليم السابع ثمانية وعشرون نهرًا.

ثم قال: وفي هذه الأنهار ما جَرَيانه من المشرق إلى المغرب، كنهر نَهاوَنْد ونهر سِجِسْتان؛ وما جَرَيانه من الشمال إلى الجنوب كدِجْلة؛ وما جَرَيانه من الجنوب إلى الشمال، كنهر النِّيل ونهر مِهْران[٥]؛ وما جَرَيانه مركَّب من هذه الجهات، كنهر الفرات وجَيْحُون ونهر الكُرِّ[٦].

---

(١) الحجول: بياض في قوائم الفرس.
(٢) الخوافي: وهي ريش مؤخّرة الجناح، إذا ضمّ الطائر جناحه خفيت.
(٣) الحبائب: جمع حبيب.
(٤) الدّواليب: مفردها دولاب، وهو آلة مستديرة من حديد أو خشب تدور على محور.
(٥) مهران: اسم أعجمي، موضع لنهر السّند، وأصله بالفارسية «مهران روذ» يصبّ في بحر فارس. «معجم البلدان ٥/ ٢٣٢».
(٦) هو نهر بأرض أرمينية، يأتي ذكره بعد قليل في الكتاب.

وسنذكر المشهور منها.

فأما نهر النيل

فزعم قُدامة بن جعفر أن انبعاثَه من جبل القمر وراء خطِّ الاستواء، من عين تجري منها عشرة أنهار، كلُّ خمسة منها تنصب إلى بَطِيحة[١]. ثم يخرج من كل بطيحة نهران، وتجري الأنهار الأربعة إلى بَطِيحة كبيرة في الإقليم الأوّل. ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل.

وقال صاحب كتاب «نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق»: «إن هذه البحيرة تسمَّى بحيرة كُورَى منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولها، متوحِّشون: يأكلون من وقع إليهم من الناس. ومن هذه البحيرة يخرج نهر غانَةَ، ونهر الحبشة؛ فإذا خرج النِّيل منها يشق بلاد كُورَى ثم بلاد ننه (طائفة من السودان أيضًا، وهم بين كانم والنُّوبة)، فإذا بلغ دُنْقُلة (مدينة النوبة) عَطَف من غربيها إلى المغرب، وانحدر إلى الإقليم الثاني، فيكون على شطَّيه عمارة النُّوبة. وفيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن والقرى. ثم يشرّق[٢] إلى الجَنَادل[٣]، وإليها تنتهي مراكب النوبة انحدارًا، ومراكب الصعيد إقلاعًا. وهناك أحجار مضرسة[٤] لا مُرورَ للمراكب عليها إلا في إبَّان زيادة النيل. ثم يأخذ على الشَّمال فيكون على شرقيّه مدينة أُسْوان من بلاد الصعيد الأعلى؛ ثم يمرّ بين جبلين هما يكتنفان لأعمال مصرَ، أحدهما شرقيّ والآخر غربيّ حتّى يأتي مدينة مصر فتكون في شرقيه. فإذا تجاوزها بمسافة يوم، انقسم قسمين: أحدهما يمرّ حتّى يصب في بحر الروم عند مدينة دمْياط، ويسمّى بحر الشرق؛ والآخر ـ وهو عمود النيل ومعظمه ـ يمرّ إلى أن يصب في بحر الروم أيضًا عند مدينة رَشِيد، ويسمّى بحر الغرب.

قالوا: وتكون مسافة النيل من منبعه إلى أن يصب في رشيد سَبْعمائةِ فرسخ وثمانيةً وأربعين فرسخًا. وقيل إنه يجري في الخراب أربعةَ أشهر، وفي بلاد السودان شهرين، وفي بلاد الإسلام شهرًا».

وروى البخاري في «صحيحه» عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، عن النبيّ ﷺ في حديث المعراج، قال: «ثم رُفِعتُ إلى

(١) البطيحة: المكان المتسع يمرّ منه السّيل، فيترك فيه الرّمل والحصى الصغار.
(٢) يشرّق: أي يتّجه شرقًا. (٣) الجنادل: الصخور الكبيرة.
(٤) مضرّسة: أي تشبه الضّرس، مسنّنة.

سِدْرة المنتهىٰ[١]، فإذا نَبْقُهَا[٢] مثلِ قِلَال[٣] هَجَر[٤]، وإذا ورَقُها مثلُ آذانِ الفِيلَة. (قال: هذه سدرة المنتهىٰ) وإذا أربعةُ أنهار نهرانِ باطنانِ، ونهرانِ ظاهرانِ، فقلتُ: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: أمّا الباطنانِ، فنهران في الجنة؛ وأمّا الظاهران، فالنيلُ والفُراتُ». وليس في الأرض نهر يزيد حين تنقص الأنهار وتغيض، غيره. وذلك أنّ زيادته تكون في القيظ الشديد في شمس السَّرطان والأسد والسنْبُلة.

وقد حكي في فضائل مصر أن الأنهار تمدّه بمائها، وذلك عن أمر الله تعالى.

وقال قوم: إن زيادته من ثلوج يُذِيبها الصيفُ على حسب مَدَدها، كثيرة كانت أو قليلة؛ وفي مَدَده اختلاف كثير.

وكان منتهىٰ زيادته قديمًا ستة عشر ذراعًا، والذراع أربعة وعشرون إصبعًا، بمقياس مصر. فإن زاد عن ذلك ذراعًا واحدًا، زاد في الخراج مائة ألف دينار: لما يُرْوى من الأراضي العالية.

والغاية القصوىٰ في الزيادة ثمانية عشر ذراعًا[٥] في مقياس مصر. فإذا انتهىٰ إلى هذا الحدّ، كان في الصعيد الأعلى اثنين وعشرين ذراعًا: لارتفاع البِقاع التي يمرّ عليها.

فإذا انتهت زيادتُه، فتحت خُلْجانات[٦] وترع[٧] تتخرّقُ المياه فيها يمينًا وشمالاً إلى البلاد البعيدة عن مجرى النيل.

وللنيل ثماني خُلْجانات، وهي: خليج الإسكندرية؛ وخليج دِمياط؛ وخَليج مَنْف؛ وخليج المَنْهىٰ (حفره يوسفُ الصدّيق عليه السلام)؛ وخليج أَشْموم طَنَّاح؛ وخليج سَرْدُوس (حفره هامانُ لفرعونَ)؛ وخليج سَخَا؛ وخليجٌ حفره عَمْرو بن العاص، يجري إلى أن يصُبَّ في السِّباخ[٨].

---

(١) سدرة المنتهى: شجرة في أقصى الجنّة عن يمين عرش الله.
(٢) النبق: ثمر السّدر.
(٣) القلال: جمع قلّة، وهي إناء يشرب به ويكون من الفخّار.
(٤) هجر: قرية قرب المدينة، وقال: بل عُملت بالمدينة على مثل قلال هجر. «انظر معجم البلدان ٥/٣٩٣».
(٥) الذراع: مقياس طوله ما بين الخمسين إلى السبعين سنتمترًا.
(٦) الخلجانات: جمع خليج ـ وهو القطعة من البحر داخل البرّ.
(٧) التّرع: جمع ترعة وهي مضيق يحفره الإنسان بين بحرين أو نهرين، أو القناة الواسعة التي تتخذ للسّقي.
(٨) السّباخ: من الأرض ما لم يفلح ولم يغمر لملوحته.

ويحصل لأهل مصر إذا وفىٰ النيلُ ستة عشر ذراعًا ـ وهي قانون الريّ ـ فَرَحٌ عظيم: بحيث إن السلطان يركَبُ في خواصّ دولته وأكابر الأمراء في الحَرَاريق[١] إلى المِقْياس، ويمدّ فيه سماطًا[٢] يأكل منه الخواصّ والعوامّ، ويَخْلَع على القَيَّاس، ويَصله بصلة مقرّرةٍ له في كلّ سنة.

وقد ذكر بعض المفسرين «للكتاب العزيز» أن يوم «وفاء النيل» هو اليوم الذي وَعَد فيه فرعون موسى بالاجتماع، وهو قوله تعالى إخبارًا عن فرعون ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: الآية ٥٩]، والعادة جارية أن اجتماع الناس للتخليق[٣] في هذا الوقت.

ومتى قصَّر النيل عن هذا المقدار، غَلتِ الأسعارُ.

وهو إذا ابتدأ في زيادته يكون مخْضَرًّا، ثم محمرًّا، ثم كَدِرًا.

وإذا انتهى في الزيادة غشَّى الأرض، وتصير القرى فوقَ الرَّوابي فلا يُتوصَّل إليها إلا في المراكب أو على الجسور الممتدّة التي تُنفَق عليها الأموال الكثيرة وتتخذ لحفظ الماء.

فإذا انتهى ريّ مكان وأخذ حدّه، قُطِع جَسْر ذلك المكان من مكان معروف (يعرفه خَوَلة[٤] البلاد ومشايخها) تروىٰ منه الجهة التي تليها مع ما تجمع فيها من الماء المختص بها. ولولا إتقان هذه الجسور وحفر الترع لقَلَّ الانتفاع بالنيل.

وقد حكي أنه كان يُرْصَد لعمارة الجسور في كل سنة ثلثُ الخَرَاج لعنايتهم بها: لما يترتب عليها من المصالح، ويحصُل بها من النفع في ريّ البلاد.

وقد وصف بعض الشعراء، النيل طلوعه وهُبُوطه، فقال: [من الكامل]

واهًا لهذا النِّيلِ، أيُّ عَجِيبةٍ بِكْرٍ بمثل حديثِها لا يُسْمَعُ![٥]
يَلْقىٰ الثرىٰ في العامِ وهو مسَلِّم حتى إذا ما مُلَّ عادَ يُوَدِّعُ
مستَقْبَلٌ مثلَ الهلال، فدهْرُه أبدًا يَزيد كما يَزيد ويَرْجعُ

وللشعراء فيه أوصاف وتشبيهات، نذكرها بعدُ إن شاء الله تعالى في موضعها.

(١) الحراريق: أنواع من السّفن ترمي الأعداء بالنيران في البحر.
(٢) السّماط: ما يمد ليوضع عليه الطعام في المآدب ونحوها.
(٣) التخليق: أي الاختلاق، وهو افتراء القول واختراعه.
(٤) الخولة: العبيد والإماء.
(٥) واهًا: كلمة تعجّب من طيب الشيء.

وهذا النهر مخالف في جريه لسائر الأنهار، لأنه يجري مما يَلِي الجنوب مستقبل الشمال. وكذلك نهر مِهْرانَ بالسِّند، ونهر الأُرُنْط، وهو نهر حِمْص وحَمَاة، ويسمّى العاصيَ لمخالفته للأنهار في جريها. وما عداها من الأنهار جريُها من الشمال إلى الجَنُوب: لارتفاع الشمال عن الجنوب وكثرة مياهه.

وهو أخفُّ المياه وأحلاها وأعمُّها نفعًا وأكثَرُها خراجًا.

وقد حُكي أنه جُبِي في أيام كيقاوش (أحد ملوك القبط الأُوَل) مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار، وجباه عزيز مصر مائة ألف ألف دينار؛ وجباه عمرو بن العاص اثنَيْ عشرَ ألف ألف دينار؛ ثم رَذُل إلى أن جُبِيَ أيام القائد جوهر[١] (مَوْلىٰ المعزّ العُبيديّ) ثلاثةَ آلاف ألف ومائتَيْ ألف دينار.

وسبب تقهقره أن الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان يُنْفَق في حفر تُرعه وإتقان جسوره وإزالة ما هو شاغل للأرض عن الزراعة كالقَصَب والحَلْفاء[٢].

وحكى ابن لَهِيعة[٣] أن المرتَّبين لذلك كانوا مائة ألف وعشرين ألف رجل: سبعُون ألفًا للصعيد، وخمسون ألفًا للوجه البحريّ.

وحكى ابنُ زولاق[٤] أن أحمد بن المدبر لما وَلِي الخراج بمصر، كشَف أرضها فوجد غامرها[٥] أكثَرَ من عامرها، فقال: والله لو عَمَرها السلطان، لوفَتْ له بخراج الدنيا.

وقيل إنها مُسِحَتْ أيامَ هشام بن عبد الملك، فكان ما يركبه الماء العامر والغامر مائةَ ألِف ألف فدان[٦]. والفدان أربعمائة قصبة[٧]، والقصبة عشرة أذرع.

---

(١) هو جوهر الصقلي بن عبد الله الرومي، أبو الحسن، القائد، باني مدينة القاهرة والجامع الأزهر، كان من موالي المعزّ العبيدي، وكان شجاعًا كثير الإحسان، لم يبق في مصر شاعرٌ إلّا رثاه توفي بالقاهرة سنة ٩٩٢ م. «فهرس الأعلام ٢/١٤٨».

(٢) الحلفاء: نبات محدّد الأطراف يصنع من ورقه القفف والحُصر والحبال ونحوها.

(٣) ابن لهيعة: هو عبد الله بن لهيعة بن فرعان الحضرمي المصري، قاضي الدّيار المصرية، وكان من الكتّاب للحديث والجمّاعين للعلم والرّحالين فيه. «فهرس الأعلام ٤/١١٥»

(٤) ابن زولاق: هو الحسن بن إبراهيم بن زولاق الليثي، كان فاضلًا في التاريخ، وله فيه مصنّف جيد، وله كتب في خطط مصر، وكتاب «أخبار قضاة مصر» جعله ذيلًا على كتاب أبي عمرو الكندي الذي ألّفه في أخبار قضاة مصر. «وفيات الأعيان ٢/٦١، ٦٢»

(٥) الغامر: الأرض الخراب.

(٦) الفدّان: في المساحة نحو ٤٢٠٠ م^2.

(٧) القصبة: مقياس قدره عشرة أذرع.

واعتبر أحمد بن المدبر ما يصلح للزراعة بمصر في وقت ولايته، فوجده أربعة وعشرينَ ألف ألف فدان. والباقي استَبْحَر وتَلِف.

واعتبر مدّة الحَرْث فوجدها ستين يومًا. والحراث يحرُث خمسين فدانًا، فكانت محتاجة إلى أربعمائة ألف وثمانين ألف حرّاث.

وأما الفرات

فهو أحد الرّافدين، ويقال الوافِدين، والآخر دجلة، سميا بذلك لأنهما يجريان في جانبي بغداد: دجلة من شرقيها، والفرات من غربيها: يأتي إليها من دجلة من واسط، والبصرة، والأُبُلة، والأهواز، وفارس، وعُمَان، واليمامة، والبحرين، وسائر بلاد الهند، والسند، والصين؛ ويأتي إليها من الفرات من الموْصِل، وأَذْرَبِيجان، وأرْمينِيَة، والجزيرة، والثغور، والشام، ومصر، والمغرب؛ وقد تقدّم ذكرنا لحديث البخاري أنه يجري من تحت سدرة المنتهىٰ.

وأما مبتدأ جريه الذي يعرفه الناس، فمن مدينة قاليقَلَا من نهر يسمَّى أودَخش، ويجري مقدار أربعمائة وخمسين ميلًا مغرِّبًا، ثم يخرج من جهة الجنوب حتّى يمرّ بين ثغرَيْ[1] مَلَطْية، وسُمَيساط؛ ثم إلى جَسْر مَنْبج؛ ثم يعطف ويأخذ جهةَ الجنوب حتّى يصل إلى بالِسَ ويمر بنَصِيبين، والرَّقة، وقَرْقِيسيا، والرَّحْبة؛ فيَلْتَحِف على عانات؛ ثم يمتدّ حتّى يمر بهِيت[2] والأنبار[3]. فإذا جاوزها انقسم قسمين: قسم يأخذ نحو الجنوب قليلًا وهو المسمّى بالعَلْقم، ينتهي إلى بلاد سورا وقصر ابن هبيرة والكوفة والحِلَّة، إلى البَطِيحة التي بين البصرة وواسط؛ والقسم الآخر يسمّى نهر عيسىٰ، منسوب لعيسىٰ بن عليّ بن عبد الله بن عباس، وهو ينتهي إلى بغداد، ويمرّ حتّى يصبّ في دجلة.

قال المسعوديّ: وقد كان الأكثر من ماء الفُرَات ينتهي إلى بلاد الحيرة؛ ثم يتجاوزُها ويصب في البحر الفارسيّ، وكان البحر يوم ذاك في الموضع المعروف بالنَّجَف في هذا الوقت، وكانت مراكب الهِند والصين ترد على ملوك الحِيرة فيه.

---

(١) الثغر: الفرجة في الجبل أو غيره.

(٢) هيت: سمّيت هيت لأنها في هوّة من الأرض، وهي بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار. «معجم البلدان ٥/ ٤٢١».

(٣) الأنباء: مدينة في العراق، وهي من نواحي بغداد على شاطىء الفرات، قال ابن حوقل: هي أوّل بلاد العراق، ومنها نقل الخطّ العربي إلى مكّة. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٣٣٦».

قال: والموضع الذي كان يجري فيه بَيِّن إلى زمَن وضعي هذا الكتاب، يعني «كتاب مروج الذهب» وهو في سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، ويعرف بالعتيق، وعليه كانت وقعة القادسية[١].

وطول الفُرات من حيثُ يخرُج عند ملَطْية إلى أن يأتي ما يأتي منه إلى بغداد ستُّمائةِ فرسخ وثلاثةٌ وعشرون فرسخًا، وفي شطِّه مُدُن في جزائر تعدّ من أعمال الفُرات، وهي الريسة، والناوُوسة، والقَصْر، والحَدِيثة، وعانات، والدَّاليةُ.

وأما نهر دجلة

ويسمّى السلامة، وبه سميت بغداد دار السلام على أحد القولين، والثاني السلام على الخلفاء فيها.

وهذا النهر فارز بين العِراق والجزيرة، وانبعاثه من أعين بجبال آمد، ويصب إليه نهران يخرجان من أَرْزَن الروم ومَيَّا فَارقِين وعيون أخرى من جبال السلسلة، فيمرّ ببلد، ثم بالموصل فيصب فيه نهر الخابور الخارج من بلاد أرمينية بين بلاد سورا وقبر سابور؛ ويصب فيه الزاب الأكبر الخارج من بلاد أذربيجان على فرسخ من الحديثة. ويسمى المجنون لحدّته وشدّة جريه، ثم تمرّ دِجلة فيصب فيها الزاب الأوسط، ومخرجه من الفرات ويجري بين إرْبِل ودَقُوقاء، ويصب في دِجلة أيضًا الزاب الأصغر، ومخرجه أيضًا من الفرات.

وهذه الزوابي الثلاثة أنبطها[٢] زاب بن طِهماسب: أحد ملوك الفرس الأول، ثم تمرّ دِجلة بتَكْريت[٣] إلى أن تتجاوز سامَرًّا قليلًا فيقع فيها نهر عيسى ويمرّ حتّى يشقّ بغداد. فإذا تجاوزها صب فيه نهرٌ يخرُج من بلاد أرمينيَةَ يسمّى تامَرًّا بعد أن يمرّ بناصلو ثم ببَاجِسْرَا فيسمّى النهروان، ويشق مدينةً تعرف به، ثم تمرّ دجلة بجَرْجَرايَا والنُّعمانية ثم بواسِط، ثم إلى البطائح، ثم تخرج منها فتمرّ بالبصرة وتجري حتّى تنتهي إلى عَبَّادان، وعندها تصبُّ في البحر الفارسيّ.

---

(١) القادسيّة: مدينة بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخًا، سمّيت القادسيّة بقادس هراة وبها كان يوم القادسيّة بين المسلمين والفرس. «انظر معجم البلدان ٤/ ٢٩١».

(٢) أنبطها: أظهرها بعد اختفاء.

(٣) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، ولها قلعة حصينة. «انظر معجم البلدان ٢/ ٣٨».

وما يمرّ من دجلة بالبصرة يملُح إذا مدّ البحرُ فلا يُشرب منه البتة؛ ويحلو إذا جَزَر.

فأهل البصرة ينتظرون بالاستقاء منه الجَزْر، وهو يمدّ بكرةً ويَجْزِر عِشاء.

وكانت المراكب التي ترد من الهند والصين تدخُل في دِجلة من بحر فارس إلى مدينة المَدَاين، فاتفق أن انبثَق في أسافل كَسْكر[١] بَثْقٌ[٢] عظيم على عهد قُباذ بن فيروز[٣] فأهمل حتّى طغىٰ ماؤه وغرّق عماراتٍ وضياعا فصارتْ بطائح.

ويسمّى هذا البَثْق دِجلة العَوْراء لتحوّل الماء عنه. وصار بين دِجلة الآن ودِجلة العوراء مسافة بعيدة تسمّى بطن جُوخىٰ، وهو من حدّ فارس من أعمال واسط إلى نحو السُّوس من أعمال خُوزِستان.

ويقال إن كسرى أنفق أموالًا عظيمة على أن يحوّل الماء إليها فأعياه ذلك. ورامه خالد بن عبد الله القَسْري[٤] فعجَز عنه.

ومقدار مسافة جَرْيِ نهر دِجلة إلى أن يصب في البحر الفارسي ثلثمائة فرسخ؛ ومقدار البطائح ثلاثون فرسخًا طولًا وعرضًا. وهي تفيض في كثير من الأوقات حتى يخشىٰ على بغداد الغرق.

وأما نهر سِجِسْتان

ويسمّى الهِنْدمَنْد[٥]، فيقال إن منوچهر بن أيراج[٦] بن أفريدون أَنبطه.

وهو يجري من عيون في بلاد الهند ويمرّ ببلد الغُور؛ فإذا تجاوزها، مرَّ من أعالي سجِستان على برزُخّج، ثم على بُسْط[٧]، ثم على

(١) كسكر: معناه عامل الزّرع، وهي كورة واسعة ينسب إليها الفراريج الكسكرية. «انظر معجم البلدان ٤/ ٤٦١».

(٢) البثق: موضع انبثاق الماء من نهرٍ ونحوه.

(٣) هو قباذ بن فيروز من الطبقة الرابعة لملوك الفرس «الأكاسرة» في عهده ظهر مزدك الزّنديق وادّعى النبوّة. «صبح الأعشى ٤/ ٤١٣».

(٤) هو خالد بن عبد الله القسري، أبو الهيثم، أمير العراقين، وأحد خطباء العرب وأجوادهم يمانيّ الأصل، رُمي بالزّندقة قتل سنة ٧٤٣ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٩٧».

(٥) سمّاه المسعودي: «الهرمند» في كتاب التنبيه والأشراف.

(٦) سمّاه المسعودي: «أيران» وقال: إن أيران تسميه الفرس «أيراج».

(٧) هي «بُست» المدينة المشهورة التي منها «أبو الفتح البستي» الشاعر المعروف.

دونج[١] فتتفرّع منه أنهار تجري في شوارعها. ثم يمرّ عمود النهر حتّى يصب في بحيرة زَرَة.

وطول هذا النهر من حيث يبتدىء إلى نهايته مائة فرسخ.

وزعم قوم أنه يخرج من نهر الكَنْك.

وأما نهر مِهْران

وهو نهر السند[٢]، فهو يشبه نِيلَ مصر في زيادته ونَقْصه وأصناف حيوانه وما يتفرّع منه من الخُلْجان.

وهو يستمدّ من أربعة أنهر: نهران يجريان من السند، ونهر من ناحية كابُل، ونهر من بلاد قِشْمير. وتجتمع فتكون نهرًا واحدًا، ويجري حتّى ينتهي إلى الدور فيمرّ بها، ومن ثم يسمّى نهر مِهْران، ثم يمرّ بالمُولْتان، ثم بالمنصورة، ثم يجري إلى دَيْبُل. فإذا تجاوزها صب في بحر الهند على ستة أميال منها.

وطوله ألف فرسخ.

وأما نهر جَيْحون[٣]

ويسمّى بالفارسية «به روذ» وهو «نهر بلخ»[٤].

وانبعاثه من بحيرة في بلاد التُّبَّتِ، مقدارها طولًا وعرضًا أربعون ميلًا، تجتمع من أنهار الخُتَّل.

فإذا خرج منها مر بوَخّان فيسمّى نهر جرياب[٥]، ويجري من المشرق إلى المرغب إلى أعلى حدود بَلْخ. ثم يعطف إلى ناحية الشمال إلى أن يصير إلى التِّرْمِذ، ثم منها إلى زَمّ وآمُل من بلاد خُراسان. ثم يجري إلى أن يمرّ ببلاد خُوارَزْم فيشق قصَبَها.

---

(١) لعلها المدينة التي ذكرها ياقوت وغيره باسم «زرنج» وقال: إنها قصبة سجستان. «انظر معجم البلدان ٣/ ١٣٨».

(٢) لا يزال اسم «مهران» علمًا يطلقه بعض الهنود إلى الآن على القسم الأسفل من نهر السِّند.

(٣) في الأصل: «جيحان» وهو خطأ لأن جيحان نهر آخر في آسيا الصغير، ويعرف بنهر المصيصة ويصب في بحر الشّام. «انظر معجم البلدان ٢/ ١٩٦».

(٤) يسمّى أيضًا نهر كالف، باسم قلعة حصينة، قال ياقوت: إنّها قائمة على طرفه شبيهة بالمدينة.

(٥) في الأصل: «جوّاب» والتصحيح عن ابن حوقل والاصطخري.

فإذا تجاوزها تشعَّب منه أنهار وخُلجان يمينًا وشمالًا، تصُب إلى مستنقَعات وبطائحَ يصاد فيها السمك.

ثم تخرج منها مياه تجتمع وتصير عمودًا[1] واحدًا، تجري مقدارَ أربعة وعشرين فرسخًا، ثم تصب في بحيرة خوارزم.

ويكون مقدار جريه من مبدئه إلى نهايته ثلثمائة وخمسين فرسخًا. وقيل: أربعمائة.

وساحله يسمّى الرُّوذَبار[2].

ويقال إنه يخرج منه خليج يأخذ سَمْتَ المغرب حتّى يقرب من كَرْمان، ثم يمضي حتّى يصبَّ في بحر فارس.

ونهر جَيْحون ربما جَمَد في الشتاء حتّى تعبر عليه القفول[3]. قالوا: ويبتدىء جمودُه من ناحية خوارزم.

وأما نهر سَيْحُون

ويسمّى نهر الشَّاش، وهو فارزٌ بين بلاد الهياطلة وبلاد تُرْكِسْتان.

قال ابن حوقل: مبتدؤه من أنهار تجتمع في حدود بلاد التُّرك والإسلام، فتصير عمودًا واحدًا وتجري حتّى تظهر في حدود أُوزْكَنْد من بلاد فَرْغانة فتصب فيه فيعظم ويكثر ماؤه، ثم يمتدّ إلى فاراب. فإذا تجاوزها يجري في برّية فيكون على جانبيه الأتراك الغُزِّيَّة، ويمرّ إلى أن يصب في نهر جَيْحون[4].

وبين موقعه في النهر وبين بُحيرة خوارزم عشرة أيام.

(١) عمودًا واحدًا: أي خطًّا مستقيمًا.

(٢) قال ياقوت: كان معناه بالفارسية: موضع النهر، ثم نقل عن السمعاني أنّ الروذبار لفظه لمواضع عند الأنهار الكبيرة في بلاد متفرّقة، ثم ذكر روذبار «بلخ» ثم قال: وبالشّاش أيضًا قرية يقال لها «روذبار» من وراء جيحون. «معجم البلدان ٣/ ٧٧».

(٣) القفول: جمع قافلة وهي الرفقة الراجحة من السفر أو المبتدئة به ومعها دوابُّها.

(٤) اختصر المؤلّف كلام ابن حوقل اختصارًا خفيفًا، انظر كلام ابن حوقل في كتابه: المسالك والممالك ص ٣٩٢، ٣٩٣».

وأما نهر الكَنْك[١]

وهو نهر تعظِّمه الهند، فينبعث من بلاد قِشْمير ويجري في أعالي بلاد الهند.

وهم يزعمون أنه من الجنة فيعظِّمونه غاية التعظيم.

ومن عجائبه أنه إذا ألقي فيه شيء من القاذورات، أظلم جَوُّه ورجَفَتْ أرجاؤه وكثُرت الأمطارُ والرياحُ والصواعقُ.

وقد وصفه العُتْبيّ[٢] في «التاريخ اليمنيّ» فقال:

«وهذا النهر الذي يتواصف الهنود قدرَه وشرفَه، فيروْن من عين الخلد التي في السماء مُغتَرفه؛ إذا أُحْرق منهم ميت ذَرّوه فيه بعظامه، فيظنون أنّ ذلك طُهُر لآثامه؛ وربما أتاه الناسك من المكان البعيد فيُغْرِق نفسه فيه، يرى أنَّ هذا الفعل يُنْجيه. والهنود يُفْرِطون في تعظيمه حتّى إن الرجل منهم إذا أراد الفوز، أحرق نفْسَه وألقى رماده فيه، أو يأتي إلى النهر (وهناك شجر القَنَا[٣] في غاية الارتفاع، وقوم هناك بأيديهم سيوف مسلولة وخناجر) فيرْبِط نفسه في طَرَف قناة، ثم يحزُّ رأسَه بيده فيبقَى الرأس معلقًا في طَرَف القناة وتسقط الجثةُ، أو يلقي نفسَه من شاهق على تلك السيوف والخناجر فيتقطع، ومنهم من يلقِي نفسه في النهر فيَغْرق».

وأما نهر الكُر

فهو نهر بأرض أرمينِيَة.

وانبعاثه من بلاد الّلان[٤]، فيمرّ ببلاد الأبخازَ[٥] حتّى يأتي ثغر تَفْليس فيشقُّه ويجري في بلاد الساوَرْدية[٦]. ثم يخرج بأرض بَرْذعَة، ويجري إلى بَرْزَنج فيصب فيه نهر الرَّسّ.

---

(١) قال أبو الفدا في كتابه تقديم البلدان: إنّ اسمه الهندي: «كانكو» وسمّاه المسعودي «جنجس» في كتاب التنبيه والأشراف.

(٢) العتبي: هو محمد بن عبد الجبّار، أبو نصر، مؤرّخ من الكتّاب الشعراء، توفي سنة ١٠٣٦ م. «فهرس الأعلام ٦/ ١٨٤، ١٨٥».

(٣) القنا: شجرٌ في غاية الارتفاع تصنع منه الرّماح.

(٤) اللّان: بلاد واسعة في طرف أرمينية، وأهلها نصارى. «معجم البلدان ٥/ ٩».

(٥) في الأصل «الأبحار» والأصوب: «الأبخار» وهو ما ذكره ابن حوقل والاصطخري والمسعودي وابن خرداذبة وهو اسم لجهة من بلاد أرمينية.

(٦) هم جيل من الأرمن يسمّيهم العرب أيضًا «السياوردية» ويصفونهم بأنهم أهل العبث والفساد والتلصّص. «مسالك الممالك للأصطخري حاشية ص ١٩٢».

وهذا النهر هو المذكور في القرآن العزيز في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ [الفُرقان: الآية ٣٨] على ما ذهب إليه بعض المفسرين. فإذا صب فيه هذا النهر، صارا نهرًا واحدًا يصب في بحر الخَزَر.

ونهر الرَّسِّ يخرج من أقاصي بلاد الروم، على ما زعم المسعودي.

وأما نهر إتِل

وهو نهر عظيم، فهو نهر الخَزَر.

ويمرّ جانبه الشرقيّ على ناحية خَرْخِيز، ويجري ما بين الكيماكية والغُزِّية. ثم يمتدّ غربًا على ظهر بُلْغار[١] وبُرْطاس والخَزَر. ثم ينقسم قسمين: أحدهما إلى مدينة إتل يشقُّها بنصفين ويجري إلى أن يصب في بحر الخَزَر، ويجري الآخر فيمرّ ببلد الرُّوس حتّى يصب في بحرهم وهو بحر سُوداق.

ويقال إنه يتشعب منه نَيِّف وتسعون نهرًا، وإذا وقع في البحر، يجري فيه مسيرة يومين ثم يغلب عليه.

وقيل إنه يجمدُ في الشتاء، ويتبين لونه في لون البحر.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر ما في المعمور من الأنهار والعيون التي يُتَعجَّب منها

قال صاحب «مباهج الفكر ومناهج العبر» في كتابه:

وذكر المعتَنُون بتدوين العجائب في كتبهم التي وضعوها لذلك أن في المعمور أنهارًا وعيونًا يُتعجَّب منها إذا أُخْبِر عنها. فذكروا منها نهر الكَنْك (وقد تقدّم ذكره) وأن بأرض الهند مكانًا يعرف بعقبة عَوْرك فيه عين ماء لا تقبل نَجَسًا ولا قَذَرًا، وإن أُلقي فيها شيء من ذلك، اكفهرَّت السماء وهبَّت الريح وكثر الرعد والبرق والمطر. فلا تزال كذلك إلى أن يُخْرَج منها ما طُرِح فيها.

(١) هي مدينة كانت على نهر الإتل ببلاد الروسيا، ومنها خرج البلغار إلى البلاد المعروفة الآن باسمهم.

وذكروا أن في ناحية البامِيَان عينا تسمّى دِيوَاش تفور من الأرض كغَلَيان القِدر؛ متى بصق فيها إنسان أو رمىٰ فيها شيئًا من القاذورات، ازداد غَلَيانها وفَوَرانها وفاضت. فربما أدركَتْ من جعل ذلك فيها فغرّقته.

وبناحية الباميان أيضًا عين تجري من جبل في بعض الأحيان. فإذا خرج ماؤها، صار حجرًا أبيضَ.

وبقرية من أعمال فارس كَهْف بين جبال شاهقةٍ فيه حُفْرة بقدر الصَّحْفة[(١)]، يقْطُر فيها من أعلى الكهف ماء: إن شرب منه واحد لا يفضل عنه منه شيء، وإن شرب منه ألف عَمَّهم وأرواهم.

وبناحية أردشيرجرد[(٢)] عين يجري منها ماء حلو يُشرَب لشَفْية الجوف. فمن شرب منه قَدَحًا أقامه مرة، وإن زاد فعلى قدر الزيادة.

وبدارِينَ من أعمال فارس نهر ماؤه شَرُوب. إذا غُطَّت فيه الثيابُ خَضَّرها.

وفي بعض رساتيق هَمَذان عيون متى خرج منها الماء تحَجَّر.

وبنواحيها أيضًا ماء يخرُج من تحت قلعة ويجري في جَداوِلَ إلى بعض الرساتيق[(٣)]. فما تشبَّث منه في صَدْع أو شقٍّ صار حجرًا صَلْدًا، وإذا صُبَّ في خَزَفة وأقام فيها ثلاثة أيام ثم كُسِرت، وجد في جوفها أخرى قد تحجرت من الماء.

وبناحية تَفْليس عين تنبُعُ، فإذا خرج منها الماء صار حَيَّات.

وبأرض القُدْموس من حصون الدَّعْوة بَربَضها[(٤)] حَمَّام يجري إليها الماء من عين هناك. فإذا كان في أوّل شهر تَمُّوز ينبُع في الحمَّام حَيَّات في طول شبرين أوّلًا، ثم في طول شبر، وتكثر. ولا توجد في غير الحمام. فإذا انقضىٰ شهر تَمُّوزَ، عُدمت تلك الحيَّات، فلا توجد إلى العام القابل.

وبأرض أرْمِينِيَةَ واد لا يقدر أحد ينظر إليه ولا يقف عليه ولا يُدْرىٰ ما هو. إذا وضعت القدر على ضَفَّته غلتْ ونَضِج ما فيها. وفيها واد عليه الأَرْحَاء[(٥)] والبساتينُ. ماؤه حامض؛ فإذا نزل في الإناء، عَذُب وحَلَا.

---

(١) الصحفة: إناء من آنية الطعام.
(٢) في معجم ياقوت: «أردشيرخرّه».
(٣) الرساتيق: وهي السّواد من الأرض مفردها رستق.
(٤) الرَّبَض: ما حول المدينة من مساكن «ضواحي المدينة».
(٥) الأرحاء: جمع رحى، وهي الطاحون.

وبالمَرَاغة عيون إذا خرج ماؤها لَمْ يلبثْ إلا قليلًا حتى يتحجَّر. فمنه تُفْرَش دورهم.

وبنواحي أرْزَن الروم ماء يستقىٰ فيستحجِر ويصير مِلْحًا.

وأكثرُ مياه بلاد اليمن تستحيل شَبًّا[١].

وبنواحي واحات من أعمال مصر عيون مياهها ألوانٌ مختلفة: من الحُمْرة والصُّفْرة والخُضْرة. تسيل إلى مستنقَعَات، فتكون مِلْحًا بحسب ألوانها.

وفي هذه الناحية عيون يطبخ بمائها بدلًا عن الخَلّ.

وبنواحي أُسْوان من الصعيد الأعلى مستنقعاتٌ منها النِّفط.

وكذلك بتَكْرِيت من أرض العراق.

وبأرض كتامة[٢] من بلد إفريقِيَّة عين تسمّى عينَ الأوْقات. تجري في أوقات الصلوات الخمس. فإذا حضَرَ جُنُبٌ أو امرأة حائضٌ، لا تَبِضُّ[٣] بشيء من الماء. وإذا اتُّهِم رجلان، أتتْ بالماء للصادق وشحَّتْ على الكاذب.

وببلد إفريقية أيضًا عين تنبُع بالمِداد، يكتُب به أهل تلك الناحية.

وبطَرْطُوشَة من بلاد الأنْدَلُس وادٍ يجري رملًا.

قال: وذكر بعض أصحاب المجاميع أنه كان بمدينة طَحَا من كُورة الأُشْمونين من صعيد مصر بئر فيها ماء مَعِين يُشْرب منها طولَ أيام السنة فيكون الماء كسائر المياه، حتّى إذا كان أوّلُ يوم من برمودة[٤] من شهور القبط فمن شَرِب من ذلك الماء يومئذٍ خدمَتْه الطبيعة مقدار ما شَرِب. فإذا كان وقتُ الزوال عاد الماء إلى حالته الأولى، ثم لا يفعل كذلك إلا في مثل ذلك اليوم من العام القابل.

وقال: إنه كان بمدينة الأُشْمونيْن[٥] كنيسة تعرف ببُوجُرج إلى جانبها بئر لا نداوةَ فيها ولا بلَلَ في سائر أيام السنة، فإذا كان اليوم العاشر من

---

(١) الشبّا: الطحلب.

(٢) في الأصل: «كمامة» وهو خطأ من الناسخ، لأن كتامة: قبيلة من البربر منتشرة فيما بين برقة إلى أرض الجرائر.

(٣) تبضّ: تسيل.

(٤) برمودة: هو الشهر الثامن من شهور القبط.

(٥) الأشمونين: هي أشمون، وأهل مصر يقولون «الأشمونين»، وهي قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل. «معجم البلدان ١/ ٢٠٠».

طوبة[١] من شهور القبط تمتلىء تلك البئر ماءً شَرُوبًا. فلا يبقى أحد من نصارى ذلك البلد إلا ويأخذ من ذلك الماء للتبرُّك به. حتّى إذا كان عند الزوال، غاض الماء فلا يبقى في البئر منه شيء ويجِفُّ لوقته.

وبأرض مَرْمَنِيثا من عمل حصن الأكراد عين تسمّى الفَوّارة. تكون في غالب الأوقات بينها وبين وجه الأرض تقديرُ ثلاثة أذرع. وتفور في بعض الأيام ويخرج منها ماءٌ يدير أرحية[٢] الطواحين ويسقِي البساتينَ فيستمرّ كذلك بعضَ يوم ثم يغور. ويتكرر ذلك في الأسبوع مرتين وثلاثة.

«وبقلعة بغْلَبك من الشام بئر تعرف ببئر الرحمة لا يُرىٰ فيها الماء إلا إذا حُوصرت. فإنها عند ذلك تمتلىء حتّى تفيض. فإذا زال الحِصار جَفَّتْ».

ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الماء

ما جاء من ذلك على لفظ أفعل

الأمثال: يقال:

أسْرَعُ من الماء إلى قَراره.

أرَقُّ من الماء.

أحمقُ من لاعِقِ[٣] الماء.

أحمقُ من القابض على الماءِ.

أصفىٰ من ماء المَفَاصِل[٤].

أعذَبُ من ماء المَفَاصل.

أجْرىٰ من الماء.

أعذَبُ من ماء الحَشْرَج[٥].

---

(١) طوبة: هو الشهر الخامس من شهور القبط.

(٢) الأرحية: مفردها رحى، وهي الأداة التي يطحن بها، وهي حجران مستديران، يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب.

(٣) اللاعق: الذي يلحس الماء بإصبعه أو بلسانه.

(٤) المفاصل: ما بين الجبلين من رمل وحصى صغار ويكون ماؤه صافيًا رقيقًا.

(٥) الحشرج: نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو ويعذب.

أعذَبُ من ماء البارِق[١].

ألْطفُ من الماء.

أوجد[٢] من الماء.

ويقال:

أنْ تَرِدِ الماءَ بماء أكْيَسُ.

ماءٌ ولا كصَدَّاء[٣].

قد بَلَغ الماء الزُّبىٰ.

ويقال:

فلان يرقُم[٤] على الماء. (إذا كان حاذقًا).

ثَأْطَةٌ[٥] مُدّتْ بماء. (للأمر يزداد فسادًا).

ليس الرِّيُّ في التَّشَافّ[٦]. (في ذم الاستقصاء).

الماءُ إذا طال مكثُه، ظهر خبْثُه؛ وإذا سكَنَ مَتْنه، تحرّك نَتْنه.

الكَدَر من رأس العَيْن.

إذا عَذُبتِ العُيون، طابَتِ الأنهار.

هذا غَيْض من فَيْض، وبَرْضٌ[٧] من عدّ. (أي قليل من كثير).

ومن أنصاف الأبيات:

* والمرءُ يَشْرَق بالزُّلاَل البارِد![٨] *

* كذلك غَمْرُ الماءِ يُرْوِي ويُغْرِق![٩] *

---

(١) البارق: السّحاب ذو البرق، والبارق: الماء المتلألىء الصافي.

(٢) أوجدُ: من الوَجد، وهو منقع الماء، يريد: أنقع من الماء.

(٣) مثل يضرب لما يحمد بعض الحمد ويفضّل عليه غيره، وصدّاء: ركيّة عذبة الماء.

(٤) في المستقصى للزمخشري: يرقمُ في الماء، وقيل: معناه يفعل ما لا طائل تحته، ٢/ ٤١٢. «المستقصى للزمخشري ٢/ ٣٢٩».

(٥) الثأطة: الحمأة، والوحل الفاسد.

(٦) التّشافّ: هو أن يشرب الإنسان ماء الإناء كلّه.

(٧) البرض: القليل. (٨) يشرق: يغصّ.

(٩) الغمر: الماء الكثير.

* والـمَـشْـرَبُ الـعَـذْبُ كَـثِـيـر الـزِّحـام! *

* مَـوَاقِـع الـمـاء مـن ذي الـغُـلَّـةِ الـصـادِي![١] *

* وكـيـف يَـعَـافُ الـرَّنْـقَ مَـنْ كـان صـادِيًـا؟[٢] *

ومن الأبيات: [من البسيط]

يا سَرْحةَ الماءِ قد سُدّتْ مَوَارِدُه أمَا إليكِ سَبِيلٌ غيْرُ مسدودِ؟
لحائِمٍ حامَ حتّى لا حِيَام به مُحَلَّاءٍ عن طريق الماء مَصْدُودِ![٣]

وقال آخر: [من مجزوء الكامل المرفّل]

أيَجُوزُ أخْذُ الماءِ من متَلَهِّبِ الأحشاءِ صادِي؟

وقال آخر: [من الوافر]

أرىٰ ماءً وبِي عطَشٌ شديدٌ ولكن لا سبِيلَ إلى الوُرُود!

وقال آخر: [من البسيط]

مَنْ غُصَّ داوىٰ بشُرْب الماء غُصَّتَه فكيف يَصْنَعُ من قد غُصَّ بالماءِ؟

وقال آخر: [من الطويل]

وما كُنْتَ إلَّا الماءَ جئنا لشُرْبه فلَمَّا ورِدْناه إذا الماءُ جامدُ!

وقال آخر: [من الطويل]

وفي نَظْرة الصادي إلى الماء حَسْرةٌ إذا كان ممنوعًا سَبِيلَ الموَارِدِ!

وقال آخر: [من الطويل]

وإنّيَ للماءِ المخالِط للقَذى إذا كَثُرتْ وُرّادُه، لَعَيُوفُ![٤]

وقال آخر: [من الوافر]

سأقْنَع بالثِّمادِ، لَعلَّ دهْرًا يَسُوقُ الماءَ من حُرٍّ كَرِيمِ![٥]

---

(١) الغلّة: شدة العطش وحرارته، والصادي: الظامىء.
(٢) الرّنق: الماء فيه ترابٌ وقذى ونحوه «الكدر».
(٣) المحلّأ: المبعد.
(٤) العيوف: التارك له.
(٥) الثّماد: القليل من الماء.

وقال آخر: [من الطويل]

ومَنْ يَأْمَنِ الدنيا يَكُنْ مِثْلَ قابضٍ   على الماء، خانَتْه فُروجُ الأصابعِ[١]

وقال آخر: [من الطويل]

وإنّي وإشْرافي عليك بِهمّتي   لَكَالمبتغي زُبْدًا من الماء بالمَخْض[٢]

وقال آخر: [من الهزج]

فَقُلْ في مَكْرَعٍ عَذْبٍ   وقد وافَاهُ عَطْشانُ!

وقال آخر: [من الوافر]

وكيف الصَّبْرُ عنك، وأيُّ صَبْرٍ   لظمآنٍ عن الماءِ الزُّلَال؟

وقال آخر: [من الوافر]

وإنَّ الماءَ في العِيدانِ يَجْرِي   ورُبَّتَما تغَيَّر في الحُلُوق!

وقال آخر: [من الطويل]

إذا أنا عاتَبْتُ المَلُولَ فإنَّما   أخُطُّ بأقلامٍ على الماءِ أحْرُفا!

وقال آخر: [من البسيط]

والماء ليس عجيبًا أنّ أعذَبَهُ   يفنىٰ، ويمتدّ عُمْر الآجِنِ الأَسِنِ[٣]

وقال آخر: [من الكامل]

المالُ يُكْسِب أهلَه، ما لم يفضْ   في الراغبين إليه، سُوءَ ثناءِ
كالماء تَأْسِنُ بِئرُه إلا إذا   خَبَط السُّقاةُ جِمامَه بِدِلاءِ[٤]

ذكر شيء مما قيل في وصف الماء وتشبيهه

فأما ما اختص به نهر النيل من الوصف.

---

(١) فروج الأصابع: ما بينها من مسافة يمكن أن يخرج منها الماء إذا غُرِف منه.

(٢) الزّبد: ما يستخرج من اللبن عند مخضه، والمخض: تحريك اللبن بشدّة.

(٣) الآجن: المستنقع الذي تغيّر لونه وطعمه، والأسن: الذي فسد وتغيّر طعمه ورائحته.

(٤) خبط: حرّك، والجمام: استقرار الماء، والدّلاء: جمع دلو، وهو ما يغرف به الماء، يريد أنّ ماء البئر إذا حرّك بالدّلاء واستخرج ماؤه لا يأسن.

فمن ذلك قول ابن النَّقِيب[١]: [من الوافر]

كأنَّ النِّيلَ ذُو فَهْمٍ ولُبٍّ ... لما يَبْدُو لِعَيْنِ الناس مِنْه
فَيأْتِي حِينَ حاجَتِهِم إليهِ ... ويَمْضِي حِينَ يَسْتَغْنُون عنه!

وقال تميم بن المعزّ العُبَيديّ[٢]: [من الكامل الأحذّ]

يَوْمٌ لنا بالنِّيل مختَصَرُ ... ولكُلِّ يوم مَسَرَّةٍ قِصَرُ
والسُّفْن تَجْري كالخُيُول بنا ... صُعُدًا، وجَيْشُ الماءِ مُنْحَدِرُ
فكأنَّما أمواجُه عُكَنٌ ... وكأنَّما داراتُه سُرَرُ[٣]

ومن رسالة للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني قال:

وأما النيل فقد ملأ البِقَاع، وانتقل من الإصبع إلى الذِّراع. فكأنما غار على الأرض فغَطَّاها، وعار[٤] عليها فاستَقْعدها وما تخَطَّاها. فما يوجد بمصر قاطِعُ طريق سواه، ولا مرغوبٌ مرهوبٌ إلا إيَّاه.

وأما ما اختصت به دجلة من الوصف.

قال التنوخيّ: [من الكامل]

وكأنّ دِجْلَةَ إذ تغمَّض موجُها ... مَلِكٌ يُعَظَّم، خِيفةً ويبَجَّلُ
عذُبَتْ، فما أَدْرِي أماءٌ ماؤها ... عند المَذَاقةِ أم رَحِيقٌ سَلْسَلُ؟[٥]
وكأنَّها ياقوتةٌ أو أعْيُنٌ ... زُرْق يُلاءَم بَيْنها ويُوصَّلُ
ولها بمَدٍّ بعد جَزْر ذاهِبٍ ... جَيْشانِ: يُدْبرذا، وهذا يُقْبِلُ

وقال محمد بن عبد الله السلاميّ، شاعر «اليتيمة»: [من الوافر]

ومَيْدانٍ تَجُولُ به خُيولٌ ... تَقُود الدَّارِعينَ ولا تُقادُ[٦]

---

(١) هو الحسن بن شادر، ابن النقيب الكناني، المعروف بالنفيسي، شاعرٌ من أفاضل مصر له ديوان شعر، وشعره عذب، وكان من رجال الجهاد توفي سنة ١٢٨٨ م. «فهرس الأعلام ٢/١٩٢».
(٢) هو تميم بن المعزّ العبيدي الصنهاجي، من ملوك الدولة الصنهاجية، كان شجاعًا ذكيًا له عناية بالأدب وينظم الشعر الحسن توفي سنة ١١٠٨ م. «فهرس الأعلام ٢/٨٨».
(٣) العكن: اللحم من البطن تجمّع بعضه فوق بعض، والسُرر: جمع سُرَّة، وهي ما يبقى ظاهرًا في البطن من تجويف بعد الولادة.
(٤) عارَ: تردّد في ذهاب ومجيء.
(٥) الرحيق: العذب الصافي، والسلسل: الماء العذب الصافي.
(٦) الدّارعين: اللابسين الدّروع استعدادًا للحرب.

رَكِبْتُ بـه إلـى الـلَّذَّاتِ طِـرْفًـا لـه جِـسْـمٌ ولـيـس لـه فُـؤادُ[١]
جـرى فـظـنَـنْـتُ أن الأرضَ وجـهٌ ودِجْـلَـةَ نـاظـرٌ وهـو الـسَّـوادُ

وقال الصنوبريّ: [من الطويل]

فـلَمَّـا تـعـالـى الـبـدرُ واشـتـدّ ضَـوْءُه بدِجْلَةَ في تَشْرين بالطُّول والعَرض
وقـد قـابـل الـمَـاءَ الـمـفَـضَّـض نُـورُه وبعضُ نجوم الليل يُطْفِي سَنا بَعْضِ[٢]
تَـوهَّـم ذُو الـعـيـنِ الـبَـصِـيـرة أنـه يَرى ظاهِرَ الأفلاكِ في باطِنِ الأرض

ومما وصفت به الأنهار

قال الصنوبري: [من المنسرح]

والـعَـوَجـانُ الـذي كَـلِـفْـتُ بـه قد سُوِّيَ الْحُسْنُ فيه مُذْ عَوِّجَ[٣]
مـا أخْـطـأ الأيْـمَ فـي تَـعَـوُّجِـه شـيـئًا إذا مـا اسـتـقـام أو عَـرَّجْ[٤]
تُـدرِّجُ الـريـحُ مـتْـنَـه فـتَـرى جَـوْشَـنَ مـاء عـلـيـه قـد دَرَّج[٥]
إن أعْـنَـقـتْ بـالـجَـنُوب أعْـنَقَ فـي لُطْف، وإن هَمْلَجتْ به هَمْلَج[٦]
من أيْنَ طافَتْ شمسُ النهارِ به حَسِبْتَ شَمْسًا من جَوْفِه تَخْرُج

وقال أبو فراس: [من مجزوء الكامل المرفّل]

والـمـاءُ يَـفْـصِـل بـيْـنَ زَهْـ ـر الـرَّوض فـي الـشَّـطَّـيْـن فَـصْـلا
كـبِـسَـاطِ وَشْـيٍ جَـرَّدتْ أيْـدِي الـقـيـون عـلـيـه نَـصْـلا[٧]

وقال الناجم[٨]: [من مجزوء الكامل المرفّل]

أنـظُـرْ إلـى الـرَّوض الـذَّ كـيِّ فَـحُـسْـنُـه لـلعـيـن قُـرَّهْ

---

(١) الطّرف: الكريم من الخيل. (٢) السّنا: الضوء.
(٣) العوجان: ما به عوج، يريد النّهر الذي يجري في غير استقامة.
(٤) الأيم: الذكر من الحيّات. (٥) الجوشن: الدرع يوضع على الصّدر.
(٦) أعنقت: سارت سيرًا فسيحًا واسعًا، وأعنقت الريح: أطارت التُّراب وفرّقته وهملجت: سارت سيرًا حسنًا في سرعة.
(٧) جرّدت: أخرجت وشهرت، والنّصل: حديدة السيف والرّمح وغيرهما.
(٨) هو سعيد بن الحسين بن شدّاد السّمعي، المعروف بالنّاجم، أديب من الشعراء كان يصحب ابن الرومي، ويروي أكثر شعره، توفي سنة ٩٢٦ م. «فهرس الأعلام ٣/ ١٨٤».

فـكـأنَّ خُـضـرتَـه الـسـمـا ءُ، ونَـهْـرُه فـيـه الـمَـجَـرّهْ[١]

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من الكامل]

وتَرى الرِّياحَ إذا مَسَحْنَ غَدِيره صَـفَـيْـنـه وَنَـفَـيْـنَ كُـلَّ قـذاةِ[٢]
مـا إنْ يـزالُ عـليـه ظـبْـيٌ كـارعٌ كـتَـطَـلُّع الْحَـسْـنـاءِ فـي الـمِـرْآةِ

ومثله قول الآخر: [من الخفيف]

وغَـدِيـرٍ رقَّـتْ حـواشِـيـهِ حـتـى بانَ في قَعْره الذي كان ساخَا[٣]
وكـأنَّ الـطُّـيـورَ إذ وَرَدَتْـه مِـن صَـفـاءٍ بِـه، تَـزُقُّ فِـراخَـا[٤]

وقال آخر: [من الكامل]

والـنَّـهْـرُ مَـكْـسُـوٌّ غِـلالـة فِـضَّـةٍ فـإذا جَـرَت أُصـل، فـثـوْبُ نُـضَـارِ
وإذا استَقَام، رَأيْتَ صَفْحَة مُنْصُل وإذا استدارَ، رأيتَ عَطْف سِوَارِ[٥]

وقال أبو مَرْوان بن أبي الخصال: [من الكامل]

الـنَّـهْـرُ قـد رَقَّـتْ غَـلالـةُ خَـصْـرِه وعـليـه مـن صِـبـغ الأصِـيـلِ طِـرَازُ
تـتـرَقْـرَقُ الأمـواجُ فـيـه كـأنَّـهـا عُكَنُ الخُصُور تهُزُّها الأعْجازُ[٦]

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي: [من الكامل]

للهِ نَـهْـرٌ سـالَ فـي بَـطْـحـاءِ أشهىٰ وُرُودا من لَمىٰ الحَسْناءِ![٧]
وغدَتْ تَحُفُّ به الغُصونُ كأنَّها هُـدُبٌ تـحُـفُّ بـمُـقْـلـة زَرْقـاءِ
والرِّيح تعْبَثُ بالغُصُون وقد جَرى ذهَبُ الأصيلِ على لُجَيْن الماءِ!

(١) المجرّة: مجموعة من الكواكب يرى ضوؤها ولا ترى لبعدها.
(٢) القذاة: ما يكون فيه من قشّ وغيره.
(٣) الحواشي: الجنبات، وساخ: غاص في قعر الماء.
(٤) تزقّ: تطعم بمناقيدها. (٥) المنصل: السيف، وعطف سوار: دورته.
(٦) العكن: اللحم الذي تجمع بعضه فوق بعض، والأعجاز: الأرداف.
(٧) البطحاء: مسيل الماء في متّسع حيث يترك التراب والرّمل والحصى، واللّمى: الشّفة السمراء.

وقال أبو القاسم بن العطار[١]: [من الطويل]

مَرَرْنا بشاطِي النَّهر بيْنَ حدائقٍ بها حَدَقُ الأزْهار تستَوْقفُ الحَدَقْ[٢]

وقد نَسَجتْ كَفُّ النَّسيم مُفاضةً عليه، وما غَيْرُ الحُبَاب لها حَلَقْ![٣]

وقال محمد بن سهل البلخي[٤]، شاعر «الذخيرة»: [من مجزوء الرّمل]

راقَنَا النهرُ صَفَاءَ بعدَ تَكْدِيرِ صَفائِهْ

كان مثْلَ السيفِ مُدْمًى فجَلَوْهُ من دِمَائِهْ

أو كمِثْلِ الوَرْدِ غَضًّا فهو اليومَ كمائِهْ[٥]

وقال القاضي التنُوخي، شاعر «اليتيمة»: [من الكامل]

أحْبِبْ إليَّ بنهْرِ مَعْقِلِ الذي فيه لقَلْبِي من هُمُومي مَعْقِلُ!

عَذْبٌ إذا ما عَبَّ فيه ناهِلٌ فكأنَّه من رِيقِ حِبٍّ يَنْهَلُ

متسَلْسِلٌ فكأنَّه لصَفَائِه دمعٌ بخدَّيْ كاعِبٍ يتَسَلْسَلُ[٦]

فإذا الرِّياح جَرَيْن فوقَ مُتُونِه فكأنَّها دِرْعٌ جلاه الصَّيْقَلُ!

وقال مؤيد الدين الطُّغْرَائِيّ في الغدير: [من السريع]

عُجْنا إلى الجَزْع الذي مدّ فِي أرجائِهِ الغَيْمُ بِسَاطَ الزَّهَرْ[٧]

حَوْلَ غَدِيرٍ ماؤُه المنتمِي إلى بنَاتِ المُزْنِ يَشْكُو الخَصَرْ[٨]

لولاذَهُ الرِّيحُ سَمُومًا به لانقلبَتْ وهي نَسِيمُ السَّحَرْ[٩]

---

(١) لعلّه أحمد بن محمد بن علي شهاب الدّين، ابن العطّار الدّنيسري، أديب وشاعر له نظم كثير، وله مؤلّفات عدّة توفي بالقاهرة سنة ١٣٩٢ م. «فهرس الأعلام ١/ ٢٢٥».

(٢) الحدق الأولى: هي حدائق الأزهار أي المستدير منها، والحدق الثانية: هي حدق العيون، وهو المستدير وسط العين، وفيه يكون الناظر، وفي الكلام جناس بين لفظين.

(٣) المفاضة: الدّرع.

(٤) الذي في المصادر «أحمد بن سهل البلخي» أحد علماء الإسلام، جمع بين الشريعة والفلسفة والأدب والفنون، له مؤلّفات عدة، توفي في بلخ سنة ٩٣٤ م. «فهرس الأعلام ١/ ١٣٤».

(٥) الغض: الطّري. (٦) الكاعب: الفتاة التي برز نهداها.

(٧) عاج: رجع ومال وعطف، والجزع: وسط الوادي حيث يجتمع الماء.

(٨) المزن: السّحاب الممطر، والخصير: البرودة.

(٩) في الديوان: «لو لاذت» وهو الصّواب، ولاذ: استجار واحتمى، والسّموم: الريح الحارّة.

حَـضْـبــاؤه دُرٌّ ورَضْــراضُـه سُحالةُ العَسْجِد حَوْلَ الدُّرَر(١)
وقد كسَتْه الرِّيحُ من نَسْجِها دِرْعًا بـه يـلْقـىٰ نِبَال الـمَـطَـرْ
وألبستْهُ الشَّمسُ من صِبْغِها نُـورًا بـه يَـخْـطِـفُ نُورَ الـبـصَـرْ
كـأنَّـهـا الـمِـرْآة مَـجْـلُوَّةً علـى بِـسـاطِ أخْـضَـرٍ قـد نُشِرْ

وقال أيضًا: [من السريع]

مِلْنا إلى النَّشْر الذي تَرْتَقِي إلـيـه أنْـفـاسُ الـصـبـا عـاطِـرَهْ(٢)
حَـوْلَ غَـدِيـرٍ مـاؤه دارعٌ والأرضُ مـن رِقَّـتِـه حـاسِـرَهْ(٣)
والشمسُ إن حاذتْه رأدَ الضُّحىٰ حَسْـنـاءُ فـي مِـرْآتـهـا نـاظِـرَهْ(٤)
والشُّهْب إن حاذته جُنْحَ الدُّجىٰ تَـسْـبَـحُ فـي لُجَّـتِـه الـزاخِـرَهْ(٥)
قد رُكِّبَ الخَضْراءُ فيه، فمِنْ حَـضْـبـائِهِ أنـجُـمُـهـا زاهِـرَهْ
يـخْـصَـرُ إن مـرت بـأرجـائِه لَفْحُ سَمُوم في لَظىٰ هاجِرَهْ(٦)
أنْموذَجُ الماءَ الذي جاءنا الـ ـوعدُ بأن نُسْقاه في الآخِرَهْ!(٧)

ومما وصفت به البرك

قال البحتريّ عفا الله عنه: [من البسيط]

يا مَنْ رأى البِركةَ الحَسْناءَ رؤيتها والآنـساتِ التي لاحَتْ مَغانِيـهـا!
ما بـالُ دِجْلةَ كـالغَيْرىٰ تُنافسُها في الْحُسْن طَوْرًا، وأطْوارًا تُبَاهيها؟
كـأنَّ جِـنّ سُـلَيْـمـانَ الـذيـن وَلَوْا إبْداعَها فأدَقُّوا في مَعَانِيـهـا(٨)
فلو تَمُرُّ بها بِلْقِيسُ عن عُرُض قالتْ: هي الصَّرْح تمثيلًا وتَشْبيها(٩)

(١) الرضراض: الحصى الدقاق في مجاري الماء، وسخالة العسجد: برادة الذهب.
(٢) النّشر: الرّيح الطيبة.
(٣) الدّارع: الذي يلبس الدّرع، والحاسر: الكاشف عن وجهه.
(٤) رأد الضّحى: وقت ارتفاع الشمس وانبساط النّور في أوّل النّهار.
(٥) جنح الدّجى: أي وقت يخيّم الليل بجناحه فيستر النّور.
(٦) يخصر: يبرد، والسّموم: الريح الحارة، والهاجرة: وقت اشتداد الحرّ من النّهار.
(٧) الأنموذج: المثيل. (٨) وَلَوا: تولّوا وتكفّلوا.
(٩) بلقيس: ملكة سبأ، ورد ذكر قصتها مع سليمان عليه السلام في القرآن الكريم سورة «سبأ» والصّرح: العرش.

تنصَبُّ فيها وُفُود الماء مُعْجلَةً كالخَيْل خارجةً من حَبْل مُجْرِيها[١]
كأنَّما الفِضَّةُ البيضاء سائلةً من السبائك تَجْري في مَجَارِيها
إذا عَلَتْها الصَّبا أبدَتْ لها حُبُكًا مثلَ الجَواشِنِ مَصْقُولًا جَوَاشِيها[٢]
إذا النُّجوم تراءتْ في جَوانِبها ليلًا، حَسِبْتَ سَماءً رُكِّبتْ فيها
لا يبْلُغ السَّمَكُ المحْصُور غايَتَها لبُعْدِ ما بينَ قاصِيها ودانِيها
يَعُمْن فيها بأوْساطٍ مجنَحَّةٍ كالطيْرِ تنْقَضُّ في جَوٍّ خَوَافِيها[٣]
كأنها حين لَجَّتْ في تَدفُّقها يَدُ الخليفة لَمَّا سالَ وَادِيها!

وقال ابن طباطبا: [من الكامل]

كَمْ ليلةٍ ساهَرْتُ أنْجمَها لَدىٰ عَرَصات أرضٍ ماؤها كسمائِها[٤]
قد سُيِّرتْ فيها النجُومُ كأنَّما فَلَكُ السماءِ يَدُور في أرجائِها
أحْسنْ بها بَحرًا إذا التَبَس الدُّجىٰ كانتْ نجومُ الليل من حَصْبائِها!
تَرْنُو إلى الجَوْزاء وهي غَرِيقةٌ تَبْغِي النَّجاءَ، ولاتَ حِينَ نَجائِها!
تَطْفُو وتَرْسُب في اصطفاق مِياهِها لا مُستعانَ لها سِوىٰ أسمائِها[٥]
والبَدْر يَخْفُقُ وَسْطَها فكأنَّه قَلْبٌ لها قد ريعَ في أحْشائِها

وقال عبد الجبار بن حَمْديس، يصف بركة يجري إليها الماء من شاذَرْوان[٦] من أفواهِ طيور وزَرَافات وأُسُود، من أبيات: [من الكامل]

والماءُ منه سَبائكٌ من فِضَّةٍ ذابَت على دُولَابِ شَاذَرْوان!
فكأنَّما سَيْفٌ هُناك مشَطَّبٌ ألقَتْه يومَ الرَّوعِ كفُّ جَبَانِ![٧]
كم شاخِصٍ فيه يُطِيل تعَجُّبًا من دَوْحة نَبتَتْ من العقْيانِ![٨]
عَجبًا لها تَسقِي هُناك ينائعًا يَنَعَتْ من الثَّمرات والأغصانِ!

---

(١) وفود الماء: ما انساب منه في قناة وغيرها.
(٢) الحبُك: النسيج، والجوشن: الدرع، والحواشي: الجوانب.
(٣) الخوافي: ريش مؤخّرة الجناح إذا ضمّه الطائر اختفت وهي تساعد ريش القوادم على الطيران.
(٤) العرصة: ساحة الدّار. (٥) اصطفاق المياه: تحرّكها.
(٦) الشاذروان: لعلّه تمثال من حجر، فيه فوّارات للماء.
(٧) المشطّب: الذي تتراءى في متنه خطوط وفلول.
(٨) الشّاخص: المحدّق الناظر، والعقيان: الفضّة.

خُصَّت بطائرة على فَنَنٍ لها   حَسُنت، فأُفْرِد حسنُها من ثاني!
قُسُّ الطيورِ الساجعاتِ بلاغَةً   وفَصاحةً من مَنْطِق وبَيَانِ[١]
فإذا أُتِيحَ لها الكلامُ تكلَّمَتْ   بخَرِير ماء دائم الهَمَلانِ[٢]
وكأنَّ صانِعَها استبدّ بصنْعةٍ   فَخَر الجمادُ بها على الحَيَوانِ!
أوْفَتْ على حَوْضٍ لها فكأنَّها   منها إلى العَجَب العُجَاب رَوَان[٣]
وكأنَّها ظنَّتْ حلاوةَ مائِها   شَهْدًا، فذاقَته بكُلِّ لِسان
وزَرَافة في الجوِّ من أُنْبوبِها   ماءٌ يُريكَ الجَرْيَ في الطَّيَران
مَرْكُوزة كالرُّمْح حيثُ تَرى له   من طَعْنه الحَلَق انْعطافَ سِنَان[٤]
وكأنَّما تَرْمِي السماءَ ببُنْدُقٍ   مُستَنْبَطٍ من لُؤلؤ وجُمَانِ![٥]
لو عادَ ذاك الماءُ نِفْطًا، أحرَقت   في الجوّ منه قمِيصَ كلِّ عنان
في بِرْكةٍ قامتْ على حافاتِهَا   أُسْدٌ تَذِلُّ لعِزَّة السُّلطان!
نَزَعتْ إلى ظُلْم النفوس نُفوسُها   فلذلك انْتُزِعتْ من الأبْدان
وكأنَّما الحَيَّاتُ من أفواهها   يَطْرَحْنَ أنْفُسَهنّ في غُدْران
وكأنَّما الحِيتانُ إذ لم تَخْشَها   أخذَتْ من المَنْصُور عَهْدَ أمان!

وقال آخر: [من الكامل]

ولقد رأيتُ، وما رأيْتُ كبِركة   في الْحُسْنِ ذاتِ تدَفُّق وخَرِير!
عَقَدتْ لها أيْدِي المِياهِ قَناطِرًا   من جَوْهَرٍ في لُجَّةٍ من نُورِ!

وقال عليّ بن الجهم، يصف فوّارة: [من المتقارب]

وفَوّارةٍ ثارُها في السَّماءِ   فليسَتْ تُقَصِّر عن ثارِهَا!
تَرَاها إذا صَعِدت في السَّماءِ   تعودُ إلينا بأخْبارِها
تَرُدُّ على المُزْن ما أنزَلَتْ   على الأرضِ من صَوْبِ مِدْرارِها![٦]

---

(١) قسّ الطيور: يريد قس بن ساعدة الإيادي، خطيب مشهور في الجاهلية وكان من الأحناف. «انظر فهرس الأعلام ٥/١٩٦».
(٢) الهملان: السيلان والجريان.
(٣) أوفت: أشرفت، والرّوان: المتطلعة، من رنا يرنو: أدام النظر.
(٤) الانعطاف: الانحناء والميل، والسّنان: حديدة الرّمح.
(٥) البندق: رصاص كروي الشكل يستعمل في بعض القذائف للصّيد.
(٦) الصوب: المطر المتساقط، والمدرار: الكثير القطر والدرّ.

وقال ابن حجاج فيها: [من السريع]

عَلِمْتُ في دارِكَ فَوّارةً غرّقَتِ الأفْقَ بها الأنجُما![١]

فاضَ على نَجْمِ السما ماؤُها فأصبحَتْ أرضُك تَسْقِي السما![٢]

وقال تميم بن المعزّ العبيديّ: [من الطويل]

وقاذِفةٍ بالماءِ في وَسْطِ بِركةٍ قد التَحَفَتْ ظِلّاً من الأيْك سَجْسَجَا[٣]

إذا أيْنَعتْ بالماء سَلَّتْه مُنْصُلًا وعاد عليها ذلك النَّصْلُ هَوْدَجا[٤]

تُحاولُ إدْراكَ النُّجومِ بقَذْفِها كأنَّ لها قَلْبًا على الجوّ مُحْرَجَا!

ومما وصفت به الدواليب والنواعير

قال أبو حفص بن وَضّاح: [من الكامل]

لله دُولابٌ يَطُوفُ بِسَلْسَلٍ في رَوْضةٍ فقد أيْنَعَتْ أفنانا![٥]

قَدْ طارَحَتْ فيه الحَمائِمُ شَجْوَها بنَحيبِها، وتُرَجِّعُ الألحانَا[٦]

فكأنَّه دَنِفٌ يطُوفُ بمَعْهَدٍ يَبْكِي ويسْأل فيه عمَّنْ بانَا[٧]

ضاقَتْ مَجارِي طَرْفِه عن دَمْعِه فتفَتَّحَتْ أضْلاعُه أجْفانَا!

وقال الموفقيّ، رحمه الله: [من السريع]

ناعورةٌ تُحسَبُ من صَوْتِها مُتَيَّمًا يَشْكُو إلى زائِرِ[٨]

كأنَّما كِيزانُها عُصْبةٌ رُمُوا بصَرْف الزَّمَنِ الواتِرِ[٩]

قد مُنِعُوا أن يلْتَقُوا فاغتَدَوْا أوّلُهم يَبْكِي على الآخِرِ!

---

(١) الفوّارة: منبع الماء.

(٢) فاض الماء: علا وسال، يريد أن نجوم السّماء تبدو ليلًا في قعر البركة التي يفور منها الماء، وكأنّ النجوم في الأسفل، والماء في الأعلى.

(٣) السجسج: الظلّ الذي لا حرّ فيه ولا هو بارد.

(٤) سلّته: شهرته، والمنصل: السّيف.

(٥) الدّولاب: الآلة التي تريدها الدّابة ليستقى بها، والفنن: الغصن.

(٦) الترجيع: ترديد الصوت أو اللحن وإعادته تكرارًا بنغم.

(٧) الدّنف: المريض الذي أثقله المرض، وبان: بعد ورحل.

(٨) المتيّم: العاشق.

(٩) صرف الزمن: أحداثه وغيرُه، والواتر: الذي يصيب بالمكروه، وينتقص أعمار الناس.

وقال آخر: [من الطويل]

وناعورةٍ قد ضاعفَتْ بنُوَاحِها نُواحي، وأجْرَتْ مُقْلَتيَّ دُمُوعُها!
وقد ضَعُفتْ مما تئِنُّ، وقد غدَتْ من الضَّعْف والشَّكْوىٰ تُعَدُّ ضُلوعُها!

وقال ابن مُنِيرٍ الطرابلسي[١]: [من الخفيف]

لِنَواعِيرِها على الماءِ ألحا نُ تَهِيجُ الشَّجا لِقَلْب المَشُوق[٢]
فَهْي مِثْلُ الأفلاكِ شَكْلًا وفِعْلًا قُسمَتْ قَسْمَ جاهلٍ بالحُقُوق
بينَ عالٍ، سامٍ، يُنَكِّسُه الحَـ ظُّ ويَعْلو بسافلٍ مَرْزُوق

وقال أبو الفرج الوأواء: [من الكامل]

وكريمةٍ سقَت الرياضَ بدَرِّها فغَدَتْ تَنُوبُ عن السَّحاب الهامِعِ[٣]
بِلبَاسِ مَحْزونٍ، ودَمْعة عاشِقٍ وحَنِينِ مُشْتاقٍ، وأنَّةِ جازع
فكأنَّها فَلَكٌ يَدُورُ، وعُلْوهُ يَرْمِي القَرَار بكلِّ نَجْم طالِعِ

وقال الصنوبريّ[٤]: [من الكامل]

فلَكٌ من الدُّولابِ فيه كَوَاكِبٌ من مائه تَنْقضُّ ساعة تَطْلُع
متلوِّنُ الأصْوات: يَخْفِضُ صَوْتَه بغِنائِه، طَوْرًا وطَوْرًا يَرْفَعُ

ومما وصفت به نثرًا

من رسالة للشيخ ضياء الدين القرطبي إلى بعض إخوانه يستَدْعي منه ثلاثة أسهم ومَلِيَّات[٥]. جاء منها:

« . . . والحاجةُ داعيةٌ إلى ثلاثةِ أسهم، كأنها هَقْعةُ[٦] الأنجم؛ ممتدّةٍ امتداد الرُّمْح، مقوَّمةٍ تقويم القِدْح؛ غير مشَعَّثةِ الأطراف، ولا معَقَّدة الأعطاف؛ ولا مُسوّسة

(١) هو أحمد بن منير الطّرابلسي، أبو الحسين، شاعر مشهور من أهل طرابلس الشّام، سكن دمشق، وكان هجّاءً مرًّا، نفاه صاحب دمشق إلى حلب بعد أن كاد يقطع لسانه وتوفي فيها سنة ١١٥٣. «فهرس الأعلام ١/ ٢٦٠».
(٢) الشّجا: الحزن والهمّ. (٣) الهامع: الهاطل الممطر.
(٤) هو أبو بكر الصنوبري، أحمد بن محمد الضبّي الأنطاكي، شاعرٌ تقدّم ذكره.
(٥) المليّة: إناءٌ من فخّار يحفظ به الماء، والسّهم: قدحٌ يشرب به.
(٦) الهقعة: ثلاثة نجوم بعضها قريبٌ من بعض عند رأس كوكبة الجبار، وهي منزل من منازل القمر.

الأجْواف؛ تُحاسِن الغُصُون بقَوَامها، والقُدودَ بتمامها؛ وتخالِفُ هَيَفَها[١] بامتلاء خُصُورها، وتُسَاوي بين هَوادِيها[٢] وصُدُورِها؛ معتَدِلة القُدود، ناعمةِ الخدود؛ مع مَلِيَّات أخذَتِ النارُ منها مأْخَذَها فاسودّت، وتطاوَلَتْ عليها مُدّةُ الجَفافِ فاشتدّتْ؛ وترامَتْ بها مدّةُ القِدَم، كأنها في حيِّز العَدَم؛ صِلابِ المَكاسر، غلاظ المآزِر؛ تُشْبِهِ أخلاقه[٣] في هيجاء السِّلم، وتحكِي صَلابةَ آرائه في نَفاذ الرأْي ومَضاء العزْم؛ تَكْظِم على الماء بغَيْظها، فتجود على الأرض بفَيْضها؛ تمدّ يد أيْدها[٤] في اقتضاء إرادتها، وتطلُع طلوعَ الأنجم في فَلَك إدارتها؛ وتُعانق أخَواتها معانقةَ التشييع، فآخِرُ التسليم أوّلُ التوديع؛ على أنها تُؤذن بحقائق الاعتبار، وتجري جَرْيَ الفلك المُدَار في قناة الأعمار: [من الطويل]

تَـمُرُّ كـأنفـاس الـفَتـى فـي حَـيَاتِهِ ... وتَسْعى كسَعْيِ المرء أثْناءَ عُمْرِهِ
يُـفـارِقُ خـلٌّ خِـلَّهُ، وهـو سـائِرٌ ... على مثل حال الخِلِّ في إثْر سَيْرِهِ[٥]
ويُعْلِمُه التَّدوارُ، لو يَعْقل الفتى ... بـأن مُـرورَ الـعُـمْـر فـيـه كَـمَـرِّهِ
فـمَـنْ أدركَـتْ أفـكـارُه سِـرَّ أمْرِهـا ... فـقـد أدْرَكَـتْ أفـكـارُه سِـرَّ أمْـرِهِ
ومَـنْ فـاتـه، الإدْراكُ أدْركَـه الـرَّدى ... إذا جُـرِّعَـتْ أنـفـاسُـه كـأسَ مُـرِّه»

ومما وصفت به الجداول

قال ابن المعتَز، عفا الله عنه: [من الطويل]

على جَدْولٍ رَيَّانَ، لا يقبَلُ القَذى ... كـأنّ سـواقِـيـهِ مُـتُـونُ الـمَـبَـارِد[٦]

وقال الناجم: [من الطويل]

أحـاطَـتْ أزاهـيـرُ الـرَّبـيـعِ سـوِيَّـةً ... سِماطَيْنِ مُصْطَفَّيْنِ، تستَنْبِتُ المَرْعىٰ[٧]
عـلى جَـدْولٍ رَيَّـانَ كـالـسَّـهْـم مُـرْسَـلا ... أو الصارِمِ المسْلُولِ، أو حَيَّةٍ تَسْعى

---

(١) الهيف: الضّمور.
(٢) الهوادي: الأعناق.
(٣) أي تشبه أخلاق المرسل إليه.
(٤) الأيد: القوّة.
(٥) الخلّ: الصديق المختص «يستوي فيه المذكر والمؤنث».
(٦) الريّان: الناعم الجاري بالماء، والمتون: جمع متن وهو الحدّ، والمبارد: جمع مبرد، وهو آلة تشحذ بها الأدوات الحادة لتصبح أكثر مضاءً.
(٧) السّماط: الصّف، والسّماط من الطريق: جانباه، والسّماط: ما يبسط ليوضع عليه الطّعام.

وقال المفجّع[1]: [من الطويل]

علـى جَدْولٍ رَيَّانَ يـنسـابُ مَتْـنُـه صَقيلًا، كمتْنِ السيف وافىٰ مجَرَّدا
إذا الـرِّيـح نـاغَـتْـه، تـحـلَّقَ وجْـهُـه دُرُوعًا وِضَاءً، أو تَـحَزَّر مِبْـرَدَا[2]

وقال ابن الروميّ: [من الرّجز]

عـلى حِـفَـافَـيْ جَـدْولٍ مَـسْـجُـورِ أبيضَ مِثْلِ المُهْرَق المَنْشُورِ[3]
أو مثْل متْنِ المُنْصُل المَشْهُور يَنْسابُ مثلَ الحيَّةِ المَذْعُور[4]

وقال ذو الرمّة: [من الطويل]

فما انْشَقَّ ضَوءُ الصُّبْح حتَّى تبَيَّنَتْ جَدَاوِلُ: أمثالُ السُّيُوفِ القَوَاطِعِ

وحيث انتهينا من ذكر المياه إلى هذه الغاية فلنذكر عباد الماء.

ذكر عُبَّاد الماء

وعُبَّاد الماء طائفةٌ من الهند يُسمَّوْن الجَلَهَكِيَّة[5]، يزعمُون أن الماء مَلَك، ومعه ملائكة، وأنه أصلُ كل شيء، وبه كلُّ ولادة ونموّ ونُشُوء وبقاء وطَهَارة وعمارة، وما من عمل في الدنيا إلّا ويحتاج إلى الماء.

فإذا أراد الرجل منهم عبادتَه، تجرّد وسترَ عورتَه. ثم دخل الماء حتى يصل إلى وسطه، فيقيم ساعتين وأكثَرَ. ويأخذ ما أمكنه من الرّياحين فَيُقَطِّعها صغارًا ويُلْقِي في الماء بعضَها بعد بعض، وهو يُسبِّح ويقرأ. وإذا أراد الانصراف، حرّك الماء بيده، ثم أخذ منه فنقَّط على رأسه ووجهه وسائر جسده. ثم يسجُدُ وينصرف.

---

(١) المفجّع: هو محمد بن أحمد البصري، أبو عبد الله، شاعر عالم بالأدب، له مصنّفات عدّة توفي سنة ٩٣٢ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٣٠٨».
(٢) ناغته: غازلته وحادثته بلطف.
(٣) المسجور: الممتلىء، والمهرق: الصحيفة البيضاء يكتب فيها.
(٤) المنصُل: السيف.
(٥) في الأصل: المهكنيّة، وهو تصحيف والصواب ما أثبتناه من الملل والنّحل للشهرستاني. «٣/ ٧٢٧».

القسم الخامس

من الفن الأوّل

في طبائع البلاد، وأخلاق سكانها، وخصائصها، والمَباني القديمة، والمَعَاقل، وما وُصِفت به القصورُ والمنازل

وفيه خمسة أبواب:

الباب الأوّل

من هذا القسم

في طبائع البلاد، وأخلاق سُكَّانها

رُوِيَ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل كعبَ الأحبار عن طبائع البلاد وأخلاق سُكَّانها، فقال: إن الله تعالى لما خلق الأشياءَ، جعل كل شيء لشيء. فقال العقل: أنا لاحقٌ بالشأم، فقالت الفَتنةُ: وأنا معك. وقال الخِصْب: أنا لاحق بمصر، فقال الذُّلُّ: وأنا معك. وقال الشقاء: أنا لاحقٌ بالبادية، فقالت الصِّحَّة: وأنا معك.

وقال محمد بن حبيب[1]: لَمَّا خلق الله تعالى الخلق، خلق معهم عشرة أخلاق: الإيمان، والحياء، والنجدة، والفتنة، والكبر، والنفاق، والغنى، والفقر، والذل، والشقاء. فقال الإيمان: أنا لاحق باليمن، فقال الحياء: وأنا معك. وقالت النجدة: أنا لاحقة بالشأم، فقالت الفتنة: وأنا معك. وقال الكبر: أنا لا حق بالعِراق، فقال النِّفاق: وأنا معك. وقال الغِنىٰ: أنا لاحق بمصر، فقال الذلُّ: وأنا معك. وقال الفقر: أنا لاحق بالبادية، فقال الشقاء: وأنا معك.

---

(١) هو محمد بن حبيب بن أميّة بن عمرو الهاشمي، علّامة بالأنساب والأخبار واللغة والشعر، مولده ببغداد ووفاته بسامرّاء سنة ٨٦٠ م. «فهرس الأعلام ٦/٧٨».

وحُكِيَ عن الحجاج أنه قال: لما تبوّأتِ الأشياءُ منازلَها، قال الطاعون[١]: أنا نازلٌ بالشأم، فقالت الطاعة: وأنا معك. وقال النِّفاق: أنا نازلٌ بالعراق، فقالت النعمة: وأنا معك. وقال الشقاء: أنا نازل بالبادية، فقال الصبْر: وأنا معك.

نوع آخر منه

رُوِيَ عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: إن الله تعالى خلق البَرَكة عشرة أجزاء: فتسعةٌ منها في قريش، وواحد في سائر الناس. وجعل الكرم عشرة أجزاء: فتسعة منها في العَرَب، وواحد في سائر الناس. وجعل الغَيْرة عشرة أجزاء: فتسعة منها في الأكراد، وواحدٌ في سائر الناس. وجعل المكر عشرة أجزاء: فتسعة منها في القِبْط، وواحد في سائر الناس. وجعل الجفاء عشرةَ أجزاء: فتسعة منها في البَرْبَرِ، وواحد في سائر الناس. وجعل النَّجابة[٢] عشرة أجزاء: فتسعة منها في الرُّوم، وواحد في سائر الناس. وجعل الصناعة عشرة أجزاء: فتسعة منها في الصين، وواحد في سائر الناس وجعل الشهوةَ عشرة أجزاء: فتسعة منها في النِّساء، وواحد في سائر الناس. وجعل العمل عشرة أجزاء: فتسعة منها في الأنبياء، وواحد في سائر الناس. وجعل الحسَدَ عشرة أجزاء: فتسعة منها في اليهود، وواحد في سائر الناس.

ويقال: قُسِم الحقد عشرة أجزاء: فتسعة منها في العرب، وواحد في سائر الناس. وقُسِم البخل عشرة أجزاء: فتسعة منها في الفرس، وواحد في سائر الناس. وقسم الكِبْر عشرة أجزاء: فتسعة منها في الروم، وواحد في سائر الناس. وقسم الطَّرَب عشرة أجزاء: فتسعة منها في السُّودان، وواحد في سائر الناس. وقسم الشَّبَق[٣] عشرة أجزاء: فتسعة منها في اليهود، وواحد في سائر الناس.

ويقال: أربعة لا تعرف في أربعة: السَّخاء في الروم، والوَفَاء في التُّرك، والشجاعة في القِبْط، والغَمُّ في الزِّنْج.

---

(١) الطاعون: مرض خبيث ذو حمىً شديدة ينتقل إلى الإنسان من الفئران.

(٢) النّجابة: الفضل والكرم وكرم الحسب والنّباهة.

(٣) الشّبق: اشتداد الشهوة.

نوع آخر منه

حُكِيَ عن الحجاج أنه سأل أيوب بن القِرِّيَّة[١] عن طبائع أهل البلاد، فقال: أهل الحجاز أسرعُ الناس إلى فتنة وأعجزُهم عنها؛ رجالها جُفاة، ونساؤها كُساة عراةٌ. وأهل اليمن أهلُ سَمْع وطاعة، ولزوم الجماعة. وأهل عُمَان عرب استَنْبَطُوا[٢]. وأهل البحرين نَبَطٌ استَعْرَبوا. وأهل اليمامة أهلُ جَفاء، واختلافِ آراء. وأهل فارس أهلُ بأسٍ شديد، وعِزٍّ عَتِيد[٣]. وأهل العراق أبحثُ الناس عن صغيره، وأضيَعُهم لكبيره. وأهل الجزيرة أشجع فُرْسان، وأقتلُ للأقران. وأهل الشام أطوعُهم لمخلوق وأعصاهم لخالق. وأهل مصر عبيدٌ لمن غَلَب؛ أكيسُ[٤] الناس صغارًا، وأجهلُهم كِبارًا.

وحُكِيَ عن أبي عثمان «عمرو بن بحر الجاحظ» أنه قال: كنا نُعلَّم في المكْتب[٥] كما نُعلَّم القرآن: اِحذوروا حماقَةَ أهل بُخارى، وغلّ[٦] أهل مَرْو، وشَغَب أهل نَيْسابور، وحسد أهل هَرَاةَ، وحِقْد أهل سِجِسْتان.

وقال أبو حامد القاضي: أعياني أن أرى خُراسانيًا ذكيًا، وطبريًا رَزِينًا[٧]. وهَمَذَانيًا لبيبًا، وبَصْريًا ركيكًا، وكُوفيًا رئيسًا، وبغداديًا سخِيًا، ومَوْصِليًا لَطِيفًا، وشاميًا خَفيفًا، وحجازيًا منافقًا، وبَدَويًا ظريفًا.

وقال بختيشوع[٨]: تسعة لا تخلو من تسعة: قُمِّيٌّ من رُعونة[٩]، ويماني من جنون، وواسطيّ من غفلة، وبصريّ من جَدَل، وكوفيّ من كَذِب، وسَوَاديّ من جَهْل، وبغداديّ من مَخْرَقة[١٠]، وخوزيّ من لؤم، وطبريّ[١١] من زَرَق.

---

(١) هو أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة الهلالي، أحد بلغاء الدّهر خطيب يضرب به المثل، والقرّيّة أمه، قتله الحجّاج سنة ٧٠٣. «فهرس الأعلام ٢/ ٣٧».

(٢) استنبطوا: أي التحقوا بالنبط، وهم قومٌ كانوا يسكنون بين العراق والأردن، أقاموا دولة عاصمتها البتراء.

(٣) العتيد: الحاضر والشديد التّام. (٤) الكيس: العقل.

(٥) المكتب: أي الكتّاب، وهي موضع التعليم «المدرسة».

(٦) الغلّ: العداوة والحقد.

(٧) الرزين: العاقل، والطبري: نسبة إلى طبرستان.

(٨) بختيشوع: هو بختيشوع بن جبرائيل ابن بختيشوع بن جرجس طبيب سرياني، قرّبه العباسيون. «فهرس الأعلام ٢/ ٤٤».

(٩) القميّ: نسبة إلى قم وهي مدينة في إيران، والرعونة: الحمق والهوج.

(١٠) المخرقة: الحماقة.

(١١) طبريّ: نسبة إلى طبرستان وليس إلى طبريّة لأنّ النسبة إليها «طبرانيّ» والزرق: العمى أو=

وقيل: جاوَرَ أهلُ الشام الرومَ، فأخذوا عنهم اللؤم وقلةَ الغيرة. وجاور أهلُ الكوفة أهلَ السواد، فأخذوا عنهم السَّخاء والغيرة. وجاور أهلُ البصرة الخُوزَ، فأخذوا عنهم الزنا وقلة الوفاء.

ويقال: إن القدماء اعتبروا البلاد وما امتاز به بعضُها عن بعض من الطبائع، فوجدوا أخصبَ بقاع الدنيا ثمانيةَ مواضع: أَرْمِينِيَة، وأَذْرَبِيجان، ومَاهُ دينَوَر، ومَاهْ نَهَاوِد، وكَرْمان، وأَصْبهَان، وقُومَس، وطَبَرِسْتَان.

ووجدوا أخفّ بقاع الدنيا ماءً، ماءَ ثمانية مواضع: دجلة، والفرات، وزَنْدرُود أصبَهَان، وماء سوران، وماء هَفيجَان، وماء جُنديْسابُور، وماء بَلْخ، وماء سَمَرْقَنْد. (وغفلوا عن نيل مصر، ولعله أحقُّها بهذه الخصوصية من سائر المياه).

ووجدوا أوبأ بقاع الدنيا ستة مواضع: النُّوبَنْدَجان، وسابُور خُوَاسْت، وجُرْجان، وحُلْوان[1]، وبَرْذَعه، وزَنْجان. (وغفلوا عن شَيْزَر).

ووجدوا أعقل أهل البلاد تسعة: أهل أصبَهان، والحِيرة، والمداين، وماهْ دِينَوَر، وإصْطَخْر، ونَيسابور، والرَّيّ، وطَبَرِسْتان، ونَشَوَىٰ (وهي نَقْجَوان).

ووجدوا أسرى[2] أهلِ بقاعِ الدنيا أهلَ سبعة مواضع: طوسفون (وهي المداين)، وبلاشون (وهي حُلْوان)، وماسَبَذان، ونَهاوند، والرَّيّ، وأصبَهَان، ونَيْسابور.

ووجدوا أهل بقاع الدنيا أهل عشرة مواضع: ماسَبَذَان، ومِهْرِجانْقَذَق[3]، وسُوَرْستان، والرَّيّ، والرَّويان، وأذْربيجان، والمَوْصل، وأرمينِيَة، وشَهْرزُور، والصَّامَغَان.

ووجدوا البخل في أهل ثماني بقاع: مَرْو، وإصطَخْر، ودارَابْجِرد، وخُوزستان، وماسَبَذَان، ودَيْبُل، وماه دينور، وحُلْوان.

= هي القذارة.

(١) حلوان: هي حلوان العراق، لا حلوان مصر.

(٢) أسرى: يقال: أسرى إسراء: سار ليلًا، وبما كانت بمعنى أكرم.

(٣) هذا الاسم يتركّب من ثلاث كلمات: مهر: أي الشمس المحبة الشفقة، جان: أي النفس الروح، قذق: بضمّ القاف، ولعلّه اسم رجل، فيكون معناه: محبة أو شمس نفس قذق، وهي كورة حسنة من نواحي بلاد الجبل. «معجم البلدان ٥/٢٣٣».

ووجدوا أسفل أهل بقاع الأرض أربعة: أهل السِّدجان[١]، وبادَرَايا، وماكسَايَا، وخُوزستان.

ووجدوا أقل أهل الأرض نظرًا في العواقب أهلَ سبعة مواضع: طَبَرِسْتان، وأرمينِيَة، وقُومس، وكَرْمان، وكُوسان، ومُكْران، وشَهْرزُور.

ويقال: إنه وَفَد رجل من عجم خُراسان على كِسْرىٰ، فقال له: أخبرني مَنْ أحسنُ أهل خُراسان لقاءً؟ قال: أهل بُخارى. قال: فمن أوسَعُهم بَذْلًا للخُبْز والمِلْح؟ قال: أهل جُوزْجان. قال: فمن أحسنُهم ضِيافةً؟ قال: أهل سَمَرْقند. قال: فمن أدقُّهم نظرًا وتقديرًا ؟ قال: أهل مَرْو. قال: فمن أسوأهم طاعة؟ قال: أهل خُوارَزْم. قال: فمن أخبثهم طَوِيَّة؟ قال: أهل مَرْو الروذ، إن رضي بذلك أهل أَبِيورد. قال: فمن أسقطهم عقلًا؟ قال: أهل طُوس، إن رضيَ بذلك أهل نَسَا. قال: فمن أكثرهم شَغَبًا وجَدَلًا؟ قال: أهل سرَخْس، إن رضي بذلك أهل قُوهِسْتان. قال: فمن أضعفهم وأخبثهم؟ قال: أهل نَيْسابور. قال: فمن أقلُّهم غيرةً على النساء؟ قال: أهل هَراةَ.

الباب الثاني
من القسم الخامس من الفن الأوّل
في خصائص البلاد

ولنبدأ من ذلك بمكّة ويثرِب، وأُغرِب عما أنقله من فضلهما ولا أُغْرب؛ وأَصِلُه بذكر البيت المقدّس والمسجد الأقصى، ولا أشترط الاستيعابَ لأن فضائلها لا تحصىٰ.

فأما مكة شرّفها الله تعالى وعظمها

ففضائلها مشهورة بَيِّنة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: الآيتان ٩٦، ٩٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٥].

---

(١) كذا في الأصل، ولم يذكرها ياقوت، وإنّما ذكر «السيرجان» مدينة بين كرمان وفارس فلعلّها مصحّفة عنها. «انظر معجم البلدان ٣/ ٢٩٥».

قال بعض المفسرين: «أمْنًا» من النار. وقيل: كان يأمَنُ من الطلب مَنْ أحدث حَدَثًا ولجأ إليه في الجاهلية.

وحكىٰ القاضي عياض[١] في «كتاب الشفا» أنه حُدِّث أن قومًا أتوا سَعْدون الخَوْلاني بالمُنَسْتِير[٢]، وأعلموه أن كُتَّامَةَ قتلوا رجلًا وأضرموا عليه النارَ طولَ الليل، فلم تعمل فيه وبقِيَ أبيضَ البَدن، فقال: لعله حَجَّ ثلاثَ حِجَجٍ؟ قالوا: نعم. قال: حُدِّثْتُ أن «من حَجَّ حَجَّة أدّى فرضَه، ومن حَجَّ ثانية دايَنَ[٣] ربَّه، ومن حَجَّ ثلاثَ حِجَجٍ حَرّم اللهُ شَعَرَه وبَشَره على النار».

ولما نظر رسولُ الله ﷺ إلى الكعبة قال: «مَرْحبًا بكِ من بَيْتٍ، ما أعْظَمَكِ وأعْظَمَ حُرْمَتكِ!». وجاء في الحديث عنه ﷺ: «ما مِنْ أحدٍ يَدْعو اللهَ عند الرُّكْن الأسْودِ إلا استجَابَ له». وكذلك عند الركن[٤].

وعنه ﷺ: «مَنْ صَلَّى خَلْفَ المَقَامِ ركعتيْنِ، غُفر له ما تَقَدّم من ذَنْبه وما تأَخّر وحُشِر يومَ القيامة مع الآمِنِينَ».

ذكر ما كانت الكعبة عليه فوق الماء قبل أن يخلق الله السمـٰوات والأرض

قال أبو الوليد الأزرقيّ[٥] بسند يرفعه إلى كعب الأحبار أنه قال: كانت الكعبة غُثَاء[٦] على الماء قبل أن يخلُق الله عزَّ وجلّ السمـٰوات والأرضينَ بأربعين سنةً. ومنها دُحِيَتِ[٧] الأرضُ.

---

(١) هو القاضي عيّاض بن موسى اليحصبي السبتي، أبو الفضل، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، كان من أعلم الناس بأيّام العرب وأنسابهم له تصانيف عدّة، توفي بمراكش سنة ١١٤٩ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٩٩».

(٢) منستير: هو موضع بين المهديّة وسوسة بإفريقيا، يسكنها قومٌ من أهل العبادة والعلم. «معجم البلدان ٥/ ٢٠٩».

(٣) داين ربّه: عامله بالدّين.

(٤) كذا في جميع النّسخ، ولعلّه الرّكن اليماني، والرّكن من البيت: أحد الجوانب القويّة التي يستند إليها.

(٥) هو محمد بن عبد الله بن الوليد بن عقبة بن الأزرق، مؤرّخ يماني الأصل، له أخبار مكة جزآن، مطبوع، مات نحو ٨٦٥ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٢٢».

(٦) الغثاء: ما يحمله السّيل من رغوة ومن فتات الأشياء التي على وجه الأرض.

(٧) دحيت: جعلت على شكل الدّحية أي البيضة، سطحت كما هي الآن.

وقال يرفعه إلى مجاهد: خلق الله تعالى هذا البيتَ قبل أن يخلُق شيئًا من الأرضِينَ. وعنه يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما كان العَرْش على الماء قبل أن يخلُق الله السمٰوات والأرضَ بعث الله ريحًا فصفَّقت[1] المَاء فأبرزَتْ عن حَشَفة[2] في موضع البيت كأنها قُبَّة. فدحا الله عزَّ وجلّ الأرضَ من تحتها فمادَتْ ثم مادَتْ. فأوْتَدها الله تعالى بالجبال، فكان أوّلَ جبل وضع فيها أبُو قُبَيْس، فلذلك سميت مكةُ أمَّ القُرىٰ.

وعنه يرفعه إلى مجاهد أنه قال: لقد خلق الله عزَّ وجلّ موضعَ هذا البيت قبل أن يخلُق شيئًا من الأرض بألفَيْ سنة، وإنّ قواعده لفي الأرض السابعة السُّفْلىٰ.

ذكر بناء الملائكة الكعبة قبل خلق آدم عليه السلام ومبدأ الطواف

قال أبو الوليد الأزرقيّ، يرفعه إلى عليّ بن الحسين رضي الله عنهما إنه أتاه سائل يسأله، فقال له: عَمَّ تسأَلُ؟ فقال: أسألك عن بَدْء الطواف بهذا البيت لِمَ كان؟ وأنّى كان؟ وحيث كان؟ وكيف كان بالحجر؟ فقال له: نعم، من أينَ أنتَ؟ فقال: من أهل الشام. فقال: أين مَسْكَنُك؟ قال: في بيت المقدس. قال: فهل قرأت الكتَابَينِ؟ (يعني التوراة والإنجيل). قال له الرجل: نعم. فقال له: يا أخا أهل الشام احفَظْ، ولا ترويِنَّ عَنِّي إلا حقًّا:

أمّا بَدْء هذا الطواف بهذا البيت، فإنّ الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠]، قالت الملائكة: أي رَبِّ، أخَليفة من غيرنا: ممن يُفْسِد فيها ويَسْفِك الدماء، ويتحاسدُون، ويتباغَضُون، ويتنازَعُون؟ أيْ رَبِّ، اجعل ذلك الخليفةَ منّا، فنحن لا نُفْسِد فيها، ولا نَسْفِك الدماء، ولا نتباغَضْ، ولا نتحاسَدُ، ولا نتباغىٰ؛ ونحن نُسَبِّح بحمدك ونقدّس لك، ونُطِيعك ولا نَعْصِيك. قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠]. قال: فظنَّت الملائكة أن ما قالوه ردٌّ على ربهم عزَّ وجلّ وأنه قد غَضِب من قولهم، فلاذُوا بالعرش، ورفعُوا رؤُوسهم، وأشاروا بالأصابع يتضرَّعون ويبكُون إشفاقًا لغَضَبه. فطافوا بالعرش ثلاثَ ساعاتٍ. فنظر الله عزَّ وجلّ إليهم، فنزلت الرحمةُ عليهم، فوضع اللهُ سبحانه

---

(١) صفّقت الماء: ضربتها.
(٢) الحشفة: صخرة تكون في البحر.

تحت العرش بيتًا على أربع أساطِينَ[١] من زَبَرْجَد[٢]، وغَشَّاه بياقوتة حمراءَ وسمَّى البيت الضرَاحَ[٣]. ثم قال للملائكة: طُوفُوا بهذا البيت، ودَعُوا العرش، فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش، وصار أهْونَ عليهم، وهو البيتُ المعمور الذي ذكره الله عزَّ وجلّ: يدخُلُه كلَّ يوم وليلة سبعُون ألفَ ملَك لا يعُودون فيه أبدًا. ثم إن الله سبحانه بعث ملائكة فقال: ابْنُوا لي بيتًا في الأرض بمثاله وقَدْرِه. فأمر الله سبحانه مَنْ في الأرض من خلقه أن يطُوفوا بهذا البيت، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمورِ.

فقال الرجل: صَدَقْتَ يا ابنَ بنتِ رسول الله ﷺ، هكذا كان.

ذكر زيارة الملائكة البيت الحرام

قال الأزرقيّ، يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما: إن جبريل عليه السلام وقَفَ على رسول الله ﷺ، وعليه عِصابة[٤] حمراءُ قد علاها الغُبارُ، فقال له النبيّ ﷺ: ما هذا الغبارُ الذي أرىٰ على عِصابتك، أيُّها الرُّوح الأمينُ؟ قال: إني زرتُ البيتَ فازدحمت الملائكةُ على الركن، وهذا الغبار الذي ترى مما تُثِير بأجْنِحَتها.

وقال، ورفعه إلى ليث بن معاذ[٥] رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال: هذا البيتُ خامسُ خمسةَ عشر بيتًا، سبعةٌ منها في السماء إلى العرش، وسبعةٌ منها إلى تخوم الأرض السُّفْلىٰ، وأعلاها الذي يلي العرشَ: البيتُ المعمور. لكل بيت منها حَرَم كَحَرم هذا البيت. لو سقط منها بيتٌ، لسقط بعضها على بعض إلى تخوم الأرض السُّفْلىٰ، ولكل بيتٍ من أهل السماء ومن أهل الأرض من يَعْمُره، كما يُعْمَر هذا البيتُ.

ذكر هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض وبنيانِه الكعبة المشرَّفة وحجه وطوافِه بالبيت

قال الأزرقيّ، يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما أهبط الله عزَّ وجلّ آدم عليه السلام إلى الأرض من الجنة، كان رأسُه في السماء ورِجْلاه في

(١) الأساطين: الأعمدة.
(٢) الزبرجد: حجر كريم يشبه الزّمرد، متعدّد الألوان، أشهره الأخضر والأصفر.
(٣) الضراح: البيت المتسع ففي اللسان: الانضراح: الاتساع «اللّسان مادة ضرح».
(٤) العصابة: العمامة أو التاج.
(٥) لعلّه ليث بن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، الصّحابي الجليل. «انظر فهرس الأعلام ٧/ ٢٥٨، والكاشف ٣/ ١٣٥».

الأرض. وهو مثل الفَلَك من رِعْدته[١]. قال: فطأْطأَ الله عزَّ وجلّ منه إلى الأرض ستين ذراعًا، فقال: يا رب مالي لا أسمَعُ أصوات الملائكة ولا حِسَّهم؟ قال: خطيئتُك يا آدم، ولكن اذهب فابْنِ لي بيتًا تَطُفْ به واذكُرْني حوله كنحو ما رأيتَ الملائكة تصنَعُ حولَ عرشي، قال: فأقبل آدم عليه السلام يتخطَّى، فطُويتْ له الأرض وقُبِضت له المَفاوِز[٢]، فصارت كل مفازة يمرُّ بها خَطوةً، وقبض له ما كان فيها من مَخَاضٍ أو بحرٍ فجعله خَطْوة، ولم يقع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عُمْرانًا وبَرَكةً حتَّى انتهىٰ إلى مكة. فبنىٰ البيت الحرام. وإن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أسٍّ[٣] ثابت في الأرض السُّفْلىٰ فقذفت الملائكة فيه الصخرَ، ما يُطِيق الصخرةَ منها ثلاثون رجلًا. وإنه بناه من خمسة أجْبُل: من لُبْنانَ، وطُورزَيْتا[٤]، وطُورِسِينَا، والجُودي[٥]، وحِراء[٦]، حتّى استوىٰ على وجه الأرض.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فكان أوّلُ من أسس البيتَ وصلّى فيه وطاف به، آدمَ عليه السلام. حتّى بعث الله سبحانه الطُّوفانَ، فدَرَس موضعُ البيت في الطُّوفان. حتّى بعث الله تبارك وتعالى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فرفعا قواعدَه وأعلامَه ثم بنَتْه قريش بعد ذلك. وهو بحذاء البيت المعمور، لو سقط، ما سَقَط إلا عليه.

وقال أبو الوليد أيضًا، ورفعه إلى وهب بن منَبِّه: إن الله تبارك وتعالى لما تاب على آدم عليه السلام، أمره أن يسيرَ إلى مكة. فَطوىٰ له الأرضَ وقَبضَ له المفاوِزَ، فصارت كلُّ مفازة يمرُّ بها خَطْوة، وقبض له ما كان فيها من مَخَاضٍ[٧] ماء أو بحر

---

(١) الرّعدة: اضطراب الجسم من فزعٍ أو حمى أو غيرهما.

(٢) المفاوز: جمع مفازة وهي الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها.

(٣) أسٌّ: أساس يقدم عليه البناء.

(٤) طورزيتا: جبل قرب رأس عين عند قنطرة الخابور على رأسه شجر زيتون يسقيه المطر، ومنه رُفع عيسى بن مريم عليه السّلام، وهو مطل على المسجد الأقصى. «معجم البلدان ٤/ ٤٧، ٤٨».

(٥) الجوديّ: هو جبل مطلٌّ على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل، عليه استوت سفينة نوح عليه السّلام. «معجم البلدان ٢/ ١٧٩».

(٦) حراء: جبل من جبال مكّة على ثلاثة أميال، وهو معروف، ومن الناس من يؤنّثه فلا يصرفه، وقيل: إن رسول الله ﷺ ارتقى ذروته. «معجم البلدان ٢/ ٢٣٣».

(٧) المخاض: ما يجب قطعه من ماءٍ في بحرٍ أو نهر.

فجعله له خَطْوة. فلم يضع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عُمْرانًا وبَرَكَةً حتّى انتهى إلى مكة. وكان قبل ذلك قد اشتدّ بكاؤه وحُزْنه لِما كان فيه من عظم المصيبة، حتّى إن كانت الملائكة لَتَحْزَن لحُزْنه ولَتَبْكِي لبُكائه. فعَزَّاه الله عزَّ وجلّ بخيمة من خيام الجنة، ووضعها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة. وتلك الخيمةُ ياقوتة حمراءُ من ياقوت الجنة: فيها ثلاثة قناديلَ من ذهبٍ من تِبْر الجنة، فيها نُور يتلَهَّب من نُور الجنة. ونزّل معها الركْنَ، وهو يومئذٍ ياقوتةٌ بيضاء من رَبَض[1] الجنة. وكان كُرْسيًّا لآدم عليه السلام، يجلس عليه. فلما صار آدم بمكة، حرسها الله تعالى، حرسه الله تعالى وحرس تلك الخيمة بالملائكة. كانوا يحرُسُونها ويَذُودون عنها ساكنَ الأرض، وساكنوها يومئذٍ الجنُّ والشياطين، فلا ينبغي لهم أن ينظُروا إلى شيء من الجنة، لأنه مَنْ نظر إلى شيء من الجنة وجبت له. والأرض يومئذٍ طاهرة نَقِيَّة لم تَنْجُس ولم يُسْفك فيها الدمُ، ولم تُعْمل فيها الخطايا. فلذلك جعلها الله عزَّ وجلّ مسكن الملائكة، وجعلهم فيها كما كانوا في السماء يُسَبِّحُون اللَّيْلَ والنَّهارَ، لَا يَفْتُرُونَ[2]: وكان وقوفهم على أعلام الحَرَم صَفًّا واحدًا مستديرين بالحرم كلِّه: الحِلُّ من خلفهم، والحَرَمُ كله من أمامهم. ولا يجوزهم جنيٌّ ولا شيطان. ومن أجل مُقام الملائكة، حُرِّم الحرم حتّى اليوم. ووضعت أعلامٌ حيث كان مقامُ الملائكة. وحرم الله على حوّاء دخولَ الحرم والنظرَ إلى خيمة آدم من أجل خطيئتها التي أخطأتْ في الجنة. فلم تنظر إلى شيء من ذلك حتّى قُبضت. وإن آدم عليه السلام كان إذا أراد لقاءها لِيُلِمَّ بها للولد، خرج من الحرم كله حتّى يلقاها. فلم تزل خيمةُ آدمَ مكانها حتّى قبض الله آدم عليه السلام ورفعها اللهُ. وبنىٰ بنو آدم بها من بعْدها مكانًا: بيتًا بالطِّين والحجارة. فلم يزل معمورًا، يَعْمرُونه ومَنْ بعدهم حتّى كان زمنُ نوح عليه السلام. فَنَسفه الغَرَق وخَفِي مكانهُ. فلما بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام طلب الأساسَ، فلما وصل إليه ظلَّل الله مكان البيت بغمامة. فكانت حِفَافَ[3] البيت الأوّل، ثم لم تزل راكزة على حِفَافِه تُظِلُّ إبراهيم عليه السلام وتَهْدِيه مكانَ القواعد حتّى رفع الله القواعد قامةً. ثم انكشفت الغمامة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحجّ: الآية ٢٦] أي الغمامةَ التي ركزت على الحِفَاف لتَهْدِيَهُ مكان القواعد.

(١) الربض: ناحية من النواحي، أو هو الضاحية.
(٢) يفترون: يصيبهم العناء والتّعب.
(٣) حفاف البيت: ما أحدق بأساسه وأركانه، أو ما استدار حوله.

وعن وهب بن منبه أنه قال: قرأتُ في كتاب من الكتب الأُوَل، ذُكر فيه أمرُ الكعبة، فوجدتُ فيه أن ليس من مَلَك من الملائكة بعثه الله تعالى إلى الأرض إلا أمَرَه بزيارة البيت. فينقَضُّ من عند العرش مُحْرِمًا ملبِّيًا، حتّى يستلِمَ الحجر. ثم يطوفُ بالبيت سبعًا ويركعُ في جوفه ركعتين، ثم يَصعَد.

وقال الأزرقيّ، يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض، أهبطه إلى موضع البيت الحرام. وهو مثل الفَلَك من رِعْدته. ثم أنزل عليه الحجرَ الأسودَ يعني الركنَ، وهو يتلألأ من شدّة بياضه. فأخذه آدم ﷺ فضمَّه إليه أُنسًا به. ثم أنزلَتْ عليه العصى فقيل له: تخَطَّ يا آدم، فتخطَّى، فإذا هو بأرض الهند والسند. فمكَثَ هنالك ما شاء الله، ثم استوحش إلى الركن فقيل له: احْجُجْ، قال: فحج فلقيَتْه الملائكة فقالوا: بَرّ حجُّك يا آدمُ، لقد حَججْنا هذا البيت قبلك بألفَيْ عامٍ.

قال: وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كعب الأحبار فقال: أخبِرْني عن البيت الحرام. فقال كعب: أنزله الله من السماء ياقوتةً مجوّفةً مع آدم، فقال له: يا آدم إن هذا بيتي أنزلتُه معك، يُطَاف حوله كما يُطَاف حولَ عَرْشي، ويصلَّى حوله كما يصلَّى حول عرشي. ونزلتْ معه الملائكة فرفعوا قواعِدَه من حجارة ثم وضع البيت عليه. فكان آدم يطوف حوله كما يُطاف حول العرش، ويصلِّي عنده كما يصلَّى عند العرش. فلما أغرق الله تعالى قومَ نوح، رفعه إلى السماء وبقيت قواعدُه.

وقال وهب بن منبه: كان البيت الذي بوّأه[1] الله تعالى لآدم عليه السلام يومئذٍ من ياقوت الجنة. وكان من ياقوتةٍ حمراء تلتَهِب، لها بابانِ: أحدُهما شرقيّ والآخر غربيّ. وكان فيه قناديلُ من نُور آنيتها ذهبٌ من تِبْر الجنة. وهو منظوم بنجوم من ياقوت أبيض. والركن يومئذٍ نجم من نجومه وهو يومئذٍ ياقوتة بيضاء.

والله أعلم.

ذكر فضل البيت الحرام، والحَرَم

قال أبو الوليد، يرفعه عن وهب بن منبه أنه قال: إن آدم لما أُهْبِط إلى الأرض استوْحش فيها لِمَا رأى من سَعَتِها ولم ير فيها أحدًا غيره، فقال: يا رب، أما لأرضك

---

(١) بوأه: أحلّه فيه.

هذه من عامر يسبِّحك فيها ويقدّس لك غيري؟ قال: إني سأجعَلُ فيها من ذُرِّيتك مَنْ يسبِّح بحمدي، ويقدّس لي، وسأجعل فيها بيوتًا تُرفَع لذكرى ويسبِّحُني فيها خلقي، وسأُبوّئك فيها بيتًا أختاره لنفسي، وأخصُّه بكرامتي، وأوثِره على بيوت الأرض كلها باسمي، فأسمِّيه بيتي، وأُنطِعُه[١] بعظمتي، وأحوزه[٢] بحرماتي، وأجعله أحق بيوت الأرض كلها وأولاها بذكري، وأضعه في البقعة التي اخترت لنفسي، فإني اخترت مكانه يوم خلقتُ السمٰواتِ والأرضَ؛ وقبل ذلك قد كان بعيني: فهو صفوتي من البيوت، ولستُ أسكُنه، وليس ينبغي لي أن أسكُنَ البيوتَ؛ ولا ينبغي لها أن تَسَعَني، ولكن على كرسيِّ الكِبرياء والجبروت؛ وهو الذي استقَلَّ بعزتي، وعليه وضعتُ عظمتي وجَلَالي، وهنالك استقرّ قَرَاري؛ ثم هو بعدُ ضعيف عنِّي لولا قُوَّتي؛ ثم أنا بعد ذلك مِلْءُ كل شيء، وفوق كلِّ شيء، ومحيط بكلِّ شيء، وأمامَ كلِّ شيء، وخلف كلِّ شيء، وليس ينبغي لشيء أن يعلم علمي ولا يقْدُر قدرتي، ولا يبلُغ كُنْه شاني. أيجعل ذلك البيت لك ولمن بعدك حَرَمًا وأمْنًا، أُحَرِّم بحرماته ما فوقه وما تحته وما حوله. فمن حرّمه بحرمتي فقد عظَّم حُرُماتي، ومن أحلّه فقد أباح جُرُماتي، ومن أمَّن أهلَه فقد استوجب بذلك أماني، ومَنْ أخادفهم أخفرني[٣] في ذمتي، ومن عظَّم شأنَه عَظُم في عيني، ومن تهاوَنَ به صَغُر في عيني؛ ولكل مَلِك حيازةُ ما حواليه مما حواليه، وبطنُ مكة خِيرتي وحِيازتي؛ وجِيرانُ بيتي وعُمَّارها وزوّارها، وفَدْي وأضيافي في كنفي[٤] وأفْنِيتي[٥]، ضامنون على ذمتي وجِواري؛ فأجعله أوّل بيتٍ وُضِع للناس، وأعمرُه بأهل السماء وأهل الأرض: يأتُونه أفواجًا شُعْثًا غُبْرًا ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحَجّ: الآية ٢٧]، يَعُجُّون[٦] بالتكبير عَجِيجًا، ويَرُجُّون بالتلبية[٧] رَجِيجًا[٨]، وينتَحبون بالبكاء نَحِيبًا. فمن اعتمره لا يريد غيره، فقد زارني ووَفَد إليّ ونزل بي؛ ومَنْ نزل بي، فحقيق علَيّ أن أُتْحِفه بكرامتي؛

(١) كذا بالأصل؛ والصواب «أنطّقه» بالقاف المثناة وتشديد الطاء، من نطقه إذا جعل له نطاقًا. والمعنى أنه تعالى جعل لبيته المكرم نطاقًا من عظمته، أي أنه أحاطه بعظمته فكان عظيمًا جليلًا في الأمم والشعوب.

(٢) كذا بالأصل؛ والصواب «أعوّذه» أي أنه تعالى جعله حرمًا آمناف فكان ذلك بمثابة عوذة له تقيه وتحميه.

(٣) خفر الذّمة: نقض العهد وغدر.

(٤) الكنف: الجانب والظل والرّعاية.

(٥) الفناء: السّاحة التابعة للدّار.

(٦) يعجّون: يصيحون بصوت مرتفع.

(٧) التلبية: هي أن يقول الحاج «لبّيك اللّهم لبّيك».

(٨) الرّجيج: الاهتزاز والحركة.

وحقٌّ على الكريم أن يُكْرِم وفده وأضيافه، وأن يُسْعِف كل واحد منهم بحاجته. تَعْمُره يا آدم ما كنتَ حيًّا، ثم تعمُره من بعدك الأممُ والقرونُ والأنبياء: أمةٌ بعد أمة، وقرنٌ بعد قرن، ونبيٌّ بعد نبيّ، حتّى ينتهي ذلك إلى نبيٍّ من ولدك وهو خاتَمُ النبيين، فأجعلَهُ من عُمَّاره وسُكَّانه وحُمَاته، ووُلاته وسُقاته. يكون أميني عليه ما كان حيًّا. فإذا انقلب إليّ، وجدني قد ذَخَرت له من أجره وفضيلته ما يتمكن به القربةَ مني والوسيلةَ إليّ، وأفضل المنازل في دار المقام. وأجعل اسمَ ذلك البيت وذِكْره وشرفَه ومجدَه وثناءه ومَكْرُمته لنبيٍّ من ولدك يكون قبل هذا النبي وهو أبوه يقال له إبراهيم، أرفع له قواعده، وأقضي علي يديه عمارتَه، وأُنبِط[1] له سِقايته، وأُريه حِلَّه وحَرَمه ومَوَاقفه، وأُعْلِمه مشاعره[2] ومناسكه[3]، وأجعله أُمةً[4] واحدة قانتًا لي، قائمًا بأمري، داعيًا إلى سبيلي؛ أَجْتبيه وأَهْدِيه إلى صراط مستقيم؛ أبتليه فيَصْبِر، وأُعافيه فيشكر؛ وينذِرُ لي فيفي؛ ويَعِدني فيُنْجِز؛ وأستجيب له في ولده وذرّيته من بعده وأُشَفِّعه فيهم، وأجعلهم أهل ذلك البيت ووُلَاتَه وحُمَاتَه وسُقَاتَه وخُدّامَه وخُزَّانَه وحُجَّابَه[5] حتّى يبتدعوا ويغيروا؛ فإذا فعلوا ذلك فأنا الله أقدر القادرين على أن أستبدل مَنْ أشاء بمن أشاء. أجعل إبراهيم إمام أهلِ ذلك البيت وأهل تلك الشريعة، يأتمُّ به مَنْ حضر تلك المواطن من جميع الإنس والجن؛ يطئون فيها آثاره، ويتبعون فيها سُنَّته، ويقتدون فيها بهَدْيه. فمن فعل ذلك منهم أوفىٰ نذره، واستكمل نُسُكه؛ ومن لم يفعل ذلك منهم ضيَّع نسكه، وأخطأ بُغْيتَه. فمن سأل عني يومئذٍ في تلك المواطن: أين أنا؟ فأنا مع الشُّعْثِ[6] الغُبْر المُوفِين بنذورهم، المستكملين مناسكهم، المبتهلين إلى ربهم الذي يعلم ما يبدون وما يكتمون. وليس هذا الخلق ولا هذا الأمر الذي قصصت عليك شأنه؛ يا آدم، بزائدي في ملكي ولا عَظَمتي ولا سلطاني ولا شيءٍ مما عندِي إلا كما زادتْ قطرةٌ من رُشَاش[7] وقعتْ في سبعة أبحر تمدّها من بعدها سبعةُ أبحر لا تحصىٰ، بل القطرة أزيد في البحر من هذا الأمر في شيء مما عندي. ولو لم أخلُقْه لم ينتقص شيء من مُلْكي ولا عظمتي ولا مما عندي من الغَناء[8] والسَّعة، إلا كما نقصت

(١) أُنبط: أظهر بعد خفاء.
(٢) المشاعر: مناسك الحجّ.
(٣) المناسك: طريقة النسك والعبادة.
(٤) الأمة: الطريقة والدّين.
(٥) الحجّاب: الذين يقومون على أمر أبوابه.
(٦) الشُّعث: الذين تغيّرت شعورهم من وعثاء السّفر.
(٧) الرّشاش: ما ترشّش من السّوائل.
(٨) الغناء: الكفاية والنفع.

الأرضَ ذرّةٌ وقعت من جميع ترابها وجبالها وحصاها ورمالها وأشجارها، بل الذرّة أنقص للأرض من هذا الأمر لو لم أخلقه. ليس مما عندي ويعدّ هذا مثلًا للعزيز الحكيم.

ذكر ما جاء في طواف سفينة نوح عليه السلام بالبيت

قال أبو الوليد الأزرقيّ، ورفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان مع نوح عليه السلام في السفينة ثمانون رجلًا معهم أهلوهم، وإنهم كانوا في السفينة مائةً وخمسين يومًا، وإن الله جل ثناؤه وَجَّه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يومًا، ثم وجهها إلى الجُوديّ فاستقرّت عليه.

وقال عن مجاهد: كان موضع الكعبة قد خَفِيَ ودَرَس[١] زمنَ الغرق فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام. فكان موضعه أكمةً[٢] حمراءَ مدوّرة، لا تعلوها السيول. غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعُه. وكان يأتيه المظلوم والمبعود من أقطار الأرض، ويدعو عِنْده المكروب. فقلَّ مَنْ دعا هنالك، إلا استجيب له. وكان الناس يحجُّون إلى مكة، إلى موضع البيت، حتّى بوّأ[٣] الله تعالى مكانه لإبراهيم عليه السلام. فلم يزل منذ أَهْبط الله تعالى آدم إلى الأرض معظمًا محرّمًا تتناسخه الأمم والملل أمّةٌ بعد أمّة، وملّةٌ بعد ملة. قال: وكانت الملائكة تحجُّه قبل آدم عليه السلام.

ذكر ما جاء من تخيّر إبراهيم عليه السلام موضع البيت

قال عثمان بن ساج: بلغنا والله أعلم أن إبراهيم خليل الله عليه السلام عُرِج به إلى السماء فنظر إلى الأرض، مشارِقِها ومغاربِها، فاختار موضع الكعبة. فقالت له الملائكة: يا خليل الرحمٰن اخترتَ حرمَ الله في الأرض، قال: فبناه من حجارةِ سبعة أجبُل (ويقولون خمسة). وكانت الملائكة تأتي بالحجارة إلى إبراهيم عليه السلام من تلك الجبال.

---

(١) درس: عفا وذهب أثره.
(٢) الأكمة: التلّ.
(٣) بوّأ المكان له: أعدّه وأحلّه فيه.

ذكر حج إبراهيم عليه السلام وإذنه بالحج وحج الأنبياء بعده وطوافهم

قال أبو الوليد عن محمد بن إسحٰق: لما فرغ إبراهيمُ خليلُ الرحمٰن من بناء البيت الحرام، جاءه جبريل عليه السلام فقال: طُفْ به سبعًا، فطاف به سَبْعًا، هو وإسماعيل. يستلمان الأركانَ كلَّها في كل طواف، فلما أكملا سبعًا، صلَّيا خلف المقام ركعتين. قال: فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها: الصَّفا والمَرْوة ومِنًى ومُزْدلِفة وعرفةَ. فلما دخل منًى وهبط من العقبة، مُثِّل له إبليس عند جَمْرة[1] العقبة، فقال له جبريل: ارمه، فرماه بسبع حصيات. فغاب عنه؛ ثم برَزَ له عند الجمرة الوسطى، فقال له جبريل: ارمه، فرماه إبراهيم بسبع حصيات، فغاب عنه؛ ثم برز له عند الجمرة السفلىٰ، فقال له جبريل: ارمه، فرماه بسبع حصيات مثل حصى الخَذْف[2]، فغاب عنه إبليس؛ ثم مضى إبراهيم في حجه وجبريل يوقفه على المواقف ويعلمه المناسك حتَّى انتهى إلى عرفة. فلما انتهى إليها، قال له جبريل: أعَرَفْتَ مناسِكَكَ؟ قال: نعم، قال: فسميت عرفات بذلك. قال: ثم أُمِر إبراهيم عليه السلام أن يؤذِّن في الناس بالحج، فقال إبراهيم: يا ربِّ وما يبلُغُ صوتِي؟ قال الله جل ثناؤه: أذِّن، وعليّ البلاغُ، قال: فَعَلا إبراهيم على المقام فأشرف به حتَّى صار أرفع الجبال وأطولها فجُمعت له الأرض يومئذٍ: سهلُها، وجبلُها، وبَرُّها، وبحرُها، وإنسها، وجِنُّها حتَّى أسمعهم جميعًا، فأدخل إصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يمينًا وشمالًا وشرقًا وغربًا وبدأ بشق اليمين فقال: «أيها الناس كُتِب عليكم الحجُّ إلى البيت العتيق، فأجيبوا ربكم» فأجابوه من تحت التخوم السبعة، ومن بين المشرق والمغرب إلى منقَطَع التراب من أقطار الأرض كلها: (لَبَّيكَ، اللهمَّ لَبَّيْك). قال: وكانت الحجارة على ما هي اليوم، إلا أن الله عزَّ وجلّ أراد أن يجعل المقام آية[3]. فكان أثَرُ قدميه في المقام آية إلى اليوم. قال: أفلا تراهم اليوم يقولون: (لبيك، اللهم لبيك). فكل من حج إلى اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم. وأثر قدمَيْ إبراهيم في المقام آية. وذلك قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧].

---

(١) جمرة العقبة: في آخر مِنى ممّا يلي مكة، وهي موضع رمي الجمار بمنى، وسمِّيت جمرة العقبة والجمرة الكبرى لأنه يرمى بها يوم النّحر. «معجم البلدان ٢/ ١٦٢».

(٢) الخذف: يقال خَذَفَ بالنوى وبالحصى، أي جعل النّواة أو الحصاة بين سبّابتيه ورمى بها.

(٣) الآية: العلامة والأمارة والمعجزة.

قال ابن إسحٰق: وبلغني أن آدم عليه السلام كان استلم الأركان كلها قبل إبراهيم، وحجَّه إسحٰقُ وسارةُ(١) من الشام. قال: وكان إبراهيم يحجُّه كل سنة على البُرَاق(٢). قال: وحَجَّتْ بعد ذلك الأنبياء والأمم.

وعن مجاهد، قال: حج إبراهيم وإسماعيل، ماشيين.

وعن عبد اللّه بن ضمرة السلولي(٣): ما بين الركْن إلى المقام إلى زمزم قبر تسعة وتسعين نبيًّا، جاؤوا حجَّاجًا فقُبِروا هنالك.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: كان النبيُّ من الأنبياءِ إذا هلكَتْ أمَّتُه لحق بمكة فتعبّد بها النبيُّ ومن معه حتَّى يموت. فمات بها: نوح، وهود، وصالح، وشعيب. وقبورهم بين زمزم والحِجْر.

وعن مجاهد: حج موسى النبيّ عليه السلام على جمل أحْمَر. فمرّ بالرَّوْحاء(٤) عليه عباءتان قَطَوانِيَّتان(٥) متَّزِرٌ بإحداهما، مرتدٍ بالأخرى. فطاف بالبيت ثم سعى بين الصفا والمروة. فبينما هو يلبِّي بين الصفا والمروة، إذ سمع صوتًا من السماء يقول: (لَبَّيك عبدي، أنا مَعَك) قال: فخرّ موسى ساجدًا.

وعن عُرْوة بن الزبير(٦) رضي الله عنهما قال: بلغني أن البيتَ وُضع لآدم يطوفُ به ويعبد الله عنده؛ وأنَّ نوحًا قد حَجَّه وجاءه وعظمه قبل الغرق. فلما أصاب البيتَ ما أصاب الأرض من الغرق فكان ربوةً حمراء معروفًا مكانه؛ فبعث الله هودًا إلى عاد، فتشاغل بأمر قومه حتَّى هلك، ولم يحجَّه. ثم بعث الله تعالى صالحًا إلى

---

(١) سارة: هي زوجة إبراهيم الخليل عليه السّلام.

(٢) البُراق: دابة ركبها رسول الله ﷺ ليلة المعراج.

(٣) هو عبد الله بن ضمرة السلولي، محدّث، عدّه ابن حيان والعجلي من الثقاة، روى عن أبي الدّرداء وأبي هريرة. «الكاشف ٢/ ٨٨».

(٤) الرّوحاء: من الرّوح والراحة والاستراحة، ويقال: لمّا رجع تبعٌ من قتال أهل المدينة يريد مكّة نزل بالرّوحاء، وهي من عمل الفرع، والرّوحاء: قرية من قرى بغداد على نهى عيسى. «معجم البلدان ٣/ ٧٦».

(٥) قطوانيّتان: نسبة إلى قطوان، وهو موضع ذكره الحديث الشريف أنّه يبعث منه سبعون ألف شهيد، وقال أبو الفضل بن طاهر المقدسي: قطوان موضع بالكوفة، وإليه يُنسب أبو الهيثم خالد بن مخلد القطواني المحدّث المشهور. «معجم البلدان ٤/ ٣٧٥».

(٦) هو عروة بن الزبير، أبو عبد الله، محدّث، قال ابن سعد: كان فقيهًا عالمًا كثير الحديث ثبتًا مأمونًا، وقال هشام: صام أبي الدّهر، ومات وهو صائم سنة ٩٣ هـ أو ٩٤ هـ. «الكاشف ٢/ ٢٢٩».

ثمود، فتشاغل بهم حتَّى هلك، ولم يحجَّه. ثم بوّأه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام فحجَّه وأعلم مناسكه ودعا إلى زيارته. ثم لم يبعث الله نبيًّا بعد إبراهيم، إلا حجه.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لقد سَلَك فَجَّ[١] الرَّوْحاء سبعون نبيًّا، حُجَّاجًا: عليهم لباسُ الصُّوف مخطِّمي[٢] إبلهم بحبال اللِّيف. ولقد صلَّى في مسجد الخَيْف[٣] سبعون نبِيًّا.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «لقد مَرَّ بفَجِّ الرَّوْحاء (أو لقد مَرَّ بهذا الفَجِّ) سبعون نبيًّا على نُوقٍ حُمْر خُطُمها الليفُ، لَبُوسُهم العباء وتلبيتهم شتَّى. فمنهم يونس بن متَّى. فكان يونس يقول: (لبَّيْك فرّاجَ الكُرب، لبَّيْك)؛ وكان موسى يقول: (لبَّيْك، أنا عبدُك لديْك، لبَّيْك) قال: وتلبية عيسى: (لبَّيْك، أنا عبدك ابن أمَتِك بنتِ عبديك، لَبَّيْك)».

وعن عطاء بن السائب[٤] أن إبراهيم رأى رجلًا يطوف بالبيت فأنكره، فسأله: ممن أنْتَ؟ فقال: من أصحاب ذي القَرْنيْنِ[٥]، قال: وأيْنَ هو؟ قال: هو بالأبطح[٦]. فتلقَّاه إبراهيم عليه السلام فاعتنقه، فقال لذي القرنين: ألا تركب؟ قال: ما كنتُ لأركبَ، وهذا يشمي، فحجَّ ماشيًا.

ذكر ما جاء من مسألة إبراهيم عليه السلام الأمْنَ والرزقَ لأهل مكة والكتبِ التي وجد فيها تعظيم الحرم

قال أبو الوليد الأزرقيّ، يرفعه إلى محمد بن كعب القُرَظي[٧] أنه قال: دعا إبراهيم عليه السلام للمؤمنين، وترك الكُفَّار لم يدعُ لهم بشيء، فقال الله

(١) الفجّ: الطريق الواسع البعيد.
(٢) خطم الناقة: جعل أنفها خطامًا، وهو الزّمام.
(٣) مسجد الخيف: الخيف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، ومنه سُمِّي مسجد الخيف من مِنى، وقال ابن جنّي: أصل الخيف الاختلاف، ومنه الناس أخياف: أي مختلفون. «معجم البلدان ٢/ ٤١٢».
(٤) هو عطاء بن السّائب الثقفي الكوفي أحد الأعلام في الحديث، قال أحمد عنه: ثقة ثقة رجل صالح يختم القرآن كل ليلة مات سنة ١٣٦ هـ. «الكاشف ٢/ ٢٣٢».
(٥) ذو القرنين: يقال: إنه أفريدون التاسع من ولد جمشيد الطبقة الأولى الفارسية، كان على عهد إبراهيم الخليل عليه السّلام. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٤١٠».
(٦) الأبطح: مسيلٌ واسع فيه دقاق الحصى، ومنه أبطح مكة، وهو مسيل واديها. «اللّسان: مادة بطح».
(٧) هو محمد بن كعب القرضي، من علماء الحديث، ثقة حجّة. «انظر الكاشف ٣/ ٨١».

تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٦].

وقال عثمان بن ساج: وأخبرني محمد بن السائب الكلبيّ[(١)] قال: قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٦]، فاستجاب الله عزَّ وجلّ له فجعله بلدًا آمنًا وآمن فيه الخائفَ ورزقَ أهلَه من الثمرات، تُحمَل إليهم من الآفاق.

وقال مجاهد: جعل الله هذا البلد آمنًا، لا يخاف فيه مَنْ دخله.

وقال سعيد بن السائب بن يَسَار[(٢)]: لما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة أن يرزق أهلها من الثمرات، نقل الله أرضَ الطائف من الشام فوضعها هنالك: رزقًا للحرم.

ورُوِيَ عن محمد بن المنكدر[(٣)]، عن النبيّ ﷺ أنه قال: لما وضع الله الحرم نقل له الطائفَ من الشام.

وعن الزُّهْريّ[(٤)] أنَّ الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف، لدعوة إبراهيم خليل الله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاء إبراهيم يطالع إسماعيل عليهما السلام فوجده غائبًا، ووجد امرأته الآخرة، وهي السيدة بنتُ مُضاض بن عمرو الجُرْهُمي. فوقف وسلم فردَّت عليه السلام واستنزلته وعَرَضت عليه الطعامَ والشراب، فقال: ما طعامُكم وشرابكم؟ قالت: اللحم والماءُ، قال: هل من حَبٍّ أو غيره من الطعام؟ قالت: لا، قال: بارك الله لكم في اللحم والماء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقول رسول الله ﷺ: «لو وَجَدَ عندها يومئذٍ حَبًّا لدعا لهم بالبَرَكة فيه، فكانت تكون أرضًا ذاتَ زرعٍ».

---

(١) هو محمد بن السّائب بن الحارث الكلبي، أبو النضر، نسّابة راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، من أهل الكوفة، مولده ووفاته فيها سنة ٧٦٣ هـ. «فهرس الأعلام ٦/ ١٣٣».

(٢) هو سعيد بن السّائب الطائفي، محدّث ثقة، بكاء، راهب. «الكاشف ١/ ٢٨٦».

(٣) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير التيمي المدني، الحافظ، إمامٌ بكّاء متأله، من المحدّثين الثقات توفي سنة ١٣٠ هـ. «الكاشف ٣/ ٨٨».

(٤) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزُّهري، أبو بكر، أحد أعلام الحديث قال ابن المديني: له نحو ألفي حديث مات في رمضان سنة ١٢٤ هـ. «الكاشف ٣/ ٨٥».

وعن سعيد بن جُبَيْرٍ[١] مثله، وزاد فيه: «ولا يخلُو أحدٌ على اللحم والماء في غير مكةَ إلا وَجِع بَطْنُه؛ وإن خلا عليهما بمكة لم يجد لذلك أذى».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وُجِد في المقام كتاب فيه «هذا بيت الله الحرامُ بمكة، توكَّل الله برزق أهله من ثلاث سُبُل[٢]، مباركٌ لأهله في اللحم واللَّبَن».

ووجد في حَجَر في الحِجْر كتابٌ من خِلْقة الحجرِ «أنا الله ذو بَكَّة[٣] الحرام صُغْتها يوم صُغْت الشمس والقمرَ وحَفَفتها بسبعة أملاك حُنَفَاء[٤] لا تزول حتّى يزول أخْشَباها[٥] مبارك لأهلها في اللحم والماء».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما هدموا البيت وبلَغوا أساس إبراهيم عليه السلام وجدوا في حجر من الأساس كتابًا، فدعَوْا له رجلًا من أهل اليمن، وآخَرَ من الرُّهبان، فإذا فيه: «أنا الله ذو بكة حرَّمتها يوم خلقت السمٰواتِ والأرضَ والشمسَ والقمرَ ويوم صُغْت هذين الجبلين وحفَفْتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها مبارك لأهلها في الماء واللبن».

وعن مجاهد رضي الله عنه قال: وجد في بعض الزبور «أنا الله ذو بَكَّة جعلتُها بين هذين الجبلين وصغتها يوم صغت الشمس والقمر وحَفَفْتها بسبعة أملاك حنفاء وجعلت رزق أهلها من ثلاث سُبُل فليس يؤتى أهل مكة إلا من ثلاثة طرق أعلى الوادي وأسفلِه وكُدًى[٦] وباركت لأهلها في اللحم والماء».

ذكر أسماء الكعبة ومكة

عن ابن أبي نَجِيح قال: إنما سُمِّيت «الكعبةَ» لأنها مُكَعَّبة على خِلْقة الكَعْب[٧].

---

(١) هو سعيد بن جبير الوالبي، أحد المحدّثين الأعلام، قتله الحجّاج في شهر شعبان شهيدًا سنة ٩٥ هـ. «الكاشف ١/ ٢٨٢».
(٢) سُبُل: مفردها سبيل وهو الطريق.
(٣) بكّة: يعني مكّة المكرّمة وقد ورد ذلك في القرآن الكريم. فقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: الآية ٩٦].
(٤) حنفاء: أي مسلمين وعلى ملّة إبراهيم.
(٥) الأخشبان: جبلا مكة، وأخشبا مكة جبلاها، وهما أبو قبيس والأحمر وهو جبل مشرف وجهه على قعيقعان. «اللسان مادة خشب».
(٦) الكدّى: الصحراء، أو هو موضع بمكّة.
(٧) الكعب: في الهندسة: المجسّم الذي له ستة سطوح مربّعة متساوية.

قال: وكان الناس يبْنُون بيوتهم مدوّرة تعظيمًا للكعبة. فأوّل من بنىٰ بيتًا مربَّعًا حُمَيد بن زُهَير، فقالت قريش: «رَبَّع حميدُ بنُ زُهَيْر بيتًا، إمّا حياةً وإمّا موتًا».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إنما سمِّيت «بكة» لأنه يجتمع فيها الرجالُ والنساء جميعًا. وقالوا: «بَكَّةُ» موضع البيت، ومكَّة القرية.

وقال ابن أبي أنيسة: «بَكَّةُ» موضع البيت، ومكة هو الحرمُ كلُّه.

وكان ابن جريح يقول: إنما سميت «بكة» لتَبَاكِّ[١] الناس بأقدامهم قدّامَ الكعبة.

ويقال: إنما سميت «بكة» لأنها تَبُكُّ[٢] أعناقَ الجبابرة.

وعن الزهري: أنه بلغه إنما سمِّي «البيتَ العتيقَ» من أن الله تعالى أعتقه من الجبابرة.

وعن مجاهد والسدّي[٣]: إنما سمي «البيت العتيقَ» الكعبةُ، أعتقها الله من الجبابرة؛ فلا يَتَجبَّرون فيه إذا طافلوا. وكان البيت يدعى «قادسًا» ويدعى «بادرًا» ويدعى «القرية القديمة» ويدعى «البيت العتيق».

وعن مجاهد قال: من أسمائها «مكّة» و«بكّة» و«أمّ رُحْم» و«أمّ القُرى» و«صَلَاحِ» و«كُوثىٰ» و«الباسَّة».

وعن ابن أبي نجيح قال: بلغني أن أسماء مكة «مكةُ»؛ و«بكةُ»؛ و«أم رُحْم»؛ و«أم القُرى»: و«الباسَّةُ»؛ و«البيتُ العتيقُ»؛ و«الحاطمةُ»: (تحْطِم[٤] من يستخفُّ بها)؛ و«الناسَّة» (تنُسُّهم، أي تخرجهم إخراجًا إذا غَشَموا وظلموا).

ذكر ما جاء في فضل الركن الأسود

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ليس في الأرض من الجنة إلا الرُّكْن الأسود والمقام، فإنهما جوهرتانِ من جواهر الجنة؛ ولولا ما مَسَّهما من أهل الشِّرك ما مسَّهما ذُو عانة إلا شفاه الله عزَّ وجلّ.

---

(١) تباكّ الناس: زحم بعضهم بعضًا. (٢) بكَّ عنقه: أي كسرها.

(٣) السّدي: هو إسماعيل بن عبد الرحمـٰن، الكوفي محدّث، حسن الحديث توفي سنة ١٢٧. «الكاشف ١/ ٧٥».

(٤) تحطم: تهلك.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال في الرُّكْن الأسود: لولا ما مَسَّه من أنجاس الجاهلية وأرجاسهم[١]، ما مَسَّه ذو عاهة إلا بَرَأ. وقال: نزل الركن، وإنه لأشدّ بياضًا من الفِضَّة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها، وهي تطوف معه بالكعبة حين استَلَم الركَن: «لولا ما طُبع على هذا الحجر، يا عائشةُ، من أرجاس الجاهلية وأنجاسها، إذَنْ لاستُشْفِيَ به من كل عاهة، وإذن لألفِي كهيئته يوم أنزله الله، وليعيدنه الله إلى ما خلقه أوّل مرة، وإنه لياقوتة بيضاءُ من يواقيت الجنة، ولكنَّ الله غيره بمعصية العاصين، وستر زِينتَه عن الظَّلَمة والأَثَمة لأنهم لا ينبغي لهُم أن ينظروا إلى شيء كان بدؤه من الجنة».

وعنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله يبعثُ الركنَ الأسودَ، وله عينان يبْصر بهما، ولِسان يَنطِق به: يشهد لمن استلمه بحق».

وعنه رضي الله عنه: الركن يمينُ الله في الأرض: يصافِحُ بها عباده كما يصافح أحدُكم أخاه.

وعن أبي سعيد الخُدري[٢] رضي الله عنه قال: خرجْنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة. فلما دخَلْنا الطوافَ، قام عند الحجر وقال: والله إني لأعلم أنك حَجَرٌ لا تضرُّ ولا تنفَع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبِّلك، ما قبَّلتك، ثم قبَّله ومضىٰ في الطواف فقال له عليّ رضي الله عنه: بل يا أمير المؤمنين هو يضرّ وينفع، قال: وبم قلتَ ذلك؟ قال: بكتاب الله، قال: وأين ذلك من كتاب الله؟ قال: قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]، فلما خلق الله تعالى آدم مسح ظهرَه وأخرج ذرّيته من صلبه فقرّرهم أنه الربُّ وهم العبيد، ثم كتب ميثاقهم في رَقٍّ[٣]، وكان هذا الحجر له عينانِ ولسانٌ، فقال له: افتح فاك، فألقمه ذلك الرَّقَّ وجعله في هذا الموضع، وقال: تشهد لمن وافاك[٤] بالموافاة يوم القيامة، فقال عمر: أعوذ بالله أن أعيشَ في قوم لستَ فيهم، يا أبا الحسن.

---

(١) الأرجاس: مفردها الرجس وهو القذر والحرام والكفر.

(٢) هو سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي، أبو سعيد، صحابي، كان من ملازمي النبيّ ﷺ وروى عنه أحاديث كثيرة توفي في المدينة سنة ٦٩٣ م. «فهرس الأعلام ٣/٨٧».

(٣) الرقّ: جلدٌ رقيق يكتب فيه، أو الصحيفة البيضاء.

(٤) وافى موافاةً: أعطى الشيء حقّه تامًا، أو أدركه.

وعن عِكْرِمة: أنّ الحجر الأسود يمينُ الله في الأرض، فمن لم يدرك بيعة رسول الله ﷺ فمسح الركنَ فقد بايع الله ورسولَه.

وعن مجاهد: يأتي الركنُ والمَقَام يوم القيامة، كلُّ واحد منهما مثلُ أبي قُبَيس: يشهدان لمن وافاهما بالموافاة.

والله أعلم.

ذكر ما جاء في فضل استلام الركن الأسود، واليماني

عن عطاء بن السائب(١) أن عبيد بن عمير قال لابن عمر رضي الله عنهما: إني أراك تُزاحم على هذين الركنين، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ استلامَهُما يحُطُّ(٢) الخَطايا حَطًّا».

وسئل رضي الله عنه، فقيل له: إنا نراك تفعل خِصالًا أربعًا لا يفعلُها الناسُ: نراك لا تستلم من الأركان إلا الحجرَ والركن اليمانِيَ، ونراك لا تلْبَس من النِّعال إلى السِّبْتية(٣)، ونراك تُضَفِّر(٤) شعرك وقد يصبُغ الناس بالحنَّاء، ونراك لا تُحْرم حتَّى تستوي(٥) بك راحلتك وتَوَجَّهَ. فقال عبد الله: إني رأيت رسول الله ﷺ يفعلُ ذلك.

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ كان لا يَدَعُ الركنَ الأسود والركن اليمانِيَ أن يستلمهما في كل طواف أتىٰ عليهما. قال: كان لا يَدَعُهما في كل طواف طاف بهما حتَّى يستلمَهما، لقد زاحم على الركن مرةً في شدّة الزحام حتَّى رُعِف(٦)، فخرج فغسل عنه ثم رجع. فعاد يزاحم فلم يصل إليه حتَّى رُعِف الثانية، فخرج فغسل عنه ثم رجع. فما تركه حتَّى استلم.

وعن نافع قال: لقد رأيت ابن عمر رضي الله عنهما؛ زاحم مرةً على الركن اليَماني حتَّى انبهر(٧) فتنحَّى فجلس في ناحية الطواف حتَّى استراح، ثم عاد فلم يدَعْهُ حتَّى استلمه. قالوا: وليس هذا واجبًا على الناس، ولكنه كان يحب أن يصنع كما صنع رسول الله ﷺ.

---

(١) هو عطاء بن السّائب الثقفي الكوفي أحد الأعلام في الحديث. «الكاشف ٢/ ٢٣٢».
(٢) يحطّ: يسقط وينزل ويزيل.
(٣) السِّبت: الجلد المدبوغ، ومنه النّعال السبتيّة.
(٤) ضفّر شعره: نسخ بعضه على بعض عريضًا، أو جدّله.
(٥) تستوي: تستقر، واستوى على ظهر الدّابة: استقرّ.
(٦) الرّعاف: دم ينزل من أنف الإنسان. (٧) انبهر: انقطع نفسه من التعب أو المشقّة.

ذكر ما جاء في فضل الطواف بالكعبة

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ طافَ بالبَيْتِ، كتَبَ اللهُ له بكُلِّ خَطْوة حسنةً ومحا عنه سيِّئةً».

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خَرجَ المرْءُ يُريدُ الطَّوافَ بالبيْتِ، أقبلَ يُريد الرحمةَ. فإذا دَخَله غمَرْته. ثم لا يرفَعُ قدَمًا[١] ولا يَضَعُ قدَمًا إلا كتَبَ اللهُ له بكلِّ قَدَم خمْسَمِائة حسنةٍ، وحَطَّ عنه خمْسَمِائةِ سيئةٍ (أو قال خطيئةٍ)، ورُفِعت له خَمْسُمِائة درجةٍ. فإذا فَرَغ من طوافه فصلَّى ركعتين دُبُر المَقامِ، خرج من ذنوبه كيومَ ولَدَتْه أمّه، وكُتِب له أجْرُ عِتْق عشرِ رقابٍ من ولد إسماعيل، واستقبله مَلَكٌ على الركن فقال له: استأنِفِ العمل فيما بقيَ فقد كُفِيت ما مضى، وشُفِّع في سبعين من أهل بيتِه».

وعن حَسَّان بن عطية[٢]: أن الله خلق لهذا البيت عشرين ومائة رحمة يُنزِلُها في كل يوم، فسِتُّون منها للطائفين، وأربعون للمصلِّين، وعشرُون للناظرين. قال حسان: فنظَرْنا فإذا هي كلها للطائفين هو يطوف ويصلي ويَنْظُر.

ذكر ما جاء في فضل زمزم

عن وهب بن منَبِّه أنه قال في زمزم[٣]: والذي نفسي بيده، إنها لفي كتاب الله مَضْنُونة[٤]، وإنها لفي كتاب الله بَرَّة[٥]، وإنها لفي كتاب الله شَرَابُ الأبرار، وإنها لفي كتاب الله طعامُ طُعْم وشفاءُ سُقْم.

وعن ابن خُثَيم[٦] قال: قَدِم علينا وهب بن منبه مكةَ فاشتكىٰ، فجِئناه نعوده، فإذا عنده من ماء زمزمَ. قال: فقلنا له: لو استعذبْتَ، فإن هذا ماء فيه

(١) القدم: يقال: فدم الإبريق أي غطاه، والفدام من الناقة: ما يوضع على فمها ليمنعها الأكل والعضّ.

(٢) هو حسّان بن عطيّة، أبو بكر المحاربي، محدّث ثقة عابد نبيل، لكنه يقول «بالقدر». «الكاشف ١/ ١٥٦».

(٣) زمزم: هي البئر المشهورة المباركة، قيل: سمّيت زمزم لكثرة مائها، وقال ابن عباس: سمّيت بضمّ هاجر أم إسماعيل عليه السلام لمائها حين انفجرت وزمّها إيّاه. «معجم البلدان ٣/ ١٤٧».

(٤) المضنونة: أي المصانة والمحروسة، وضنّ بالشيء: بخل به لنفاسته.

(٥) البرّة: الخيّرة والصالحة.

(٦) هو عبد الله بن عثمان بن خثيم المكي، حليف الزهريين، قال أبو حاتم: صالح الحديث توفي سنة ١٣٢ هـ. «الكاشف ٢/ ٩٦».

غِلَظ[١]؟ قال: ما أريد أن أشرب حتَّى أخرج منها غيْرَه، والذي نفس وهب بيده، إنها لفي كتاب الله زمزم لا تُنْزَف[٢] ولا تُذَم، وإنها لفي كتاب الله بَرَّة شراب الأبرار، وإنها لفي كتاب الله مَضْنونة، وإنها لفي كتاب الله طَعامٌ من طُعْم وشفاءٌ من سُقْم، والذي نفس وهب بيده لا يعمدُ أحد إليها فيشربُ منها حتَّى يتضلّع[٣] إلا نزعَتْ منه داءً أو أحدَثَت له شفاءً.

وعن كعب أنه قال لزمزم: إنا نجدها مضنونةً ضَنَّ بها لكم، وإن أوّل مَنْ سُقيَ ماءَها إسماعيلُ عليه السلام، طعامٌ من طُعْمٍ[٤]، وشفاءٌ من سُقْمٍ.

وعن مجاهد قال: ماءُ زمزمَ لما شُرِب له، إن شربته تريد به شفاءً شفاك الله، وإن شربته لظمإٍ أرواك الله، وإن شربته لجُوع أشبعكَ الله، وهيَ هَزْمةُ[٥] جبريل عليه السلام بعَقِبه[٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «التضَلُّع من ماءِ زمزمَ براءةٌ من النّفاق».

وعن الضحاك بن مزاحِم[٧] أنه قال: بلغني أنَّ التضلع من ماء زمزم براءةٌ من النفاق، وأن ماءها يَذْهَبُ بالصُّدَاع، وأن التطلّع فيها يجلو البصَر، وأنه سيأتي عليها زمان تكون أعذبَ من النيل والفرات. قال: قال لنا الخزاعيّ: وقد رأينا ذلك في سنة إحدى أو اثنتين وثمانين ومائتين، وذلك أنه أصاب مكةَ أمطارٌ كبيرة وسال واديها في سنة تسع وسبعين، وسنة ثمانين ومائِتينَ، فكثُر ماء زمزم وارتفع حتَّى قارب رأسَها، فلم يكن بينه وبين شَفتِها العليا إلا سبعُ أذرع أو نحوها. وعذُبت حتَّى كان ماؤها أعذبَ مياه مكة التي يشربها أهلها. وإنا رأيناها أعذبَ من مياه العيون.

وعن الضحاك بن مزاحم أيضًا أن الله عزَّ وجلّ يرفع المياه العِذَابَ قبل يوم القيامة غير زمزَمَ، وتغور المياه العَذْبة غيرَ زمزم.

---

(١) الغلظ: الشدّة والخشونة.
(٢) تنزف: أي تستهلك فتغور أو تنضب.
(٣) يتضلّع: يرتوي.
(٤) الطعم: الرزق، أو القدرة.
(٥) الهزمة: النّقرة في الأرض أو الصّخر.
(٦) العقب: عظم مؤخّر القدم.
(٧) هو الضّحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني، وثّقه أحمد وابن معين مات سنة ١٠٥ هـ. «الكاشف ٢/ ٣٣».

ذكر ما جاء من اتّساع مِنَى أيام الحج ولِمَ سُمِّيت مِنَى

عن أبي الطُّفَيل[١]، قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يُسْأَلُ عن منَى، ويقال له: عجبًا لضيقه في غير أيام الحج! فقال ابن عباس: إن منَى يتسع بأهله كما يتسع الرحم للولد.

وعن ابن عباس، قال: إنما سميت منَى منَى لأن جبريل حين أراد أن يفارق آدم، قال له: تمنَّ، قال: أتمنَّى الجنة، فسميت منَى لتمنّي آدم.

وقيل: إنما سُمِّيت منَى لِمَنْي[٢] الدماء بها.

ذكر ما جاء في فضائل مقبرة مكة

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ، أنه قال: «نِعْمَ المقْبُرةُ هذه!» (لمقبرة أهل مكة).

وعن محمد بن عبد الله بن صيفيّ أنه قال: من قُبِر في هذه المقبرة، بُعِث آمنًا يوم القيامة (يعني مقبرة مكة).

ذكر شيء من خصائص مكة

من خصائصها أن الذئب فيها يروّع الظبي[٣] ويعارضه ويصيده. فإذا دخل الحَرَم، كَفَّ عنه.

ومنها أنه لا يسقط على الكعبة حمامٌ إلا إن كان عليلًا؛ وأن عادة الطير إذا حاذت الكعبة أن تفترق فرقتين ولا تعلُوَها. والله أعلم.

وأما المدينة المشرفة
على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

ففضائلها أوسعُ من أن أحصرَها، وأعظم من أن أسبُرَها[٤]، ناهيك بها من بلد اختاره الله تعالى لرسوله، ونص على فضله في محكم تنزيله، قال الله عزَّ

---

(١) أبو الطفيل: هو عامر بن واثلة بن عمرو الليثي الكناني القرشي، شاعر كنانة وأحد فرسانها روى عن النّبي تسعة أحاديث، توفي بمكة سنة ٧١٨ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٥٥».

(٢) مَنْي الدماء: إراقتها.

(٣) يروّع: يخيف.

(٤) أسبُرها: أصل إلى إدراك كنهه، وسبر الشيء: خبره ليعرف معناه.

وجـلّ: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: الآية ١٠٨].

ورُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه سُئل: أيّ مسجد هو؟ فقال: مسجدي هذا، وهو قول ابن المسيَّب وزيد بن ثابت وابن عمر رضي الله تعالى عنهم، وبه أخذ مالك رحمه الله. وقال ابن عباس: هو مسجد قباءٍ[(١)].

ورُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «صلاةٌ في مسجِدِي هذا خيرٌ من ألفِ صلاةٍ فيما سِواه، إلا المسجدَ الحَرَامَ».

قال القاضي عياض رحمه الله: اختلف الناس في معنى هذا الاستثناء على اختلافهمم في المفاضلة بين مكة والمدينة. فذهب مالك أن الصلاة في مسجد الرسول ﷺ أفضلُ من الصلاة في سائر المساجد بألف صلاة إلا المسجد الحرام، فإن الصلاة في مسجد النبيّ ﷺ أفضلُ من الصلاة فيه بدون الألف. واحتج مالك وأشهبُ وابن نافع وجماعةُ أصحابه بما رُوِيَ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه «صلاة في المسجد الحرام خيرٌ من مائة صلاة فيما سواه» فتأتي فضيلة مسجد الرسول عليه بتسعمائة وعلى غيره بألف. وهذا مبنيّ على تفضيل المدينة على مكة، وهو قول عمر بن الخطاب ومالك وأكثر المدنيين.

وذهب أهل مكة والكوفة إلى تفضيل مكة. وهو قول عطاء وابن وهب وابن حبيب، من أصحاب مالك. وحكاه الباجي عن الشافعي.

قال القاضي أبو الوليد الباجي[(٢)]: الذي يقتضيه الحديث مخالفة حكم مكة لسائر المساجد، ولا يعلم منه حكمها مع المدينة.

قال القاضي عياض: ولا خلاف أن موضع قبر النبي ﷺ أفضلُ بقاع الأرض.

قال النبيّ ﷺ: «ما بين بَيتي ومِنْبَرِي روضةٌ من رِيَاض الجنة». قالوا: هذا يحتمل معنيين:

---

(١) قباء: قرية على بعد ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكّة، وهناك مسجد التقوى الذي بناه المهاجرون والأنصار، فلمّا هاجر النبي ﷺ ورد قباء وصلّى بهم فيه، وأهل قباء يقولون: هو المسجد الذي أسّس على التقوى من أول يوم. «معجم البلدان ٤/ ٣٠٢».

(٢) أبو الوليد الباجي: هو سليمان بن خلف بن سعد القرطبي، فقيه مالكي كبير، من رجال الحديث، مولده في باجة بالأندلس، ولي قضاء الأندلس، ورحل إلى المشرق له مصنّفات عديدة توفي سنة ١٠٨١ م. «فهرس الأعلام ٣/ ١٢٥».

أحدهما: أنه موجب لذلك وأن الدعاء والصلاة فيه تستحق ذلك من الثواب كما قيل: «الجنةُ تحتَ ظِلال السُّيوف».

والثاني: أن تلك البقعة قد ينقلها الله فتكون في الجنة بعينها. قاله الداوديّ.

وروى ابن عمر وجماعةٌ من الصحابة رضي الله عنهم أن النبيّ ﷺ قال في المدينة: «لا يَصْبِر على لأوائها[١] وشدّتها أحدٌ، إلا كنتُ له شهيدًا أو شفيعًا يوم القيامة».

وقال ﷺ فيمن تحمَّل[٢] عن المدينة: «والمدينةُ خيرٌ لهم لو كانوا يعلَمُون». وقال: «إنما المَدينةُ كالكِير[٣]: تَنْفِي خَبَثَها[٤] وتَنْصَع[٥] طِيبَها».

وقال: «لا يخرجُ أحدٌ من المدينة رغبةً عنها إلا أبدلها اللهُ خيْرًا منه».

وعنه ﷺ: «مَنْ مات في أحد الحرمين حاجًّا أو معتَمِرًا، بعثه اللهُ يومَ القيامة لا حِسابَ عليه ولا عَذَاب». وفي طريق آخر: «بُعث من الآمِنِين يومَ القيامة».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «مَنِ استطاع أن يموتَ بالمدينة، فليمُتْ بها فإنِّي أشفَعُ لمن يموتُ بها».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ طَلَع له أُحُدٌ فقال: «هذا جبَلٌ يحبُّنا ونحبُّه. اللهم إنَّ إبراهيم حَرَّم مكة، وأنا أُحَرِّم ما بين لابَتَيْها»[٦].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم حَبِّبْ إلينا المدينةَ كما حَبَّبت إلينا مكةَ أو أشدَّ، وانقل حُمَّاها إلى الجُحْفة[٧]، اللهم بارِكْ لنا في صاعنا[٨]

---

(١) اللأواء: ضيق العيش وشدّته. (٢) تحمّل: ارتحل.
(٣) الكير: جهاز من جلد أو نحوه يستخدمه الحداد وغيره للنفخ في النّار لإشعالها.
(٤) الخبث: الصدأ والأذى. (٥) تنصَع: تظهر.
(٦) اللّابة: الحرّة من الأرض، وهي الأرض ذات الحجارة السّود.
(٧) الجحفة: قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة، وكان اسمُها مهيعة، وإنّما سمّيت الجحفة لأن السّيل احتجفها وحمل أهلها في بعض الأعوام، وقال الكلبي: إن العماليق أخرجوا بني عقيل، وهم إخوة عاد بن ربّ فنزلوا الجحفة، ولمّا قدم النبيّ ﷺ المدينة استوبأها وحُمَّ أصحابه، فدعا الله أن ينقل حمّاها إلى الجحفة. «معجم البلدان ٢/ ١١١».
(٨) الصاع: مكيال تكال به الحبوب ونحوها، وقدّره أهل الحجاز قديمًا بأربعة أمداد.

ومُدِّنا(١)». ودعا النبيّ ﷺ لأهل المدينة فقال: «اللهم باركْ لهم في مكْيالهم، وبارك لهم في صاعهم ومُدّهم».

وقال ﷺ: «مَنْ زار قَبْري، وجبَتْ له شفاعَتِي».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ زارني في المدينةِ مُحْتَسِبًا، كان في جِوَارِي وكنتُ له شَفِيعًا يومَ القيامة».

وكان مالك رحمه الله لا يركب في المدينة دابَةً، ويقول: أستحْيِي من اللهِ أنْ أطأَ تُربةً فيها رسول الله ﷺ بحافِرِ دابةٍ.

ورُوِيَ أنه وَهَب للشافعيّ كُرَاعًا(٢) كثيرًا، فقال له الشافعيّ: أَمْسِك منها دابَّة. فأجابه بمثل هذا الجواب.

وحكىٰ القاضي عياض في «كتاب الشفاء» قال: حُدّث أن أبا الفضل الجوهريّ لمَّا ورد المدينة زائرًا وقَرُب منها، ترجَّل ومشى باكيًا منشدًا: [من الطويل]

ولَمَّا رأيْنا رَسْمَ مَنْ لم يَدَعْ لنا ... فُؤادًا لعِرْفانِ الرُّسُوم ولا لُبَّا
نزَلْنا عنِ الأكوارِ نَمْشي، كرامةً ... لمَنْ بانَ عنه أن نُلِمَّ به رَكْبا(٣)

قال: وحكى بعض المريدين(٤) أنه لما أشرف على مدينة رسول الله ﷺ، أنشأ يقول متمثِّلًا: [من الكامل]

رُفِع الحِجابُ لنا فَلَاحَ لناظِرٍ ... قَمَرٌ تَقَطَّعُ دونَه الأوهامُ
وإذا المَطِيّ بنا بلَغْنَ محمدًا ... فظُهورُهُنّ على الرِّجال حَرامُ
قَرَّبْننا من خَيْرِ مَنْ وَطِىءَ الثَّرىٰ ... فلها علَيْنا حُرمةٌ وذِمامُ

وأفتىٰ مالك رحمه الله فيمن قال: «تربة المدينة رديَّة» يضرب ثلاثين دِرّة(٥)، وأمر بحبسه؛ وكان له قَدْر. وقال: «ما أحْوجَه إلى ضَرْب عُنُقه، تربةٌ دفن فيها النبيّ ﷺ، يزعمُ أنها غير طَيِّبة!».

---

(١) المدّ: مكيال قديم اختلف في تقديره.
(٢) الكراع: من الغنم والإبل: مستدقّ السّاق العاري من اللحم «يذكر ويؤنّث» ويريد بالكراع هنا: الماشية ممّا ذكرنا.
(٣) الأكوار: جمع كور، وهو الرّحل أو ما يجعل على ظهر الجمل كالسّرج.
(٤) المُريدين: المتصوّفة والنّساك.
(٥) الدرّة: السّوط يضرب به.

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في المدينة: «مَنْ أحدَثَ فيها حَدَثًا أو آوى مُحْدِثًا، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبلُ اللهُ منه صَرْفًا[١] ولا عَدْلًا».

ذكر شيء من خصائص المدينة المشرفة وأسمائها على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

من خصائصها، أن العِطْر والبَخُور يوجد لهما فيها من الضَّوْع[٢] والرائحةِ الطيِّبة أضعافُ ما يوجَد في سائر البلاد؛ ولها في قصبتها فَغْمة[٣] طيِّبة ورائحة عَطِرة، وإن لم يكن فيها شيء من الطيب البتةَ. ولهذا سميت «طَيْبة» و«طابَةَ».

قال الشاعر: [من الكامل]

مـاذَا عَـلى مَـنْ شَـمَّ تُـربـةَ أحْـمَـدٍ   أن لا يَشَمُّ مَدىٰ الزمان غَوَالِيَا؟[٤]

وهذا البيت يُنسَب لفاطمةَ الزهراء رضي الله عنها.

ومن أسمائها «طَيْبة» و«طابةُ» و«يَثْرِب» و«المدينةُ» و«الدارُ».

قال القاضي عياض رحمه الله: وجَدِيرٌ بمواطن عَمَرت بالوحْي والتنزيل، وتردّدَ بها جبريلُ وميكائيل، وعَرَجت منها الملائكةُ والرُّوح، وضَجَّت عَرَصاتها[٥] بالتقديس والتسبيح؛ واشتملَتْ تربتُها على جَسَد سيد البَشَر، وانتَشَر عنها من دين الله وسنة رسوله ما انتَشَرْ؛ مَدَارسُ آيات، ومَسَاجدُ جماعاتٍ وصلوات، ومشاهدُ الفضل والخيرات، ومعاهدُ البراهين والمعْجِزات، ومناسكُ الدين، ومَشَاعر المسلمين؛ ومواقفُ سيد المرسلين، ومتبوَّأ خاتَم النبيين؛ حيث انفجرت النبوّة، وأيْن فاض عبابُها[٦]، ومواطن مَهْبَط الرسالة، وأوّلُ أرضٍ مسَّ جلدَ المصطفى ترابُها: أن تُعَظَّم عَرَصاتها، وتُتَنَسَّم نفحاتها، وتُقَبَّل ربُوعُها وجدراتها.

وقال: [من الكامل]

يـا دارَ خَـيْـرِ الـمـرسَـلِـينَ ومَـنْ بِـه   هُـدِيَ الأنـامُ وخُـصَّ بـالآيـاتِ

---

(١) الصّرف: هنا بمعنى العمل أو الإنفاق خيرًا. (٢) الضّوع: انتشار الطيب.
(٣) الفغمة: الرّائحة. (٤) الغوالي: الأطياب.
(٥) العرصة: ساحة الدّار.
(٦) العباب: الخير الكثير، والعُباب من الماء: كثرته.

عِنْدِي لأجْلِكِ لَوْعةٌ وصَبابَةٌ — وتَشَوُّقٌ متوقِّدُ الجَمَراتِ[١]
وعَلَيّ عهدٌ إن ملأتُ مَحَاجِرِي — من تِلْكُمُ الجُدُرات والعَرَصاتِ[٢]
لأُعَفِّرنَّ مَصُونَ شَيْبي بينَها — من كثْرَة التقْبيلِ والرَّشَفَاتِ[٣]
لولا العَوَادِي والأَعَادِي، زُرْتُها — أبدًا ولو سَحْبًا على الوَجَناتِ[٤]
لكن سَأُهْدي من حَفيل تَحِيَّتِي — لِقَطين تِلْكَ الدارِ والحُجُراتِ[٥]
أذكىٰ من المِسْك المفتَّق نَفْحةً — تَغْشاه بالآصال والبُكُراتِ[٦]
وتَخُصُّه بزَواكِي الصَّلواتِ — ونَوامِي التسليم والبَرَكات

وأما البيت المقدّس، والمسجد الأقصى

فالبيت المقدّس أحدُ القبلتين، والمسجد الأقصى ثالثُ الحرمين، إليه تُشَدّ الرِّحال[٧]، ويكثُر النزولُ والارتحال؛ وفي الأرض المقدّسة تُحشَر الخلائق ليوم العَرض[٨]، ويبْسُط الله تعالى الصخرةَ الشريفة حتّى تكونَ كعرض السماء والأرض؛ وتجتمع الناس هناك لفصل الحساب، ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحَديد: الآية ١٣].

ولنبدأ بذكر الأرض المقدّسة

قال الله عزَّ وجلّ إخبارًا عن موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المَائدة: الآية ٢١]. قال الزَّجاج[٩]: والمقدّسة المطهّرة.

وقيل للسَّطْل «القَدَسُ» لأنه يتطهّر منه. وسمي بيت المقْدس لأنه يتطهَّر فيه من الذنوب. وقيل: سماها مقدّسة لأنها طُهِّرت من الشرك وجعلت مسكنًا للأنبياء والمؤمنين.

---

(١) الصبابة: الشوق ورقّته.
(٢) المحاجر: العيون والنواظر، والجدرات: أي الجدران، والجديرة: الحظيرة من الحجارة.
(٣) عفر: مرغ في العفر، وهو التراب.
(٤) العوادي: من الدّهر نوائبه.
(٥) الحفيل: الكثير، والقطين: القاطن والساكن.
(٦) الآصال: مفردها الأصيل، وهو الوقت الذي تصفرّ فيه الشمس لغروبها.
(٧) تشدُّ الرّحال: أي تهيّأ الرواحل للسفر إليه وزيارته، والرّحل: ما يوضع على ظهر البعير للركوب.
(٨) العرض: يريد يوم المحشر أي يوم القيامة.
(٩) هو إبراهيم بن السّريّ بن سهل، أبو إسحٰق الزجاج، عالم بالنّحو واللغة ولد ومات في بغداد سنة ٩٢٣ م، له مؤلّفات عديدة. «فهرس الأعلام ١/ ٤٠».

وقد اختلف في الأرض المقدّسة ما هي؟

فذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنها أرِيحا.

وقال السُّدّي: أَرِيحا هي أرض بيت المقْدِس. وقال مجاهد: هي الطُّور وما حوله.

وقال الضحاك[(١)]: هي إيلياء وبيت المَقْدس. وقال الكلبي: دِمَشْق وفِلَسطين وبعض الأُرْدُنّ. وقال قتادة: هي الشام كلها.

وقال عبد الله بن عمر: والحرم محرَّمٌ مِقدارُه من السمٰوات والأرض، وبيت المقدس مقدّسٌ مقدارُه من السمٰوات والأرض.

وقال ابن قتيبة[(٢)]. وقرأت في مناجاة موسى عليه السلام أنه قال: اللهمَّ إنك اخترتَ من الأنعام الضائنةَ[(٣)]، ومن الطير الحمامةَ، ومن البُيوت مكةَ وإيلياءَ، ومن إيلياءَ بيتَ المقدس.

وقال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: الآية ١].

والمسجد الأقصى بيتُ المقْدِس: سمِّي أقصى لأنه أبعد المساجد التي تزار. وقيل: لبعد المسافة بين المسجدين. وقوله عزَّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: الآية ١] قيل: بالماء والأنهار والأشجار والثمار. وقال مجاهد: سماه مباركًا لأنه مقرّ الأنبياء، وفيه مَهْبَط الملائكة والوحي، وهو الصخرة، ومنه يُحشَر الناس يوم القيامة.

وقال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: الآيات ١ - ٣].

قال الثعلبيّ[(٤)] في تفسيره: قال كعب الأحبار وقتادةُ وابنُ زيد وعبدُ الرحمٰن بن غنم: «التِّين مسجدُ دمشقَ، والزيتونُ بيتُ المقدسِ». وقال الضحاك: «هما مسجدان

---

(١) هو الضّحاك بن مزاحم تقدّمت ترجمته، وهو من أعلام المحدثين.

(٢) ابن قتيبة: هو عبد الله بن قتيبة الدّينوري، أبو محمّد، أحد أئمّة اللغة والنحو والأدب ولد في بغداد وقيل: في الكوفة سنة ٢١٣ هـ وهو صاحب: عيون الأخبار، والشعر والشعراء، وغيرهما كثير، توفي في بغداد سنة ٨٨٩ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١٣٧».

(٣) الضائنة: الضعيفة اللّينة، والضأن من الغنم.

(٤) لعلّه عطيّة بن بسر المازني، صحابي، روى عنه مكحول وسليم بن عامر. «الكاشف ٢/ ٢٣٥».

بالشام». وقال محمد بن كعب: «التينُ مسجد أصحابِ الكهف، والزيتون مسجدُ إيلياءَ». ومجازه على هذا التأويل: مَنَابِت التينِ والزيتونِ.

وروى عطية[١] عن ابن عباس: «التينُ مسجدُ نوح عليه السلام الذي بنى على الجُودي، والزيتون بيت المَقْدس».

وروى نهشل[٢] عن الضحاك: «التين المسجد الحرامُ، والزيتونُ المسجدُ الأقصى» قال: «وطورِ سينينَ، يعني جبل موسى عليه السلام».

قال عكرمة: «السِّينِينُ الحسن بلغة الحبشة». وعنه: كل جبل يُنْبِتُ فهو سِينِينُ.

وقال مجاهد: «الطُّور الجبل، وسينين المبارك».

وقال قتادة: «المُبارك الحسَنُ».

وقال مقاتل[٣]: «كل جبل فيه شجر فهو سينين، وسينَاءُ وهو بلغة النَّبَط».

وقال الكلبيّ: «يعني الجبل المُشْجِر».

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أربعة أجبال مقدّسة بين يدَي الله تعالى: طُور تينَا، وطور زَنْتا، وطور سِينَا، وطور تيمانا.

فأما طور تينا: فدمشق.

وأما طور زَيْتا: فبيت المقدِس.

وأما طور سِينا: فهو الذي كان عليه موسى عليه السلام.

وأما طور تيمانا: فمكَّةُ.

والبلد الأمين مكة بلا خلاف».

ومسجد بيت المقدس أحدُ المساجد الثلاثة التي لا تشدّ الرحال إلا إليها، لقول رسول الله ﷺ، فيما ورد في الصحيح: «لا تُشَدّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجِدَ: المسجدُ الحرام، ومسجدي هذا، والمسجدُ الأقْصى».

---

(١) الثعلبي: هو أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحٰق، مفسّر، من أهل نيسابور، له مصنّفات عدة منها: تفسير الثعلبي. «فهرس الأعلام ١/ ٢١٢».

(٢) هو نهشل بن سعيد الخراساني، محدّث، فيه ضعف. «الكاشف ٣/ ١٨٥».

(٣) هو مقاتل بن حيان البلخي، أبو بسطام الخزاز، ثقة عالم توفي قبل العام ١٥٠ هـ. «الكاشف ٣/ ١٥١».

وفي الصحيح أيضًا «أن موسى عليه السلام، لما حضرته الوفاةُ سأل الله تعالى أن يدنيه من الأرض المقدّسة رمية بحَجَر».

ووكانت عمارة مسجد البيت المقدّس بأمر الله عزَّ وجلّ لنبيه داود عليه السلام أن يعْمُره ثم لم يقدّر له عمارتَهُ وقدّر الله تعالى ذلك على يدي سليمان بن داود عليهما السلام، فهو الذي عمره. وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى مبينًا في الفن الخامس في التاريخ.

وقد وردت آثارٌ وأحاديثُ في فضل بيت المقدس، وفضل زيارته، وثوابِ الصلاة فيه، ومضاعفةِ الحسنات والسيئات فيه، وفضلِ السكنى فيه، والإقامةِ به، والوفاة فيه، وما به من قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومحراب داود، وعين سُلْوانَ[1]، وما ورد في أن الحشر منه، وما ورد في فضل الصخرة والصلاة إلى جانبها، وما ورد من أن الله عزَّ وجلّ عَرَج بنبيه من بيت المقدس إلى السماء، وثواب الإهلال من بيت المقدس، وما ورد من أن الكعبة تزور الصخرةَ يوم القيامة.

وسنذكر من ذلك طرفًا نقف عليه إن شاء الله تعالى ونحذف أسانيد الأحاديث الواردة فيه رغبةً في الاختصار فنقول، وبالله التوفيق.

أما فضل بيت المقدس

فقد ورد عن الزهريّ أنه قال: لم يبعثِ الله عزَّ وجلّ نبيًّا، إلا جعل قبلته صخرةَ بيت المقدس. وقد صلّى إليه رسول الله ﷺ بعد هجرته سبعة عشر شهرًا، كما رُوِيَ في الصحيحين[2]، حتّى أنزل الله عزَّ وجلّ على رسوله ﷺ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٤].

وتحويلُ القبلة أوّلُ ما نُسِخ[3] من أمور الشرع. وذلك أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يصلّون بمكة إلى الكعبة. فلما هاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، أمره

---

(١) عين سلوان: هي عينٌ نضّاحة يتبرّك بها ويُستشفى منها بالبيت المقدس وقال ابن بنّاء البشّاري: سلوان محلّة في ربض بيت المقدس، تحتها عين عذبة تستقي جنانًا عظيمة، وقفها عثمان بن عفّان رضي الله عنه على ضعفاء بيت المقدس تحتها بئر أيوب عليه السّلام. «معجم البلدان ٣/ ٢٤١».

(٢) الصحيحان: «هما صحيحا البُخاري ومسلم» من كتب الحديث النبوي الشريف.

(٣) نُسِخ: أبطل العمل به وحوّل إلى غيره.

الله تعالى أن يصلّي نحو صخرة بيت المقدس ليكون أقربَ إلى تصديق اليهود إيَّاه إذا صلَّى إلى قبلتهم مع ما يجدون من تعيينه في التوراة.

هذا قول عامّة المفسرين، على ما حكاه الثعلبيّ عنهم.

وقال عبد الرحمٰن بن زيد: قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١١٥]، فقال رسول الله ﷺ: «هٰؤلاءِ يَهُودُ يستَقْبِلونَ بيتًا من بُيُوتِ اللهِ». فاستقبله النبيّ ﷺ. قالوا جميعًا: فصلى النبي ﷺ وأصحابه نحو بيت المقدس سبعةَ عشرَ شهرًا، وكانت الأنصار قد صلَّتْ قِبَل بيت المقدس ستين يومًا، قبل قدوم النبيّ ﷺ.

وكانت الكعبة أحبّ القبلتين إلى رسول الله ﷺ.

واختلفوا في السبب الذي كان عليه الصلاة والسلام من أجله يكره قبلة بيت المقدس ويهوىٰ قبلةَ الكعبة.

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لأنها كانت قبلةَ أبيه إبراهيم عليهما السلام.

وقال مجاهد: من أجل أن اليهود قالوا: يخالفنا محمد في ديننا، ويتّبع قبلتنا!

وقال مقاتل بن حَيَّان: لما أُمِر رسول الله ﷺ أن يصلي نحوَ بيت المقدس، قالت اليهود: يزعم محمد أنه نبي، وما نراه أحدَثَ في نبوّته شيئًا! أليس يصلي إلى قبلتنا ويستسنُّ[١] بسنتنا؟ فإن كانت هذه نبوّةً. فنحن أقدمُ وأوفرُ نصيبًا.

فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فشقَّ عليه وزاده شوقًا إلى الكعبة.

وقال ابن زيد: لما استقبل النبيّ ﷺ نحو بيت المقدس، بلغه أن اليهود تقول: والله ما درىٰ محمد وأصحابُه أين قبلتهم حتَّى هديناهم، قالوا جميعًا: فقال رسول الله ﷺ لجبريل: وَدِدتُ أن الله صَرَفني عن قبلة اليهود إلى غيرها، فإني أُبْغِضهم وأُبْغِض موافقتهم، فقال جبريل: إنما أنا عبدٌ مثلُك، ليس لي من الأمري شيءٌ؛ فسَلْ ربَّك، فعرَّج جبريل. وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء رجاء أن يَنْزِلَ جبريل بما يُحِبُّ من أمر القبلة. فأنزل الله عزَّ وجلّ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ [البقَرَة: الآية ١٤٤] الآية.

---

(١) يستسنّ: أي يتّبع سنّتهم في العبادة والأمور الدينيّة والشّرعية.

فلما صُرِفَتِ[١] القبلة إلى الكعبة قال مشركو مكة: قد تردّدَ[٢] على محمد أمره، واشتاق إلى مولده ومولد آبائه، وقد توجه نحو قبلتهم وهو راجع إلى دينكم عاجلًا، وتكلم اليهود والمنافقون[٣] في تحويلها. فأنزل الله تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٢].

ورُوِيَ عن كعب أنه قال: إن الله عزّ وجلّ ينظر إلى بيت المقدس كل يوم مرتين.

وأما فضل زيارته، وفضل الصلاة فيه

فقد رُوِيَ عن مكحول[٤] أنه قال: مَنْ زار بيت المقدس شوقًا إليه، دخل الجنة وزاره جميع الأنبياء في الجنة وَغَبَطُوه[٥] بمنزلته من الله تعالى؛ وأيُّما رُفْقةٍ خرجوا يريدون بيت المقدس، شيَّعهم عشرةُ آلاف من الملائكة: يستغفرون لهم ويصلُّون عليهم، ولهم مثل أعمالهم إذا انتهوا إلى بيت المقدس، ولهم بكل يوم يقيمون فيه صلاةُ سبعين مَلَكًا؛ ومَن دخل بيت المقدِس طاهرًا من الكبائر[٦]، تلقاه الله بمائة رحمة، ما منها رحمة إلا ولو قسمت على جميع الخلائق لوَسِعتهم؛ ومن صلّى في بيت المقدس ركعتين يقرأ فيهما بـ «فاتحة الكتاب»[٧] و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: الآية ١] خرج من ذنوبه كيومَ ولدَتْه أمّه، وكان له بكل شعرة على جسده حسنةٌ؛ ومَن صلى في بيت المقدس أربعَ ركعات، مرّ على الصراط[٨] كالبَرْق وأُعْطِيَ أمانًا من الفزع الأكبر يوم القيامة؛ ومَن صلى في بيت المقدس ستَّ ركعات، أُعْطِيَ مائةَ دعوة مستجابة، أدناها براءةٌ من النار، ووجبت له الجنةُ؛ ومَن صلّى في بيت المقدس ثماني ركعات، كان رفيق إبراهيم خليل الرحمٰن؛ ومَنْ صلّى في بيت المقدس عشرَ ركعات، كان رفيق داود وسليمان في الجنة؛ ومَن استغفر للمؤمنين

---

(١) صُرفت: حوّلت. (٢) تردّد أمره: أي لم يثبت على أمر.
(٣) المنافقون: هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.
(٤) . . .
(٥) غبطوه: تمنوا مثل ما له من النعمة والمنزلة من غير أن يحسدوه عليها.
(٦) الكبائر: الذنوب الكبيرة، كالشّرك بالله. (٧) فاتحة الكتاب: هي «سورة الحمد».
(٨) الصّراط: الطريق، ويكون يوم القيامة، يمرّ عليه الناس، فمن تخطاه يكون قد كتب له الفوز من العذاب.

والمؤمناتِ في بيت المقدس ثلاثَ مرات، كان له مثلُ حسناتهم، ودخل على كل مؤمن ومؤمنة من دعائه سبعون مغفرةً، وغُفِر له ذنوبُه كلُّها.

ورُوِيَ عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صلَّى ببيتِ المقدِس خمسَ صلوات نافلةً[1]، كلُّ صلاة أربعُ ركعات يقرأ في الخمس صلوات عشرةَ آلافِ مرةٍ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١]، فقد اشترى نفسَه من الله عزَّ وجلَّ؛ ليس للنار عليه سلطانٌ».

وعنه أيضًا، قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةُ الرجلِ في بيتِه بصلاةٍ واحدةٍ، وصلاتُه في مسجدِ القبائل[2] بستٍّ وعشرين، وصلاتُه في المسجد الذي يُجمع[3] فيه بخمسمائةِ صلاةٍ، وصلاتُه في المسجد الأقصى بخمسينَ ألفَ صلاةٍ، وصلاتُه في المسجد الحرام بمائة ألِف صلاةٍ».

وعن مكحول أنّ ميمونة[4] رضي الله عنها سألتْ رسولَ الله ﷺ عن بيت المقدس قال: «نِعمَ المَسْكنُ بيتُ المقدِس! ومَنْ صلى فيه صلاةً بألف صلاة فيما سواه. قالت: فمن لم يُطِق ذلك؟ قال: يُهدِي له زَيْتًا»[5].

وعن مكحول عن النبيّ ﷺ، قال: لا يسمَع أهلُ السماء من كلام بني آدمَ شيئًا غير أذانِ مؤذِّنِ بيت المقدِس.

وأما ما ورد
في بيت المقدس من مضاعفة الحسنات والسيئات فيه

فقد رُوِيَ عن نافع[6]، قال: قال ابن عمر رضي الله عنهما، ونحن في بيت

(١) النافلة: التي يتطوّع فيها الإنسان تقرّبًا من الله، وهي غيرُ الواجبة من الصلوات.
(٢) مسجد القبائل: اسم لمسجد، والقبائل: جمع قبيلة.
(٣) يجمع فيه: أي تكون فيه الصلاة جماعة.
(٤) هي ميمونة بنت الحارث الهلالية، أمّ المؤمنين، توفّيت بسرف وهي بلدة بين مكة والمدينة سنة ٥١ هـ. «الكاشف ٣/ ٤٣٥».
(٥) رُوِيَ الحديث بنصّ آخر: قالت ميمونة مولاة رسول الله ﷺ: قلت لرسول الله ﷺ: أفتنا عن بيت المقدس، قال: نعم المصلّى، هو أرض المحشر وأرض المنشر، إيتوه فصلّوا فيه، فإنّ الصلاة فيه كألف صلاة، قلت: بأبي وأمّي أنت، من لم يطق أن يأتيه، قال: فليُهد إليه زيتًا يُسرج فيه، فإنّه من أهدى إليه، كان كمن صلّى فيه. «ابن الفقيه الهمذاني: مختصر كتاب البلدان المطبوع في ليدن سنة ١٣٠٢ هـ ١٨٨٥ م».
(٦) هو نافع بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي محدّث ثقة. «الكاشف ٣/ ١٧٣».

المقدس: يا نافعُ، اخرُج بنا من هذا البيت، فإن السيئات تُضاعف فيه كما تُضاعف الحسناتُ.

وقال جرير بن عثمان وصفوان بن عمرو[١]: الحسنة في بيت المقدس بألف، والسيئة بألف.

وأما فضل السكنى فيه والإقامةِ والوفاةِ به

فقد رُوِيَ عن ذي الأصابع أنه قال لرسول الله ﷺ: أرأيتَ يا رسولَ الله إن ابتُلِينا بالبقاء بعدكَ، فأين تأمرنا؟ قال: «عليكَ ببيت المقْدِس، لعلَّ الله يرزقُك ذرّية تغدُو إليه وتَرُوح».

وعن أبي أُمامة الباهليّ[٢]، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزالُ طائفةٌ من أُمتي ظاهرين على الحقّ، لعدوّهم قاهِرين، لا يضرُّهم مَنْ خالفهم، حتَّى يأتيهم أمر الله عزَّ وجلّ وهم كذلك. قالوا: يا رسول الله، وأينَ هُمْ؟ قال: ببيت المقدِس وأكناف بيت المقدس».

وعن عطاء، قال: لا تقوم الساعةُ حتَّى يسوق الله عزَّ وجلّ خيارَ عباده إلى بيت المقدس وإلى الأرض المقدّسةِ، فيُسكِنَهم إيَّاها.

وعن كعب، قال: قال الله عزَّ وجلّ لبيت المقدس: أنتَ جنتي وقُدْسي وصفوتِي من بلادي، مَنْ سكنكَ فبرحمة مني، ومَنْ خرج منك فبسخط منّي عليه.

وعن وهب بن منبه، قال: أهل بيت المقدس جِيرانُ الله، وحقٌّ على الله عزَّ وجلّ أن لا يعذِّب جيرانَه؛ ومن دُفِن في بيت المقدس نجا من فتنة القبر[٣] وضِيقه.

وعن كعب، قال: اليومُ في بيت المقدس كألِف يوم، والشهر فيه كألفِ شهر، والسنةُ فيه كألف سنة؛ ومَنْ مات فيه فكأنما مات في السمَاء، ومَنْ مات حوله فكأنما مات فيه.

---

(١) لعلّه صفوان بن عمرو السكسكي، نسبة إلى بطن من كندة يسمّى السكاسك محدّث ثقة مات سنة ١٥٥ هـ. «الكاشف ٢/ ٢٧».

(٢) لعلّه عبد الرحمٰن بن ربيعة بن يزيد الباهلي، من الصحابة، كان يلقّب ذا النور ولاه عمر بن الخطاب قضاء الجيش الذي وجهه إلى القادسية، استشهد سنة ٦٥٢ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٣٠٦».

(٣) فتنة القبر: محنته وعذابه.

وعن خالد بن مَعْدان[١] قال: سمعت كعبًا يقول: مقبورُ بيتِ المقدس لا يعذَّب.

وأما ما به من قبور الأنبياء ومحراب داود وعين سُلْوان

ففي الأرض المقدّسة قبرُ إبراهيم الخليل، وإسحٰقَ، ويعقوبَ، ويوسفَ عليهم السلام.

وفي الصحيح أن موسى عليه السلام لما حضرَتْه الوفاةُ سأل الله عزَّ وجلّ أن يُدْنِيه من الأرض المقدّسة، رمية حَجرٍ.

وروى الحافظ أبو بكر الخطيب بسنده عن بشْر بن بكر[٢] عن أمّ عبد الله عن ابنها أنه قال: من أتى بيت المقدس، فليأت محراب داود، فليصلِّ فيه، ويَسْبَح في عين سلوان فإنها من الجنة.

وبسنده إلى سعيد بن عبد العزيز[٣]، قال: كان في زمانِ بني إسرائيل في بيت المقدس عند عَيْن سُلْوان عينٌ. وكانت المرأة إذا قُذِفت[٤]، أتَوْا بها فشربت منها فإن كانت بريئة لم تضرَّها، وإن كانت نَطِفةً[٥] ماتت. فلما حملَتْ مريمُ حملوها، فشربتْ منها فلم تزدَدْ إلا خيرًا. فدعت الله أن لا يفضَح بها امرأةً مؤمنة. فغارت العينُ.

وأما ما ورد
في أن الحشر من البيت المقدس

فقد رُوِيَ عن أبي ذرّ[٦] رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله «أخبِرْنا عن بيتِ المقدس. قال: أرضُ المحشَر والمنْشَر. إيتوه فصلُّوا فيه وليأتِينَّ على بيت

---

(١) هو خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي، أبو عبد الله، تابعي، ثقة، وهو ممّن اشتهروا بالعبادة، أصله من اليمن مات بقية سنة ٧٢٢ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٩٩».

(٢) هو بشر بن بكر التنيسي، محدّث ثقة، توفي بمدينة دمياط سنة ٢٥٠ هـ. «الكاشف ١/ ١٠١».

(٣) هو سعيد بن عبد العزيز التنوخي، مفتي دمشق وعالمها، محدّث ثقة ثبت، مات سنة ١٦٧ هـ. «الكاشف ١/ ٢٩١».

(٤) قذفت: رُميت بالزّنى.

(٥) نطفة: أي فاسدة، أو هي التي حملت سفاحًا.

(٦) هو أبو ذرّ الغفاري، قيل: اسمه جندب بن جنادة وقيل: بريد بن جنادة، قال النبي ﷺ: ما أقلّت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذرّ، مات بالرّبذة. «الكاشف ٣/ ٢٩٣».

المقدس زمانٌ، ولبَسْطةُ قوسٍ أو مَسْحةُ قوس في بيت المقدس أو من حيثُ يُرى بيت المقدس أفضلُ وخير من كذا وكذا».

وعن كعب قال: العَرْض والحساب من بيت المقدس.

وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [قَ: الآية ٤١] قال: من صخرة بيت المقدس.

وعن يزيد بن جابر ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ قال: يقف إسرافيل[(١)] على صخرة بيت المقدس فينفُخ في الصُور فيقول: أيَّتها العظامُ النَّخِرة[(٢)]، والجلود المتمزِّقة، والأشعار المتقطِّعة؛ إن الله تعالى أمركِ أن تجتمعي للحساب.

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [قَ: الآية ٤١] هو أن إسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس فينادي: «يا أيها الناس، هَلُمُّوا إلى الحساب، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء، وهذه هي النفخة الأخيرة».

والمكان القريب صخرة بيت المقدس.

قال كعب ومقاتل: هي أقرب إلى السماء بثمانيةَ عشرَ ميلًا. وقال ابن السائب: باثنَيْ عشرَ ميلًا.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحَديد: الآية ١٣] قال: هو حائط بيت المقدس الشرقيُّ الذي من ورائه وادٍ يقال له وادي جهنم، ومن دونه بابٌ يقال له باب الرحمة.

وأما ما ورد
في فضل الصخرة، والصلاة إلى جانبها

فقد رُوِيَ عن أنس بن مالك، قال: إن الجنة لتَحِنّ شوقًا إلى بيت المقدس، وإن بيت المقدس من جنة الفردوس، وهي[(٣)] سُرَّة الأرض.

(١) إسرافيل: ملك من الملائكة وهو الذي ينفُخ في الصور يوم القيامة.
(٢) النَّخرة: البالية.
(٣) سُرّة الأرض: أي صخرتها.

وعن أبي إدريس الخَوْلانيّ(١): قال: يحوّل الله صخرةَ بيت المقدس مَرْجانةً بيضاء كعرض السماء والأرض، ثم يَنْصِبُ عليها عرشَه، ثم يقضِي بين عباده: يصيرون منها إلى الجنة وإلى النار.

وعن أبي العالية(٢) في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: الآية ٧١] قال: من بركتها أن كلّ ماءٍ عَذْبٍ يخرج من أصل صخرة بيت المقدس.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ، قال: «الأنهارُ كلُّها والسَّحابُ والبِحارُ والرياحُ من تحتِ صخرةِ بيتِ المقْدِس».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: صخرةُ بيت المقدس من صخور الجنة.

قال الزجاج: يقال إنها في وَسَط الأرض.

وعن كعب قال: مَنْ أتى بيتَ المقدس فصلَّى عن يمين الصخرة وشِمالها، ودعا عند موضع السِّلْسِلة(٣)، وتصدّق بما قلّ أو كثُر، استُجِيب دعاؤه، وكشف الله حُزْنه، وخرج من ذنوبه كيوم ولدتْه أمّه؛ وإن سأل الله الزيادة أعطاه إياها.

وأما ورد في أن الله عزّ وجلّ عرج من بيت المقدس إلى السماء

فقد روى الشيخ الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد الواسطي الخطيب رحمه الله بسنده إلى سوادة بن عطاء الحضرميّ، قال: نجِد في الكتاب مكتوبًا أن الله عزَّ وجلّ لَمَّا أن خلق الأرضَ وشاء أن يعرُج إلى السماء وهي دُخَانٌ، استشرف(٤) لذلك الجبالُ أيُّها يكون ذلك عليه؟ وخشَعَتْ صخرةُ بيت المقدس تواضُعًا لله عزَّ وجلّ، فشكر اللهُ لها ذلك وجعل المعراج(٥) عنها. وكان عليها ما شاء الله أن يكون. قال: فمدّ الجبار يديه حتَّى كانتا حيث يشاء أن تكونا، ثم قال: «هذه جنتي غربًا، وهذه ناري شرقًا، وهذا موضع ميزاني طَرَف الجبل، وأنا الله دَيَّانُ يوم الدِّين» وكان معراجه إلى السماء عن الصخرة.

---

(١) هو عايذ الله، أبو إدريس الخولاني، أحد المحدّثين الأعلام، كان عالم أهل الشام بعد أبي الدرداء، ولد يوم حنين، ومات سنة ثمانين هـ. «الكاشف ٢/ ٥٢».

(٢) هو أبو العالية البراء البصري زياد، وقيل: كلثوم محدّث ثقة. «الكاشف ٣/ ٣١١».

(٣) السلسلة: اسم موضع، وسلسلة الحديد التي تتصل حلقاتها بعضها ببعض.

(٤) استشرف: نظر ليختار.

(٥) المعراج: أي عروج الرسول ﷺ إلى السّماء.

وروى أيضًا بسنده إلى هانىء بن عبد الرحمٰن، ورُدَيح بن عطية عن إبراهيم بن أبي عبلة أحسبه كذا قال: وسئل عبادةُ بن الصامت[١] ورافع بن خَدِيج[٢] وكانا عقَبِيَّين[٣] بدريَّين[٤]، فقيل لهما: أرأيتما ما يقول الناسُ في هذه الصخرة أحقًّا هو فنأخذ به، أم هو شيء أصله من أهل الكتاب فندَعُه؟ فقال كلاهما: سبحانَ الله! ومَنْ يشكُّ في أمرها، إن الله عزَّ وجلّ لما استوى إلى السماء، قال لصخرة بيت المقدِس: «هذا مَقامي وموضعُ عرشِي يوم القيامة، ومَحْشَرُ عبادي، وهذا موضع ناري عن يسارِها وفيه أنصِبُ ميزاني أمامَها، وأنا الله دَيَّانُ يوم الدِّين» ثم أستوي إلى عِلِّيِّين.

وروى أيضًا بسنده عن كعب، قال: إن في التوراة أنه يقول لصخرة بيت المقدس «أنت عرشي الأدنى ومنكِ ارتفعتُ إلى السماء، ومن تحتك بسطتُ الأرضَ وكلُّ ما يسيل من ذِرْوة الجبال من تحتِك؛ مَن مات فيك فكأنما مات في السماء، ومن مات حولك فكأنما مات فيك، لا تنقضِي الأيامُ والليالي حتَّى أرسل عليك نارًا من السماء فتأكلَ آثارَ أكُفِّ بني آدم وأقدامِهم منك، وأُرْسِلَ عليك ماءً من تحت العرش فأغسلَك حتَّى أتركك كالمِرآة، وأضربَ عليك سُورًا من غمام غِلَظُهُ اثنا عشر ميلًا، وسِياجًا من نار؛ وأجعل عليكِ قبةً جَبَلْتها بيدي، وأُنْزل فيك رُوحِي وملائكتي يُسبِّحون لي فيك؛ لا يدخلكِ أحد من ولد آدم إلى يوم القيامة؛ فمَنْ يَرَ ضوءَ تلك القبَّة من بعيد، يقول: طوبى[٥] لوجه يَخِرّ فيك لله ساجدًا، وأضرب عليك حائطًا من نار، وسياجًا من الغَمامَ، وخمسةَ حيطان من ياقوت ودرّ وزبَرْجَد؛ أنت البَيْدَر[٦]، وإليك المحشَر، ومنك المَنْشَر».

وروى أبو الفرج عبد الرحمٰن بن عليّ بن محمد بن الجوزيّ رحمه الله في ذلك حديثين، ثم تكلم عليهما وضعَّف رُواتهما.

---

(١) هو عبادة بن الصامت، أبو الوليد الخزرجي من بني عمرو بن عوف، بدريٌّ نقيب، وهو أحد من جمع القرآن، مات بالرملة سنة ٣٤ هـ. «الكاشف ٢/ ٥٧».

(٢) هو رافع بن خديج الحارثي، أُحدي، عاش ستًا وثمانين سنة توفي سنة ٧٤ هـ. «الكاشف ١/ ٢٣٢».

(٣) عقبيّين: نسبة إلى مبايعة النبيّ ﷺ في العقبة التي بين منى ومكّة.

(٤) بدريّين: نسبة إلى أنّه شهد معركة «بدر» مع رسول الله ﷺ.

(٥) طوبى: الحسنى والخير، وهي شجرة في الجنّة، وطوبى فعل من الطّيب كأن أصله طُيبى، فقلبوا الياء واوًا للضمّة قبلها. «انظر اللسان مادة طيب».

(٦) البيدر: حيث تجمع الغلال، وهو مكانٌ متّسع.

أما أحدهما، فقال: أخبرنا المبارك بن أحمد، قال: أخبرنا أبو الحسين محمد بن محمد، قال: أنبأنا أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن عمر النَّصيبي، قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن صالح بن عمر المقري، قال: حدّثنا عيسى بن عبيد الله، قال: حدّثنا علي بن جعفر الرازي، قال: حدّثنا العباس بن أحمد بن عبد الله، قال: حدّثنا عبد الله بن عمر المقدسي، قال: حدّثنا بكر بن زياد الباهليّ، عن عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن زرارة بن أوْفى[١]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أُسْرِي بي إلى بيت المقدس مَرّ بي جبريلُ عليه السلام إلى قبر إبراهيم، فقال: انزل، فصلِّ هٰهنا ركعتين، هٰهنا قبر أبيك إبراهيم. ثم مَرّ بي ببيتِ لحم، فقال: انزل، صلِّ هٰهنا ركعتين، فإن هٰهنا وُلِد أخوك عيسى. ثم أتى بي إلى الصخرة فقال: من هٰهنا عَرَج ربك إلى السماء».

قال الحافظ أبو حاتم بن حَبّان[٢]: هذا حديث لا يشك عوامُّ أصحاب الحديث أنه موضوع. وكان بكر بن زياد يضع الحديث على الثقات.

وأما الحديث الثاني، فرواه بسند إلى إبراهيم بن أعين عن ردَيح بن عطية بن النعمان، عن عبد الله بن بسر الحمصيّ، عن كعب الأحبار، قال: يقول الله عزَّ وجلّ لبيت المقدس: أنت عرشي الذي منك ارتفعت إلى السماء، ومنك بسطْتُ الأرضَ، ومن تحتك جعلت كل ماءٍ عذبٍ يطلعُ في رؤوس الجبال.

قال أبو حاتم الرازيّ[٣]: إبراهيم بن أعين مُنْكَرُ الحديث.

هذا ما ورد في هذا الفصل وقد نبهنا على ما فيه من المآخذ والله أعلم.

وأما ثواب الإهلال من بيت المقدس

فقد رُوِيَ عن أم سلمة زوج النبيّ ﷺ ورضي عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَهَلَّ[٤] مِن بيتِ المقدسِ، غُفِر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر».

---

(١) هو زرارة بن أوفى، أبو حاجب الحرشيّ، قاضي البصرة، عُدّ من الثقات، مات سنة ٩٣ هـ. «الكاشف ١/ ٢٥٠».

(٢) هو محمد بن حبان بن معاذ التميمي، أبو حاتم البستي، مؤرّخ علّامة محدّث، قال ياقوت أخرج من علوم الحديث ما عجز عنه غيره، من كتبه «المسند الصحيح». «فهرس الأعلام ٦/ ٧٨».

(٣) هو محمد بن إدريس بن المنذر، أبو حاتم الرّازي، حافظ للحديث، من كتبه «تفسير القرآن» وطبقات التابعين، توفي ببغداد سنة ٨٩٠ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٧».

(٤) أهلّ: رفع صوته بذكر الله، أو رفع صوته بالتّلبية.

قال سالم: وأهلَّ ابن عمر رضي الله عنهما من بيت المقدس بعُمْرة[١].

ورُوِيَ عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أحرمَ منْ بَيْتِ المَقْدِس، قَدِم مكةَ مغفورًا له».

وأما ما ورد
من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة

فقد رُوِيَ عن كعب الأحبار قال: لا تقوم الساعة حتَّى يزور البيتُ الحرامُ بيتَ المقدس، فينقادان جميعًا إلى الجنة وفيهما أهلوهما.

ورُوِيَ عن خالد بن مَعْدان[٢] قال: يحشر الله الكعبةَ إلى الصخرة زَفًّا[٣] إليها زَفًّا، متعلقين بجميع من حج إليهما، تقول الصخرة مرحبًا: بالزائرة والمزور إليها.

هذا ما اتفق إيراده في فضائل البيت المقدّس، وسنذكر إن شاء الله تعالى من أخباره طرفًا آخر وهو في الباب الثاني، من القسم الثالث، من الفن الخامس في التاريخ عند ذكرنا لأخبار سليمان بن داود عليهما اسلام. فلنذكر خلاف ذلك.

وأما اليمن وما يختص به

فقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الإيمانُ يمانٍ، والحكة يمانيةٌ».

وقال الجاحظ: من خصائص اليمن السيوفُ، والبرودُ[٤]، والقُرود.

ويقال: إن السيف متى قُلِع بالهند وطبع باليمن، فناهِيكَ[٥] به!

---

(١) العُمرة: أفعال مخصوصة تسمّى بالحجّ الأصغر، وأفعالها أربعة: الإحرام والطّواف، والسّعي بين الصفا والمروة، والحلق، وتكون في غير ميقات الحجّ الأكبر.

(٢) هو خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي، تابعي ثقة، وهو ممّن اشتهروا بالعبادة مات سنة ٧٢٢ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٩٩».

(٣) زفًا: أي كما يطير الطائر بجناحيه ويبسطهما، وزفَّ البرق: لمع، وزفّت الريح هبّت.

(٤) البرود: مفردها البرد، وهو كساء مخطّط يلتحف به.

(٥) ناهيك: كلمة يتعجّب بها، يريد «هو سيفٌ يكفيك عن غيره».

وقال الأصمعيّ[١]: أربعة ملأتِ الدنيا ولا تكون إلا باليمن، وهي الوَرْس[٢]، والكُنْدُر[٣]، والخَضَض[٤]، والعَقِيق[٥].

وأما الشام وما يختص به

فمن ذلك أن الشام موطِن الأنبياء عليهم السلام، ومعدِن الزُّهَّاد والعُبَّاد.

وحُكي أن الأبدالَ[٦] السبعين بأرض الشام، بجبل لُكَام[٧] وجبل لُبْنان.

ومن خصائص الشام:

مسجد دمشقَ

الذي ما عُمِر على وجه الأرض مثلُه وكانت عمارته في سنة ست وثمانين، عمَّره الوليد بن عبد الملك. ووقع الحريق فيه في سنة إحدى وستين وأربعمائة، فَدَثرت محاسنُه وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة.

وعن قتادة، قال: أقسم الله تعالى بمساجدَ أربعة، قال: ﴿وَالتِّينِ﴾ [التِّين: الآية ١] وهو مسجد دمشق، ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: الآية ١] وهو بيت المقدس، ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ [التين: الآية ٢] وهو حيث كلم الله موسى، ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ [التِّين: الآية ٣] وهو مكة.

وقال محمد بن شعيب[٨]: سمعتُ غير واحد من قدمائنا يذكرون أن التينَ مسجدُ دمشق، وأنهم قد أدركوا فيه شجرًا من تينٍ قبل أن يَبْنِيَهُ الوليد.

---

(١) هو عبد الملك بن قريب الباهلي، أبو سعيد الأصعمي، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللّغة والشعر والبلدان، له مصنّفات عديدة، وكان الرّشيد يسمّيه «شيطان الشعر» توفي سنة ٨٣١ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١٦٢».

(٢) الورس: نبت من الفصيلة القرنية، يوجد عليه زغب قليل يستعمل لتلوين الملابس الحريرية.

(٣) الكندر: اللّبان، وهو نبات من الفصيلة الجوريّة، يفرز صمغًا.

(٤) الخضض: الخرز البيض الصّغار، تلبسه الإماء.

(٥) العقيق: حجر كريم أحمر، يعمل منه الفصوص، ويكون باليمن وسواحل المتوسط.

(٦) الأبدال: جمع بدل: وهو الشريف الكريم، وهنا: الزّهاد النسّاك.

(٧) لكام: هو الجبل المشرف على انطاكية وطرسوس وتلك الثغور. «معجم البلدان ٥/ ٢٢».

(٨) هو محمد بن شعيب بن شابور الدمشقي، مولى الوليد بن عبد الملك قال البعض: إنّه محدّث ثقة، مات سنة ٢٠٠ وقيل: سنة ١٩٩ هـ. «الكاشف ٣/ ٤٧».

وعن هشام بن عبد الملك قال: لما أَمَر الوليد ببناء مسجد دمشق، وجدوا في الحائط القبليّ من المسجد لَوْحًا فيه نقش فأتوا به الوليد، فبعث إلى الروم والعبرانيين وغيرهم، فلم يستخرجوه. فدُلَّ على وهب بن منبِّه فبعث إليه، فلما قدم أخبره بموضع ذلك اللوح فإذا الحائط الذي وجد فيه بناء هودٍ عليه السلام.

وعن زيد بن واقد[١] قال: وكَّلني الوليد على العمال في بناء جامع دمشق، فوجدنا فيه مَغَارةً فعرّفْنا الوليد ذلك. فلما كان الليل وافى، وبين يديه الشَّمَع، فنزل فإذا هي كنيسة لطيفة: ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع، وإذا فيها صُندوق، ففُتِح فإذا فيه سَفَطٌ[٢]، وفي السَّفَط رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام، مكتوب عليه: «هذا رأس يحيى بن زكريا». فأمر الوليد، فرُدّ إلى مكانه، وقال: اجعلوا العمود الذي فوقه مغيّرًا من الأعمدة، فجعلوا عليه عمودًا مُسَفَّط الرأس. وكانت البشرة والشعر على رأسه لم يتغيّر.

وقال أبو زُرعة[٣]: مسجد دمشق خَطَّه أبو عبيدة بنُ الجرّاح، وكذلك مسجد حِمْص. وقيل: لما قدم المهديّ[٤] يريد بيت المقدس، دخل مسجد دمشق ومعه أبو عبد الله الأشعريّ كاتبه، فقال: يا أبا عبد الله سبَقَنا بنو أمية بثلاثٍ، قال: وما هنّ يا أمير المؤمنين؟ قال: بهذا البيت (يعني المسجد) لا أعلم على وجه الأرض مثلَه، وبنُبْل الموالي فإن لهم مواليَ ليس لنا مثلهم، وبعُمَر بن عبد العزيز، لا يكون والله فينا مثله أبدًا! ثم أتى بيت المقدس فدخل الصخرة، فقال: يا أبا عبد الله وهذه رابعة.

وحكى عمرو بن مهاجر الأنصاريّ[٥] قال: حَسَبوا ما أُنْفق على الكرمة التي في قبلة مسجد دمشق، فإذا هو سبعون ألف دينار.

وقال أبو قصيّ: أُنْفق في عمارة مسجد دمشق أربعمائة صُندوق، كل صُندوق أربعةَ عشَر ألفَ دينار.

---

(١) هو زيد بن واقد القرشي الدمشقي، محدّث ثقة توي سنة ١٣٨ هـ. «الكاشف ١/ ٢٦٨».

(٢) السَّفط: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النّساء، أو هو وعاء من قضبان الشجر ونحوها توضع فيه الأشياء كالفاكهة ونحوها، وهنا يحتمل المعنى الأول «صندوق الطيب».

(٣) هو أبو زرعة بن عمرو بن جرير البجلي، عدّه البعض من المحدّثين الثقات. «الكاشف ٣/ ٢٩٧»

(٤) المهديّ: هو الخليفة العباسيّ ابن أبي جعفر المنصور، والد هارون الرّشيد، ولد في بإيذج من كور الأهواز، ومات في ماسبذان صريعًا عن دابته في الصيد سنة ٧٨٥ م. «الأعلام ٦/ ٢٢١».

(٥) هو عمرو بن مهاجر الأنصاري الدمشقي، محدّث ثقة، مات سنة ١٣٩ هـ. «الكاشف ٢/ ٢٩٦».

وقال بعض شعراء المُحْدَثين في وصفه: [من المنسرح]

دمَشْقُ قد شاع ذِكْرُ جامعها ... وما حَوَتْه رُبى مَرابِعِها[1]
بديعةُ المُدْنِ في الكمال لِمَا ... يُدرِكُه الطَّرْفُ من بَدائِعها
طَيِّبةٌ أرضُها مباركَةٌ ... باليُمْن والسَّعد أخْذُ طالِعها[2]
جامعُها جامعُ المحاسِن قَدْ ... فاقتْ به المُدْنَ في جَوامِعها
تُذكَر في فَضْلِه ورِفْعتِه ... أخبارُ صِدقٍ راقت لسامِعها
قد كان قبلَ الحَريق مَدْهشةً ... فغَيّرته نارُ بلاقعِها[3]
فأذهبَتْ بالحريقِ بهجَتَه ... فليس يُرْجى إيابُ راجعها
إذا تفَكَّرْتَ في الفُصوص وما ... فيها، تَيقَّنْتَ حذْقَ واضعها[4]
أشجارُها لا تزالُ مثمرةً ... لا تَرْهَبُ الريحَ في مَدَافِعها[5]
كأنَّها من زُمُرُّدٍ غُرِسَتْ ... في أرض تِبْرٍ يُغشى بفاقِعِها[6]
فيها ثِمارٌ تَخالُها يَنَعَتْ ... وليس يُخْشى فسادُ يانِعِها
تُقْطَف باللحظ لا بجارحة الأيـ ... ـدي ولا تُجْتَنى لبائِعِها
وتحتَهَا من رُخَامه قِطَعٌ ... لا قَطَع الله كَفَّ قاطِعِها
أحكَمَ ترخيمَها المرخِّم قد ... بانَ عليها إحكامُ صانِعِها[7]
وإنْ تفَكَّرْتَ في قناطِره ... وسَقْفه، بانَ حذْق رافعها
وإن تبيَّنْتَ حُسْنَ قُبَّتِه ... تَحَيَّر اللُّبُّ في أضالِعِها[8]
تخترقُ الريحُ في مَخارِمها ... عَصْفًا فتقْوى على زَعازعها[9]
وأرْضُه بالرُّخَام قد فُرِشَتْ ... يَنْفسِحُ الطَّرْف في مَوَاضِعِها[10]

---

(١) المرابع: جمع مربع وهو المكان الذي يقام فيه في فصل الربيع.
(٢) الطالع: ما ينتظر وينبأ به من نحسٍ أو سعد «يقال: هو حسن الطالع» أي جميله.
(٣) البلاقع: مفردها بلقع، وهو القفر الخالي من كلّ شيء.
(٤) الفصوص: مفردها فصّ، ما يركب في الخاتم من الحجارة الكريمة وغيرها.
(٥) المدافع: من دفع، أي هي لا ترهب الرّيح في دفعها لها لأنه قويّة وغضّة.
(٦) التبر: الذهب، ويغشى: يُطلى، والفاقع: اللون الخالص الصفرة.
(٧) الترخيم: الصّقل، والإحكام: الإتقان.
(٨) اللّبّ: العقل، وأضالعها: خطوطها المائلة كالضلوع.
(٩) المخارم: الفتحات والطّرق، والزعازع: الرّياح الشديدة، واحدها زعزع.
(١٠) ينفسح: يسرح في انبساط وسعة، والطّرف: النظر.

مـجـالِسُ الـعِـلْم فـيـه مُـوثَـقَـةٌ ... يَـنْشرِحُ الـصـدْرُ فـي مـجـامِعِـهـا
وكـلُّ بـابٍ عـلـيـه مِـطْـهـرةٌ ... قـد أمِـنَ الـنـاسُ دَفْـعَ مـانِـعِـهـا
يـرتـفِـقُ الـخـلْقُ مـن مَـرافِـقِـهـا ... ولا يُـصَـدُّونَ عـن مَـنـافِـعِـهـا[١]
ولا تـزالُ الـمِـيـاهُ جـاريـةً ... فيـهـا لـمـا شُـقَّ من مَشَارِعـهـا[٢]
وسـوقُـهـا لا تـزالُ آهِـلةً ... يـزدَحِـمُ الـنـاسُ فـي شَـوارِعـهـا
لِمَـا يَـشـاؤُون مـن فـواكِـهِـهـا ... ومـا يُـريـدون مـن بَـضـائـعـهـا
كـأنَّـهـا جَـنَّـة مـعـجَّـلةٌ ... في الأرض، لولا سُرى فجائِعها
دامـتْ بـرَغْـم الْعِـدا مُـسَـلَّمـةً ... وحـاطَـهـا الله مـن قَـوارِعـهـا[٣]

وقال عبد الله بن سلام: بالشام من قبور الأنبياء ألفَا قبر وسبعُمائة قبر؛ وقبرُ موسى بدمشق؛ ودمشق معقِل الناس في آخر الزمان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: مَنْ أراد أن ينظر إلى الموضع الذي قال الله عزَّ وجلّ فيه: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: الآية ٥٠] فليأت النَّيْرب[٤] الأعلى بدمشق بين النهرين، وليَصْعد الغارَ في جبل قاسِيُونَ، فلْيُصَلِّ فيه فإنه بيتُ عيسى وأمِّه. ومن أراد أن ينظر إلى إرَمَ، فليأت نهرًا في دمشق يقال له برَدَى. ومن أراد أن ينظر إلى المقبرة التي فيها مريمُ بنتُ عمران والحواريُّونَ[٥]. فليأت مقبُرة الفراديس[٦].

ومن خصائصها التُّفَّاح الذي يضرَبُ به المثل في الحسن والطِّيب. وكان يحمل منه إلى الخلفاء في كل سنة ثلاثون ألف تفاحة.

وبها الغُوطةُ، وهي أحد متنزَّهات الدنيا الأربعة. وهي أجَلُّها.

وسنذكر وصفها في باب الرياض إن شاء الله تعالى.

---

(١) يرتفق الخلق: ينتفعون ويستعينون ويستفيدون، والمرفق: هو ما يستعان به ويرتفق.
(٢) المشارع: موارد الماء. (٣) القوارع: المصائب، مفردها «قارعة».
(٤) النّيرب: قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين، أنزه موضع رأيته يقال: إنّ فيه مصلّى الخضر عليه السّلام. «معجم البلدان ٥/ ٣٣٠».
(٥) الحواريون: أنصار عيسى عليه السّلام، وقد ذكرهم القرآن الكريم في سورة المائدة، الآية: ١١٢.
(٦) الفراديس: مفردها فردوس، وهو البستان الجامع لكلّ البساتين، والمراد هنا موضع قرب دمشق وباب الفراديس: باب من أبواب دمشق. «معجم البلدان ٤/ ٢٤٢».

وأما مصرُ وما يختصُّ بها من الفضائل

فمن فضلها أن الله عز ذكرها في كتابه العزيز في أربعة وعشرين موضعًا.

منها ما هو بصريح اللفظ، ومنها ما دلَّت عليه القرائن والتفاسير.

فأما صريح اللفظ، فقوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ [البقرة: الآية ٦١].

وقوله تعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ﴾ [الزّخرُف: الآية ٥١].

وقوله عزَّ وجلّ مخبرًا عن يوسف عليه السلام: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: الآية ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ [يُونس: الآية ٨٧].

وأما ما دلت عليه القرائن، فمنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ [يُونس: الآية ٩٣].

وقوله عزَّ وجلّ: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾ [المؤمنون: الآية ٥٠]. قال ابن عباس، وسعيد بن المسيب، ووهب بن منبه وغيرهم: هي مصر.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٥٧، ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٧]. يعني مصر.

وقوله تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدّخان: الآيات ٢٥ - ٢٨]. يعني قوم فرعون، وأن بني إسرائيل ورثوا أرض مصرَ.

وقوله عزَّ وجلّ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القَصَص: الآيتان ٥، ٦].

وقوله تعالى مخبرًا عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: الآية ٢١].

وقوله عزَّ وجلّ مخبرًا عن فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: الآية ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٧].

وقوله تعالى مخبرًا عن قوم فرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٧]. يعني أرض مصر.

وقوله عزَّ وجلّ مخبرًا عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: الآية ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٦].

وقوله عزَّ وجلّ مخبرًا عن بني إسرائيل: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [يونس: الآية ٨٨].

وقوله تعالى مخبرًا عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٩].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: الآية ٢٦]. يعني أرض مصر.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القَصص: الآية ٢٠].

وقوله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القَصص: الآية ٤].

وقوله تعالى مخبرًا عن ابن يعقوب: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٠]. يعني أرض مصر.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القَصص: الآية ١٩].

وذكر ابن عباس مصر، فقال: سميت مصر بالأرض كلها في عشرة مواضع من القرآن. والله تعالى أعلم.

وأما ما ورد فيها من الحديث النبوي صلوات الله وسلامه على قائله.

فقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مِصْرُ، فاسْتَوْصُوا بِقِبْطِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُم ذِمَّةً وَرَحِمًا».

وعنه ﷺ أنه قال: «إذا فَتح اللهُ عليكم مصرَ فاتَّخِذُوا بها جُنْدًا كَثِيفًا، فذَلك الجندُ خَيْر أجنادِ الأرضِ» فقال أبو بكر رضي الله عنه: ولِمَ يَا رَسُولَ الله؟ فقال: «لأنهم وأزواجَهُم في رِبَاطٍ[١] إلى يوم القيامة».

وعنه ﷺ، وذكر مصر: «ما كادَهُمْ أحدٌ إلا كَفَاهُم الله مَؤُونَتُه».

وتكررت الأحاديث في فضلها.

وقال عبد الله بن عمرو: وأهلُ مصرَ أكرمُ الأعاجم كلِّها، وأسمحُهم يدًا، وأفضَلُهم عُنْصرًا، وأقربُهم رَحِمًا بالعرب عامةً وبقريش خاصَّةً.

وقال أيضًا: لما خلق الله عزَّ وجلّ آدم، مثَّل له الدنيا: شرقَها، وغَرْبها، وسَهْلَها، وجبلها، وأنهارها، وبِحارها، وبناءها، وخرابها، ومَن يسكنها من الأمم، ومَن يملكها من الملوك. فلما رأى مصر، رآها أرضًا سهلةً ذات نهر جار، مادّتُه من الجنة، تنحدِر فيه البركة، ورأى جبلًا من جبالها مكسوًّا نورًا لا يخلو من نظر الربّ عزَّ وجلّ إليه بالرحمة. في سفحه أشجار مثمرة، فروعها[٢] في الجنة تسقى بماء الرحمة. فدعا آدمُ في النيل بالبركة، ودعا في أرض مصرَ بالرحمة والبر والتقوى، وبارك على نيلها وجَبَلها سبع مرات. وقال: «يا أيها الجبل المرحوم، سفحُك جنة وتربتك مسْكةٌ تدفن فيها عرائس الجنة، أرض خاضعة مطيعة رحيمة. لا خَلَتْكِ يا مصر بركةٌ، ولا زال بك حفظ، ولا زال منك مُلْك وعِزٌّ، يا أرضَ مصر فيكِ الخِباء والكُنوز، ولك البِر والثَّروة، سال نهرُكِ عَسَلًا. كثَّر الله زرعَكِ، ودَرّ ضرعُكِ، وزكَا[٣] نباتُكِ، وعظُمت بركتُكِ وخَصُبت، ولا زال فيك يا مصر خيرٌ ما لم تتجبَّري وتتكبَّري أو تخونِي، فإذا فعلت ذلك، عراكِ شرّ، ثم تَغَوَّر[٤] خيرك».

---

(١) رباط: أي استعداد للدفاع عن دين الله وأرض المسلمين، ومنه «رباط الخيل».
(٢) فروع الشجرة: أغصانها. (٣) زكا: نما وزاد.
(٤) تغوّر خيرك: زال وذهب، وغار الماء: غاض في الأرض.

فكان آدم أوّلَ من دعا لها بالخِصْب والرحمة والرأفة والبركة.

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: دعا نوح عليه السلام لابن ابنه بيصر بن حام وهو أبو مصر، فقال: اللهم إنه قد أجاب دَعْوتِي، فبارِكْ فيه وفي ذرّيته وأسكِنْه الأرضَ الطيبةَ المباركَةَ التي هي أمُّ البلاد.

قال عبد الله بن عمرو: لما قَسَّم نوح عليه السلام الأرضَ بين ولده، جعل لحامٍ مصر وسواحلَها والمغربَ وشاطئَ النيل. فلما دخل بيصر بن حام وبلغ العرِيشَ، قال: «اللهم إن كانت هذه الأرضُ التي وعدتّنا على لسان نبيك نوح عليه السلام وجعلتها لنا منزلًا فاصرف عنا وباها، وطَيِّب لنا ثَرَاها، واجمع ماها، وأنبت كلاها، وبارك لنا فيها، وتمم لنا وعدك، إنك على كل شيء قدير، وإنك لا تخلف الميعاد» وجعلها بيصر لابنه مصر وسماها به. والقبط ولد مصر بن بيصر بن حام بن نوح.

وسنذكر إن شاء الله تعالى أخبار مصر وبنيه عند ذكرنا لملوك مصر، وهو في الفن الخامس في التاريخ.

وعن كعب الأحبار: لولا رَغْبتي في بيت المقدِس لما سكنْتُ إلا مصر. فقيل له: ولِمَ؟ فقال: لأنها معافاةٌ من الفِتَن ومن أرادها بسوء كَبَّه الله على وجهه، وهو بلد مبارَكٌ لأهله فيه.

وقال أبو بَصْرة الغفاري: سلطان مصر سلطان الأرض كلِّها.

قال: وفي التوراة مكتوب: مصرُ خزائنُ الأرض كلِّها، فمن أرادها بسوء قصمه[1] الله تعالى.

وقال عمرو بن العاص: ولايةُ مصر جامعةٌ، تعدِل الخلافةَ.

وقال أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز، قاضي العراق: سألت أحمد بن المدبِّر عن مصر فقال: كشفتها فوجدتُ غامرها[2] أضعاف عامرِها. ولو عَمَرَها السلطان، لوفَتْ له بخراج الدنيا.

---

(١) قصمه الله: أهلكه.

(٢) الغامر: من الأرض ما لا يصلح للزراعة.

ذكر مَن وُلد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومَن كان بها منهم

ولد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جماعةٌ، منهم: موسى، وهرونُ، ويُوشَعُ بن نون، ودانِيالُ، وأرْمِيَا، ولُقمانُ، وعيسى بن مريم. ولدته أمّه بأهناس[1]، وبها النخلة التي ذكرها الله تعالى لمريم على أحد الأقوال.

ولما سار عيسى إلى الشأم أخذ على سَفْح المقطم ماشيًا، عليه جبةُ صوف مربوط الوسط بشَرِيط، وأمّه تمشي خَلْفَه، فالتفت إليها وقال: يا أمّاه، هذه مقبرة أمّة محمد ﷺ.

وأما مَن كان بها منهم، فكان: إبراهيم الخليلُ، وإسماعيلُ، ويعقوبُ، ويوسفُ عليهم السلام، واثنا عشر سِبْطًا[2].

ذكر مَن كان بها من الصدّيقين والصدّيقات رضي الله عنهم

كان بها من الصدّيقين مؤمِن آل فرعون الذي ذكره الله عزَّ وجلّ في القرآن.

وقيل: إنه ابن لفرعون لصُلْبه. آمن بموسى ولَحِق به وجعله الله نبيًّا وآيةً.

وكان بها وزراءُ فرعونَ الذين وصفهم الله تعالى وفضَّلهم على قوم نمرود حين قالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: الآية ١١١]، وقال وزراء النمرود: ﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢٤].

وأخرجتْ مصر السحرةَ الذين أحضرهم فرعونُ لموسى. وكانت عدّتهم مائتي ألف واثنين وثلاثين ألفًا وقيل أكثر من ذلك، آمنوا كلُّهم في ساعة واحدة. ولم نعلم ممن آمن في ساعة واحدة مثلَ هذا العدد.

ومن فضائل مصر ونُبْل أهلها أنهم لم يُفْتَنوا بعبادة العجل.

---

(١) هناس: اسم لموضعين بمصر، أحدهما في الصعيد، ويقال لقصبتها: أهناس المدينة وهي المراد هنا، والثانية أهناس الصّغرى، وأهناس المدينة قديمة أزلية وقد خرّب أكثرها، وهي على غربي النّيل ليست ببعيدة عن الفسطاط. «انظر معجم البلدان ١/ ٢٨٤».

(٢) السّبط: ولد الإبن والابن، والسبط: من اليهود كالقبيلة من العرب، وهو المراد هنا.

وكان بها من الصدِّيقات آسيةُ بنتُ مُزاحم امرأة فرعون، وأم إسحٰقَ، ومريمُ ابنةُ عمران، وماشطةُ بنتُ فرعون، التي مشطها فرعون بأمشاط الكتَّان لمّا آمنت بموسى.

وقال رسول الله ﷺ: «شَمِمتُ ليلة أُسْرِي بي في الجنة رائحةً ما شَمِمْت أطيبَ منها، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ فقال: هذا رائحة ماشطة بنتِ فِرْعون».

ذكر مَن صاهر أهل مصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

منهم: إبراهيم الخليل عليه السلام، تزوج بهاجَر أمّ إسماعيل.

ويوسف الصدّيق، تزوّج بنت صاحب عين شمس، وتزوّج زليخا بعد أن عجزت وعميت. دعا الله لها فردّها الله إلى حالتها الأولى، ورُزق منها الولد.

وتسرَّى سيدنا رسول الله ﷺ بمارِيَةَ القِبْطية التي أهداها له المقوقِس[١]، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في السّيرة النبوية.

ذكر مَن أظهرته مصر من الحكماء الذين عَمَروا الدنيا بكلامهم وحِكَمهم وتدبيرهم وأظهروا ما خَفِيَ من العلوم[٢]

قال الحسن بن إبراهيم، صاحب تاريخ مصر:

منهم: ذو القَرْنيْنِ، وهو الإسكندر[٣] من قرية يقال لها لُوبِيَةُ[٤]. وهو الذي قتل دَارَا بْنَ دَارَا[٥]. وسيأتي خبره إن شاء الله تعالى في التاريخ في ذكر ملوك اليونان.

---

(١) المقوقس: هو صاحب مصر، وكان الرسول عليه الصلاة والسّلام قد أرسل إليه حاطب بن أبي بلتعة، يدعوه إلى الإسلام. «انظر صبح الأعشى ١/ ١٢٥».

(٢) بعض المذكورين في هذا الفصل، ليسوا من أهل مصر، بل وفدوا عليها وأقاموا بها مدّة بين القليلة والكثيرة.

(٣) هو الإسكندر الأكبر، ابن فيلبّوس، وهو ليس من مصر، وإنّما غزاها بجيوشه، وأسّس فيها مدينة الإسكندرية، التي صارت بعده حاضرة العلم والحكمة. «انظر صبح الأعشى ٣/ ٣٥٦».

(٤) هذا اللفظ محرّف عن «بيلا» وهي إحدى مدائن إغريقية، وفيها كانت ولادة الإسكندر الأكبر.

(٥) هو دارا بن دارا ملك الفرس، ويقال له: داريوس الثالث، هزمه الإسكندر في «أسوس» سنة ٣٣٣ ق.م. «انظر الموسوعة العربيّة الميسّرة ص ٧٧٣».

ومنهم: هرمس، وهو المثلث بالنعمة: نبيّ، وحكيم، ومَلِك: وهو الذي صير الرَّصاصَ ذهبًا، وبنى الهرمين الكبيرين على أحد الأقوال. وقيل: هو إدريس عليه السلام.

ومنهم تلميذاه: أغاثاذيمون وفيثاغورس، ولهما من العلوم الموروثة صناعةُ الكيمياء، والنُّجوم، والسِّحر، وعلم النارنجيات[(١)]، والطلسمات[(٢)]، والبرابي[(٣)]، وأسرار الطبيعة.

ومنهم أوسلا وسيزوارس وبندقليس، أصحاب الكَهَانة والزَّجْر.

ومنهم سقراط، صاحب الحِكمة، والكلام على البارىء جل ذكره، وهو صاحب البلاغة.

ومنهم أفلاطون، صاحب السِّياسة، والنواميس، والكلامِ على المُدُن والملوك.

ومنهم بطليموس، صاحب الرَّصَد، والمِساحة، والحِساب؛ وهو صاحب كتاب المجَسْطِي[(٤)] من كتب الأفلاك، وحركة الشمس، والقمر، والكواكب المتحيرة والثابتة، وصورة فَلَك البروج. وله صفة الأمم الذين يَعْمُرون الأرض، وكتاب الثمرة في علم النجوم وتسطيح الكُرَة.

ومنهم أرسطاطاليس، صاحب المنطِق، والآثار العلوية، والحس والمحسوس، والكون والفساد، والسماء والعالم، وسمع الكيان والسمع الطبيعي، ورسالة نَبْت الذهب، قالوا: وليعقوب بن إسحٰق الكِنديّ[(٥)] نحو ألف كتاب مستخرجة من كتب أرسطاطاليس.

---

(١) النارنجيّات: لعلّها من النّيرج: وهو أُخَذٌ تشبه السّحر، وليست بحقيقته، ولا كالسّحر إنّما هو تشبيه وتلبيس. «اللسان مادة نرج»

(٢) الطلسمات: مفردها طلسم، خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفليّة، وهو لفظ يوناني لكلّ ما هو غامض ومبهم.

(٣) البرابي: معابد الأقباط في مصر «تقدّم ذكرها».

(٤) كتاب المجسطي، كتاب قديم في الهندسة والفلك، وضعه بطليموس الفلكي المصري نحو سنة ١٤٠ م، وترجم إلى العربيّة في عهد المأمون، وعدّ حجّة في بابه. «صبح الأعشى ٣/ ٤٧٧».

(٥) هو يعقوب بن إسحٰق الكندي، أبو يوسف، فيلسوف العرب والإسلام في عصره، وأحد أبناء الملوك من كندة، ترك تراثًا ضخمًا من المؤلّفات بلغ نحو ٣٠٠ مؤلف. توفي نحو سنة ٨٧٣ م. «فهرس الأعلام ٨/ ١٩٥».

ومنهم أراطُس، صاحب البيضة ذات الثمانية والأربعين صورة في تشكيل صورة الفلك، والألف كوكب، واثنان وعشرون كوكبًا من الكواكب الثابتة، والزيج[(١)].

ومنهم أنطوليوس[(٢)]، صاحب الفِلاحة.

ومنهم إبّرخس، صاحب الرصد والآلة المعروفة بذات الحلق.

ومنهم ثاون، صاحب الزيج المنسوب إليه.

ومنهم أُسْطَنِسْ، ودُرُوثْيُوس، ووالنس، أصحاب كتب أحكام النجوم، وعنهم انتشر ذلك.

ومنهم إيرُن، صاحب الهندسة والمقادير، وكتاب جر الأثقال، والحيل الروحانية، وعمل البَنَاكِيم[(٣)] والآلات لقياس الساعات.

ومنهم فيلون البُزَنْطِي، وله عمل الدواليب والأرحية والحركات بالحيل اللطيفة.

ومنهم أرشميدس، صاحب الحيل والهندسة والمَرَايا المحرقة وعمل المَجَانيق[(٤)] ورمي الحصون، والحيل على الجيوش والعساكر برًّا وبحرًا.

ومنهم ماريه وقلبطره، أصحاب الطِّلَّسْمات، والخواص للطبائع.

ومنهم أبلونيوس، وله كتاب المخروطات وقطع الخطوط.

ومنهم ثيودوسيُس، وهو صاحب كتاب الأكر[(٥)].

ومنهم ذيوفنطس، وله كتاب الحساب.

ومنهم أوطوقيُس، وله كتاب الكرة والأسطوانة.

ومنهم المشاؤون[(٦)]، أصحاب الرواق[(٧)].

---

(١) الزّيج: كل كتاب يتضمّن جداول فلكية يعرف منها سير النجوم ويستخرج بواسطتها التقويم سنة فسنة.

(٢) ورد هذا الاسم في الأصل «اظطيونس» وليس هناك رجل بهذا الاسم وإنّما المشهور بكتابه في الفلاحة هو «أنطونيوس الإغريقي» وقد ذكره ابن العوام في كتاب «الفلاحة الأندلسية» ونقل عنه.

(٣) البناكيم: مفردها البنكام، وهي ساعة الرّمل.

(٤) المجانيق: مفردها منجنيق، آلة قديمة من آلات الحصار، كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها.

(٥) الأكر: الفلاحة.

(٦) المشاءون: أصحاب المذهب الذي عرفهم العرب وأسموهم بهذا الاسم وهم أتباع أرسطو.

(٧) الرواق: بيت كالخيمة يحمل على عمود طويل.

وبمصر من العلوم التي عَمَرت بها الدنيا علمُ الطب اليوناني، وعلمُ النجوم، وعلمُ المساحة، وعلم الهندسة، وعلمُ الكيمياء، وغير ذلك وبها الطلسمات العشرة.

وبادي[(١)] الإسكندراني صاحب الزيج.

والذين نشروا الطب وشرحوه جالينوس، صاحب الطب، تعلمه بمصر، ومن كتبها أَخَذ.

ومنهم ديسقريد: صاحب الحشائش، وديوچانس، وأركاغانس، وأُرِبَاسيوس، وفريقونوس، وروفس، وهؤلاء أصحاب الطب اليوناني.

فهؤلاء حكماء الأرض وعلماؤهم الذين ورثوا الحكمة، من مصر خرجوا، وبها وُلدوا؛ ومنها انتشرت علومُهم في الأرض.

قال الحسن بن إبراهيم: وكانت مصر يسير إليها في الزمن الأوّل طلبةُ العلم وأصحابُ العلم الدقيق لتكون أذهانهم على الزيادة وقوّة الذكاء ودقة الفطنة. والله تعالى أعلم.

ومن فضائل مصر

أنها تَمير الحرمين الشريفين، ولولا مصرُ لما أمكن أهلَ الحرمين وأعمالهم المقامُ بهما، ولَمَا توصل إليهما من يَرِد من أقطار الأرض.

ومنها أنها فُرْضة[(٢)] الدنيا، يحمل من خيرها إلى سواحلها، وذلك أن من ساحلها بالقلزم ينقل إلى الحرمين، وإلى جُدّة، وإلى عُمَان، وإلى الهند، وإلى الصين، وصنعاء، وعَدَن، والشَّحْر، والسِّند، وجزائر البحر.

ومن جهة تِنِّيسَ، ودِمْياط، والفَرَما فُرْصة بلد الروم، وأقاصي الأفرنجه، وقبرس، وسائر سواحل الشام، والثغور إلى حدود العراق.

ومن جهة الإسكندرية فُرضة أَقْرِيطِش، وصِقِلِّيَّة، وبلد الروم، والمغرب كلّه إلى طَنْجة، ومغرب الشمس.

---

(١) لعلّ هذا الاسم معرّف عن «تاون» الذي سبق ذكره.

(٢) الفُرضة: يقال: فرضة النّهر: مشرب الماء منه، وفرضة البحر: محطّ السّفن وفرضة الدنيا: أي محطّ رحال الناس. «اللسان مادة فرض».

ومن جهة الصعيد فرضة بلد النُّوبة، والبُجة، والحَبَشة، والحِجاز، واليمن.

وفيها من ثغور الرِّباط: البَرَلُّس، ورَشِيد، والإسكندريةُ، ورباط ذات الحمام، ورباط البُحَيرة، ورباط إخْنا، ورباط دمْياط، وشَطَا، وتِنِّيس، والأُشْتوم، والفرَمَا، والورّاده، والعَرِيش، والشَّجَرتين، ورباط الحَرَس، وجهة الحَبَشة، والبُجة. ورباط أُسْوان على النُّوبة. ورباط الواحات على البَرْبر والسُّودان. ورباط قُوص.

وبها من المساجد والمشاهد والآثار الصالحة، ما لم يكن في غيرها. ولو استقصينا ذلك، لطال به الشرح وانبسط القول.

وقال سعيد بن عقبة: كنتُ بحضرة المأمون حتَّى قال، وهو في قبة الهواء: لعن الله فِرعونَ حين يقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرُف: الآية ٥١] فلو رأى العراقَ!. فقلت: يا أمير المؤمنين لا تقل هذا فإن الله عزَّ وجلّ قال: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٣٧]! فما ظنُّك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله، هذا بقِيَّتُه؟.

قال: ثم قلت: لقد بلغني أن أرضًا لم تكن أعظم من مصر، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها. وكانت الأنهار بقناطِرَ وجسورٍ وتقديرٍ حتَّى إن الماء يجري تحت منازلهم وأفْنِيتهم: يحبِسونه متى شاؤوا، ويرسلونه متى شاؤوا، وكانت البساتين بحافَتَي النيل من أوّله إلى آخره، ما بين أُسوان إلى رشيد إلى الشام متصلةً لا تنقطع. ولقد كانت الأَمَة تضع المِكْتَل(١) على رأسها فيمتلىءُ مما يسقُط من الشجَر. وكانت المرأة تخرج حاسرةً(٢) لا تحتاجُ إلى حِمَار لكثرة الشجر.

ومن فضائلها النيل، وقد تقدّم ذكره في باب الأنهار.

ومن عجائبها الهرمان وسيأتي ذكرهما في باب المباني القديمة إن شاء الله تعالى.

ومن عجائبها أن أهلها مستغنون عن كل بلد، حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور، استغنى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا.

---

(١) المكتل: زنبيل يعمل من الخوص، تجمع به الفواكه والخضار.
(٢) الحاسرة: الكاشفة عن رأسها ووجهها.

وفيها ما ليس في غيرها، وهو حيوان السَّقَنْقُورُ(١)، والنِّمس(٢). ولولاه لأكلت الثعابين أهلَها؛ وهو لها كقنافذ(٣) سِجِسْتانَ لأهلها.

وفيها سمك يسمَّى الرَّعَّاد. وهو سمك إذا أمْسَكه إنسان أو أمسَك ما يتصل به من خيط الصِّنارة أو الشبكة التي يقع فيها، ارتعدَتْ يدُه.

والحَطَبُ السَّنْط الذي لو وُقِد منه يومًا وجُمِع ما وُجد من رَمَاده كان ملءَ كفٍّ. وهو صُلْب العُود، سريعُ الوُقُود، بطِيءُ الخُمود. ويقال: إنه الآبنوسُ(٤)، وإنما البُقْعة قَصَّرت عن الكِيَان فجاء أحمرَ شديدَ الحمرة.

ودُهْنُ البَلَسان(٥). والأَفْيُون، وهو عُصارة الخَشْخاش. وكان بها اللَّبَخ، وهو ثمر في قَدْر اللوزن الأخضرِ إلا أن المأكول منه الظاهرُ. ورأيته أنا بها وأكلْت منه سنة ثلاث وتسعين وستمائة.

وبها الأُتْرُجُ(٦) الأبلق.

وبها من المعادن: مَعْدِن الزُّمُرُّذ، ومعدِن النِّفْط، والشَّبِّ(٧)، والبِرَام، والرُّخَام(٨).

وقيل: إن بها سائر المعادن كلِّها.

وأهلها يأكلون صَيْد بحر الرُّوم وبحر فارس(٩) طرِيًّا.

وفي كل شهر من شهور القبط صِنْف من المأكول والمَشْروب والمَشموم، يوجد فيه دون غيره. فيقال: رُطَب توت، ورُمَّان بابه، ومَوْز هاتُور، وسَمَك كيهك، وماء

---

(١) الإسقنقور: نوع من الزّحافات في البلاد الحارة، قصير الذّنب.
(٢) النمس: جنس حيوان من الثدييات اللواحم والفصيلة الزبادية، فيه أنواع كالمصري والهندي.
(٣) القنفذ: دابة صغيرة أعلاها مغطى بريش حاد، تقي نفسها به، إذ تجتمع مستديرة تحته، تخرج من مخبئها في الليل.
(٤) الآبنوس: شجر في أفريقيا الاستوائية، خشبه أسود صلب ثقيل.
(٥) البلسان: شجر له زهر أبيض صغير كهيئة العناقيد، يستخرج من بعض أنواعه دهن عطر، ينبت بعين شمس بظاهر القاهرة.
(٦) شجر وثمر من جنس الليمون تسمّيه العامة «الكبّاد».
(٧) الشّبّ: ملح متبلّر.
(٨) الرّخام: حجر كلسي صلب جدًّا مختلف الألوان، أشهره الأبيض.
(٩) يشير إلى البحر الأحمر المتّصل بالخليج الفارسي بواسطة بحر الهند.

طُوبة، وخَرُوف أمشير، ولَبَن برمهات. ووَرْد برموده، ونَبِق[١] بشنس، وتين بؤونة، وعسل أبيب، وعنب مسرى.

ومنها أن صيفها خَرِيفٌ، وشتاءها ربيعٌ؛ وما يقطَعُه الحرّ والبرد في سائر البلاد من الفواكه يوجد فيها في الحرّ والبرد: لأنها في الإقليم الثالث والرابع، فسلمت من حرّ الأوّل والثاني، وبَرْد السادس والسابع.

ويقال: لو لم يكن من فضل مصر إلا أنها تغنى في الصيف عن الخيش والثلج وبطون الأرض، وفي الشتاء عن الوَقودُ والفراء.

ومما وصفت به

أن صعيدها[٢] حجَازيّ. حَجَره كحجر الحجاز ينبت النخلَ والدَّوم[٣] (وهو شجر المُقْل)، والعُشَر، والقَرَظ[٤]، والإهْلِيلَج[٥]، والفُلْفل، والخِيَارَ شَنْبَرَ، وأسفل أرضها شامِيٌّ: يمطر كمطر الشام، وتقع فيه الثلوج، ويُنْبت التينَ والزيتونَ والعنبَ والجوزَ واللَّوز والفستُق وسائر الفواكه، والبقول والرياحين.

وهي ما بين أربع صفات: فضة بَيْضاء، أو مِسْكة سوداء، أو زبَرْجَدة خضراء، أو ذَهَبة صفراء. وذلك أن النيل يعمُّ أرضها فتصير كالفضة البيضاء، ثم ينضَبُ عنها فتصير مسكة سَوْداء، ثم تُزْرَع فتصير زبرجدةً خضراء، ثم تَسْتَحْصِد فتصير ذهبة صفراء[٦].

وحكى ابن زولاق[٧] في «فضائل مصر» أن أميرها موسى بن عيسى [الهاشمي][٨] وقف بالمَيْدان عند بِرْكة الحبش، فالتفت يمينًا وشِمالًا، وقال لمن كان معه: أتَرَوْن ما أَرى؟ قالوا: وما يَرى الأمير؟ قال: أَرى عجبًا ما في الدنيا مثله!

---

(١) النبق: دقيق حلو يخرج من لبّ جذع النخلة، يُقوّى بالدّبس، ويجعل نبيذًا.
(٢) الصعيد: المرتفع من الأرض، وهي هنا محلّة في جنوب مصر.
(٣) الدّوم: شجر ثمر في حجم التّفاح، ذو قشر صلب أحمر ونواة ضخمة ذات لبّ.
(٤) القرظ: شجر عظام لها سوق غلاظ، أمثال شجر الجوز، يستخرج منه صمغ مشهور.
(٥) الإهليلج: شجر ينبت في الهند والصين وكابل، ثمره على هيئة حبّ الصّنوبر الكبار.
(٦) قارن ذلك بما ورد عند المقريزي في خططه ١/٢٦ ط. بولاق.
(٧) النّبق: ثمر السّدر.
(٨) هو والي مصر في أيّام الرشيد العباسي سنة ١٧٥ هـ والزّيادة التي بين قوسين هي عن المقريزي ٢/١٥٣ ط. بولاق.

فقالوا: يقول الأميرُ! فقال: أرى مَيْدان رِهان[١]، وحِيطان نخلٍ، وبُستانَ شجر، ومنازلَ سكنى، وذروة جبل، وجَبَّانَةَ أموات، ونهرًا عَجَّاجًا، وأرضَ زرع، ومراعِيَ ماشية، ومَرَاتع خيل، وساحل بحر. وصائد نهر وقانصَ وحش، وصائِدَ سمكٍ، ومَلَّاح سفينة، وحادِيَ إبل، ومفازَةَ رمل، وسَهْلًا، وجَبَلًا! فهذه ثمانية عشر متنزَّهًا في أقل من ميل في ميل.

وأين هذه الأوصاف من وصف الواصف لقصر أنَس بالبصرة حيث يقول: [من البسيط]

زُرْوادِيَ القَصْرِ نِعْمَ القَصْرُ والوادِي! ... لا بُـدّ مـن زَوْرةٍ مـن غيـر مِيـعاد
زُرْهُ فـليـس لـهُ شـيءٌ يـشـاكـله ... من مَنْزِلٍ حاضرٍ إن شئتَ أو بادِي[٢]
تَرى بـه السُّفْـن والـظِّلْمانَ حاضرةً ... والضبَّ والنونَ والمَلَّاح والحادِي[٣]

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسيّ، يصف جبل الرَّصَد مثل ما وُصِف به قصر أنَس: [من البسيط]

يا نُزْهةَ الرَّصَدِ المصريّ قد جمعت ... من كلّ شيءٍ حَلَا في جانب الوادي
فذا غَدِيرٌ، وذا رَوْضٌ، وذا جَبَلٌ ... فالضَّبُّ والنُّون والمَلَّاح والحادي

فهذه نبذة من فضائل مصر. ولولا الرغبة في الاختصار، لكانت فضائلها تكون كتابًا مفردًا.

وأما جزيرة الأَنْدَلُس

فقد اقتصرتُ في وصفها على رسالة وصفها ابن حزم فيها[٤]، فقال:

«... أرضها شاميَّة في طِيبها، تِهاميَّة في اعتدالها واستوائها، أهْوازية في عِظَم خَراجها وجِبايتها، عَدَنِيَّة في منافع سواحلها، صِينيَّة في مَعادنها، هِنْدية في عطْرها

(١) ميدان رهان: أي ميدان سباق للخيل.
(٢) يشاكله: يشابهه، والحاضر والبادي: من الحاضرة والبادية، أو يريد أن يقول من قصر موجود أو من قصر كان موجودًا ولكنّه تهدّم إلّا أن ذكره مشتهر.
(٣) الظّلمان: مفردها الظليم، وهو ذكر النعام، والنّون: الحوت، أو الأسماك.
(٤) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام توفي في بادية الأندلس سنة ١٠٦٤ م، وقد ترك تراثًا ضخمًا من المؤلّفات والمصنّفات والرسائل. «فهرس الأعلام ٤/ ٢٥٤».

وطِيبها وذَكائها. وأهْلها عرَب في الأنساب والعِزَّة والأنَفَة، وفصاحة الألْسُن، وطِيب النُّفوس، وإباءِ الضيم، وقلَّة احتمال الذل والإهانة، والنَّزاهة عن الخُضُوع، هِنْديُّون في فرط عنايتهم بالعلوم وحُبِّهم لها؛ بغدادِيُّون في ظَرْفهم ونظافَتِهم، ورِقَّة أخلاقهم ونَبَاهتهم، ولطافة أذهانهم، وحدّة أفكارهم، نَبَطِيُّون في استنباط المياه، ومُعَاناتهم للغِراسة، وتركيب الشجر والفِلاحة صِينيُّون في إتقان الصنائع العلمية، وإحكام المهَن الصورية؛ تُركِيُّون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها، والنظر في مهمَّاتها».

قال إبراهيم بن خفاجة، يصفها: [من الرّمل]

إنَّ لِلجـنَّـةِ بـالأنْـدَلُس   مـجتَلى عـيـن وريًّا نَـفَسِ![1]
فـسَنـا صُبْحـتـهـا مـن شَنَبٍ   ودُجـى لـيـلتـهـا مـن لَعَس[2]

وقد أظهرت الأندلُس جماعةً من الفضلاء والأعيان والأكابر، ذكرهم ابن بسَّام[3] في كتابه المترجم «بالذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة». وذكرهم الفتح بن خاقان[4] في كتابه «المطمح» و «قلائد العقيان» وغيرهما.

وسنذكر إن شاء الله تعالى حال الأندلس وابتداء عمارتها وملوكَها عند ذكرنا فتحها، وهو في الباب الخامس من القسم الأوّل من الفن الخامس في التاريخ من أخبار الدولة الأموية في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مَرْوان في سنة ٩٢ من الهجرة.

وأما البَصْرة وما اختصت به

فمن خصائصها أن للغِرْبان بها ضربا من العَجَب. وذلك أنها تقَع إليها بالخريف حتَّى تكون الأرض بها سوداء، وتقع على كل نخلة أُصْرِم[5] ثمرها، ولا تقع على ما لم تُصرَم، ولو بقي عليها عِذْق[6] واحد.

---

(١) الريّا: الرّيح الطيّبة.

(٢) السّنا: الضّياء، والشّنب: صفاء الأسنان وبياضها، واللّعس: سواد أو سمرة مستحسنة في باطن الشّفة.

(٣) هو علي بن بسّام الشنتريني الأندلسي، أبو الحسن، أديب، من الكتّاب الوزراء توفي سنة ١١٤٧ م. «فهرس الأعلام ٤/٢٦٦».

(٤) هو الفتح بن خاقان بن أحمد غرطوج، أبو محمد، أديب، شاعر، فصيح، كان في نهاية الفطنة والذّكاء، فارسي الأصل، اتخذه المتوكّل العباسي أخًا ووزيرًا له. «فهرس الأعلام ٥/١٣٣».

(٥) أصرم ثمرها: أي اجتُز وقطع، وأصرم النخل: حان وقت اجتزازه.

(٦) العذق: عنقود النخل.

ومن عجائبها أيضًا، أن التمر يكون مصبوبًا في بيادره، فلا يقع عليه شيءٌ من الذُّباب لا في الليل ولا في النهار.

وأهل البصرة يتخذون المِظَلَّات[١] على التمر والعجوة[٢] خوفًا عليها من الخُفَّاش. ومن عادة الذباب الفِرار من الشمس إلى الظلّ، فلا يوجد في تلك الظلال شيء منه البتة. فيتوهمُ المتوهِّم أن هاتين الحالتين من طِلَّسْم، له من الخاصية ما يمنع الغِرْبان والذباب. وليس كذلك، وإنما هو من حماية الله ووقايته.

ووصف خالد بن صفوان[٣] البصرة، فقال: منابِتها قَصَب، وأنهارها عَجَب، وسماؤها رُطَب[٤]، وأرضها ذَهَب.

وفي الكوفة عدم الوفاء.

وأما بغداد وما اختصت به

فإنه يقال: إنها جنةُ الأرض، ومجتَمَع الوافدَيْنِ: دجلةَ والفُراتِ، وواسطةُ الدنيا، ومدينةُ السلام، وقبة الإسلام، لأنها غُرَّة البلاد، ودارُ السلام والخِلافة، ومجمع الطَّرائف والطيبات، ومعدِن المحاسن واللطائف، وبها أرباب النِّهايات في كل فن، وآحاد الدهر في كل نوع.

وكان أبو إسحٰق الزجَّاج يقول: بغدادُ حاضرةُ الدنيا، وما عداها باديةٌ.

وكان أبو الفضل بن العميد[٥] إذا طرأ عليه أحد وأراد امتحانَ عقلهِ سأله عن بغداد. فإن فَطن لفضائلها وخواصِّها، جعل ذلك مقدّمةَ فضله وعنوانَ عقله.

---

(١) المظلّات: مفردها مظلّة، وهي ما يستظل له، أو هي نوعٌ من الشّباك لا يخترقها الطير فيقع على الثّمار.

(٢) العجوة: التّمر المخلوط بعضه ببعض.

(٣) هو خالد بن صفوان بن الأصمّ التميمي المنقري، من فصحاء العرب المشهورين كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك، وأدرك خلافة السّفاح وحظي عنده توفي سنة ٧٥٠ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٩٧».

(٤) الرّطب: ما نضج من البلح قبل أن يصير تمرًا.

(٥) هو محمد بن الحسين، أبو الفضل ابن العميد، وزير من الكتّاب الأذكياء، لقّب بالجاحظ الثاني في أدبه وترسّله، كان وزيرًا لركن الدولة البويهي، كريمًا ممدوحًا، مات بهمذان سنة ٩٧٠ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٩٨».

وقال ابن زُرَيق الكوفيّ، الكاتب: [من البسيط]

سَافَرْتُ أبغِي لَبْغدادٍ وساكِنِها ... مِثْلًا، فحاوَلْت شَيْئًا دُونَه الياسُ
هيهاتَ! بغدادُ الدنيا بأجمعها ... عندي، وسُكّانُ بغدادٍ همُ الناسُ

وقال آخر: [من المتقارب]

سقى اللهُ بَغْدادَ من جنةٍ ... غدَتْ للوَرى نُزْهة الأنفُس
على أنَّها مُنْيةُ المُوسِرين ... ولكِنَّها حَسْرةُ المُفْلِس

وأما الأهواز وما اختصت به

فقال أبو عثمان «عمرو بن بحر الجاحظ»: إن قَصَبة الأهواز مخصوصة بالحمَّى الدائمة اللازمة، حتَّى إنها ليست إلى الغريب بأسرَعَ منها إلى القريب.

وقال إبراهيم بن العباس[١] عن مَشْيَخة من أهلها عن القوابل[٢] بها: إنهن ربما قَبِلن الطِّفْل المولود بها فيجِدْنَه محمومًا؛ ولا تكاد تُوجَد بها وجنةٌ حمراء لصبيّ ولا صبية، ولا دمٌ ظاهر.

ومن عجائب خصائصها: أن جميع أصناف الطِّيب تستحيلُ رائحتُه فيها جذًّا[٣]، حتَّى لا تكاد توجد له رائحةٌ. وذلك من كثرة الرُّطوبات، وغلَظ الهواء، والأبخرة الفاسدةِ. (وهذا موجود بأنطاكِيَةَ والقُسْطنطينِيَّة). ويقال: إن الخيل لا تنْزُو[٤] بها ولا تصْهَل، وإنها تعتلف الحشيش دون التبن؛ لما يلحقها من الرَّبْو[٥]، لنداوة البلد وعفونته.

وأما فارس وما اختصت به

فمن خصائصها: ماء الورد الذي لا يُوجَد مثله في سائر البلاد طيبًا، والجُورِي[٦] الموصوف من أحد بلادها يُجْلبَ إلى أقاصي البلاد، ويُضرَب به المثل.

---

(١) هو إبراهيم بن العباس الصّولي، أبو إسحٰق، كاتب العراق في عصره، كان شاعرًا وكاتبًا للمعتصم والواثق والمتوكل من خلفاء بني العبّاس، توفي سنة ٨٥٧ م. «فهرس الأعلام ١/ ٤٥».

(٢) القوابل: مفردها قابلة، وهي المرأة التي تساعد الوالدة عند الولادة فتتلقّى الطفل الذي تضعه.

(٣) الجذّ: المنقطع، أو الذي تمتنع عن نشر الرائحة.

(٤) تنزو: تثب.

(٥) الرّبو: علّة في الرّئة يضيق منها التنفّس.

(٦) الجوريّ: هو الورد الجوري المنسوب إلى «جور» تقدّم ذكره.

ولشيرازَ من بلاد فارس فَغْمة[١] طيبة ليست فيما عداها من بلاد فارس.

وأما أصفَهان وما اختصت به

فهي موصوفة بصحة الهواء، وجَوْدة التُّربة، وعُذُوبة الماء.

وحُكي أن الحجاجَ ولَّى بعض خواصّه أصفَهان، فقال له: قد وَلَّيتك بلدةً حَجَرُها الكُحْل، وذُبابُها النَّحل، وحشيشُها الزَّعْفَران.

ومن خصائص الرَّيّ: بُرودُها[٢] موصوفة كبُرود اليَمَن، وتسمَّى العَدَنِيَّات تشبيهًا لها ببرودِ عَدَن. وفيها الثياب المنيَّرة.

قالوا: واللص الحاذق ينسب إلى الرَّيّ.

وأما جُرْجان وما اختصت به

فهي سُهْلِيَّة جَبلِية، برِّية بحريَّة. وأهلها يَعُدّون زيادةً على مائة نوع من أنواع الرياحين، والبُقول، والحشائش الصَّحْراوية، والثمارِ والحبوب السُّهْلية التي هي مبذولة بها للفُقراء والغُرَباء.

ومن خصائصها: العُنَّاب الذي لا يكون في سائر البلاد مثلُه، ويقال: هي بغداد الصُغرى، إلا أنها وبِيَّةٌ، مختلفة الهواء في اليوم الواحد، قَتَّالة للغرباء، كثيرة الأنداء[٣].

ويقال: جُرْجان مقْبُرة أهل خُرَاسان.

وفي بعض الكتب القديمة أن بخراسان بلدة يقال لها جرجان، يُسَاق إليها قصار الأعمار من الناس.

وكان أبو تراب النيسابوريّ[٤] يقول: لما قُسمت البلادُ بين الملائكة، وقعَتْ جُرجانُ في قسم أبي يحيىٰ (يعني مَلَك الموت).

---

(١) الفغمة: الرائحة.

(٢) البرود: مفردها بُرد: وهو كساء مخطَّط يلتحف به.

(٣) الأنداء: مفردها ندى: وهو بخار الماء المتكاثف الذي يسقط في بعض الليالي.

(٤) لعلّه يحيىٰ بن يحيىٰ بن بكر التميمي النيسابوري، قال الإمام أحمد: ما أخرجت خراسان بعد ابن المبارك مثله محدّث فقيه ثبت، مات سنة ٢٢٦ هـ. «الكاشف ٣/ ٢٣٨».

وأما نيسابور وما اختصت به

فحكي عن عمرو بن الليث الصَّفَّار[١] أنه كان يقول: كيف لا أقاتِلُ عن بَلْدة حشيشها الرِّيباس[٢]، وتُرابها النُّقْل، وحَجَرها الفيروزج، أراد بقوله: «تُرابها النُّقْل» طينَ الأكل الذي لا يوجدَ مثله في الأرض، ويحمل منها إلى أقاصي البلاد وأدانِيها، ويُتْحف به الملُوك. قالوا: وربما بيع الرِّطل[٣] منه بدينار. قال المأمون يصفه: [من السريع]

جُدْ لِي من النُّقْل، فذَاك الذِي منه خُلِقْنا وإليه نَصِيرْ
ذاكَ الذي يُحْسَب في شَكله أحجارَ كافورٍ عليها عبيرْ

قالوا: والفَيْروزَج[٤] لا يكون إلا في نَيْساور، وربما بلغت قيمة الفَصِّ منه ـ الذي إذا أربى وزنه على مثقال[٥]، وجمع الخضرة والاستدارة، وصَبَر على النار، وامتنع على المِبْرد، ولم يتغير بالماء الحارّ ـ مائتي دينار.

ويقال إن له خاصية في تقوية القلب بالنظَر إليه، كما أنَّ للياقوت[٦] خاصِّيَّة في مَسَرَّة النفس.

ولما دخلها إسماعيل بن أحمد السامَانِيُّ[٧]، مِلِكُ ما وراءَ النهر وخُراسان، استحسنها واستطابها، وقال: يا لها من بلدة جليلة، لو لم يكن لها عيبان! كان ينبغي أن تكون مياهُها التي في باطن الأرض على ظاهرها، وأن تكون مسالحها[٨] التي على ظهرها في بطنها.

---

(١) هو عمرو بن اللّيث الصّفّار، ثاني أمراء الدولة الصفّارية، وأحد الشجعان الدّهاة. «انظر فهرس الأعلام ٥/ ٨٤».

(٢) الرّيباس: نبات معمّر ينبت في البلاد الباردة، والجبال ذوات الثلوج، تؤكل ضلوعه وتربّب، ويعصر منه شراب الرّيباس.

(٣) الرّطل: معيار يوازي اثنتي عشرة أوقية إجمالًا.

(٤) الفيروزج: حجر كريم أزرق يميل إلى الخضرة.

(٥) المثقال: ما يوزن به.

(٦) الياقوت: حجر كريم صلب صافٍ شفّاف، ذو ألوان مختلفة ما بين الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق.

(٧) هو إسماعيل بن أحمد بن سامان، أبو إبراهيم، ثاني أمراء الدولة السامانيّة في ما وراء النهر ولّاه المعتضد خراسان، وكان موفّقًا في قمع الثورات توفي ببخارى سنة ٩٠٧ م. «فهرس الأعلام ١/ ٣٠٨».

(٨) المسالح: موضع السّلاح، أو هي موضع السّلح وهو الأصوب هنا.

ومن خصائصها الثياب النيسابورية الرِّقاق.

وأهلها لا يكرمون الغريب. قال المراديّ[١]: [من البسيط]

لا تنزِلَنَّ بنَيسابُورَ مغْتَرِبًا ... إلّا وحَبْلُك موصولٌ بسُلْطانِ

أوْلا، فلا أدبٌ يُغْني ولا حَسَبٌ ... يُجْدِي ولا حُرمةٌ تُرْعى لإنسانِ

وقال أيضًا فيها: [من البسيط]

قال المُرادِيّ قولًا غيرَ متَّهَم ... والنُّصحُ ما كان من ذي اللُّبِّ مقبولُ

لا تنزِلَنَّ بنَيسابُورَ مُغْترِبًا ... إنَّ الغريبَ بنَيسابُورَ مَخْذولُ

وأما طُوس وما اختصت به

فمن خصائصها السَّبَج[٢] الذي لا يكون إلا بها، ومنها يُنْقل إلى الآفاق، والحجر الأبيض الذي تتخذ منه القُدُور.

ويقال: إن الله عزَّ وجلّ ألَانَ لأهلها الحجارةَ كما ألَان لداود الحديدَ، حتَّى إنهم يتخذُون منها ما يتخذ غيرُهم من الزُّجاج من سائر الأواني.

وأما بَلْخ وما اختصت به

فيقال: هي من أقدم البلاد وأخصِّها بالملوك، وهي شبيهة بالعِراق، وخُراسان، والهند. وإليها ينسَبُ جَيْحون، فيقال: نهر بلخ.

وكان سعيد بن الحسن يقول: العَيْش في الصيف ببَلْخ كتَصْحِيفها[٣].

ومن خصائصها البخاتي[٤] والنَّيْلُوفر[٥].

---

(١) هو أبو الحسين محمد بن محمد المرادي، شاعر بخارى، وهو الذي نزل نيسابور لحاجةٍ في نفسه، فرأى من أهلها جفاء فقال هذين البيتين. «انظر يتيمة الدّهر ٤/ ٨٥ وما بعدها».

(٢) السّبج: خرز أسود.

(٣) أي مثل «ثلج» والتصحيف: تغيّر الكلمة أثناء الكتابة من صوابٍ إلى خطأ وذلك عن طريق إبدال بعض الحروف ببعض، وخاصة الحروف المعجمة.

(٤) البخاتي: نوع من النّياق اشتهرت بها هذه المدينة.

(٥) النّيلوفر: نبات ينبت في المياه الراكدة، أصله كالجزر، ويطول بحسب عمق الماء منه أنواع تزرع لورقها وزهرها.

وأما بُسْت وما اختصت به

فيقال: إن هواءها كهواء العِراق، وماءَها كماء الفُرات؛ ومن خصائصها الإجَّاص الذي لا يوجد مثله في غيرها. ويقال: إن مَنْ مات ببُسْت مغفورًا له فقد انتقل من جَنَّة إلى جَنَّة.

وأما غَزْنة وما اختصت به

فهي موصوفة بصحة الهواء، وجودة التُّربة، وعُذوبة الماء، وهي جَبَلية شَمَالية؛ ومن خصائصها أن الأعمار بها طويلة، والأمراض قليلة. قالوا: وهي أرضٌ تنبت الذهب، ولا تولد الحياتِ والعقاربَ والحشرات المؤذية. ومنها خرج الأجِلَّاء الأنجاد[١] من الرجال.

وقال أبو سعيد منصور زعيم جرجان: لم أر بلدة في الصيف أطيب، وفي الربيع أشبه، ومن الحشرات أنظف من غزنةَ. ثم قال: إن قلَّة ثِمَارها من منافعها، لأن كثرة الثمار مقترِنةٌ بكثرة الأمراض. وقد وصفها صاحب كتاب «لطائف المعارف» فقال: [من مجزوء الكامل المرقّل]

واهًا لغَزْنةَ إذ غَدَتْ ... للمُلْكِ والإسلام دارًا[٢]
من كَعْبةٍ قد أصبحَتْ ... للمَجْدِ والعَلْيا مَدَارًا[٣]
في صَدْرها الملكُ الَّذي ... قُطْبُ السُّعود عليه دَارَا

وقال أيضًا فيها: [من البسيط]

يا دار مُلْكٍ نرى كُلَّ الجمال بها ... وأسعد الدهر تَبْدو من جَوانِبِها
كأنما جَنَّة الفِرْدوس قد نزلَتْ ... بأرض غَزْنةَ تعجيلًا لصاحِبِها

وأما سِجِستان وما اختصت به

فيقال فيها: ماؤها وَشَل[٤]، وتَمَرُهَا دَقَل[٥]، ولِصُّها بَطَل.

(١) الأنجاد: مفردها نجد، أي الرّجل الماضي فيما لا يستطيعه سواه، ومنه النّجدة: الشجاعة والاستهانة بالموت.
(٢) واهًا: كلمة تعجّب من طيّب الشيء. (٣) المدار: الفلك.
(٤) الوشل: الماء القليل، يتحلّب من جبل أو صخرة، ولا يتّصل قطره.
(٥) الدّقل: أردأ التّمر.

ومما تختص به الطاسات وجلاجل(١) البُزَاة، والطبولُ المَوْكِبية، والفُرُش الدِّيباج(٢).

وأما الهند وما اختصت به

فيقال: الهند بحرها دُرّ، وجبلُها ياقوت، وشجرُها عُود، وورَقُها عطْر.

وعُود الهند يذكر مع أمّهات الطيب.

وفي الهند الفِيل، والكَرْكَدَّن، والبَبْر، والطاوُوس، والبَبْغاء.

وفيه الياقوتُ الأحمر، والصَّنْدل الأبيضُ، والعاجُ، وأصناف العِطر، والثياب المُخْمَلة وغيرها، واللّانس(٣)، والأقمشة.

وأما الصين وما اختصَّ به

فإن العرب تقول لكل طُرْفة(٤) من الأواني: صينِيَّة كائنةً ما كانت: لاختصاص الصين بالطَّرائف.

وأهلُ الصين خُصُّوا بصناعة الطُّرَف، والمُلَح، وخَرْط التماثيل، والإبداع في عمل النُّقُوش والتصاوير، حتّى إن مصوّرهم يصوّر الإنسان فلا يغادر شيئًا إلا الرُّوح، ثم لا يرضى بذلك حتَّى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخَجِل، وبين المتبسِّم والمستغرب، وبين ضَحِك المسرور والهازىء؛ ويركِّب صُورة في صورة.

وفيه مناديل الغَمَر(٥) التي إذا اتَّسخت وأُلْقيت في النار، نَقِّيت ولم تحترق.

وفيه الحديد. وربما اشترِي بأضعاف وزنه فضةً.

وفيه السِّنجاب الفارحانيّ الذي هو من أنفَس الأوبار. وفيه اللُّبُود(٦) الجياد.

---

(١) الجلاجل: مفردها جلجل، وهو الجرس الصغير.
(٢) الدِّيباج: ضربٌ من الثياب، سداه ولحمته حرير.
(٣) كذا بالأصل، ولعلّها محرّفة عن القلانس. (٤) الطّرفة: كلّ شيء مستحدث عجيب.
(٥) الغمر: منديل، ويقال: لمنديل الغمر المشوّش، والثوب المغمّر: المطلي بالزعفران. «انظر اللّسان مادة غمر».
(٦) اللُّبود: مفردها «اللّبد» وهو ضربٌ من البُسط.

قال الجاحظ في كتاب «النظر في التجارة»: إن خير اللُّبُود الصينية، ثم المغربية الحُمْر، ثم الطالَقَانيَّة[١] البِيض.

وأما سمَرْقَنْد وما اختصت به

قال قُتَيبة بن مسلم[٢]، لما أشرف على سمرقند لأصحابه: شَبِّهوها، فلم يأتوا فيها بشيء، فقال: كأنها السماء في الخُضْرة، وكأن قصورَها النجومُ الزاهرة، وكأن أنهارَها المَجرّة[٣]. فاستحسنوا هذا التشبيه.

ومن خصائصها: الكَوَاغدُ[٤] التي عطَّلتْ قراطيس مصر، والجلودَ التي كان الأوائل يكتُبون عليها، لأنها أحسَنُ وأنعمُ وأرفَقُ وأرقُّ. ولا تكون إلا بها وبالصين.

ومن خصائصها: الثياب الوَذَارية[٥]، والنشادر[٦]، والزِّئبَق، والبُنْدُق.

وأما بلاد التُّرك وما اختصت به

فإنه يقال: إنها توازِن بلاد الهند في كثرة الخصائص.

وفيها المِسْك والسِّنجاب والسَّمُّور[٧] والقاقُم[٨] والفَنَك[٩] والثَّعالب السُود والأرانب البيض وغير ذلك. وفيها البُزاة البيضُ والخيل.

---

(١) الطالقانية: نسبة إلى طالقان، وهي مدينة في طخارستان، تخرج منها جماعة من الفضلاء. «معجم البلدان ٤/ ٦، ٧».

(٢) هو قتيبة بن مسلم الباهلي، أبو حفص، أميرٌ فاتح من مفاخر العرب، ومن ولاة الدولة الأموية، كان عظيم المكانة مرهوب الجانب، قتل بفرغانة سنة ٧١٥ م. «فهرس الأعلام ٥/ ١٨٩».

(٣) المجرّة: مجموعة كبيرة من النجوم تركّزت حتى تراءت من الأرض كوشاحٍ أبيض يعترض السّماء.

(٤) الكواغد: مفردها «الكاغد» وهو القرطاس.

(٥) الوذارية: نسبة إلى وذار، وهي من قرى سمرقند على أربعة فراسخ منها، فيها منارة وحصن وجامع، وهي كبيرة كثيرة البساتين والزروع. «معجم البلدن ٥/ ٣٦٩».

(٦) النّشادر: مادة بيضاء تميل إلى الصفرة، تستعمل استنشاقًا في حالات الإغماء.

(٧) السّمّور: حيوان برّي لحوم، يشبه الهرّ، يُتخذ من جلده فروٌ ثمين.

(٨) القاقم: حيوان على شكل الفأرة، رائحته كريهة، تصنع من جلوده الفراء.

(٩) الفنك: ضرب من الثعالب، فروته أجود أنواع الفراء.

ولتُبَّت من بلاد الترك خاصيةٌ: أنه من أقام بها اعتراه سُرور لا يدرِي ما سبَبُه، ولا يزال متبسمًا ضاحكًا؛ وأن الميت إذا مات فيها لا يدخُل على أهله كبيرُ حزن كما يلحق غيرهم عند موت محبوب.

وأما خُوَارَزْم وما اختصَّتْ به

فإنها تقارب بلاد الترك، بل تنافسها في الخصائص والمتاجر.

ومن خصائصها البِطيخ الذي يقال له «النارَنْج» يقال إنه أحْلى البطاطيخ وأطيبُها. وكان يحمل منها إلى المأمون وإلى الواثق في قوالب الرصاص، معَبَّاة في الثلج. فكانت تُقوّم الواحدة منه - إذا سلمت ووصلت - بسبعمائة درهم. والله أعلم.

ذكر الخصائص التي تجري مجرى الطِّلَّسْمات

منها: مدينة «خَبِيص» من مُدُن كَرْمان. لا يُمطِر المطر فيها داخلَ السور أبدًا حتَّى إن الرجل يُخْرِج يده من سورها إلى خارجها، فتبتلُّ يدُه ولا يبتلُّ ساعده.

وبقرية من قُرى كَرْمان أيضًا «حصن عادي» ليس فيه فأر. وإذا دخل إليه فأر، مات.

ومدينة «حمص» لا يُوجَدُ فيها عَقْرب. وإذا نُثِر ترابُها على ظهر عَقْرب، ماتت. وكذلك قلعة أعزاز من أعمال حلب. ويقال إنه لا يدخل مدينتها حيَّة. ومتى نُثِر عليها من ترابها، ماتت لوقتها. ولا يوجد فيها بَعُوضٌ البتةَ. وإن الرجل متى أخرج يده من السور، وقع عليها؛ فإذا أدخل يده، طار عنها.

و«بمصر»[1] أن التماسيح إذا ساقها الماءُ إليها وحاذَتْها، انقلبت على ظهرها. فإذا بَعُدت عنها، لا تضر أحدًا. بخلاف ما هي في بلاد الصعيد، فإنها تفترس جميع ما تظْفَر به من الحيوان حتَّى الخيل. ولا يقوى على قتالها إلا الجاموس.

ومدينة «سجِلْماسة» لا يوجد فيها ذُباب البتةَ.

---

(١) يعني مصر العتيقة أي الفساط.

ذكر خصائص البلاد في أشياء مختلفة

وهي العلم، والعمل، والجواهر، والملابس، والأوبار، والفُرُش، والمراكب، والحيواناتُ ذواتُ السموم، والحَلْوى، والثمار، والرياحين، والخَلْق، والأخلاق، والأمراض، والآثار العُلْوية

أما خصائصها العلمية والعملية، فيقال: حُكماء اليونان، وأطباء جُنْدَيْسَابور[١]. وصاغة حَرَّان[٢]، وحاكَةُ اليمن، وكُتَّاب السَّوَاد.

ومن خصائصها في الجواهر، يقال: فَيْروزَج نَيْسابورَ، وياقوت سَرَنْدِيب، ولؤلؤ عُمَان، وزبرجَدُ مِصْر، وعَقِيق اليمن، وجَزْع[٣] ظَفَارِ، وبجاديّ بلخ[٤]، ومَرْجانُ إفْرِيقِيَّة.

ومن خصائصها في الملابس، يقال: «بُرُود اليمن، ووَشْيُ[٥] صنعاء، ورَيْط[٦] الشام، وقَصَب[٧] مصر، وديباج[٨] الرُّوم، وقَزُّ[٩] السُّوس، وحَرِير الصين، وأكْسِية فارس، وحُلَل أصْبَهان، وسَقْلاطُون[١٠] بغداد، وعَمَائم الأُبُلَّة، ومُنَيَّر[١١] الريّ، ومُلْحَم[١٢] مَرْو، وتِكَك[١٣] أرمينِيَة، ومَنَاديل الدَّامَغان، وجَوَارِب قَزْوِين.

---

(١) جنديسابور: مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت إليه، وأسكنها سبي الرّوم وطائفة من جنده، وهي تعريب: به از انديوشافور، ومعناه: خيرٌ من أنطاكية. «معجم البلدان ٢/ ١٧٠».

(٢) حرّان: مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، على طريق الموصل والشّام والرّوم، سمّيت «بهاران أخي إبراهيم عليه السّلام» لأنه أوّل من بناها، وقيل: إنّها أوّل مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان. «معجم البلدان ٢/ ٢٣٥».

(٣) الجزع: ضرب من العقيق، يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان.

(٤) كذا بالأصل، وهو تحريف صوابه «بخاتيّ بلخ» وهي ضرب من النياق اشتهرت بها بلاد بلخ.

(٥) الوشي: نقش الثوب وتزيينه من كلّ لون.

(٦) الرّيط: مفردها «ريطة» وهي الملاءة كلّها نسج واحد وقطعة واحدة، أو كلّ ثوب ليّن رقيق.

(٧) القصب: ثياب رقاق ناعمة من الكتّان.

(٨) الدّيباج: ثوب سُداه ولحمته من الحرير.

(٩) القزّ: الحرير.

(١٠) السقلاطون: نوع من الثياب، قال أبو حاتم: عرضته على روميّة وقلت لها ما هذا؟ قالت: سجلّاطُس. «اللّسان مادة سقلطن».

(١١) المنيّر: ثوب منسوج على نيرين.

(١٢) الملحّم: نوع من الثياب، وهو ما كان سُداه حريرًا أبيض ولحمته غير حرير.

(١٣) التّكك: مفردها التكّة، وهي رباط السّراويل.

ومن خصائصها في الأوبار، يقال: سنجاب خِرْخِيز، وسَمُّور بُلْغار، وثعالب الخَزَر، وفَنَك كاشْغر[١]، وحَوَاصل هَرَاة[٢]، وقَاقُم تغزغز[٣].

ومن خصائصها في الفرش، يقال: بُسُط أرمينِيَة، وزَلَاليُّ[٤] قاليقَلا، ومَطَارحُ[٥] مَيْسان، وحُصُر بغداد[٦].

ومن خصائصها في المراكب، يقال: عِتَاق[٧] البادية، ونَجَائِب[٨] الحِجاز، وبَراذين[٩] طَخَارستان، وحَمِير مصر، وبِغَال بَرْذعة[١٠].

ومن خصائصها في الحيوانات ذوات السموم، يقال: أفاعي سجِسْتان، وحَيَّات أصْفَهان، وثَعابِينُ مصر، وعَقَارِب شَهْرَزُور، وجرّارات[١١] الأهواز، وبَراغِيث أرمينِيَة، وفأر أرْزَن، ونمل مَيَّا فارقينَ، وذبابُ تل فَافَانَ، وأقداح نلد[١٢].

ومن خصائصها في الحلواء، يقال: سُكَّر الأهواز، وعَسَل أصفَهَان، وفانيذ[١٣] ماكسان[١٤] ودِبْسُ أَرّجان.

---

(١) الفنك: حيوان يشبه الثعلب تستخرج من جلده فراء جيّدة، وكاشغر: مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند، وهي وسط بلاد الترك، وأهلها مسلمون. «معجم البلدان ٤/ ٤٣٠».

(٢) الحواصل: مفردها حاصل، وهو هنا نوعٌ من الطيور يعمل من جلده الخفاف الناعمة وهراة: مدينة مشهورة عظيمة من أمّهات مدن خراسان، فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة، محشوّة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء. «معجم البلدان ٥/ ٣٩٦».

(٣) القاقم: حيوان كالفأر، رائحته كريهة، وفروه ثمين، وتغزغز: لم أجد لها ذكرًا في معجم البلدان، ولعلّها «غزنيز» من قرى خوارزم. «راجع معجم البلدان ٤/ ٢٠٢».

(٤) الزّلالي: لم أجد لها ذكرًا في اللّسان ولعلها الزّرابي، وهي ما بُسط واتكىء عليه من الطنافس ونحوها.

(٥) المطارح: ما يطرح من بسط أو فرش ويجلس عليها.

(٦) لعلّه مصحّف عن «حصر عبادان» لأن المقريزي يتكلّم عن الحصر العبدانيّة في مواضع كثيرة.

(٧) العتاق: النّوق الكريمة.

(٨) النّجائب: الإبل الكريمة.

(٩) البراذين: مفردها «برذون» وهو دابة دون الفرس غليظة الأعضاء ضخمة تتخذ للحمل خصوصًا.

(١٠) برذعة: أو بردعة «بالدال» وهي قاعدة مملكة أرّان، قال ابن حوقل: هي مدينة كبيرة كثيرة الخصب، نزهة، على مقربة من نهر الكرّ. «صبح الأعشى ٤/ ٣٦٢».

(١١) جرّارات: مفردها «جرّارة» وهي عقرب صفراء صغيرة على شكل التّبنة، وهي من أخبث العقارب.

(١٢) القدوح: الذّباب، والقدح والقادح أكّال يقع في الشجر والأسنان «وَنَلَد» هكذا في الأصل، ولعلّها محرّفة عن «بلد» المدينة المشهورة في العراق.

(١٣) الفانيذ: نوعٌ من السكر لا يوجد إلّا بمكران ومنها يحمل إلى سائر البلدان. «معجم البلدن ٥/ ٤٢».

(١٤) ماكسان: كذا بالأصل والصواب: ماسكان، بلد مشهور بالنواحي المجاورة لمكران وراء=

ومن خصائصها في الثمار، يقال: رُطَب العراق، وتَمْر كَرْمان، وعُنَّاب جُرْجان، وإجَّاص بُسْت، وسَفَرْجَل نيسابور، وتُفَّاح الشام، ومِشْمِش طوس، وكُمَّثْرى نَهاوَنْد، وأُتْرُجُّ طبرستان، ونارَنْج[١] البصرة، وتِين حُلْوان، وعنَب بغداد، وقِشْمش[٢] هراة، ومَوْز اليمن، وجَوْز الهند، وبِطِّيخ خُوارَزْم، وباقِلاء الكوفة.

ومن خصائصها في الرياحين، يقال: نَرْجِس جُرْجان، ووَرْد جُور، ونَيْلُوفر[٣] السِّيرَوان، ومنثُورَ[٤] بغداد، وزَعْفران قُمّ، وشاهسْفَرم[٥] سمرقند.

ومن خصائصها في الخَلْق والأخلاق، يقال: شُقْرة الروم، وسَوَاد الزِّنْج، وغلَظ الترك، وجَفَاء الجِيل، ودَمَامة الصِّين، وقِصَر يأجُوج.

ومن خصائصها في الأمراض، يقال: طواعينُ الشام، وطِحَال البحرين، ودَمَامِيل الجزيرة، وحُمَّى خيبَرَ، وجُنُون حمْص، وعَرَق اليمن، ووَبَاء مصر، وبِرْسام[٦] العراق، والنارُ الفارسية، وقُرُوح بَلْخ.

ومن خصائصها في الآثار العلوية، يقال: شِتَاء أرمينِيَةَ، ومَصيف عُمَان، وصواعق تِهَامه، وزَلازِلُ دَبِيل.

وقال الجاحظ في «كتاب الأمصار»: الصناعة بالبصرة، والفَصَاحة بالكوفة، والتَّخْنِيث ببغداد، والطَّرْمذَة[٧] بسمرقند، والغَيّ بالرَّيّ، والجَفَاء بنَيْسابور، والحُسْن بهَراةَ، والمُروءة ببلخ، والبُخْل بمرو، والعجائب بمِصْر.

وحكي عن عمرو بن عامر مُزَيْقِيَا، أنه قال لقومه لما تحقق كونَ سيلِ العَرِم[٨]:

= سجستان، ولا يوجد الفانيذ إلا بهذا الموضع. «معجم البلدان ٥/ ٤٢».

(١) النّارنج: نوعٌ من الليمون يعرف عند بعض العامة «البوصفير» تتخذ منه المربّيات.

(٢) القشمش: ما يعرف عندنا بالمشمش.

(٣) النّيلوفر: جنس نباتات مائية ينبت في الأحواض والمناقع «تقدّم ذكره».

(٤) المنثور: جنس زهر ذو رائحة ذكيّة، وهو كثير في مصر.

(٥) الشاهفرم: ريحان الملك، قال أبو حنيفة هي فارسية دخلت في كلام العرب وقد ذكرها الأعشى في قصيدة له. «اللّسان مادة شهم».

(٦) البرسام: داء الجنب، وهو التهاب يصيب غشاء الرّئة.

(٧) الطرمذة: الرّجل الذي لا يحقق الأمور أي الذي له كلام وليس له فعل. «اللسان مادة طرمذ».

(٨) سيل العرم: ذكر في القرآن الكريم ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ [سَبَأ: الآية ١٦]، والعرم قال أبو عبيدة جمع العرمة، وهي السّكر والمسنّاة التي تسدّ بها المياه وتقطع، وقيل: العرم: اسم وادٍ بعينه، وقيل: العرم هاهنا: اسم الجرذ الذي نقب السّكر عليهم، وقيل: العرم: المطر الشديد، وسيل العرم: هو الذي خرّب سدّ مأرب. «انظر معجم البلدن ٤/ ١١٠».

من كان ذا شاءٍ وبَعير وجملٍ غير شَرُود، فليلحق بالشِّعب[١] من كُوفان، فلحقتْ به هَمْدان؛ ومَن كان ذا سِياسة وصَبْر على أزَمات الدهر فليلحَق ببطن مَرّ[٢]، فلحقت به خُزَاعة. ومَن كان يريد الراسخات في الوَحْل؛ المُطعِمات في المَحْل، فليلحَقْ بيَثْرِب ذاتِ النخل، فلحقت بها بنو قَيْلَةَ، وهم الأوس والخَزْرَج؛ ومن كان يريد الخَمر والخَمِير والأمر والتأمير فليلحق ببُصْرى وسَدير (وهي من أرض الشام)، فلحقَتْ به غَسَّان؛ ومَن كان يريد الثياب الرِّقاق، والخُيول العِتَاق، والذَّهَب والأوراق، فليلحَقْ بالعراق، فلحقت به لَخْم. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الباب الثالث
من القسم الخامس من الفن الأوّل
في المباني القديمة

والمباني القديمة كثيرة، فلنذكر منها ما عَظُم خَطَره، وشاع في الآفاق ذِكْره.

ذكر أوّل بناء وُضِع على وجه الأرض

قيل: أوّل ما بنى على وجه الأرض «الصَّرْح» ويسمَّى «المِجْدل» بناه النُّمرود الأكبَرُ ابن كُوش بن حام بن نوح، بكُوثي رَبَّى من أرض بابل[٣]. قيل: وبها إلى هذا العصر من أثره كالجبال. وكان طوله في الهواء خمسة آلاف ذراع، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع. وكان مبنيًّا بالحجارة والرَّصاص والكِلْس والشَّمَع واللِّبان[٤]. بناه ليمنعه وقومَه من بأس الله عزَّ وجلّ. وكان قد كفر وطغى وادّعى الألوهية، فأرسل الله تعالى إليه جبريل، فضربه بخافية جناحه فهدمه، وهام مَن كان حوله على وجهه، وقد تبلبلت[٥] ألسِنَتُهم من الدَّهَش والذُّعْر، فكانت عنه هذه اللغاتُ التي

---

(١) الشِّعب: انفراج بين جبلين (ج) شعاب.

(٢) بطن مرّ، وهو وادٍ من أودية الحجاز في الشّمال عن مكة على مرحلة منها على طريق حجّاج مصر والشّام، وفي تقويم البلدان: بقعة بها عدّة عيون ومياه تجرى ونخيل. «صبح الأعشى ٤/ ٢٦٥».

(٣) بابل: قال ابن حوقل: هي أقدم أبنية العراق، وإليها ينسب إقليم بابل لقدمها وكانت ملوك الكنعانيين وغيرهم يقيمون بها، ويقال: إن الضحّاك أحد ملوك الفرس هو الذي بناها. «صبح الأعشى ٤/ ٣٣١».

(٤) اللّبان: اللَّبنة واللِّبْنة: التي يبنى بها، وهو المضروب من الطين مربّعًا. «اللّسان مادة لبن».

(٥) تبلبلت: تفرّقت، وبلبل الله ألسنة الخلق: فرّقها.

يتكلم بها سائرُ الأمم، وهي اثنتان وسبعون لغةً، وسميت تلك الأرض التي كان بها بابِلَ.

ذكر خبر إرَمَ ذاتِ العماد

وهي التي ذكرها الله عزَّ وجلّ في كتابه العزيز، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾ [الفجر: الآيات ٦ - ٨].

وكان سبب عمارتها أن شدّادَ بن عاد بن إرَم لما سَمِع وصفَ الجنة سوّلتْ له نفسه أن يبنى مثلها. فبنى مدينة بين حَضْرَمَوْتَ وصنعاءَ، طُولها اثنا عشر فرسخًا، وعرضُها مثلُ ذلك. وأحاط بها سورًا ارتفاعه خمسمائة ذراع، غَشَّاه بصفائح الفضة المموّهةِ بالذهب، فلا يُدركه البصر إذا أشرقتْ عليه الشمسُ. وبنى داخلها مائةَ ألف قصر (بعَدَد رؤساء أهل مملكته) من الذهب والفِضَّة، وكذلك جُذُوع سُقُوفها وأعمدتُها. وأجرى في وسطها نهرًا صَفَّح أرضه بالذهب، وجعل على حافتيه أنواعَ الجواهر واليواقيت بدلًا من الحصباء وألقى فيه المسْك والعنبرَ بدلًا من الحَمْأة[1]. وفرّع منه جداول إلى تلك القُصور والمنازل، وغَرَس على شُطوطها من الأوشجار ما كان لزَهَره عَرْفٌ[2] طيِّبٌ ورائحةٌ ذكيّة.

زعموا أنه أقام في بنائها ثلثمائة سنة، فلما تَمَّ بناؤها، زاد في طغيانه وخرج من حضرموت إليها ليسكُنَها. فلما أشرف عليها جاءته صَيْحة[3] من السماء فأهلكَتْه هو وجنوده.

ويروى أن عبد الله بنَ قِلابة خرج في طلب إبل له ندَّتْ[4] فوقع عليها، فحمل ما قَدَر عليه، فبلغ معاويةَ خبرُه، فاستحضره وسأله فقصَّ عليه قصته. فبعث معاويةُ إلى كعب الأحبار، فقال: هي إرمُ ذاتُ العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك: أحمرُ قصير، على حاجبه خالٌ، وعلى عقِبه خال، يخرج في طلب إبل له ندَّتْ. ثم التفت فرأى ابن قلابة فقال: هذا والله ذاك الرجُلُ.

---

(١) الحمأة: الطين الأسود المنتن.
(٢) العُرف: الرائحة مطلقًا، وأكثر ما يستعمل في الطيبة منها.
(٣) الصيحة: العذاب، والمرّة من الصوت القوي.
(٤) ندّت: نفرت وشردت.

وزعم الأخباريون أنه كان بها أربعمائة ألف وأربعون ألف عمود، ولهذا سميت ذات العماد. وقد ذهب قوم إلى أنها دمشق.

وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر إرم ذات العماد بما هو أبسط من هذا عند ذكرنا لخبر شَديد وشَدّاد، ابني عاد؛ وهو في الباب الخامس من القسم الأوّل، من الفن الخامس في التاريخ، وذلك في السِّفر الحادي عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك. والله تعالى أعلم.

ذكر خبر سدّ يأجوج ومأجوج

هو في الإقليم السادس في آخر الجزء التاسع من تجزئة عشرة أجزاء.

قال صاحب كتاب «نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق» إن الواثق بالله لما رأى في المنام كأنّ السَّدّ الذي بناه ذو القرنين[١] مفتوح، أحضر سَلّاما الترجمان وقال له: اذهب فانظر إلى هذا السدّ وجئني بخبره وحاله وما هو عليه، ثم أمر له بأصحاب يسيرون معه، عددهم خمسون رجلًا، ووصله بخمسة آلاف دينار، وأعطاه ديتَه[٢] عشرة آلاف درهم، وأمر أن يعطى كل واحد من أصحابه الخمسين ألفَ درهم ورزقَ سنة، وأمر لهم بمائة بغل تحمل الماء والزاد. قال سلام الترجمان: فشخَصْنا[٣] من سامَرَّا بكتاب الواثق إلى إسحٰق بن إسماعيل صاحب أرمينِيَة بالنظر إلى تنفيذنا من هناك؛ فكتب لنا كتابًا إلى ملك السَّرير[٤] وأنفذنا إليه. فلما ورَدْنا عليه، أشخَصَنا إلى ملك اللّان[٥]. فلما وصلنا إليه، أشخَصَنا إلى صاحب فيلان[٦] شاه. فلما وردنا عليه أرسلنا إلى ملك الخزر وهو اختار لنا خمسة أدِلّاء يدُلّون على الطريق. فسرنا من عنده

---

(١) ذو القرنين: هو «إفريدون» ويقال: إنّه التاسع من ولد «جمشية» من ملوك الفرس، وفي أوّل ملكه كان إبراهيم الخليل عليه السّلام، وهو ذو القرنين المذكور في القرآن على أحد الأقوال، وملك جميع الأرض أيضًا وقسّمها بين بنيه ومات. «صبح الأعشى ٤/ ٤١٠».

(٢) الدّية: المال الذي يستحق لأهل القتيل.

(٣) شخص: أي حمل الكتاب شخصيًا، وحل، وخرج.

(٤) السّرير: مملكة واسعة بين اللّان وباب الأبواب، وليس لها إلّا مسلكين: مسلك إلى بلاد الخزر، ومسلك إلى أرمينية، وأهل السّرير نصارى. «معجم البلدان ٣/ ٢١٩».

(٥) اللّان: بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب، مجاورون للخَزَر وهم نصارى تجلبُ منهم عبيد أجلاد. «معجم البلدان ٥/ ٨، ٩».

(٦) فيلان شاه: بلدة وولاية قرب باب الأبواب من نواحي الخزر، وهم نصارى ولهم لسان ولغة. «معجم البلدان ٤/ ٢٨٦».

سبعة وعشرين يومًا في تخوم بلاد بسجرت إلى أن وصلنا إلى أرض سوداء طويلة ممتدّة كريهة الرائحة، فشققناها في عشرة أيام. وكنا قد تزوّدنا لقطعها أشياء نشمها خوفًا من أذى روائحها الكريهة. ثم انفصلنا عنها. فسرنا مدّة شهر في بلادٍ خراب قد دَرَست أبنيتُها ولم يبقَ منها إلا رسوم يُستدل بها عليها. فسألنا من معنا عن تلك المُدُن، فأخبرونا أنها المدن التي كان يأجوج ومأجوج يغزونها ويخرّبونها. ثم سِرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذي في شُعبة السدّ وذلك في ستة أيام. وفي تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية. وهناك مدينة يدعى ملكها خاقان بن أدكش، وأهلها مسلمون لهم مساجد ومكاتب. فسألونا من أينَ أقبلنا، فأخبرناهم أنّا رُسُل أمير المؤمنين الواثق بالله، فعجِبوا منا ومن قولنا «أمير المؤمنين» ثم سألونا عن أمير المؤمنين: أشيخ هو أم شابّ؟ فقلنا: شابّ، فعجبوا أيضًا. ثم قالوا: وأين يكون؟ قلنا: هو بالعراق بمدينة سُرَّ مَنْ رأى. فعجبوا أيضًا من ذلك، وقالوا: ما سمعنا هذا قطُّ. فسألناهم عن إسلامهم من أين وصلهم ومَنْ علّمه لهم؟ فقالوا: وصل إلينا منذ أعوام كثيرة رجل راكب على دابة طويلة العُنق طويلة اليديْن والرجلين، لها في موضع صلبها حَدَبة، (فعلمنا أنهم يصفون الجمل) قالوا: فنزل بنا وكلمنا بكلام فهمناه، ثم علّمَنا شرائع الإسلام فقبلناها، وعلمنا أيضًا القرآن ومعانيَه فتعلمناه وحفِظناه. قال سلام: ثم خرجنا بعد هذا إلى السدّ لنُبْصِره، فسرنا عن المدينة نحوًا من فرسخين، فوصلنا السدّ. فإذا جبل مقطوع بوادٍ عرضه مائة وخمسون ذراعًا، وله في وسط هذا الفِناء باب من حديد طوله خمسون ذراعًا قد اكتنفه عِضادتان[١]، عرض كل عِضادة منهما خمسة وعشرون ذراعًا. والظاهر من تحتها عشرة أذرع خارج الباب. وكله مبنيّ بلَبِن الحديد مغيب بالنُّحاس. وارتفاع العضادتين خمسون ذراعًا، وعلى أعْلى العضادتين دَرَوند حديد[٢]، طوله مائة وعشرون ذراعًا. والدَّروَنْد للعتبة العليا، وقد ركب منها على كل واحدة من العضادتين مقدار عشرة أذرع. ومن فوق الدَّرَوَنْد بنيانٌ متصل بلبن الحديد المغيب بالنحاس إلى رأس الجبل، وارتفاعه مدّ البصر. وفوقه شُرُفات حديد، في طَرَف كل شُرَّافة قرنتان تَنْثَنِي أطراف كل واحدة منهما على الأخرى، وللباب مصراعان مُغْلَقان، عرض كل مِصْراع خمسون ذراعًا في ثِخَن خمسة أذرع؛ وقائمتاهما في دوّارة على قدر الدروند. وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع في غِلَظ ذراع في الاستدارة؛ وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعًا. وفوق

(١) العضادتان: مثنّى عضادة، وعضادة الباب: خشبتان منصوبتان مثبتتان في الحائط على جانبيه.

(٢) الدروند: لم أجد ذكرًا له في المعاجم، ولكن يستفاد من سياق الكلام أنه جسرٌ من حديد.

القفل بخمسة أذرع غَلَقٌ[١] طوله أكثر من طول القُفْل، وعلى الغَلَق مِفْتاح طوله ذراع ونصف، وله اثنتا عشرة دنداجة[٢]، كل دنداجة منها كأغلظ ما يكون من دساتج[٣] الهواوين، مُعلقٌ كل واحد منها بسلسلة على قدر حلقة المنجنيق[٤]. وعتبة الباب السفلى عشرة أذرع بسط مائة ذراع سوى ما تحت العضادتين، الظاهر منها خمسة أذرع. وكلها مكتالة بالذراع السواديّ. ورئيس ذلك الحصن يركب في كل جمعة مع عشرة فوارس، مع كل فارس إرزبّة[٥] حديد، كل إرزَبّة خمسةُ أمنان[٦]. فيضرب القفل بتلك الإرزَبّات في كل يوم ثلاث مرات ليسمع من خلف الباب. فيعلم أنَّ هناك حفظةً، وليعلم هؤلاء أن يأجوج ومأجوج لم يحدثوا في الباب حَدَثًا. وإذا ضرب أصحابُ الإرزَبّات القفل، وضعوا آذانهم ليسمعوا ما وراء الباب، فيسمعون من ورائه دوِيًا يَدلُّ على أن خلفه بشرًا. وبالقرب من هذا الموضع حصن يكون عشرة فراسخ في عشرة فراسخ. ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتي ذراع في مائتي ذراع؛ وبين هذين الحصنين عينُ ماء عذبةٌ، في أحد الحصنين آلةُ البناء التي بُنِي بها السدّ من قُدور الحديد ومَغَارف الحديد؛ والقدور فوق دِيكْدَانات[٧] على كل دِيكْدَان أربع قدور مثل قدور الصابون؛ وهناك أيضًا بقايا من لَبِن الحديد التي بني بها السدّ وقد التصق بعضها ببعض من الصدإ، وطول اللَّبِنة ذراع ونصفٌ في ارتفاع شبر.

قال سلام الترجمان: وقد سألْنا من خاطبناه من أهل تلك الجهات هل رَأَوا أحدًا من يأجوج ومأجوج قطُّ، فأخبرونا أنهم رأَوْا منهم مرّة عددًا فوق شرُفات الردم، فهبَّتْ عليهم ريح عاصفة، فرمت منهم ثلاثة إلى ناحيتنا[٨]. وكان مقدار الرجل منهم شبرين ونصفًا.

---

(١) الغلق: ما يغلق به الباب، «المغلاق».

(٢) هذه رواية الإدريسي، والذي في رواية ابن خرداذبة «المسالك والممالك» «دندانكة» وهي كلمة فارسية معناها «سنّ» والمراد أسنان المفتاح.

(٣) الدستج: كلمة فارسية معناها «يد الهاون» أي المدق الذي تدقّ به الأشياء في الهاون.

(٤) الذي في رواية ابن خردازبة يفيد أنّ المفتاح وحده هو المعلّق في السلسلة وهذا نصّ روايته: معلّق في سلسلة ملجومة بالباب، طولُها ثماني أذرع في استدارة أربعة أشبار، والحلقة التي فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق، والمنجنيق: آلة من آلات الحصار ترمي الأسوار بحجارة كبيرة فتدكُّها.

(٥) الإرزبّة: المطرقة الكبيرة تكسر بها الحجارة، أو عصيّة من حديد.

(٦) المنّ: كيل أو ميزان بين ١٨٠ مثقالًا و٢٨٠ مثقالًا.

(٧) الديكدان: كلمة فارسية يقابلها عند العرب «الأثافي» حجارة الموقد.

(٨) في رواية ابن خرداذبة: فهبّت ريح سوداء فألقتهم إلى جانبهم، وهذا هو المعقول، لأن مقدار=

قال سلام: فكتبت هذه الصفاتِ كلَّها، ثم انصرفنا مع الأدِلّاء من تلك الحصون، فأخذوا بنا على ناحية خُراسان. فسرنا إلى مدينة بختان، إلى غُرْيان، إلى مدينة برساخان، إلى انطرار، إلى سمرقند، فوصلنا إلى عبد الله بن طاهر[1]، ثم وصلنا إلى الريّ، ثم رجعنا إلى سرّ من رأى بعد خروجنا عنها. فكان مغيبنا في سفرنا ثمانية وعشرين شهرًا.

قال: فهذا جميع ما حدّث به سلام.

وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبيّ في تفسيره: إن ارتفاع السدّ مائتا ذراع وخمسون ذراعًا. قال: وروى في طوله ما بين طرفي الجبل ين مائةُ فرسخ، وفي عرضه خمسون ذِراعًا. نقله عن وهب بن منبه.

وسنذكر إن شاء الله تعالى من أخبار السدّ وكيفية بنائه وطوله وعرضه، وغير ذلك مما هو متعلق به عند ذكرنا لأخبار ذي القرنين. فتأمّله هناك، وهو في الباب الأوّل من القسم الرابع من الفن الخامس في التاريخ، وهو في السفر الثاني عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا.

ذكر مباني الفُرْس المشهورة

ومباني الفرس كثيرة: قديمة وحديثة.

فمن قديمها «سَدُّ اللَّبِن». بناه قُبَاذ بن فيروز، وقيل إن الذي بناه ابنه كسرى بن قباذ بن فيروز. كذا ورد في التاريخ.

وهذا السدّ من أرض شَرْوانَ إلى بلاد اللّان، وبينهما مائة فرسخ، بين شعاب جبل القَبْق. وهو جبل عظيم قد اشتمل على اثنتين وسبعين أمّة، لكل أمّة لسان وملك، لا يعرف بعضهم بعضًا لكثرة غياضه وأشجاره؛ وفيه عيون وأنهار؛ وتقدير مسافته طولًا وعرضًا نحوُ شهرين.

= قامتهم الذي ذكره، يعني أنّه كان في رأي العين من هذا العلو.

(١) هو عبد الله بن طاهر بن زريق الخزاعي بالولاء، أبو العبّاس، أمير خراسان، ومن أشهر الولاة في العصر العباسي، ولّاه المأمون خراسان وظهرت كفاءته فألحق به أطراف تلك الناحية ومات في نيسابور وقيل في مرو سنة ٨٤٤ م وللشعراء فيه مدائح ومراثٍ كثيرة. «فهرس الأعلام ٤/ ٩٣، ٩٤».

ومبدأ السُّور من جوف بحر الخَزَر على مقدار مسافة ميل مارًّا إلى البرّ، ثم يمرّ إلى أن يتصل بقلعة طبر شروان. وهو مبنيّ بالصخر والحديد والرَّصاص. بناه على زِقَاق[١] البقر المنفوخة، فكان كلما ارتفع البناء نزلت تلك الزِّقاقُ إلى أن استقرّتْ في قعر البحر، فغاصتِ الرجالُ بالخناجر فشقُّوها فتمكن البناء. وجعل بين كل ثلاثة أميال من السور وأقل وأكثر بابًا من الحديد على حسب الطريق التي تجعل من أجله، وبنى عليه حصنًا وأسكن فيه مَنْ يحفظ ذلك الباب ويحرسه.

وزعم المؤرّخون أن سبب بنائه لهذا السور أن الخَزَر[٢] كانت تُغير على بلد فارس إلى أن تبلغ هَمَذان والموصل، فحجزهم بهذا السور.

ومن مباني الفرس إيوان كسرى

زعم المسعوديّ أن سابُورَذا الأكتاف بناه في نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع في عرض خمسين ذراعًا في ارتفاع مائة ذراع، وطول كل شُرْفة منه خمسة عشر ذراعًا.

ولما ملك المسلمون المداين، أحرق ستر هذا الإيوان فأخرجوا منه مائة ألف دينار ذهبًا.

ولما بنى المنصور بغداد، أحب أن ينقُضَه[٣] ويبنيها به، فاستشار خالد بن برمَك[٤] في ذلك فنهاه، وقال: «هو آية للإسلام، ومن رآه علم أن الذي بناه لا يُزِيل ملكه إلا نبيّ والمؤونة على نقضه أكثر من الارتفاق به». فقال له: «أبيتَ إلا ميلًا إلى العجم» فَهُدِمت منه ثلمةٌ[٥]. فبلغت النفقةُ عليها مالًا كثيرًا، فأمسك المنصور عن هدمه، فقال له خالد: «أنا الآن، يا أمير المؤمنين، أشير بهدْمه لئلا يتحدّث الناس بعجزك عن هَدْم ما بناه غيرك» فلم يفعل.

(١) الزّقاق: الجلد، والزّق: من الجلد، والتزقيق: السّلخ وقال أبو حنيفة: الزقّ هو الذي ينقل فيه. «انظر اللسان مادة زقق».

(٢) الخزر: هي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف «بالدّربند» قريب من سدّ ذي القرنين. «انظر معجم البلدان ٢/ ٣٦٧».

(٣) ينقضه: يهدمه.

(٤) هو خالد بن برمك بن جاماس بن يستافس، أبو البرامكة، وزير السّفاح وأبي جعفر المنصور، كان سخيًا عاقلًا سريًا فيه نبل مات سنة ٧٨٠ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٩٥».

(٥) الثّلمة: جانبٌ منه فيه تشقق.

وحكى مثل هذه القصة أنها وقعَتْ ليحيىٰ بن خالد مع الرشيد، وهو إذ ذاك في اعتقاله. وكان الرشيد بلغه أن تحته كنزًا فأراد هَدْمه واستشار يحيىٰ فأشار عليه بمثل هذا.

ومن عجيب ما يحكى من تقلب الأحوال أن بعض شُرُفاته هُدمت وجُعِلت في أساس سور بغداد.

وقال ابن الأثير[١] في تاريخه إن الإيوان باقٍ إلى الآن. (وكان يوم ذاك في سنة خمس وعشرين وستمائة)، والله أعلم.

ومن المباني القديمة الحَضْر

وكان حِصْنًا حصينًا مبنِيًّا بالرُّخام، يسكنه ملوك الضَّيَازن[٢]. وهو بين دَجْلة والفرات، بحيال تكريت.

ويقال إن بانيه الساطِرون[٣]. وذُكِر أن قصر ملكه قائمٌ إلى وقتنا هذا في وسط المدينة، وفي وسطه هيكلٌ مربَّع مبنيّ بالصخر، وفيه صور دقيقة المعاني.

حكى أن سابورَ الجنودِ حاصره أربع سنين فلم يقدر عليه. واتفق أن بنت ملكه وهي النضرة[٤] بنت الضَّيْزَن حاضت، فأُخْرِجت من القصر إلى رَبَضه لأجل ذلك. فرأت سابورَ، وكان جميل الصورة، فعِشقته. فأرسلت إليه تقول: إن ملَّكْتك الحصن فما تجعل لي؟ قال: حَكَّمتك. قالت: تتزوّجُ بي. فأجابها إلى ذلك، فقالت له: خُذْ حمامة ورقاء[٥] مطوّقةً، فاخْضِب رجليها بدم حيض جاريةٍ بكر زرقاءَ، وأرسِلْها. فإنها تقع على سور البلد فيقع لوقته. وكان ذلك حلَّ طِلَّسْم[٦] له. ففعل ذلك، فوقع السُّور ودخل سابور الحصن وقتل مِلِكَه وأصحابَه واصطفَى ابنته لنفسه. فلما كانت ليلةُ دخولها عليه، لم تزل متململة قَلِقة طول ليلتها، فالتمس سابورُ ما الذي قلِقَتْ من

---

(١) هو علي بن محمد، أبو الحسن عزّ الدين بن الأثير الجزري، المؤرّخ الإمام، من العلماء بالنّسب والأدب، ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر، وسكن الموصل، من تصانيفه الكامل، وأسد الغابة في معرفة الصحابة توفي سنة ١٢٣٣ م. «فهرس الأعلام ٤/٣٣١».

(٢) الضّيزن: قوم مثل المجوس، يتزوّج الرّجل منهم امرأة أبيه وامرأة ابنه. «اللسان مادة ضزن».

(٣) السّاطرون: أحد ملوك الضّيزن.

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٢/٢٦٨ «النضيرة بنت الضّيزن».

(٥) الورقاء: الحمامة يشوب سوادها بياض، والمطوّقة: ذات الطّوق.

(٦) الطلسم: خطوط وأعداد يستعملها السّحرة.

أجله، فإذا ورقةُ آس[١] قد لصِقتْ بعُكْنة[٢] من عُكَنها، فقال لها: ما كان أبُوك يغْذُوك؟ فقالت: الزُّبد والمُخ وشُهد أبكار النحل والخمر، فقال لها: أنا أحقُّ منكِ بثأر أبيكِ، ثم أمر رجلًا أن يركب فرسًا جَمُوحًا وأن يربِطَ غدائرها[٣] في ذَنَبه ويركُض به. ففعل ذلك، فتقطَّعت.

وهذا الحصن قد اختُلِف في موضعه. فقيل: بحيال تَكْريت بين دَجْلة والفرات. وقيل: بالجزيرة. ويقال إنه كان حاجزًا بين الرُّوم والفُرس، وملكَتْه الزَّبّاء بنت مليح[٤] واسمها فارعة.

وفيه يقول عديّ بن زيد العِبَاديّ[٥] من قصيدة: [من الخفيف]

وأخو الحَضْر إذ بَنَاه وإذ دِجْـ ـلةُ تُجْبى إليه والخابُورُ[٦]
شادَهُ مَرْمرًا وكَلَّله كِلْـ ـسًا فللطَّير في ذُراه وُكُور[٧]
لم يَهَبْه ريب المنون فباد الْـ ـمُلْك عنه فبابُه مهجُورُ

ومن المباني القديمة القَلِيس

وهي كنيسة كانت باليمن بناها أبرهة بن الصباح، ملك اليمن بصنعاء. ونقل إليها الرخام المجزَّع[٨] والملوَّن، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بِلْقِيس. وكان أراد أن يرفع بناءها حتَّى يشرِف منها على بحر عدن. فلما أهلكه الله تعالى وفرّق ملكه، أقفر ما حول هذه الكنيسة، وكثُرت حولها السِّباع والحَشَرات. وبقيت إلى زمن

(١) الآس: نبات ذو ثمار كروية بيضاء وسوداء، ورقه عطر، خضرته دائمة يسمّى أيضًا الرّيحان.
(٢) العكنة: ما انطوى من لحم وتثنّى بعضه فوق بعض سُمنًا.
(٣) الغدائر: جمع غديرة، وهي الشعر المضفور من شعر المرأة.
(٤) كذا في الأصل: «بنت فريح» وهي الزّبّاء بنت عمرو بن الظرب بن حسّان بن أذينة بن السّميدع، الملكة المشهورة في العصر الجاهلي، صاحبة تدمر وملكة الشام والجزيرة، أمّها يونانيّة من ذرّيّة كليوبترا ملكة مصر، كانت غزيرة المعارف بارعة الجمال، تحسن أكثر اللّغات الشائعة في عصرها، وكتبت تاريخًا للشرق، ماتت نحو سنة ٢٨٥ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٤١».
(٥) هو عديّ بن زيد بن حمّاد بن أيّوب، من زيد مناة بن تميم، وكان يسكن الحيرة ويدخل الأرياف، فثقل لسانه، واحتُمل عنه شيء كثير جدًا، وعلماؤنا لا يرون شعره حُجّة. «الشعر والشعراء ص ١٣٠».
(٦) الخابور: هو القاع الذي ينبت السّدر، وهو الأرض الرّخوة، وهو هنا اسم لنهر الخابور، وهو نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة. «انظر معجم البلدان ٢/ ٣٣٤».
(٧) الوكور: جمع وكر وهو البيت أو «العش» للطير.
(٨) المجزّع: الذي حكّ بعضه ببعض حتى ابيضّ الموضع المحكوك منه.

السَّفَّاح فذُكر له أمرها، فبعث إليها من خَرّبها وأخذ ما كان فيها. حكى ذلك السهيلي[1] في «الروض الأنف».

وحكى أن كيفية بناء هذه الكنيسة أنه كان لها بابٌ من نحاس طولُه عشرة أذرع وعَرْضه أربعةَ أذرع، يدخل منه إلى بيتٍ طوله ثمانون ذراعًا وعرضه أربعون ذراعًا، مسقَّف بالساج[2] المنقوش، مسمَّر بمسامير الذهب والفِضَّة. ثم يُدْخَل من البيت إلى إيوانٍ معقود طوله أربعون ذراعًا، عن يمينه ويساره عُقود مزخْرَفة. ثم يُدخَل من الإيوان إلى قبَّة، ثلاثون ذراعًا في ثلاثين ذراعًا، جُدُرها مموَّهة بالذهب والفضة. وفي صدر القُبَّة مِنْبر من الآبنُوس[3] المرصَّع بالعاج، المصفَّح بالذهب والفضة. ولما تم بناؤها، خرج رجلٌ من بني كنانة فقعد فيها لَيْلًا (أي أحدث)، فأغضب أبرهةَ ذلك، فحلف ليهدِمنّ الكعبةَ، فخرج بجيشٍ كثيفٍ من الحبشة، فكان من أمره ما قصّه الله تعالى في كتابه العزيز في سورة النمل: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥١ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥٢﴾ [النمل: الآيات ٥٠ - ٥٢].

وذُكر لي أن الذي خَرَّبها العباسُ بن الربيع بن عبد الله العامريّ، عامل المنصور على اليمن.

ومن المباني المشهورة قنطرة صَنْجَة

وهي من مباني الروم على نهر عظيم يسمَّى بهذا الاسم. يصُبُّ في الفُرات، لا يمكن خوضه: لأن قراره[4] رمل سائل متى وطئه الإنسان برجله سال. وهو ما بين حِصن منصور وكَيْسوم من ديار بكر.

وهذه القنطرة طاقٌ[5] واحد، ما بين جُدْرانها مائةُ خَطْوة. وهي مبنية بحجارة مهندَمة، طول الحجر منها عشرة أذرع في ارتفاع خمسة أذرع.

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن عبد الله الخثعمي السّهيلي، عالم باللغة والسِّير، ضرير، ولد في مالقة وعمي وعمره ١٧ سنة، ونبغ فاتصل خبره بصاحب مراكش فطلبه. «فهرس الأعلام ٣/٣١٣».
(٢) السّاج: ضربٌ من الشجر، يعظم ويذهب طولًا وعرضًا وله ورقٌ كبير، وخشبه أسود جيّد.
(٣) الآبنوس: شجر ينبت في الحبشة والهند، خشبه صلبٌ أسود، ويصنع منه الآثار وغيره.
(٤) القرار: القعر.
(٥) الطاق: ما جعل من الأبنية كالقوس في القناطر والنوافذ.

ومن المباني القديمة مَلْعبا بعلبك

وهما كبير وصغير.

فالكبير، يُحكى أنه من بناء سُلَيمان بن داود عليهما السلام. وهو مبنيٌّ على عَمد شاهقة. وحجارتُه منها ما هو عشرة أذرع وأكثر.

والمَلْعَب الصغير تهدّم أكثره، وبقي منه حائط طوله عشرون ذراعًا وارتفاعه كذلك. ليس فيه إلا سبعة أحجار: واحد من أسفله، وحجران فوقه، وأربعة أحجار فوقهما.

ويقال إنه البيت الذي كان فيه الصنم الذي كان يدعى «بعلًا»(١).

ذكر مباني العرب المشهورة

وهي غُمْدان، وحصن تَيْما، والخوَرْنَق، والسَّدِير، والغَرِيَّانِ.

قال الجاحظ: أحبَّت العرب أن تشارك الفرس في البناء وتنفرِد بالشعر، فبَنَوْا: غُمْدان، وكعبة نَجْران، وحِصن موارِد، والأبْلَقَ الفردَ.

فأما غُمْدان

فكان بصنعاء. زعم بعض المؤرّخين أن بانيه حام بن نوح. وزعم آخرون أن بيوراسب(٢) بناه على اسم الزُّهَرة.

وقال ابن هشام إن الذي أسسه يَعْرُب بن قَحْطان، وأكمله بعده وائلُ بنُ حِمْير بن سبإٍ بن يعرب. وخَرَّبه عثمانُ بن عَفَّان، رضي الله عنه.

وقيل في صفته إنه كان مُرَبَّعًا، أحدُ أركانه مبنيّ بالرخام الأبيض، والثاني بالرُّخام الأصفر، والثالث بالرخام الأخضر، والرابع بالرُّخام الأحمر. وفيه سبعة سُقُوف طِباقًا، ما بين السَّقْف والآخر خمسون ذراعًا. وعلى كل ركن تِمْثالُ أسدٍ من نُحاس، إذا هبَّت الريح دخلت من دُبُره وخرجت مِنْ فيه، فيسمعُ لها صوت كزَئير الأسد.

---

(١) البعل: الرّب والإله والمالك.

(٢) بيوراسب: من ملوك الطبقة الأولى «القيشداذية في فارس» ويعرف بالدّهّاك، ومعناه: عشر آفات، والعامة تسمّيه الضّحاك، وكان جائرًا ظالمًا، ويقال: إنّه كان قبل الطوفان. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٤١٠».

وقال ابن الكلبيّ: كان على كل ركن من أركان غُمْدان مكتوب «أسلَمْ غُمدانُ، مُعاديك مقتولٌ بسيف العُدْوانْ».

ويقال: إن سليمان بن داود عليهما السلام أمر الشياطينَ أن يبنُوا لبِلْقِيسَ أربعة قصور: غُمْدان، وصِرْواح، وبَيْنِين، وسَلْحِين. وكلُّها باليمن.

ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: لا يستقيمُ أمر العرَب ما دام فيها غُمْدانها. وهذا القول هو الذي حضَّ عثمان على هدمه.

ويقال إن آثاره باقية إلى عصرنا هذا، وإنه تلٌ عالٍ مطلٌ على صنعاء.

وأما حصن تَيْماءَ

فهو الأبلَقُ الفَرْد. سمِّي بالأبلق الفرد لأنه كان مبنيًّا بحجارة مختلفة الألوان وهو بأرض تَيماء(١).

بناه السمَوْءل بن عاديا اليهوديّ. ويقال إنه من بناء سليمان بن داود عليه السلام.

وبه تضرب العربُ المَثَل في المَنَعة والحَصَانة. وفيه يقول الشاعر: [من الخفيف]

طَلَبَ الأبْلَقَ العَقُوقَ فلَمَّا ... لم يَنَلْهُ أراد بَيْضَ الأَنُوقِ(٢)

وقصدت الزَّبَّاءُ هذا الحصن وحِصْنَ ماردٍ فلم تقدر عليهما، فقالت: «تمرّدَ ماردٌ وعَزَّ الأبْلَقُ».

ومارد حصن كان بدُومَة الجَنْدل، مبنيّ بحجارةٍ سود. ويقال إنه أيضًا من بناء السموءل بن عاديا، اليهوديّ.

وأما الخَوَرْنق والسَّدِير

فكان الخورنق على ثلاثة أميال من الحِيرة، والسَّدِير في برّيةٍ بالقُرْب منها.

---

(١) تيماء: بليد في أطراف الشام، بين الشّام ووادي القرى على طريق حاجّ الشام ودمشق والتيماء: الأرض التي لا ماء فيها. «معجم البلدان ٢/ ٦٧».

(٢) الأبلق: الفحل إذا جاءت أولاده بلقًا، وهو من ذكور الخيل، والعقوق: الحامل، وهذا مثل لما لا يكون «الأبلق العقوق» أي ذكر الخيل لن يكون حاملًا، والأنوق: العقاب أو الرّخمة.

بناهما النعمان بن امرىء القيس، وهو النعمان الأكبر. ويقال في سبب بنائه لهما: إن يَزْدَجُرْد بن سابور[١] كان لا يَعِيش له ولد، فسأل عن مكانٍ صحيح الهواء. فذُكر له ظَهْرُ الحِيرة. فدفع ابنه بَهْرام جُور إلى النعمان وأمره ببناء الخورنق. فبناه على نهر سنداد في عشرين سنة. بناه له رجل يسمّى سِنِمّار.

فلما فرغ من بنائه، عَجِب النُّعمانُ من حسن بنائه وإتقانه، فأمر أن يلقى سِنِمّار من أعلاه حتّى لا يبنِيَ مثله لأحد. ويقال: إنه إنما فعل ذلك به لأنه لما أعجبه، شَكَره على عمله ووَصَله، فقال: لو علمتُ أن الملك يحسن إليّ هذا الإحسان، لبنيتُ له بناء يَدُور مع الشمس كيفما دارت، فقال له النعمان: وإنك لتقدِر على أن تبنِيَ أفضل منه، ولم تبنه؟ فأمر به؛ فطُرِح من أعلاه.

وقيل: بل قال: أنا أعرف فيه حجرًا متى أُخذ من موضعه، تداعى البِناء. فخاف النعمان إن هو لم يُنْصفه في أجرته فعل ذلك، فقتله.

والعرب تضرب المثل بفعل النُّعمان مع سِنمّار في المكافأة على الفعل الحَسَن بالقبيح، فيقال: جازاه مُجَازاة سِنِمَّار.

وفيه يقول بعض الشعراء: [من الطويل]

جَـزَانِـي جَـزَاه اللهُ شَـرّ جَـزَائـه   جَزَاءَ سِنمَّارٍ، وما كانَ ذَا ذَنْبِ
سوى رفعِه البُنيانَ عِشْرينَ حِجَّةً   يُعَلِّي عليه بالقَرَامِيدِ والسَّكْبِ[٢]

والْخَوْرنق تعريب خُورَنْقاه[٣]، وهو الموضع الذي يؤكَل فيه ويشرَب. والسَّدِير تعريب سادل أي قُبَّة في ثلاثِ قِباب متداخلة.

وفي هذه الأبنية يقول الأسود بن يَعْفُر[٤]: [من الكامل]

مـاذا أُؤَمِّـلُ بَـعْـد آلِ مُـحَـرِّقٍ   تَـرَكُـوا مـنـازِلَهُـمْ، وبَـعْـدَ إيـاد؟
أهـلِ الْخَـوَرْنَـقِ والـسَّـدِيـر وبـارِقٍ   والقَصْرِ ذِي الشُّرُفاتِ من سِنْداد

---

(١) هو يزدجرد بن سابور من أسرة الطبقة الرّابعة الفارسية «الأكاسرة» ويُعرف بالأثيم. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٤١٣».
(٢) عشرين حجّة؛ أي عشرين عامًا، والسّكب: النّحاس أو الرّصاص.
(٣) الأصح: «خانقامه» من هامش الأصل.
(٤) هو الأسود بن يُعفُر، شاعر جاهلي من بني حارثة بن سلمى بن جندل بن نهش بن دارم، ويكنّى أبا الجرّاح، وكان أعمى، ولا عقب له. «الشعر والشعراء ص ١٥٢».

وقال عديّ بن زيد العِبَاديّ: [من الخفيف]

وتَـفَـكَّـرْ رَبَّ الـخـوَرْنَـقِ إذْ أشْـ ـرفَ يَـوْمًـا، وَلِلهُـدى تَـفْـكـيـرُ
سَـرّه مُـلْكُـه وكـثْـرةُ مـا يَـحْـ ـويه والـبـحرُ مُـعْـرِضًـا والـسَّـدِيـرُ
فـارْعَـوى قـلْبُـه، فـقـال: فـمـا غِـبْـ ـطة حَـيٍّ إلى الـمَـمَـات يَـصِـيرُ»[١]

وأما الغَرِيَّانِ

فهما أسطوانتان كانتا بظاهر الكوفة.

بناهما النعمان بن المنذر بن ماء السماء، على جاريتين كانتا قَيْنتيْنِ تَغنّيان بين يديه. فماتتا، فأمر بدفنهما وبنى عليهما الغريَّيْنِ.

ويقال إن المنذر غزا الحارث بن أبي شَمِرٍ الغَسَّانيّ، وكان بينهما وقعة على عين أُبَاغ[٢]، وهي من أيام العرب المشهورة. فقُتِل للحارث ولدان، وقُتِل المنذر وانهزمت جيوشه. فأخذ الحارث ولَدَيْه وجعلهما عِدْلين على بعير، وجعل المنذر فوقهما، وقال: «ما العِلَاوة بِدُون العِدْلين!» فذهبت مثلًا. ثم رحل إلى الحيرة فانتهبها وحَرَّقها ودفن ابنيه بها، وبنى الغَرِيَّين عليهما. حكاه ابن الأثير في تاريخه «الكامل».

وأمر المنصور بهدم أحدهما، لكنز توهَّم أنه تحتهما. فلم يجد شيئًا.

وقيل في سبب بنائهما غير ذلك. والله أعلم.

ذكر الأبنية القديمة التي بالديار المصرية

وهي الأهرام، وحائط العَجُوز، ومَلْعب أُنْصِنا، ومدينة عَيْنِ شَمْس، والبَرابي، وحَنِيَّة اللازَورد، ومنارة الإسكندرية، ورُواق الإسكندرانيِّين.

فأما الأهرام

التي بأرض مصر فهي كثيرة. وأعظمها الهَرَمان اللذان بالجيزة غَرْبيّ مصر. وقد اختلف في بانيهما.

---

(١) ارعوى: كفّ وارتدع، والغبطة: السّرور والسعادة.

(٢) عين أباغ: إن كان عربيًا فهو من بغى يبغي بغيًا، وقال أبو الحسين التميمي النسّابة: وكانت منازل إياد بن نزار بعين أباغ، وأباغ: رجل من العمالقة نزل ذلك الماء فنُسب إليه، وعين أباغ: ليست بعين ماء، وإنّما هو وادٍ وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشّام. «معجم البلدان ٤/ ١٧٥».

فقال قوم: بانيهما سُورِيد بن سهلوق بن سرناق. بناهما قبل الطوفان لرؤيا رآها، فقصَّها على الكَهَنة، فنظروا فيما تدل عليه الكواكب النيرة من أحداث تحدث في العالم، فأقاموا مراكزها في وقت المسألة. فدلت على أنها نازلة من السماء تحيط بوجه الأرض. فأمر حينئذٍ ببناء البَرَابي[١] والأهرام، وصوّر فيها صُور الكواكب ودَرَجها وما لها من الأعمال وأسرار الطبائع والنواميس[٢] وعمل الصنعة.

ويقال إن هرمس المثلث بالحكمة (وهو الذي يسميه العبرانيون أَخْنُخ، وهو إدريس عليه السلام) استدلّ من أحوال الكواكب على كَوْن الطوفان. فأمر ببناء الأهرام وإيداعها الأموال وصحائفَ العلوم وما يُخاف عليه الذهابُ والدُّثور[٣].

وكل هَرَم منها مربع القاعدة، مخروط الشكل، ارتفاع عموده ثلثمائة ذراع وسبعة عشر دراعًا، يحيط به أربعة سطوح متساوياتُ الأضلاع، كل ضِلَع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعًا، ويرتفع إلى أن يكون سطحُه مقدارَ ستة أذرع في مثلها.

ويقال إنه كان عليه حجر شبه المِكَبَّة[٤] فرمته الرياح العواصف.

وهو مع هذا العظم من إحكام الصنعة وإتقان الهندسة وحسن التقدير بحيث إنه لم يتأثر إلى يومنا هذا بعصف الرياح وهطل الأمطار وزَعْزَعة الزلازل؛ وطولُ الحجر منه خمسة أذرع في سَمْك ذراعين.

ويقال إن بانِيهما جعل لهما أبوابًا على آزاج[٥] مبنيةٍ بالحجارة في الأرض، طول كل أَزَج منها عشرون ذراعًا. وكل باب من حجر واحد يدور بلولب[٦]، إذا أطبق لم يعلم أحد أنه باب. فأَزَجُ الشرقيّ منها في ناحية الجنوب، وأَزَجُ الغربيّ في ناحية الغرب. يُدْخَل من كل باب منها إلى سبعة بيوت، كل بيت منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة؛ وكلها مُقْفلة بأقفال. وحِذاءَ كل بيت منها صنم من ذهب مجوّف، إحدى يديه على فيه، وفي جبهته كتابةٌ بالمُسْنَد[٧] إذا قرئت انفتح فوه فتوجد فيه مفاتيح ذلك القفل فيفتح بها.

---

(١) البرابي: بيوت حكمة القبط، يجلس فيها الكهنة على كراسٍ من ذهب.
(٢) النواميس: بيوت العبادة والوحي، والنّاموس: الشريعة.
(٣) الدّثور: البلى والفناء.
(٤) المكبّة: ما جمع من الغَزْل، على شكل كرة أو أسطوانة.
(٥) آزاج: مفردها آزج، وهو بناء مستطيل مقوّس السّقف.
(٦) اللولب: أداة من خشب أو حديد ذات محور، منه دوائر حلزونيّة ناتئة أو داخلة.
(٧) المُسند: خطّ لحمير باليمن، مخالف لخطّنا هذا.

والقبط يزعمون أنها والهرمَ الصغير الملوّن قبورٌ: فالهرم الشرقيّ فيه سوريد الملك، وفي الهرم الغربيّ أخوه هوحيت[١].

والصابئة[٢] تزعم أن أحدها قبر أغاثُذِيمُون، والآخر قبر هرمس، والملوّن قبر صاب بن هرمس؛ وإليه تنسب الصابئة على قول من زعم ذلك منهم؛ وهم يحجُّون إليها ويذبحون عندها الدِّيكة والعجول السُّودَ، ويُبَخرون بدُخَن[٣]؛ ويزعمون أنهم يعرفون عند اضطراب ما يذبحون حالةَ الذبح ما يريدن عمله من الأمور الطبيعية.

وقَصُرت هممُ الملك والخلفاء عن معرفة ما في هذين الهرمين، إلى أن وَلى عبد الله المأمون الخلافةَ وورد مصر، أمر بفتح واحد منها. ففتح بعد عناء طويل، واتفق لسعادته أنه وقع النَّقْب على مكان يسلك منه إلى الغرض المطلوب، وهو زَلَّاقة[٤] ضيقة من الحجر الصوّان الماتع[٥] الذي لا يعمل فيه الحديد، بين حاجزين ملتصقين بالحائط قد نُقِر في الزَّلَّاقة حُفَر، يتمسك السالك بتلك الحفر، ويستعين بها على المشي في الزَّلَّاقة لئلا يَزْلَق، وأسفل الزلاقة بئر عظيمة بعيدة القعر. ويقال إن أسفل البئر أبواب يُدْخَل منها إلى مواضع كثيرة وبيوت ومخادع وعجائب. وانتهت بهم الزَّلَّاقة إلى موضع مربَّع في وسَطه حوض من حجر صَلْد مغطًّى. فلما كُشِف عنه غطاؤه، لم يوجَدْ فيه إلا رِمّة[٦] بالية. فأمر المأمون بالكف عما سواه.

وهذا الموضع يدخله الناس إلى وقتنا هذا.

وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر الأهرام عند ذكرنا لأخبار ملوك مصر الذين كانوا قبل الطوفان وبعده، وذلك في الباب الثاني من القسم الرابع من الفن الخامس، وهو في السفر الثاني عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك.

وقال بعض أهل النظر، وقد عاين الأهرام: «كلُّ بناءٍ يُخاف عليه من الدّهر، إلا هذا البناء فإني أخاف على الدّهر منه».

---

(١) كذا بالأصل، وكذلك في خطط المقريزي «وفي معجم البلدان لياقوت ٥/ ٤٠٠» فلمّا مات سويد دفن في الهرم الشرقي، ودفن «هوجيب» في الهرم الغربي.

(٢) الصّابئة: قومٌ يعبدون النجوم يقولون: إنهم على ملّة نوح عليه السّلام.

(٣) الدّخن: نبات عشبي من النّجيليات، حبّه صغير، أملس كحبّ السمسم.

(٤) الزلّاقة: الموضع الذي لا تثبت عليه القدم. (٥) الماتع: الطويل الجيد.

(٦) الرمّة: العظام البالية.

ونظم عمارة اليمنيّ[١] هذا القول، فقال: [من الطويل]

خَليلَيَّ، ما تَحْتَ السماءِ بَنِيَّةٌ ... تُماثِلُ في إتْقانِها هَرَمَيْ مِصْرِ!
بِناءٌ يَخافُ الدّهرُ منه، وكلُّ ما ... على ظاهر الدنيا يَخاف من الدّهْرِ!
تَنَزَّه طَرْفِي في بَدِيع بنائها ... ولم يتَنَزَّهْ في المُراد بها فكْرِي

وقال بعض الشعراء: [من الكامل]

حَسَرتْ عقُولَ ذَوِي النُّهى الأهْرامُ ... واستصغرتْ لعظيمها الأعْلامُ[٢]
مُلْسٌ مُنَيَّفَةُ البِناءِ شَواهِقٌ ... قَصُرت لعالٍ دُونهنّ سِهامُ![٣]
لم أدْر حين كَبا التفَكُّرُ دُونَها ... واستَبْهَمَتْ لعَجيبها الأوهامُ[٤]
أقُبورُ أملاكِ الأعاجم هنّ، أمْ ... طِلَّسْمُ رَمْلٍ هُنّ، أم أعلامُ؟[٥]

وقال أبو الطيّب المتنبي: [من الكامل]

أيْنَ الذي الهَرَمان من بُنْيانِهِ؟ ... ما قَوْمُه؟ ما يَوْمُه؟ ما المَصْرَعُ؟
تتخَلَّفُ الآثارُ عن أصْحابِها ... حِينًا، ويُدْرِكُها الفَناءُ فتَتْبَعُ

وقال أُميَّة بن عبد العزيز الأندلسيّ: [من الطويل]

بعَيْشِكَ هلْ أبصَرْتَ أحْسَنَ مَنْظَرًا ... على طُولِ ما عايَنْتَ من هَرَمَيْ مِصْرِ؟
أنَافَا بأعْنانِ السَّماء وأشْرَفا ... على الجوّ إشْرافَ السِّماكِ أو النَّسْرِ[٦]
وقد وافَيا نَشْزًا من الأرض عاليًا ... كأنّهما ثَدْيانِ قامَا على صَدْرِ[٧]

وقال آخر: [من الكامل الأحذّ]

أُنْظُرْ إلى الهَرَمَيْنِ إذ بَرَزَا ... للعَيْنِ في عُلْوٍ وفي صَعَدِ!

---

(١) هو عمارة بن علي بن زيدان الحكمي المذحجي اليمني، أبو محمد، مؤرّخ ثقة، وشاعر فقيه أديب، ولد في تهامة، قدم مصر برسالة من القاسم بن هشام أمير مكة إلى الفائز الفاطمي، فأحسن الفاطميون إليه وبالغوا في إكرامه، فأقام عندهم ومدحهم مات سنة ١١٧٤ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٣٧».

(٢) النّهى: جمع نهية، وهي العقل، وحسرت: أتعبت.

(٣) المنيفة: المرتفعة. (٤) كبا: تعثّر.

(٥) الطّلّسم: الخطوط والأعداد التي يستعملها السَّحرة.

(٦) أنافا: ارتفعا، والسّماك: نجم منير يكون في الشمال أو الجنوب، والنّسر: مجموعة من النجوم معروفة بمشابهتها للنسر.

(٧) النّشز: المرتفع من الأرض.

وكـأنـمـا الأرضُ الـعَـرِيـضـةُ إذ ظَـمِـئَـتْ لـفَـرْط الـحَـرِّ والْوَمَـدِ(١)
حَـسَـرتْ عـن الـثَّـدْيَـيْـنِ بـارِزةً تَـدْعُـو الإلـٰـهَ لـفُـرْقـة الـوَلَـدِ
فـأجـابـهـا: لَبَّـيْـكِ! يُـوسِـعـهـا رِيًّـا ويَـشْـفِـيـهـا مـن الـكَـمَـدِ(٢)

وقال ابن الساعاتيّ(٣): [من الكامل]

ومن العَجائبِ، والعَجائبُ جَمَّةٌ دَقَّـتْ عـن الإكْـثـارِ والإسْـهـابِ
هَـرَمـان قـد هَـرِمَ الزمانُ وأدبَرتْ أيّـامُـه، وتَـزِيـدُ حُـسْـنَ شَـبـابِ
لِلَّهِ! أيُّ بَـــنِـــيَّـــةٍ أزليَّـــةٍ تَبْغِي السَّماء بأطولِ الأسْبابِ؟
ولَـرُبَّـمـا وقـفَـتْ وُقُـوفَ تَـبـلُّدٍ أسَـفًـا عـلى الأيّـامِ والأحْـقَـابِ
كَتمَتْ عن الأسماع فَصْل خطَابِها وغـدَتْ تُـشِـيـر بـه إلـى الألْـبـاب

وقال سيف الدين بن جُبارة(٤): [من الكامل]

لله! أيُّ غـريـبـةٍ وعـجـيـبـةٍ فـي صَـنْـعـة الأهْـرام لـلألـبـاب؟
أخفَتْ عن الأسماعِ قِصَّة أهلها ونَضَتْ عن الإبْداعِ كلَّ نِقابِ(٥)
فـكـأنَّـمـا هـي كـالـخِـيـام مُـقـامـةً مـن غـيـر مـا عَـمَـدٍ ولا أَطْـنـابِ

ومن رسالة لضياء الدين بن الأثير الجزريّ في ذكر مصر ووصف الأهرام، جاء منها: بلدٌ أشهَدُ بفضله على البِلاد، ووجدتُه هو المصرَ وما عداه فهو السَّواد. فما رآه راءٍ إلا ملأ عينَه وصدرَه، ولا وصفه واصف إلا علم أنه لم يقدُرْه قَدْره. وبه عجائبُ من الآثار، لا يضْبطها العِيَان ولا الإخبار. فمن ذلك الهَرَمان، اللذان هَرِم الدهرُ وهما

---

(١) فرط الحرّ: شدّته، والومد: شدّة حرّ اليوم والليل.

(٢) يوسعها: يجود عليها بسعة، والرّيّ: الإرواء، والكمد: الحزن والغمّ.

(٣) هو علي بن محمد بن رستم بن هردوز، أبو الحسن، شاعر مشهور، خراساني الأصل، ولد ونشأ في دمشق، تعانى الجنديّة وسكن مصر وتوفي بالقاهرة سنة ١٢٠٨ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٣٣٠».

(٤) هو علي بن إسماعيل بن إبراهيم بن جبارة الكندي السخاوي، أبو الحسن شرف الدّين، شاعر مصري ولد في سخا، وتوفيّ بالقاهرة، سنة ١٢٣٥ م، وكفّ بصره آخر عمره، له شعر رقيق، وكتاب سمّاه نظم الدرّ في نقد الشعر، انتقد به شعر ابن سناء الملك، وقد نعته المؤلف «بسيف الدين - والذي في فهرس الأعلام، مشرف الدين». «فهرس الأعلام ٤/ ٢٦٤».

(٥) نضت: يقال: نضامن الشيء: أخرج منه، والنّقاب: القناع تجعله المرأة على مارن أنفها تستر به وجهها، ونضا الثوب: خلعه.

لا يَهْرَمان؛ قد اختص كل منهما بعظم البِناء، وسَعةِ الفِناء؛ وبلغ من الارتفاع غايةً لا يبلغها الطيرُ على بُعْد تحليقه، ولا يُدرِكها الطَّرْف على مدّة تحديقه؛ فإذا أُضْرِم برأسه قَبَسٌ[١] ظنه المتأمل نَجْمًا، وإذا استدارت عليه قوسُ السماء كان لها سَهْمًا».

وبالقرب من الأهرام صنم على صورة إنسان، تسميه العامّة «أبو الهول» لعظمه. والقبط يزعمون أنه طِلَّسم للرمل الذي هناك، لئلا يغلب على أرض الجيزة.

وأما حائط العجوز

والعجوز هي دَلُوكا ملكة مصر.

وهذا الحائط من العريش (وهو حدّ مصر من جهة الشام) إلى أسوان (وهي حدّ مصر من جهة النوبة)، شاملًا للديار المصرية من الجانب الشرقيّ.

وزعمت القبط أنّ سبب بنائها أن الله عزَّ وجلّ لما أغرق فرعونَ وقومه، خافت دَلُوكا على مصر أن يطمع الملوكُ فيها. فبنته، وزوّجت النساءَ بالعبيد حتَّى يكثر النَّسل والذرّية.

وقيل في سبب بنائه: إن دَلُوكا ولدت ولدًا فأخذت لمولده رصدًا[٢]، فرأت أن التمساح يقْتُله، فبنت هذا الحائط وقايةً له من التِّمساح. فلما شبّ الغلام رأى في مولده ذلك، فأحب أن يراه. فصُوِّر له من خشب. فلما رآه، هاله منْظَرُه واستولى على نفسه الوهم والفزع، فمات[٣].

وأما ملعب أنْصِنا

فإنه كان مقياسًا للنيل.

ويقال: إنه من بناء دَلُوكا. وكان بناؤه كالطَّيْلسان[٤]، وعليه أعمدةٌ بعدد أيام السنة من الصوّان الأحمر الماتع، بين العمود والعمود خَطْوة. وكان النيل يدخل إليه من فُوهَةٍ فيه عند زيادة النيل. فإذا بلغ الحدّ الذي يحصُل به الرّيّ، جلس الملك في

---

(١) القبس: النار، أو شعله.

(٢) الرّصد: اسم لموضع تعيّن فيه حركات الكواكب.

(٣) انظر ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ١/ ٢٣٩، حيث لم يرضَ بذكر هذه الخرافة في كتابه.

(٤) الطيلسان: معرّب فارسي، وأصله «تالشان» والطيلسان: كساء أخضر لا تفصيل له ولا خياطة.

مُشْترف له، ويصعد قوم إلى رؤوس الأعمدة فيتعادَوْن[١] عليها ما بين ذاهب وآت. فمن زلّت به قدمه منهم، سقط إلى البِرْكة.

وأما مدينة عين شمس

فهي من المباني التي دَرَستْ.

وكانت مصرَ فرعونِ موسى، ومنها خرج بجنوده في طلب موسى وبني إسرائيل؛ وكانت عدّتهم ستمائة ألف، ليس فيهم ابن عشرين سنة ولا ابن ستين سنة واستقلَّ فرعون هذا العدد وقال كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٥٤]. وكان بها هيكل الشمس فخرِب.

والفُرس تزعم أن هرسيك بناها.

ويقال: إنه كان قد بقي منها عمودان من حجر صلد، فَلَكاتُ[٢] طولِ كل عمود منهما أربعة وثمانون ذراعًا، على رأس كل عمود صورةُ إنسان على دابة، وعلى رأسيهما شبهُ الصومعتين[٣] من نحاس. فإذا كان (النِّيْلُ)، قَطَر من رأس كل واحد منهما ماء لا يتجاوز نصف العمود الذي هو مركّب عليه. والموضع الذي يصل إليه الماء لا يزال أخضر رطبًا.

وقد وقع العمودان بعد الخمسين وستمائة.

وأما البرابي

وهي بيوت حكمة القبط. ويقال: إنه كان لكل كُورة من كُوَر مصر بِرْباةٌ، يجلس فيها كاهن على كرسيّ من ذهب.

ومن أعجب البرابي وأعظمها (برباةُ إخميم). وهي مبنية بحجر المَرْمر[٤]، طول كل حجر خمسة أذرع في سَمك ذراعين. وهي سبعة دهاليز، سقوفها حجارة، طول كل حجر منها ثمانية عشر ذراعًا في عرض خمسة أذرع، مدهونة باللازَورد[٥] وسائر

(١) يتعادون: من العدو، وهو الجري.
(٢) الفلكة: القطعة المستديرة ترتفع عمّا حولها.
(٣) الصومعة: مكان منفرد يسكنه الزّاهد أو المتعبّد ابتعادًا عن الناس وشؤون الدنيا.
(٤) المرمر: نوعٌ من الرّخام شديد الصّلابة والصّفاء.
(٥) اللّازورد: من الأحجار الكريمة، لونه أزرق سمْوي أو بنفسجي.

الأصباغ، يخالها الناظر إليها كأنما فَرِغ الدّهَّان منها. يقال إن كل دهليز منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة. وجُدْران هذه الدهاليز منقوشة بصُوَر مختلفة الهيئات والمقادير، يقال إنها رموز على علوم القبط، وهي: الكيمياء، والسِّيمياء[١]، والطِّلَّسْمَات، والطب. أودعوها هذه الصور.

ويقال إن ذا النون المصريَّ[٢] العابد فكَّ منها علم الكيمياء.

وأما حَنِيَّة اللازورد

وهي بأرض مَنف. ومَنْف هذه هي التي تسمَّى مصر القديمة.

يقال إن عَقْد الحَنِيَّة أحسنُ من عَقْد قنطرة صَنْجةَ التي تقدّم ذكرها. والحَنِيَّة معقودة من حجارة مهندمة، طولُ كل حجر منها أكثر من خمسةَ عشرَ ذراعًا. وفيها نقوش وكتابة وطِلَّسْمَات مموّهة باللّازورد. وهي من الشرق إلى الغرب، وفي صدرها فَضَاء فيه بناء مرتفع، عليه بَلَاطةٌ من الصوّان الأسود، مكتوب فيها بالقلب البِرْباوي[٣] ثلاثون سطرًا. يقال إنه قبر الذي بنى الحَنِيَّة، وأنه دِيساره: ملك كان بمصر، حكيمٌ.

وللقبط عيد يسمَّى ديساره: وهو عيد هذا الملك، ويسمَّى عيد العنب.

وأما منارة الإسكندرية

فهي مبنية بحجارة مهندمة مضَبَّبة[٤] بالرصاص، على قناطر من زجاج، والقناطر على ظهر سَرَطان[٥] من نحاس. وفيها نحو ثلثمائة بيت بعضُها فوق بعض، تصعَدُ الدابة بحملها إلى سائر البيوت من داخلها. وللبيوت طاقات يُنْظر منها إلى البحر.

وبين أهلِ التاريخ خلافٌ فيمَن بناها.

---

(١) السِّيماء: نوع من السّحر.

(٢) ذو النون المصري: هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري، أحد رجال الطريقة، اشتهر بالزهد والعبادة والحكمة، وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك. «وفيات الأعيان ١/ ٣١٥».

(٣) البرباوي: نسبة إلى «بربا» التي جمعها برابي، وهي مواضع للعبادة صنعتها ملكة مصر دلوكة، وقد بنته بحجارة في وسط مدينة منف وجعلت له أربعة أبواب إلى أربع جهات، وصوّرت فيه الخيل والبغال والسّفن والرّجال، وبعض الكتابات. «انظر صبح الأعشى ٣/ ٣٥٥».

(٤) المضبّبة: الملبّسة.

(٥) السّرطان: حيوان بحري من القشريات العشريّات الأرجل.

فزعم بعضُهم أنها من بناء الإسكندر بن فيلبّس المَقْدونيّ. وزعم آخرون أنها من بناء دَلُوكا، ملكة مصر. ويقال إن على جانبها الشرقيّ كتابةً، وإنها نقلت إلى اللسان العربيّ فوجدت «بنَتْ هذه القنطرة فرتنا بنت مرتيوس اليونانية لرصد الكواكب».

ويقال: إن طولها كان ألف ذراع.

وكان في أعلاها تماثيل من نحاس.

منها تِمْثال قد أشار بسبابته اليمنى نحو الشمس: أينما كانت من الفلك، يدور معها حيثما دارت.

ومنها تِمْثال وجهه في البحر متى صار العدوّ منهم على نحو من ليلة، سُمِعَ له صوت هائل يعْلَم به أهل المدينة طُروقَ[١] العدوّ.

ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة، صوّت صوتًا مطربًا.

ويقال: إنه كان بأعلاها مرآة تُرى منها قُسْطنطينِيَّة، وبينهما عرض البحر. وكلما جهز الروم جيشًا رؤي في المِرْآة.

وحكى المسعوديّ في «مروج الذهب» أن هذه المنارة كانت في وسط الإسكندرية، وأنها تعدّ من بناء العالَم العجيب، بناها بعض البَطَالسة من ملوك اليونان يقال له الإسكندر، لِمَا كان بينهم وبين الروم من الحروب في البرّ والبحر. فجعلوا هذه المنارة مَرْقَبا، وجعلوا في أعلاها مِرْآة من الأحجار المُشِفَّة[٢]، تشاهَد فيها مراكب البحر إذا أقبلت من رُومِيَة على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها.

ولم تزل كذلك إلى أن ملكها المسلمون، فاحتال ملك الروم على الوليد بن عبد الملك بأن أنفذ أحد خَواصّه ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام على أنه راغب في الإسلام. فوصل إلى الوليد وأظهر الإسلام، وأخرج كنوزًا ودفائن كانت في الشام حملت الوليد على تصديقه فيما يدّعيه. ثم قال له: إن تحت المنارة أموالًا ودفائنَ وأسلحة، دفنها الإسكندر. فصدّقه وجَهَّزه مع جماعة من ثقاته إلى الإسكندرية، فهدم ثلث المنارة وأزال المِرْآة، ثم فطن الناس أنها مكيدة، فاستشعر ذلك فهرب في مركب كانت معدّةً له. ثم بُني ما هُدِم بالجِصّ[٣] والآجُرّ.

---

(١) الطّروق: أي هجوم العدوّ عليهم وإتيانهم ليلًا.

(٢) المشفّة: التي تحجب ما وراءها.

(٣) الجصّ: الكلس، أو ماد ترابية تتخذ من حجر يحرق، والآجر: الفخّار.

ثم قال المسعوديّ: وطول المنارة في هذا الوقت (يعني الوقت الذي وضع فيه كتابه، وهو سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة) مائتان وثلاثون ذراعًا. وكان طولها قديمًا نحوًا من أربعمائة ذراع.

وهي في عصرنا هذا ثلاثة أشكال: فمنها تقدير الثلث مربع مبنيّ بالحجارة، ثم بعد ذلك بناء مُثَمَّنُ الشكل بالآجُرّ والجِص نحو ستين ذراعًا، وأعلاها مدوّر الشكل.

ويقال إن أحمد بن طولون[1] بنى في أعلاها قبة من الخشب فهَدمتْها الرياح. فبنى في مكانها مسجدًا في الدولة الظاهرية الركنية بيبرس صاحب مصر رحمه الله تعالى. ثم هُدِم في ذي الحجة سنة اثنتين وسبعمائة بسبب الزَّلْزلة الحادثة. ثم بنى في شهور سنة ثلاث وسبعمائة في دولة السلطان الملك الناصر ولد السلطان الملك المنصور، ثبت الله دولته، وكان المندوب لذلك الأميرَ ركنَ الدين بيبرس الدَّوَادار المنصوريّ، نائب السلطنة الشريفة في الغيبة.

وقد وصف الشعراء منارة الإسكندرية.

فمن ذلك ما قاله الوجيه الدرويّ: [من الطويل]

وساميةِ الأرجاءِ تُهدي أخا السُّرى ضياءً، إذا ما حِنْدِسُ الليلِ أظْلَما[2]
لِبِسْتُ لها بُرْدًا من الأُنْسِ ضافيًا فكانَ بتَذْكار الأحِبَّةِ مُعْلَمَا[3]
وقد ظلَلْتني من ذُرَاها بقُبَّةٍ أُلاحِظُ فيها من صِحَابِيَ أنْجُما
فخُيِّلْتُ أنَّ البحْرَ تحْتِي غمامَةٌ وأنِّيَ قد خَيَّمْتُ في كَبِدِ السَّما!

وقال أبو الفتح الأغرّ بن قلاقس[4]: [من البسيط]

ومَنْزِلٍ جاوَزَ الجَوْزاءَ مُرْتَقِيا كأنَّما فيه للنَّسْرَيْن أوْكارُ

---

(١) هو أحمد بن طولون أبو العبّاس، صاحب الدّيار المصريّة والشامية، تركي مستعرب، كان شجاعًا جوادًا حسن السّيرة، وقد بنى الجامع المعروف باسمه في القاهرة، توفي سنة ٨٨٤ م. «فهرس الأعلام ١/ ١٤٠».

(٢) السُّرى: المسير ليلًا، والحندس: شدة الظلام.

(٣) الضافي: الفضفاض، والمُعلم: المتزيّن، وقدح معلم: أي فيه علامة، والعلامة: السّمة، والمعلم: ما جعل علامة وعلمًا للطرق. «اللّسان مادة علم».

(٤) هو أبو الفتوح نصر بن عبد الله بن قلاقس الإسكندري الأزهري، شاعر مجيد، رحل إلى اليمن، ومدح بعض رجالها، وعاد بثروة فانكسر المركب فغرق ما كان معه بالقرب من دهلك، فعاد إلى اليمن ثم انتقل إلى صقلية وتوفي بعيذاب على شاطىء البحر الأحمر من بلاد مصر سنة ٥٦٧ هـ وقلاقِس: جمع قلقاس، وهو النّبات المعروف. «إعجام الأعلام ص ٣٤».

راسِي القَرَارةِ سامِي الفَرْعِ في يَدِه ... لـلنُّور والنُّون أخْبَارٌ وأخْيـارُ[١]
أطلَقْتُ فيه عِنَانَ القولِ فاطَّرَدَتْ ... خيلٌ لها في بَدِيع الشِّعْرِ مِضْمارُ[٢]

وأما رواق الإسكندرانيين

فهو مَلْعَب كان بالإسكندرية.

كانوا حكماءَ يجتمعون فيه فلا يرى أحد منهم شيئًا دون الآخر، ووجهُ كل واحد منهم ـ وإن اختلفت جهاتُهم ـ تلقاء وجه الآخَرِ. وإن عمل أحد منهم شيئًا أو تكلم، سمعه الآخَرُ. ونظرُ القريبِ والبعيدِ فيه سواءٌ.

وقد بقيت منه بقايا عَمَد تكسرت، غير عمود منها يسمَّى عمود السَّواري في غاية الطول والغلظ من الحجر الصوّان الأحمر.

ذكر شيء من عجائب المباني

قال صاحب كتاب «مباهج الفكر ومناهج العبر»:

ذكر بعض المصنفين لكتب العجائب، أن الفرس تزعم أن أوشهنج بني بأرض بابل سبع مدائن، جعل في كل مدينة منها أعجوبة ليست في الأخرى.

فكان في الأولى ـ التي يكون فيها الملك ـ مثالُ أنهار الدنيا كلِّها. فإذا التوى[٣] عليه أحد من أهل مملكته بخراجهم[٤]، خَرَّج نهرًا من تلك الأنهار الشبيهة بنهر تلك الناحية فغَرِقوا. فإذا أدَّوُا الخراجَ، سدّ عليهم من عنده فانسدّ عنهم.

وفي الثانية حوض. فإذا أراد الملك أن يجمع الناس لشراب، أتى من أحبَّ منهم بشراب له خاص فيصبه في الحوض. يفعل ذلك كل إنسان منهم، فيختلط الجميع. ثم تقوم السُّقاة فتأخذ الأواني ويُسْقى كلُّ واحد من شرابه الذي جاء به.

وفي الثالثة طبل. فإذا غاب من البلد أحد وأراد أهله أن يعلموا خبره، أحيٌّ هو أو ميت، ضربوا الطبلَ: فإن كان حيًّا صوّت، وإن كان ميتًا لم يصوّت.

---

(١) النّون: الحوت، وأخيار: هكذا في الأصل، وفي مسالك الأبصار: إخبارٌ وأخبار.
(٢) المضمار: المكان تضمر فيه الخيل أو تتسابق.
(٣) التوى: خالف.
(٤) الخراج: ضريبة على الأرض وأهل الذّمة وغير ذلك.

وفي الرابعة المِرْآة. فإذا غاب الرجل عن أهله وأرادوا أن يعلموا حالَه، نظروا في المرْآة فرأَوْه في الحالة التي هو عليها.

وفي الخامسة إوَزَّةُ نُحاسٍ. فإذا دخل المدينة غريب، صَفَّرت. فيعلمون أن غريبًا دخلها.

وفي السادسة قاضيان جالسان على الماء. فيجيء المُحِقُّ والمُبْطِل ليجلسا معهما. فيجلس المحق، ويرسب المبطل.

وفي السابعة شجرة. لا تظل إلا ساقها. فإذا جلس تحتها واحد أظلته إلى ألف. فإن زاد على الألف واحد، قعدوا كلهم في الشمس.

وكنتُ قد أنكرت هذه الحكاية وقصدت حذفها وإلغاءها والإضراب عنها، فرأيت ابن الجوزيّ وضعها في كتابه الذي سماه «سلوة الأحزان» فأوردتُها.

وحكي أنه كان بمدينة قَيْسَارِيَّة[1] - لما كانت في أيدي الروم - كنيسةٌ بها مِرْآة. إذا اتهم الرجلُ امرأته بزنًا، نظر في تلك المرآة، فيرى وجه المتَّهَم فيها. وأن بعض الناس اتُّهم فرأوه فيها فقتله الملك، فجاء أهله إلى المرآة حَمِيَّةً فكسروها.

وحكى الواقديّ[2] في فتوح السند: أن عبد الله العبديّ عامل معاوية على السند غزا بلد القِيقَان[3]، فأصاب منهم غنائمَ كثيرةً، وأن ملك القيقان بعث إليه يطلب منه الفداء وحمل إليه هَدَايَا كان فيها قطعة من مِرْآة، يذكر أهل العلم أن الله تعالى أنزلها على آدم عليه السلام، لما كَثُر ولده وانتشروا في الأرض، فكان ينظر فيها فيرى من بَعُدَ منهم على الحالة التي هو عليها من خير أو شر، فحملها عبد الله إلى معاوية،

(١) قيسارية: بلدة على ساحل الشّام تعدّ في أعمال فلسطين، وكانت قديمًا من أعيان أمّهات المدن، واسعة الرّقعة طيبة البقعة، كثيرة الخير والأهل، وأمّا الآن فليس كذلك، وهي بالقرى أشبه منها بالمدن وقيسارية أيضًا مدينة كبيرة وعظيمة في بلاد الرّوم، وهي كرسيّ مُلك بني سلجوق ملوك الرّوم أولاد قليج أرسلان. «معجم البلدان ٤/ ٤٢١».

(٢) الواقدي: هو محمّد بن عمر بن واقد الأسلمي الولاء، أبو عبد الله، من أقدم المؤرخّين في الإسلام ومن أشهرهم، ولد بالمدينة، وكان يبيع الحنطة، انتقل إلى بغداد أيام الرّشيد واتصل بخالد البرمكي فأكرمه، توفي سنة ٨٢٣ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٣١١».

(٣) قيقان: بلاد قرب طبرستان، والقيقان: من بلاد السّند ممّا يلي خراسان غزاها المهلّب بن أبي صفرة سنة ٤٤ هـ، وولّى عبد الله بن عامر عليها عبد الله بن سوار العبدي زمن معاوية سنة ٤٥ هـ. «معجم البلدان ٤/ ٤٢١، ٤٢٢».

فبقيت في ذخائر بني أمية إلى أن انتقل الملك عنهم إلى بني العباس، فضاعت فيما فُقِد من الذخائر[١].

وقيل: إن بِنَهَاوَنْد[٢] حجرًا يسمَّى الكيلان، بالقرب منه صخرة، من أراد أن يتعرّف حال غائب أو آبق[٣] أو سارق، أتى إلى تلك الصخرة فنام تحتها، فيرى في النوم حال ما تَعَرف به على ما هو عليه. وعجائب المباني كثيرة، سنذكر إن شاء الله تعالى منها جملة في أخبار ملوك مصر الذين كانوا قبل الطوفان وبعده، فتأمّله هناك تجده.

الباب الرابع
من القسم الخامس من الفن الأوّل
فيما وصفت به المعاقل والحصون

وهذا الباب قد ترجمتُ عليه في الفن الثاني الذي يلي هذا الفن فيما يحتاج إليه الملك. وإنما ضممتُه إلى هذا الفن لمناسبته له وشَبَهه به، واستثنيته من الفن الثاني واقتصرت فيه على مجرّد الترجمة. وبالله التوفيق.

وقد أوسع الفضلاء والأدباء والكتاب والبلغاء القولَ في هذا المعنى وتواردُوا فيه، فاقتصرنا على ما نورده من ذلك، وهو قليل من كثير.

فمن ذلك ما قاله بعض الأندلسيين يصف قلعة فتحت من غير حصار:

«... وهذه القلعةُ التي انتهينا إلى قرارها[٤]، واستولَيْنا على أقطارها؛ أرحبُ المدن أمدًا[٥] للعيون، وأخصبها بَلَدًا إذا أمْحلَتِ السِّنون؛ فُرُوعها فوق الثُّريًّا شامخة، وعروقها تحت الثَّرى راسخة؛ تباهي بأزهارها نجوم السماء، وتُناجي بأسرارها أُذُنَ الجوزاء؛ وكانت في الزمن الغابر، عتَتْ على عظيم القياصر؛ فنازلَها بأكثَرَ من النجوم

---

(١) بهامش الأصل ما نصّه: «قد ذكر أبو جعفر الطبري في تاريخه أن هذه المرآة كانت عند أبي جعفر المنصور، فالله أعلم أين صارت بعده».

(٢) نهاوند: هي مدينة عظيمة في قبلة همذان، ويقال: إنها من بناء نوح عليه السّلام. «معجم البلدان ٥/ ٣١٣».

(٣) الآبق: الهارب.

(٤) القرار: أي امتلاكها والسّكن فيها، وصار الأمر إلى قراره: أي انتهى وثبت.

(٥) الأمد: الغاية والنهاية.

عددًا، وطاولها بأوفى من البحر مَدَدًا[١]؛ فأبتْ على طاعته كلَّ الإباء، واستعصَتْ على مقارعته أشدَّ استعصاء، ومَرَدت[٢] مرود ماردٍ على الزَّباء؛ فأمكننا الله من ذِرْوتها، وأنزل رُكَّابَها لنا عن صهْوتها».

وقال القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني رحمه الله، يصف آمِدَ[٣] من رسالة جاء منها:

« . . . وآمدُ ذِكْرها بين العالَم متعالَم، وطالما صادَمَ جانبُها مَنْ تَقادَم، فرجع عنها مَقْدوعًا[٤] أنفُه وإن كان فحلًا، وفرّ عَنْها فَريدًا بهمِّه وإن استصحب خيلًا ورَجُلًا؛ ورأى حجرها فقدّر أنه لا يُفَكُّ له حَجْر، وسوادَها فظنّ أنه لا ينْسَخه فَجْر، وحَمِيَّة أنْف أُنفَتِها فاعتقد أنه لا يستجِيبُ لزَجْر؛ من ملوك كلهم قد طوى صدْرَه على الغليل[٥] إلى مَوْرِدها، ووقف وقفة المحب السائل فلم يفُزْ بما أمَّل من سؤال مَعْهَدها».

وقال من أخرى يصفها:

« . . . وهي العقيلة[٦] التي صَدْرُ الصُّدورِ الأوّلِ مُحَلَّأُ[٧] عن وِرْدها، والطريدة التي حصل منها على راحة يأسه وتعب طَرْدها؛ والمحجَّبةُ التي كُشِفتْ ستورُها، ودار لعِصْمتها كِسوار مِعْصَمِها سُورُها، وغلَتْ على أنها السوداء على خُطّابها لأن المُهَج مُهورُها؛ ولربما نأى بجانبها الإعراض[٨]، ونبا جوهرُها عن الأَعْراض[٩]. وطاشَتْ دون أو صافها سِهَام الأغراض؛ ودَرَجتِ الملوك على حَسْرتها فلم تَحْسُر لها لِثَامًا، وما استطاعت لثغرها ثَلْمًا ولا له الْتِثامًا».

وقال من أخرى يصف قلعة نَجْم، وهي من عيون الرسائل، جاء منها:

---

(١) المدد: كثرة العدد، وهو يمدّ به الجيش لتقويته وإعانته، من الجند والعتاد.

(٢) مردت: طغت وجاوزت الحدّ.

(٣) آمد: هي مدينة في ديار بكر، من الجزيرة، وهي مدينة أزليّة على الدّجلة، قال ابن حوقل: عليها سورٌ في غاية الحصانة، مبني من الحجارة السّود. «صبح الأعشى ٤/ ٣٢٧».

(٤) مقدُوعًا: يقال: «قُدِع» الفحل: أي ضرب أنفه بشيء ليرتدّ.

(٥) الغليل: الحقد والغيظ.

(٦) العقيلة: سيّدة القوم، أو السّيّدة المخدّرة.

(٧) المحلأ: المحبوس، وحلّأه عن ورود الماء: حبسه ومنعه.

(٨) الإعراض: الصدّ والامتناع.

(٩) نبا: ابتعد وتجافى، والأعراض: الزائل الذي لا يدوم، وهو من كلّ شيء ما ليس جوهرًا ثابتًا، وفي الكلام جناسٌ تام بين «الإعراض» و«الأعراض».

«... هي نَجم في سَحَاب، وعُقَاب في عِقَاب؛ وهامةٌ[(١)] لها الغمامة عِمَامه، وأنملة[(٢)] إذا خَضَبها الأصِيلُ كان الهلال لها قُلَامه؛ عاقدةٌ حُبْوةَ[(٣)] صَالَحها الدهْرُ أن لا يَحُلَّها بقَرْعه[(٤)]، بادية عصمة صافحها الزمن على أن لا يروِّعها بخُلْعه[(٥)]؛ فاكتنفَتْ بها عقاربُ منجنيقات لم تُطْبع طَبْع حِمْصَ في العقارب، وضربتها بحجارة أظهرتْ فيها العَدَاوة المعلومة في الأقارب؛ فلم يكن غير ثلاثة إلا وقد أثَّرتْ فيها الحجارةُ جُدَريًّا يضربها، ولم يصل إلى السابعة إلا والبحرُ مؤذِن بنَقْبها؛ فاتسعَ الخرقُ على الراقع، وسقط سعده عن الطالع، إلى مولد من هو إليها طالع؛ وفُتحت الأبراج فكانت أبوابًا؛ ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: الآية ٢٠].

وقال من أخرى في فتح بيت المقدس، جاء منها:

«... زاوَلَ[(٦)] المدينةَ من جانب فإذا هو أودِيَةٌ عميقة؛ ولُجَجُ وَعْرٍ غريقة؛ وسور قد انعطف عَطْفَ السِّوار، وأَبرِجة قد نَزلت مكانَ الواسطةِ من عُقْر الدار؛ وقدّم المَنْجنيقات التي تتولَّى عِقابَ الحصون عِصيُّها وحبَالُها، وأوتر لهم قِسِيَّها[(٧)] التي تَضْرب ولا تفارق سهامَها ولا سهامَها نِصالُها؛ فصافَحت السُّور فإذا سهامُها في ثَنَايا شُرُفاتها سِوَاك[(٨)]، وقَدَّم النصر بشرى من المجنيق تُخْلِد إخلاده إلى الأرض وتعلو عُلُوّه إلى السِّماك[(٩)]؛ فشَجَّ مَرَابع أبراجها، وأسمَعَ صوتَ عجيجها[(١٠)]، ورفع مَثَار عَجَاجها[(١١)]؛ وأسفَرَ النُّقَّاب عن الخَرَاب النِّقَاب، وأعاد الحجر إلى خِلْقته الأولى من التُّراب؛ ومَضَغ سَرْد حجارته بأنياب مِغوله[(١٢)]، وأظهر من صناعته الكثيفةِ ما يدلُّ على لَطَافة أنمله، وأسمع الصخرةَ الشريفة أنِينَه إلى أن كادت ترقُّ لمقتله».

---

(١) الهامة: الرأس أو أعلى الشيء. (٢) الأنملة: عقد الأصابع أو سلاماها.

(٣) الحبوة: ما يحتبى به من ثوب وغيره.

(٤) القرع: الدقّ والنقر، وقرع الباب: دقه ونقر عليه، وقرعه الدّهر: رماه بما لا يحبّ.

(٥) الخلعه: الطّلاق. (٦) زاول: باشر.

(٧) أوتر: أي شدّ أوتار القوس استعدادًا للرّمي، والقسي: مفردها قوس: وهو آلة على هيئة هلال ترمى به السّهام.

(٨) السّواك: عودٌ يُستاك به وتخلّل به الأسنان.

(٩) السّماك: نجم نيّر يكون في السّماء إلى ناحتي الشّمال والجنوب.

(١٠) العجيج: الصياح والجلبة. (١١) العجاج: الغبار.

(١٢) المغول: حديدة تجعل في السّوط فيكون لها غلافًا، أو هو سيفٌ دقيق له حدّ ماضٍ، والمغول: ما يهلك به الشيء.

وقال أيضًا من أخرى:

« . . .فنصبْنا عليها المَنْجَنِيقاتِ تمطر سماؤُها نَبْلَ الوَبَال[١]، وتملأ أرضَها بالنِّكاية والنَّكال، وتهدّ بسارِيَات[٢] حجارتها راسِياتِ[٣] الجبال؛ وتُنْزِل نوازلَ الأسْواء بالأسوار، وتُوسِع مجالَ الدَّوائر[٤] في الدِّيار، وتَخْطَف بخُطّافاتها أعمارَ الأعْمار؛ وتُطِير حمَامَها بكُتُب الحِمام، وتديم إغراء سِهامها في أهلها بتوفير سهام الإرغام؛ وكشَفَ النَّقابون نِقابَ السُّور المحجوج المحجوب، فتهدّم بنيانُه، وتداعت أركانه، بتظاهر المجنيقات عليها والنُّقُوب».

ووصف القاضي الفاضل المنجنيق من رسالة فقال:

«فسَلَّمتْ كأنّها بَنَان، ونضْنَضَت[٥] كأنها لسان، وأطّت[٦] كأنها مِرْنان[٧]، واهتزَّتْ كأنها جانّ، وتقوّمت كأنها سِنَان، وانعطفَتْ كأنها عِنَان، وأقدمت كأنها شُجَاع وأحجمت كأنها جبان، ورمَتْ رؤوسَهم الموقَّرة[٨] من أحجارها بأمثال الرؤوس المحلَّقة، فأعادَتْهم إلى الخلقة الأولى «مخلَّقةٍ[٩] وغيرَ مَخلَّقة».

ووصف النامي[١٠] المنجنيق فقال: [من الطويل]

وحِصْنِ زيادٍ غُدوةَ السَّبْت نافثًا سِمَاما، أَراكَ ابْنَ الأراقِم أرقَمَا[١١]
نصبْتُ له في الأرضِ بِنت حَدَيقةٍ تَمُدُّ لها في الجوّ كَفًّا ومِعْصَما
لها أخَواتٌ للمَنَايَا كَوَامِنٌ وإنْ لم يكن ما أضمَرَتْه مُكَتَّما

(١) الوبال: سوء العاقبة.
(٢) الساريات: يريد الحجارة التي انهمرت كماء السّحاب.
(٣) والراسيات: مفردها راسية، وهي الثابتة التي لا تبرح مكانها ولا يطاق تحويلها.
(٤) الدّوائر: يريد صروف الدّهر وتقلباته من الحسن إلى السّيىء.
(٥) نضنضت: تحرّكت. (٦) أطّت: صوّتت.
(٧) المرنان: القوس المصوّت.
(٨) الموقّرة: أي الثقيلة، والوقر: الحمل الثقيل، ووقرت الأذن: ثقل سمعها أو صُمَّت.
(٩) المخلّقة: أي مخلوقة، وهنا يشير إلى الآية الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: الآية ٥].
(١٠) النّامي: هو أبو العبّاس أحمد بن محمّد الدارمي المصيصي، الشاعر المشهور، كان رقيق الشعر، اتصل بسيف الدولة، وحظي عنده، وله ديوان شعر، مات في حلب سنة ١٠٠٩ م. «فهرس الأعلام ١/ ٢١٠، ووفيات الأعيان ١/ ١٢٥».
(١١) الأرقم: ذكر الحيّات أو أخبثها.

عَذَارى، ولكن قد وُجِدْن حوامِلَا ... بعُرْسٍ تَرَاه للجَنادِل مَأْتَما[١]
ترى الصَّخْر فيه الصَّخْرُ وهو نَسِيبه ... عَدُوًّا بيوم أرضُه تُمْطِر السَّما
إذا أقْعدَتْ جُذْرًا قيامًا، رأيتَها ... تُنَبِّه قِيعانًا من التُّرب نُوَّما!

ومما وصفت به المعاقل والحصون نظمًا.

فمن ذلك قول كعب الأشقري[٢]، يصف قلعة: [من الطويل]

مُحَلِّقَةٌ دُونَ السَّماء كأنَّها ... غمامةُ صَيْفٍ زالَ عنها سَحَابُها
ولا يَبْلُغُ الأَرْوى شماريخَهَا العُلى ... ولا الطَّيْرُ إلا نَسْرُها وعُقابُها[٣]
ولا خُوِّفَتْ بالذِّئْبِ وِلْدانُ أهْلِها ... ولا نَبحَتْ إلا النُّجُومَ كِلَابُها

وقال أبو تمام، يصف عَمُّورية[٤]: [من البسيط]

وبَرْزَةُ الوجه قد أعيَتْ رِياضَتُها ... كِسرى وصَدّت صُدُودًا عن أبي كَرِبِ[٥]
بِكْرٌ، فما افْتَرعَتْها كَفُّ حادثةٍ ... ولا تَرقَّتْ إليها هِمَّةُ النُّوَبِ[٦]
من عَهْد إسكَنْدرٍ أو قَبْلَ ذاكَ، فقد ... شابَتْ نَواصِي اللَّيالي وهي لم تَشِبِ![٧]

وقال الخالديان[٨]: [من الطويل]

وخَلْقاءَ قد تاهَتْ على من يَرُومُها ... بمَرْقَبِها العالي وجانِبِها الصَّعبِ[٩]
يَزُرُّ عليها الجَوُّ جَيْبَ غَمَامِه ... ويُلْبِسُها عِقْدًا بأنْجُمِهِ الشُّهْبِ

---

(١) الجنادل: الصّخور.
(٢) هو كعب بن معدان الأشقري، أبو مالك، فارس شاعر خطيب، من شعراء خراسان. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٢٩».
(٣) الأروى: مفردها الأروية، تقع على الذكر والأنثى من الوعل.
(٤) عمّورية: بلد في بلاد الرّوم غزاه المعتصم، قيل: سمّيت بعمورية بنت الروم بن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام. «معجم البلدان ٤/ ١٥٨».
(٥) البرزة: الحسنة الوجه الجميلة، وكسرى ملك فارسي «كسرى أنوشروان» وأبو كرب: ملك يمني، وأبو كُرب: هو النعمان بن الحارث الغسّاني.
(٦) افترعتها: افتضّت بكارتها، وترقّت: سمت.
(٧) الإسكندر: هو الإسكندر المقدوني، والنّواصي: شعر مقدّم الرأس، مفردها ناصية.
(٨) الخالديان: هما أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان، كانا يشتركان معًا في نظم الشعر ويفترقان ولا يكادا في الحضر والسّفر يفترقان. «انظر اليتيمة ٢/ ٢١٤».
(٩) المرقب: المكان العالي يكون للمراقبة والحراسة، والخلقاء: الحسنة الخلق.

إذا ما سَرى بَرْقٌ، بَدتْ من خِلَالِهِ ... كما لَاحتِ العَذْراءُ من خِلَلِ الحُجْب
سَمَوتَ لَها بالرأي: يُشرِق في الدُّجى ... ويَقْطَع في الجُلّى، ويَصْدَع في الهَضْب
فأبْرَزْتَها مهتُوكةَ الجيب بالقَنَا ... وغادَرْتَها ملصوقةَ الخَدِّ بالتُّرْبِ![1]

وقالا أيضًا في قلعة: [من البسيط]

وقَلْعةٍ عانَقَ العَيُّوقُ سافِلَها ... وجار مِنطقة الجَوْزا أعالِيها[2]
لا تَعْرِفُ القَطْرَ، إذ كان الغَمَامُ لها ... أرضًا تَوَطَّأُ قُطْرَيْهِ مَوَاشِيها
إذا الغمامةُ لاحَتْ، خاضَ سَاكنُها ... حِياضَها قبل أن تَهْمِي عَزَالِيها[3]
يُعَدُّ من أنْجُم الأفلاكِ مَرْقَبُها ... لَوْ أنَّه كان يَجْري في مَجَارِيها
على ذُرى شامِخٍ وَعْرٍ: قد امتلأَتْ ... كِبْرًا بِهِ، وهو مَمْلُوء بها تِيهَا
له عِقَابٌ: عُقَابُ الجوّ حائمةٌ ... من دُونِها، فَهْي تَخْفى في خَوافيها[4]

وقال أبو بكر الخوارزميّ[5]: [من الطويل]

وبِكْرٍ تحامَتْها البُعُولُ مَخَافةً ... فقد تُرِكَتْ من كَثْرة المَهْرِ أَيِّما[6]
ممنَّعةٌ لم يَغْلَط الدّهرُ باسْمِها ... ولم يَرَها في النَّوْم إلا تَوَهُّما
تَزِلُّ عُقابُ الجوِّ عن شُرُفاتِهَا ... وتَبْغي إلَيْها الرِّيحُ مَرْقًى وسُلَّما!
ويُسْمَع في الأفلاكِ صَيْحةُ دِيكها ... فتَحْسَبُ ديكَ العَرْش صاح تَرَنُّما
عَجَوزٌ، تُرى في صِحَّة الجِسْم كاعِبًا ... ولو أُرِّخَتْ، كانَتْ مِنَ الدَّهر أقْدَما!
تُوارِي أَسَاسًا بالتُّخُوم مُؤَزَّرا ... وتُبْرِزُ رأسًا بالنُّجُوم معَمَّما
تُنازِعُها الأرضَ السَّماءُ وتَدَّعي ... لَدَيْها بها حَقًّا لها مُتَهَضَّما[7]
وتَحْسَبُها زُهْرُ الكواكب كَوْكَبًا ... هَوى خَلْفَ شَيْطانٍ رَجيمٍ، فخَيَّما!

---

(١) القنا: الرّمح.
(٢) العيّوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرّة الأيمن، والجوزاء: برجٌ في السّماء.
(٣) تهمي: تمطر، والعزالي: السّحاب.
(٤) الخوافي: الرّيش في مؤخّرة الجناح تختفي إذا ضمّ الطائر جناحه.
(٥) هو أبو بكر محمد بن العبّاس الكاتب الشاعر، الخوارزمي، كان إمامًا في اللغة، جاب كثيرًا من البلدان وطارح شعراءها، قال فيه صاحب اليتيمة: يافعة الدّهر، وبحر الأدب، وعلم النثر والنظم، وعالم الفضل والظرف. «انظر التيمية ٤/ ٢٢٣».
(٦) الأيّم: من النّساء من لا زوج لها سواءً كانت بكرًا أو مطلّقة أو أرملة.
(٧) المتهضّم: المنتقص، وهضم حقّه: انتقصه وظلمه واغتصبه.

الباب الخامس
من القسم الخامس من الفن الأوّل
فيما وصفت به القصور والمنازل

ولنبدأ بذكر ما بناه المتوكل من القُصور وما أُنْفق عليها، ثم نذكُر ما قيل في وصفها، وما وُصِفت به المنازل الخالية، وما قيل في حُبِّ الوطن.

فأما قصور المتوكل، فهي: الكامِلُ، والجَعْفَريّ، وبركوانا، والعَرُوس، والبِرْكة، والجَوْسَق، والمُخْتار، والغَرِيب، والبَدِيع، والصَّبِيح، والمَلِيح، والقَصْر، والبُرْج، والمتوكِّليَّة، والقُلَّاية.

حكى المؤرّخون أنه أنفق في بنائها مائة ألف دينار وخمسون ألف دينار عينًا، ومائتا ألف ألف وثمانيةٌ وخمسون ألف ألف وخمسمائة ألف درهم.

قالوا: وكان «البرج» من أحسنها. كان فيه صُوَر عظيمةٌ من الذهب والفضة، وبركةٌ عظيمة غُشّي[1] ظاهرُها وباطنها بصفَائِح الفضة، وجعل عليها شجرةٌ من الذهب فيها طُيُور تصوت وتصَفِّر سماها «طُوبى» بلغت النفقة على هذا القصر ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار.

وقد وصفه الشعراء، فمن ذلك قول السريّ[2]: [من الخفيف]

مـجْـلِسٌ فـي فِـنـاء دَجْـلةَ، يَـرْتـا ... حُ إلـيـه الـخَـلِـيع والـمَـسْـتُـورُ[3]
طائرٌ في الهـواءِ، فـالبَرْق يَسْري ... دُونَ أعـلاهُ والـحَـمَـامُ يَـطِـيـرُ[4]
فـإذا الـغَـيْـمُ «شعْـرُهُ» أُسْبِل منـه ... حُـلَلٌ دون جُـدْره وسُـتُـور
وإذا غـارَت الـكَـواكـبُ صُـبْـحًـا ... فـهـو االـكَـوْكَـبُ الـذي لا يَـغُـور!

(١) غشّي: غطّي.
(٢) هو السّريّ بن أحمد الكندي المعروف بالرّفاء، صاحب سرّ الشعر، يقول صاحب اليتيمة فيه: لله درّه ما أعذب بحره، وأصفى قطره وأعجب أمره، وقد أخرجت من شعره ما يكتب على جبهة الدّهر. «انظر اليتيمة ٢/ ١٣٧».
(٣) الخليع: من تبرّأ منه أهله، وهنا: من خلع ثيابه للرّاحة أو غيرها.
(٤) يسري: يلتمع أو يرتفع.

وقال أيضًا: [من الخفيف]

مَـنْـزِلٌ كـالـرَّبِـيـع حَـلَّت عـليـهِ حالِياتُ السَّحاب عقدَ النَّطاق[١]
يُمْتِع العَيْنَ في طرائِف حُسْنٍ تـتـحـامـى بـهـا عـن الإطْـراق[٢]
بَـيْـنَ سـاجٍ كـأنَّـهُ ذائِبُ الـتِّـ ـبرِ على مِثْـل ذائـبِ الأَوْراق[٣]

وقال أيضًا: [من البسيط]

والقصرُ يَبْسِم عن وجْه الضُّحى، فترى وجْهَ الضُّحى - عِنْدما أبدى له - شَحِبا
يَـبِـيـتُ أعْـلاهُ بـالـجَـوْزاء مـنْـتَـطِـقًـا ويَغْتَدِي بِردَاءِ الغَيْم محتَجبا![٤]

وقال أبو سعيد الرستميّ[٥]، يصف دارًا بناها الصاحب بن عَبَّاد: [من الطويل]

وسَامِيَـةِ الأعْـلام تَـلْحَـظُ دُونَـهـا سَنَا النَّجم في آفاقِها مُتَضائِلَا
نسَخْتَ بها إيوانَ كِسْرى بنِ هُرْمُزٍ فأصبَحَ في أرضِ المَداينِ عاطِلَا[٦]
فلو أبصَرَتْ ذاتُ العِمادِ عِمَادَها لأمسَتْ أعَالِيها حَيَاءً أسافلَا[٧]
ولو لحظَتْ جَنَّاتُ تَدْمُرَ حُسْنَها درَتْ كيف تَبْنِي بعدَهُنَّ المَجادِلَا[٨]
متى تَرَها خِلْتَ السماءَ سُرادقًا عليها وأعْلامَ النُّجومِ تَماثِلَا[٩]

وقال عليّ بن يوسف الإياديّ، يذكر دارًا بناها المعز العُبَيديّ بمصر وسماها «العروسين»: [من الطويل]

بَنى مَنْظَرًا يُسْمى «العَرُوسَيْنِ» رِفْعةً كأنَّ الثُّريَّا عَرّسَتْ في قِبَابِهِ[١٠]
إذا الـلـيـلُ أخْـفـاهُ بـحُـلْكـةِ لَوْنِـهِ بَدَا ضَوْءُه كالبَدْر تحت سَحَابِهِ
تمكَّنَ من سَعْدِ السُّعُود محلُّه فأَضْحى ومِفْتاحُ الغِنى فَتْحُ بابِهِ

---

(١) النّطاق: حزام يشدّ به الوسط. (٢) الإطراق: الإغضاء.
(٣) السّاج: ضربٌ من الشجر يعظم جدًّا ويذهب طولًا وعرضًا، خشبُهُ أسود صلب.
(٤) الجوزاء: برج من أبراج السّماء.
(٥) أبو سعيد الرستمي، من شعراء اليتيمة، وقد مدح الصاحب بن عبّاد. «انظر اليتيمة ٣/ ٢٦٠».
(٦) العاطل: الذي لا حلية يلبسها.
(٧) ذات العماد: يريد إرم ذات العماد، التي ذكرها القرآن الكريم في حديثه عن قوم عاد فقال: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ [الفجر: الآيتان ٧، ٨].
(٨) المجادل: القصور.
(٩) السّرادق: بيت من شعر يمدّ فوق ساحة الدّار.
(١٠) عرّست: أقامت، والتعريس: الإقامة ليلًا.

ولـو شـادَهُ عَـزْمُ الـمُـعِـزِّ ورأيـهُ ... على قَدْره في مُلْكه ونِصَابِه(١)
لكانَ حَصى الياقُوت والتِّبْرِ مُفْرَغًا ... على المِسْك من آجُرِّه وتُرابِهِ(٢)

وقال عبد الجبار بن حمديس الصقليّ(٣)، يصف دارًا بناها المعتمد بن عبّاد(٤) من أبيات: [من الطويل]

ويـا حَـبَّـذَا قَـضَـى اللهُ أنَّـهـا ... يُـجَـدِّد فـيـهـا كُـلُّ عِـزٍّ ولا يَـبْـلى!
ومـا هِـيَ إلَّا خِـطَّـةُ الـمَـلِك الَّتي ... يـحُـطُّ إلَيْـهـا كُـلُّ ذِي أمَلٍ رَحْـلا(٥)
إذا فُـتِـحَـتْ أبْـوابُـهـا، خِـلْتَ أنَّـهَـا ... تـقُـولُ بـتَـرْحِـيـبٍ لـداخِـلِهـا: أهْـلَا
وقـد نـقَـلَتْ صُـنَّـاعُـهـا مـن صِـفَـاتِـهِ ... إلـيـهـا أفـانِـيـنًـا، فـأحـسَـنَـتِ الـنَّـقْـلا
فـمن صَـدْرِه رُحْـبًـا، ومن نُـورِه سَـنًـا ... ومن صِيتِه فَرْعًا، ومن حِلْمِه أصْلا!(٦)
فـأعـلَتْ بـه فـي رُتْـبَـةِ الـمُـلْكِ نـادِيًـا ... وقَلَّ له فَوْقَ السِّماكَيْنِ أن يُعْلى(٧)
نَـسِـيـت بِـهِ إيـوانَ كِـسْـرى، لأنَّـنِـي ... أراهُ لـه مَـوْلًـى من الـحُـسن لا مِـثْـلا
تَـرى الـشَّـمْـسَ فـيـه لِـيقَـةً تـسـتَـمِـدُّهـا ... أكُفٌّ، أقامتْ من تَصاوِيرها شَكْلا(٨)
لـهـا حَـرَكـاتٌ أُودِعَـتْ فـي سُـكُـونِـهـا ... فـمـا تَـبـعَـتْ مـن نَـقْـلِهِـنّ يَـدٌ رِجْـلا
ولـمـا عَـشِـيـنَـا مـن تَـوَقُّـد نُـورِهـا ... تَـخِـذْنـا سَـنَـاهُ فـي نـواظِـرِنَـا كُـحْـلا(٩)

(١) النّصاب: الأصل.
(٢) المفرغ: المصبوب في قالب.
(٣) هو عبد الجبّار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي، أبو محمد، شاعر مبدع عاش ثمانين سنة، وفقد بصره توفي بجزيرة ميورقة سنة ١١٣٣ هـ، له ديوان شعر مطبوع. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٧٤».
(٤) هو محمد بن عبّاد بن محمد بن إسماعيل اللخمي، أبو القاسم، صاحب إشبيلية وقرطبة، وأحد أفراد الدهر حزمًا وشجاعة وضبطًا للأمور، قصد الأدباء والشعراء توفي سنة ١٠٩٥ م. «فهرس الأعلام ٦/ ١٨١».
(٥) الخطّة: المكان الذي يختطّ للعمارة.
(٦) السّنا: الضوء، والفرع: الأصل والشرف، وفرع الشيء: ما يبنى على غيره ويتفرّع منه، هذا الشيء فرعٌ من ذلك الأصل.
(٧) السّماكان: نجمان نيّران، أحدهما في الشّمال، وهو السّماك الرامح، والآخر في الجنوب وهو السّماك الأعزل.
(٨) الليقة: الطينة اللزجة تلين باليد ثمّ يرمى بها الحائط فتلزق به، يريد أن الشمس لا تفارق ذلك القصر، وكأنها ملاصقة له.
(٩) عشي البصر: ضعف، والأعشى: الضعيف البصر.

وقال أيضًا من قصيدة يصف فيها دارًا بناها المنصور[(١)] ببُجاية، جاء منها:

واعْمُرْ بقَصْر المُلْكِ نادِيكَ الَّذِي ... أضْحى بمَجْدِك بَيْتُه مَعْمورَا!
قَصْرٌ لو انَّكَ قد كَحَلْتَ بنُورِه ... أعمى، لعادَ على المقام بصيرا
واشْتُقَّ مِن مَعْنى الحياةِ نَسِيمُه ... فيكَادُ يُحْدِث للعِظام نُشُورا[(٢)]
فَلَو أنّ بالإيوانِ قُوبِلَ حُسْنُه ... ما كان شَيْئًا عِنْده مَذْكُورا[(٣)]
نُسِيَ «الصَّبِيحُ» مع «المَلِيح» بذكره ... وسَمَا ففلّقَ «خَوَرْنقًا» و«سَدِيرَا»[(٤)]
أعَيْت مطالِعُه على الفُرْس الألى ... رَفَعُوا البِناءَ وأحْكَمُوا التدْبِيرا
ومضَتْ على القَوْمِ الدُّهُورُ وما بَنَوْا ... لِمُلُوكِهِمْ شَبَهًا له ونَظِيرَا
أذكَرْتَنا الفِرْدَوْسَ حِينَ أرَيْتَنا ... غُرَفًا رفَعْت بِناءَها، وقُصُورا
فَلكٌ مِنَ الأفْلاكِ، إلَّا أنه ... حقَر البُدُور فأطْلَع «المَنْصُورا»
أبصَرْتُه فرأيتُ أبْدَعَ مَنْظَرًا ... ثم انثَنَيْتُ بناظِرِي مَحْسُورا[(٥)]
وظَنَنْتُ أنِّيَ حالِمٌ في جَنَّةٍ ... لَمَّا رأيتُ المُلْكَ فيه كَبِيرا
وإذا الوَلائِدُ فتَّحتْ أبوابَهَا ... جعَلَتْ تُرَحِّبُ بالعُفَاة صَرِيرا[(٦)]
عَضَّتْ على حَلَقاتِهِنَّ ضَراغِمٌ ... فغَرَتْ بها أفْواهَهَا تَكْشِيرا[(٧)]
فكَأنَّها لَبَدَتْ لتَهْصِر عندها ... مَنْ لم يَكُنْ بدُخُولِهِ مأمُورا[(٨)]
تَجْرِي الخَوَاطِرُ مُطْلَقاتِ أعِنَّةٍ ... فيه، فتَكْبُو عن مَدَاهُ قُصُورا

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد أبي عامر بن الوليد المعافري القحطاني، أمير الأندلس المعروف بالمنصور ابن أبي عامر، أحد الشجعان الدّهاة، مات سنة ١٠٠٢ م. «فهرس الأعلام ٦/٢٢٦».
(٢) النّشور: البعث والإحياء.
(٣) الإيوان: القصر، أو المكان المتسع من البيت.
(٤) فلّق: ظهر وفاق شهرة، والخورنق: قصر كان بظاهر الحيرة، أمر ببنائه النعمان بن امرىء القيس، وبناه له رجل من الرّوم يقال له سنمار، والسّدير: قصر، وهو معرّب وأصله بالفارسية «سه دله» أي فيه قباب مداخله مثل الجاري بكمّين، وقيل: إنه قصر قريب من الخورنق اتخذه النعمان الأكبر لبعض ملوك العجم. «انظر معجم البلدان ٢/٤٠١، ٣/٢٠١».
(٥) المحسور: المتعب، والآسف.
(٦) العفاة: أصحاب الحاجة، والصّرير: الطّنين.
(٧) الضراغم: الأسود، وفغر فاه: فتحه، والتكشير: إبداء الأسنان والأنياب.
(٨) تهصر: تكسر وتفترس.

بمرَخَّم الساحاتِ تَحْسَب أنَّهُ فرشَ البَها وتَوَشَّح الكافُورا[١]
ومُحصَّب بالدُّرِّ تَحْسَبُ تُرْبه مِسكًا تضَوَّعَ نَشْرُه وعَبِيرا[٢]
يَسْتَخْلِفُ الإصْبَاحُ منه إذا انقضى صُبْحًا على غَسَقِ الظَّلام مُنِيرا
ضَحِكَتْ مَحاسِنُه إلَيْكَ كأنَّما جُعلتْ له زُهْرُ النُّجوم ثُغُورا[٣]
ومُصَفَّح الأبْوابِ تِبْرًا نَظَّرُوا بالنَّقْشِ بين شُكُولِهِ تَنْظِيرا
تَبْدُو مَسامِيرُ النُّضَارِ كما عَلَتْ فَلَكُ النُّهودِ من الحِسَان صُدُورا
خلَعَتْ عليه غَلَائِلًا وَرْسيَّةً شَمْسٌ تَرُدُّ الطَّرْفَ عنه حَسِيرا[٤]
فإذا نَظَرْتَ إلى غَرائِبِ حُسْنِه أبصَرْتَ رَوْضًا في السَّماء نَضِيرا
وعَجِبْتَ من خُطَّاف عَسْجَدِهِ الَّتِي حامَتْ لتَبْنِي في ذُراه وُكُورا[٥]
وضَعَتْ به صُنَّاعُه أقلامَهَا فأرَتْكَ كُلَّ طَرِيدَةٍ تَصْوِيرا
فكأنَّما للشَّمْسِ فيه لِيقَةٌ مَشقُوا بها التَّزوِيقَ والتَّشْجيرا[٦]
وكأنَّما فرَشُوا عليه مُلَاءةً تَرَكُوا مَكَانَ وِشَاحِها مَقْصُورا
يا مالكَ المُلْكِ الذي أضْحى لَهُ ملكُ السَّماءِ على العُدَاة نَصِيرا
كَمْ من قُصُورٍ للمُلُوكِ تَقَدَّمَتْ فاستوْجَبَتْ بقُصُورِك التأخِيَرا
فعَمَرْتَها وملَكْتَ كلَّ رِياسَةٍ منها، ودَمَّرتَ العِدا تَدْمِيرا

وقال عمارة اليمنيّ، يصف دارًا بناها فارس الإسلام من أبيات: [من الكامل]

فتَمَلَّ دارًا شَيَّدَتْها هِمَّةٌ يَغْدُو العَسِيرُ بأمْرِها متَيَسِّرا
فاقَتْ على الإطْلاقِ كُلَّ بَنِيَّةٍ وسمَتْ بسَعْدِكَ عِزَّةً وتكَبُّرا[٧]
أنْشَأْتَ فيها لِلعُيُونِ بدائعًا دَقَّتْ، فأذهَلَ حُسْنُها مَنْ أبصَرا

(١) البها: الجمال، وتوشّح: لبس الوشاح، والكافور: نبتٌ طيّب زهره كزهر الأقحوان.
(٢) المحصّب: المزيّن: يريد: أن حصاه درًّا، وتربه مسكًا، وتضوّع نشره: أي انتشر طيبه.
(٣) زهر النجوم: أي النجوم البيضاء المتألّقة.
(٤) الغلائل: مفردها غلالة، وهي الثوب الرقيق، والورسيّة: المصبوغة بالورس، وهو نبت يستعمل ثمره لتلوين الأثواب الحريريّة فتستحيل حمراء.
(٥) الخطّاف: طائر السّنونو، والعسجد: الذهب.
(٦) الليقة: العجينة الملتصقة، أي أن للشمس فيه صورة ملتصقة، ومشق: جذب ليمتدّ، والتزويق: التنميق في الصور والنقوش والزخرفة، والتشجير: التفنن بتصوير الأشجار.
(٧) البنيّة: ما بُني من البناء.

فمِنَ الرُّخَامِ: مُسَيَّرًا، ومسَهَّمًا ... ومُنَمْنَمًا، ومُدَرْهَمًا، ومُدنَّرا[١]
وسقَيْتَ من ذَوْبِ النُّضَارِ سُقُوفَها ... حتَّى يَكادَ نُضَارُها أن يَقْطُرا
لم يَبْقَ نَوْعٌ صامِتٌ أو ناطِقٌ ... إلا غَدَا فِيها الجَمِيعُ مُصَوَّرا
فيها حَدائقُ لم تَجُدْها دِيمَةٌ ... كَلَّا ولا نَبَتَتْ على وَجْهِ الثَّرى[٢]
لم يَبْدُ فيها الروضُ إلا مُزْهِرا ... والنَّخْلُ والرمَّانُ إلا مُثْمِرا
والطَّيْرُ مُذْ وقعَتْ على أغصانِها ... وثِمَارِها، لم تَسْتَطِعْ أن تَنْفرا
وبها مِنَ الحَيوانِ كُلُّ مُشَبَّهٍ ... لَبِس الحريرَ العَبْقَرِيَّ مُصَوَّرا[٣]
لا تَعْدَمُ الأبصارُ بين مُرُوجِها ... لَيْثًا ولا ظَبْيًا بوَجْرَةَ أعْفَرا[٤]
أَنِسَتْ نوافِرُ وَحْشِها لِسِبَاعِها ... فظِبَاؤُها لا تَتَّقِي أُسْدَ الشَّرى[٥]
وكأنَّ صولَتَك المُخِيفَةَ أمَّنَتْ ... أسْرابَها أن لا تَخَاف فتُذْعَرا[٦]
وبِها زَرَافاتٌ كأنَّ رِقَابَها ... في الطُّول ألْويَةٌ تَؤُمُّ العَسْكَرا[٧]
نُوبِيَّةُ المَنْشَا تُرِيكَ من المَهَا ... رَوْقًا، ومن بُزْلِ المَهارِي مِشْفَرا[٨]
جُبِلَتْ على الإقْعاءِ من أعْجازِها ... فتَخالُها في التِّيهِ تَمْشِي القَهْقَرى![٩]

---

(١) المسيّر: المحزّز وكأنه سير من السّيور المستطيلة، والمسهّم: من السّهام والمدرهم والمدنّر: أي الذي هو على شاكلة الدّرهم والدّينار، وهما عادة من الفضّة والذّهب.

(٢) الديمة: المطر يطول زمانه في سكون.

(٣) العبقري: نسبة إلى عبقر، وهي أرض كان يسكنها الجن، يقال في المثل: كأنّهم جنّ عبقر، وقيل: إن عبقرًا كان يوشّى فيه البُسط وغيرها، وقال الفرّاء: العبقري: الطنافس الثّخان، وقال مجاهد: العبقريّ: الدّيباج. «انظر معجم البلدان ٤/ ٧٩، ٨٠».

(٤) وجرة: موضع بين مكّة والبصرة، ليس فيها منزل فهي مربٌ للوحش، والأعفر: الظبي يعلو بياضه حمرة. «انظر معجم البلدن ٥/ ٣٦٢».

(٥) الشّرى: موضع تكثر فيه الأسود.

(٦) الصّولة: القوّة والبطش والهيبة، والأسراب: القطعان، مفردها سرب.

(٧) تؤم: تتقدّم، وأمّ المكان: قصده.

(٨) نوبيّة: نسبة إلى نوبة، وهي بلاد واسعة في جنوب مصر، ومدينة النوبة: اسمها دنقلة «انظر معجم البلدان ٥/ ٣٠٩»، والمها: البقرة الوحشية، والرّوق: القرن، والبازل: الذي طلعت نابه من الإبل، والمهاري: المنسوبة إلى مهرة: وهي بلاد تنسب إليها الإبل المهريّة، وهي مهرة بن حيران ابن قضاعة قبيلة باليمن، «انظر معجم البلدان ٥/ ٢٣٤»، والمشفر: شفة الجمل.

(٩) الإقعاء: الجلوس على الألية ونصب الساقين والفخذين، والتيه: التكبّر، أو الأرض الواسعة، والقهقرى: الرّجوع إلى الوراء.

وقال أبو الصلت أُميَّة بن عبد العزيز، يصف قصرًا بناه عليّ بن تميم بن المعزّ بمصر:

لِلَّهِ، مَجْلِسُكَ المُنِيفُ! فَبَابُهُ ... بِمُوطَّدٍ فَوْقَ السِّماكِ مُؤَسَّسِ(١)

مُوفٍ على حُبُكِ المَجَرّة تَلْتَقِي ... فيه الجَوارِي بالجَوَارِ الكُنَّسِ(٢)

تَتَقَابَلُ الأنوارُ في جَنَباتِهِ ... فاللَّيْلُ فيه كالنَّهارِ المُشْمِسِ

عُطِفَتْ حَنَاياه دُوَيْنَ سَمائِهِ ... عَطْفَ الأهِلَّةِ والحَواجِبِ والقِسِي(٣)

واستَشْرَفَتْ عَمَدُ الرُّخَامِ وظُوهِرَتْ ... بأجَلَّ من زَهْرِ الرَّبِيعِ وأنْفَسِ

فهَواؤُه من كُلِّ قَدٍّ أهْيَفٍ ... وقَرَارُه من كُلِّ خَدٍّ أمْلَسِ(٤)

فَلَكٌ تَحَيَّرَ فِيهِ كُلُّ مُنَجِّمٍ ... وأقَرَّ بالتقصيرِ كُلُّ مُهَنْدِسِ

فَبَدا لِلَحْظِ العَيْنِ أحْسَنَ مَنْظَرًا ... وغَدَا لِطِيبِ العَيْشِ خَيْرَ مُعَرَّسِ(٥)

فاطْلُعْ به قَمَرًا، إذا ما أطْلَعَتْ ... شمسُ الخُدورِ عليك شَمْسَ الأكْؤُسِ

فالناسُ أجْمَعُ دُونَ قَدْرِك رُتْبَةً ... والأرضُ أجمَعُ دُونَ هذا المَجْلِسِ!

وقال الوزير أبو سليمان بن أبي أُميَّة: [من مجزوء الكامل]

يا دارُ، آمَنَكِ الزَّما ... نُ خُطُوبَه ونَوائِبَهْ(٦)

وجَرَتْ سُعُودُكِ بالَّذِي ... يَهْوي نَزِيلُكِ دائِبَهْ(٧)

فلَنِعْمَ مَأْوى الضَّيْفِ أنْـ ... ـتِ، إذا تَحَامَوْا جانِبَهْ

خَطَرٌ شَأَوْتِ به الدِّيَا ... رَ، فأذْعَنَتْ لَكِ قاطِبَهْ(٨)

---

(١) المنيف: العالي المشرف، الموطّد: المثبّت والمقوّي، والسّماك: نجمان في السّماء، شمالًا وجنوبًا، تقدّم ذكرهما.

(٢) موفٍ: مشرفٍ، أوفى على المكان: أشرف عليه، والمجرّة: نجوم بعيدة في السّماء يلتحم نورها فيشكل طريقًا أبيض، والجواري: جمع جارية؛ وهي: الفتاة، والجوار الكنّس: ورد في القرآن الكريم: فلا أقسم بالخنّس الجوار الكنّس، قال الزّجّاج: الكنّس النجوم تطلع جارية، وكنوسها أن تغيب في مغاربها التي تغيب فيها. «اللّسان مادة: كنس»

(٣) عُطفت: أميلت، والحنايا: الأظلع، أو كل ما فيه اعوجاج من البدن، والأهلّة: جمع هلال، وهو القمر في لياليه الأولى، والقسي: جمع قوس.

(٤) القدّ الأهيف: الذي دق خصره وضمر بطنه، والقرار: المستقرّ.

(٥) المعرّس: مكان التعريس، وهو الإقامة والنزول ليلًا للرّاحة.

(٦) أمنك الزّمان: أي جنبك، والخطوب: الأمور المكروهة، والنّوائب: المصائب.

(٧) النزيل: القاطن، والدّائب: الدائم.

(٨) الشأو: السبق، والخطر: ارتفاع القدر والرتبة والشّرف، وأذعنت: خضعت، وقاطبة: عامّة.

وقال أبو صخر القرطبيّ: [من الطويل]

دِيارٌ علَيْها من بَشاشَةِ أهلِهَا ... بَقَايَا، تَسُرّ النَّفْسَ أُنْسًا ومَنْظَرا[١]

رُبُوعٌ كَساها المُزْنُ من خِلَع الحَيَا ... بُرُودًا، وحَلَّاها من النَّوْرِ جَوْهَرا[٢]

وقال الشريف الرضيّ: [من الكامل]

ما زلْتُ أطَّرقُ المَنَازِلَ باللِّوى ... حتَّى نزَلْتُ مَنَازِلَ النُّعمان[٣]

بالحِيرةِ البَيْضاءِ حيثُ تقابَلَتْ ... شُمُّ العِمادِ، عَرِيضَةُ الأعْطانِ[٤]

شهِدَتْ بفَضْلِ الرَّافِعينَ قِبابها ... ويَبِين بالبُنْيانِ فَضْلُ البانِي!

ما يَنْفَع الماضِينَ أنْ بَقِيَتْ لهم ... خِطَطٌ مُعَمَّرةٌ بعُمْرِ فانِي!

وأما ما وُصفت به المنازل الخالية

فمن ذلك ما قاله البحتريّ يشير إلى «الكِرْمان» الذي بناه كسرى أنو شروان من أبيات: [من الخفيف]

فَكأنَّ الكِرْمانَ من عَدَمِ الأُنْـ ... ـسِ وإخْلائِهِ بَنِيَّةُ رَمْسِ[٥]

لو تَراه، عَلِمْتَ أنَّ اللَّيالي ... خلَعَتْ فيه مَأْتَمًا بعد عُرْسِ

وهْوَ يُنْبِيك عن عَجائبِ قومٍ ... لا يُشَابُ البَيانُ فيها بلَبْسِ[٦]

وإذا ما رأيْتَ صُورَةَ أَنْطـ ... ـاكِيَةَ، ارتَعْتَ بَيْنَ رُومٍ وفُرْسِ[٧]

---

(١) البشاشة: حسن اللّقاء والترحيب، وبشّ وجهه: تهلّل وأشرق.

(٢) الحيا: الخصب والمطر، والنّور: الزّهر.

(٣) أطّرق: أجوب زائرًا، والطارق: الزّائر ليلًا، واللّوى: ما التوى وانعطف وانثنى من الرمل أو مسترقّه، والنعمان: هو النعمان بن امرىء القيس بن عمرو اللخمي، ملك الحيرة في الجاهلية من قبل الفرس، وكان شجاعًا فاتكًا كثير الغارات، داهية رفيع الذكر. «انظر فهرس الأعلام ٨/ ٣٥».

(٤) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النّجف، وكانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية من لخم النعمان وآبائه. «معجم البلدان ٢/ ٣٢٨».
وشمّ العماد: أي الأعمدة المرتفعة، والأعطان: مفردها عطن وهو مربض الغنم ومبرك الجمال حول الماء.

(٥) الرّمس: القبر الذي يستوي على وجه الأرض.

(٦) يشاب: يمزج ويخلط، واللّبس: الإبهام والغموض.

(٧) ارتعت: فزعت.

والـمَـنَـايَـا مـوائِلٌ وأنُـو شـ ـرْوانُ يُزجِي الصُّفُوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ![1]

وقال أيضًا من قصيدة يرثي فيها المتوكل، ويذكر قصره «الجعفريّ»: [الطويل]

مَـحَـلٌ عـلى الـقَـاطُـولِ أخْـلَقَ دارُهُ وعادَتْ صُروفُ الدّهْرِ جَيْشًا تُعاوِرُهْ[2]
كأنَّ الصَّبَا تُوفِي نُذُورًا، إذا انبَرَتْ تَـجُـرُّ بِـه أذيـالَهَـا وتُـبَـاكِـرُهْ[3]
ورُبَّ زَمـانٍ نـاعِـمٍ تَـمَّ عَـهْـدُه تَـرِقُّ حَـوَاشِـيـه ويـونـقُ نـاظِـرُهْ[4]
تـغَـيَّـر حُـسْـنُ «الـجَـعْـفَـرِيِّ» وأُنْـسُـه وقُوِّضَ بادِي «الجَعْفَرِيِّ» وحاضِرُهْ[5]
تـحَـمَّـل عـنـه سـاكـنُـوه فُـجـاءَةً فـعـادَتْ سَـواءً دُورُه ومَـقَـابِـرُهْ
إذا نَـحْـنُ زُرْنـاه، أَجَـدّ لـنـا الأَسـى وقَـدْ كـان قَـبْـل الـيَـوْمِ يُـبْـهَـجُ زائِرُهْ
ولـم أَنْسَ وَحْشَ القَصْرِ إذ رِيعَ سِرْبُهُ وإذْ ذُعِـرَتْ أطْـلاؤُه وجَـآذِرُهْ[6]
وإذْ صِيحَ فيه بالرَّحِيلِ فهُتِّكَتْ عـلى عَـجَـلٍ أسـتَـارُه وسَـرَائِرُه
وأوْحَشَه حتَّى كأنْ لم يَكُنْ به أنِيسٌ، ولم تَحْسُنْ لعين مناظِرُهْ
كأنْ لم تَبِتْ فيه الخِلافَةُ طَلْقَةً بشَاشَتُها، والمُلْكُ يُشْرِق زاهِرُهْ
ولـم تَـجْـمَـعِ الـدُّنْـيا إلَيْهِ بَـهَـاءَهـا وبَهْجتَها، والعَيْشُ غَضٌّ مَكَاسِرُهْ[7]
فأيْنَ الحِجابُ الصَّعْبُ حيث تمنَّعتْ بـهَـيْـبَـتِـهـا أبـوابُـهُ وسَـتَـائِرُهْ؟
وأيْنَ عَمُودُ المُلْكِ في كُلِّ نَوبَةٍ تَنُوبُ، وناهِي الدّهْر فيه وآمِرُهْ!

---

(١) المنايا: الحتوف، وموائل: قائمه بادية، وأنوشروان: هو كسرى ملك الفرس، ويسمّى الملك العادل، وفي آخر أيّامه ولد النبيُّ ﷺ، وهو الذي قتل مزدك الزّنديق، وغلب على اليمن وانتزعها من الحبشة. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٤١٣».
ويزجي: يحثّ ويتقدّم، والدّرفس: الرّاية الكبيرة.

(٢) القاطول: نهر مشهورٌ معروف، والقاطول: موضع على دجلة «اللّسان مادة قطل»، وأخلق: درس، وصروف الدّهر: غِيَرُه وأحداثه، وتعاوره: تتداوله وتعرّضه للهلاك والتّلف.

(٣) الصّبا: الريح الباردة، والنذور: جمع نذر، وهو: ما يقطعه الإنسان على نفسه من نذر لقاء حاجة.

(٤) يونق: يعجب.

(٥) قوّض: هدّم، والبادي: الماضي.

(٦) ريع: من الروع وهو: الخوف والذّعر، والسّرب: القطيع، والأطلاء: مفردها: الطّلا وهو: ولد الغزال، والجآذر: مفردها جؤذر وهو: ولد البقرة الوحشيّة.

(٧) الغضّ: الناعم الطري، وغضٌّ مكاسرهُ: يريد أن العيش كان مواتيًا وسمحًا.

وقال عمر بن أبي ربيعة: [من السّريع]

يـا دارُ، أمْـسـى دارِسًـا رَسْـمُـهـا وَحْـشًـا قِـفـارًا مـا بـهـا آهـل؟
قـد جَـرّتِ الـرِّيـحُ بـهـا ذَيْـلَهـا واسـتَـنَّ فـي أطْـلالـهـا الـوابِـلُ[١]

وقال شاعر أندلسيّ: [من الخفيف]

قُـلْتُ يـومًـا لـدارِ قـوم تـفـانَـوْا أيْـنَ سُـكّـانُـكِ الـكِـرامُ لَدَيْـنـا؟
فـأجـابَـتْ: هـنـا أقـامُـوا قـلِيـلًا ثـم سـارُوا، ولَسْـتُ أعـلَمُ أيْـنَـا!

وقال عبد الله بن الخياط الأندلسيّ: [من البسيط]

يا دارَ عَلْوةَ، قد هَيَّجت لي شَجَنًا وزدْتِني حَزَنًا! حُيِّيتِ من دَارِ[٢]!
كَمْ بِتُّ فِيك على اللّذّاتِ مُعْتَكِفًا والـلّيْلُ مُدَّرِعٌ ثَـوْبًا من الـقَارِ[٣]
كأنَّهُ راهِبٌ في المِسْحِ مُلتَحِفٌ شَـدّ الـمِـجَـرُّ لـه وَسْـطًـا بـزُنّـار!

وقال أبو حامد أحمد الأنطاكيّ: [من الخفيف]

إنَّ رَبْـعًـا عـرَفْـتُـه مـألُوفًـا كـان لـلبِـيـض مَـرْبَـعًـا ومَـصيفًـا[٤]
غَـيَّـرتْ آيَـهُ صُـروفُ الـلَّيـالـي وغَـدَا عـنـه حُـسْـنُـه مَـصْـروفًـا[٥]
مـا مـرَرْنـا عـلـيـه، إلّا وَقَـفْـنـا وأطَـلْـنَـا شَـوْقًـا إلـيـه الـوُقُـوفـا
آلِفًـا لـلبُـكـاءِ فـيـه، كـأنّـي لـم أكُـنْ فـيـه لـلغَـوانِـي ألِيـفًـا
حـاسِـدًا لـلجُـفُـونِ لَمّـا أذالَتْ في مَغانِيهِ دَمْعها المَذْرُوفا![٦]

وقال الشريف الرضيّ من أبيات: [من الكامل]

ولـقـد رَأيْـتُ بِـدَيْـرِ هِـنْـدٍ مَـنْـزِلًا أَلِمًـا مـن الـضَّـرّاءِ والـحَـدَثـانِ![٧]

---

(١) استنّ: سال وجرى وانصبّ، والأطلال: مفردها الطّلل: وهو الشّاخص من آثار الدّار وبقاياها، والوابل: المطر.
(٢) هيَّجَتْ أشجانه: أثارت مواجده وحزنه.
(٣) المدّرع: الذي يلبس الدّرع، وادّرع الليل: دخل في ظلمته، والقار: الزفت.
(٤) البيض: يريد: النساء، أو الأفعال، والمربع والمصيف: الإقامة ربيعًا وصيفًا.
(٥) آيَهُ: علاماته، وصروف الليالي: أحداثه، والمصروف: المبتعد المطرود.
(٦) أذالت دمعها: أرسلته.
(٧) الحدثان: من الدهر: نوائبه وحوادثه، ودير هند: من قرى دمشق، قال ابن أبي العجائز وهو يذكر من كان من بني أميّة بدمشق يسكن بدير هند من إقليم بيت الآبار. «انظر معجم البلدان ٢/٥٤٣».

بـالِي الـمَـعَـالِم، أطْـرَقَـتْ شُـرُفـاتُـه	إطْراقَ مُنجذِبِ القَرينة عانِي[1]
أمَـقَـاصِـرَ الـغِـزْلان، غَـيَّـرَكِ الـبِـلى	حتَّى غَدَوْتِ مَرَاتِعَ الغِزْلانِ![2]
ومَلَاعِبَ الإنْسِ الجَميع طوى الرَّدى	مِنْهم، فَصِرْتِ مَلَاعِبَ الجِنَّانِ![3]

وقال أبو الحسن عليّ القابوسيّ نثرًا:

«قد كان منزِلهُ مَألَف الأضياف، ومَأنَس الأشراف؛ ومُنتَجَع الرَّكْب، ومقصد الوَفْد؛ فاستبْدَل بالأُنْس وَحْشه، وبالنَّضَارة غُبْره، وبالضِّياء ظُلْمه،؛ واعتاض من تزاحم المواكب، بالأدم[4] النَّوادِب؛ ومن ضجيج النِّداء والصَّهيل، عجيجَ البكاء والعويل».

ومن رسالة لضياء الدين بن الأثير الجزريّ، جاء منها:

«... دارٌ لَعِبت بها أيدي الزمن، وفرّقت بين الساكن والسَّكَن. كانت مقاصيرَ جَنَّة، فأضحت وهي ملاعب جِنَّة. ولقد عَمِيَتْ أخبار قُطَّانها، وعَفَّت[5] آثارُها آثارَ وُطَّانها، حتى شابهت إحداهما في الجفا، الأخرى في العفا. وكنت أظن أنها لا تُسْقي بعدهم بغمام، ولا يُرفَع عنها جلْبابُ ظلام، غير أن السحاب بَكَاهم وأجرى بها سوافِحَ دموعه، والليل شقَّ عليهم جُيوبَه فظهر الصَّباح من خلال صُدُوعه»[6].

ومما قيل في حب الأوطان

قال ابن الروميّ (وهو أوّل من بَيَّن السبب في حبّ الوطن): [من الطويل]

ولِي مَـنْـزِلٌ آلَيْـتُ أن لا أبِـيـعَـهُ	وأن لا أرى غَيْرِي له الدّهْرَ مَالِكَا!
عَـهِدتُ به شَرْخَ الشَّباب ونِعْمةً	كنِعْمة قوم أصبَحُوا في ظلالِكَا[7]
فـقـد أَلِفَـتْـه الـنـفـسُ حـتَّـى كـأنَّـهُ	لها جَسَدٌ، إن غاب غُودِرْتُ هالِكا

(١) القرينة: القيد، والعاني: الأسير.
(٢) المقاصر: مفردها مقصورة، وهي حجرة للمرأة تصونها وتخصّها، والغزلان الأولى: يريد بها النّساء، ومراتع الغزلان: أي أماكن للغزلان ترتع فيها وترعى بعد أن أصبحت قفرًا.
(٣) الرّدى: الموت والهلاك، والجنّان: يريد الجن التي يقال إنّها: تسكن الخرائب والقفار.
(٤) الأدم: مفردها أدماء، وهي التي اشتدت سُمرتها.
(٥) عفّت: درست، والوطّان: السكان.
(٦) الصدوع: الشقوق التي تظهر في البيت إذا تصدّع.
(٧) شرخ الشباب: أوّله وأفضله.

وحَبَّب أوطانَ الرِّجالِ إلَيهِمُ مآربُ قَضَّاها الشَّبابُ هُنالِكا
إذا ذَكَرُوا أوطانَهُمْ ذكَّرَتْهُمُ عُهودَ الصِّبا فيها فَحَنُّوا لذلِكا!

ذكر شيء مما قيل في الحَمَّام

قال إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ: [من السريع]

أهْلًا ببَيْتِ النارِ من مَنْزِلِ شِيدَ لِأبْرارٍ وفُجّارِ![1]
يدخُلُهُ ملتَمِسٌ لَذَّةً فيدخُلُ الجنةَ في النارِ!

وقال أبو عامر بن شهيد الأندلسيّ[2]: [من المنسرح]

إنْعَمْ، أبَا عامرٍ بِلَذَّتِه واعْجَبْ لأمرَيْنِ فيه قد جُمِعا!
نيرانُهُ من زِنادِكُمْ قُدِحَتْ وماؤه من بَنانِكُمْ نَبَعا![3]

وقال عليّ بن عطية البَلَنْسِيّ[4]: [من مجزوء الرّمل]

رُبَّ حَمَّامٍ تَلَظَّى كتَلَظِّي كُلِّ وامِقْ[5]
ثم أذْرَتْ عَبَراتٌ صوبُها بالوجْدِ ناطِقْ[6]
فغَدَا مِنِّي ومنه عاشِقٌ في جَوْفِ عاشِقْ!

وقال أبو طالب المأمونيّ[7]، شاعر اليتيمة: [من الطويل]

وبيتٍ كأحشاءِ المُحِبِّ دخَلْتُه وما لِي ثِيابٌ فيه غيْرُ إهابِي[8]

---

(١) الأبرار: الأخيار الفضلاء الأتقياء، والفجّار: الكفرة.
(٢) هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شُهَيْد، أبو عامر الأشجعي، وزير، من كبار الأندلسيين علمًا وأدبًا له شعر جيّد، مولده ووفاته بقرطبة سنة ١٠٣٥ م. «فهرس الأعلام ١/ ١٦٣».
(٣) الزّند: العود الذي تقدح به النار، والبنان: الأصابع أو أطرافها.
(٤) هو علي بن عطيّة بن مطرّف، أبو الحسن اللخمي البلنسي، ويعرف بابن الزّقاق، شاعر، له غزلٌ رقيق ومدائح اشتهر بها عاش أقلّ من أربعين سنة ومات سنة ١١٣٤ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٣١٢».
(٥) الوامق: المحبّ.
(٦) أذرت عبرات: انصبّت دموع، والصوب: المطر المتصبّب، والوجد: شدّة العشق والشوق.
(٧) هو أبو طالب عبد السّلام بن حسين المأموني، من أولاد الخليفة المأمون، شاعرٌ فيّاض الخاطر، بديع الصنعة مليح الصيغة. «انظر اليتيمة ٤/ ١٣٨ وما بعدها».
(٨) الإهاب: الجلد.

أُرى مُحْرِمًا فيه وليس بكَعْبةٍ ... فَمَا ساغَ إلّا فيه خَلْعُ ثيابِي(١)
بماءٍ كدَمْعِ الصَّبِّ في حرّ قَلْبِه ... إذا آذنَتْ أحْشَاؤه بذَهَابِ(٢)
توهَّمْتُ فيه قِطْعةً من جَهَنَّم ... ولكنَّها من غير مَسِّ عقابِ(٣)
يُثِيرُ ضَبابًا بالبُخَار مجلّلًا ... بُدور زُجاج في سَماءِ قِبَابِ!(٤)

وقال آخر: [من مجزوء الرّمل]

إنَّ حَمَّامَكَ هذا ... غيْرُ مَذْمُومِ الجِوارِ
ما رأيْنا قَبْلَ هذا ... جَنَّةً في وسْطِ نارِ!

وأنشدني جمال الدّين محمد بن الحكم(٥) لنفسه: [من الكامل]

قالوا: نَراكَ دخَلْتَ حَمَّامًا، وما ... حِلْفُ الهوَى يلتذُّ بالأهواءِ
فأجبْتُهم: لم تَكْفِ أدْمُعُ مُقْلتِي ... حتَّى بكَيْتُ بجُملة الأعضاءِ

تم السفر الأوّل

---

(١) المحرم: الذي دخل مكة يريد فريضة الحجّ.
(٢) آذنت بذهاب: أي كادت أن تتفطّر من شدّة العشق أو الشّوق.
(٣) توهّم: تخيّل، والمسّ: اللّمس؛ يريد أنّه رأى فيه لشدّة ناره نار جهنّم ولكن ذلك دون أن يقترف ذنبًا ليُعاقب عليه.
(٤) المجدّل: المضفّر.
(٥) لعلّه محمّد بن حكم الجذامي السرقسطي، أبو جعفر، عالم بالعربيّة والأدب وأصول الفقه، استقرّ بمدينة فاس، ومات بتلمسان سنة ١١٣٤ م. «فهرس الأعلام ١٠٨/٦».

فهرس المصادر
المستخدمة في التحقيق

١ ـ **القرآن الكريم**.

٢ ـ **التوراة**.

٣ ـ **إعجام الأعلام**، محمود مصطفى، دار الكتب العلمية.

٤ ـ **الأغاني**، لأبي الفرج الأصفهاني، دار الكتب العلمية.

٥ ـ **تاريخ الطبري**، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.

٦ ـ **تقويم البلدان**، لأبي الفداء «الملك المؤيّد».

٧ ـ **التنبيه والإشراف**، للمسعودي، ط مصر.

٨ ـ **ديوان أبي تمام**، دار صعب ـ بيروت.

٩ ـ **ديوان أبي فراس**، دار الفكر، عمان.

١٠ ـ **ديوان امرىء القيس**، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١١ ـ **ديوان الخنساء**، دار صادر ـ بيروت.

١٢ ـ **ديوان كشاجم**، محمود بن الحسين، دار صادر ـ بيروت.

١٣ ـ **ديوان النابغة الذبياني**، دار صادر ـ بيروت.

١٤ ـ **الذخيرة**، لابن بسّام، دار الثقافة ـ بيروت.

١٥ ـ **الشاهنامة**، للفردوسي.

١٦ ـ **شذرات الذّهب**، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

١٧ ـ **شرح القصائد المشهورات**، لأبي جعفر النحّاس، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٨ ـ **الشعر والشعراء**، لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٩ ـ **صبح الأعشى**، للقلقشندي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٠ ـ **عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء**، لأحمد بن القاسم «ابن أبي أصيبعة».

٢١ ـ **فقه اللغة**، للثعالبي، دار الكتب العلمية.

٢٢ ـ **الفلاحة الأندلسية**، لابن العوّام الاشبيلي «يحيىٰ بن محمد».

٢٣ ـ **فهرس الأعلام**، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين.

٢٤ ـ **قاموس الصّحاح**، للجوهري.

٢٥ ـ **القاموس المحيط**، للفيروزأبادي.

٢٦ ـ **الكاشف**، للإمام الذهبي، دار الكتب العلميّة.

٢٧ ـ **كتاب النّبات**، للأصمعي، ط بيروت ١٩٠٨.

٢٨ ـ **كتاب تحقيق ما للهند من مقولة**، للبيروني.

٢٩ ـ **لسان العرب**، لابن منظور.

٣٠ ـ **معجم الشعراء**، للمرزباني، دار الكتب العلمية.

٣١ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر ـ بيروت.

٣٢ ـ **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر.

٣٣ ـ **المستقصى في أمثال العرب**، للزمخشري، دار الكتب العلمية.

٣٤ ـ **مجمع الأمثال**، للميداني، دار الكتب العلمية.

٣٥ ـ **المسالك والممالك**، لابن حوقل.

٣٦ ـ **مسالك الممالك**، للإصطخري.

٣٧ ـ **المسالك والممالك**، لابن خرداذبة.

٣٨ ـ **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، لابن فضل الله العمري.

٣٩ ـ **المِلَل والنِّحَل**، للشهرستاني، دار الكتب العلمية.

٤٠ ـ **المواعظ والاعتبار في ممالك الأمصار**، والمعروف بـ «خطط المقريزي».

٤١ ـ **وفيات الأعيان**، لابن خلّكان.

٤٢ ـ **يتيمة الدّهر**، للثعالبي، دار الكتب العلمية.

فهرس المحتويات

الفن الأول

في السماء والآثار العُلويّة والأرض والمعـــالم السُّــفليّة

القسم الأوَّل

في السماء وما فيها

القسم الثاني
من الفن الأوّل في الآثار العلوية

القسم الثالث
من الفن الأول في الليالي والأيام، والشهور والأعوام، والفصول والمواسم والأعياد

القسم الرابع
من الفن الأوّل في الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون، والغُدْران

القسم الخامس
من الفن الأوّل في طبائع البلاد، وأخلاق سكانها، وخصائصها، والمَباني القديمة، والمَعَاقل، وما وُصِفت به القصورُ والمنازل